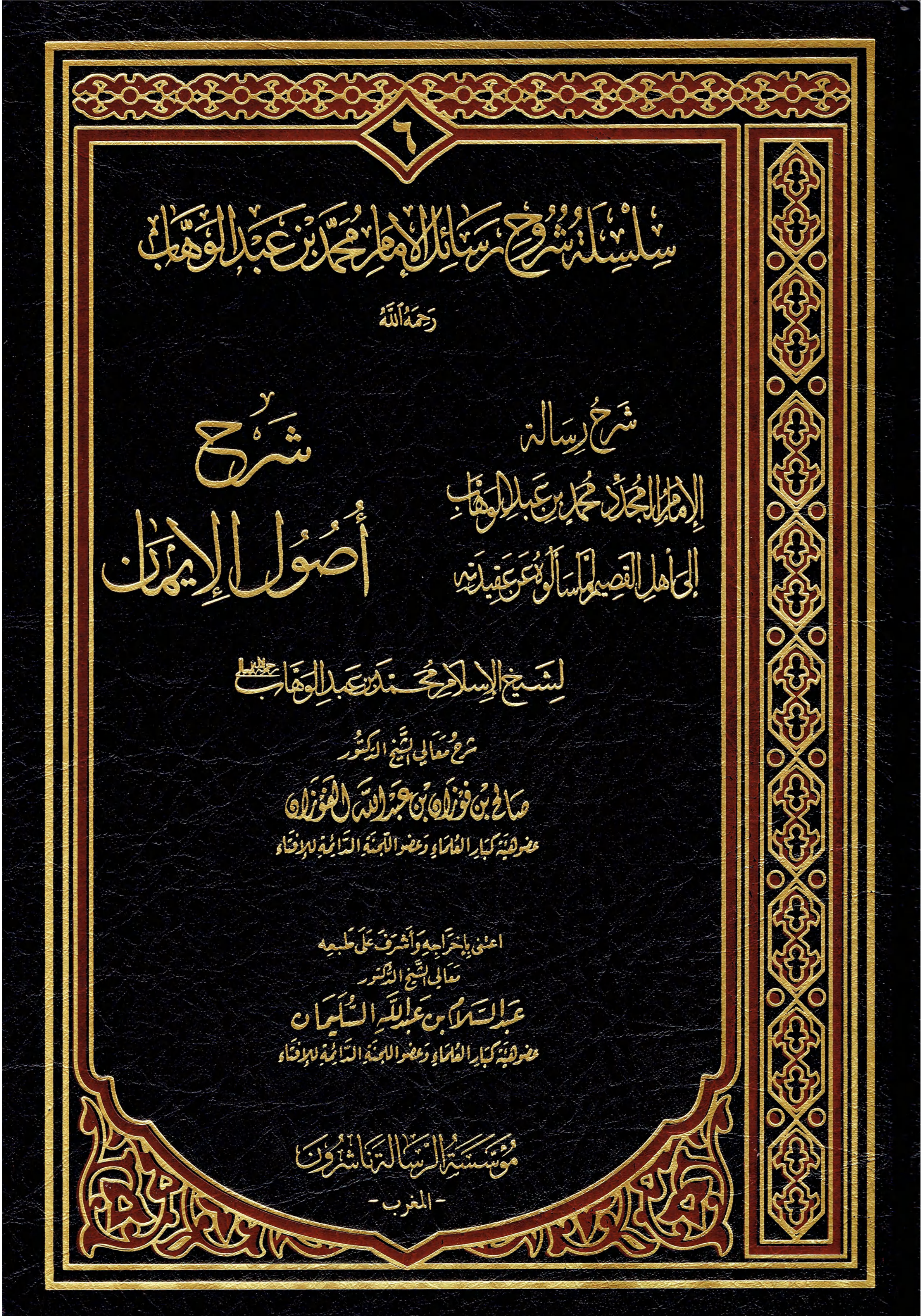
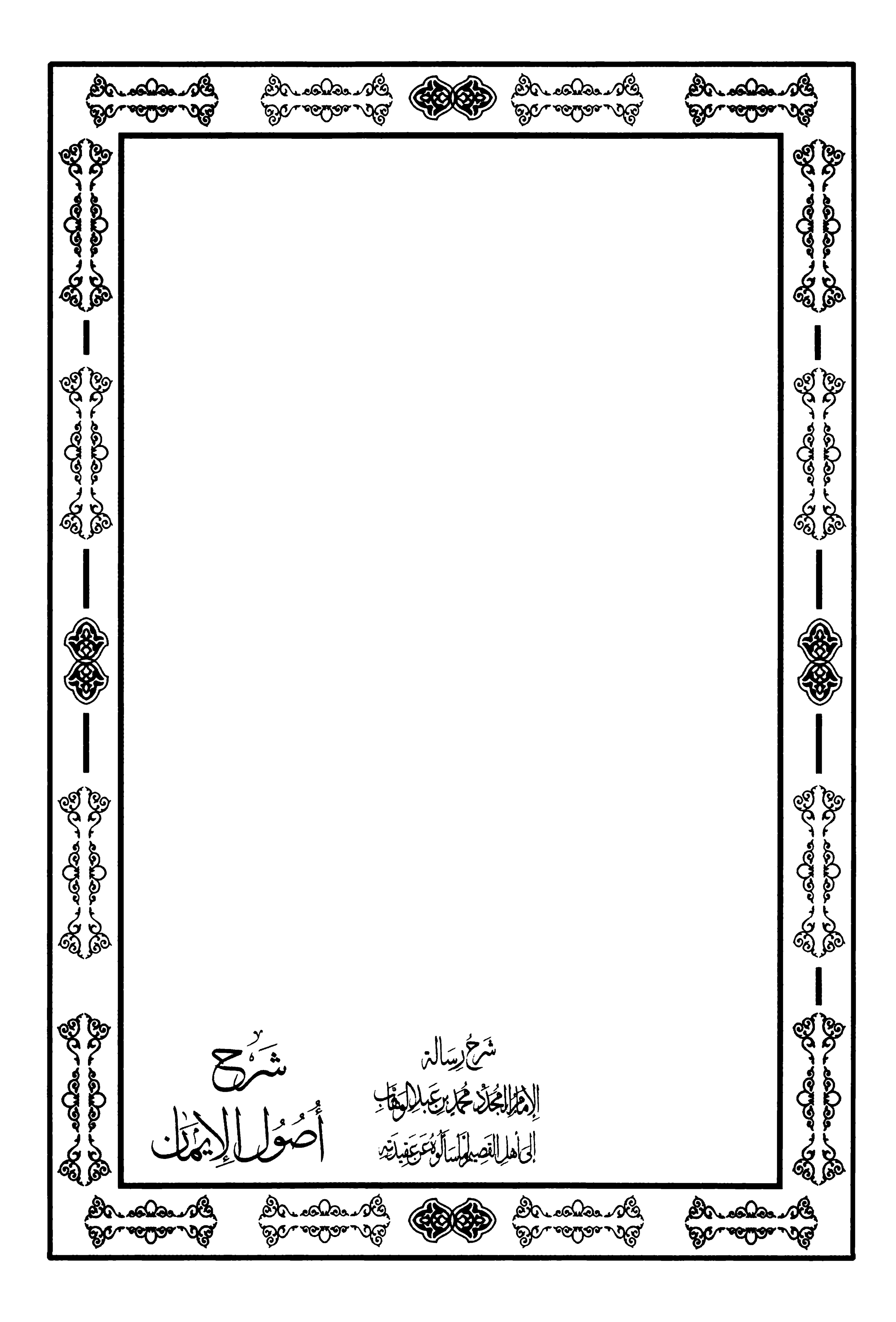

٦
سلسلة شروح رسائل الإمام محمد بن عبد الوهاب
رحمه الله
شرح رسالة
الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب
إلى أهل القصيم لما سألوه عن عقيدته
شرح
أصول الإيمان
لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله
شرح معالي الشيخ الدكتور
صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء
اعتنى بإخراجه وأشرف على طبعه
معالي الشيخ الدكتور
عبد السلام بن عبد الله السليمان
عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء
مؤسسة الرسالة ناشرون
- المغرب -


شرح
أصول الإيمان
شرح رسالة
الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب
إلى أهل القصيم لما سألوه عن عقيدته



الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

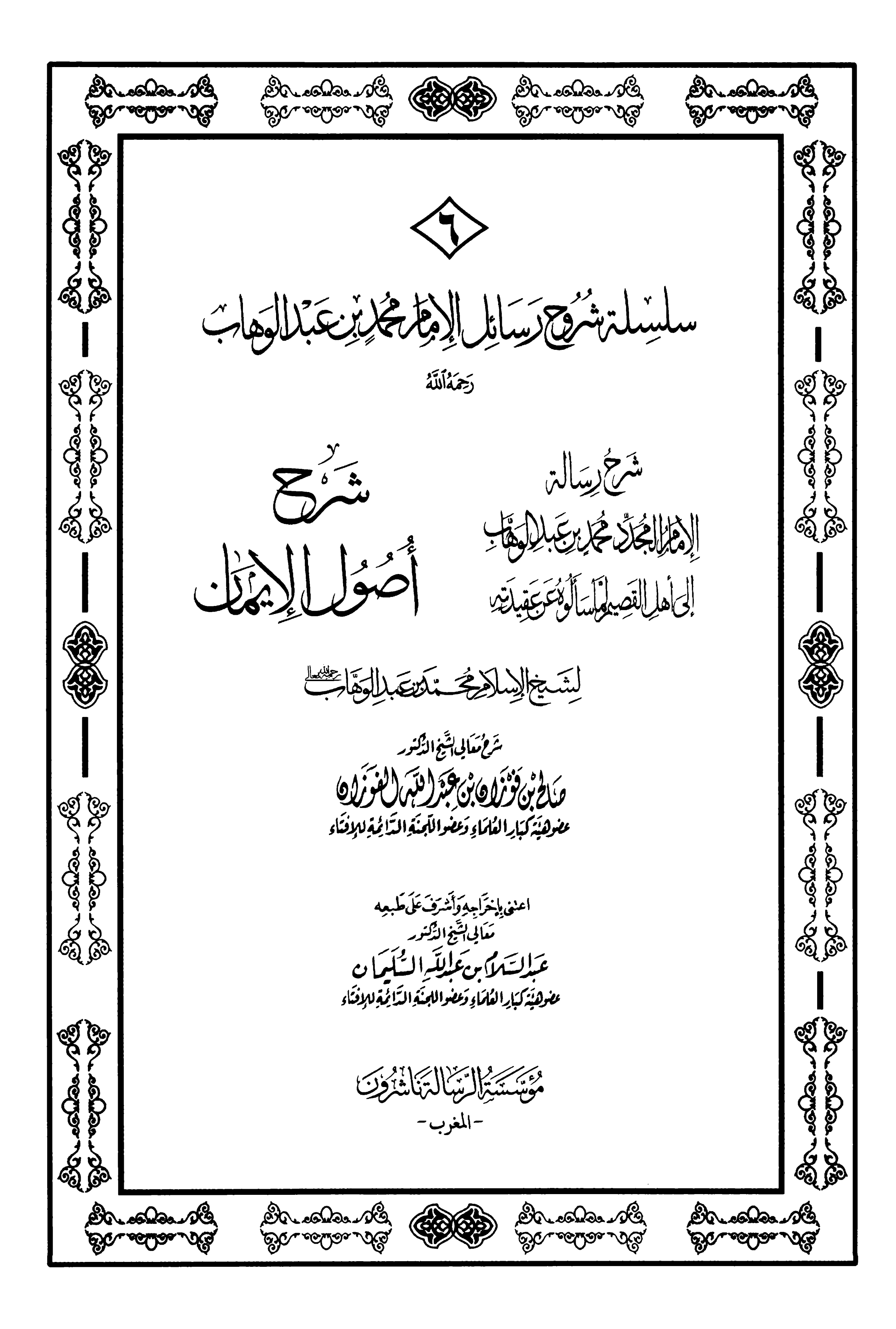
Dépôt légal : 2020MO4597
ISBN: 978-9920-9037-4-5

دار المأثور للطباعة والنشر والتوزيع

المدينة المنورة: أمام البوابة الجموعية للجامعة الإسلامية - هاتف: ٠١٤٨٤٥٣٨٠٠
الرياض: ص ب : ٢٤٠٦٣٥ - الرمز البريدي : ١١٣٢٢ - جوال : ٠٥٦٦٦٠١٦٢٧
هاتف : ٠١١٤٢٥٣٨٨٣ - فاكس : ٠١١٢٧٧٣٧٩
القاهرة : جوال : ٠١١١٢٣٧١٢٨٠ - www.daralmathour.com

مؤسسة الرسالة ناشرون
- المغرب -

الدار البيضاء _ المغرب
26 شارع ادريس الحريزي
طابق 3 الرقم 6
جوال : 00212630216055
Errissala.nachiroun@gmail.com



٦

سلسلة شروح رسائل الإمام محمد بن عبد الوهاب

رحمه الله

شرح أصول الإيمان

شرح رسالة

الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب

إلى أهل القصيم لما سألوه عن عقيدته

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى

شرح معالي الشيخ الدكتور

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

اعتنى بإخراجه وأشرف على طبعه

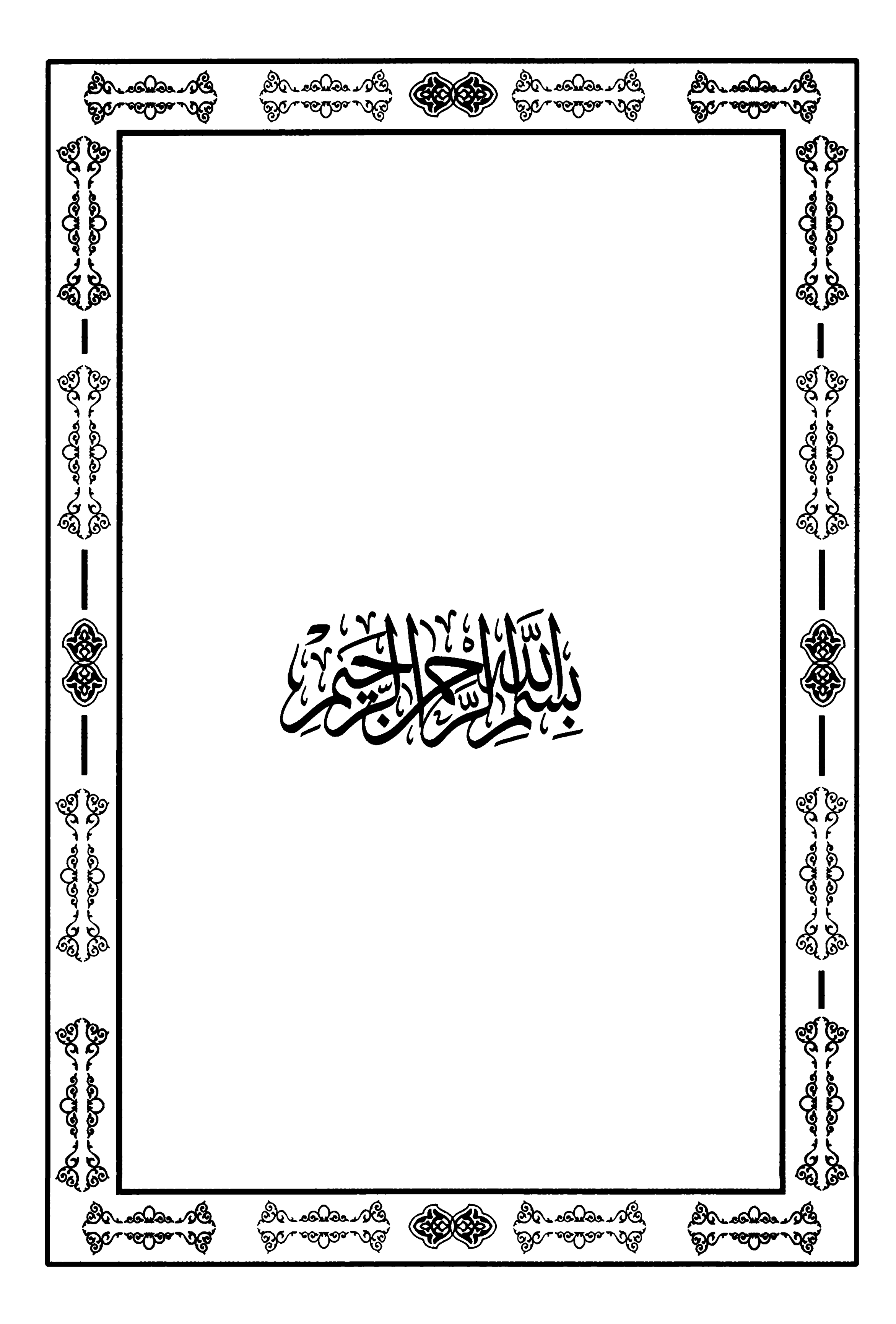
معالي الشيخ الدكتور

عبد السلام بن عبد الله السليمان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

مؤسسة الرسالة ناشرون

- المغرب -


بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة شروح رسائل الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

شرح رسالة
الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب
إلى أهل القصيم لما سألوه عن عقيدته

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى

شرح معالي الشيخ الدكتور

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

اعتنى بإخراجه وأشرف على طبعه
معالي الشيخ الدكتور

عبد السلام بن عبد الله السليمان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء



مقدمة الطبعة الأولى

الحمدُ للهِ الذي يقذفُ بالحقِّ على الباطل فيدمَغُه فإذا هو زاهقٌ، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّنا محمدٍ الذي جاء ببيان الهُدَى وإيضاحِ الحقائق، وعلى آلِه وأصحابِه نجومِ الهُدَى، وغيظ كل كافر ومنافق.

أما بعدُ: فإنَّه لمَّا أشرقتْ دعوةُ التوحيدِ -ولله الحمد- في هذه البلادِ على يد الإمام المُجَدِّد: محمدِ بنِ عبدِ الوهّابِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وانقشعَتْ غُيومُ الشركِ والبِدع، لم يَرُقْ ذلك لأعداءِ الدِّينِ من الكفارِ والمنافقين والمبتدعةِ والخرافيين، شأنُهم مع دعوةِ الرُّسلِ في كلِّ زمانٍ ومكان، فراحوا يَزجُّون التُّهم، ويفتَرون الكذبَ على هذا الإمام وعلى دعوتِه، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، حتى إنهم شكّكوا في عقيدة الشيخِ ونواياه إبقاءً على عقائدِهم الباطلةِ ونواياهم القبيحة.

فجاءتْ إلى الشيخ من أهالي القَصيم رسالةٌ يسألونَه فيها عن عقيدتِه، فأجابهم برسالةِ صحابَتِه، وسار عليها أهلُ السُّنةِ والجماعة.

وكنتُ قد ألقيتُ دروسًا في شرح هذه الرسالةِ سجَّلها الحاضرون من الطَّلبة جزاهم اللهُ خيرًا، وطلبوا مني المُوافقةَ على نشرها، فأذِنتُ لهم بذلك لعلَّ من قرأها يجِدُ فيها فائدة، أو يُنبّهني على خطأ، وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبيّنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِه.

كتبه

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

في ٧/ ٢/ ١٤٢٦ هـ

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

المقدمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

أما بعدُ:

فإن المسلمينَ في عصرِ الصحابةِ والتابعين كانت عقيدتُهم معروفةً معلومة، هي ما جاء في كتاب اللهِ وسُنَّة رسولِ اللهِ ﷺ وما تركهم عليه رسولُ الله ﷺ.

كانت العقيدةُ معروفةً في عصر الصحابةِ والتابعين والقرونِ المفضلة، القرونِ الأربعة، وإن كان دخل في آخِر هذه القرونِ شيءٌ من الاختلافِ وظهورِ الفِرَق، كالخوارجِ والقَدَرِيَّة والشيعة، لكن كان الدينُ قويًّا وكان الإسلامُ عزيزًا، وكان أهلُ الشّرِّ يختَفون ولا يُظْهِرون شرَّهم، فلما انقضت القرونُ المفضلة ظهرتْ الشرورُ وجاهرَ أهلُ الضلالِ بضلالِهم، من جَهْمية ومعتزَلة وباطِنية وشِيعة، وغيرِهم من الفِرَق الضّالّة، كالصُّوفية والقُبُورية والنِّحَل الباطلة، ولكن كان الإسلامُ أيضًا قويًا في عصر الدولةِ الأموية، وكان العلماءُ لهم جهدَهم ومكانتَهم، وكانوا يُقاوِمون هذه الأفكار، فكان الزنادقةُ يُقتَلون في عهدِ الدولةِ الأموية؛ كما قُتل الجَعْدُ بنُ دِرهم وغيرُه لمَّا جاهروا بزَندقتِهم.

ثم جاءتْ دولةُ بني العباسِ وكان أيضًا فيها قوة، في أولِّ الدولة قوة وللإسلامِ هيبة، والعلماءُ لهم مكانة، وكان الأشرارُ لا يتمكنون من إظهارِ شرِّهم بحُرِّيَّة، فلما جاء آخرُ دولةِ بني العباس جاء المأمونُ العباسي ابنُ هارون الرشيد، الذي خرج على أخيه الأمين وقتله وحاز السلطة، وكان رجلًا قويًّا وذكيًّا أيضًا وعالمًا، ولكن داخَلَه أهلُ

الضلال، واتخذ منهم بطانةً وصاروا مِن حولِه؛ كابن أبي دُؤَاد، وبِشْر المريسي، فاستمالوه إلى ضلالِهم وعقيدتِهم، فتأثر بهم، وزيَّنوا له ترجمةَ الكتبِ الأجنبية، وأنشأ دارًا للترجمة سموها دارَ الحكمة، وهي دارُ النِّقمة، وترجموا الكتبَ الرُّومية بما فيها من ضلالٍ وشر، فجاءت العقائدُ الضالةُ من هذا الطريقِ لمَّا تُرجمت هذه الكتب؛ كما ذكر تقيُّ الدينِ رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لمَّا تُرجِمتْ الكتبُ الروميةُ زاد الشر.

وفي النهايةِ أقنعوه بالقولِ بخَلْقِ القرآنِ وأنه هو الحق، فاقتنع بذلك، مسكوا قياده مع قوتِه وصلابته، فأهلُ الشرِّ لا يُتهاون بهم أبدًا، والواجبُ إبعادُهم عن الساحة، وإلا فإنهم يَدُسُّون شرَّهم، ويضعُفُ معهم القوي.

فاقتنع المأمون بُقولِهم، وأراد حمْلَ الناسِ على القولِ بخَلْقِ القرآنِ والعياذُ بالله، كلام اللهِ عَزَّوَجَلَّ المصدرُ الأولُ للشريعةِ أرادوا أن يجتثُّوه من الأمَّة، فيقولون: إنَّ القرآنَ مخلوقٌ وليس هو كلامُ الله. فاقتنع بهذا الرأي.

ولكن وقفَ الأئمةُ وفي مقدمتِهم الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ، وقفوا ضدَّ هذه الفكرةِ الضالَة موقفًا حازمًا وأَبَوْا أن يقولوا بخلقِ القرآن، وعُذِّب منهم من عُذِّب؛ كالإمامِ أحمد، وقُتل منهم من قُتل، ولكنهم صبروا ووقفوا في وجهِ المعتزلة، فَثَبَّتَ اللهُ بهم الدين، وَثَبَّتَ بهم العقيدةَ الصحيحة، ودَحَر أهلَ الشرّ.

وتوالى بعد المأمونِ أخوه المعتصمُ بن هُارونَ الرشيد، ثم الواثقُ بنُ المأمون، أخذوا هذا المنهجَ وأرادوا حملَ الناسِ على القولِ بخَلْقِ القرآن، وكلُّهم عَذَّبوا الإمامَ أحمدَ وضربوه، ولكنه لم يُعطِهم كلمةً

واحدة، بل يقول: القرآنُ كلامُ الله. وإذا قالوا له؛ قال: هاتوا لي من القرآنِ أو من السنَّة دليلًا على قولِكم، فيعودون عليه بالضرب، ويُغمى عليه رَحِمَهُ اللَّهُ، ولكنه أبى، حتى إنه سالتْ دماؤه رَحِمَهُ اللَّهُ من الضرب، وغاب فكرُه من شدةِ الضرب، وصمد إلى أن جاء عصرُ المتوكلِ بنِ هارونَ الرشيد، فَخَلَّصَ اللهُ به أهلَ السنَّةِ ونصرَ الحق، وقمَعَ أهل البدع، ثم قُتِلَ المتوكل، اغتالَه أهلُ الشرّ.

وما زال الأمرُ في ضعفٍ إلى أن جاء آخرُ خلفاءِ بني العباس واستوزرَ الشيعة، وهم أخبثُ من الجهمية، فاستوزر ابنَ العَلْقَمي، ونصيرَ الكفرِ الطوسي، فجرُّوا عليه التتارَ المغولَ من المشرقِ الذين غزوا بلادَ المسلمين واجتاحوها وقتلوا الخليفة، وأخذوا الكتبَ الإسلامية وَألقوها في نهرِ دجلة، وقتلوا من المسلمين مئاتَ الألوف، واجتاحوا بلادَ المسلمين، وكان المسلمون يقاومونَهُم في كل بلد، وفي النهاية خذل اللهُ التتارَ، ومنهم من أسلم.

وبقيَ الإسلامُ - ولله الحمد - قويًّا عزيزًا، ويقبض اللهُ له من ينصرُه ويحميه ويدافعُ عنه، ظهر شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية في وقت مُدْلَهِمّ، الفِرَق تتجاذبُ الناس: صُوفية، وجَهمية، ومعتزلة، وقُبورية، وشيعة، يعيش العالمُ الإسلامي في أمواجٍ من الفتن، وفي هذه الأثناءِ ظهر شيخُ الإسلام ابنُ تيمية، تخرَّج على كتبِ السلفِ الصالحِ النقية، ودَرَس الكتبَ الضالةَ والمنحرفة وعرَف الشُّبَهَ التي بُنيت عليها، وقام يدعو إلى الله عَزَّوَجَلَّ ويؤلّف الكتب ويُدَرِّس، فنُفي وسُجن، ولكنه لم يُثْنِه ذلك عن الجهاد: الجهادِ بالسيف، فخاض المعاركَ وقاتل بالسيف، والجهادِ بالقلم، والجهادِ باللسان والحجة، حتى قيَّض اللّهُ له طلابًا حملوا علمَه؛ كابنِ القيّمِ وابنِ

كثيرٍ والذهبي، وغيرِهم من الأئمةِ الكبار، فانتشرت الدعوة، وبزغ فجرُ الدعوة والتجديد في دينِ الإسلام، والرد على الشُّبَه وعلى الضلالات من شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ وتلامذتِه رحمهم اللهُ تعالى.

ثم جاءت حِقَبٌ متواليةٌ ضَعُفَ فيها مذهبُ أهلِ السُّنَّة، وكَثُرت البدع، وانتشرت الضلالات، فبعد عصرِ شيخِ الإسلامِ وتلاميذِه، جاء عصرُ الركودِ وعصرُ الجمودِ وعصرُ التقليدِ الأعمى، وبلادُ نجدٍ ما كانت تُذكَر، بل مغفورٌ عنها، تُعتبر باديةٌ أو شِبه بادية، قرى ومزارع وبادية، ليس فيها مطمع لأحد، وكلُّ بلدةٍ عليها أميرٌ يحكُمُها مستقلٌ بها عن الآخر، فأميرُ عِرْقة لا يخضعُ لأميرِ الدِّرعية مع ما بينهما من التقارب، كلُّ واحدةٍ تُعتبر مملكةٌ مستقلة.

وكان علماءُ الحنابلةِ في نجدٍ معنيين بالفقه، يُدوِّنون الفقهَ ويُحرِّرونه ويُؤلفون فيه وينسَخُونه ويدرسونه، أما في العقيدةِ فكانوا على عقيدةِ الأشاعرة وعقيدةِ الماتْرِيدية، وعندهم تصوُّف وعندهم بدع، وعندهم ما عند البلاد الأخرى، بل يزيدون بكثرةِ الجهلِ بينهم في باديتِهم وفي قراهم، نعم كان في القرى علمًا لكنهم علماءُ فقهٍ فقط، وكانوا يذهبون إلى الشامِ يتتلمذون على علماءِ الشامِ الحنابلة، ويحملون عنهم الكتبَ والفقهَ في مذهبِ الإمامِ أحمد.

وهذا خيرٌ كثير، لكنَّ العقيدةَ ليس لهم بها اهتمام، الناس كلٌّ على ما هو عليه، من صوفية وقُبورية وشرّ، والسَّحَرَةُ لهم نشاط، والكُهّانُ لهم نشاط، والقبائلُ تُحكمُ بالأعرافِ القَبَلية، وهكذا.

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

نبذة عن شيخ الإسلام الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى -

وفي هذهِ الأثناءِ أظهر اللهُ شيخَ الإسلام محمدًا بنَ عبد الوهاب، وأعطاه اللهُ من الذكاءِ والفطنةِ ما جعله يُدركُ ما عليه الناس، فكان من صغرِه يقرأُ ويلاحظُ ويُطالعُ في كتبِ الشيخين ابنِ تيمية وابن القيّم، ويقرأ في كتبِ السلف، هو وحده فقط، ثم إنه لم يكتفِ ببلده، فسافر إلى البلادِ الأخرى، سافر إلى مكةَ حاجًّا وأخذَ عن علمائِها، وسافر إلى المدينة زائرًا للمسجدِ النبوي وأخذ عن علمائِها، ثم سافر إلى الأحْساءِ وأخذ عن علمائِها، ثم سافر إلى العراق، وقصَد البصرة، ولقِي فيها من العلماءِ مَنْ لقي، وتتلمذ عليهم وتعلَّم منهم ونسخَ من الكتب، ثم أراد أن يسافرَ إلى الشامِ ولكن لم يتيسرْ له ذلك، ثم رجع إلى بلاده وكان حزينًا وأسِفًا مما عليه الناس، ولم يسَعْه السكوتُ على ما عليه الناسُ كما وسِع علماءَ زمانِه، فبدأ بالدعوةِ على بصيرةٍ وهدى.

بدأ كالدعوةِ في بلدةِ حُريْملاءِ، مقرُّ أبيه حيث كان قاضيًا فيها، ثم إنه لم يطِب له المقامُ فيها فرحل إلى العُيَينة وكانت تحتَ إمرةِ ابنِ مَعْمر، وعرض على أميرِها هذه الدعوةَ فتقبَّلها الأمير، ونَاصَر الشيخَ وقامت الدعوة، وبدأ الشيخُ بتغييرِ المُنكرات، فهدمَ القُبَّة التي على قبرِ زيد بن الخطاب في العُيَيْنة، التي كان الناسُ يقصُدُونها، وأقام حدَّ الزنا، فرجمَ الزانيةَ التي اعترفت.

فلما بلغ أميرَ الأحساءِ ابن عُريْعر الخالدي غضب على ابن مَعْمر، وتهدَّده بأن يقطعَ ما يعطيه من المُرتب إن لم يطردْ هذا المُطوِّع من

بلدِه، فابنُ معمرٍ عرض على الشيخِ ما جاءه من التهديد، فالشيخُ أراد أن يطمئنَه فقال له: ما عندَ اللهِ من الرزق خيرٌ لك مما يعطيك فلان، عليك أن تتوكلَ على الله، والله ﷻ يكفي من توكَّلَ عليه، ويُغنيك الله عن ذلك.

لكنَّ الرجلَ ما اقتنع وطلب من الشيخِ المغادرة، وغادر الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ العُيَيْنة، إلى أين يذهب؟ ذهب إلى الدرعية، وكان فيها الأميرُ محمدُ بن سعود، وكان الأميرُ ابنُ سعود مِثلَ غيرِه من الأمراء، يمشون على ما هم عليه، ويسمعون عن هذا المطوِّع الذي جاء للعُيَيْنة ويأخذون حذرَهم منه، ولكنَّ الشيخَ ذهب إلى تلميذٍ له يقال له ابنُ سُويْلم في الدرعية، ونزل ضيفًا عنده، ولم يعلمْ به أحد، كان أمرُه خُفية.

علمت امرأةُ الأميرِ بقدومِ الشيخ، وكان قد هداها اللهُ وسمعت بدعوةِ الشيخِ واقتنعت بها، فقالت لزوجِها الأمير محمدِ بنِ سعود: هذا العالمُ الذي جاء إلى بلادِك رزقٌ ساقَه اللهُ إليك، فاغتنِمْه قبلَ أن يأخذَه غيرك. فما زالت به حتى اقتنع بقولِها، فقال: قولوا له يَجيئني، فقالت: لا، إذا طلبته قال الناس: يريد أن يعذِّبَه، أو يريد أن يقتلَه، لكن اذهب له أنت لكي يقدّره الناس -انظر إلى حنكتها وسياستها - فذهب الأميرُ إلى بيتِ ابن سويلم، وكان ابنُ سُويلم خائفًا على الشيخ، ولما جاء الأمير زاد خوفه، فدخل الأمير على الشيخ وسلَّم عليه، وعرضَ عليه الشيخُ أمرَه فشرح اللهُ صدرَه لهذه الدعوةِ وقبلها، ووعد الشيخُ بأن يناصرَه وأن يقومَ معه، وتعاهدا على ذلك.

ومن ذلك الوقتِ قامت الدعوةُ في الدرعية، وجلس الشيخُ للتدريسِ والمُناصحةِ والكتابة، وصار الطلابُ يتوافدون عليه، ووجد من يأْويه

ويناصرُه، وصار يكاتبُ البلدانَ يدعوهم إلى الله، ثم إنهم كوَّنوا الجيش للجهاد فغزوا ما حولَهم من البلدان، ونصرَهم الله على ما حولهم من البلدان، ودخلت تحتَ ولايةِ الأميرِ محمد بن سعود، فبدلًا من كونه أميرًا على الدرعية فقط صار أميرًا على نجد كلها، ودخلت البلادُ تحت إمرتِه، وقام جيشُ الجهادِ في سبيلِ الله ﷻ، وقامت الدعوة.

في هذه الفترةِ أهل الشرّ صاروا يُلبِّسون على الناسِ فيقولون: إن ابنَ عبدِ الوهاب يريد يغير دينَ المسلمين، وأنه جاء بدينٍ جديد، وأنه جاء يكفّر المسلمين، وأنّه، وأنه.

فأهلُ القصيم كتبوا له يسألونه، وهذا شيءٌ طيب أنه لا تصدِّقِ الشائعات فتكتب للشخص تسأله، كتبوا يسألونه عن عقيدتِه؛ لأنها شُوِّهت عندهم، وقيل: إنه رجلٌ خرج يريد يُكفّر الناس، ويَقتل الناس، ويُغير دينَ الناس، وقيل ما قيل.

فكتب الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه العقيدة، ليُبينَ عقيدتَه، وأن عقيدتَه هي عقيدةُ أهلِ السنَّة والجماعة، وأنه ما جاء بشيءٍ جديد، وأن ما نُسب إليه كذب، وكتب غيرُه هذه الرسالةَ في ردودِه الموجودة في «الدرر السنية» على الشبهات التي وُجِّهت إليه، ومنها كتاب «كشف الشبهات»، أجاب عن الشُّبُهات التي أثاروها حوله.



سبب تأليف هذه الرسالة

فهذا أصلُ هذه الرسالةِ أنها جوابٌ عن سؤال عن عقيدتِه، وكان في القصيم علماء أيضًا، وكانوا على اتصال بعلماءِ الشام الحنابلة، فلما بلغَهم خبرُ الشيخ وما أُثيرَ حولَه كتبوا إليه يسألونه عن عقيدتِه، فكتب رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الرسالةَ يُبينُ فيها عقيدتَه، وما هو عليه، ويدفع ما شُبِّه ضدَّه.

وهذه حالةُ الدعوةِ إلى الله، الذين يدعون إلى الله لا بدّ أن ينالَهم شيءٌ من الأذى والتهديد والتخويف، ولكنهم يصبرون على ذلك، ويثبُتون عليه، ويُجيبون عن الشُّبُهات التي تعترض سبيلَهم، وهذا مما يؤكد على أن الداعيةَ يجب أن يكونَ عالمًا يستطيعُ أن يُجيب عن الشبهات، وأن يبينَ الحقَّ من الباطل، وأن يكونَ متسلِّحًا بالعلم.

الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ ما باشر هذه الدعوةَ العظيمةَ إلا بعد أن تأهل لها، بعد أن تعلَّم والتقى بالعلماءِ في البلادِ التي سافر إليها، وقرأ الكتب، ثم بعد ذلك باشر الدعوةَ وهو مسلَّحٌ بالعلم والحُجَج، فنصره اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مع إخلاصِ النيةِ لله عَزَّ وَجَلَّ، وأنه لا يريد عُلوًّا في الأرض ولا فسادًا، ولا مالًا ولا جاهًا، وإنما يريدُ وجهَ الله عَزَّ وَجَلَّ، ويريدُ نُصرةَ هذا الدينِ وبيانَ الحقِّ والنصحَ للخلق، فهو مشفقٌ على الخلقِ أن يَهلكوا، وهو بينهم ولديه معرفةٌ بالحق، فرأى أن يقومَ بالدعوةِ إلى الله، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكر، فرأى أنه لا يسَعْه -رحمه الله تعالى- إلا هذا.

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

قال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله تعالى - في رسالته إلى أهل القصيم لما سألوه عن عقيدته:

بسم الله الرحمن الرحيم

أُشْهِدُ الله، ومن حضرني من الملائكة، وأُشهِدكم أني أعتقد ما اعتقدته الفرقة الناجية، أهل السُّنّة والجماعة...[١]

---

[١] **قوله: «أُشْهِدُ اللهَ ومن حضرني من الملائكة وأُشْهِدكم»**، كأنَّ هذا مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، فهو يُشهدُ اللهَ ﷻ، ويُشهدُ الملائكة، ويُشهد العلماءَ على عقيدتِه، وأنه ما جاء بشيءٍ جديدٍ أو بتغييرٍ لدينِ اللهِ كما يُقال عنه، وإنما جاء بالحقِّ الصريح.

وقوله: «أني أعتقد ما اعتقدَتْه الفرقةُ الناجية»، عقيدةُ الفرقةِ الناجيةِ هي التي قال فيها النبيُّ ﷺ: «**سَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**»، قالوا: من هي؟ قال: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي**»(١).

❁ **سُمِّيت الناجيةُ لأنها نجَت من النار، كلُّ هذه الفرقِ في النار إلاَّ هذه الفرقة، فهي الناجيةُ من النار، وهذه أوصافُها:**

أولا: أنها الناجية.

ثانيا: أنهم أهل السُّنّة، الذين يأخذون بالسُّنّة، وهي طريقةُ الرسولِ ﷺ. وهي تعني القرآنَ وتعني الأحاديثَ الصحيحة، ما كان

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٤٥٩٦)، والترمذي رقم (٢٦٤١)، وابن ماجه رقم (٣٩٩١)، وأحمد رقم (١٢٢٠٨)، والحاكم رقم (١٠).

عليه الرسولُ ﷺ؛ كما قال: « **مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي** »، ولم يأخذوا بمذهبِ الجهميةِ أو المعتزلةِ أو الخوارجِ أو غيرِهم من الفِرَق، إنما أخذوا منهجَ أهل السُّنّة المتمسكين بالسُّنة.

ثالثًا: « **والجماعة** »، سُمُّوا بالجماعة؛ لأنهم مجتمعون على الحق، ليس بينهم اختلاف، لا يختلفون في عقيدتِهم، إنما عقيدتُهم واحدة، وإن كانوا يختلفون في المسائلِ الفقهية والمسائلِ الفرعيةِ المستنبَطة، فهذا لا يضر، الاختلافُ في الفقهِ لا يضر؛ لأنه ناشئٌ عن اجتهاد، والاجتهادُ يختلف، والناسُ ليسوا على حدٍّ سواء في مَلَكَةِ الاجتهاد، أما العقيدةُ فإنها لا تَقْبَلُ الاجتهاد، بل يجبُ أن تكونَ واحدة؛ لأنها توقيفية، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، هذه أمةٌ واحدةٌ لا تقبلُ الاختلاف، تعبدُ ربًّا واحدًا، وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٢- ٥٣].

ذَمّ الذين اختلفوا؛ لأن الاختلافَ في العقيدةِ لا يجوز، فاللهُ أمَرَهم أن يكونوا أُمّةً واحدة فعصَوْه، ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ [المؤمنون: ٥٣]، أي: كُتبًا؛ كما قال قتادة ومجاهد[1]، كلٌّ واحدٍ عنده كتاب، وكلُّ واحدٍ عنده عقيدة، وعقيدةُ هذا غيرُ عقيدة هذا، ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣] كلٌّ يرى أنه على الحق وغيرَه على الباطل،

---

(١) أثر قتادة أخرجه: عبد الرزاق في « تفسيره » (٣/ ٤٦)، والطبري في « تفسيره » (١٨/ ٢٩).
وأثر مجاهد أخرجه: الطبري أيضًا في « تفسيره » (١٨/ ٣٠). وانظر: « الدر المنثور » (٦/ ١٠٣).

من الإيمان بالله وملائكتِه وكتبِه ورسلِه والبعثِ بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره. [٢]

لا يقول: نرجعُ إلى كتابِ الله وسنَّة رسول الله كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]، بل كلٌّ يقول إنه على الحقِّ وحده ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ ومقتنعٌ بما لديه، بل ومتعصبٌ له، ولا يرى أن قوله عُرْضةٌ للخطأ والصواب.

[٢] هذه أصولُ الإيمانِ وأركانِه، يؤمنُ بها الشيخ، وهي: الإيمانُ بالله، وملائكتِه، وكتبِه، ورسلِه، واليومِ الآخر، والإيمانُ بالقدرِ خيرِه وشرِّه؛ كما في حديثِ جبريلَ لما سأل النبيَّ ﷺ بحضرة أصحابه، فقال: أخبرني عن الإيمان، فقال: «**الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١). قال العلماء: هذه أركانُ الإيمان.

والإيمانُ له أركان، وله شُعب، أركانُه ستةٌ، وشُعَبه: «**بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا: قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا: إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ...**»(٢)، فالإيمان له شُعَبٌ كثيرة، وأما أركانُه -أي جوانبُه التي يقوم عليها- فهي ستةُ أركان:

الركنُ الأول: الإيمانُ بالله، وهو الأساس، والإيمانُ باللهِ يشملُ أنواعَ التوحيدِ الثلاثة: توحيدِ الربوبية، وتوحيدِ الألوهية، وتوحيدِ الأسماءِ والصفات.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٥٠)، ومسلم رقم (٨) واللفظ له.

(٢) أخرجه: مسلم رقم (٣٥).

الركنُ الثاني: الإيمانُ بالملائكة، أنهم عبادٌ من عبادِ الله تعالى لا يسبقونه بالقولِ وهم بأمرِه يأتمرون، خلقهم اللهُ من نور، وهم من عالمِ الغَيب الذين لا نراهم، ولكن نُؤمن بهم، وقد جعلهم اللهُ أصنافًا، كلُّ صِنفٍ من الملائكة له عمل يقومُ به في هذا الكون، فمنهم الحفظةُ الذين يحفظون أعمالَ بني آدم ويكتبونها ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢]، ومنهم حملةُ العرش، ومنهم المُوكَّل بالوحي وهو جبريل ﷺ، ومنهم المُوكَّل بالقَطْر وهو مِيكال، ومنهم المُوكَّل بالموت: وهو ملكُ الموت، ومعه ملائكةُ الموت، ومنهم أصنافٌ لا يعلمُها إلا الله ﷻ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدَّثر: ٣١]، جنودُ اللهِ ﷻ كثيرة.

الركنُ الثالث: الإيمانُ بالكتبِ التي أنزلها اللهُ على الرسل، فالله ﷻ أرسلَ الرسلَ وأنزل الكتبَ من عندِه سبحانه، بوَحْيِهِ وشرائعِه وأمرِه ونهيه، منها التوراة، ومنها الإنجيل، ومنها الزبور، ومنها القرآن، ومنها كتبٌ لم يذكرْها اللهُ لنا، ولكننا نؤمنُ بها جملة، ونؤمنُ بما ذكره اللهُ باسمِه مفصَّلا، وآخرُها وأعظمُها: القرآنُ العظيم الذي أعجزَ الثَّقلَين - الجن والإنس - على أن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ من مثله.

الركنُ الرابع: الإيمانُ بالرسل الذين أرسلهم اللهُ بشرائعِه ودينِه لهدايةِ خلقِه، اللهُ ﷻ أرسل الرسلَ ليُبينَ للناس ما يضرُّهم وما ينفعُهم، ويبينَ لهم دينَهم، واللهُ ﷻ أقامَ الحجةَ بهم ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، أما عددُهم فلا يعلمُهم إلا الله، وهم

كثيرون، ومنهم من سمَّى اللهُ لنا في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣- ٨٦]. فهؤلاء سمَّاهم الله، فنؤمنُ بهم بأعيانِهم، ومَن لم يسمِّه اللهُ نؤمنُ به جملةً.

قال اللهُ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ﴾ [غافر: ٧٨]، فنؤمن بهم جميعًا من سمَّى الله، ومن لم يسمِّ منهم، فَمَنْ كفر بنبيٍ واحدٍ كفر بالجميع، فلا بدَّ من الإيمانِ بهم جميعًا، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠- ١٥١]، واللهُ ﷻ قال لنا: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

الركنُ الخامس: الإيمانُ باليومِ الآخر، وهو البعثُ بعدَ الموت؛ لأن الدنيا دارُ عمل، والآخرةُ دارُ جزاء، والدنيا مزرعةٌ للآخرة، فهي دارُ عملٍ وليس فيها جزاء، والآخرةُ دارُ جزاءٍ وليس فيها عمل، لا بدَّ من

الإيمانِ باليوم الآخر، من لم يؤمنْ باليومِ الآخرِ فهو كافر، قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ﴾ [التغابن: ٧]، أيها الإنسانُ تعيشُ في هذه الدنيا وتأكل وتشرب وتكفُر وتفسُق كأنه ليس أمامك بعثٌ وحسابٌ وجزاء، فاللهُ ﷻ جعلَ الآخرةَ للجزاء، وهذا عدلٌ منه سبحانه أنه لا يضيعُ عملَ العاملين، يُجازِي كلًّا بعمله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، لو لم يكنْ هناك بعثٌ لصار الخلقُ عبثًا، واللهُ سبحانه منزّهٌ عن العبث.

الركنُ السادس: الإيمانُ بالقدَر، والقدرُ هو سرُّ اللهِ ﷻ والقدرُ هو ما قدَّره اللهُ مما كان وما يكون إلى أن تقومَ الساعة، جرى القلمُ بالمقادير، وكُتب في اللوح المحفوظ ما هو كائنٌ إلى يومِ القيامة، فلا يقعُ شيءٌ إلا بقدَر ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، فالأمورُ ليست عبثًا أو أُنفًا، بل هي مُقدَّرة من قبل ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ﴾ [الحديد: ٢٢]، قوله: ﴿كِتَٰبٍ﴾ هو اللوحُ المحفوظ، وقوله: ﴿قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ﴾ [الحديد: ٢٢] يعني: نخلقُها ونُوجِدها.

❁ والإيمانُ بالقدرِ على أربعِ مراتب:

المرتبةُ الأولى: الإيمانُ بعلمِ اللهِ ﷻ الأزلي الأبَدي المحيطِ بكلِّ شيءٍ، أي: نعتقد أن اللهَ عَلِمَ كلَّ شيء، عَلِمَ ما كان وما يكون.

المرتبةُ الثانية: الإيمانُ بأن اللهَ كتب في اللوحِ المحفوظِ ما هو كائنٌ إلى يومِ القيامة.

ومن الإيمان بالله: الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل. [٣]

المرتبةُ الثالثة: مرتبةُ المشيئةِ والإرادة، ما شاءه الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

المرتبةُ الرابعة: مرتبةُ خلقِ الأشياءِ في أوقاتِها المُقدَّرةِ لها، كلُّ شيءٍ في وقتِه، كلُّ شيءٍ في حينِه الذي قدَّره اللهُ ﷻ.

لا بدَّ من الإيمانِ بهذه المراتبِ الأربع: مرتبةِ العلم، مرتبةِ الكتابة، مرتبةِ المشيئة، مرتبةِ الخلق والإيجاد. هذا هو الإيمانُ بالقضاءِ والقَدر.

[٣] لما ذكر أركانَ الإيمان بيَّن ما يدخلُ في الأول، وهو الإيمانُ بالله، أنه يدخلُ فيه الإيمانُ بالأسماءِ والصِّفات، فمن جَحَد الأسماءَ والصفاتِ لم يكنْ مؤمنًا بالله الإيمانَ الصحيح، وهذا ردٌّ على المُعطِّلة الذين عطَّلوا أسماءَ الله وصفاتِه لأنهم لم يؤمنوا بالأسماء والصفات.

فمن الإيمانِ بالله الإيمانُ بأسماءِ اللهِ وصفاتِه الواردةِ في الكتابِ والسُّنّة «**من غيرِ تحريفٍ ومن غيرِ تعطيل**»، التحريفُ: هو التغيير، أي: تغييرَ الألفاظ، أو تغييرَ المعاني، هذا هو التحريف.

تُحرَّف الألفاظُ بأن يُزاد فيها أو يُنقص، مثل: «استوى» قالوا: «استولى»، هذا تحريفُ لفظ، حيث زادوا حرفًا.

ومن تحريفِ المعنى: تفسيرُ الاستواءِ بالاستيلاء، وتفسيرُ اليدِ بالقدرة، وتفسيرُ الوجهِ بالذات، هذا من تحريفِ كلامِ اللهِ ﷯، قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦].

قوله: «**ومن غيرِ تعطيل**»، التعطيلُ هو: جَحْدُ الأسماءِ والصفاتِ وإخلاءُ الله منها.

بل أعتقدُ أن اللهَ ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، **فلا أنفِي عنه ما وَصف به نفسَه، ولا أُحرِّفُ الكلمَ عن مواضعِه، ولا أُلحِدُ في أسمائِه وآياتِه. [٤]**

---

[٤] المؤلف -رحمه الله تعالى- يعتقدُ ما دلَّت عليه هذهِ الآية؛ لأنها ميزانٌ في جميعِ الأسماءِ والصفاتِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ في أسمائِه وصفاتِه، وإن كانت أسماؤُه تشتركُ مع أسماءِ المخلوقين في ألفاظِها ومعانيها لكن لا تشبهُها في حقيقتِها وكيفيتِها، فالاشتراكُ في اللفظِ وأصلِ المعنى لا يقتضي الاشتراكَ في الحقيقةِ والكيفية؛ كما قال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ في هذا ردٌّ على المعطِّلة، فنفى عن نفسِه المِثْلية، وأثبت لنفسِه الأسماءَ والصفات، السمعَ والبصر، فَدَلَّ على أنَّ إثباتَ الأسماءِ والصفاتِ لا يقتضي التشبيه. وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ هذا فيه نفي ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ هذا فيه إثبات، نفى عن نفسِه المثلية، وأثبت لنفسِه الأسماءَ والصفات.

وقوله: «**لا أنفي عنه ما وصف به نفسه**»؛ كما فعلتْ المعطلّة.

وقوله: «**لا أُلحد**»، الإلحادُ فِي اللغة هو: المَيل، والإلحادُ في الأسماءِ والصفات هو: الميلُ بها عن مدلولِها إلى مدلولٍ باطل؛ كتفسيرِ الوجهِ بالذات واليدِ بالقدرةِ أو النعمة، وهكذا. هذا تحريفٌ للكلم عن مواضعِه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآۗ﴾ [فصلت: ٤٠]، ﴿يُلْحِدُونَ﴾ يعني: يميلون بها إما بجحدِها كما فعلتْ المُعَطِّلة، وإما بتشبيهِها بصفاتِ خلقِه كما فعلته المُمثِّلة، وإما بالزيادةِ عليها شيئًا لم يُثبتْه اللهُ ولا رسولُه ﷺ، وإما بجعلها أسماءً للأصنام كاللّات والعزّى... إلى آخرِه.

ولا أُكيّف، ولا أُمَثّل صفاته تعالى بصفاتِ خلقه؛ لأنه تعالى لا سَمِيَّ له ولا كُفُؤ، ولا نِدَ له، ولا يُقاس بخلقِه، فإنه سبحانه أعلمُ بنفسه وبغيره، وأصدقُ قِيلًا وأحسنُ حديثًا. [٥]

---

[٥] **هذا القسمُ الثاني من الضُّلَّال في أسماءِ الله وصفاته**: المُمَثِّلة، زادوا في الإثباتِ وغَلَوْا في الإثبات، ولم يُفرِّقوا بين صفاتِ اللهِ وصفاتِ خلقه، ولا بين أسمائِه وأسماءِ خلقِه، هؤلاء مشبِّهةٌ والعياذ بالله؛ ولهذا قال أهلُ العلم: «المُعطِّل يعبد عَدَمًا والمُمَثِّل يعبد صَنمًا». فقولهم: المعطِّلُ يعبدُ عدمًا؛ لأن الذي ليس له أسماءٌ وصفات: عدم، والمُمثِّل يعبدُ صنمًا من البشر؛ لأنه جعل اللهَ مثلَ البشر، تعالى اللهُ عن ذلك.

فقوله: «**ولا أُكَيِّف، ولا أُمَثِّل صفاتَه تعالى بصفاتِ خلقِه**»، يعني: لا أعلمُ كيفيتَها ولا مثليتَها، وإنما هذا من علمِ الله ﷻ لا يعلمُ كيفيةَ صفاتِه إلا هو، ولا يعلمُ كيفيةَ ذاتِه إلا هو ﷻ ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠]، فالمؤمنون يعلمون ربَّهم، وأنه هو ربُّهم وخالقُهم، ويعلمون وجودَه وكمالَه، لكن لا يحيطون به.

وقوله: «**لا سَمِيّ له**» يعني: لا أحدَ يستحقُّ اسمَه على الحقيقة، وليس معنى «لا سَمِيّ له»: لا أحد يُسمّى باسمه؛ لأنه يُسمَّى المخلوق: العزيز، والملِك، يُسمّى المخلوق بما يوافق اسمَ الخالق في الحروف والمعنى، لكن لا يوافقُه في الكيفية، فمعنى «لا سَمِيّ» يعني: لا أحدَ يستحقُّ اسمَه على الحقيقة؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]، أي لا أحدَ يساوي اللهَ ﷻ في أسمائِه وصفاتِه.

وقوله: «ولا كفؤ»؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، أي لا أحد يكافئُه سبحانه ويساويه ﷻ.

وقوله: «ولا نِدّ له» النِدُّ: هو المثيلُ أيضًا ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ جمعُ نِد، وهو المثيل، ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، فالذين عبدوا الأصنامَ جعلوها أندادًا لله، مشابهة له ﷻ، وإلا لماذا عبدوها معه؟ ولهذا يوم القيامة يقولون: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧- ٩٨]، يعترفون أنهم ساووهم بربِّ العالمين في الدنيا، فاستحقوا النارَ يومَ القيامة من بابِ التحسُّر. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، ﴿يَعْدِلُونَ﴾ يعني: يساوون به غيرَه من المخلوقين.

وقوله: «ولا يُقَاس بخلقِهِ»، فهو سبحانه لا يُقاسُ بخلقِه في أسمائِه وصفاتِه، فالأسماءُ والصفات وإن كانت تشتركُ في اللفظِ وجُملةِ المعنى لكنها تختلفُ في الحقيقةِ والكيفية.

وقوله: «فهو سبحانه أعلمُ بنفسِه وبغيره» هو أعلمُ بنفسِه وأما غيرُه فلا يعلمُ عن اللهِ إلا ما علَّمه الله ﷻ؛ الملائكةُ تقول: ﴿سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢]، واللهُ ﷻ يقول لنبيه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] واللهُ ﷻ يقول: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، ويقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فهو سبحانه أعلمُ بنفسِه وبغيرِه، وأما غيرُه فلا يعلمُ حقيقةَ اللهِ وكيفية الله ﷻ، لا يعلمُها إلا اللهُ ﷻ.

فَنزَّه نفسَه عما وصفَه به المخالفون من أهلِ التكييفِ والتمثيل، وعما نفاه عنه النافون من أهلِ التحريفِ والتعطيل، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠- ١٨٢]. **[٦]**

وقوله: «**وأصدقُ قِيلًا وأحسنُ حديثًا**»؛ كما في القرآن: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، لا أحدَ أحسنُ من اللهِ ولا أصدقَ من الله، واللهُ قال في كتابه أنه سميع، وأنه بصير، وأنه حكيم، وأنه عليم، وأن له وجهًا، وأن له يدين، قال هذا عن نفسه ﷻ، فهو أعلمُ بنفسه.

ثم يأتي هؤلاء المُعطِّلة ويقولون: هذا لا يليقُ بالله، ما يليقُ بالله أن يُقالَ: له وجهٌ، ولا يقالَ: له يد، ولا يُقالَ: إنه سميعٌ ولا بصير؛ لأن هذه الصفات في الخَلْق موجودةٌ وإذا أثبتناها شبهنا اللهَ بخَلْقه!!.

[٦] نزَّه نفسَه ﷻ عن مذهبِ الطائفتين - مذهبِ المُمثِّلة، ومذهبِ المعطِّلة - وأثبتَ لنفسِه الأسماءَ والصفاتَ على ما يليقُ بجلالِه ﷻ؛ ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩]، وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٤٣]، نزّه نفسه عن ذلك.

هذا هو المذهبُ الحقُّ، وهو الذي عليه أهلُ السُّنَّةِ والجماعة، وهو الذي قالَ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إنه عقيدتُه ومُعتقدُه.

قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، نزّه نفسَه عما يصفُه به أهلُ التعطيلِ وأهلُ التمثيل، ثم قال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ سلَّم عليهم لسلامةِ ما قالوه في اللهِ ﷻ لسلامتِه من العيبِ والنقص، فالمرسلون وصفوا اللهَ بما وصفَ به نفسَه؛ لذلك سلَّم اللهُ عليهم،

والفرقةُ الناجيةُ وَسَطٌ في باب أفعالِه تعالى بين القدرية والجبرية. [٧]

وختمَ الآياتِ بقولِه: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ له الثناءُ كلُّه والحمدُ كلُّه، لا يستحقُّه إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهل بعد هذا البيانِ يظُن أحدٌ أنَّ الشيخَ عنده شيءٌ يُخالفُ به أهلَ العلمِ كما يتّهمُه خصومُه؟ الجواب: لا، فهذه عقيدتُه واضحةٌ نقيةٌ مما يرمونه به من الشُّبُهات.

[٧] **لما ذكر الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أولِ الرسالةِ أصولَ الإيمان، وهي:** الإيمانُ بالله، وملائكتِه، وكتبِه ورسلِه، واليومِ الآخر، والإيمانُ بالقدرِ خيرِه وشرِّه، وبيَّن أنه على عقيدةِ السلفِ في أسماءِ اللهِ وصفاتِه مخالفًا بذلك فرقتي المعطِّلة والمشبِّهة والممثِّلة، وقرَّر هذا الأصل، الذي هو داخلٌ في الإيمانِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الإيمانَ بالله يشملُ: الإيمانَ بتوحيدِ الربوبية، والإيمانَ بتوحيدِ الألوهية، والإيمانَ بتوحيدِ الأسماءِ والصفات.

ثم ذكر في هذه الجملة ما يتعلقُ بالأصلِ الأخيرِ وهو الإيمانُ بالقدر؛ لأن هذا وقعَ فيه خلافٌ وتفرُّقٌ بين طوائفِ القدريةِ والجبرية.

أما القدريةُ فالمراد بهم: الذين ينفون القَدَر، وهم المعتزلةُ أتباعُ واصِلِ بنِ عَطاء، سُمُّوا بالمعتزلة لأنهم اعتزلوا مجلسَ الحسنِ البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكَوَّنوا لهم جماعةً وتبنوا مذهبًا في التوحيدِ يخالفُ مذهبَ أهلِ السُّنةِ والجماعة. **وأيضًا في أصولِ الإيمانِ جعلوا لهم أصولًا غيرها، وهي الأصولُ الخمسة، وهي:**

الأولُ: التوحيدُ، ويريدون به نفيَ الصفات، يُسَمُّون نفيَ الصفاتِ توحيدًا؛ لأن إثباتَ الصفات يقتضي تعددَ الآلهةِ عندهم.

والثاني: العدلُ، ويريدون به نفيَ القضاءِ والقدر؛ لأنهم يقولون: إثباتُ القضاءِ والقدر يلزم عليه الجور والظلم في حق الله تعالى، حيث يعذِّبُ عبادَه على شيءٍ قدَّره عليهم.

والثالثُ: الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكر، ويريدون به الخروجَ على وُلاةِ الأمور، فالذي يخرجُ على الولاة، هذا هو الذي يأمرُ بالمعروف وينهى عن المنكر عندهم.

والرابعُ: المنزلةُ بين المنزلتين، وهذه هي التي خالفوا واعتزَلوا من أجلِها مجلسَ الحسن، لما سُئِل الحسنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن حكم مُرتكِبِ الكبيرة، أجاب بما عليه أهلُ السنة والجماعة، قال: «هو مؤمنٌ ناقصُ الإيمان»، فلا يُكَفَّر كما تُكَفِّره الخوارج، ولا يُوصَف بالإيمانِ الكامل؛ كما تقولُه المُرْجِئة، بل هو مؤمنٌ ناقصُ الإيمان، فهو مؤمنٌ بإيمانِه فاسقٌ بكبيرتِه.

فلما أجابَ الحسنُ بهذا الجواب، وكان واصلُ بنُ عطاءٍ تلميذًا له، قال: أنا أقول: إنه لا مؤمن ولا كافر، بل هو في المنزلة بين المنزلتين، يخرجُ من الإيمانِ ولكنه لا يدخل في الكفر، فهو في المنزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، فإن مات ولم يتُب فإنه يكون خالدًا في النار؛ كما تقولُه الخوارج، فأحدثوا القول بالمنزلة بين المنزلتين وعُرفوا بذلك.

والخامس: إنفاذُ الوعيد، ويريدون به أنَّ النارَ لا يخرجُ منها مَن دخلها، فأوجبوا خُلُودَ مرتكبِ الكبيرةِ من أهل القِبْلة في النار، وقالوا: مَنِ اسْتحق العذابَ لا يستحقُّ الثواب.

ومَحطُّ البحثِ الآن في الأصلِ الثاني وهو العدلُ، وأما مُرتكبُ الكبيرةِ فيأتي بعده مباشرة.

فالعدلُ: وهو نفيُ القدرِ عندهم، وهذا غَلِطَ فيه المعتزلةُ والجبرية، وهما على طرفي نقيض.

فالمعتزلةُ يقولون: إنَّ العبدَ يستقلُّ بفعلِه وليس للهِ فيه قضاءٌ ولا قدر، وإنما العبدُ هو الذي يستقلُّ بفعلِه، والأمر أُنُف -يعني مستأنف- لم يُقدَّر ولم يُكتبْ في اللوحِ المحفوظ، وغُلاتُهم يقولون: ولم يعلمْه اللهُ قبلَ وقوعِه. فينفون العلمَ، وهؤلاء كفّارٌ بلا شك؛ لأنهم إذا نفوا العلمَ فهم كُفّارٌ.

أما جُمهورُهم فيقولون: اللهُ يعلمُه ولكنه لم يقدِّرْه، وإنما علمَ أنَّ هذا سيقعُ لكنَّه بدون تقديرٍ منه ﷻ.

وشيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ في «الواسطية» يقول: إن الصِّنفَ الأولَ وهم الذين ينفون العلمَ انقرضوا. أو القائلُ به منهم قليلٌ في وقتِ الشيخ، أما الآخرون فلا يزالون إلى الآن باقون يقولون: إنّ اللهَ يعلمُه لكن لم يقدِّرْه، وإنما العبدُ هو الذي أحدثَه بدونِ أن يقدِّرَه اللهُ عليه.

هؤلاء هم القَدَرية، سُمُّوا بالقدريةِ لأنهم يَنفون القدر، فيُغْلُون في إثباتِ أفعالِ العبادِ ويقولون: هم الذين يُوجِدُونها بدونِ أن يقدِّرَها اللهُ عليهم.

وأما الجبريةُ: فهم الجهميةُ ومن أخذَ بقولِهم، فهم على النقيض، يُغلُون في إثباتِ القدرِ والمشيئةِ وينفون أفعالَ العباد، ويقولون: العبدُ

مجبورٌ ليس له اختيارٌ في أفعالِه، وإنما يُحَرَّك كما تُحَرَّكُ الريشةُ في الهواء، أو هو كالميتِ بين يدي الغاسِلِ يُقلِّبُه، ليس له اختيار. فهم غَلَوا في إثباتِ القدرِ وإرادةِ اللهِ ﷻ، ونفَوا أفعالَ العباد، واعتبروهم مُجْبَرين على أفعالِهم ليس لهم فيها اختيارٌ ولا مشيئة، ولذلك سُمُّوا بالجبرية لأنهم يقولون بالجَبر.

أهلُ السُّنةِ والجماعة توسَّطوا -كما هي عادتُهم في كل أمورِ الدينِ هم وسطٌ فيها- فأثبتوا أن للعبدِ فعلًا ومشيئةً واختيارًا، ولكنه لا يخرج بذلك عن مشيئةِ اللهِ وإرادتِه، فأثبتوا للعبدِ مشيئةً واختيارًا وإرادةً وأفعالًا، خلافًا للجبرية، ولكنه لا يخرجُ عن قضاءِ الله وقدرِه، خلافًا للقدرية، وهذا هو الذي تدلّ عليه الأدلةُ من كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِه ﷺ، فلولا أن للعبدِ مشيئةً واختيارًا وقدرةً لما عذَّبه اللهُ على أفعالِه، فلو كان مُجْبَرًا -كما تقوله الجبرية- لم يعذبْه اللهُ على أفعالٍ ليس له فيها اختيار.

ومن أدلّةِ أهلِ السُّنةِ والجماعة قولُه تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩]، قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ دلَّ على أن الإنسانَ يستقيمُ على طاعةِ اللهِ بمشيئتِه لا يُجبر على ذلك، إما أن يستقيمَ وإما أن يَعصي، فهو الذي يؤمنُ وهو الذي يكفر، وهو المؤمنُ، والكافرُ، والفاسقُ، والزاني، والسارق، والشارب، هو نفسه.

فأثبتَ للعبدِ مشيئةً في قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾، ثم قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، هذا ردٌّ على القدرية، فأول الآية ردٌّ على الجبرية، وآخرها ردٌّ على القدرية، فالآية فيها ردٌ على الطائفتين.

وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ﴾ هذا ردٌّ على الجبريةِ الذين ينفون مشيئةَ العبدِ وإرادتِه، وأنه يُحرَّك بدونِ اختيارٍ منه، وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ردٌّ على القدريةِ الذين ينفون القدرَ ويغلون في إثباتِ مشيئةِ العبد، ويقولون: إنَّ العبدَ يشاءُ ولو لم يشأ اللهُ ولو لم يُقدِّر الله، هو يفعلُ ويشاءُ بابتداعِه وإيجاده هو. وبعضُهم يقول: اللهُ لا يعلمُ أفعالَه قبلَ أن تقع، وهؤلاء هم الغلاة، وبعضُهم يقول: يعلمُها لكنه لم يقدِّرها. هذا هو ملخصُ البحثِ في هذه المسألة.

والقضاءُ والقدرُ ثابتٌ في كتابِ الله وفي سنَّةِ رسولِه ﷺ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

وفي السُّنَّة: حديثُ جبريلَ لما قال للرسولِ ﷺ: أخبرني عن الإيمان، قال: «**الْإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[(١)].

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٥٠)، ومسلم رقم (٨) واللفظ له.

❁ **والإيمانُ بالقَدَر على أربع مراتبٍ لا بُدّ من الإيمان بها كلِّها:**

المرتبةُ الأولى: الإيمانُ بأَنَّ اللهَ ﷻ عِلم كلَّ شيءٍ بعلمِه الأزلي الذي هو موصوف به أزلًا وأبدًا، وهذه المرتبةُ هي التي نفاها غُلاةُ القَدَرية.

المرتبةُ الثانية: الإيمانُ بأن اللهَ كتبَ في اللوحِ المحفوظِ كلَّ شيءٍ، لحديث: «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ ﷻ الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا يَكُونُ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ**»(١)، واللهُ ﷻ يقولُ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ [الحديد: ٢٢] الكتابُ هو اللوحُ المحفوظ ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي نخلقُها ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]، والكِتابةُ «**قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**»(٢)، فالكتابةُ سابقةٌ بأزمان على خَلقِ السمواتِ والأرض.

المرتبةُ الثالثةُ: مرتبةُ المشيئةِ والإرادة، فكلُّ شيءٍ يقعُ فهو بمشيئةِ اللهِ وإرادته، وفي هذا ردٌّ على القدرية، فلا يكونُ في مُلكِه ﷻ ما لا يشاؤه ولا يريدُه ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فكلُّ شيءٍ يحدثُ فقد شاءه اللهُ وأراده بعد ما علِمه وكتبَه في اللوحِ المحفوظ.

المرتبةُ الرابعة: مرتبةُ الإيجادِ والخَلْق، عَلِمَه وكَتَبَه وشَاءَهُ وخَلَقَهُ ﷻ.

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٤٧٠٠)، والترمذي رقم (٣٣١٩)، وأحمد رقم (٢٢٧٠٧)، والحاكم رقم (٣٦٩٣).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (٢٦٥٣).

لا بد أن تؤمنَ بهذهِ المراتبِ كلِّها وإلّا لم تكن مُؤمنًا بالقضاءِ والقدر.

قوله: « **والفرقةُ الناجية** »، سُمِّيت ناجية؛ لأنها ناجيةٌ من النار، بخلافِ بقيةِ الفرق فإنها في النار؛ كما قال ﷺ: « **وسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً** »[1]، هذه الواحدةُ هي الناجيةُ من النار، وهذه الفِرَق في النار وهي تتفاوتُ، منها ما هو في النار لكفرِه، يُخلَّد فيها، ومنها ما هو في النارِ لمعصيتِه ولا يُخلَّد فيها، فلا يلْزمُ من هذا أنَّ هذه الفرقَ كلَّها كافرة، بل هي متفاوتةٌ؛ لأن الخِلاف يتفاوت.

وقوله: « **وسطٌ في باب أفعاله تعالى بين القدرية والجبرية** »، الجبريةُ: هم أتباعُ الجهمِ بنِ صفوان، الذي يقول بالجَبْر، ويقول بالإرجاء، ويقول بالتجهم.

ولهذا يقول ابن القيم في « النونية »:

جِيمٌ وجِيمٌ ثُمَّ جِيمٌ معهما   مَقْرُونَةً مَع أَحْرُفٍ بِوِزَانِ

يعني جمع بين ثلاث جيمات،   والرابعة جيم جهنم والعياذُ بالله

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٤٥٩٦)، والترمذي رقم (٢٦٤١)، وابن ماجه رقم (٣٩٩١)، وأحمد رقم (١٢٢٠٨)، والحاكم رقم (١٠).

وهُمْ في بابِ وعيدِ اللهِ بين المُرجِئة والوعيدية. [٨]

---

[٨] هذه مسألةُ الكفرِ والإيمانِ لأصحابِ الكبائرِ من أهلِ الإيمان، من حصَلَ منه كبيرةٌ دون الشِّرك؛ كالزنا والسرقة وشرب الخمر، وغيرِ ذلك من الكبائر التي هي دونَ الشرك.

الخوارجُ كفَّروه، وقالوا: يخرجُ من الإسلامِ إلى الكفر - والعياذ بالله - ويستَدلُّون بآياتٍ من القرآن، آياتٍ متشابهة لا يردُّونها إلى الآياتِ المُحكَمة، مثل قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣] استدلوا بهذا على أن كلَّ مَن عصى اللهَ فهو في نارِ جهنمَ خالدًا فيها أبدًا، وأنه كافر، فيُكَفِّرُون السارقَ والزاني وشاربَ الخمر، كلُّ مرتكبِ كبيرةٍ يكفرونه، ويُخرجونه من الإسلام، ويخلِّدونه في النار إذا مات ولم يتُب.

هذا مذهب الوعيدية، لماذا سُمُّوا بالوعيدية؟ لأنهم أخذوا بآياتِ الوعيدِ وتركوا آياتِ الوعدِ التي فيها وعدُ اللهِ بالمغفرةِ والتوبة، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فاللهُ أخبر أنه لا يغفرُ للمشركِ الشركَ الأكبر، وأنه يغفرُ ما دون الشرك، ويدخل في ذلك جميعُ المعَاصي، هذا وعدٌ من الله ﷻ.

وهذا أخذ به المُرجِئة الذين يقولون: إنَّ صاحبَ الكبيرة مؤمنٌ كاملُ الإيمان، فقالوا: لا يضرُّ مع الإيمانِ معصيةٌ كما لا ينفعُ مع الكفرِ طاعة. وسُمُّوا مرجئة؛ لأنهم أرجئوا؛ أي أخروا الأعمالَ عن مسمى الإيمان، وقالوا: الإيمانُ هو التصديقُ بالقلب.

❁ **وهم مع هذا أربع طوائف:**

الأولى: مُرجِئةُ الفقهاء، من الكوفيين والأحناف الذين يقولون: إنَّ الإيمانَ هو قولٌ باللسانِ يُدخلونَ فيه العمل.

الثانية: الأشاعرةُ ومن أخذ بمذهبِهم، فيقولون: الإيمانُ هو التصديقُ بالقلب ولو لم ينطقْ بلسانِه، فمن صدَّق بقلبه فهو مؤمنٌ حتى ولو لم يتكلّم. وعلى هذا فالكفار مؤمنون؛ لأنهم يصدِّقون بقلوبهم لكن لا ينطقون بألسنتهم، قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

هم يصدقون بقلوبِهم ويعلمون أنه رسولُ الله، وأنَّ القرآنَ كلامُ الله، وأن ما جاء به هو الحق، لكن يمنعُهم -والعياذ بالله- موانعُ: إما الكبرُ والأَنَفة، أو الخوف على مناصبِهم ورئاستِهم، أو الحسد.

واليهود يعرفونه، ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢٠]، يعني: محمدًا ﷺ ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، يعرفون أنه رسولُ الله، ولكن لم يطيعوه ولم يؤمنوا برسالته ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، تركوه حسدًا، يريدون أن تكونَ النبوةُ في بني إسرائيل ولا تكونَ النبوةُ في بني إسماعيل، حسدوا بني إسماعيل فأبوا أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، فهم يؤمنون بقلوبِهم أنه رسول الله. فهذا ردٌّ على الأشاعرة الذين يقولون: إن الإيمانَ هو التصديقُ بالقلبِ ولو لم يَنطقْ باللسان.

الثالثة: الكرَّامية، الذين يقولون: الإيمانُ هو النطقُ باللسان ولو لم يعتقدْ بقلبه، إذا نطق بلسانِه وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسولُ

الله ولو لم يعتقدْ بقلبِه فهو مؤمن، كذلك يقولون. وهذا باطلٌ يلزمُ عليه أنَّ المنافقين مؤمنون؛ لأنهم يقولون بألسنتِهم ما ليس في قلوبِهم، والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]، فهم يقولون بألسنتِهم ولكن لا يعتقدون بقلوبِهم: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١ - ٢]، شهادتُهم للرسولِ جُنَّةٌ يتسترون بها دون القتل، يريدون أن يعيشوا مع المسلمين وهم كفار في قرارةِ أنفسِهم وقلوبِهم، حُكمُ اللهِ أنهم في الدركِ الأسفل من النار تحت عَبَدة الأصنام. والكرَّاميةُ يقولون: إنهم مسلمون ومؤمنون!!

الرابعة: أخبثُ فرقِ المُرجِئة وهم الجَهْمية الذين يقولون: إنَّ الإيمانَ هو المعرفةُ بالقلبِ ولو لم يصدق، إذا عَرَف بقلبِه فهو مؤمنٌ ولو لم يُصَدِّق، ولو لم يَنْطِق، ولو لم يعمل، ما دام أنه عارِفٌ بقلبِه فهو مؤمن. وهذا القولُ أخبثُ مذاهبِ المُرْجِئة.

فتبَيَّن من هذا معنى الإرجاء، وأنه تأخيرُ العملِ عن الإيمان، وأنَّ العملَ لا يَدخُلُ في الإيمان، وأن الإنسانَ يكونُ مؤمنًا ولو لم يعمل، ولو لم يُصَلِّ، ولم يَصُمْ، ولم يحُج، ولم يعمل أي شيء، لو فعَلَ ما فعل من المعاصي ومن الموبقات فهو مؤمن، والمعاصي لا تُنقِصُ إيمانَه، لو زَنَى وسرق فهو مؤمنٌ كاملُ الإيمانِ عندَهم، ما دام أنه مصدِّقٌ بقلبِه.

والإيمانُ لا يتفاضلُ عندَهم ولا يتفاوت، فإيمانُ أبي بكرٍ أو جبريلَ مثلُ إيمانِ أفسقِ الناسِ عندَهم.

والحقُّ أنَّ الإيمانَ يتفاوت: فالمؤمنون منهم مَن إيمانُه كامل، ومنهم من إيمانُه ناقصٌ نقصًا كثيرًا أو قليلًا، فالإيمانُ يتفاوت، ويزيدُ ويَنقُص، يزيدُ بالطَّاعةِ وينقُصُ بالمَعْصية، والعملُ داخلٌ في حقيقةِ الإيمان، ومَنْ ترك العملَ تركًا نهائيًا بدون عُذرٍ ولم يعملْ أبدًا فليس بمؤمن، أما إذا ترك بعضَ الأشياءِ وفعل بعضَ الأشياءِ فإنه مؤمنٌ ناقصُ الإيمان.

أهلُ السُّنَّة والجماعة قالوا: مُرْتكبُ الكبيرةِ التي دُونَ الشِّركِ مؤمنٌ ولكنه ناقصُ الإيمان، أو هو مؤمنٌ بإيمانِه فاسقٌ بكبيرتِه، وإذا مات فهو تحت المَشِيئة، إن شاء الله غفر له وإن شاء عذَّبه، لكنه لا يُخلَّد في النار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وفي الحديث: «**انْطَلِقْ فمَنْ كَانَ في قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ**»(١)، وقال ﷺ: «**وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**»(٢).

فالإيمانُ يكونُ قويًّا ويكونُ ضعيفًا، ومَن فيه إيمانٌ فإنه لا يُكفَّر، ولو فعلَ بعضَ المعاصي فلا يُكفَّر لكنه يَنقُص إيمانُه، فلا يُعطَى اسمُ الإيمانِ الكامل ولا يُسلَب اسمُ الإيمانِ بالكُلِّيَّة جمعًا بين النصوص.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٧٥١٠)، ومسلم رقم (١٩٣) واللفظ له.

(٢) أخرجه: مسلم رقم (٤٩).

لهذا يقولُ الشيخُ تقيُّ الدينِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلا يُعطَى الإيمانُ المطلقُ ولا يُسلَب مطلقُ الإيمان».

لا يُعطَى الإيمانُ المطلقُ الكاملُ كما تقوله المُرجِئة، ولا يُسلَب مُطلقُ الإيمانِ كما تقوله الخَوَارجُ والوَعِيدية، بل يُعطَى بقدْرِ ما عنده.

وهذا مذهبُ الحقِّ والاعتدالِ والجمعِ بين النصوص، فالمعاصي تُنقِصُ الإيمانَ وتُضعِفُه -ردًّا على المرجئة- لكنها لا تُخرِج صاحبَها من الإيمان، ردًّا على الخوارج والوعيدية.

والمُعتزَلة أحدثوا -كما مرَّ بنا- المنزلةَ بينَ المنزِلتين، وقالوا: ليس بمؤمنٍ ولا كافر. وقولُهم باطل؛ لأنه لا يوجد أحدٌ ليس بمؤمن وليس بكافر، إما أن يكونَ مؤمنًا وإما أن يكون كافرًا، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، إما كافرٌ وإما مؤمن، والمؤمنُ إما مؤمنٌ كاملُ الإيمان، وإما مؤمنٌ ناقصُ الإيمان.

قوله: «وهم في بابِ وعيدِ اللهِ بين المُرْجِئَة والوَعيدية»، المُرجئة مَرَّ بنا تعريفهم، وهم الذين يقولون: إن العملَ لا يَدخُلُ في حقيقةِ الإيمان. والوَعيدية هم الذين يُنفذون نصوصَ الوعيد، ويحكُمُون على مرتكبِ الكبيرةِ بالكفرِ والخروجِ من الإسلام.

هذا مذهبُ الخوارج -والعياذ بالله- ولهم ورثةٌ الآن من المُتَعالِمين والجُهَّال الذين لا يُحْسِنون الاستدلال، ولا يَفقَهون الأدلةَ ولا يُراجعون عقيدةَ السلف، فيأخذون النصوصَ ويتلاعبون بها، ويحكمون على الناسِ بالكفرِ والخروجِ من الدين، ثم يحمِلون عليهم السلاح؛ كما فعل ذلك أسلافُهم من الحَرُورِية، نسألُ اللهَ العافية.

وهُمْ وَسَطٌ في باب الإيمانِ والدِّينِ بين الحَرُورِية والمُعتزِلة، وبين المُرجِئَة والجَهْمِيَّة، وهُمْ وسَطٌ في بابِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ بين الروافض والخوارج. [٩]

---

[٩] **قوله: «الحَرُورِيَّة والمُعتزِلة»**، الحَرُورِيَّة هم الخوارج، سُمُّوا بالحَرُورِيَّة؛ لأنهم اجتمعوا في مكانٍ في العراقِ يقال له: حَرُورَاء، اجتمعوا فيه لحربِ المسلمين، فسُمُّوا بالحَرُورِيَّة، وكلُّ مَن اعْتقدَ مذهبَهم يُقال له: حَرُورِي؛ لأنه على مذهبِ الحَرورِيَّة، والمُعتزِلة: أتباعِ واصلِ بنِ عَطَاء الذي اعتزلَ مجلسَ الحسنِ البصري.

وأهلُّ السُّنةِ وسَطٌ في جميعِ أمورِ الدين - ولله الحمد - بين الإفراطِ والتفريط، وبين الغُلُوِّ والتساهُل؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، والوسَط هو: العدلُ الخيار، المتوسطة بين طرفين: طرفِ الإفراطِ وهو الغُلُو، وطرفِ التفريطِ وهو التساهل، فالإفراطُ أخذ به الخوارج، والتَّفريطُ أخذ به المُرجئة، وأهلُ السُّنَّة وسَط - ولله الحمد - بين هذا وهذا.

قوله: «في باب أصحاب رسولِ الله ﷺ»، الصحابةُ: جَمْعُ صَحَابي، والصحابيُّ هو: مَن لَقِي النبيَّ ﷺ مؤمنًا به ومات على ذلك.

فقولُهم: «مَن لقِيَ النبي ﷺ» يُخرِجُ به مَنْ آمن بالنبي ولم يَلْقَه، هذا لا يُسَمَّى صحابيًّا، مثلُ النَّجاشي رَحِمَهُ اللَّهُ فإنه آمن بالنبي ﷺ ولكنه لم يَلْقَه، فلا يقال: إنه صحابي، ولما مات نَعَاه النبيُّ ﷺ إلى أصحابِه وخرج بهم وصلَّى عليه صلاةَ الغائب(١).

---

(١) انظر: البخاري رقم (١٢٤٥)، ومسلم رقم (٩٥١).

« **من لقِي النبيَّ ﷺ مؤمنًا به** »، يخرج بذلك من لقِيَ النبيَّ ولم يؤْمِنْ به، فإن الكفارَ لَقُوا النبيَّ ﷺ، لَقوه ورَأَوْه واجتمَعوا به.

« **ومات على ذلك** » يَخرُج بذلك من لَقِيَ النبيَّ ﷺ وآمن به وصار صحابيًا ثم ارْتدَّ، فإنه تَبطُل صُحبتُه وتَبطُل جميعُ أعمالِه من الصُّحْبة وغيرِها إذا مات على الرِّدَّة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧]، أما لو تاب تاب اللهُ عليه وعادتْ إليه الصُّحْبةُ، وجميعُ الأعمالِ التي فعلها قبل الرِّدَّة على الصحيح؛ لأن الله قال: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فدلّ على أن الذي يتوب ولا يموت على الكفرِ أنه لا تحبَطُ أعمالُه؛ **لأن اللهَ شرطٌ لحُبُوطِ الأعمالِ شرطين**:

الأول: أن يرتد.

الثاني: أن يموت وهو كافر.

فهذا هو الذي يُحبِطُ عملَه من الصُّحْبةِ وغيرِها.

والواجبُ على المسلمين في حقِّ الصحابة: محبَّتُهم والاقتداءُ بهم والثناءُ عليهم وإكرامُهم؛ لأنهم صحابةَ رسولِ الله ﷺ الذين جاهدوا معه، وتلَقَّوا العلمَ عنه، وبلَّغوه للأمة، رضي اللهُ عنهم وأرضاهم، والله ﷻ، يقول: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم

﴿بِإِحْسَٰنٖ﴾ اتَّبعوهم: اقتدَوا بهم وساروا على نهجِهم، ﴿بِإِحْسَٰنٖ﴾ لا يتَّبعون الصحابة دون معرفةٍ لمذهبِهم، هذا اتباعٌ بغيرِ إحسان، والإحسانُ معناه: الإتقان، والإتقانُ لا يكونُ إلا بمعرفةِ الشيءِ وفقهِه، فما كلُّ من انتسَب إلى الصحابة وقال: أنا على مذهبِ السلف، يكون كذلك حتى يكونَ محسنًا، يعني متقنًا لهذا الاقتداء، وهذا لا يحصُلُ إلا بالتعلُّم، لا يحصُل بمجردِ الانتسابِ أو بمجرد الرَّغبة في الخيرِ أو المحبةِ للخير، لا بد أن تعرف ما عليه الصحابة معرفةً تامةً ثم تُتَابِعُهم عليه، أما مجردُ الانتسابِ من غيرِ تحقيقٍ فلا ينفع.

فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٖ﴾، أي لم يغْلُوا ولم يتساهلوا في مُتابعة الصحابة ﷺ، هذا هو الإحسان، يكون بين الغُلوّ وبين التساهل.

وقال ﷻ: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وقال ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ [الفتح: ٢٩] هذه صفاتُ الصحابةِ ﷺ يعني صفتُهم ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: ٢٩].

الصحابةُ أول ما بدأ الإسلامُ كانوا أفرادًا قليلين، سُئِل النبيُّ ﷺ وهو في مكَّةَ: «**مَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا الأمر؟**» قَالَ: «**حُرٌّ وَعَبْدٌ**»(١)، **حرٌّ**: وهو أبو بكر، **وعبدٌ**: وهو بلال.

(١) أخرجه: مسلم رقم (٨٣٢).

هذا أول ما بدأ الإسلامُ لم يكن معه ﷺ إلا قليل كما قال ﷺ: «**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**»[1]، بدأ الإسلامُ على هذا المبدأ ثم تكَاثَر الصحابةُ حتى بلغوا مَبْلَغَ الكمال.

وقوله تعالى: ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ يعني فِراخه، فالحَبَّةُ الواحدةُ أولُ ما تظْهَر تكونُ قصبةً واحدة، ثم تُفرِخ ويصيرُ بجانبها فِرَاخُها، الصحابةُ كذلك أولُ ما نشئُوا كانوا قلة، ثم تكاثروا مثلما يتكاثر الزرعُ بالفراخ ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ﴾ يعني قوَّاه وأيّده ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ ارتفع على قصَبِه ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ من حُسْنِه، هذه صفةُ الصحابةِ ﷺ.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ ليغيظَ بالصحابةِ الكفار، فالذين يغتاظُون من الصحابةِ ويبغضُونَهم هم الكفار والمنافقون. واستدَلَّ أهلُ العلم بهذه الآيةِ على أن من يَبغَضِ الصحابةَ فإنه كافر؛ لأن اللهَ قال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾، وقال ﷻ: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، وَصَفهم بأنهم بهذه الأوصاف العظيمة، ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ ثم قال في الأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

(١) أخرجه: مسلم رقم (١٤٥).

هذه في صفةِ الأنصار، الآية الأولى في المهاجرين وهذه في الأنصار، ثم قال في التابعين: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾[الحشر: ١٠]. وهذا يشملُ من جاءَ من بعدِهم إلى يوم القيامة: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا﴾ [الحشر: ١٠] يعني: بغضًا ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

هذه صفةُ أمَّةِ محمدٍ ﷺ من المهاجرين والأنصار، والذين اتَّبعوهم بإحسانٍ إلى يوم القيامة.

فالواجبُ للصحابةِ محبتُهم، والثناءُ عليهم، واتِّباعُهم، والاقتداءُ بهم، وعدمُ الخوضِ فيما جرى بينهم في أيامِ الفتنة، لا تَدخُلْ في هذا أبدًا أيها المؤمن، ولا تَخُضْ فيه، ولا تُخطِّئْ بعضَهم وتُصوِّبْ بعضَهم؛ لأنهم مجتهدون ﷺ يريدون الحق، فعليك أن تُمسِك لسانك ولا تتكلم فيهم، ويجب أن تحفظَ فيهم وصيةَ الله ﷻ ووصيةَ رسولِه، قال ﷺ: «**لا تَسُبُّوا أَصْحَابي، فَوَالذِي نَفْسِي بِيَدِه لوْ أنَّ أحَدَكم أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا ما بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِم ولا نَصِيفَهُ**»(١)، وقال ﷺ: «**اللهَ اللهَ في أصْحَابِي، لا تَتَّخِذُوهُم غَرَضًا بَعْدِي**»(٢)، وحُبُّ الصحابةِ من حُبِّ الرسولِ ﷺ، فمن أحبَّ الصحابةَ فقد أحبَّ الرسولَ ﷺ، ومن أبغضَ الصحابةَ فقد أبغضَ الرسولَ ﷺ، فهذا الواجبُ لصحابة رسول الله ﷺ، ورضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٣٤٧٠)، ومسلم رقم (٢٥٤٠).

(٢) أخرجه: الترمذي رقم (٣٨٦٢)، وأحمد رقم (١٦٨٠٣).

وهذا هو مذهبُ أهلِ السُّنَّة والجماعة مع صحابة رسول الله ﷺ.

❁ **والذين ضلُّوا في هذا على فريقين:**

- فريقُ النواصب.
- وفريقُ الرَّوَافِض.

فالروافضُ يُكفِّرون الصحابةَ ولا يستثنون إلا أربعةً من الصحابةِ هم: عَلِيٌّ، وأبو ذرٍّ، وسَلْمَان، والمِقْدادُ بنُ الأسود، ويُغلُون في عَلِيٍّ رضي الله عنه ويقولون: إن عليًّا هو الوصيُّ بعدَ رسول الله ﷺ، وأن خلافة أبي بكر باطلةٌ وظلمٌ واغتصاب، وخلافةُ عمرَ وعثمانَ كلُّها ظلمٌ واغتصاب؛ لأن الخلافةَ لِعلي.

أما النواصبُ فيبغَضُون عليًّا رضي الله عنه ويتكلمون فيه وفي أولاده.

والخوارج كفّروا الصحابة جميعًا.

وأهلُ السُّنَّة والجماعة يتولَّون جميعَ صحابةِ النَّبي ﷺ، أهلِ بيتِ الرسولِ وغيرِهم، يتولَّونهم جميعًا ولا يُفَرِّقون بينهم، نعم بَعْضُهم أفضلُ من بعض، فالخلفاءُ الراشدون وبقيةُ العشرةِ المبشرين بالجنةِ أفضلُ من غيرِهم من الصحابة، وأهلُ بَدْرٍ أفضلُ من غيرِهم، وأهلُ بَيْعةِ الرُّضْوان، والمهاجرون أفضلُ من الأنصار، لكنَّ التفضيلَ لا يقتضي انتقاصَ المفضولِ أو الكلامِ فيه، كلُّهم لهم فضلُ الصُّحْبةِ لرسولِ اللهِ ﷺ.

فأهلُ السُّنَّة وَسَطٌ في صحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ بينَ الروافضِ والخوارجِ والنَّواصِب، يتولَّون الجميع، ويُحبون أهلَ بيتِ رسولِ اللهِ ﷺ، ويُوقِّرونَهم، لكنَّهم لا يُغلُون فيهم؛ كغُلوِّ الرَّافِضَة حتى قالوا:

إنَّ الخلافةَ لعليٍّ ولذريتِه، وأن الصحابةَ اغتصبوها وظلموهم، ويلَعَنون أبا بكرٍ وعمرَ ويُسَمُّونَهم. صَنَمي قريش -قبحهم الله- وكلُّ آيةٍ فيها ظلم وكلُّ آيةٍ فيها كفرٌ يُنزِلُونها على الصَّحابة.

قوله: « وهم وسَطٌ في بابِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ بين الرَّوافِضِ والخَوارِجِ »، بين الروافض والخوارج، والنَّواصبِ أيضًا، الخوارجُ كفَّروا عليًّا وعثمانَ وكثيرًا من الصحابة، بينما الروافضُ على العكسِ غَلَوا في عليٍّ رضي الله عنه واعتقدوا أنه الخليفةُ بعدَ رسولِ الله ﷺ وأنه هو الوَصِيُّ، وأنَّ الصحابةَ ظَلَمَةٌ اغتصبوا حقَّه.

والخوارجُ كفَّروا عليًّا والصحابةَ، بينما الروافضُ بالعكس غَلَوا في علي، حتى إنَّ غُلاتهم يقولون: هو الله، والذين دون الغلاة لا يقولون إنه هو الله، لكن يُكَفِّرون الصحابةَ ويصِفُونهم بالظلم والطغيان، ويلعنُونهم ويشتُمونهم، فهم على طَرَفي نَقيض.

أهلُ السُّنَّة والجماعة -كما ذكرنا- تولَّوا جميعَ الصحابةِ وعرَفوا قدرَ أهلِ البيت، ولم يُفرِّقوا بين أحدٍ منهم عملًا بوَصَيَّة رسولِ اللهِ ﷺ.

هذا هو المذهبُ في الصحابةِ رضي الله عنهم، وهم أفضلُ الأُمَّة، قال ﷺ: **« خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الذين يَلُونَهُم، ثُمَّ الذين يَلُونَهُم »**[1]، فهم خيرُ القرون، وهم أفضلُ الأُمَّة، وهم الذين أوصَى بهم اللهُ جل جلاله وأوصى بهم الرسولُ ﷺ، وهم الذين نشروا الإسلامَ لما تحمَّلُوه عن الرسولِ ﷺ وبلَّغوه للأمة، من أين وَصَلَنا هذا الإسلامُ إلا عن طريقِ

(١) أخرجه: البخاري رقم (٢٥٠٨)، ومسلم رقم (٢٥٣٥).

وأعتقد أن القرآن كلام الله، منزل غير مخلوق. [١٠]

الصحابةِ ﷺ، هم الواسطةُ بيننا وبينَ الرسولِ ﷺ، فالأحاديثُ كلُّها رواتُها من الصحابة رَوَوْها عن الرسول ﷺ.

الحاصلُ: أنَّ هذه عقيدةُ الشيخِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقيدةُ أهلِ السُّنَّة والجماعة، والذين يقولون: إن الشيخَ خَارِجِي، وأنه يُكفِّر، فقد كذبوا عليه.

[١٠] لما كان من أصول وأركان الإيمان: الإيمانُ بالكتبِ التي أنزلها اللهُ على رسله لأجل هدايةِ العباد، والحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، وإقامةِ الحُجَّة عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

فلمّا كان القرآنُ المُنزَّلُ على رسوله ﷺ كلامُ الله؛ كغيره من الكتب الإلهية، وأن الإيمانَ بذلك ركنٌ من أركانِ الإيمانِ الستة، وهذا أمرٌ لم يختلفْ عليه المسلمون - ولله الحمد - ولكن نَبَتَتْ نابِتَةٌ بعد انقضاء القرون المُفضَّلةِ على يدِ الجَعْدِ بنِ دِرهم الذي تلقَّى عقيدتَه عن اليهود، تقول: إن القرآنَ مخلوقٌ؛ لأن اللهَ لا يتكلم - تعالى الله عما يقولون عُلُوًّا كبيرًا - وإنما إضافةُ الكلام إليه مَجازية؛ لأنه خَلَقَ الكلامَ في غيرِه، فخَلَقه اللهُ في اللَّوح المحفوظ، أو في جبريل، أو في محمد ﷺ.

ويا سبحان الله!! كيف يُضاف الكلامُ إلى غيرِ من تكلَّم به؟ العقولُ لا تُقِرُّ هذا. فهذا مُحالٌ في العقول، وغَرضُهم من ذلك أن يُبطِلُوا الاحتجاجَ بالقرآن، وأن يقولوا: ليس عند الناسِ كلامُ لله ﷻ، القرآنُ الذي هو أولُ الأدلة، فأولُ الأدلة: القرآنُ ثم السُّنة، ثم الإجماع، ثم القِياس، فإذا قيل: إنه ليس لله كلامٌ بين الناس، بماذا يسْتدلُّ الناس؟ إذا أبطلوا الأصلَ الأولَ بطُلَت بقيةُ الأصُول وبهذا يُقضَى على الإسلامِ بهذه الطريقةِ، وشُبْهَتُهم يقولون: نُنزِّه اللهَ من أنه يتكلم؛ لأنه لو وَصَفناه بأنه يتكلمُ شَبَّهناه بالخلق، فنحن نُنَزِّه اللهَ عن ذلك. فجاؤوا من طريق تنزيهِه بزعمِهم، وفي الحقيقة أنهم فرُّوا من التَّشْبيه الذي زَعمُوه إلى تشبيهٍ أقبح، فإذا نفُوا عنه الكلامَ لئلا يُشَبَّه بالمتكلمين من الخلق، فقد شَبَّهوه بالجمادات التي لا تنطِق، وهذا نقْصٌ أعظم.

ولذلك حَكَم أئمةُ أهلِ السُّنة بكفرِ الجَهْمية، قال الإمامُ ابن القيم:

ولقدْ تَقَلَّد كفرَهم خمسون في عَشْرٍ مِن العلماءِ في البُلدان

خمسون في عشرة يعني خمسمائة عالم حَكموا بكفرِ الجهمية؛ لأنهم نفوا كلامَ الله سبحانه. ولذلك خالدُ بنُ عبدِ الله القَسري قتل الجعدَ بنَ الدِّرهم لأجلِ هذه المسألة، في يومِ عيدِ الأضحى فقال: «أيها الناس ضَحّوا تقبلّ الله ضحاياكم، فإني مضحٍّ بالجعد بن درهم؛ فإنه زعم أن اللهَ لم يُكلّمْ موسى تكليمًا، ولم يتخذْ إبراهيم خليلًا». ثم نزل وذبحَه تحت المِنبر في مشهد من العلماء والمسلمين، وشكروه على ذلك.

ولهذا قال الإمامُ ابن القيم:

ولأجْلِ ذا ضَحّى بجَعْدٍ خالدُ الـ ـقَسْريُّ يومَ ذبائحِ القُربَان
إذْ قالَ إبراهيمُ ليسَ خليلَه كَلّا ولا موسى الكَليمَ الدَّاني
شَكَرَ الضحيّة كُلُّ صاحِبِ سنّةٍ للهِ دَرُّكَ مِنْ أَخي قُربَان

ولما قُتِل الجعدُ بن درهم جاء من بعده الجَهْمُ بنُ صَفْوانَ، فتبنّى مقالتَه الخبيثة، فقتله الأميرُ سَلْمُ بن أَحْوَز، وهكذا كان وُلاةُ أمورِ المسلمين، يقتلون الزَّنَادِقة حمايةً للعقيدة، فقد قال ﷺ: «**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**»(١)، وقال ﷺ: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**»(٢). فكانوا يقتلون الزنادقةَ ويُريحُون المسلمين من شرِّهم حمايةً للعقيدةِ التي هي الضَّرُورِيَّةُ الأولى من الضَّرُورِيَّات الخَمس التي تَجِبُ المحافظةُ عليه.

فهذا أصلُ منشَأ هذهِ المقالةِ الخبيثة، ثم ورِثَها عنه المُعتزِلة، والجَعْفَرِيَّة من الشِّيعَة يقولون بهذه المقالة؛ لأنهم تَتَلمذُوا على المُعتزِلة فأخذوها عنهم، والشِّيعةُ الزَّيْدِيَّة والإبَاضِيَّة يرَوْن هذا الرأْيَ ويعتقدون أن القرآنَ مخلوق، وأنه ليس كلامُ الله، كل هذا ورِثُوه عن الجَهْمِيَّة، وهذا مُدَوَّنٌ في عقائدهم التي يدرسُونها الآن.

جاءت الأشاعرةُ فأتَوا بقولٍ غريب في هذه المسألة، لا هو مع الجهمية، ولا هو مع أهل السُّنة، فقالوا: الكلامُ هو المعنى القائمُ

(١) أخرجه: البخاري رقم (٦٥٢٤).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (٦٤٨٤)، ومسلم رقم (١٦٧٦).

بالنفسِ الإلهية، وأما هذا القرآن والكلام الذي نزل على الرسلِ فإنما هو عبارةٌ أو حكايةٌ عن كلام الله، فهو -أي القرآن الذي معنا- مخلوق؛ لأنه عبَّر به محمدٌ أو جبريلُ عن كلام الله، واللهُ لا يتكلم، وإنما كلامُه معنى قائمٌ بنفسِه يُعبِّر عنه الرسول. فهم جمعوا مُتَناقِضَات لم يقُل بها أحدٌ غيرُهم، فجعلوا القرآنَ بعضَه غيرَ مخلوق وهو المعنى النفسي، وألفاظُه مخلوقة، فهذا القرآنُ الذي معنا الآن ليس هو كلامُ الله، إنما هو كلامُ محمد، أو جبريل، وهو مخلوقٌ، أو أن جبريلَ أخذه من اللَّوح المحفوظ، فهو ليس كلامُ الله، وإنما هو حكايةٌ عن كلام الله، أو عبارةٌ عن كلامِ الله، «عبارة» هذا قولُ الأشاعرة، و«حكاية» هذا قول الماتْرِيدِيَّة، وكلُّهم يقولون: هو ليس كلامُ الله؛ لأن كلامَ اللهِ هو المعنى القائمُ بالنفسِ فقط، فالقرآنُ بعضُه إلهَي وبعضُه بشري، مثل مقالة النصارى في عيسى: اتَّحد اللاهوت بالناسوت، فعيسى بعضُه من الله، وبعضُه مخلوق، فكذلك قولُ الأشاعرة يُشْبِهُ قولَ النصارى في المسيح، بعضُه مخلوق، وبعضُه غيرُ مخلوق، تناقُضَات والعياذ بالله.

أما من التزم بالحقِّ فهو -ولله الحمد- على بَيِّنةٍ وعلى بصيرة، وأهلُ السُّنَّة والجماعة ما زالوا يقولون: القرآنُ كلامُ الله منزَّل غيرُ مخلوق، منه بدأ وإليه يعود. وامْتُحِن أهلُ السُّنة من المعتزلة على يد المأمون في هذه المسألة، وعُذِّب الإمامُ أحمد عند هذه المسألة، المأمون يريد أن يُلزم الناس بعقيدة المعتزلة في القرآن وأنه مخلوق، وأهل السنة أَبَوْا ورفضوا، وفي مقدمتِهم الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ،

أَبوْا أن يقولوا وأن يخضعوا لهذه المقالة الخبيثة، فثبتهم اللهُ على الإيمان، وخذل اللهُ المعتزلةَ ومن نَحَا نحوهم، ولم يحصلوا على طائل إلا الفضيحة والنكسة والعياذ بالله.

ومع الأسفِ أن بعضَ الكُتّاب يقولون: مسألةُ القولِ بخلقِ القرآن أو عدمِ خلقِه مسألةٌ لا طائلَ تحتها، ولا تحتاجُ إلى انقسام، والإمام أحمد مُخْطئٌ عندما امتنع، أو هذه أمورٌ سياسية، هم عذّبوا الإمام أحمد ليس من أجل موقفه من القول بخلق القرآن، بل عذّبوه؛ لأنهم يخافون أن يَقلِبَ الناسَ عليهم، فهي مسألةٌ سياسية. هكذا يقول هؤلاء الكُتّاب الجُهَّال أو المُغْرِضُون، ويقولون: مسألة القولِ بخلقِ القرآن لا تستحقُّ كلَّ هذا.

هكذا يقولون؛ لأنهم إما جُهّال لم يُدركوا الخطر، وإما أنهم مغرضون مُعْتزِلة ويريدون أن تمُرَّ هذه المسألةُ على الناس، ويُقال: لا تستحقُّ كلَّ هذه الجلبة، هذا موجود الآن في كتاباتهم في الصُّحُفِ وفي المُؤَلَّفات.

فالحاصلُ: أني نبَّهت على هذا لِئلّا يغترَّ أحدٌ بكتابات هؤلاء، ويقول: المسألةُ سهلة، والمسألةُ لا تحتاجُ إلى كلِّ هذه الردود. بل المسألةُ خطيرة جدًّا، فإذا نفَيْنا أن القرآنَ كلامُ الله، إِذَنْ ماذا يبقى معنا؟ وبالتالي تَبطُل الشريعة، إذا هُدِم الدليلُ الأولُ لها والمصدرُ الأول بها بطلت الشريعة، وهذا غرضُ المُؤسِّسِين لهذه المقالةِ الخبيثة، وإن كان كثيرٌ من أتباعِهم لا يُدرِكون هذا الغرض، ولكنَّ هذا هو المقصود، يكفي أن هذه المقالةَ جاءت من اليهود على يد الجَعْدِ بنِ دِرْهم الذي تلقَّاها عن اليهود.

منه بدأ وإليه يعود، وأنه تكلّم به حقيقة. [١١]

وقولُه: «وأعتقدُ أن القرآنَ كلامُ اللهِ مُنزّل» منزّلٌ؛ كما يقولُه أهلُ السُّنةِ والجماعة «غير مخلوق»؛ كما تقوله الجَهْمية ومَن سار في رِكابهم، هذه هي عقيدةُ يَجبُ على المسلمِ أن يعتقدَها، ولا يقولُ: هذه مسألةٌ شَكْلِيَّة.

[١١] **قوله: «منه بدأ»** يعني: نزلَ من الله ﷻ حيثُ تكلَّمَ اللهُ به حقيقة، وسمعَه منه جبريلُ، ونزل به إلى محمد ﷺ، وبلَّغه محمد ﷺ لأُمَّته، فهو كلامُ اللهِ حقيقة لا مجازًا. وأما قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢٠] يعني: جبريل ﵇، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤١]، يعني: محمدًا ﷺ. أضافه إلى الرسول البَشَري تارةً، وإلى الرسولِ المَلَكي تارةً، وأضَافه إلى نفسِه ﷻ تَارة.

فيُقال: الكلامُ إنما يُضافُ إلى من قالَه مُبتَدئًا، وأما إضافتُه إلى جبريلَ أو إلى محمد فهي إضافةُ تبليغ، ولا يمكن للقولِ الواحد أن يقولَه عِدّة قائلين أبدًا، فدلَّ على أنه كلامُ الله، ولكن أضافه إلى جبريلَ وإلى محمد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ إضافةُ تَبلِيغ، والكلام إنما يُضاف إلى من قاله مبتدئًا، لا إلى من قاله مبلِّغًا مؤديًا.

فهذا هو الجوابُ عن هذه الشُّبْهة التي يتعلَّقون بها.

قوله: «وإليه يعود»، إشارةٌ إلى ما يكون في آخر الزمان حينما يُرفعُ القرآنُ، ويُؤخَذُ من صدور الرجال ومن المَصاحف، ولا يَبْقَى له أثر، وذلك من علامات الساعة، فكما أنه نزلَ منه فإنه يُرفَع في آخر الزمان

ويعود إليه ﷻ، ولا يبقى في الأرض قرآنٌ[١].

قوله: «**تكلَّم به حقيقة**»، هذا ردٌّ على الذين يقولون: أنه تكلم به مجازًا، فإضافته إلى الله من باب المجاز؛ لأنه هو الذي خلَقه فيُضافُ إليه مجازًا.

وليس هو المعنى القائمُ في نفسه كما تقولُه الأشاعرة، وليس هو مخلوقًا كما تقوله الجَهْميَّة، وإنما تكلمَ اللهُ به حقيقةً وسمعَه منه جبريلُ وتَحمَّله عن الله ﷻ وبلَّغه لنبيِّه محمد ﷺ، فالقرآنُ عن محمد عن جبريلَ عن الله ﷻ، هذا سندُ القرآن؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩- ٢١] هذا كله في جبريل.

ثم قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ [التكوير: ٢٢] يعني محمدًا: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢] كما تقوله الكفار، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ [التكوير: ٢٣] أي: رأى جبريل عليه السلام على صورته الحقيقية الملكية ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] رأى جبريل وهو في الأفق على صورته في بطحاء مكة، ورآه مرة أخرى ليلة المعراج عند سدرة المنتهى، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]، أي: رأى جبريل عند سدرة المنتهى ليلة المعراج، فالنبي ﷺ رأى جبريل على خِلْقته المَلَكية مرتين[٢]، وفيما عدا ذلك يأتي إليه بصورة إنسان، ويراه الصحابةُ على صورة إنسان، ويظنون أنه من البَشَر، وأنه وافدٌ إلى الرسول ﷺ[٣].

---

(١) انظر: «سنن» ابن ماجه رقم (٤٠٤٩)، والحاكم في «المستدرك» رقم (٨٤٦٠).
(٢) انظر: البخاري رقم (٣٢٣٥)، ومسلم رقم (١٧٧).
(٣) انظر: مسلم رقم (٨).

وأنْزَلَه على عبدِه ورَسُولِه وأَمينِه على وَحْيه، وسَفيره بينه وبين عباده نبينا محمد ﷺ. [١٢]

[١٢] **قوله: «وأنزله على عبدِه ورسولِه»**، هو محمد ﷺ عبدُه ورسولُه، «عبده» هذا ردٌّ على الذين يغلُون في محمد ﷺ ويجعلون له شيئًا من الإلهية، فهو عبدٌ وليس معبودًا، و«رسوله» هذا ردٌّ على الذين يُنكرون رسالةَ محمد ﷺ، فهم طَرفي نقيض، طائفةٌ غَلَت فيه ورفَعَتْه إلى مقام الأُلوهية، وطائفةٌ فرَّطت في حقِّه وجَحَدتْ رسالتَه، فنحن نُقِرُّ بالأمرين: أنه عبدٌ وأنه رسولٌ.

قوله: «وأمينُه على وحيِه»، الرسولُ أمينٌ، لم يزِدْ في القرآنِ ولم يُنْقِص، بل بلَّغه كما جاءه عن الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٥]، لو تَقوَّل محمد ﷺ على الله ونسَب إليه ما لم يقُلْ لأهْلَكَه اللهُ ﷻ، فهذا فيه تزكيةٌ للرسول ﷺ وأنه بَلَّغ البلاغَ المبين، فهو مُبَلِّغ عن اللهِ ﷻ أمينٌ على الوحي؛ ولهذا لما قَسَّم الصَدَقة، وتكلَّم من تكلم من المنافقين، قال ﷺ: «**أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»[١]، ألا تَأمنُوني على قَسْم الصَّدقات، وأنا أمينُ مَن في السماء -وهو اللهُ- على الوحي.

قوله: «وسفيرُه بينَه وبينَ عبادِه»، السفيرُ: هو الرسول، فالرسولُ سفيرٌ بين الله وعبادِه لتبليغِ الرسالة، أرسلَه اللهُ ﷻ ليُبَلِّغَ رِسالاتِ الله ﷻ.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٤٠٤٩)، ومسلم رقم (١٠٦٤).

وأؤمِنُ بأن اللهَ فعّال لما يريد، ولا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يخرج شيء عن مشيئته، وليس شيء في العالم يخرج عن تقديره، ولا يصدر إلا عن تدبيره. [١٣]

---

[١٣] انتهى الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من مسألةِ الكلام، وبيَّن عقيدتَه فيها، وأنها عقيدةُ أهلِ السُّنَّة والجماعة، وأنه يتبرأُ من عقيدةِ الجَهْمية والمُعْتَزِلة والأشاعِرة الذين خاضوا في كلام الله، وقالوا مقالاتٍ شَنيعة، ومن مَقالة الكفار الذين قالوا: إنَّ محمدًا هو الذي اخترعَ هذا القرآن، وجاء به ونسَبَه إلى الله ﷻ، هذه مقالة الكفار؛ ولهذا يقولُ الوليدُ بن المغيرة: إنْ هذا إلا قولُ البشر، قال تعالى مُخبِرًا عنه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدَّثر: ١٨- ٢٥]، يعني: أنَّ القرآنَ قولُ محمدٍ ولم يَقُلْه اللهُ ﷻ.

فالجَهْميَّة شابَهوا الكفارَ في هذا وقالوا: إن القرآنَ ليس كلامُ الله، وإنما هو قولُ محمد.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذلك: «وأُؤْمن بأن اللهَ فعَّالٌ لما يريد»، وهذه مسألةٌ أخرى، وهي الإيمان بأفعالِ الله ﷻ له أسماءٌ، وله صفاتٌ، وله أفعال، وله إرادةٌ ومشيئة، «فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ»، يخلُق ويرزُق ويُحيي ويُميت ويدبِّر، هذه أفعالُ الله ﷻ، وهي بإرادتِه ومشيئتُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨]، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، يفعلُ ما يشاء، ويفعلُ ما يريد.

وقوله: «ولا يكونُ شيءٌ إلا بإرادتِه»، ما يكونُ في هذا الكونِ فهو من خلْقِه وإيجادِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبمشيئتِه وإرادتِه، لا يكونُ في هذا الكونِ شيءٌ

بغيرِ إرادتِه، أو بغيرِ خلقِه، أو أن أحدًا يَخلُقُ مع الله ﷻ.

هذا ردٌّ على المعتزلةِ الذين يقولون: إن العبدَ يخلُقُ فعْلَ نفسه، وإن اللهَّ لم يخلُقْ أفعالَ العباد، وإنما هم الذين خلَقوها مستقلِّين عن الله ﷻ، وليس للهِ فيها إرادةٌ ولا مشيئة.

فنحن نؤمن بأن أفعالَ العبادِ هي خَلقُ الله، وهي كسْبُ العباد، قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، أي: وخلَق ما تعملون.

قوله: «ولا يَخرج شيء عن مشيئته»، في هذا الكون، لا يُمكن أن يحدثَ شيءٌ من كفر أو إيمان أو طاعة أو معصية أو غنى أو فقر أو حياة أو موت أو رِزْقٍ إلا بمشيئتِه ﷻ، مشيئتُه شاملةٌ وإرادتُه شاملة، وكلُّ شيءٍ بإرادتِه ومشيئتِه، لا كما تقوله المُعتزِلة: إن العباد هم الذين يَخلقون أفعالَهم استقلالًا وليس لله فيها أي تدَخُّل، لكونِهم هم الذين يخلُقون أفعالَهم. فيصِفون اللهَ ﷻ بالعجز، ويُعطِّلونَه عن الخَلْقِ والفِعل ويجعلونه معه خالقًا غيرَه، وعلى نقيضِهم الجبرية الذين يقولون: إن العبادَ ليس لهم أفعال، إنما هي أفعالُ الله يحرِّكهم فيها كما تُحرَّك الآلة، ليس لهم إرادةٌ ولا مشيئة، فهم على النقيض من المعتزلة.

فالجبريةُ غَلَوا في إثباتِ أفعال الله، وغَلَوا في نفي أفعالِ العباد، وقالوا: العباد ليس لهم أفعال، فهم غَلَوْا في إثبات وغَلَوْا في نفي.

والقَدَريةُ والمُعتزلةُ على العكس غَلَوْا في إثباتِ أفعال العباد، فهم على طَرَفي نقيض.

أما أهلُ السُّنة والجماعة فيقولون: إن اللهَ هو الذي يخلقُ ويرزقُ ويُدبِّر؛ كما يشاء وكما يريد، والعبادُ لهم مشيئة، ولهم إرادةٌ ولهم اختيار، يفعلون الأفعالَ باختيارِهم ومشيئتِهم وإرادتهم، فلهم مشيئةٌ ولهم إرادة، لا كما تقولُه الجَهْمية الجَبْرية، ولكن مشيئتُهم ليست مستقلة كما تقول المُعتزِلة، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، فقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ رَدٌّ على الجَبرية الذين ينفون مَشيئةَ العبد، وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ رَدٌّ على المعتزلة القدرية الذين ينفون إرادةَ الله ومشيئته، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

والعقابُ والثوابُ إنما على أفعالِ العبادِ التي فعلُوها بإرادتِهم ومشيئتِهم واختيارِهم، يُعذَّبون على المعاصي؛ لأنهم هم الذين فعلوا هذه الأشياءَ باختيارِهم، وكانوا يستطيعون تركَها وتجنُّبَها والابتعاد عنها، وهم مَنْهيون عنها، فهم أقدموا عليها باختيارِهم، فيُعذَّبون على هذا؛ ولذلك الذي ليس له مشيئةٌ ولا اختيار؛ كالمجنونِ والصغيرِ والنائمِ لا يُؤَاخَذ، لأنه ليس له مشيئةٌ ولا إرادة، أما العاقلُ البالغُ فهذا يُؤاخَذ على أفعاله؛ لأنه يستطيعُ الفعلَ والترك، اللهُ أعطاه الإمكانيةَ لهذا وهذا، يستطيعُ أن يُصَلِّي ويستطيع أن يزني في آنٍ واحد، وهو يستطيع هذا وهذا، فإن كفَّ عن الزِّنا وأقامَ الصلاةَ آجَرَه الله ﷻ، وإن عكس وأتى الزنا وترك الصلاة عاقَبَه اللهُ على أفعالِه، وعلى إرادتِه.

ولا مَحِيد لأحدٍ عن القَدَر المَحدود، ولا يَتَجاوز ما خُطَّ له في اللوح المسطور. [١٤]

قوله: «**وليس شيءٌ في العالمِ يَخرجُ عن تقديرِه**»، كل هذا ردٌّ على المُعتزلة القَدَريَّة، «ولا يَصدُرُ إلا عن تدبيرِه»، قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٠].

[١٤] كذلك أيضًا يؤمنُ الشيخ -وأهلُ السُّنة والجماعة يؤمنون- أنه لا مَحيدَ للإنسانِ عن القضاءِ والقَدَر الذي قدَّره اللهُ ﷻ، خلافًا للمُعتزِلَة الذين يقولون: العبدُ يستطيعُ أن يفعل، وليس لله عليه إرادة ولا سيطرة.

وأهلُ السُّنَّة يقولون: إنه يُقدِّر ﷻ على العبدِ امتحانًا وابتلاءً لأجلِ أن يُثِيبَه أو يُعاقبَه، وقد يُقدِّر الأشياءَ على العبدِ عقوبةً له، فالعبدُ يفعلُ الأسبابَ، واللهُ ﷻ يُرتِّب الأسبابَ نتائجَها، فإن فعل أسبابًا طَيِّبة رتَّب اللهُ عليها نتيجةً طَيِّبة، وإن فعل أسبابًا مُحرَّمة رتَّبَ اللهُ عليها نتيجةً سَيِّئةً؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥- ٧].

فالسببُ من قِبَلِ العَبد، والنتيجةُ من قِبَل اللهِ ﷻ، وهو يُثيبُ أهلَ الطاعةِ ويُيَسِّرُهم لليُسرى ويُعينُهم، ويعاقبُ أهلَ المعصية، فيتركُهم يتمكّنون من هذه الأفعال عُقوبةً لهم؛ لأجلِ أن يؤاخذَهم ويعاقبَهم بسبب نيَّاتهم الخَبيثة، وبسبب تَصرُّفاتهم، ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٨- ١٠]، العبدُ هو المُتسبِّب، واللهُ يُقدِّر عليه نتيجةً لعملِه هو ونيتِه هو، إما ثوابًا وإما عِقابًا؛ ولهذا سأل

الصحابةُ رسولَ اللهِ ﷺ لما بيَّن لهم أن كلَّ شيءٍ بقضاء اللهِ وقدرِه، قالوا: يا رسولَ اللهِ، ألا نتَّكِلُ على كتابِنا وندَعُ العمل؟ قال ﷺ: «**لَا، اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»(١).

فأنزلَ اللهُ هذه الآياتِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠]، فلا يجوزُ للعبدِ أن يتوقفَ ويقول: إن كان قُدِّر لي أن أصيرَ في الجَنة فأنا في الجَنة، وإن كان مُقَدَّرًا إنه في النار يصيرُ في النار. هذا لا يجوز، والعبدُ لا يَطَّرِدُ هذا في أفعالِه، هل يجلسُ الإنسانُ ويترك طلبَ الطَّعامِ والشَّراب، ويقول: إن كان اللهُ مُقَدِّرًا لي الطعامَ فسَيأْتيني وأنا جالس، وسيأتِيني الشرابُ وأنا جالس؟ لا يقول هذا، بل يقوم ويبحث، إذا جاع يقوم ويبحث عن الطعام، وإذا عطش يقومُ ويبحثُ عن الماء، ولا يقول: إذا كان اللهُ مُقدِّرًا لي الطعامَ والشرابَ سيأتيني؛ لأن فطرتُه تقتَضِي أن يتحركَ ويبحَث.

لو أن إنسانًا جاء وضربَه أو قتلَ ابنَه هل يسكُتُ ويقول: هذا قضاءٌ وقدر، أو يطلُبُ الانتقام؟ الجوابُ: يطلُبُ الانتقام، ولِم لا يقول: هذا قضاءٌ وقدر، ولا يُؤاخَذُ القاتلُ أو الضارب، ولا يُطالَبُ بالانتقام؟ هذا دليلٌ على أنَّ الأشياءَ لها أسباب، وأنَّ العبدَ مطلوبٌ منه فعلُ الأسباب، و لايَبْقى بدون فعلِ الأسباب، اللهُ ربطَ المُسَبَّبَات بالأسباب، حتى الطيور والحيوانات لا ترى هذا الرأي، لا تقعُدُ في أَوْكارها وتقول:

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٤٦٦٦)، ومسلم رقم (٢٦٤٧).

سيأتيني الرزقُ وأنا في وكري. وهذه طيورٌ وحيواناتٌ، بل تروحُ وتبحث عن الرزق؛ لأن اللهَ فطرَها على هذا، أنه لا يحصُل لها شيءٌ إلا بعملٍ وحركةٍ وبحْث، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

فهذه المقولةُ خاسرةٌ وكاذبةٌ - وهي الاحْتِجَاجُ بالقَدر على تَرْكِ العَمل - والمسلم مطلوب منه أن يعملَ العملَ الصالح، وإذا أذنبَ مطلوبٌ منه التوبةُ، وعنده القُدْرة على هذا، فهو يقدِرُ أن يفعل، ويقدِرُ أن يترك، فلو ترَكَ العملَ عَجْزًا لم يُؤاخِذْهُ الله، ولكنْ إنْ تركَه كَسَلًا فهو مُؤَاخَذٌ على هذا؛ لأنه مُفَرِّط، فهناك فرْقٌ بين الكسلِ وبين العَجْز، العَجْزُ لا يُؤاخِذُهُ اللهُ عليه، ولكنْ إذا كَسَل فهذا يُؤاخَذ؛ لأنه هو الذي فرَّط، فَفِطَرُ العِباد تقتضي هذا مع دلالةِ الكتابِ والسُّنَّة.

قوله: «لا مَحِيد»: أي لا مفرَّ عن القَدَر المحدود، ولكن أنتم مأمورون بفعلِ الأسْباب، أما خَلْقُ النتائج فهذا بيدِ اللهِ ﷻ، قد تفعل ولا يحصل لك شيء؛ لأن اللهَ لم يقدِّر لك نتيجة، والرسولُ ﷺ يقول: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»(١).

أنتَ فعلتَ السَّببَ، ومسألةُ حُصولِ المقصُودِ هذا عند اللهِ ﷻ، فإذا لم يَحصُل المقصودُ فإنك لا تلومُ نفسَك؛ لأنك فعلتَ ما تستطيع،

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٦٦٤).

وتؤمنُ بالقضاءِ والقَدَر، وتقول: لعلَّ اللهَ اختارَ لي ما هو أحسنُ؛ لأنه لو حصَلَ لي المقصودُ فرُبَّما صار ضَررٌ عليَّ، فاللهُ حبَسَه عني لمَصلَحَتي، ولا تكْرَهْ ذلك.

قوله: «ولا يتَجاوز ما خُطَّ له في اللوح المسطور»، كلُّ الأشياءِ مكتوبةٌ في اللوح المحفوظ الذي أمرَ اللهُ القلَمَ فكتبَ فيه كلَّ ما هو كائن إلى يوم القيامة، وكان ذلك قبلَ خلْقِ السمواتِ والأرضِ بخمسينَ ألفِ سنة، وكان عرشُه على الماء[1]، كلُّ شيءٍ مكتوبٌ ومُقدَّرٌ ومَحدود، ولا بدَّ من وُقوعِه في وقتِه، ولكن أنت مأمورٌ بفعلِ الأسباب، لا تتوقفْ وتقول: أنا سأتوقَّفُ مع القضاءِ والقَدَر.

هذا لا يجوزُ أبدًا إلا لإنسانٍ ليس بعاقل، أما العاقلُ فلا يمكن أن يجلسَ ويُعطِّلُ الأسبابَ ويقولُ: المكتوبُ سَيَقع.

فالصوابُ: أن هذا الشيءَ مكتوبٌ إذا فعلتَ السببَ، أما إذا لم تفعلْ السببَ فلا يحصُلُ لك شيء، لو لم تتزوجْ لم تُرزَق الولد، فالزواجُ سببٌ لحصولِ الولد، وهكذا كلُّ الأسباب.

فأنت أيها العبدُ عليك فعلُ السبب، وأما النتيجةُ فهي عندَ الله ﷻ، ولا تأسفْ إذا لم تحصُلْ النتيجةُ بل ترضَى بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه، وتقول: «قَدَّر اللهُ وما شاءَ فعل»، ورُبَّما يكونُ هذا خيرًا لك، فلا تكرهْ ذلك.

وقوله: «في اللوح المسطور»، الذي فيه كتابةُ مقاديرِ الأشياءِ كلِّها، وهناك مقاديرُ جُزئيةٌ تُؤْخذُ من اللوحِ المحفوظ، مثل: الجنينِ في بطنِ

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٦٥٣).

وأعتقدُ الإيمانَ بكلِّ ما أخبرَ به النبيُّ ﷺ مما يكونُ بعد الموت. [١٥]

أمِّه إذا بلغَ أربعةَ أشهرٍ نُفخَتْ فيه الروح، يُرسَلُ إليه الملك، ويُؤْمَر بكَتْبِ أربعِ كلمات: رِزْقُه، وأَجَلُه، وعَمَلُه، وشَقِيٌّ أو سعيد(١).

هذا مأخُوذٌ من اللوح المحفوظ من الكِتابة السابقة.

[١٥] **من أركانِ الإيمانِ**: الإيمانُ باليوم الآخر، وقد تكرَّر ذكرُه في القرآنِ الكريم، ففي أولِ سورةِ البقرةِ قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، فمن صفاتِ المتقين أنهم يُوقنون باليومِ الآخر، والإيمانُ باليومِ الآخِرِ من البِرِّ، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فيؤمنون باللهِ واليومِ الآخر، وتكرَّر في القرآنِ الكريم، وسُمِّي باليومِ الآخِر؛ لأنه بعد الدنيا، الدنيا هي اليومُ الأول، ويومُ القيامةِ هو اليومُ الآخِر، سُمِّي يومُ القيامة لقيامِ الناسِ من قبورِهم لربِّ العالمين.

وهذا الركنُ من أركانِ الإيمانِ خالفَ فيه كثيرٌ من الكفرة، فالكفارُ الذين بُعِث إليهم النبيُّ محمدٌ ﷺ يكْفُرون باليوم الآخر، ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]، ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩]، فالذي يُنْكرُ اليومَ الآخر، ويُنكرُ البعثَ كافرٌ بالله ﷻ الكفرَ المُخرِّجَ من المِلّة؛ لأنه جاحدٌ لركنٍ من أركانِ الإيمان؛ ولأنه مكذِّب للهِ ولرسولِه، بل لجميع الرسل، مكذِّب لما عُلِم من الدِّين بالضَّرورة، وليس لهم حُجَّة أو شُبهَة إلا أنهم يقولون: لا يمكن هذا؛ لأننا صِرنا رُفاتًا وعظامًا فمَنْ يُحيي العظامَ وهي رَميم؟

---

(١) انظر: البخاري رقم (١٢٢٦)، ومسلم رقم (٢٦٤٣).

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٨]، ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٢]، إلى غير ذلك.

يستبعدون قدرةَ اللهِ على أن يُحيي العظامَ وهي رميم، وأن يعيدَها وهي تراب، ويقولون: ﴿ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥]، يتَحَدّون اللهَ فيقولون: إذا كان هناك بعثٌ فآباؤُنا ماتوا فأحْيُوهم ونحن ننظرُ إلى ذلك ﴿ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥]، واللهُ ﷻ أخبرَ أنه لا يُغَيِّرُ سنتَه سبحانه من أجلِ استعجالِ الكافرين، اللهُ قضى بأنه لا يكونُ البعثُ إلا في وقتِه، فلا يُعجِّلُه من أجلِ استعجالِ الكافرين، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٦]، فاللهُ قضَى بأن البعثَ له معادٌ لا يتقدمُ، ولا يتأخر، واللهُ ﷻ لا يستفزُّه أحد، ولا يُغيِّرُ وعدَه وتوقيتَه ﷻ من أجلهم.

وكذلك يتَحدّون الرسولَ ﷺ يقولون: متى قيامُ الساعة؟ ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، فقيامُ الساعةِ لا يعلمُه إلا الله، لا يعلمُه نبيٌّ مرسَلٌ ولا مَلكٌ مُقرَّب، فلما سأل جبريلُ رسولَ الله ﷺ بحَضْرَةِ أصحابِه قال: أخبرني عن الساعة؟ قال: «**مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»[1]، يعني: أنا وأنت سواء، لأننا لا نعلمُها؛ لأن هذا لا يعلمُه إلا اللهُ ﷻ، ثم ما هي فائدتُهم إذا عرفوا

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٥٠)، ومسلم رقم (٨) واللفظ له.

وقتَ قيامِها؟ ليس لهم فائدة في هذا، إنما الفائدة في الاستعدادِ والعمل، وأما متى تقومُ الساعةُ فهذا ليس لهم فيه فائدة، وإلا لبيَّنه اللهُ لهم، ولكن هذا من بابِ المُكَابرةِ والعناد، وإلا فمعلومٌ أنه لو جاءك أحد، وقال: إنه مقبلٌ عليك عدوٌّ إن لم تستعد للقائِه وتَحْذرْ منه فسوف يقتلُك ويأخذُك. هل من الحكمة أنك تقول: متى يأتي هذا العدو؟ هذا ليس من الحكمة، ولا من العقل، الحكمةُ أن تستعدَّ وتكون على أُهْبَةِ الاستعدادِ متى ما جاء، كذلك قيام الساعة، الحكمةُ أنك تستعد، وأما وقتُ قيامِها فهذا ليس لك فيه مصلحةٌ من قريبٍ أو بعيد ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٩]، الرسولُ ﷺ لا يعلم هذا، ولا أحدَ يعلمُ هذا إلا الله ﷻ لحكمةٍ أخفاها عن جميعِ خلْقِه، لا يعلمُها إلا هو.

كذلك مِن شُبَهِهم أنهم يقولون: هذه الأجسامُ صارت ترابًا، نخرة ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ [النازعات: ١١]، فكيف تعودُ فيها الحياةُ بعد أن كانت نخرة ورميمًا؟ ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩]، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، يستبعدون هذا، الله ﷻ ردَّ عليهم بِرُدودٍ، منها:

أن الذي بدأ خَلْقَهم قادرٌ على أن يعيدَهم من بابِ أولى، الذي يَقدِرُ على البدايةِ قادرٌ على الإعادةِ من بابِ أولى، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الروم: ٢٧]، فاللهُ ﷯ كلُّ شيءٍ عليه هَيِّن، ولكن هذا من بابِ ضرْبِ المَثَلِ للعُقول، فالعقولُ تدري أن الإعادةَ أسهلُ من البَدَاءة، فلو يأتي شخصٌ ويصنعُ جهازًا مركّبًا من أدواتٍ ومساميرَ ومن أشياءَ هائلةٍ ودقيقة، ثم بعد ذلك

ينتقِضُ هذا الجهازَ ويتشتَّتُ ويتَقطَّع كلُّ أداةٍ على حِدَة، وكلُّ مِسْمار على حِدَة، أليس الذي رَكَّبه في الأولِ قادرٌ على أن يُرَكِّبه بسرعة مرة ثانية؟ الجواب: نعم؛ لأنه عرَفه، وعرَف مكانَ كلِّ أداة ومكانَ كلِّ مِسمار، فالمهندسُ الذي رَكَّبَه في الأولِ سَهْلٌ عليه أن يُعيدَه وينظِّمه من جديد، هذا من ناحية العقل، الذي بدأ الشيءَ قادرٌ على إعادتِه من بابِ أولى؛ ولهذا قال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ [يس: ٧٨] نسِيَ أن الله خلَقه من العدَم، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨- ٧٩]، فالذي قَدِر على البداءة قادرٌ على الإعادةِ من بابِ أولى، هذا في نظرِ العقولِ وإلا فالله ﷻ لا يُعجِزُه شَيءٌ، ولكن هذا من بابِ إفحامِ هؤلاء.

وكذلك اللهُ ﷻ احتجَّ بأنه يُحيي الأرضَ بعد موتِها، فأنت تمُرُّ على الأرض هامِدةً ليس فيها شيء، جَرْدَاءَ بيضاءَ ليس فيها أيُّ عُودٍ أو أيُّ ورقة، فيَنزلُ عليها الغيثُ، ثم تَربُو وتنتفخُ طبقتَها، ثم تَتفَتَّقُ عن النبات، ثم بعد فترة وَجيزةٍ تصبحُ روضةً خضراءَ فيها من أنواعِ النباتاتِ والزهورِ والثمار، وكانت في الأولِ جرداءَ يابسة، مَنْ الذي أعادَها وأحياها؟ الذي قَدرَ على إحياءِ الأرضِ قَادِرٌ على إحياءِ الأجسام: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاهَا لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، الذي يُحيي الأرضَ بعد موتِها قَادِرٌ على إحياءِ الأمواتِ بعد موتِهم وإعادتِهم كما كانوا. فهذا من أدلةِ البعث، إحياءِ الأرضِ بعد موتِها بالنبات.

ثم هذه الحَبَّةُ اليابسةُ إذا سقاها اللهُ بالماءِ انفرجتْ عن عروقٍ وعن

ورقٍ وعن سِيقان، ثم في النهايةِ يكونُ لها سنابلُ وتُثمر، وهي في الأولِ حبَّة يابسةٌ أخرجَ اللهُ منها هذا النبات العجيب، ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠]، فالنطفةُ مثلُ البذرة، نطفةٌ من الماءِ يُخلَط فيها ماءُ الرجلِ وماءُ المرأة، ثم تتحول إلى علقة: أي إلى دم، ثم يتحولُ الدمُ إلى مُضغة، أي قطعة لحم، ثم تتحول قطعةُ اللحمِ إلى أعضاء وعُروقٍ وسَمْعٍ وبَصَرٍ وحَوَاس، ثم تُنفخُ فيه الروحُ، ثم يُحيَى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧- ٤٠].

فالذي قَدَرَ على تحويل هذه النطفةِ من ماء الأمشاج -يعني: المختلَطُ من ماء الذكر وماء الأنثى- إلى إنسان، هذا الذي خلق هذا الإنسانَ من هذا الماءِ وأنشأه قادرٌ على إحيائِه بعد موته، وإذا كانوا يقولون: إنه يَضيعُ في الأرضِ ويتفتّتُ. فاللهُ ﷻ يقول: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ [ق: ٤]، فالتراب الذي تحوَّل من هذا الإنسانِ يُعادُ لحمًا ودمًا وعظامًا كما كان، هذا الرُّفاتُ يُعاد ويتكون كما كان، ولا يضيعُ منه شيْءٌ، حتى ولو فنِيَ كلُّه وصار ترابًا فهناك شيءٌ لا يَفْنى، وهو عَظْمةٌ يسيرةٌ وهي عَجْب الذَّنَب، لا يَفنى ومنه يُركَّب خَلْقُ الإنسان(١).

ثم أيضًا لو لم يكن هناك بعثٌ وحسابٌ وجزاءٌ للَزِم العَبثُ في حقِّ

---

(١) انظر: البخاري رقم (٤٦٥١)، ومسلم رقم (٢٩٥٥).

اللهِ ﷻ، وأنه يخلُقُ الخلقَ للفَناءِ فقط، وليس لحياتهم وأعمالهم نتيجة، خَلقَهم وأوجَدَهم واعتنى بهم، وهم يعملون، ومنهم من يعملُ أعمالًا صالحة، ويموت ولا ينالُ مِنْ جزائِها شيئًا، ومنهم من يعملُ أعمالًا قبيحة، ومعاصي، وكُفرًا، وإلحادًا، ويموت ولا ينالُ من جزائِه شيئًا، هل ينتهي عند هذا؟ الجواب: لا، هذا فيه طعنٌ في عدلِ الله ﷻ: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥- ٣٦]، الله لا يجعلُ المسلمين كالمجرمين كلُّهم يموتون ولا ينالون من جزاءِ أعمالِهم شيئًا، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧- ٢٨]، فلا يكونُ فيه بعثٌ وجزاء، لا جزاءَ للمُحسِن على إحسانِه ولا للمُسيءَ على إساءتِه، هذا من باب العبث أنّ اللهَ يخلُقُ خَلْقًا ويتركُه ولا يصيرُ له نتيجة، ويعملون أعمالًا سيئةً أو صالحةً ولا يكونُ لها ثمرةٌ ولا نتيجة، هذا من العبث، ومن باب الطَّعْن في عدالة الله ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥- ١١٦]، تعالى اللهُ عن ذلك أن يكونَ خلَقَ هذا الخَلْقَ ويتركُهم يموتون ولا يصيرُ لأعمالِهم نتيجة، ولا يتَميزُ المؤمنُ من الكافر، بل ربَّما يكون الكافرُ مُنعَّمًا في هذه الدنيا وهو على المعاصي والكفر، ويكون المؤمنُ مُضَيَّقًا عليه في هذه الدنيا ولا ينالُ من جزائِه شيئًا، هذا يلْزمُ فيه الطعنُ في عدالة الله ﷻ، ويَلْزمُ عليه أنه خلَقَ الخلْقَ

فأؤمن بفتنة القبر ونعيمه. [١٦]

عبثًا لا نتيجة لأعمالهم، فهذا من الطعن في حكمة الله ﷻ، وفي عدلِ الله ﷻ، فهذا من أدلةِ البَعْث ذكرَها اللهُ في القرآن الكريم في مواضعَ متعددة، فالإيمانُ بالبعث ركنٌ من أركان الإيمانِ الستة، تكرَّر ذكرُه في القرآن الكريم.

[١٦] هذا أولُ ما يكونُ في اليومِ الآخر، إذا وُضِعَ الميتُ في قبرِه، وانتُهِيَ من دفنِه، وتولَّى عنه مُشَيِّعوه، وأنه ليَسمعُ قرعَ نعالِهم، يأتيه ملكان فيُقعِدانِه فتُعادُ روحُه في جسدِه، ويَحيَى حياةً بَرْزَخيَّة ليست مثل حياتِه في الدنيا، حياةً بَرْزَخِيَّة لا يعلمُها إلا اللهُ ﷻ، فيسألانِه: مَنْ ربُّك؟ وما دِينُك؟ ومَنْ نبيُّك؟ فالمؤمنُ يقول: ربِّي الله، ودِيني الإسلامُ، ونبيِّي محمدٌ ﷺ، لأنه مات على الإيمانِ فيبعَثُ عليه، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فإذا أجابَ بهذه الإجابات نادى منادٍ: «**أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَافْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا مِنَ الْجَنَّةِ**»، ويُوسَّعُ له في قبرِه مَدَّ بصرَه حتى يَرَى منزِلَهُ في الجنَّة، ويأتيه من رَوْحها وطِيبها، ويصبح قبرُه روضةً من رياضِ الجنة، ويقول: يا ربِّ أَقِم الساعةَ حتى أعودَ إلى أهلي ومالي.

وأما المنافقُ الذي كان يعيشُ في الدنيا على الشَّك، يقولُ بلسانه ما ليس في قلبه، فيقول: أشهدُ أن لَا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسولُ الله. ويقرأُ القرآن، ويتعلَّمُ العلم، ولكنْ ليس في قلبه إيمان، إنما يعملُ هذه الأشياءَ لمصالحِ دُنيوية، ليعيشَ مع الناس، وهو لا يُؤمنُ بها في قلبِه، ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، فهذا

لا يستطيعُ الجوابَ وإن كان في الدنيا يحفظُ كلَّ المُتُون، ويحفظُ كلَّ الأشعارِ والنَّحوِ والتَّفسيرِ والحَديث، ما دام ليس فيه إيمانٌ لا يستطيعُ الإجابةَ في القبرِ في هذه اللحظة، كُلَّما سُئل قال: ها ها لا أدري، سمعْتُ الناسَ يقولون شيئًا فقلتُه -يعني: مثلما يقولُه الناسُ من غيرِ إيمانٍ في قلبه، وإنما يقولُ ذلك مُجاملةً ومُسَايَرةً للناس- فيُقالُ له: لا دَرِيت ولا تَليت. فيُضربُ بمِرْزبَّة من حديد، لو ضُربت بها جبالُ الدنيا لذَابت، ثم يُضيَّق عليه في قبره حتى تختلفَ أضلاعُه، ويُصبحَ قَبْرُه حفرةً مِنْ حُفَرِ النار، فيقول: يا ربِّ لا تُقِم الساعة. لأنه عَلِم أنه ما بعد القبر أشدَّ منه، فيقولُ: يا ربِّ لا تُقِم السَّاعة.

هذا ما يكونُ في القبر، والإيمانُ بعذاب القبر أو نعِيمِه حَتْمٌ واجب؛ لأنه مُتواتِر في القرآنِ والسُّنة بأدلتِه[1]، فيجب الإيمانُ بعذابِ القبرِ ونعيمِه، مَنْ جَحَده متعمدًا فهو كافرٌ، أما إن كان مُقَلِّدًا أو مُتأَوِّلًا فهذا ضال، ولكن مَنْ أنكره بعد العلمِ به متعمدًا فهو كافر، وقد أنكَرتْه المعتزلةُ العَقْلانيين؛ لأنهم يعتمدون على عقولِهم، ويقولون: لو فتحنا القبرَ وجدناه كما وضَعْناه ليس فيه جنة ولا نار. فنقول: أنتم في عالم الدنيا وهو في عالم الآخرة، ويأتيه العذابُ أو النعيمُ وأنتم لا تشعرون بذلك؛ لأن هذا من أمورِ الآخرةِ التي لا يعلمُها إلا الله ﷻ، ولا تتَّسعُ العقولُ إلى إدراكِ ذلك، وإنما يُعتمَد على ما صحَّ به النقل، وتَواتَر به الخبرُ فنُؤمنُ به ولا نتدخَّل؛ لأن هذا من عالمِ الغيبِ الذي لا يعلمُه إلا اللهُ ﷻ.

---

(١) انظر: البخاري رقم (١٣٧٤)، ومسلم رقم (٢٨٧٠).

وبإعادة الأرواح إلى الأجساد، فيقوم الناس لرب العالمين، حفاة عراة غُرْلاً، تدنو منهم الشمس. [١٧]

أنت تشاهدُ الناسَ الآن بعضَهم في سرورٍ وبهجةٍ وبعضَهم في همٍّ وغمٍّ، وَهُمْ كلُّهم يمشون ويأكلون ويشربون وأنت لا تدري عن هذا ولا عن هذا، لا تدري عن المسرور ولا عن المغتم؛ لأن هذه أمور باطنة لا يعلمُها إلا اللهُ سبحانه.

فقوله: « **فأومن بفتنة القبر** »، فتنة القبر يعني: الاختبار؛ لأنه يأتيه الفتَّانان، الملكان يسألانِه ويختبرانِه.

[١٧] **ثم بعد القبر: البعث**، وهو: إعادةُ الأرواحِ إلى الأجساد، وقد أنكَره المشركون والمَلاحدة، وقد مرَّ بنا شيءٌ من البراهينِ على ثبوته في القرآن الكريم، وهي أدلةٌ عقليةٌ مذكورة في القرآن، **منها**:

* أن القادرَ على البَداءة قادرٌ على الإعادة من باب أولى، هذا دليلٌ عقليٌّ ودليلٌ سَمعي أيضًا، دليل عقليٌّ سَمْعي.

* ومنها أن القادرَ على إحياء الأرض بعد موتها قادرٌ على إحياء الأجسامِ بعد موتها.

* ومنها أن اللهَ سبحانه مُنزَّهٌ عن العبث ومنزَّهٌ عن الظلم، فلا بدّ من إقامةِ العدلِ بين عبادِه، وهذا إنما يكونُ في الآخرة، ولا يكون في الدنيا.

والقيامُ من القبور، قالَ الله ﷻ فيه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزُّمَر: ٦٨]، صَعِقَ يعني: مات، هذه نفخةُ الصَّعق، فيصْعَقُ كُلُّ من في السَّموات والأرض إلا مَنْ شاء الله، قيل: الملائكةُ، وقيل: الحُورُ العِين.

ثم يُؤمَر فينفُخُ النفخةَ الثانية، فيقومُ الناسُ من قبورهم لربِّ العالمين، تطيرُ الأرواحُ إلى أجسادِها في النفخةِ الثانية ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٨] تشقَّقُ الأرضُ عنهم: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ [ق: ٤٤]، يخرجُون من القبور ويسيرون إلى المَحْشَر كأنهم جرادٌ منتشر، ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٦- ٧] يعني: من القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾، يكسون الأرض من كثرتهم، ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٨]، مُنقادين لا يتأخَّرُ أحدٌ، لا الكافرُ ولا المسلمُ، لا يتأخر أحدٌ منهم ولا يستطيعُ التأخر، وفي الآية الأخرى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣]، نُصُب: عَلَمٌ يذهبون إليه ويُسرعون إليه، تَسُوقُهم الملائكة ولا أحد يتخلّف.

وذلك أنَّ اللهَ ﷻ إذا أراد بَعْثَ مَنْ في القبورِ أرسلَ عليها نوعًا من المطر ينزِل من السماءِ لا يَمنَعُ منه شيء، لا السقوف ولا غيرها، ينفُذُ إلى الأرض، ويدخُلُ إلى الأجسامِ في القُبور، فتنْبُتُ مثلما ينبُتُ الحَبُّ، وتَنْبني الأجسامُ كما كانت، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: ٤١]، ينادِي منادٍ فيقول: أيضًا العظامُ الباليةُ واللحومُ المتمزقةُ والشعورُ المتفرقةُ إن اللهَ يأمرُكم أن تجتمعوا لفَصْلِ القضاء.

فيجتمعُ الإنسانُ من الأرض، يجتمع بدنُه كما كان إلا أنه ليس فيه روح، حتى إنه لو مرَّ عليه أحدٌ يعرفُه في الدنيا لقال: هذا فلان. ما تَغيَّر منه شيء.

ثم يُؤمرُ إسرافيلُ فينفخُ في الصور فتَتَطايرُ الأرواح؛ لأن الأرواحَ مجموعةٌ في الصور، تتطايرُ كلُّ رُوحٍ إلى جسدِها، ثم يُحيوَن ويُؤمرون بالمَسير إلى المحشر، يقومون من قبورِهم ويسيرون إلى المحشر، ثم يجتمعون في المَحشر، فيقفون على أقدامِهم في ضنْكٍ وضِيقٍ وحرٍّ شديد، وتَدنُو الشمسُ من رؤوسِهم ويأخذُهم العرقُ والزحامُ الشديد؛ لأنه يجتمعُ الأولون والآخرون في صعيدٍ واحد، فيجتمعون ويعرَقون عرقًا شديدًا، ويختلفون في العرق، فمنهم من يُلْجِمُه العرق، ومنهم من يأخذُه إلى نصفِه، ومنهم من يأخذُه إلى ركبتيه... إلى آخره. والوقوف يكون خمسين ألف سنة، شاخصةً أبصارُهم حافيةً أقدامهم، حُفاةً ليس عليهم نعال، عُراةً ليس عليهم ثياب، غُرْلًا يعني: غير مَخْتونين، ويقفون في هذا المحشر هذا الوقفَ الطويلَ يجمعُ اللهُ ﷻ الأولين والآخرين.

❁ **وقد ذكر اللهُ ﷻ في القرآنِ ثلاثَ نفْخات:**

النفخةُ الأولى: نفخةُ الفَزع، في سورة النمل: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧].

النفخة الثانية: نفخةُ الموت، في سورة الزمر: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ﴾ [الزُّمر: ٦٨].

النفخة الثالثة: نفخةُ البعثِ في سورة الزمر أيضًا: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٨].

قوله: «**تَدنُو منهم الشمس**» حتى تكونَ بمقدارِ الميل، ولكنَّ المؤمنون يكونون في ظلال، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١]، ما يحسُّون بها، ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، فالمؤمنون في راحةٍ في هذا اليوم، ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، على الكافرين خاصة، ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ [المدَّثر: ٨]، يعني: الصور، ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩ - ١٠]، أما المؤمنون فيكونُ يسيرًا عليهم، ويكونون في ظلالٍ باردة.

هذا الحشرُ أنهم يُحشَرون في صعيدٍ واحد، يُسمعُهم الداعي ويَنفذُهم البصر، صعيدٍ واحدٍ مُتساوٍ ليس فيه ارتفاعاتٌ وانخفاضات ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۝ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٥- ١٠٨]، يقومون في هذا الصعيدِ المستوي الذي ليس فيه انخفاضاتٌ ولا ارتفاعات.

وتُنصب الموازين، وتوزن بها أعمال العباد: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨]، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣]، **وتُنشر الدواوين، فآخِذٌ كتابَه بيمينِه وآخِذٌ كتابَه بشمالِه. [١٨]**

---

[١٨] **الموازين:** موازينُ الأعمال، وقد ذكرَها اللهُ في القرآن ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨]، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ٦- ١١].

فالموازينُ ثابتةٌ في القرآن، موازينُ حقيقيةٌ لها كِفَّتان، تُوضعُ الحسناتُ في كِفَّة، وتُوضعُ السَّيئاتُ في كِفَّة، فإن رُجِّحَت حسناتُه فازَ ونجا، وأفلحَ فلاحًا لا شقاءَ بعده، وإن ثقُلَت سيئاتُه فقد خابَ وخسِرَ، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣]، وفي قوله: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ٩-١١].

قال: «**فآخِذٌ كتابَه بيمينه وآخِذٌ كتابَه بشمالِه**»، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩]، فَرِحٌ به ويُريه الناس ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ يعني: في الدنيا، ظننت يعني: أيقنتُ أني مُلاقٍ حِسابي، فاستعددتُ لذلك، ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا

وأؤمن بحوضِ نبيّنا محمد ﷺ بعَرْصَةِ القيامة، ماؤه أشدُّ بياضًا من اللبن وأحلى من العسل، آنيتُه عددُ نجومِ السماء، من شرب منه شربةً لم يظمأْ بعدها أبدًا.

وأؤمن بأنّ الصراطَ منصوبٌ على شَفير جهنم، يَمرُّ به الناسُ على قدرِ أعمالِهم. [١٩]

دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢١- ٢٤]، الخاليةُ يعني: الماضيةُ في الدنيا.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥]، هذا يقول: يا ليتني ما رأيتُ هذا الكتاب، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٥- ٢٧]، **القاضيةُ**: يعني: الموت، ليتني متّ ولم آت هنا ولم أُبعث ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨]، في الدنيا ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٩]، يعني: ليس له حجةٌ على اللهِ ﷻ، ثم يقول الله ﷻ للملائكة: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠]، إلى آخر الآيات.

هذا حالٌ من أحوالِ القيامةِ في هذه السورة، وهو متكرِّرٌ في القرآن.

[١٩] كذلك مما يكونُ في اليوم الآخِر حَوضُ النبيِّ ﷺ، وهو حوضٌ طولُه مَسيرةُ شهرٍ وعرضُه شهر، ماؤُه أشدُّ بياضًا من اللبن وأحلى من العسل، آنيتُه عددُ نجومِ السماء، من يشرب منه شربةً واحدة لا يظمأُ بعدها أبدًا(١)، تردُ أمّتُه عليه الحوضَ فيَسْقيهم ﷺ، ويرِدُ عليه أناسٌ فيُمنعون، فيقول: «**يَا رَبِّ أَصْحَابِي**»، فيُقَالُ له: «**لَا تَدْرِي مَاذا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**»(٢).

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٤٧).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (٦١٦١)، ومسلم رقم (٢٢٨٧).).

فيُمنعُون -والعياذ بالله- من الوُرودِ إلى الحوضِ، وهم الذين يُحدِثون في الدِّين ويَبتدعون في الدِّين، يُمنعون من وُرود الحوض.

قوله: «بعَرَصَةِ القيامة»، العَرَصَةُ: هي المكانُ الواسع.

ومما يكون في يوم القيامة: الحسابُ، يُحاسِب اللهُ ﷻ الخلائقَ يومَ القيامة، فالكافرُ يُحاسَب حسابَ تقرير، ليس حسابَ مُوازَنة بين الحسناتِ والسيئات؛ لأنه ليس له حسنات، وإنما يُقرّر بأعمالِه الكفرية.

وأما المؤمنون فيحاسبون على أعمالهم؛ لأنه لهم حسناتٌ ولهم سيئات، ومنهم من لا يُحاسَب، ويَدخُلُ الجنةَ بغيرِ حساب؛ كما في حديثِ السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنةَ بلا حسابٍ ولا عذاب[1]، ومنهم من يُحاسَب حسابًا يسيرًا وهو العرض ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٨ - ٩]، ومنهم من يُناقَشُ الحساب، يُحاسَبُ حسابَ مناقشة[2].

قالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وأؤمنُ بأنّ الصراطَ منصوبٌ على شَفير جهنم، يمرُّ به الناسُ على قدْرِ أعمالِهم**»، بعد هذه الأهوالِ كلِّها هناك الصراطُ منصوبٌ على مَتْنِ جهنم، والصراطُ: هو الطريق، وهو ما يُسمَّى بالقَنْطَرة، على متن جهنم؛ أي على وسَط جهنم، يَمُرُّ الخلائقُ كلُّهم على هذا الصراط، وهو أدقُّ من الشعر، وأحدُّ من السيف، وأحرُّ من الجَمر، **يَمُرُّ الناسُ عليه على قدْرِ أعمالِهم تجري بهم أعمالُهم فوق الصراط:**

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٥٣٧٨)، ومسلم رقم (٢٢٠).

(٢) انظر: البخاري رقم (١٠٣)، ومسلم رقم (٢٨٧٦).

* فمنهم مَنْ يمرُّ كالبرقِ الخاطف.
* ومنهم من يمرُّ كالفرسِ الجواد.
* ومنهم من يمر كراكبِ الإبل.
* ومنهم من يَعْدُو عَدْوًا.
* ومنهم من يمشي مشيًا.
* ومنهم من يَزحف زَحْفًا.
* ومنهم من يُخطَفُ ويُلقى في جهنم.

* وهذا مذكور في القرآن، قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٦٨- ٧١] كل الناس يردون جهنم: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١- ٧٢]، فإذا تجاوزوا الصراطَ أُوقِفُوا للقَصَاص، يُقتَصُّ لبعضِهم من بعضهم، فإذا هُذِّبُوا ونُقُّوا أُذِن لهم في دخولِ الجنة.

وأؤمن بشفاعة النبي ﷺ، وأنه أول شافع وأول مشفّع. [٢٠]

[٢٠] قوله: «**أؤمن بشفاعة النبي ﷺ**»، «أؤمن» معناه: أُصَدِّقُ وأعتقدُ حصولَ شفاعةِ محمد ﷺ.

والشفاعةُ: مأخوذة من الشَّفْع، وهو ما كان أكثر من واحد، فالواحد يُقال له: وَتْر، والاثنان يُقال لهما: شَفْع. قال تعالى: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ [الفجر: ٣]، فالشفعُ: هو ما كان أكثرَ من فرد، وأما الوَتْر: فهو الفرد. هذا في اللغة.

وأما في الاصطلاحِ، فالشفاعةُ: يُرادُ بها الوَسَاطة للمُحتاجِ في قضاءِ حاجتِه عند من يملكها؛ لأن طالبَ الحاجةِ واحد، فإذا انضَمَّ إليه واسِطةٌ صار شفعًا بعد أن كان واحدًا؛ لذلك سُمِّيت الشفاعة، وبعضُهم يقول: الشفاعة: هي طلبُ الخَيرِ للغَير.

❁ **والشفاعةُ على قسمين:**

* شفاعةٍ عند الله.
* وشفاعةٍ عند الخَلْق.

❁ **والشفاعةُ عند الخَلْقِ تنقسِمُ إلى قسمين:**

* شفاعةٍ حسَنة.
* وشفاعةٍ سيئة.

قال تعالى ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾ [النساء: ٨٥]، فإذا كانت الشفاعةُ في تحصيلِ شيءٍ مُباحٍ وشيءٍ نافعٍ فهي حسَنة؛ كما لو شَفَعت بجاهِك عند السلطانِ أو عند وليِّ الأمرِ في قضاءِ حاجةِ أخيك، فتشفعُ لإخوانِك في تحصيلِ مطالبِهم المباحةِ ومصالحِهم النافعة، فهذه شفاعةٌ حسنة؛

لأنها من التعاونِ على البرِّ والتقوى، «**وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**»(١)، وقد قال ﷺ: «**اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مَا شَاءَ**»(٢)، فقوله: «**اشفَعُوا تُؤجَروا**» فيه بيان أن الشفاعة الحسَنة فيها أجر؛ لما فيها من النفعِ للمُحتاجين.

وأما الشفاعةُ السيئة: فهي الشفاعةُ في أمرٍ محرَّم، كأن تشفعُ في إسقاطِ حدٍّ من حدودِ اللهِ لمن وجبَ عليه أن لا يُقام عليه الحد، فهذه شفاعةٌ مُحرَّمة، وملعون من قام بها، لقولِه ﷺ: «**إِذَا بَلَغتَ الحُدُودُ السُّلْطَانَ فَلَعَنَ اللَّهُ الشَّافِعَ وَالْمُشَفَّعَ**»(٣)، ولمّا أرادَ أسامةُ بنُ زيدٍ رضي الله عنه أن يشفعَ في امرأةٍ وجبَ عليها حدُّ السرقة، وشَقَّ ذلك على قومِها، فطلبوا من أسامةَ أن يشفعَ عند رسولِ الله ﷺ في عدم قطعِ يدَها، فشفعَ أسامةُ وَكَلَّمَ الرسولَ ﷺ فغضبَ عليه غضبًا شديدًا، وقال: «**أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ، إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وايْمُ اللهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ﷺ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**»(٤)، وفي الحديث: «**لَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا**»(٥)، آواه يعني: حَماه من إقامةِ الحُكمِ الشرعي عليه، فالشفاعةُ السيئةُ هي ما كانتْ في شيءٍ مُحرَّم.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٦٩٩).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (١٣٦٥)، ومسلم رقم (٢٦٢٧).

(٣) أخرجه: مالك في «الموطأ» رقم (١٥٣٥)، والدارقطني في «سننه» رقم (٣٦٤)، والطبراني في «الأوسط» رقم (٢٢٨٤).

(٤) أخرجه: البخاري رقم (٣٢٨٨)، ومسلم رقم (١٦٨٨).

(٥) أخرجه: مسلم رقم (١٩٧٨).

أما الشفاعة عند الله ﷻ فهي ثابتةٌ في القرآن وفي السنة، وذلك بأن اللهَ يُكْرِمُ بعضَ عِبادِه بأن يدعو لأخيه بما يُخلِّصه من العِقابِ يومَ القيامة، تكريمًا للشَّافع ورحمةً بالمَشفوع، فهذه هي الشفاعةُ عند الله، وهي: أن يأذنَ اللهُ ﷻ لبعضِ أوليائِه في أن يدعوَ اللهَ بأن يتجاوزَ عمَّن اسْتوَجَب العقوبةَ ويعفوَ عنه، **وهذه ثابتةٌ في القرآن، ولكن بشرطين:**

الشرطُ الأول: أن تُطلَب الشفاعةُ من اللهِ ﷻ ويأذن اللهُ بها، فلا أحدَ يشفعُ عند الله إلا بإذنِه، بخلافِ المخلوقين، فقد يشفعُ الشفعاءُ عندَهم ولو لم يأذنوا، بل ربَّما يكرهون ذلك، أما اللهُ ﷻ فإنه لا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الشرط الثاني: أن يكون المشفوعُ فيه من أهل الإيمان، ولكن عنده ما يُوجبُ عليه العذابَ لكبيرةٍ من كبائر الذنوب ارتكَبَها، فهو من أهل الإيمانِ من أصحابِ الجرائم التي دون الشرك، وأما المُشركُ فإن اللهَ لا يرضى أن يُشَفَّع فيه، ولا تُقبَل فيه شفاعة، قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] يعني: الملائكة ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ ارتضى اللهُ قولَه وعملَه وهو المؤمن، أما الكافرُ فإن الله لا يرتضيه، فلا تنفعُه الشفاعة، قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدَّثر: ٤٨].

فإذا توفَّرَ الشرطان: إذْنُ اللهِ للشافع أن يشفع، ورضاه عن المشفوعِ فيه، فالشفاعةُ حقّ، وإذا اختلَّ شرطٌ فهي شفاعةٌ مردودةٌ، قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِى شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النجم: ٢٦]،

هذا الشرط الأول، ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾، هذا الشرط الثاني، فهذه هي الشفاعةُ عند الله، تجوز بشرطين، فإذا توفَّرَ الشرطان فالشفاعةُ صحيحةٌ ومقْبُولةٌ عندَ الله ﷻ، وإذا اختلَّ شرطٌ فهي مردودةٌ ولا تُقبل.

❁ **والناسُ انقسموا في أمر الشفاعةِ إلى ثلاثة أقسام: طرفان ووسط:**

الطرفُ الأول: الذين نَفَوا الشفاعة وهم الخوارج والمعتزلة، وقالوا: إنَّ مَنْ استوجب النارَ لا بُدّ أن يدخُلَها، بناءً -عندهم- على أنه لا يستوجبُ النارَ إلا كافر؛ لأنهم يُكَفِّرون أصحابَ الكبائر من هذه الأمة، فيقولون: لا تنفعُهم الشفاعة، فمن استوجب النارَ لا بُدّ أن يدخلَها، ومَن دخلَها فإنه لا يخرجُ منها. هذا مذهبُهم، فينفون الشفاعةَ التي ثَبَتت وتَواترت بها الأدلة.

الطرفُ الثاني: الذين غَلَوا في إثباتِ الشَّفاعة، وهم القُبُوريُّون والخُرافيُّون الذين يتعلَّقون بالأموات، ويطلبون منهم الشفاعةَ، ويَدْعُونهم، ويذبحون لهم، ويُنْذِرون لهم، وإذا قيل لهم: هذا شرك، قالوا: هذا طلبٌ للشفاعة؛ كما قال المشركون الأولون: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]، فهم غَلَوْا في إثباتِ الشفاعةِ حتى طلبوها من غيرِ الله، طلبوها من الموتى والمقبورين، وطلبوها أيضًا لمن لا يستحقُّها وهم أهلُ الشرك والكفر بالله ﷻ.

الوسَط: أهلُ السُّنةِ والجماعةِ توسَّطوا، كما هي عادتُهم: الوسَطية في كلِّ الأمور -ولله الحمد- فلم ينْفَوا الشفاعةَ مطلقًا كما نَفَتْها

الخوارجُ والمعتزلة، ولم يُثبِتوها مطلقًا كما غلا في إثباتها القُبُوريُّون والخُرَافيُّون.

هذا مذهبُ أهلِ السُّنَّة والجماعة في هذه المسألةِ؛ فمما يجري في يوم القيامة: الشفاعة؛ ولهذا ساقَهَا المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في جملة ما يكونُ في اليوم الآخر، أنه يُؤمنُ بكلِّ ما يكونُ في اليوم الآخر، ومنه الشفاعة.

۞ والشفاعةُ ستةُ أنواع:

منها ما هو خاصٌّ بالنبيِّ ﷺ، ومنها ما هو مُشتَرَك بينه وبين غيرِه من الملائكة، والأولياءِ والصالحين، والأطفالِ الأفراطِ الذين يشفعون.

فأما الخاصُّ بالنبي ﷺ فهو:

الشفاعةُ الأولى: الشفاعةُ العظمى، وهي المقامُ المحمود، وذلك حينما يتقدمُ الناسُ في الموقِفِ، موقِفِ الحشر، ويطلبون من الأنبياء أن يشفعوا لهم عند الله في أن يريحَهم من الموقِف؛ لأنه طالَ عليهم الوقوف، مع ما هم فيه من الحرِّ والضِّيقِ وطُولِ الوُقوف، حيث يقفون خمسين ألف سنة، فيتقدمون ويطلبون من آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أبي البشرية أن يشفعَ لهم عندَ اللهِ في أن يفصلَ بينهم ويريحَهم من الموقف، فيعتذرُ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم يطلبونها من نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أولِ الرُّسلِ، فيعتذرُ، فيطلبونها من إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيعتذرُ، ويطلبونها من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فيعتذرُ، ويطلبونها من عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فيعتذر، ثم يطلبونها من محمد ﷺ فيستعدَّ لها، ويقول: «**أَنَا لَهَا، أَنَا لَهَا**»[1]، بعد ما يطلبونها من أولي العزم كلِّهم ويعتذرون

(١) أخرجه: البخاري رقم (٣١٦٢)، ومسلم رقم (١٩٣).

إلا نبيَّنا محمدًا ﷺ فإنه يَقبلُ أن يشفعَ لهم عند الله، فيَخِرُّ ساجدًا تحت العرش، فيدعو ربه ﷻ ويحمده، ولا يزال كذلك حتى يُقال له: «**يا مُحَمدُ، ارْفَعْ رَأْسَكْ، وسَلْ تُعْطَ، واشْفَعْ تُشفَّع**». فيشفعُ عندَ اللهِ في أهل المحشر، في أن يفصل الله بينهم بحكمه، ويريحهم من الموقف، ويقبل الله شفاعته، فهذا هو المقام المحمود، الذي قال الله ﷻ فيه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩]، وهو الذي يحمدُه عليه الأولون والآخرون، إظهارًا لفضله وشرفه ﷺ في هذا الموقِف العظيم.

الشفاعةُ الثانية: شفاعتُه ﷺ في أهلِ الجنةِ أن يدخلوها، وتُفتَح لهم، فهو أولُ من يستفتح بابَ الجنةِ ﷺ؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]، لا تُفتَح لهم أولَ ما يأتون، بل عطَفَ الفتحَ على مجيئِهم؛ لأنه لا يُفتَحُ لهم إلا بعد الشفاعة، ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزُّمَر: ٧٣]، أما الكفار - والعياذ بالله - فمن حين يصلون إلى النار تفتح لهم أبوابها، يُدْفَعُونَ إليها ويُدعّون إليها دعًّا - والعياذ بالله - ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١]، إلى آخر الآيات، هذه الشفاعةُ الثانية للرسول ﷺ والخاصة به.

الشفاعةُ الثالثة: أنه يشفعُ ﷺ لأُناسٍ من أهل الجنة في رِفْعة منازِلهم في الجنة.

الشفاعةُ الرابعة: شفاعتُه في عمِّه أبي طالب، الشفاعةُ لا تنفعُ الكفار، ولكن نظرًا لأن أبا طالب حَمَى النبيَّ ﷺ ودافعَ عنه، وصبرَ معه على الضِّيق، وأحسَنَ إلى الرسول ﷺ، ولكنه لم يُوفَّقْ للدخولِ في الإسلام، وعرضَ عليه النبيُّ ﷺ الإسلامَ وحرَصَ على أن يدخلَ في الإسلام، ولكنه أَبَى؛ لأنه يرى أن دخولَه في الإسلامِ فيه مَسَبَّةٌ لدِينِ آبائِه، حيثُ أخذتْه الحَمِيَّةُ الجاهليةُ لدِينِ آبائِه، وإلا فهو يعترفُ أن محمدًا على الحق، وأن دِينَه هو الحقّ، ولكن منعته الحَمِيَّةُ والأَنَفة؛ لأنه لو أسلم بزعمِه لصار ذلك سُبَّةً على قومه.

وهو القائل:

ولقد علمتُ بأنّ دينَ محمدٍ ... مِنْ خَير أديانِ البريّة دينا

لولا الملامةُ أو حذار مَسبّةٍ ... لرأيتَني سَمْحًا بذاك مبينا (١)

فقد منعتْه المَلامَةُ وحذَرَ المسبَّةَ على قومِه، ولقد جاءَه الرسولُ ﷺ وهو في سياقِ الموت، وقال له: «**يا عمِّ، قُلْ: لَا إِلهَ إِلَا الله، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ**»، وكان عندَه أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ، فقالا له: أترغبُ عن مِلَّةِ عبد المطلب؟ فأعادَ عليه النبيُّ ﷺ، فأعادا عليه، وقالا: أترغبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فقال: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَمَاتَ عَلَى ذَلِك وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**» (٢)، فأنزل اللهُ قوله تعالى:

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (٣/ ٤٢)، و«الإصابة» لابن حجر (٧/ ٢٣٦).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (١٢٩٤)، ومسلم رقم (٢٤).

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، ونزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

فالنبيُّ ﷺ لا يشفعُ في إخراجه من النار؛ لأنه مُخلَّدٌ في النار، ولكن يشفعُ في أن يخفِّفَ عنه العذابُ فقط، ويُجعَل في ضَحْضَاح من نار، وفي أَخْمَصِ قَدمَيه جَمرتَان يَغْلي منهما دماغُه، فلا يرى أن أحدًا أشدُّ منه عذابًا، مع أنه أخفُّ أهلِ النارِ عذابًا(١).

فهذه الشفاعاتُ خاصّةٌ بالنبيِّ ﷺ.

الشفاعةُ الخامسة: مُشتركَةٌ بينَ الرسولِ ﷺ وغيرِه من الملائكة النبيين والأولياءِ والصالحين وأفراطِ المؤمنين، وهي الشفاعةُ في أهلِ الكبائرِ التي دونَ الشرك، يشفعون لهم ألا يدخلوا النار، وإن دخلوها يشفعون لهم أن يخرجوا منها، وهذه هي التي أنكَرَها الخوارج والمعتزلة، وقالوا: إن من استحقَّ دخولَ النارِ فإنه لا بدَّ أن يدخلَها، ومن دخَلَها فإنه لا يخرج منها.

فقوله: «**أُؤْمن**» يعني: أُصَدِّقُ وأعتقدُ «**بشفاعةِ النبيِّ ﷺ**» الخاصة به، وكذلك يؤمن بالشفاعةِ المشتركة؛ لأن هذا مذهبُ أهلِ السُّنّةِ والجماعة.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٦١٩٤)، ومسلم رقم (٢٠٩).

ولا يُنكر شفاعةَ النبيِّ ﷺ إلا أهلُ البدع والضلال، ولكنها لا تكونُ إلا من بعدِ الإذن والرضا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، **وقال تعالى:** ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، **وقال تعالى:** ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

وهو لا يَرضى إلا التوحيد، ولا يأذن إلا لأهله، وأما المشركون فليس لهم من الشفاعةِ نصيبٌ؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدَّثر: ٤٨]. **[٢١]**

« **وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ** » كما في الحديث[1]، حديثِ الموقِف، « **وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ** » فهناك شفعاءُ ولكن هو أولُ الشفعاءِ ﷺ، وهو أول من يُستجاب له من الشفعاء، وفي هذا ردٌّ على الذين يقولون: إن الشيخَ يُنْكِرُ الشفاعة.

[٢١] « **ولا يُنكر شفاعةَ النبي ﷺ إلا أهل البدع والضلال** »؛ كالخَوارج والمُعْتزِلة الذين يُكَفِّرون أصحابَ الكبائر، ويقولون: إنهم خالدون مخلَّدون في النار لا تنفعهم شفاعة الشافعين. أما أهل السنة فيثبتون الشفاعة، ولكن شفاعةُ النبي ﷺ وغيره من الشفعاء لا تكون إلا بشرطين، ذكرَهما اللهُ في القرآن:

الشرط الأول: إذْنُ اللهِ للشافع أن يشفع، وليس كما يكون من ملوك الدنيا الذين يشفع عندهم الشفعاء ولو لم يأذنوا.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٢٧٨).

الشرطُ الثاني: أن يرضى عن المشفوع فيه، بأن يكونَ من أهل التوحيد، ومن أهل الإيمان، ولو كان عنده ذنوب يستوجب بها دخول النار، أو دخل بها النار، فهذا مؤمن تنفعه الشفاعة بإذن الله، أما الكافر فلا تنفعه الشفاعة، إلا ما استثني من شفاعة أبي طالب، وهذه خاصة.

وقوله: «**وهو لا يرضى إلا التوحيد**»، لا يرضى عن المشرك، وإنما يرضى لأهلِ التوحيد، «**ولا يأذن إلا لأهله**»، ولا يأذنُ للشفعاءِ إلا في أهل التوحيد.

«**وأما المشركون فليس لهم من الشفاعة نصيب**». قال تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ [المدَّثر: ٤٠- ٤٣]، من الأسبابِ التي أدخلتْهُم النار: أنهم لم يكونوا من المصلين، فدلَّ على أن من تَرَكَ الصلاةَ مُتعمِّدًا فهو كافرٌ مُخلَّدٌ في النار، وفي هذا ردٌّ على الذين يقولون: إن تَرْكَ الصلاةِ كُفرٌ أصغرُ. بل هو كفرٌ أكبرُ بدليل هذه الآية: ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ﴾ [المدَّثر: ٤٣- ٤٤] يعني لا يصلون ولا يدفعون الزكاة، والصلاةُ والزكاةُ قرينتان في كتابِ الله، **فدلّ على أن تركَ الصلاة كُفرٌ من وجهين**:

الوجهُ الأول: أن اللهَ ذكرَ تَرْكَ الصلاةِ مع هذه الأمورِ التي هي كُفرٌ بالإجماع: التكذيبُ بيومِ الدينِ هذا كفرٌ بالإجماع، مَنْعُ الزكاةِ جحدًا لوجوبها هذا كفرٌ بالإجماع، الخوضُ في آياتِ اللهِ ﷻ هذا من الكفرِ بالإجماع، فدلَّ على أن تَرْك الصلاةِ كفرٌ؛ لأنه قُرِن مع هذه الأشياء.

وأؤمن بأن الجنةَ والنارَ مخلوقتان، وأنهما اليوم موجودتان، وأنهما لا يَفنيان. [٢٢]

الوجهُ الثاني: قوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، فدلَّ على أن تاركَ الصلاةِ عَمْدًا لا تُقبل فيه الشفاعة، وهذا إنما يكون في الكافر، فلو كان مؤمنًا لقُبِلَتْ فيه الشفاعة.

[٢٢] **مما يكون يوم القيامة:** الجنة والنار، الجنة التي أعدَّها اللهُ للمتقين، والنارُ التي أُعدَّت للكافرين، داران لا بُدّ من ورودهما، وهما الداران الباقيتان، دار القرار: ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩]، ليس فيها ارتحالٌ ولا انتقال، بل أهلها يستقرّون فيها أبَد الآباد، فأهلُ الإيمانِ يكونون إلى الجنةِ التي أُعدَّت للمتقين، وأهل النار يكونون إلى النار التي أُعدّت للكافرين.

❁ **والإيمانُ بالجنةِ والنارِ في ثلاث مسائل ذكرها هنا:**

المسألةُ الأولى: أنهما مخلوقتان، قال تعالى في كل منهما ﴿أُعِدَّتْ﴾، أي: خُلقت وهُيِّئت، فهما مخلوقتان من جملة الخلق.

المسألةُ الثانية: أنهما موجودتان، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وأنهما اليوم موجودتان**» ردًّا على الذين يقولون: إنما تُوجدان يوم القيامة، أما الآن ليس هناك جنة ونار. وهذا باطلٌ فإنهما الآن موجودتان، **ودليل ذلك:**

أولًا: أن اللهَ قال في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال في النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، فقوله: ﴿أُعِدَّتْ﴾ هذا فعل ماضٍ يدلّ على أنهما قد خُلِقتا، لم يقل: تُخلَق أو تُعد، بل قال: ﴿أُعِدَّتْ﴾، هذه حكاية للماضي.

ثانيًا: أن الرسولَ ﷺ أخبرَ أن ما يصيبُ الناسَ من شدّةِ الحرّ، أو من شدَّةِ البرد أنه من جهنم، **وجهنم لها نَفَسَانِ**:

* نَفَسٌ في الصيف، وهذا أشدُّ ما يجده الناس من الحرِّ.
* ونَفَسٌ في الشتاء، وهذا أشدُّ ما يجِده الناس من البرد.

فدلَّ على أنهما موجودتان، وأن هذا الحرُّ وهذا البردُ من النارِ والعياذ بالله.

ثالثًا: أن الصحابةَ كانوا جالسين عند النبي ﷺ، فسمِعوا وَجْبَةً، يعني: شيئًا سقط، قال: «**أتدرون ما هذا؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا**»[1]، فهذا دليلٌ على أنَّ النارَ موجودةٌ.

رابعا: ﷺ ذكر أن الميتَ إذا وُضِعَ في قبرِه يُفتح له بابٌ إلى الجنة، ويأتيه من رَوْحِها وطِيبها، وأن الكافرَ والمنافق يُفتح له بابٌ إلى النار، فيأتيه من سَمُومها وحرِّها، فهذا دليلٌ على أنهما موجودتان الآن.

المسألة الثالثة: أنهما لا يَفنيان، ولا يَبيدان أبدَ الآباد، النار تبقى، وأهلُها يبقون، والجنة تبقى، وأهلها يبقون فيها إلى ما لا نهاية.

وفي هذا ردٌّ على الذين يقولون: إن الجنةَ والنارَ تفنيان ولا يبقى إلا الله؛ لأنهما لو بَقِيتا لشاركتا اللهَ في البقاء. فنقول لهما: هناك فرق بين بقاء الخالق، وبقاء المخلوق، بقاء الخالق ذاتي، وأما بقاء

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٨٤٤).

وأن المؤمنين يرَوْن ربَّهم بأبصارِهم يومَ القيامة، كما يَروْن القمرَ ليلةَ البدرِ لا يُضَامُّون في رؤيته. [٢٣]

المخلوق فهو بإبقاء الله ﷻ له، ففرقٌ بين هذا وهذا. ومنهم من يقول: إن الجنةَ تبقى، ولكنَّ النارَ تفنى. وهذا أيضًا قول خطأ، والصوابُ: أنهما باقيتان أبدَ الآباد.

[٢٣] هذه المسألةُ من مسائلِ يومِ القيامة أيضًا؛ لأن الشيخَ لا زالَ رَحِمَهُ اللهُ يُعدِّد ما يكونُ يومَ القيامة، ومن ذلك: «**أن المُؤمنينَ يَروْنَ ربَّهم يومَ القيامةِ بأبصارهم**»، إكرامًا لهم في الجنة، ولا يجدون أطيبَ من رؤيتِهم لله ﷻ ولا ألذَّ من رؤيتهم لربِّهم ﷻ.

وقد جاء هذا في القرآن، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، الحسنى: هي الجنة، والزيادة: هي النظرُ إلى وجهِ الله؛ كما في «صحيح مسلم»[(١)]، وقال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، المزيد: هو رؤيتُهم لوجهِ اللهِ ﷻ؛ كما جاء في التفسير.

وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٣] ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ الأولى بالضاد، من النضرة وهي البهاء والحسن، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ بالظاء المُشالة، أي: ناظرة بأبصارها، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ عدّاه بـ «إلى»، وإذا عُدّي النظر بـ «إلى» فمعناه المُعاينة بالأبصار، فأبصارُ أهلِ الإيمانِ تنظرُ إلى ربِّها ﷻ.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (١٨١).

وكذلك قوله تعالى في الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطفِّفين: ١٥]، أي: لا يرون اللهَ يومَ القيامة، فدلَّ على أن المؤمنين يرَوْن الله؛ لأنه إذا حَجَبَ عنها الكفار، دلَّ على أن المؤمنين لا يُحجَبون عنها؛ كما قال الإمامُ الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ(١)، وإلا لم يكنْ هناك فرق، لو كان اللهُ لا يُرى يومَ القيامةِ لما خَصَّ الكفار، وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطفِّفين: ١٥].

وأما الأحاديثُ فكثيرةٌ جدًّا ومُتواترة عن النبيِّ ﷺ، وقد استقْصَاها الإمامُ العلامةُ ابنُ القيِّم في كتابه: «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»؛ أي: استقصى الأحاديثَ الواردةَ في الرُّؤْية، وأنها بلغتْ حدَّ التواتر.

أما المعتزلةُ ومَن سار في ركابِهم فإنهم ينفون الرؤيةَ كعادتِهم؛ لأنهم لا يُصَدِّقون بالأحاديث، وإنما يتبعون عقولَهم وأفكارَهم، ويستَدلُّون بالمتشابِه من القرآن، مثل قوله تعالى عن موسى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، قالوا: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ هذا نفيٌ للرؤيةِ فدلَّ على أن اللهَ لا يُرى.

❁ والردُّ على هذا من وجهين:

الوجهِ الأول: أنه لو كانت رؤيةُ اللهِ غيرَ جائزةٍ لَمَا سألها موسى؛ لأن موسى نبيُّ الله وكَلِيمُ الله، لا يمكن أن يسألَ شيئًا لا يجوز، فدلَّ هذا على أن رؤيةَ اللهِ جائزة، ولكنه لن يراه في هذه الدنيا؛

(١) أخرجه: عنه البيهقي في «الاعتقاد» (ص: ١٣٢).

لأن المخلوقين لا يقْوُون على رؤيةِ اللهِ في هذه الدنيا؛ ولهذا ضربَ اللـهُ لـه الـمـثـل: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِىۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣] يعني: مَغشيًا عليه، فدلَّ على أنّ موسى لا يطيقُ رؤية الله في هذه الدنيا، وكل مخلوق لا يطيق رؤية الله في هذه الدنيا لضعف المخلوقين في هذه الدار.

أما في الجنة، فالله يُعطي المؤمنين قوة على أن يروا ربهم ﷻ.

الوجهِ الثاني: أن الله ﷻ لم يقُلْ لموسى: إني لا أُرى، بل قال: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ يعني: في هذه الدنيا، و«لن» لا تقتضي النفيَ مطلقًا، وإنما تقتضِي النفيَ المؤقت؛ ولهذا يقول ابن مالك في «الكافية الشافية»:

ومَنْ رأى النّفي بـ (لن) مُؤبّدًا　فقوله ارْدُدْ وَسِوَاهُ فاعضُدَا

فلن للنفي غيرِ المؤبد؛ ولهذا قال اللهُ ﷻ في اليهود: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥] يعني: الموت، وفي الآخرة يتمنَّون الموت، قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٧٧]، ففي يوم القيامةِ يطلبون الموتَ مع أنهم في الدنيا لن يتمنَّوه، فدل على أن «لن» لمُطْلَق النفي ولا تقتضي تَأْبيدًا، وإنما هو نفي مؤقت، واللهُ ﷻ قال: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ يعني: في الدنيا، فليس لهم متمسك في هذه الآية.

الشبهةُ الثانية: تَمسَّكوا بظاهرِ قولِه تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، قالوا: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ يعني: لا تراه.

والجوابُ أن يقال: ليس معنى ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ أنها لا تراه، لكن معناه أنها لا تحيط به، والإدراكُ معناه: الإحاطة، واللهُ لم يقُلْ: لا تراه الأبصار، بل قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾، ونفيُ الإدراكِ لا يلزَمُ منه نفيَ الرؤية، فقد يرى الإنسانُ الشيءَ ولا يُدرِكهُ كلَّه، فأنت مثلًا ترى الشمس، ولكن هل تدركُها كلها؟ فما كلُّ ما يُرى يُدرك كلّه، فالآيةُ ليس فيها نفيُ الرؤية، بل فيها نفيُ الإدراك. يعني: وإن رأتْه فهي لا تدركُه؛ لأن اللهَ ﷻ أعظمُ من كلِّ شيءٍ، فلا يُحاطُ به ﷻ، فليس في الآيةِ دليلٌ على نفيِ الرُّؤْية، وإنما فيها نفيُ الإدراكِ فقط.

فقوله: « **يرون ربهم بأبصارهم** » ردٌّ على من يقول: يرونَه بقلوبهم؛ لأن الرؤيةَ قد تكونُ قلبيةً، وتكونُ بصرية، وهم يقولون: يرونه بقلوبِهم. لو كان بقلوبِهم ما قال الرسول ﷺ: « **كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَكَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟** »[(١)]، هل الشمسُ تُرى بالقلب أو بالبصر؟ الجوابُ: بالبصر.

وقوله: « **كما يرون القمرَ ليلةَ البدر** » كما يرون البدرَ عند تمامِه ليلةَ الخامسَ عشَر؛ لأن القمرَ يتكاملُ ليلةَ الرابعَ عشَرَ والخامس عشر: ولهذا تُسَمَّى ليالي الإبدار، يعني: تكامُل القمر، فأنت تراه واضحًا، وكلُّ الناسِ يرونه ليلةَ البدرِ واضحًا، كلُّ أهلِ الأرضِ يرونه جَليًّا، والشمسُ لا مِريةَ أن الناسَ يرونها كلَّ يوم. **وقوله**: « **لا يُضامُّون في رؤيتِه** »، يعني: كُلٌّ يراه بسُهولةٍ ويُسرٍ بدون زِحامٍ ولا خَطر: لأن الناسَ ربَّما يتزاحمون على الشيءِ

(١) أخرجه: البخاري رقم (٧٧٣)، ومسلم رقم (١٨٢).

وأؤمن بأن نبيَّنا محمدًا ﷺ خاتَمُ النبيين والمرسلين، ولا يصِحُّ إيمانُ عبدٍ حتى يؤمنَ برسالتِه ويشهدَ بنبوتِه. [٢٤]

الواحد، ويَحصُلُ خطرٌ أو موتٌ أو دَهْس، ولكنهم يرون ربَّهم مِنْ غيرِ مُضَارة ولا زِحام، وهذا حتى في المخلوق، فالناسُ كلُّهم يرون القمرَ ولا يتزاحمون على رؤيته، ويرون الشمسَ ولا يتزاحمون على رؤيتها، فإذا كان هذا في المخلوق، ففي الخالق من باب أولى.

[٢٤] لما ذكَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدّمةِ الرسالةِ بعضَ أُصولِ الاعتقادِ الذي سُئِل عنه، ذكرَ في هذا اعتقادَه في النبي ﷺ؛ لأن أولَ أصولِ الاعتقادِ شهادةُ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسولُ الله، فشهادةُ أن لا إله إلا الله يَدخلُ فيها كلُّ ما يتعلقُ بالرَّبِّ ﷻ مِنْ توحيدِه بأقسامِه الثلاثة، وما يتعلق بأفعالِه، وبكلامِه وكُلُّ ما يتعلقُ بالربِّ ﷻ كلُّه يدخلُ في شهادةِ أن لا إله إلا الله، ثم شهادةِ أن محمدًا رسولُ الله، وهي الإقرارُ والاعترافُ برسالةِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام، يعتقدُها بقلبِه، وينطقُ بلسانِه، ويُتبعُ ذلك باتِّباعِه ﷺ وطاعتِه وامتثالِ أمرِه واجتنابِ نهيِه وتصديقِ خبرِه.

كلُّ هذا يَدخلُ في شهادةِ أن محمدًا رسولُ الله، يَدخلُ فيها الإيمانُ بعُمومِ رِسالتِه إلى الجنِّ والإنْسِ - الثَّقَلَين - ويدخلُ فيها الإيمانُ بأنه خاتمُ النبيين، لا نَبيَّ بعدَه، كلُّ هذا يَدخلُ في شهادةِ أن محمدًا رسولُ اللهِ، فلا بُدَّ من الاعترافِ بالقلبِ والنطقِ باللسانِ، فلا يَكفِي النطقُ باللسانِ دونَ اعتقادِ القلبِ بأنه رسولُ الله، فالمنافقون يشهدون أنه رسولُ الله بألسنتِهم: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، وهم كاذبون في شهادتِهم.

ثم لا يكفي أيضًا الاعتقادُ بالقلبِ بدونِ تلفُّظ ونطقٍ وإفصاحٍ باللسان، فإنَّ المشركين يشهدون أنه رسولُ اللهِ بقلوبِهم، لكن لا يتلفَّظون بذلك، فقد أَبَوْا استكبارًا وعِنادًا وجُحودًا أن يتلفّظوا برسالتِه ﷺ، مع أنهم يعترفون بها في قلوبِهم، قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، واليهود والنصارى يعلمون أنه رسولُ الله، لكن مَنَعَهُم الكبرُ والحسدُ أن ينطقوا بذلك، وأن يتّبعوه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٦ - ١٤٧]، **فلا بدّ من هذه الأمورِ في شهادةِ أنه رسولُ الله:**

* النطقِ باللسان.

* والاعتقادِ بالقلب.

* والمتابعةِ له ﷺ.

فلا يَكفي أن يعترفَ بأنه رسولُ اللهِ وينطقُ بذلك ولكن لا يُتَابِعُه، فلا يُطِيعُه فيما أمر، ولا يَجْتَنب ما نَهَى عنه، أو يُكَذِّبه فيما أخبر؛ ولهذا يقولُ الشيخُ في عبارةٍ جميلةٍ له في «ثلاثةِ أصول»: «**ومعنى أشهدُ أن مُحَمَّدًا رَسُولُ الله: طاعتُه فيما أمر، وتصديقُه فيما أَخْبر، واجتنابُ ما نَهَى عنه وزجر وألا يُعْبَدُ اللهُ إلا بما شرَع جاء به، ولا يُخالِفُه بالبدعِ والمُحْدَثَات**».

قوله: « **خاتَمُ النَّبيين** » يعني: آخِر الأنبياء، ليس بعدَه إلى قيام الساعة، ولهذا يُسمَّى نبيُّ الساعة، قال ﷺ: « **بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، وأشَارَ بإصْبَعَيْهِ السَّبَابةِ والوُسْطَى** »(١)، فهو نبيُّ الساعة، وبِعثَتُه من علاماتِ الساعة، لا نبيَّ بعده، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، قال ﷺ: « **إنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي كَذَّابُونَ ثَلاثُونَ، كلٌّ مِنْهُم يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِي، وأنا خَاتَمُ النَّبِيِّين، لا نَبِيَّ بَعْدِي** »(٢).

فالذي لا يعتَقدُ ختمَ الرسالةِ به ﷺ كافر، أي: الذي يقول: يجوزُ أنه يُبعَثُ نبيٌّ بعدَ الرسولِ. هذا كافرٌ؛ لأنه مكذِّبٌ للهِ ولرسولِه ولإجماعِ المسلمين؛ كالقَادْيَانِيَّة الذين يعتقِدون نُبُوَّةَ غلامِ القَادْيَاني، وكذلك الذين اعتقدوا نبوةَ مُسَيْلَمة، ونبّوةَ الأَسودِ العَنْسِي.

ومَنِ ادَّعى النبوةَ بعد النبيِّ ﷺ فهو مرْتدٌ بذلك عن الإسلام، فإن تابوا تابَ اللهُ عليهم، مثل: طُلَيْحةَ الأَسدي الذي ادَّعى النُّبُوةَ ثم تاب من ذلك فتاب اللهُ عليه وقُتِل شهيدًا ﷺ، وسَجَاح التَّمِيمية التي ادَّعت النبوةَ ثم تابتْ فتاب اللهُ عليها، أما مَن ادَّعى النبوةَ أو صَدَّق مَنْ يَدعيها فهو كافرٌ مرتدٌّ عن دينِ الإسلام؛ لأنه لا نبيَّ بعدَ الرسول ﷺ، ولا حاجةَ إلى النبيِّ بعدَ الرسول، ولا حاجةَ إلى كتابٍ يَنزِلُ بعد

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٦٥٠٤)، ومسلم رقم (٢٩٥١).

(٢) أخرجه: أبو داود رقم (٤٢٥٢)، والترمذي رقم (٢٢١٩)، وابن ماجه رقم (٣٩٥٢)، وأحمد رقم (٢٢٣٩٥)، والحاكم رقم (٨٣٩٠).

القرآن؛ لأن اللهَ أغنى العالَمَ بهذا الرسولِ وبهذا الكتاب، فرسالتُه عامةٌ في الزمانِ والمكان، فهي عامةٌ في الزمانِ إلى أن تقومَ الساعةُ، وعامةٌ في المكانِ لجميع أقطارِ الأرض، كلُّها عامةٌ إلى أن تقومَ الساعةُ وشاملةٌ وكافيةٌ للخَلْق، وإنما تكونُ بعثةُ الرسلِ عند الحاجة، والعالَمُ ليس بحاجةٍ لبعثةِ رسولٍ أو إلى نزولِ كتابٍ بعدَ محمدٍ ﷺ وبعدَ القرآن.

وأما نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان -كما تواترت بذلك الأخبارُ- فهو حقٌّ، ولكنه يَنزلُ على أنه تابعٌ لمحمد، لهذا الرسولِ محمد ﷺ، يَحْكمُ بشريعةِ الإسلام، ويكون تابعًا للنبيِّ ﷺ، ويَقتلُ الدَّجال، ويكسِرُ الصَّليب، ويضَعُ الجِزْيَة، ولا يبقى إلا دِينُ الإسلام، فبعد نُزولِ المسيحِ لا يبقى إلا الإسلامُ الذي جاء به محمد ﷺ، فهو مجدِّدٌ لدِينِ الإسلام وتابعٌ للرسولِ ﷺ، فلا نبيَّ بعدَ الرسولِ محمدٍ ﷺ.

قوله: «والمرسلين»؛ لأن بعض المَلَاحِدة يقولُ: الرسولُ يقول: «لا نبيَّ بعدي» ولا يَمنعُ أن يُبعثَ رسول؛ لأنه قال: «لا نبيَّ بعدي»، فالممنوعُ هو النبوةُ أما الرسالةُ فلا. يا سبحان الله! لا يكونُ الرسولُ إلا نبيًّا. فبينهما عُموم وخُصوص، فكلُّ رسولٍ نبيّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولا.

وقوله: «ولا يصِحُّ إيمانُ عبدٍ حتى يؤمنَ برسالتِه ويشهدَ بنبوَّتِه»، لا بدّ أن يشهدَ بنبوَّتِه ويؤمن برسالتِه، أي: بأنه نبيٌّ رسولٌ عليه الصلاة والسلام، والرسالةُ أعمُّ من النُّبوة، فمن أَبَى أن يشهدَ أنه رسولُ اللهِ فهو كافر، أو لم يعترفْ بأنه خاتمُ النبيين، وأجازَ أن يُبعَث بعده رسولٌ فهو كافرٌ،

وأن أفضلَ أُمَّتِه أبو بكر الصدِّيق، ثم عمرُ الفاروق، ثم عثمانُ ذو النُّورَين، ثم علي المُرتضى، ثم بقيةُ العشَرة، ثم أهلُ بدر، ثم أهلُ الشجرة أهلُ بيعةِ الرُّضْوان، ثم سائرُ الصَّحابة رضِي اللهُ عنهم وأرضاهم. [٢٥]

وقال: إنَّ رسالتَه خاصَّةٌ بالعربِ وليست عامة؛ كما يقولُه بعضُ النصارى، الذين يؤمنون برسالتِه ولكن يقولون: إنه نبيٌّ للعرب خاصة.

وهذا كفر؛ لأنه لا بدّ من الإيمان بعموم رسالتِه ﷺ.

[٢٥] الصحابةُ ﷺ هم أفضلُ قرونِ هذه الأمة، وأفضلُ المسلمين على الإطلاق لا يُسَاويهم أحد، لامتيازِهم بصحبةِ النبيِّ ﷺ والجهادِ معه، وتلقِّي العلمَ عنه ﷺ، فعندَهم ميزاتٌ ليست عندَ غيرِهم من المؤمنين، فقد قال ﷺ: «**خَيْرُكُم قَرْنِي، ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الذين يَلُونَهُم**»[1]، وقال ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فوَالَّذي نَفْسِي بيَدِه لَوْ أَنْفَقَ أَحَدَكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**»[2]، فنهى عن سَبِّ أصْحَابه وتنقُّصِهم وبُغضِهم، ثم بَيَّن فضلَهم، وأن أعمالَهم أفضلُ من أعمال غيرِهم، فالصدقةُ مثلاً: لو تصدَّق الإنسانُ بمثلِ جبلِ أُحُدٍ ذَهَبًا خالصًا ما بلغ المُدّ -وهو رُبع الصاع- الذي يَتصدَّقُ به واحدٌ من صَحَابةِ الرسولِ ﷺ، هذا لفضلِهم ﷺ ولمكانتِهم، والعملُ يضاعَفُ لشرفِ العاملِ عند الله تعالى.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٢٥٠٨)، ومسلم رقم (٢٥٣٥).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (٣٤٧٠)، ومسلم رقم (٢٥٤١).

فهم أفضلُ قرونِ هذه الأُمّةِ على الإطلاق، وتجِبُ محبَّتُهم وتوقيرُهم واحترامُهم وإجلالُهم وعدمُ تنقُّصِ أحدٍ منهم، ولا يجوزُ الدخولُ فيما حصلَ بينهم وقت الفتنة، ولا يجوز أن نُخَطِّئَ فلانًا ونُصَوِّبَ فلانًا من الصحابة؛ لأنهم كلُّهم مجتهدون، ولا يجوزُ أن نتلَمَّس أخطاءَهم، ونقولُ: فلانٌ فعل كذا. لأن لهم من الفضائل ما يغطِّي أخطاءَهم إنْ حصلت، فإنْ حَصَلَ مِنْ أحدِهم شيءٌ فله من الفضائلِ ما يغطِّي هذه الأخطاء رضي الله عنهم، وأفرادُهم ليسوا معصومين، فقد يحصُل من أفرادِهم خطأٌ، ولكن عندَهم من الفضائل، ما يغطِّي هذا الخطأ، أمَّا إجماعُهم فهم معصومون فيه، فالصحابةُ معصومون بجماعتِهم.

ثم هم يتفاضلون، فأفضلُهم الخلفاءُ الأربعة: أبو بكرٍ، ثم عمرُ، ثم عثمانُ، ثم عليّ، ثم بقيةُ العشرةِ المشهودُ لهم بالجنة: طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد والزبير بن العوام وأبو عبيدة عامر بن الجراح، هؤلاء شهد النبي ﷺ لهم بالجنة، ومات وهو عنهم راضٍ، رضي اللهُ عنهم وأرضاهم، فهم أفضلُ الصحابة.

ثم أصحابُ بدرٍ أفضلُ من غيرِهم؛ لأن اللهَ اطَّلَعَ عليهم وقال: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[1]، ثم أصحابُ بيعةِ الرُّضوان - وهي صُلحُ الحُديبية - الذين بايعوا تحت الشجرة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ١٨]، أخبر سبحانه أنه رضي عنهم

(١) أخرجه: البخاري رقم (٢٨٤٥)، ومسلم رقم (٢٤٩٤).

فمنحهم رضاه، ثم المهاجرون أفضل من الأنصار؛ ولهذا دائمًا يأتي ذكرُ المهاجرين قبل الأنصار في القرآن، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ [الحشر: ٨]، إلى أن قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾ [الحشر: ٩]، يعني: الأنصار، فيأتي ذِكْرُ المهاجرين قبلَ الأنصار، فهم أفضل؛ لأنهم تركوا أوطانَهم وأموالَهم وأولادَهم وخرجوا لنُصْرةِ اللهِ ورسولِه، ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨] أثنى اللهُ عليهم بالصدق، فهم يتفاضلون رضي اللهُ عنهم وأرضاهم.

ومن أسلمَ قبل فتحِ مكةَ فهو أفضلُ ممن أسلمَ عامَ الفتح أو بعده، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ﴾ [الحديد: ١٠]، فالذين أسلموا قبل الفتحِ أفضلُ من الذين أسلموا بعد الفتح، ولكن يشتركون كلُّهم في صُحبةِ رسولِ الله ﷺ، فضيلةٌ عامةٌ ويَتفاضلون فيما بينهم.

قوله: «**وأن أفضل أمته أبو بكر الصديق** رضي الله عنه»؛ لأنه أولُ الخلفاءِ الراشدين، وهو الذي بايع له الصحابةُ بعد الرسول ﷺ واختارُوه؛ لأنه أفضلهم.

قوله: «**ثم عمر الفاروق**»؛ لأنه هو الخليفةُ بعدَ أبي بكر، وقد اختارَه أبو بكر وعَهِدَ إليه، وهذا يدلُّ على أنه أفضلُ الأُمَّةِ بعدَ أبي بكر.

قوله: «**ثم عثمان**»، هو الثالث؛ لأن أصحابَ الشورى الستة الذين عَهِدَ إليهم عمر اختاروا عثمانَ رضي الله عنه لفضلِه، ومكانتِه.

قوله: «ثم علي المُرْتَضى»، علي بن أبي طالب ﷺ ابنِ عمِّ الرسولِ ﷺ، وزوج ابنته، وأبو الحَسنين، وله من الفضائل أنه: «**يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**»[(١)]؛ كما قالَ النبيُّ ﷺ، فله فضائلُ عظيمة ﷺ. وهذا معنى قولِ الشيخ.

«**ثم بقيةُ العَشَرة**»، أي: العشَرة المبشَّرين بالجنة.

قوله: «**ثم أهلُ بدر**»؛ لأن اللهَ اطَّلعَ عليهم فقال: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[(٢)].

قوله: «**ثم أهلُ الشجرةِ أهلُ بيعةِ الرُّضوان**»، الذين بايعوا الرسولَ ﷺ تحت الشجرة على القتال، بايعوه على الموت لما مَنَعَ المشركون الرسولَ ﷺ وأصحابَه من دخولِ مكة للعمرة، فأرسل ﷺ عثمانَ بن عفان ﷺ يفاوضهم، فجاءت إشاعةٌ أن عثمانَ قُتِل، فعند ذلك عزَمَ النبيُّ ﷺ على قتالِهم، فطلبَ من أصحابِه البَيْعةَ فبايعوه، وكانوا ألفًا وأربعمائة، بايعوه على الموت، ثم تبيّن أن عثمانَ ﷺ لم يُقتل، ثم جرَى الصلحُ بين الرسول ﷺ وأهل مكة كما هو معلوم، والشاهدُ أن اللهَ ذكرَ هذه البيعة، وأثنى على أهلِها ورضيَ عنهم.

قوله: «**ثم سائرُ الصحابة**»؛ لأنهم يشتركون في الصُّحْبة، فكلُّهم صحابةُ رسولِ الله ﷺ، أولُهم وآخرُهم، لا يساويهم أحدٌ.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٢٨٤٧)، ومسلم رقم (٢٤٠٧).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (٢٨٤٥)، ومسلم رقم (٢٤٩٤).

وأتولَّى أصحابَ رسولِ الله ﷺ رضِيَ الله عنهم، وأذكرُ محاسنَهم، وأترضَّى عنهم، وأستغفرُ لهم، وأكفُّ عن مساويهم، وأسكتُ عمّا شجرَ بينهم، وأعتقدُ فضلَهم؛ عملًا بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]. **[٢٦]**

---

[٢٦] **قوله: «وأتولَّى أصحابَ رسولِ الله»**، يعني: أتولاهم بالمَحبةِ والتوقيرِ والاتباع والاقتداء، هذا معنى تولِّيهم، بخلافِ أهلِ الزَّيْغِ وأهلِ الضّلال، وفي مُقدِّمتِهم الشيعةُ الذين يتنَقَّصُون أصحابَ رسولِ الله ﷺ ويسبُّونهم ويُكَفِّرونهم، ويقولون: إنهم ظلموا أهلَ البيت وأخذوا الخلافةَ واغتصبوها، وهي لأهل البيت. كما يَكْذِبون ويفترون على المسلمين، وخِلافًا للخوارج الذين كَفَّروا الصحابةَ وقاتلوهم واستحلُّوا دماءَهم.

قوله: «وأذكرُ محاسنَهم»، هذا الواجبُ على المسلمِ أنه يَذْكُرُ محاسنَهم ويترضَّى عنهم، ويقول: رضي اللهُ عنهم، كلُّ واحدٍ منهم إذا جاءَ ذكرُه يقول: رضي اللهُ عنه؛ لأن اللهَ قال: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، فرضِي اللهَ عنهم وأرضاهم.

ويترضّى عنهم ويُثنِي عليهم ولا يَتَنَقَّصُ أحدًا منهم أو يتلمَّس أخطاءَهم ويُشْهِر أخطاءَهم؛ كما يفعلُه أهلُ الزيغ وأهل الضلال، أو الجُهّال الذين يقولون: نحن نبحث في التاريخ، ونحن نريد التحقيق التاريخي. ويبحثون في الصحابةِ وما حصلَ بينهم وقتَ الفتنة، الفتنة

هذه شيء جرى، وهم ما اختاروا الفتنة، ولكنْ جرى قضاءُ الله، ووقعت عليهم الفتنةُ، وابتُلُوا بها، فهذا حَصل من غير اختيارِهم ﷺ، وهم يريدون الخير، يريدون نُصرةَ الدِّينِ ويجتهدون في هذا، فنحن لا نَدخُلُ في هذا أبدًا، وإن دخلنا فنعتذرُ عنهم.

قوله: «**وأستغفرُ لهم**» عملًا بالقرآن، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحشر: ١٠]، لما ذَكَرَ المهاجرين والأنصار قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾، هذا موقفُ المسلمِ من صحابةِ رسولِ الله ﷺ.

قوله: «**وأكفُّ عن مساويهم**»، فلا أبحثُ عن مساوِيهم وأنبُشُ عن الأشياء التي قِيلت، قال شيخُ الإسلامِ ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الواسِطية»: «الآثارُ المَروية في مساوئِهم منها ما هو كَذِب، ومنها ما قد زِيدَ فيه ونقَص وغُيِّر عن وجهِه، والصحيحُ منه هم فيه معذورون؛ إما مجتهدون مُصيبون فلهم أجران، وإما مُجتهدون مُخطِئون فلهم أجرٌ»، وهم على كل حال مأجورون، ثم لهم من الفضائل ما يُغطِّي ما يحصل من الخطأ الذي قد يحصُل من أفرادِهم، فالصحبةُ تُغطِّي كل هذا.

وأما ما شجَرَ بينهم وقتَ الفتنة، فهذا ليس باختيارِهم ابتُلُوا به بسببِ دُعاةِ الضَّلال الذين اندَسُّوا بينهم؛ كعبدِ اللهِ بن سبأ والذين اتبعوه، فصاروا ينشرون الفتنةَ حتى صارت الحرب، أولُ الفتنة: تنقُّص وَلي الأمر، حيث تنقَّصوا عثمانَ وطعنوا فيه، ثم آلَ الأمرُ إلى أن قَتَلُوا

وأترضَّى عن أمهاتِ المؤمنين، المطهّرات من كل سوء. [٢٧]

عثمان ﷺ، فلما قَتَلوه انفتحَ بابُ القتلِ والفتنة، فهذا أمرٌ جَرَى عليهم ﷺ وابتُلوا به، فلا ندخل فيما شجر بينهم، ونخطِّئ عليًّا، أو نخطِّئ معاوية، ما نَدخُل بينهم في هذا أبدًا، هذا كلُّه صادرٌ عن اجتهاد، كلُّهم يريدُ نُصرةَ الحقِّ.

قوله: «**وأعتقدُ فضلَهم**»، نعتقدُ أنهم أفضلُ الأمة، فهذا الاعتقادُ واجبٌ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ والغِلُّ: هو البُغْضُ والحقد، فلا يكن في صدرِك أو في قلبِك بُغْضٌ أو غِلٌّ أو حِقدٌ لأحدٍ من صحابةِ رسولِ الله ﷺ.

[٢٧] والشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يترضّى عن أمهاتِ المؤمنين -زوجاتِ النبي ﷺ- فهنَّ أمهاتُ المؤمنين في القَدْرِ والاحترام لا في النَّسَب، ولكن في القَدْر والإجلال، والنبيُّ ﷺ هو أبو المؤمنين في القَدْرِ لا في النسب ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠] يعني في النَّسَب؛ لأن هذا ردٌّ على الذين يقولون: إن زيدَ بنَ حارثةَ ابنٌ للرسول ﷺ، واللهُ نفى هذا، ولكن ليس معنى هذا أنه ليس أبًا لهم في القَدْر والإجْلال، قال تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وفي قراءة: ﴿وهو أب لهم﴾، يعني: في القَدْر والإجلال.

وأما إنهن أمهاتُ المؤمنين فهذا بِنصِّ القرآنِ الذي يُقرأ إلى يوم القيامة ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] بمعنى: أنه لا يجوز لأحدٍ أن يتزوجَ منهن بعدَ الرسول ﷺ؛ لأنهن زوجاته في الجنة: ﴿وَمَا كَانَ

لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

فهنّ محرَّماتٌ على الأمة؛ لأنهن زوجاتُه في الدنيا والآخرةِ عليه الصلاةُ والسلام، وكفى بذلك فضلًا لهنّ؛ ولأنهنّ حَمَلْنَ مِنَ العلمِ والشرع ما بَلَّغْنَه الأمة، حَمَلْنَه عن رسولِ الله ﷺ، فلهنّ الفضل، ولهن الإجلال، رضي الله عنهنّ جميعًا.

والذين يطعنون في زوجاتِ النبي ﷺ يطعنون في النبيِّ ﷺ، فالذين يطعنون في عائشةَ رضي الله عنها -هم الشيعةُ- هؤلاء يطعنون بالرسولِ ﷺ؛ لأن الرسولَ يحبُّها ويحبُّ أباها، ولها مكانةٌ عندَ الرسول ﷺ، مُرِّض عندها، وتُوُفِّي بين سَحْرِها ونحْرِها، وكان رأسُه في حجرِها عليه الصلاة والسلام وفضلُها عظيم؛ لقربِها من النبي ﷺ ونزولِ الوحيِ على الرسول ﷺ وهو في فراشها، ولها فضائلُ عظيمة.

فالشيعةُ الذين يطعنون في عائشةَ رضي اللهُ عنها هؤلاء لا شكَّ أنهم بذلك يُعادُون الرسولَ ﷺ ويؤذونَه، فمن آذى عائشةَ فقد آذى الرسولَ ﷺ، واللهُ أنزلَ براءَتها مما اتُهِمت به من المنافقين في حادث الإفك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾، قال ﷻ: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ [النور: ٢٦]، ما كان اللهُ ليختارَ لنبيِّه ﷺ امرأةً خائنةً في فراشِها، فإذا طُعِن فيها فقد طُعِن في النبيِّ ﷺ، وإذا طُعِن في النبيِّ ﷺ فهذا طَعْنٌ في اللهِ ﷻ، وهذا كُفرٌ، كُفر أكبر.

وأُقِرُّ بكراماتِ الأولياءِ، وما لهم من المُكَاشَفات. [٢٨]

والذين لا يُبرِّئون عائشة ﵂ مما اتهمها به المنافقون هؤلاء كُفّار؛ لأنهم مُكذِّبون لله ولرسولِه ولإجماع المسلمين.

وقبلها مريمُ ابنةُ عمرانَ اتَّهمها اليهودُ -لعنهم الله- فبَرَّأَها اللهُ مما قالوا، فالشيعةُ فيهم شَبَهٌ من اليهودِ من عِدَّة وجوه وهذا أقبحُها.

[٢٨] لما فرغ ﵀ مما يجب للرسولِ ﷺ، وما يجِب لأصحابِه، وما يجبُ لأهل بيتِه ﵃ انتقلَ إلى بيانِ الاعتقادِ في كراماتِ الأولياء.

والكراماتُ: جمع كرامة، وهي الأمرُ الخارقُ للعادةِ الذي يَجْري خارقًا للعادةِ، ويكون من اللهِ ﷻ لا دَخْلَ للبشرِ فيه، إن جَرَى على يدِ نبيٍّ فهو معجزةٌ، مثل:

* تكثيرُ الطعامِ القليلِ بين يدي النبي ﷺ، ونَبْع الماءِ من بين أصابعِه، وأعظمُ من ذلك نزولُ القرآن، وهو المعجزةُ العظيمةُ للرسولِ ﷺ الذي أعجزَ الجنَّ والإنسَ أن يأتوا بسورةٍ منه.

* عصا موسى، ويد موسى، والآيات التسع التي أعطاها اللهُ لموسى ﵇.

* ما أُعطِي عيسى من إحياءِ الموتى وإبراءِ الأكْمَهِ والأبْرَص.

فهذه معجزات، وما أُعْطِيه نبيُّنا ﷺ من المعجزاتِ كثيرٌ جدًّا.

أما إن جرَت الخارقةُ على يد عبدٍ صالحٍ وليس نبيًّا فهي كرامةٌ من الله ﷻ مثل الذي جرى لمريم لما كانت معتزِلةً في مكانٍ ومتّخذةً حجابًا دون الناس، ويأتيها رزقُها وهي في مكانِها: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ [آل عمران: ٣٧]، يعني: المُصَلَّى الذي تصلي فيه، كلَّما دخل

عليها زكريا مصلَّاها، وهو المحرابُ ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

ومثلُ الذي جرى لأصحابِ الكهفِ من الكرامات؛ لأنهم مؤمنون، تبرءَوا من دينِ المشركين، وخرجوا من البلدِ وأوَوْا إلى غارٍ فِرارًا بدينِهم، فاللهُ ضَرَبَ عليهم النومَ سنينَ طويلةً حتى زادت شعورهم وأظفارهم، وهم يتقلّبون من جَنْبٍ إلى جنب، ومضت عليهم سِنون كثيرةٌ وهم لم يتغيروا، وهم في نومهم، هذا من كرامات الأولياء.

ولشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ كتاب: «الفُرْقَانُ في أولياءِ الرَّحْمَنِ وأوْلياءِ الشَّيْطَان»، وهو كتابٌ نفيس جدًّا في هذا الباب.

أما إذا جرَى الخارقُ على يدِ كافرٍ أو على يد ساحر، فهذا ليس كرامة، وإنما هذا خارقٌ شَيْطاني، فالساحر قد يَطِيرَ في الهواء، ويمشي على الماء، ويَدخلُ في النار ولا تحرقُه، وهذا عملٌ شيطاني وليس بكرامة، وهو ابتلاءٌ وامتحان.

فنحن نُؤمنُ بكراماتِ الأولياءِ وأنها مِنحة من الله، قال أهلُ العلم: كراماتُ الأولياءِ معجزةٌ للأنبياء. لأنهم ما حَصَلوا على هذه الكرامات إلا باتِّباعِهم للأنبياء، فهي كرامةٌ للأولياءِ ومعجزةٌ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والناسُ في الكراماتِ على ثلاثةِ أقسام، طرفان ووسَط.

الطرفُ الأول: من يُنكرُ الكرامات، وهم المعتزلة، يُنكرون كراماتِ الأولياء، ويقولون: ليس هناك كراماتٌ ولا خوارق؛ لأنهم يعتمدون على عقولِهم ولا يعتمدون على الأدلة، فيُنكرون الكرامات.

الطرفُ الثاني: فريقٌ غَلَا في إثباتِ الكراماتِ حتى عَدَّوا مخاريقَ السحرةِ والكهنةِ والصُّوفية كرامات، وهي خوارقُ شيطانيةٌ وليست كرامات، هؤلاء غَلَوْا في إثباتِ الكرامات حتى اعتقدوا أن كلَّ شيءٍ يُخالفُ العادة فهو كرامة، ولو كان جرى على يدِ ساحرٍ وكاهنٍ ومشرك، فيقولون: هذه كرامة. ولذلك يعبدون القبورَ ويقولون: إن صاحبَها حصَل له كرامات وحصَل له كذا وكذا، ويطلبون منه المَدَد، وهذا غُلُوٌّ في أصحابِ الكرامات.

الثالثُ: أهلُ السُّنَّة والجماعة، فيتوسَّطون، يثبتون الكراماتِ الصحيحة، أما خوارقُ الشياطين وما يَجري على يدِ الشياطينِ فهذه ليست كرامات، وإنما هي شيْطنةٌ وابتلاءٌ وامتحان، فقد يَطيرُ الساحرُ في الهواء، ويمشي على الماءِ ويحْصُل له أشياء، ولكن هذا بفعلِ الشياطين، وقد يُخبِر عن أشياءَ غائبة؛ لأن الشياطينَ تُخْبِره، إذا هو عبدَهم وخضعَ لهم خدموه، ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَاۚ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، فإذا تَقرَّب الإنْسِي إلى الجنِّ وخضعَ لهم خدَموه، وهم يقدرون على ما لا يقدِرُ عليه الإنس، فيظنُّ الجاهلُ أن هذه كرامة، وهي ليست كرامة، وإنما هي شيْطنة، فيجب التنبُّه لهذا في أمور، فالكراماتُ لا تُنفَى مطلقًا ولا تُثبَت مطلقًا، وإنما يُفَصَّلُ فيها فيكونُ الإنسانُ على بصيرة.

وقوله: «**وما لهم من المُكَاشفات**»، يعني: الفِرَاسة، يُعطي اللهُ بعضَ المؤمنين فِراسة، يَتفرَّس فيها الأشياء، وتحصُل كما تَفَرَّسها.

إلا أنهم لا يستحقُّون من حقِّ اللهِ تعالى شيئًا، ولا يَطلُب منهم ما لا يَقْدر عليه إلاّ الله. [٢٩]

---

[٢٩] **قوله: «لا يستحقُّون من حقِّ اللهِ تعالى شيئًا»**، هذا احترازٌ من المؤلفِ رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو ردٌّ على الذين يغلون في أصحابِ الكرامات، ويعبدون الأولياءَ والصالحين من دونِ الله، ويقولون: لهم كرامات.

كما عليه القُبُوريون الذين يتقرَّبون إلى الأموات، ويعتقدون في بعضِ الأحياءِ أنه وصل إلى درجةٍ يستطيعُ فيها أن ينصرَهم وأن يعطيَهم أشياءَ لا يقدرُ عليها إلا الله، بناءً على أَنَّ له كرامات، فيقولون: إن له كراماتٍ وهذا دليلٌ على أنه يَنفعُ ويَضُر.

فالمؤلفُ رَحِمَهُ اللَّهُ يردُّ على هؤلاء، وغالبُ ما عليه القُبُوريون مبْنيٌّ على هذا الوهم، الغُلُو في أصحاب الكرامات، فنحن نحبُّ الصالحين، والذين تجري على أيديهم كرامات، نحبُّهم ونجلُّهم ونقتدِي بهم، ولكن لا نعطيهم شيئًا من العبادة كما يفعلُه الخُرافيون.

قوله: «من حقِّ اللهِ تعالى»، وحقُّ اللهِ هو العبادة؛ كما قال ﷺ: «**وحَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**»(١).

وقوله: «ولا يَطلُب منهم ما لا يقدِر عليه إلّا الله»؛ كإجراءِ الرزقِ وشِفاء المريضِ وهِبَةِ الولدِ وغير ذلك، هذا لا يقدِرُ عليه إلا الله، أما ما يقدرون عليه من أمورِ الدنيا فيطلبُ منهم إذا كانوا أحياءً، حتى ولو كان ليس لهم كرامات، تطلبُ من الإنسانِ أن يساعدَك بالمال؛ كأن يكونُ غنيًّا تطلبُ منه أن يُقرضَك أو يتصدَّق عليك، وإذا وقعْتَ في كُرْبَةٍ

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٢٧٠١)، ومسلم رقم (٣٠).

تطلبُ منه أن يُساعدَك في الخروجِ منها، وفي الحديث: «**وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ**»[١]، فيُستغَاثُ بالمخلوقِ الحيِّ فيما يقدِرُ عليه؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، استغاثَ بموسى عليه السلام ﴿ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ من بنِي إسرائيل ﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ من آلِ فرعون ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أغاثَ هذا الرجلَ المظلوم، وكما يستَغِيث الرجلُ بأصحابِه في الحربِ وغيرِها، يسْتَنجدُ بهم، فالاسْتِغَاثةُ بالحيِّ فيما يقدِرُ عليه لا بأسَ بها، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

أما الاسْتغاثةُ بالأمواتِ فلا تجوزُ مطلقًا؛ لأن الأمواتَ لا يقدرونَ على شيء، لا الرسولُ ﷺ ولا غيرُه، هم في عالَمٍ وأنت في عالمٍ آخر، فلا تَطلُبْ من الأمواتِ شيئًا بحُجَّة أنَّ لهم كرامات وأنهم يقدرون، هذا باطل، فالميتُ لا يُطلَبُ منه شيءٌ ولو كانَ من أفضل الناس.

وكذلك الحيُّ لا يُطلَبُ منه ما لا يَقْدرُ عليه إلّا الله، لا يُطْلَب منه شفاءُ المريض، أو إعطاءُ الولد، أو جَلْبُ الرِّزق له، فما يُطلَبُ من المخلوقِ شيءٌ لا يَقْدِرُ عليه إلا اللهُ ﷻ.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٢٣١٠)، ومسلم رقم (٢٥٨٠).

ولا أَشْهَدُ لأحدٍ من المسلمين بجنَّةٍ ولا نارٍ إلا من شَهِد له رسولُ الله ﷺ؛ لكني أرجو للمُحسنِ وأخافُ على المُسِيء، ولا أُكَفِّرُ أحدًا من المسلمين بذَنْب، ولا أُخرِجُه من دائرةِ الإسلام. [٣٠]

---

[٣٠] هذا مُعْتَقدُ أهلِ السُّنَّة والجماعة، أنهم لا يشهدون لأحدٍ مُعيَّنٍ بجنَّةٍ ولو كان من الصالحين، ولا يشهدون لأحدٍ بالنَّار ولو كان من الكافرين؛ كأن تقول: هذا من أهلِ الجنَّة، أو هذا من أهل النار. هذا لا يجوزُ إلا لمن أطلعَه اللهُ على الغيبِ وهو الرسولُ ﷺ، ولم يُطْلِعْهُ على الغيب كلِّه، ولكن على شيءٍ من المُغَيَّبات، ومن ذلك أنَّ الرسولَ ﷺ شهِدَ لأُناسٍ بالجنة، فنحنُ نشْهَد أنهم من أهلِ الجَنَّة، كالعشرةِ المبشرين بالجنَّة من صحابةِ رسولِ الله ﷺ، وهم: الخلفاءُ الأربعةُ، وطلحةُ، والزبيرُ، وسعدٌ، وسعيدٌ، وعبدُ الرحمنِ بنُ عَوف، وأبو عبيدة عامرُ بن الجرَّاح، هؤلاء شهِدَ لهم رسولُ الله ﷺ بالجنة، وثابتُ بن قيس بنِ شَمَّاسٍ بشَّره النبيُّ ﷺ بالجنةِ، فهؤلاء نشْهَدُ لهم؛ لأن الرسولَ شهِدَ لهم بأعيانِهم، فنقول: فلانٌ في الجنة، أبو بكر في الجنة، عمرُ في الجنة، طلحةُ، والزبيرُ، كلُّ هؤلاء في الجنة؛ لأن الرسولَ أخبرَ أنهم في الجنَّة.

والرسولُ ﷺ لا ينطِقُ عن الهوى، وإن كانَ هذا من الغيب، ولكنَّ اللهَ أطلعَ الرسولَ ﷺ على الغيب، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٧]، يُطلِعُ اللهُ الرسلَ على شيءٍ من المُغَيَّبات؛ لأجلِ مَصْلَحةِ البَشر.

وكذلك لو كان كافرًا أو فاسقًا فإننا لا نشْهدُ له بالنار؛ لأننا لا ندري عن خاتمتِه، لا نشهدُ لأحدٍ بالجنةِ وإن كان من الصالحين؛ لأننا لا ندري عن خاتمتِه بِمَ يُختَم له؟ ولا نَشْهَدُ لأحدٍ بالنار ولو كان كافرًا؛ لأننا لا ندري بِمَ يُختَم له؟ والنبي ﷺ يقول: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهلِ النَّارِ حَتَّى ما يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا**»(١).

والخواتيمُ لا يعلمُها إلا اللهُ ﷻ، فنحن لا نشهدُ للمُعَيَّن، أما العمومُ فنحن نَشْهدُ على الكفارِ أنهم في النارِ من غيرِ تَعْيينِ فلانٍ، نقولُ: الكافرون في النار، والمؤمنون في الجنة، على العموم، قال تعالى في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، وقال في النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، فلا شك أنَّ الكفارَ في النارِ من غيرِ تعيينِ أشخاصٍ إلا بشهادة، ولا شك أنَّ المؤمنين في الجناتِ من غيرِ تعيينِ أشخاصٍ إلا بشهادةٍ ممَّن لا ينطقُ عن الهوى.

وهذا من التَّأدُّبِ مع اللهِ ﷻ، فنحن لا نشهدُ للمعيَّن إلا بدليل، ولكننا نرجو للمُحْسِن ونخافُ على المسيء.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ولا أُكفِّرُ أحدًا من المسلمين بذَنْب، ولا أُخْرِجُه من دائرةِ الإسلام**»، هذه عقيدةُ أهلِ السُّنةِ والجماعةِ أنهم لا يُكَفِّرون

(١) أخرجه: البخاري رقم (١٢٢٦)، ومسلم رقم (٢٦٤٣).

بالكبائرِ التي دونَ الشرك؛ كالزنا والسرقةِ وشُرْبِ الخمر وأكْلِ الربا، هذه كبائرُ موبِقاتٌ، ولكن لا يحكمون على صاحبِها بالكفر، بل يحكمون عليه أنه ناقصُ الإيمان، فهي كبائرُ تُنقِصُ الإيمان، وحُكْمُ صاحبِها أنَّه تحت مشيئةِ الله، إن شاء عذَّبَه وإن شاء غَفر له: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، فنحنُ لا نكفِّر إلا من كفَّره اللهُ ورسولُه بالأدلةِ من الكتابِ والسُّنةِ وبإجماعِ أهلِ العلم.

وأما أن نكفِّرَ بالكبائرِ التي دون الشركِ فهذا مذهبُ الخوارجِ والمُعْتزلة الضُّلَّال الذين يحكمون على مُرْتَكبي الكبائرِ أنهم كفَّار، وأنهم مخلَّدون في النارِ -نسألُ اللهَ العافية- هذا مُعْتَقَدٌ باطلٌ يُخالِفُ الأدلة.

لكن من استحَلَّ محرَّمًا مُجْمَعًا على تحريمِه فهذا كافرٌ؛ كما لو اسْتَحَلَّ الرِّبا، أو الخمر، أو الزنا، أو حَرَّمَ شيئًا مُجْمَعًا على حِلِّهِ فهذا كافر؛ لأنه مكذِّب للهِ ولرسولِه ولإجماعِ المسلمين، فمسألةُ التكفيرِ لها ضوابطُ عندَ أهلِ السُّنةِ والجماعة، أما مجرَّدُ ارتكابِه للكبيرةِ التي دون الشركِ فهذا خطرٌ بلا شك، وهو مُتَوعَّد بالنار والغَضب، ولكن لا نحكمُ عليه بالكفر، بل نقول: إنه مؤمنٌ ناقصُ الإيمان، وفي الآخرةِ هو مُعرَّضٌ للوعيدِ الذي وردَ، إن شاء اللهُ عفا عنه وإن شاء عذَّبه، ولكن إذا عذَّبه لا يُخلَّد في النارِ كالكفَّار، بل يُخرَج منها إلى الجنة.

ولا يُخرَج من دائرةِ الإسلام بل يبقى في دائرةِ الإسلام، فيكونُ معه أصلُ الإسلامِ وأصلُ الإيمان، لكن يكونُ إيمانُه ضعيفًا؛ لأن المعاصيَ تُنْقِصُ الإيمان.

وأرى الجهادَ ماضيًا مع كلِّ إمامٍ برًّا كان أو فاجِرًا، وصلاةُ الجماعةِ خَلْفَهم جَائزة. [٣١]

وانظر إلى كلامِ الإمامِ الذي قال عنه خصومُه: إنه يكفِّرُ المسلمين، فهو يَنفِي عن نفسِه هذه التهمةَ الباطلة، ويُبيِّنُ ما هو عليه.

[٣١] **الجهادُ**: هو بذلُ الجهدِ في قتالِ الكفارِ لإعلاءِ كلمةِ الله، فالغرضُ من الجهادِ هو إعلاءُ كلمةِ اللهِ ونشرُ التوحيدِ وإبطالُ الشرك؛ لأن الدِّينَ لله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالعبادةُ حقٌّ لله، فمن عَبَدَ غيرَ اللهِ فإنه يُدعى إلى الرجوعِ إلى الإسلامِ والتوبةِ وإخلاصِ التوحيدِ؛ فإن أَبَى فإنه يُقاتَل.

لأن اللهَ بعثَ رسولَه ﷺ بالدعوةِ والجهاد، بالدعوةِ أولًا ثم الجهادِ بعد ذلك؛ لِئَلَّا ينتشرُ الكفر، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يعني: شِركٌ، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ ليس فيه عبادةٌ لمخلوقٍ بل العبادةُ للخالقِ ﷻ.

هذا هو الغرضُ من الجهاد، وهو نشرُ التوحيدِ ومحْوُ الشركِ من الأرض؛ لأن اللهَ خلقَ الخلقَ لعبادتِه، فإذا عبدوا غيرَه فإمّا أن يتوبوا ويرجِعوا وإمّا أن يُقَاتَلُوا؛ لأنهم لو تُركوا لنشروا الكفر؛ لأن الكفّارَ يَدْعُونَ إلى الكفر، فالكافرُ إذا كان كفرُه ينتشر يُقاتَل، أما إذا كان كفْرُه قاصِرًا عليه، ولا يدعو إليه، وليس له نشاطٌ في نشرِ الكفر، وإنما هو مقتصِرٌ على نفسِه فهذا لا يُقاتَل، مثل: كبارِ السِّن من الكفّارِ، والنساءِ والأطفالِ، والرهبانِ في صوامعِهم، هؤلاء لا يُقاتَلون؛ لأن كفرَهم

قاصِرٌ عليهم، وكذلك من خضعَ للإسلامِ وبَذَل الجِزيةَ فإنه لا يُقَاتَل، بل يُترَكَ على دينِه وتُؤْخَذُ منه الجزية، ويكون تابعًا لحكم الإسلام، وهذا شرُّه يقتصرُ عليه، ومعلومٌ أن الذي تُؤخذُ منه الجِزيةُ أنه لا يدعو إلى الكفر، فلو دعا إلى الكفرِ لانْتقَضَ عهدُه، فهو مستسْلِمٌ تحت حكمِ الإسلامِ ويدفعُ الجزيةَ التي فيها الذِّلّة والصَّغَار، فهذا يُترَك، والشيخُ الكبير، والصبيُّ، والأطفالُ، والنساءُ، الذين لا يَتعدَّى كفرُهم إلى غيرِهم، والرهبانُ الذين تَركوا الناسَ وانعزلوا في صوامعِهم للعبادة، هؤلاء لا يُقتَلُون أيضًا.

دَلَّ هذا على أنَّ دينَ الإسلامِ ليس دينَ قتلٍ وسَفْكِ دماء، وإنما هو دينُ رحمةٍ وعَدْل، يُريدُ أن يُخرِجَ الناسَ من الظلماتِ إلى النورِ لصالِحِهم هم، وكَمْ حَصَلَ في الجهادِ مِنْ منافعَ للناس، فالذين أسلموا مِنَ الكفارِ مِنَ الأعاجِمِ أنقذَهم اللهُ من النار، لو تُرِكُوا لصاروا من أهلِ النار، فأسلموا وحَسُنَ إسلامُهم وخرج منهم العلماءُ الأفْذَاذ، فهذه ثمراتُ الجهاد في سبيلِ اللهِ ﷻ، فالجهادُ هو ذِرْوةُ سَنَامِ الإسلام، **ولكن الجهاد له شروط:**

الشرطُ الأول: أن يكونَ بالمسلمين قوةٌ يَقوَوْن بها على جهادِ الكفار، أي: عندَهم عُدَّة واستعدادٌ لجهادِ الكفار، فإذا لم يكونوا على استعدادٍ؛ كأن يكون فيهم ضعفٌ والكفارُ أقوى منهم، فلو قاتلَ المسلمون الكفارَ لأُبيدَت خضراءُ المسلمين، فلا يجوزُ القتالُ في هذه الحالة؛ لأن هذا يلزَمُ عليه مفسدةٌ أكبرُ من المصلحة، وهي تَسَلُّطُ الكفارِ على المسلمين؛

ولهذا فالنبيُّ ﷺ بقِيَ في مكةَ ثلاثةَ عشرَ عامًا مقتَصِرًا على الدعوةِ إلى الله، والمسلمون يُؤذَوْن ويُضايَقُون ولم يُؤمَر بالجهاد، بل اللهُ أمرهم بالصبرِ وكفِّ الأيدي حتى يأذن الله ﷻ لهم بالجهاد: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧]، هذا في مكة، أُمِروا بكفِّ أيديهم، ولكن مع هذا يقومون بالدعوةِ إلى اللهِ ﷻ، فلمّا هاجر النبيُّ ﷺ إلى المدينة، وانتشر الإسلامُ وكان بالمسلمين قوةٌ أمَرَه اللهُ بالجهاد؛ لأنهم صاروا أقوياءَ ومستعدين للجهاد، وهذا ليس خاصًّا بالوقتِ الأول، هذا عامٌّ للمسلمين إلى آخرِ الزمان، إن كان عندهم قوةٌ واستطاعةٌ يجِبُ عليهم الدعوةُ والجهاد، وإذا كان ليس عندهم قوةٌ فيبقَون على الدعوة، وأما الجهادُ فيؤجِّلونه إلى وقتِ القدرة على ذلك؛ لأنهم لو قاتلوا وهم ضعفاءُ لتَسَلَّط عليهم الكفارُ وتغلَّبوا عليهم.

الشرطُ الثاني: أن يكونَ الجهادُ تحتَ رايةٍ يعقدُها وليُّ أمْرِ المسلمين، وليس كُلٌّ يُجاهِد، وكُلٌّ يُقاتِل، وكُلٌّ يُكَوِّنُ له جماعة، هذا لا يجوزُ في الإسلام، هذا ضررٌ على المسلمين أنفسِهم قَبْلَ أن يَضُرُّوا الكفار؛ لأن المسلمين يتناحَرُون فيما بينهم، كلُّ واحدٍ يُرِيدُ أن يكونَ هو الذي يظْفَرُ بالنتيجة، وجُرِّبَ هذا في عصاباتٍ قاتَلَتِ العدوَّ فلما انهزم العدوُّ وانْدَحَر تقاتلوا فيما بينهم، كُلٌّ يريدُ أن يكونَ هو الذي يأخُذُ السلطة، هذا نتيجةُ أنهم ما قاتلوا تحتَ رايةٍ واحدةٍ وتحتَ إمامٍ واحد، وإنما تفرقوا إلى عصاباتٍ وجماعات، فلا يجوزُ هذا في الإسلام، لا بد أن يكونَ الجهادُ تحتَ رايةٍ مُوَحَّدة.

ولهذا قال الشيخُ: « **وأَرَى الجِهادَ مَاضيًا مع كلِّ إمام** »، أي: إمام للمسلمين يقودُهم ويُنظِّمُهم، ويُشْرِفُ عليهم، ويُعِدُّ العدَّةَ ويُسَلِّحهم، لا بد أن يكونَ الجهادُ تحتَ رايةِ الإمامِ وبأمرِه حتى ينجحَ الجهاد، أما إذا كان بدونِ إمامٍ وبدونِ رايةٍ فإنه يَئُولُ إلى الفشلِ في النهاية، فقوله: « **مع كلِّ إمام** »، دلَّ على أنه يُشترَطُ وجودُ الإمامِ الذي يُقاتَلُ تحتَ رايتِه.

ولا يُشترَط في الإمامِ أن يكونَ بارًّا مائة بالمائة مثل: أبي بكرٍ، وعمرَ، وعثمانَ، وعليٍّ، وعمرَ بنِ عبد العزيز، والصحابة، لا يُشترَط أن يكونَ الإمامُ صافيًا ليس فيه نَقْص، بل ولو كان فاجرًا، يعني: فاسقًا، فِسْقُه لم يصلْ إلى حدِّ الكفر، فإذا بقِيَتْ إمامتُه فإنه يبقى له صلاحيةُ الجهاد ويُطَاعُ في الجهاد، ويُصلَّى خلفَه، لأنه مسلمٌ ولو كان عاصيًا، ولو كان فاسقًا، ولو كان جائرًا وظالمًا، لأن المصلحةَ في الجماعةِ أرجحُ من المصلحةِ في التفرُّق عليه والاختلاف عليه.

هذه مسألةٌ عظيمةٌ يغفلُ عنها كثيرٌ من الحَمَاسِيِّين الذين ليس عندهم فِقهٌ في الدِّين، يقولون: كيف نطيعُه وهو فاسقٌ وهو عاصٍ؟ الجواب: نطيعُه للمَصْلحةِ العامة، وارتكابُ أخفِّ الضَّرَرين لدفعِ أعلاهما مطلوبٌ في الإسلام، ودَرْءُ المفاسدِ مقدَّمٌ على جلبِ المصالح، والمسلمون قاتلوا مع الحجَّاج ومع يزيدَ بن معاوية وهم فُسَّاق؛ لجَمْعِ الكلمة، بل كان هناك صحابةٌ في رايةِ يزيدَ بنِ معاوية في غزْوِ القُسْطَنْطِينيَّة، منهم أبو أيُّوبَ الأنْصَاريُّ ﵁. وقاتلوا مع الحجَّاجِ وهو معروفٌ بالظلم، فهو ظالمٌ فاتِكٌ باطش، لكن لأجلِ مصلحةِ الإسلامِ والمسلمين، وتُغتَفَرُ المسألةُ الجُزئيةُ في مُقابلِ المصلحةِ العامةِ الكُلِّيَّة، هذه قاعدةٌ في الإسلام.

فلا يُشترَطُ في الإمامِ الذي يتولى أمورَ المسلمين ويقودُهم للجهادِ أن يكونَ صالحًا مستقيمًا مائة بالمائة، بل ولو كان عنده شيءٌ من المعاصي والمُخالفات ما دام لم يصلْ إلى حدِّ الكفرِ باللهِ ﷻ، ولكنَّ الجُهَّالَ المتحمِّسين لا يتحمَّلون هذا الكلام، لأنهم جُهَّال، والصحابةُ تحمَّلوه وأطاعوا الرسولَ ﷺ في ذلك لفقهِهم وإيمانِهم، أما الجُهَّال المتحمِّسون فلا يتحمَّلون هذا، والمُغرِضون أيضًا لا يتحمَّلون هذا، فهم أُناسٌ قد يكونون ليسوا بجُهَّال يعرفون هذا، لكنهم مُغرِضون يريدون تشْتيتَ المسلمين، فيحرِّضُونهم على وُلاتِهم بسببِ أن الوُلاةَ يرتكبون أشياءَ من الأخطاء، وذلك لأجلِ تفريقِ الكلمةِ وإضعافِ المسلمين، فيجب الفطنةُ لهذه الأمورِ والحذرُ منها، وعدمُ الاندفاعِ بدونِ فقهٍ وبدونِ علم.

هذه مسألةٌ عظيمة، الآن حصَل فيها سُوءُ فَهْم، وحصَل فيها تضليلٌ بسببِ الجَهْل أو بسببِ الهَوَى.

وقوله: « **برًّا** » وهو: الصالحُ المستقيم، « **أو فاجرًا** » يعني: فاسقًا ولكن لم يصلْ إلى حدِّ الكفر، لأن المصلحةَ في طاعتِه والجهادِ معه أرجحُ من المفسدةِ في الصبرِ على فِسْقِه وعلى مخالفتِه.

وقوله: « **وصلاةُ الجماعةِ خَلفَهم جَائِزة** »، لا شك أنَّ صلاةَ الجماعةِ خلفَ الأئمةِ الفُسَّاق جائزةٌ وصَحيحة، ما داموا يُصلُّون فصلِّ خلفَهم، فقد صلَّى الصحابةُ خلفَ الحجَّاج، وصلَّوْا خلفَ عُبَيْدِ اللهِ بن زياد، وصَلَّوْا خلفَ الأمراءِ الفُسَّاق الذين يشربون الخمرَ، وكذلك خلفَ الوليدِ بنِ عُقْبَة، صلَّوْا خلفَهم لأجلِ جَمْعِ الكلمة، وهؤلاء مسلمون تصِحُّ صَلَاتُهم، وما دامت تصِحُّ صلاتُهم فتصِحُّ إمامتُهم جمعًا للكلمة.

والجهادُ ماضٍ منذ بَعَثَ اللهُ محمدًا ﷺ إلى أن يُقَاتِلَ آخِرُ هذه الأمةِ الدّجّال، لا يُبْطِلُه جَورُ جائرٍ ولا عدلُ عادل. [٣٢]

[٣٢] **الدَّجَّال**: هو المسيحُ الدَّجّال الكذَّاب، سُمِّي بالدجالِ لكثرةِ الدَّجَلِ عندَه والكَذبِ، وما عنده من الفتنةِ الشديدة، وكلُّ نبيٍّ حذَّر أمتَه فتنةَ المسيحِ الدجال، وأشدُّهم تحذيرًا نبيُّنا محمدٌ ﷺ؛ لأنه أقربُ الناسِ إلى خروجِه، وهو يخرجُ في آخِرِ الزمان، يخرجُ في اليهود، وَتَجَمُّعُ اليهودِ في فَلِسطِين الآن هذا إرْهَاصٌ لخروجِ الدَّجال، لأنه يَخْرُجُ في اليهودِ - قَبَّحَهم الله -.

ويحْصُلُ منه فتنةٌ عظيمةٌ ويدورُ في البلاد، وما مِنْ بلدٍ إلا يَدخُلُه إلا مكةَ والمدينةَ، فإنه لا يَدخُلُهما، ولكنَّ الأشرارَ الذين في مكةَ والمدينةِ يَخرجُون إليه، ولا يبقى فيهما إلا أهلُ الإيمان، لأنَّ المدينةَ إذا جاءَ الدجالُ ترجُف فيخرجُ منها كلُّ منافق، ولا يبقى فيها إلا أهلُ الإيمانِ الصادق.

ثم يَنزِلُ عيسى ابنُ مريمَ مسيحُ الهداية ﷺ، ينزلُ من السماء، ثم يَطْلبُ الدجالَ فيقتُلُه في بابِ لُدٍّ في فلَسْطِين، يقتُلُه ويَنْصُرُ اللهُ الإسلامَ والمسلمين، ويحكمُ المسيحُ بنُ مريم بدِينِ الإسلام، بدِينِ محمدٍ ﷺ، ويَقْوَى الإسلامُ في عهدِه عليه الصلاةُ والسلام، ثم بينما هم كذلك إذ ظهرَتْ يأجوجُ ومأجوجُ الذين ذَكَر اللهُ ﷻ، فيأمرُ اللهُ عيسى أنْ يُحرِّزَ المسلمين إلى الطُّور ويقول: «**إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي، لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ**»[1]، فيَعيثون في الأرضِ فسادًا،

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٩٣٧).

ويذبحون في المسلمين مذابح، ثم يُنزِلُ اللهُ بهم المرضَ فيقتلُهم عن آخرِهم، ويموتون عن آخرِهم، فيُفرِّجُ اللهُ للمسلمين بذلك، هذه قصةُ خروجِ الدَّجالِ باختصار، فنحن نُؤمنُ بخروجِ المسيحِ الدجال.

وهناك كُتَّابٌ جُهَّال يقولون: لا يوجد دجَّالٌ، وإنما هذا عبارةٌ عن كثرةِ الكذبِ في آخرِ الزمان، وليس هناك نزولُ عيسى، وإنما هذا عبارةٌ عن ظهورِ الحق. وهذا إنكارٌ للمتواتِر من سُنَّة رسولِ الله ﷺ، بل إنَّ القرآنَ دلَّ على نزولِ عيسى ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩] هذا دليلٌ على أنه ينزلُ في آخرِ الزمان، واليهودُ الذين كفروا به في الأولِ يؤمنون به، ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾، وفي الآية الأخرى قال في عيسى ﷺ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزُّخرُف: ٦١]، يعني: أن نزولَه في آخرِ الزمانِ علامةٌ على قُربِ قيامِ الساعة، وفي قراءةٍ: ﴿وإنه (لعَلم) للساعة﴾[1]، فنزولُ عيسى بنِ مريمَ من السماءِ علامةٌ على قُرْبِ قيامِ الساعة، فهو من علاماتِ السَّاعة وأشراطِها.

فقوله: «إلى أن يُقاتِلَ آخرُ هذه الأمةِ الدَّجّال»، فيُقاتلونه ويُقاتلون اليهودَ وتصيرُ ملاحِمُ بين المسلمين واليهود، وينصرُ اللهُ المسلمين، حتى يقولَ الحجرُ والشجرُ: يا مسلمُ، هذا يهوديٌّ خلفي تعالَ فاقتُلْه. فيقتلون اليهودَ مَقْتلةً عظيمة، وينصُرُ اللهُ المسلمين عليهم.

---

(١) قرأ بها ابن عباس وقتادة والضحاك. انظر: «تفسير الطبري» (٢٥/ ٩٠ - ٩١).

وقوله: «**لا يُبطِلُه جورُ جائرٍ ولا عدلُ عادلٍ**»، يعني: أن الجهادَ لا يُبْطله جَورُ جائرٍ، فلا أحدَ يَمنعُ الجهاد، ويقولُ: ليس فيه جهادٌ والإسلامُ ليس دينَ قتال. والآن يقولون هذا، يقولون: الإسلامُ ليس دينَ جهادٍ ولا دينَ سفكِ دماءٍ، نقول: نعم، الإسلامُ ما هو بدينِ سفكِ دماء، ولكنه دينُ جهاد لا لأجلِ سَفْكِ الدماء وإنما لأجلِ مصلحةِ البشرية، واللهُ ﷻ يقولُ في حقِّ نبيِّه ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فَمِنْ رحمةِ اللهِ بالعالمين أن شَرَعَ الجهادَ لإنقاذِهم من الظلماتِ إلى النور، ومن الكفرِ إلى الإيمان، فنحنُ لا نقاتلُ الكفارَ طمعًا في أموالِهم أو في دمائِهم أو في بلادِهم، وإنما نقاتلهم لنشرِ الإسلامِ ولصالحِهم، فدخولُهم في الإسلام من مصلحتِهم هم؛ ليموتوا على الإسلامِ ويدخلوا الجنة، ولكن لو تُركوا وماتوا على الكفرِ دخلوا النار، فالجهادُ هو لمَصلحةِ الكفارِ أكثرَ؛ لأنه إنقاذٌ لهم من الكفر، ومن النارِ، ومن الجهلِ، ومن الضلال، تَرَوْن ثمراتِ الجهادِ في المَشْرق والمغرب ماذا أَنْتَجَ من الخَير، ماذا أنتجَ من نشرِ العلم، ومن نشرِ التوحيد، ومن انتشارِ الإسلامِ وقمعِ الظلم.

وقوله: «**ولا عدلُ عادلٍ**»، يعني: لا أحدَ يَمْنَعُ الجهاد، حتى لو كان المَنْعُ من سُلطانٍ عادل، فالجهادُ لا يَسْقُط، لا نقول: حصَلَ المقصودُ، فالعدلُ الآن منتشرٌ والناسُ في خير. الجهادُ ماضٍ بحكمِ اللهِ سبحانه، **ولكن بهذه الشروط**:

أولًا: أن يكونَ بالمسلمين قوةٌ على الجهاد.

وأرى وجوبَ السمعِ والطاعةِ لأئمّةِ المسلمين بَرِّهم وفاجرِهم ما لم يأْمروا بمعصيةِ الله، ومَن وَلِيَ الخلافةَ واجتمعَ عليه الناسُ ورضُوا به وغلبَهم بسيفِه حتى صار خليفةً وَجَبَت طاعتُه، وحَرُمَ الخروجُ عليه. [٣٣]

ثانيًا: أن يكونَ الجهادُ تحتَ رايةِ وليِّ الأمرِ المُوَحَّدة، يُنظِّمُهم، ويساعدُهم، ويكونُ ردءًا لهم يرجعون إليه.

ثالثًا: أن يكونَ الجهادُ لإعلاءِ كلمةِ الله، وليس من أجلِ طمعِ الدنيا، أو الظهورِ في الأرض.

[٣٣] **من أصولِ العقيدةِ**: السمعُ والطاعةُ لوُلاةِ أمورِ المسلمين، عملاً بقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]، بعد أنْ أَمَرَ بطاعتِه وطاعةِ رسولِه أمر بطاعةِ وُلاةِ الأمورِ من المسلمين، وقوله: ﴿مِنكُمۡ﴾ يعني: من المسلمين، أما إذا لم يكنْ مسلمًا فلا طاعةَ له، فيُشترَطُ فيه أن يكونَ مسلمًا، وعندئذٍ تكونُ طاعتُه واجبة، والخروجُ عليه معصيةٌ محرَّمة، هذا أصلٌ من أصولِ الإسلامِ، وبه تجتمعُ كلمةُ المسلمين وتقوَى شوكتُهم.

والنبيُّ ﷺ لما طلبَ منه أصحابُه الوصية، حيثُ شَعُروا بقُربِ أجلِه فطلبوا منه الوصية، قال: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وإن تَأَمَّر عليكُم عَبْدٌ**»(١)؛ لأنَّ النظرَ ليس لشخصِه،

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٤٦٠٧)، والترمذي رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه رقم (٤٢)، والدارمي رقم (٩٥)، وأحمد رقم (١٧١٤٤).

وإنما النظرُ لمَنصِبه، العبرةُ بمَنصِبه لا بشخصِه، «**وإنْ تأمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، فإنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا**»، فطَاعةُ وليِّ الأمرِ عِصْمَةٌ من الاختلاف؛ ولهذا لما سألَ حذيفةُ بنُ اليمانِ رسولَ اللهِ ﷺ عن الفتنِ عند ظهورِها قال له: ما تأْمُرُنِي إنْ أَدْرَكَنِي ذَلِك؟ قالَ: «**أنْ تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهِمْ**»[1]، فأمرَ حذيفةَ عِنْدَ ظهورِ الفتنِ أن يلزمَ جماعةَ المسلمين وإمامَهم؛ لأنه عصمةٌ من الفتنِ، وعصمةٌ من الاختلاف، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، فالاختلافُ شرٌّ، والاتفاقُ رحمة.

فقوله: «**برِّهم وفاجرِهم**»؛ كما مرَّ معنا لا يُشترَطُ في وليِّ أمرِ المسلمين أنْ يكونَ صالحًا مائة بالمائة - كالخلفاءِ الراشدين - بل تجِبُ طاعتُه ولو كان عندَه شيءٌ من المُخَالفات والمعاصي التي لا تصِلُ إلى حدِّ الكفرِ والخروجِ من الدِّين، ففَسَادُه عليه، ولكنَّ إمامتَه لصالحِ المسلمين.

ولما سُئِلَ بعضُ الأئمةِ قيلَ له: فلانٌ تَقِيٌّ لكنَّه ضعيف، وفلانٌ فاسقٌ ولكنَّه قوِيّ؛ أيّهما يَصْلُحُ للإمامة؟ قال: الفاسقُ القويّ؛ لأن الصالحَ الضعيفَ صلاحُه لنفسِه، وضَعْفُه يَضُرُّ المسلمين، والفاسِقُ فِسْقُه على نفسِه، وقُوَّتُه للمسلمين.

وقوله: «**برِّهم وفاجرِهم**»، هذا خلافُ الخوارجِ والمعتزِلة الذين يَخرُجُون على الأئمةِ الفجَّار، يعني: الأئمةَ العصاة، يُراد بالفجارِ هنا: العصاة.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٣٤١١)، ومسلم رقم (١٨٤٧).

وقوله: «**ما لم يأْمروا بمعصيةِ الله**»، فتجِبُ طاعتُهم، فإذا أَمروا بمعصية، «**فَلَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ**»[1]، لكن لا تنخلِعُ بيعتُهم إذا أَمروا بمعصية، ولا نُطيعُهم في هذا، لكن تبقى طاعتُهم فيما هو معروف وليس فيه معصية، نُخالفُهم في المعصية ونُطِيعهم في غيرِ المعصية.

وقوله: «**ومَن وَلِيَ الخِلافةَ واجتمعَ عليه الناسُ ورضُوا به وغلبَهم بسيفِه حتى صار خليفةً وجبتْ طاعتُه**»، هذا فيما تنعقدُ به الإمامة.

قالوا: تنعقِدُ الخلافةُ بأحدِ ثلاثةِ أمور:

الأمرُ الأول: اختيارُ أهلِ الحَلِّ والعَقد له، فإذا اختارَه أهلُ الحلِّ والعَقْد وبايعوه لزِمَتْ طاعتُه؛ كخلافةِ أبي بكرٍ الصديق ﷺ؛ فإنها ثَبَتَت باختيارِ أهلِ الحلِّ والعَقْد، وليس بلازمٍ أنْ يختارَه كلُّ المسلمين كما في الانتخابات، هذا ليس في نظامِ الإسلام، بل يكفي أهلُ الحلِّ والعَقْد من العلماءِ والأمراءِ، وأهلِ الرأيِ والمشورة، فإذا اختاروا إمامًا للمسلمين لزِمَتْ طاعتُه على جميعِ المسلمين، ولا أحدَ يقول: أنا ما اخْتَرْت، أنا ما بايَعْت؛ كما يقولُ بعضُ الجُهَّال الآن.

أنتَ من المسلمين، والمسلمون اختاروا هذا الرجلَ إمامًا لهم، فلا يجوزُ لك أن تشذَّ وتخرُجَ عنهم، بل قال النبيُّ ﷺ: «**الْمُسْلِمُونَ يَدٌ**

---

(١) أخرجه: أحمد رقم (٢٠٦٧٢)، والحاكم رقم (٥٨٧٠)، والبزار رقم (١٩٨٨)، والطبراني في «الكبير» رقم (٣٨١).

عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ»[1]، وإذا كان أدناهُم يسعى بذمَّتِهم، فكيف بأهلِ الحَلِّ والعَقْد والمشورةِ والرأيِ؟ فالصحابةُ أطاعوا لأبي بكرٍ مع أن الذين بايعوه هم قادةُ المهاجرين والأنصارِ في سَقِيفةِ بني سَاعِدة، وكذلك عثمان ﷺ اختارَه أهلُ الشورى الستةِ الذين عهدَ إليهم عمر ﷺ، فقد عهِد إلى بقيةِ العشرةِ الذين تُوفِّي رسولُ الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، فالستةُ اجتمعَ رأيُهم على عثمان فبايعوه، فلزمَتْ طاعتُه جميعَ المسلمين وانقادوا له.

الأمر الثاني: ولايةُ العهد، فإذا عهِدَ وليُّ الأمرِ إلى أحدٍ مِنْ بعدِه تلزَمُ طاعتُه، وتنعقِدُ إمامتُه؛ كما عهِد أبو بكرٍ لعمرَ ﷺ؛ فسمِعوا له وأطاعُوا ﷺ.

الأمرُ الثالث: إذا كان الناسُ ليس لهم إمام؛ فقام رجلٌ فيه شجاعةٌ وقوةٌ ورأيٌ وتغلَّبَ على الناسِ بسيفِه حتى خضَعوا له، فهذا تلزَمُ طاعتُه، ويُمثِّلون لهذا بعبدِ الملك بن مروان، فالناسُ في عهدِه كانوا بدونِ إمامٍ عامٍّ، فقام الرجلُ بشجاعةٍ وشَهامةٍ وقوةٍ ورأيٍ فقاتَلَ وتغلَّبَ وأطاعَ له المسلمون، فصار إمامًا لهم وانعقدَتْ إمامتُه بذلك.

أما من يأتي والمسلمون لهم إمامٌ وينازِعُ الإمامَ ويريدُ أن يخلعَ الإمامَ ليصبحَ بدلًا عنه؛ فهذا يجِبُ على المسلمين قتلُه، قال ﷺ: «**مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ**

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٤٥٣٠)، والنسائي رقم (٤٧٣٤)، وابن ماجه رقم (٢٦٨٣)، وأحمد رقم (٩٥٩)، والحاكم رقم (٢٦٢٣).

وأرى هَجْرَ أهلِ البِدعِ ومُباينتَهم حتَّى يتوبوا، وأَحْكُمُ عليهم بالظاهر، وأَكِلُ سرائرَهم إلى الله، وأعتقدُ أن كلَّ مُحْدَثةٍ في الدِّينِ بِدعةٌ. [٣٤]

فَاقْتُلُوهُ؛ كَائِنًا مَنْ كَانَ»[(١)]، فنحنُ مع وليِّ الأمر، إذا قام عليه أحد فنحنُ معه في دفعِ هذا الخارجِ على جماعةِ المسلمين، نقاتِلُه ونَدْحَضُ شرَّه عن المسلمين؛ لئلا يُفكَّك الكلمة، وذلك للمصلحةِ العامة.

هذا هو اعتقادُ الشيخِ في السَّمعِ والطاعةِ لوُلاةِ أمورِ المسلمين، وفي هذا ردٌّ على الذين يصِفُونه بالخروجِ على الولاة.

[٣٤] **البِدَعُ**: جَمْعُ بدعة، وهي ما أُحدِث في الدِّينِ من العباداتِ التي ليس عليها دليلٌ من كتابٍ أو سُنَّة؛ لأنَّ العباداتِ تَوْقِيفيَّةٌ، فلا نعملُ شيئًا منها إلا بدليلٍ من الكتابِ والسُّنَّة، فمن جاء وأَحْدَثَ شيئًا يتقرب به إلى الله مِنْ ذِكرٍ أو صلاةٍ أو عبادةٍ ويقول: هذا زيادةُ خير. فيقال له: لا، هذا زيادةُ شرٍّ وليس هو زيادةَ خير؛ لأن الدينَ كاملٌ لا يَقْبلُ الإضافاتِ والزياداتِ، فقد تُوُفِّي رسولُ اللهِ ﷺ والدينُ كاملٌ، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فاللهُ شهِدَ لهذا الدينِ بأنه كامل، فلا يقبلُ الزيادةَ والإضافات، حسبُنا أننا نعملُ بما في هذا الدينِ من العبادات، أما أن نزيد ونقول: هذه زيادةُ خير؛ فهذه بدعة، وقد قال ﷺ: «**مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرى اخْتِلَافًا كَبِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخلفاءِ الرَّاشِدِين المَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا وعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذ، وإِيَّاكُمْ ومُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فإنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدَعَةٌ،**

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (١٨٥٢).

وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[١]، وكان في خُطَبِه يقول: «**أما بَعْدُ، فإنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وخَيْرُ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالة**»[٢]، فهذا فيه ردٌّ على الذين يُقَسِّمون البدعةَ إلى حَسَنةٍ وسَيِّئة، فالبِدَعُ في الدِّينِ ليس فيها شيءٌ حسَنٌ وإنما كلُّها سيئة؛ لأنَّ الرسولَ ﷺ يقول: «**كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالة**»، وهذا المبتدِعُ يقولُ: ليس كلُّ بدعةٍ ضلالةً بل منها شيءٌ حسَن، فهذا يرُدُّ على الرسول ﷺ.

قال الشاعر:

خيرُ الأمورِ السالفاتُ على الهدى   وشرُّ الأمورِ المُحدثاتُ البدائع

فالذي يقولُ: إنَّ هناك بدعةً حسَنةً، يقالُ له: هذه بِدعةُ ضلالةٍ وشرٍّ وليسَتْ حسَنة، ليس في الدينِ بدعةٌ حسنةٌ أبدًا، فنَجْتَنِبُ البدعَ ونقتَصِرُ على السُّنَن، ففيها خَيْرٌ وكمال، ولا يكفي أننا نَجْتَنِبُ البِدع، بل نهجُرُ المُبْتَدعة، ولا نجلسُ معهم، ولا نُصَادِقُهم حتى يَتركوا البدعة؛ لأننا إذا صادقْنَاهم وجالسْنَاهم شجَّعْناهم على البدعة، فنحن نهجرُهم -بمعنى أننا نتركُ مجالسَتَهم ونتركُ مصادقتَهم- حتى يتوبوا إلى الله.

هذا الواجبُ على أهلِ السُّنَّة، أنهم يهجرون أهلَ البِدع، ولو حصَلَ هذا لما انتشرتِ البِدع، ولكن لما حصَلَ التساهلُ مع المُبْتَدَعة، صاروا يعيثون في الأرضِ فسادًا، وينشرون البِدَعَ، ولا يوجد من يُنكِرُ عليهم،

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٤٦٠٧)، والترمذي رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه رقم (٤٢)، والدارمي رقم (٩٥)، وأحمد رقم (١٧١٤٤).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (٨٦٧).

صاروا أصدقاءَنا وجُلسَاءَنا وانتشرتِ البدعُ بهذه الطريقة، أما لو أن أهلَ البدعِ هُجِرُوا لقَلَّ شرُّهم.

فقولُ الشيخ: « **وأرى هجْرَ أهلِ البدعِ ومباينتَهم** »، الهجرُ: هو التَّرك، يعني: تركَهم وعدمَ الجلوسِ معهم وعدمَ مصَادقتِهم، « حتى يتوبوا » فإذا تابوا تاب اللهُ عليهم، وصاروا جُلَسَاءنا وأحبابَنا.

وقوله: « **وأحكمُ عليهم بالظاهر** »، أي: نحكمُ على الناسِ بالظاهرِ لنا، ولا ندري عن القلوب، ولكن من فعلَ الخيرَ شهِدْنا له بالخيرِ بناءً على الظاهر، ومن فعلَ الشرَّ شهِدنا له بالشرِّ بِناءً على الظاهر، وأما القلوبُ فلا يعلمُها إلا الله.

لكنَّ المُرْجئةَ الآن يقولون: من فَعَلَ الكفرَ أو الشركَ أو مُنْكَرًا فإنك لا تحكمُ عليه بما ظهرَ منه؛ لأنك لا تدري عن الذي في قلبِه.

وقولُ الشيخ: « **وأعتقدُ أن كلَّ محدثةٍ بدعةٌ** »، بخلاف من يقول: إنه هناك مُحْدثاتٌ في الدِّينِ فيها خير، بل كلُّ محدثةٍ في الدينِ بدعة، وهذا مأخوذ من حديث: « **كُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَة** »[1]

أما أمورُ العادات؛ كالملابسِ والمساكنِ والمراكبِ، هذه مما خلق اللهُ ليس فيها بدعة، الأولون ما كانوا يركبون السيارات ونحن نركبها؛ لأنها مما أباح اللهُ لنا، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، فأمورُ العاداتِ والملابسِ والمساكنِ والمراكبِ والمزارع، هذه كلُّها من الأمورِ التي لا تَدْخُلُ في

(١) أخرجه: مسلم رقم (٨٦٧).

وأعتقدُ أن الإيمانَ قولٌ باللسانِ، وعمَلٌ بالأركان، واعتقادٌ بالجَنَان، يَزيدُ بالطاعةِ ويَنقُصُ بالمعصية، وهو بِضْعٌ وسبعون شُعبةً، أعْلَاها: شهادةُ أن لا إلهَ إلا الله، وأدناها: إماطةُ الأذى عنِ الطريق. [٣٥]

العبادةِ بل نستخدمُها في العبادة، ونستعينُ بها على العبادة، ونركبُ السيارةَ للحَج، ونركبُها لطلبِ العلم، ونركبُها للجهاد، ومُكَبِّراتُ الصوتِ نستخدمُها لإلقاءِ الخُطَبِ والمُحَاضَرات، ونستعينُ بها على العبادة؛ لأنها مما أباح اللهُ لنا أن نستعينَ بها، وليست بِدَعًا، إنما هي مما خلق اللهُ لنا، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، فالأصلُ في هذه الأمورِ الإباحةُ، أما العباداتُ فالأصلُ فيها الحَظْرُ إلا بدليل، أما في العاداتِ والملابسِ والمراكبِ والمآكلِ والمشاربِ الأصلُ فيها الإباحةُ إلا ما دَلَّ الدليلُ على تحريمِه.

[٣٥] هذا شروعٌ في مبحثِ الإيمان، ولقد تكرَّر ذكرُه في القرآنِ في مواضعَ كثيرة، ومدحَ اللهُ أهلَه ووعدهم بالجنةِ والثوابِ العظيم.

والإيمانُ مَرتبةٌ من مراتبِ الدِّين؛ لأن الدينَ ثلاثُ مراتبَ؛ كما في حديثِ جبريل[1]: الإسلامُ، والإيمانُ، والإحسان.

فالإسلامُ: يتكوّنُ من خمسةِ أركانٍ: شهادةِ أن لا إلهَ إلا الله، وأن محمدًا رسولُ الله، وإقامِ الصَّلاة، وإيتاءِ الزكاة، وصومِ رمضان، وحَجِّ بيتِ اللهِ الحرام، هذه من الأفعال الظاهرة.

والإيمانُ: يتكوّنُ من ستةِ أركانٍ بيَّنها النبيُّ ﷺ: «**أنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، ومَلَائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِه وشَرِّه**»،

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٥٠)، ومسلم رقم (٨) واللفظ له.

ولا بُدَّ من اجتماعِهما في العبد، أي: لا بد من اجتماع الإيمانِ والإسلامِ في العبد، فيكونُ مُسلمًا مؤمنًا، مُسلمًا في ظاهرِه يؤدِّي أركانَ الإسلام، ومؤمنًا في باطنِه يُؤمِن بهذه الأركانِ السِّتة، فلا يكونُ مسلمًا فقط، وليس عنده إيمان، فهذا شأنُ المنافقين الذين يُظهِرون الإسلامَ في الظاهر، فيُصلُّون ويصومون ويقولون: لا إله إلا الله، ويَحُجُّون، ولكن ليس عندهم إيمانٌ في القلب: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وهؤلاء في الدَّرْكِ الأسفلِ من النار، وكذلك العكسُ، لا يكون مؤمنًا بدونِ الإسلام، مُصدِّقًا ومؤمنًا بهذه الأركانِ بقلبِه لكن ليس عنده إسلامٌ؛ فلا يُصَلِّي ولا يُزَكِّي ولا يصوم ولا يَحُج، هذا ليس بمؤمنٍ حتى يكونَ مسلمًا يؤدي الأركانَ الظاهرةَ والباطنة، فلا بد من هذا، فالإيمانُ مجموعُ اعتقادِ القلبِ وعملِ الجوارحِ ونُطْقِ اللسان.

ولهذا يقولُ أهلُ السُّنَّة والجماعة -كما ذكرَه الشيخ هنا-: أنَّ الإيمانَ قولٌ باللسانِ واعتقادٌ بالقلبِ وعملٌ بالجوارح، لا بُدَّ من هذه الأمورِ الثلاثة: نُطْقٌ باللسان، واعتقادٌ بالقلب، وعَمَلٌ بالجوارح، يَزيدُ بالطاعةِ، وينقُصُ بالمعصية، هذا تعريفُ الإيمانِ عندَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ الذين هم على سُنَّة الرسولِ ﷺ، والذين هم الفِرقةُ الناجيةُ من بين الفرقِ الضَّالّة التي توعَّدها اللهُ بالنار، هذا الإيمانُ عندهم يتكوَّنُ من هذه الأمورِ الثلاثة.

أما المُرْجِئة فيقولون: الإيمانُ هو التصديقُ بالقلبِ فقط، والأعمالُ لا تدْخُلُ فيه. وبعضُهم يقول: شرطُ كمالٍ. وبعضُهم يقول: شرطُ

وُجوبٍ، ولكنها لا تدخُلُ في حقيقةِ الإيمان، فإذا كان مُصَدِّقًا بقلبه فهذا مؤمنٌ ولو لم يؤدِّ الأعمال، وهذا مذهبٌ باطل؛ لأن المشركين كانوا يعرفون بقلوبِهم صحةَ ما جاء به الرسولُ ﷺ، ولكن أَبَوْا أن ينطقوا بلا إلهَ إلا الله، أَبَوْا أن يقولوا: لا إلهَ إلا الله. وأَبَوْا أن يصلُّوا وأن يصوموا، ويزكُّوا، ويحجُّوا، قال اللهُ تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ معنى هذا أنهم يُصدِّقون الرسولَ ﷺ ولكن منَعَهم الكِبرُ، أو الحسدُ، أو الحَمِيَّة لدينِهم مِنْ أن يأتوا بلا إلهَ إلا الله، وأن يُصلُّوا، ويَصوموا، ويُزَكُّوا، والحجُّ يحجون ويعتمرون وهو من البقايا الباقيةِ من دينِ إبراهيم، ولكن ليس عندهم غيرُه، مَقْرونٌ بالشِّرك، فيقولون: لبيك لا شريكَ لك إلا شريكًا هو لك تملُكُه وما مَلَك، يُلَبُّون بالشِّرك، ولهذا لبَّى النبيُّ ﷺ بالتوحيد، فقال: «**لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ**»(١)، نفَى الشِّركَ وهم يقولون: للهِ شَريك، وهم مَنْ يعبدونهم من دون الله، ويقولون: هؤلاء شفعاؤُنا عندَ الله، وسائطُ بيننا وبين اللهِ، هذا في الحجِّ، أما الصلاةُ فلا يصلُّون، ولا يُزَكُّون، ولا يصومون، ولا يقولون: لا إلهَ إلا الله، وهم في قلوبِهم يعتقدون أنه رسولُ الله، يُصَدِّقونه ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾.

اليهودُ والنصارى أيضًا يُصدِّقون أنه رسولُ الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (١٤٧٤)، ومسلم رقم (١١٨٤).

يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩]، فهم يعترفون أنه رسولُ الله بقلوبِهم، ولكن أَبَوْا أن ينطقوا بألسنتِهم وأَبَوْا أن يتَّبِعوه، فلم يكن التصديقُ بالقلوبِ كافيًا كما تقولُه المُرْجِئة.

وليس هو اعتقادًا بالقلبِ وقولًا باللسان فقط؛ كما تقولُه طائفةٌ من المُرْجِئة، وهم مرجئةُ الفقهاء، يقولون: الإيمانُ هو قولٌ باللسانِ واعتقادٌ بالقلب، ولو لم يعمل. فيُلْغُون العمل، ولا يُدْخِلونه في الإيمان، جاءوا باثنين وتركوا الثالث، قالوا: إن العملَ ليس بضروريٍّ، ما دام أنه ينطق ويعتقدُ فيكفي هذا، وهذا مذهبٌ باطل أيضًا، لا بُدَّ من الأعمال، واللهُ دائما يَقْرِنُ الإيمانَ بالعمل: ﴿ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٥]، ما قال: ﴿ ءَامَنُوا۟ ﴾ فقط، بل قال: ﴿ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، فلا يكونُ إيمانٌ إلا بالعمل، فالإرجاءُ مذهبٌ باطلٌ بجميعِ أقسامِه.

والأشاعرةُ جاءوا بواحدٍ وتركوا اثنين، فيقولون: الإيمانُ هو التصديقُ بالقلبِ ولو لم ينطِقْ بلسانِه، فمن صَدَّق بقلبِه فهو مؤمنٌ حتى ولو ما يتكلم.

والحقُّ هو مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة، وهو مأخوذٌ من الكتابِ والسُّنَّة، أن الإيمانَ: قولٌ باللسانِ، واعتقادٌ بالقلبِ، وعملٌ بالجوارح.

وقولُه: «يَزيدُ بالطاعة»، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** ﴾ [التوبة: ١٢٤]، دلَّ على أن الإيمانَ يزيد، وأهلُ الضَّلال

يقولون: لا يزيدُ بل هو شيءٌ واحدٌ في القلب. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢- ٤]، فذكرَ الأعمال، وحصَر الإيمانَ في هؤلاء ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، ذكر أقوالًا، وذكَر أعمالًا: إقامَ الصلاةِ، وإيتاءَ الزكاة، ووَجَلَ القلوب، هذا هو الإيمان، فدلَّ على أنه يزيدُ بالطاعة، فيزيدُ بالصلاة، ويزيدُ بالزكاة، ويزيدُ بتِلاوة القُرآن، فهو يزيد، وقال تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدَّثر: ٣١]، دلَّ على أن الإيمانَ يزيدُ، وكذلك ينقُص، بدليلِ أن النبيَّ ﷺ قال: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً أَعْلَاهَا قَوْل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ**»[١]، فدلَّ على أن الإيمانَ له أعلى وله أدنى، وقال ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**»[٢]، دلَّ على أن الإيمانَ يَضعُفُ وينقُص، وفي الحديث: «**انْطَلِقْ، فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ**»[٣]، فدلَّ على أنَّ الإيمانَ ينقُصُ حتى يكونَ مثلَ حبَّةِ الخَرْدل، فالناسُ ليسوا سواء في الإيمان، بعضُهم أقوى إيمانًا من بعض.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٣٥).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (٥٠).

(٣) أخرجه: البخاري رقم (٧٠٧٢)، ومسلم رقم (١٩٣).

وأرى وُجوبَ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكرِ مما تُوجِبُه الشريعةُ المُحمَّديّة الطاهرة. [٣٦]

المُرْجئةُ يقولون: أهلُه في أصلِه سواء. ويقولون: لا فرقَ بين إيمانِ أبي بكر وإيمانِ الفاسقِ من الناس، كلُّهم مؤمنون.

أما أهلُ السُّنة فيقولون: هذا إيمانُه يعدِلُ الجبال، وهذا إيمانُه يعدِلُ مثقالَ ذرةٍ أو حَبَّة من خَرْدل، لا يُسوَّى بينهم.

هذا معنى قولِهم: يزيدُ بالطاعةِ وينقُصُ بالمعصية، كلما أطاعَ المسلمُ ربَّه ازدادَ إيمانًا، وكلما مالَ عصى ربَّه نقَص إيمانُه، هذا هو المذهبُ الحق، وهذا هو تعريفُ الإيمانِ التعريفَ الصحيح.

[٣٦] ويرى الشيخُ كغيرِه من أهلِ السُّنَّةِ والجماعة «**وجوبَ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكر**»، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وغير ذلك من الآيات.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُولَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]، فجعل من صفاتِهم أنهم يأمرون بالمعروفِ وينهون عن المنكرِ، والذي لا يأمر بالمعروفِ ولا ينهَى عن المنكرِ هذا من المنافقين، قال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧]، فهم بالعكس، وها هم الآن يأمرون بالمنكر، بل يأمرون بكلِّ

مُنْكَر، ويدعون إليه، ويدعون المسلمين إلى أن يتخلَّوا عن دينِهم، ويُسَمُّون التَّمسُّك بالدين تَشدُّدًا وغُلُوًّا، فيقولون: لا بد أن يترك المسلمون هذا، ولا بد أن تَتمرّدَ النساءُ ويَترُكْنَ الحجاب، اتركوا الولاءَ والبراءَ واجعلوا الناسَ سواءً ما بينهم فرقٌ. هذا أمرٌ بالمنكر، هم يأمرون بالمنكرِ وينهون عن المعروفِ دائمًا وأبدًا، عكسَ المؤمنين فإنهم يأمرونَ بالمعروفِ، وينهون عن المنكر.

فالأمرُ بالمعروفِ والنهيُّ عن المنكرِ من واجباتِ الدين، ولا بد منه في الإسلام، فإذا وُجِد الأمرُ بالمعروفِ والنهيُّ عن المنكر فهذا علامةُ نجاةِ الأمة، وإذا فُقِد الأمرُ بالمعروف والنهيُّ عن المنكر فهذا علامةُ هلاكِ الأمّة، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦]، قليلٌ هم الذين يأمرون بالمعروف ويَنهَون عن المنكرِ وأنجاهم اللهُ من العذاب، ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، فلا ينجو إلا أهلُ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر، وأما من لم يأمرْ بالمعروفِ وينْهَ عن المنكرِ فهو إما منافقٌ ليس في قلبِه إيمان، وإما مؤمنٌ ضعيفُ الإيمان، وإذا هلكَ أهلُ المنكرِ يَهلك معهم؛ لأنه لم يأمرْ بالمعروفِ وينْهَ عن المنكر بحَسْبِ استطاعتِه؛ ولهذا قال ﷺ: «**فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**»، وفي رواية: «**وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ**»[1]،

(١) أخرجه: مسلم رقم (٥٠).

فدلَّ على أنَّ الذي لا يأمرُ بالمعروف ولا ينهى عن المُنْكر هذا هالِكٌ مع الهالكين، فلا بدَّ من الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر، ولا تحصُلُ النجاةُ إلا بوجودِ هذا الأمر، فإذا فُقِدَ الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ حَقَّ على الناسِ الهلاك، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله.

وقولُ الشيخ: «على ما تُوجِبُه الشَّريعة»، هذا ردٌّ لقولِ الخوارجِ والمُعتزِلة: أن الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكرِ هو الخروجُ على وُلَاةِ الأُمور، وشقُّ عصا الطاعة، وتفريقُ الجماعة، وسفْكُ الدِّماء، بحُجَّةِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المُنْكَر؛ هذا لا تُوجِبُه الشريعة، بل تَنْهَى عنه الشريعة، وليس هذا هو الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المنكر، فهم يُسَمُّون الخروجَ على وُلاةِ الأمور، وشقَّ عصا الطاعة، واستباحةَ دماءِ المسلمين وتكفيرَهم، يُسَمُّون هذا من الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المُنْكرِ، وهذا انحرافٌ في هذا المُسَمَّى العظيم، ولهذا يقولُ شيخُ الإسلامِ وغيرُه من أهلِ السُّنَّة: «**على ما تُوجِبُه الشريعة**»؛ كما قال ذلك شيخُ الإسلام ابنُ تيمية في «العقيدةِ الواسطية»؛ لأجلِ ألّا يُعتَقد في الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ ما اعتقَدَه الخوارجُ والمُعْتَزِلة، الذين يُكَفِّرون مرتكِبَ الكبيرةِ من المؤمنين، ويُسَمُّون هذا من إنكارِ المنكر، وهذا خلافُ ما تُوجِبه الشريعة، وهو غُلُوّ في الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر.

فيجبُ التَّنبُّهُ لهذا، وأن الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكرِ هو كما قال ﷺ: «**مَنْ رَأى مِنْكُم مُنْكَرًا فَلْيُغَيْرْهُ بِيَدِه، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِه، فإِنْ لمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِه**»، هذه كيفيَّةُ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ

فهذه عقيدةٌ وجيزةٌ حرَّرْتُها وأنا مشتغِلُ البال، لتَطَّلِعوا على ما عندي، واللهُ على ما نقولُ وكيل، ثم لا يخْفَى عليكم أنه بلغني أنَّ رسالةَ سُلَيمانَ بنِ سحيم، قد وصلت إليكم، وأنه قبِلَها وصدَّقَها بعضُ المُنْتَمين للعلمِ في جهتِكم. [٣٧]

حسْبَ الاسْتطاعة، فإذا لمْ تَسْتطع، فأنتَ لستَ مُكَلَّفًا بذلك، إلا أنك لا بد أن تُنْكِره بقلبِك، وتعتزلَ أهلَه وتبتعدَ عنهم.

أما الذين يحملون السلاحَ في وُجوه المسلمين، ويقولون: هذا هو الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكر؛ فهذا مذهبُ الخوارجِ ومذهبُ المعتزلةِ أهلِ الضلال.

فهذا هو القَيْد الذي أراده أهلُ العلمِ بقولِهم: «**على ما تُوجِبُه الشريعة**».

[٣٧] **يُخاطِب أهلَ القَصيم الذين سألوه عن عقيدتِه، يقول: «هذه عقيدةٌ وجيزةٌ حرَّرتها وأنا مشتغل البال**»؛ لأنه رَحِمَهُ اللَّهُ مشغولٌ بأعمالِه الجليلة في الدعوةِ والتعليم، وأمورٍ عظيمةٍ قام بها رَحِمَهُ اللَّهُ، فهو كتب هذا المُخْتَصر جوابًا على سؤالِهم، وبَسْطُه موجودٌ في كُتُبِ العقيدةِ المبسوطة؛ كـ «العقيدةِ الواسِطِية»، و«العقيدةِ الطَّحَاوية» وشرحِها.

وقوله: «لتطّلعوا على ما عندي»؛ لأنه اتُّهِم بأشياءَ، ورُمِي بأشياءٍ هو منها بَرِيء، فهو بيَّن عقيدتَه ليَرُدَّ على خصومِه، ويُكَذِّبَهم فيما يقولون عنه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله: «واللهُ على ما نقولُ وكيل»، يُشهِدُ اللهَ على ذلك، وهذا من صدقِه رَحِمَهُ اللَّهُ، كما أنه في بدايةِ هذه العقيدةِ أَشْهَدَ اللهَ وملائكتَه ومن حضرَه من المؤمنين على ما تضمَّنَتْه.

وقوله: «**ثم لا يخْفَى عليكم أنه بلغني أن رسالةَ سليمان بن سحيم قد وصلت إليكم**»، لما ذكَرَ عقيدتَه، أرادَ أن يرُدَّ على من اتَّهموه بتُهَمٍ هو منها بريء، وهذه التُّهم لا يسْلَم منها نبيٌّ ولا أتباعُ الأنبياء، كلهم يُتَّهَمون إذا دَعَوْا إلى الله، وأنكروا ما عليه أهل الباطل، تُوجَّه إليهم التُّهَم، بأنهم يريدون المُلك، يريدون الرِّئاسة، يريدون الأموال، يريدون الرياءَ والسُّمْعة، وأنهم سَحَرة، وأنهم مجانين، وأنهم يريدون كذا وكذا؛ كما هو مذكورٌ في القرآنِ من أقوالِ الكفارِ في اتهامِ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام، خصوصًا نبيَّنا محمدًا ﷺ، اتهموه بأنه شاعر، وأنه مجنون، وأنه مُعَلَّمٌ، وأنه كذَّاب، وأنه يريدُ التَّرَؤُّس على الناس، فكيف بمن دونَه من أهلِ العلم؟ مثلِ الشيخِ محمدِ بنِ عبدالوهاب، لمَّا دعا إلى دعوةِ الرسولِ ﷺ اتهموه، وكذَبوا عليه وافتروا عليه، وأكاذيبُهم مُدوَّنة، ومردودٌ عليها -ولله الحمد- في كتبٍ ورسائل تَتَضمَّنها «الدرر السنية في الأجوبة النجدية»، وتَضَمَّنَتها كتبٌ مستقلة مثل: «مصباح الظلامِ فيمن كذَب على الشيخِ الإمامِ واتهمَه بتكفيرِ أهلِ الإسلام» للشيخِ عبدِ اللطيف بنِ عبدِ الرحمن رَحِمَهُ اللَّهُ، والرد على داود بن جرجيس العراقي فيما كتب من الباطل، والرد على دَحْلان في كتابٍ اسمُه: «صيانةُ الإنسانِ عن وسوسةِ الشيخِ دَحْلان».

ودَحْلانُ هذا هو مفتي أهلِ مكة، وكان خُرَافيًا أتى بِشُبَهٍ على دعوةِ الشيخ، وصار يكذب عليه، وألّف كتابًا سماه: «الدرر السنية في الردِّ على الوَهَّابية»، وذكرَ فيها افتراءاتٍ على الشيخ، فردَّ عليه عالمٌ من

علماءِ الهند هو محمد بشير السهسواني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بكتابٍ سماه: «صيانةُ الإنسانِ عن وسوسةِ الشيخِ دحلان»، وهو مطبوعٌ موجود، ومثل كتاب: «غايةُ الأماني في الردِّ على النبهاني» للشيخِ محمود شكري الآلوسي.

ومن افتراءاتِ دَحْلان يقول: إن ابنَ عبدِ الوهاب كان يُضْمِر يريدُ أن يدَّعيَ النبوة، لكن لما رأى أن الناسَ لن يُصدِّقوه كتَم هذه الفكرة، وإلا فهي في نفسِه. فكأن دحلان يعلمُ ما في القلوب، ويعلمُ الغيب، إلى غير ذلك من الافتراءاتِ المضحكة، فليس الشيخُ هو الوحيدَ الذي اتُّهِم وشُبِّه على دعوتِه، إذا كان الرسلُ عليهم الصلاة والسلام تناولهم شيء من الاتهامات، فأتباعُهم من بابِ أولى، قال تعالى لنبيِّه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فُصِّلَت: ٤٣].

وقوله: «سليمان بن سحيم»، هذا من خصومِ الشيخِ في وقتِه، وهو مطوِّعُ مِعكَالٍ -حارَةٍ في الرياض معروفةٍ بهذا الاسم إلى الآن- كان يجتمعُ في هذه الحارةِ أُنَاسٌ من الخُرَافيِّين ومنهم هذا، كذبَ على الشيخِ وكتبَ رسالةً تُضحِكُ الناسَ في الاتهاماتِ والكذب، والشيخُ ردَّ على افتراءاتِ ابنِ سحيم في رسالةٍ موجودةٍ في رسائلِ الشيخِ، وأشار إليها هنا.

وهذه إشارةٌ فقط، وإلا فالردُّ المفصَّل في رسالةٍ مستقلةٍ على سليمان ابن سحيم، كتب إليه: «من محمد بن عبدالوهاب إلى سليمان بن سحيم، أما بعد: فقد بلغني أنك تقول كذا وتقول كذا ..» وكل فرية يرد عليها.

وقوله: «**قد وصلت إليكم**»، يعني: كأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستشِفُّ أن سؤالَ أهلِ القصيمِ له عن عقيدتِه سببُها رسالةُ ابنِ سحيم، فهم لما جاءَتهم رسالةُ ابنِ سحيم كتبوا إلى الشيخِ يسألونه عن عقيدتِه، وهذا هو الواجب، فالواجبُ التَّثبُّت، فهم أحسنوا صُنْعًا في هذا، إذا بلغَكَ عن شخصٍ أنه يقول كذا ويقول كذا، فالواجبُ أنك تتثبَّت، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، يعني: تثبتوا ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحُجُرات: ٦].

فليت طلبةَ العلمِ الآن والشبابَ ينتهجون هذا المنهج، ويتثَبَّتون ويتركون هذا التحارُشَ بينهم، وهذا التراشُقَ بينهم؛ لأنهم إخوانٌ وطلبةُ عِلم، عقيدتُهم ولله الحمد واحدة، فلو يتركون هذا التراشُقَ وهذه الاتهاماتِ ويتَثبَّتون فيما بينهم، وإذا ثبتَ شيءٌ مما قيل يتناصحون فيما بينهم ولا يتخذونه تَشْهِيرًا أو اتهاماتٍ وتراشُقًا بالكلام، هذا لا يجوزُ أبدًا، فالواجبُ التثبُّت، فإذا ثبتَ فإنه يُناصَح مَنْ ثبتَ عليه الخطأُ والمُخالفة؛ لأن الإنسانَ ليس معصومًا.

هناك شخصٌ آخرُ اسمُه عبدالله بن سحيم من تلاميذِ الشَّيخ وهو رجلٌ طَيِّب، فلا يَشْتَبِه عليكم عبدُ اللهِ بنُ سحيم بسليمان بنِ سحيم.

والله يعلمُ أن الرجلَ افترى عليَّ أمورًا لم أَقُلْها ولم يأتِ أكثرُها على بالي، فمنها:

قوله: إني مُبْطِلٌ كُتُبَ المذاهبِ الأربعة، وإني أقولُ: إن الناسَ من ستمائة سنةٍ ليسوا على شيء. [٣٨]

---

[٣٨] هل صحيحٌ أن الشيخَ يُبْطِلُ كُتبَ المذاهبِ الأربعة؟ هذا من أعظمِ الكَذب، الشيخُ تتلمذَ على مذهبِ الحنابلة، ولا يَجْمُد على مذهبِ الحنابلةِ بل يأخذُ ما يقومُ عليه الدليلُ من مذهبِ الشافعيِّ، أو مذهبِ مالكٍ، أو مذهبِ أبي حنيفة، هذا منهجُ الشيخ، هو في الأصلِ على مذهبِ الإمامِ أحمد، ولكن في الإفتاءِ يأخذُ ما تَرَجَّحَ بالدليلِ سواءٌ من مذهبِ الإمامِ أحمد أو من غيره، لا يتعصب وإنما يريُد الحقَّ، هذا منهجُه في الفتوى والتعليم، يأخذ بما تَرجَّحَ بالدليلِ من أي مذهبٍ من المذاهبِ الأربعة، لكنه لا يخرجُ عن المذاهبِ الأربعة.

فقولُ ابن سحيم: إن الشيخَ «مبطل كتب المذاهب الأربعة». هذه كذِب؛ لأنه رَحِمَهُ اللَّهُ ما خرجَ عن المذاهبِ الأربعة، بل هو يستفيدُ منها، ويُفتي بما ترَجَّح بالدليلِ منها، سواءٌ وافقَ مذهبَه الحنبليَّ أو لم يوافقْه؛ لأنه يريدُ الحق.

وقوله: «إن الناسَ من ستمائة سنةٍ ليسوا على شيء»، يعني: أنه يُكَفِّرُ الناس، هذا من افتراءاتِ ابن سحيم أن الشيخَ يُكفِّرُ الناس، لماذا يُكفِّر الناس؟ لأنه يدعو إلى التوحيد، وينهَى عن الشرك، فهو بهذا - يزعمون - أنه يكفِّرُ الناس، وهو إنما يدعو إلى التوحيدِ وينهى عن الشرك، وما كَفَّرَ الناس، هو ما كَفَّر إلا من ثَبَت كفرُه بالدليلِ من الكتابِ والسنة، كما جاء في النواقِضِ العشرةِ التي كتَبَها.

وإني أَدَّعي الاجتهاد، وإني خارجٌ عن التقليد. [٣٩]

[٣٩] «**وإني أدَّعي الاجتهاد**»، يعني: يقولون عنه أنه يدَّعي أنه مستقلٌّ في الاجتهاد، يُضَاهِي الأئمةَ الأربعة، وهذا كذبٌ، فالشيخُ حنبليٌّ، ولكنه لا يتعصَّبُ لمذهبِ إمامِه، وإنما يأخذ ما ترجَّح بالدليلِ ولو كان في غيرِ مذهبِ إمامِه؛ لأنه يريد الحق، مثلُ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيمية، وابنِ القيم، وغيرِهما من المحقِّقين، فهم لا يتعصَّبون وإنما يأخذون بما قام عليه الدليل، لكن لا يخرجون عن المذاهبِ الأربعة التي هي مذاهبُ الأئمة، التي دُرِسَت وعُرِفت وحُرِّرَت، وتوَارَثَها المسلمون جيلًا بعدَ جيل، فهو لا يدَّعي الاجتهادَ المُطلَق، يعني: لا يدَّعي أنه في مَصَافِّ الأئمةِ الكبار: كأبي حنيفة، ومالكٍ، والشافعيِّ، وأحمدَ، والأوزاعيِّ، ولكنهم يكذبون عليه.

قوله: «**خارجٌ عن التقليد**» وهو قبولُ قولِ العالِم بدونِ معرفةِ دليلِه، والتقليدُ على قسمين:

الأولُ: تقليدٌ أعمى؛ بأن يُتعصَّب لقولِ العالِم ولو كان مخالفًا للدليل، فهذا يَخْرجُ عليه الشيخ محمدٌ وغيره.

الثاني: التقليدُ بالحق، كأن تأخذَ قولَ العالِمِ إذا وافقَ الدليل، فهذا تقليدٌ بحَق، وهذا اتباعٌ لأهلِ الحق، يُسَمُّونه تقليدًا، أو يُسَمُّونه اتباعًا، فالمعنى واحد، يوسف عليه السلام يقول: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٨]، هذا اتباعُ الحق، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فهذا يُسمى اتباعًا، فمن كان على الحق، فنحن نتَّبعُه.

وإني أقول: إن اختلافَ العلماءِ نِقْمة.[٤٠]

[٤٠] هذا كذبٌ على الشيخ؛ لأن اختلافَ العلماءِ في أمورِ الفروعِ والاجتهادِ ليس نِقْمة، العلماءُ اجتهدوا وبحثوا، فإن أصابوا فلهُم أجران، وإن أخطأُوا فلهم أجرٌ واحد، فالاجتهادُ مطلوب، والاختلافُ فيه لا يُذم، فالصحابةُ ﷺ كانوا يختلفون في الفَتوى، كُلٌّ يقولُ بحسْبِ ما ظهَر له من الدليل، فهذا النوعُ من الاختلافِ محمود؛ لأنه بحثٌ عن الحق.

أما الاختلافُ المذمومُ فهو الاختلافُ في الحقِّ، فلا يجوزُ الاختلافُ في الحقِّ بعدما تبين، بل يجِبُ أخذُ الحَق، ولا تجوزُ مخالفتُه.

❁ **فالاختلافُ على قسمين:**

الأولِ: اختلافٌ مذموم، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، فالتَّفرُّقُ والاختلافُ مذمومان، فالذي يُسَبِّبُ الارتباكَ في الحق، والتَّعَصُّبَ للباطلِ مذموم.

الثاني: الاختلافُ الذي يُبحَث فيه عن الحقِّ، فهذا محمود، مَن أصابَ فله أجران، ومن أخطأ فله أجرٌ واحد، وإذا علِمْنا أنه أخطأ فنحن لا نأخذُ بقولِه بل نأخذُ بقولِ مَنْ أصاب، هذا هو المطلوب.

ولهذا الفقهاءُ يقولون: لا إنكارَ في مسائلِ الاجتهاد، مثلًا: تحية المسجِد وقتَ النَّهْي، بعضُ العلماءِ يرى أنها تُصلَّى عملًا بقولِه ﷺ: «**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ**»(١)،

(١) أخرجه: البخاري رقم (١١١٠)، ومسلم رقم (٧١٤).

قالوا: هذا عامٌّ في أوقاتِ النَّهْي وفي غيرِها؛ لأنها من ذواتِ الأسباب. بينما الجمهورُ يقولون: وقت النهي لا يُصلَّى فيه، لا تحيَّةُ المسجدِ ولا غيرُها من النوافل؛ «**لأن النبيَّ ﷺ نَهَى عَنِ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْعَصْرِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ، ونَهَى عَنِ الصَّلَاةِ بعد الفجرِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ**»(١)، فقدَّموا عمومَ النهي على عمومِ الأمر، فمن أخذ بهذا القولِ فإنه لا يُنْكَر عليه، ومن أخذ بالقولِ الأول فلا يُنْكر عليه؛ لأنَّ كُلًّا له مُسْتَنَد، وهذه مسائلُ اجتهاديةٌ لا يجوز فيها التَّعَادي، فالصحابةُ يختلفون - وهم إخوة - في المسائلِ الفرعية.

والنبيُّ ﷺ لما رجعَ من الأحزابِ وجهَّز الصحابةَ لغزوِ يهودِ بني قُرَيظَة فقال: «**لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**»(٢)، بعضُ الصحابة قال: مقصودُ الرسولِ ﷺ المُبَادرة، وليس المقصودُ ألّا نصلي إلا عندما نَصِلُ بني قريظة. فصلَّوا في الطريق، والبعضُ الآخر قالوا: الرسولُ يقول: «**لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فأخَّروا العصرَ إلى أن وصلوا إلى بني قريظة، فلما سألوا النبيَّ ﷺ لم يُنكِرْ على الفريقين؛ لأن كُلَّ واحدٍ منهم له مأْخَذ من الدليل، فالاجتهادُ من هذا النوعِ لا إنكارَ فيه، ولا يُقال: إنه نِقْمَة، بل يُقال: إنه اجتهادٌ وبحثٌ عنِ الحق.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (١٧٦٥)، ومسلم رقم (١٣٤٠).
(٢) أخرجه: البخاري رقم (٩٠٤)، ومسلم رقم (١٧٧٠).

وإني أُكَفِّر من توسَّل بالصالحين، وإني أُكفِّر البُوصيريَّ لقوله: يا أكرمَ الخَلْق، وإني أقول: لو أقدرُ على هدمِ قُبَّة رسولِ الله ﷺ لهَدَمْتُها. [٤١]

---

[٤١] قوله: «**أني أكفّر من توسل بالصالحين**»، هذا الحكمُ على الإطلاق ليس بصحيح، فالتوسُّلُ فيه تفصيل: إن كان يَصرِفُ شيئًا من العبادةِ لمن يتوسل به؛ كعُبَّادِ القُبور الذين يذبحون للأموات، ويَنذِرون لهم، ويستغيثون بهم، فهذا شرك أكبر؛ لأنه عبادة لغير الله، أما إن كان لا يصرف لهم شيئًا من العبادة، وإنما يتوسل إلى الله بهم، أي: بواسطتهم، فهذه بدعة، وليست كفرًا، كالسؤال بالجاه، أو بحق فلان، أو بنبيك، أو بعبدك فلان، من غير أن يصرف له شيئًا من العبادة، وإنما جعله واسطة بينه وبين الله في قبول دعائه، فهذه بدعة؛ لأن الله أمرنا بدعائه بدون اتخاذ واسطة بيننا وبينه.

فقولهم: إن الشيخَ يُكفِّرُ بالتَّوسُّل مطلقًا، هذا كذب؛ لأن الشيخَ يُفصِّل في هذا.

وقوله: «**وأني أكفّر البُوصِيريَّ لقوله: يا أكرمَ الخلق**»، هذه مسألةُ تكفيرِ المُعَيَّن؛ كأن الشيخَ لا يرى تكفيرَ المُعيَّن، والبوصيريُّ كلامُه كفرٌ؛ كقولِه يخاطبُ الرسولَ ﷺ:

يا أكرَمَ الخلقِ ما لي مَنْ ألوذُ بِه ... سواكَ عندَ حُلولِ الحادثِ العَمَمِ
فإنّ مِنْ جُودك الدنيا وضَرَّتَها ... وَمِنْ عُلومِكَ عِلمَ اللّوح والقَلَمِ
إنْ لَمْ تَكُنْ في مَعَادِي آخذًا بيدي ... فَضْلًا وإلّا فَقُلْ يا زَلّةَ القَدَمِ
فإنّ لِي ذِمّةً منهُ بتَسمِيَتي ... محمدًا وَهوَ أَوْفَى الخلقِ بالذّمَمِ

إلى آخِرِ ما قال في «البُرْدَة»، وهذا كفر، لكن الشخص قد يكونُ ما بلَغَتْه الحُجَّةُ، أو يكونُ مُتَأَوِّلًا، فلا يُكَفَّر حتى تُقامَ عليه الحُجَّة، وأيضًا هو لا يعلمُ ما خُتِمَ له به.

قوله: «وإني أقولُ: لو أقدِرُ على هَدمِ قُبَّة رسولِ الله ﷺ لهَدمتُها»، وهذا من الكذبِ على الشيخ؛ لأن الرسولَ ﷺ معلومٌ أنه دُفِن في بيتِه محافظةً عليه من الغُلُو، وبيتُه له جُدْران، وله سقف، فالسقفُ موجودٌ من وقت دفنِه ﷺ، غاية ما هنالك أنه أُزيلَ السقفُ وجُعِل على شكلِ قُبَّة، فالشيخُ لا يرى أن هذا منكَر، فالرسولُ ﷺ دُفِن في بيتِه، واستمر ﷺ مقبورًا في بيتِه حفاظًا عليه من الغُلُو؛ كما تقولُ عائشةُ لما ذكرَتْ نهيَ الرسولِ ﷺ عن الغُلُو في القبور: «**وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا**»(١)، فدُفِن في بيتِه محافظةً عليه من الغُلُو، فيتهمون الشيخ، ويجعلون قُبَّةَ الرسولِ مثل القِبابِ التي على القبورِ المَبْنية عليها تعظيمًا لها، وهذا غلط، القِبابُ المبنيةُ على القبورِ مخالِفةٌ للشرع، يعني بأن يُدفَن الميتُ ويُقَامُ على قبرِه بِنايةٌ وقبَّة، أو يُجعل مسجدًا، هذا الذي نَهَى عنه الرسولُ ﷺ؛ لأن هذا وسيلةٌ إلى الشرك، الصحابةُ أفضلُ قرون الأمة كانوا يُدفَنون في البقيع، ولا يُجعل على قبورِهم شيءٌ، وإنما الرسولُ ﷺ عُزِل وجُعِل في بيتِه حِفاظًا عليه من الغُلُوّ، وفرقٌ بين ما بني عليه غُلُوًّا فيه وبين ما دُفِن في بيته حفاظًا عليه من الغُلُوّ.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٤١٧٧)، ومسلم رقم (٥٢٩).

فالبناءُ على القبورِ تعظيمًا لها مَنْهِيٌّ عنه، وهو وسيلةٌ من وسائلِ الشرك، ومما يجعلُ العوامَّ يتعلقون بها، لكن قبرُ الرسولِ ما بُني عليه، وإنما دفُن في بيتِه ﷺ، وعرفنا العلَّة: أنه لأجلِ المحافظةِ عليه، ما رأيكُم لو كان الرسولُ مدفونًا في البقيع، ماذا يكون عنده من الزحام والغُلُوّ، وفعل الجُهَّال؟ ولكنَّ اللهَ أجاب دعاءَ نبيِّه فقد قال: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي، وَثَنًا يُعْبَدُ**»[(١)]، فأجابَ اللهُ دعاءَه ودُفِن في بيتِه محافظةً عليه.

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَأَجَابَ رَبُّ العَالَمِينَ دُعَاءَهُ ... وَأَحَاطَهُ بِثَلَاثَةِ الجُدْرَانِ

حَتَّى اغتَدتْ أَرْجَاؤهُ بِدُعَائِهِ ... فِي عِزَّةٍ وحِمَايَةٍ وَصِيَانِ

هذا الفَرْقُ بين قبرِ الرسولِ ﷺ وقبرِ غيرِه مما بني عليه، فلا يُشْتَبه هذا بهذا، ونقولُ: قبرُ الرسولِ مبنيٌّ عليه، وعليه قُبَّة، فعلى هذا يجوزُ البناءُ على القبورِ الأخرى وجعلَ عليها قِبَاب؛ كما يقوله الخُرافِيُّون.

---

(١) أخرجه: مالك في «الموطأ» رقم (٤١٤)، وأحمد رقم (٧٣٥٢)، والحميدي في «مسنده» رقم (١٠٢٥).

ولو أقدِرُ على الكعبةِ لأخذتُ ميزابَها وجعلتُ لها ميزابًا من خَشب، وإني أُحَرِّم زيارةَ قبرِ النبي ﷺ، وإني أُنكِرُ زيارةَ قبرِ الوالدين وغيرِهما، وإني أكفِّرُ من حَلَف بغيرِ الله.[٤٢]

---

[٤٢] **وهذا من الكذبِ على الشيخ، أنه يقول: «لو أقدِرُ على أخذِ ميزابِ الكعبة»**؛ لأن ميزابَ الكعبة مصنوعٌ من الذهب، يقولون عن الشيخ: إنه يقول: «**لو أقدِرُ أخذته، وجعلت مكانه ميزابًا من خشب**». وهذا كذِبٌ على الشيخ، ولا مانعَ من أنه يُجعلُ ميزابُ الكعبةِ من الذهب؛ لأن الذهبَ لا يُخْرب ولا يتغيَّر، أما لو كان من الخشبِ لأكلتْه الأَرَضَةُ، وتَغيَّر، فالشيخُ ما قال في ميزابِ الكعبةِ شيئًا أبدًا، ولكن اتَّهَموه بهذا، حتى قالوا: إنه يقول: إن عصاي هذا أفضلُ من الرسول؛ لأن الرسولَ ﷺ ميتٌ ولا ينفعُ أحدًا، وعصاي هذا أَنْتَفعُ به وأضرِبُ به. هذا من أعظمِ الكذبِ على الشيخ.

كذلك زعموا أن الشيخَ حَرَّم زيارةَ قبرِ النبي ﷺ، وهذا غيرُ صحيح، بل كان رَحِمَهُ اللَّهُ يزورُ قبرَ النبيِّ ﷺ، فقبرُ الرسولِ يُزار كما تُزار القبور، قال ﷺ: «**فزُورُوا الْقُبُورَ؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّر الآخِرَةَ**»[١]، فَمِنْ ضِمْنِ ذلك: قبرُ الرسولِ ﷺ يُزار ويُسلَّم عليه؛ كما تُزار القبور ويُسلم عليها، فهو لم يُنكِر الزيارةَ الشرعية، وإنما يُنكرُ الزيارةَ البدعية أو الشركية لقبرِ الرسول ولغيره، فالذي يزور القبورَ ليدعو الأموات، ويستغيثُ بأصحابِ القبور ويتبرَّكُ بها، ويتبرك بترابِها، هذا هو الذي يمنعه العلماء

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٩٧٦) بنحوه.

- الشيخ وغيره - أما الزيارة الشرعية التي يُقصد منها السلام على الميت والدعاء له، والاعتبارُ بالقبورِ فهذه لا يُنْكرُها أحدٌ من العلماء.

فالشيخُ يُنكر الزيارةَ الشِّرْكية والبِدْعِية للقبور، ولا ينكرُ الزيارةَ الشرعية، ولكن هم يُلَبِّسون على الناسِ بهذا الكلام.

قوله: « **وإني أنكرُ زيارةَ قبرِ الوالدين وغيرهما** »، كذلك هذا بِناءً على أنهم يقولون: إنه يُكَفِّر الذين سبقوه، فيقول للناس: لا تزوروا والديكم؛ لأنهم كُفَّار. وهذا كذب، فالشيخ لا يدري عن الذين ماتوا وعمَّا ماتوا عليه، والأصلُ إحسانُ الظنِّ بأمواتِ المسلمين، فهذا من الكذبِ على الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقولُه: « **وإني أكفِّرُ من حَلَف بغيرِ الله** »، كذلك الحلفُ بغيرِ الله، قال الرسولُ ﷺ: « **مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ** »[(١)]، ولكن ليس معناه الكفرُ المخرجُ من الملَّة، وإنما هو كفرٌ أصغر، وشركٌ أصغرُ لا يُخرِج من الملة، فالذي يقول: إنه كفرٌ أو شرْك، إن كان يقصِدُ أنه شركٌ أصغرُ وكفرٌ أصغرُ فهذا صحيح؛ لأن الرسولَ سمَّاه كفرًا وسمَّاه شركًا، أما إن كان يقصد أنه الكفرُ المخرِجُ من الملَّة فهذا باطل.

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٣٢٥١)، والترمذي رقم (١٥٣٥)، وأحمد رقم (٦٠٧٢)، والحاكم رقم (٧٨١٤).

وإني أكفِّرُ ابنَ الفارضِ وابنَ عربيٍّ، وإني أُحَرِّق « دلائلَ الخيراتِ » و« رَوْضَ الرَّيَاحِين »، وأسميه: روض الشياطين. [٤٣]

---

[٤٣] ابنُ الفارِضِ صاحبُ المنظومةِ التائية في وَحدةِ الوجود، فيها كُفْرٌ وإلحادٌ والعياذ بالله، ولكن الشيخ لا يُكفِّر صاحبها؛ لأنه لا يدري ماذا خُتم له، ولا يدري هل بلغته الحجة أو لم تبلغه، فهو يقول: إن ما فيها إلحاد وكفر، ولكن صاحبها يُتوقَّف فيه، هذا مذهب أهل السنة والجماعة؛ أنهم لا يشهدون لأحد بجنة أو نار إلا من شهد له رسول الله ﷺ.

وابن عربيٍّ معروف، هو محيي الدين بن عربيٍّ الطائيُّ إمام أهل وَحدة الوجود، وابن الفارض من أتباع ابن عربي، ومع هذا فإن الشيخ لا يجزم بكفرهما، وإن كانا قالا كفرًا وضلالًا وإلحادًا، ولكن تكفير المعين يحتاج إلى دليل؛ لأنه ربما تاب، وربما خُتم له بالتوبة، فالله أعلم.

ومن الكذب على الشيخ أيضًا: قولهم: إنه أَحْرَق دفتر « دلائل الخيرات »، و« دلائل الخيرات » هو كتابٌ في الصلاة والسلام على خير البريّات، فيه غُلُوّ، وفيه دعاءٌ للرسول ﷺ، فهو كتاب فيه باطل، ولكن الشيخ لم يُحَرّقه، ولكنه كان يوصي بقراءة الكتب المفيدة الخالية من المخالفات.

وكذلك « روض الرياحين »، هو من كتب الغُلُوّ في النبي ﷺ، ولكن تحريقها لا يؤدي إلى نتيجة.

وافتروا على الشيخ وقالوا: سمَّاه « روض الشياطين »، وهذا كُلّه من الكذب على الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

جوابي عن هذه المسائلِ أن أقول: سبحانك هذا بُهْتان عظيم. وقبله مَنْ بَهَتَ محمدًا ﷺ أنه يسبُّ عيسى بنَ مريم عليهما السلام ويسبُّ الصالحين، فتشابهتْ قلوبُهم بافتراءِ الكذبِ وقولِ الزور، قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٥]، **بَهَتوه ﷺ بأنه يقول: إن الملائكةَ وعيسى وعُزَيرًا في النار، فأنزل اللهُ في ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾** [الأنبياء: ١٠١]. **[٤٤]**

---

[٤٤] هذه المسائلُ التي افتروها، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في جوابِه عنها:** «**سبحانك هذا بهتان عظيم**» كل ما قيل في هذه الكلمات فهو بهتان عظيم لم يقله الشيخ، وهو منه بريء، رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمةً واسعة.

وقوله: «**قبله مَنْ بهت محمدًا ﷺ**»، «قبله» يعني: قبل ابن سُحيم، من بهت رسولَ اللهِ ﷺ من الكفّارِ والمشركين، فلِي أسوةٌ بالرسولِ ﷺ إذا بَهتني ابن سُحيم، فالرسولُ ﷺ بُهِت بما هو أعظم من هذا.

قالوا في الرسولِ: «**أنه يسبُّ عيسى بن مريم**» وذلك لما نزل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، قالوا: محمد يسبّ عيسى وأمه؛ لأن عيسى عُبد من دون الله فمعناه أنه يُلقى في النار، ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَـٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ [الزُّخرُف: ٥٨]، يعنون عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٢]، فالآية فيمن عُبد وهو راضٍ، وعيسى لم يرض ولم يأمرهم بعبادته، بل أمرهم بعبادة

الله ﷻ، ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٦]، فعيسى عليه السلام ما دعا الناسَ إلى عبادةِ نفسِه بل أنكرَ هذا، إنما الذين يدعون الناسَ إلى أن يعبدوهم هم الذين يكونون في النارِ مع عبدهم.

أما عيسى وعُزَير وغيرهما من الأنبياء فإنهم ينكرون هذا في حياتِهم، ولما ماتوا فعل الناسُ هذا بهم بعد موتهم، قال عيسى ﷺ: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]، فالأنبياءُ والرسلُ والصالحون لا يأْمرون الناسَ أن يعبدوهم ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٩]، فنزَّه اللهُ الأنبياءَ عن هذا الكلام، فعيسى ما قال لهم: اعبدوني. وإنما هم عبدوه بعد موتِه، فلا لومَ عليه ﷺ، وردَّ اللهُ عليهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، ومنهم عيسى ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١- ١٠٢]، ، وقال في الزخرف: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧].

قالوا: إذا كانت الآلهةُ في النارِ فعيسى معهم؛ لأنه معبودٌ من دونِ الله. يريدون أن يردُّوا على الرسول ﷺ، قال اللهُ ﷻ: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ

أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الزخرف: ٥٨-٥٩] يعني: عيسى عليه السلام ﴿ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الزُّخرُف: ٥٩]، فاللهُ ردَّ عليهم في موضعين: في سورةِ الأنبياء، وفي سورةِ الزخرف، وهكذا القرآن يرُدُّ على أهلِ الباطلِ ويفنِّدُ شُبُهَاتِهم ولله الحمد.

فإذا كانوا اتهموا الرسول ﷺ بأنه يُكَفِّرُ المسيح، وأنه يقول: إنه في النار؛ لأن النصارى عبدوه، فكيف لا يتهمون الشيخَ محمد بن عبد الوهاب؟!

« **بهتوه ﷺ بأنه يقول: إنَّ الملائكةَ وعيسى وعُزَيرًا في النار** »؛ لأنهم عُبدوا من دون الله، والآية تقول: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، يقولون: هذه عامةٌ للملائكةِ ولعيسى وعُزَير والصالحين.

الجواب: أن هؤلاء لم يريدوا أن يُعبدوا من دونِ الله، بل كانوا يُنكرون هذا في حياتِهم، فهم مُبْعدون عن النار، ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٢]، وهم عيسى وعزير ومن سبقت له الحسنى من الله فإنه مُبعدٌ من النار، ولو عُبِد بعد موتِه فهذا لا يضرّه؛ لأنه كان يُنكِرُه يومَ أن كان حيًّا.

ونبيُّنا محمد ﷺ عُبِد بعد أن مات، يعبده الخُرَافيون والمشركون، هل هذا يُذَمُّ به الرسولُ ﷺ، أو يُقال: إن محمدًا في النار؛ لأنه عُبِد من دونِ الله؟ لا؛ لأنه كان يُنكِرُ هذا في حياتِه، ويجاهدُ عليه بالسيف، أما كونُه يُعبَدُ بعد موتِه فلا يُرجَعُ عليه في ذلك ملامة.

وأما المسائلُ الأُخَر وهي:

أنـي أقـولُ: لا يَـتِـمُّ إسـلامُ الإنـسـانِ حـتـى يَـعـرِفَ مـعـنـى «لا إله إلا الله»، وأني أعرّف من يأتيني بمعناها، وأني أكَفِّر الناذِرَ إذا أراد بِنَذْرِه التَّقرُّبَ لغيرِ الله، وأخَذَ النذرَ لأجلِ ذلك، وأن الذَّبح لغيرِ اللهِ كُفرٌ والذبيحةُ حرام.

فهذه المسائلُ حقٌّ وأنا قائلٌ بها، ولِي عليها دلائلٌ من كلامِ اللهِ وكلامِ رسولِه ﷺ ومِن أقوالِ العلماءِ المُتَّبَعِين؛ كالأئمةِ الأربعة، وإذا سَهَّل اللهُ تعالى بسَطتُ الجوابَ عليها في رسالةٍ مستقلةٍ إن شاء اللهُ تعالى.

ثم اعلموا وتدبروا قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ﴾ **الآية** [الحجرات: ٦]. **[٤٥]**

---

[٤٥] **قوله: «لا يتِمُّ إسلامُ عبدٍ حتى يَعرِفَ معنى لا إله إلا الله»**، هذا صحيح، والشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ يُعلِّم الناسَ معنى (لا إله إلا الله) بأن معناها: لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، وما سواه فعبادتُه باطلةٌ وشِرك، هل هذا يُلامُ الشيخُ عليه؟! الجواب: لا، بل هذا منهجُ الأنبياء.

وقوله: «وأني أكفّر الناذر»، هذا أيضًا صحيح، مَنْ نَذرَ لغيرِ اللهِ فإنه كافر؛ لأنه صرَفَ نوعًا من أنواعِ العبادةِ لغيرِ الله، فلا لوْمَ على الشيخِ ولا على غيرِه إذا كفَّره بذلك.

وقوله: «وإن الذَّبْح لغيرِ اللهِ كفر»، هذا صحيح؛ لقوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ

﴿أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣]، وفي السُّنَّة: «**لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ**»[1].

وقوله: «**والذبيحةُ حرام**»؛ لأنها مما أُهِلَّ به لغيرِ اللهِ، واللهُ ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، ويقول: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣].

وقوله: «**فهذه المسائلُ حقٌّ وأنا قائلٌ بها**»: لأن هذا مُقتَضى الكتابِ والسنة، فلا لَوْمَ على الشيخ، بل يُشكَرُ على هذا ويُدْعَى له، ولكنهم يَعُدُّون المحاسنَ سيئات.

وبهذا انتهى الشرحُ على هذه الرسالةِ المُباركة، واللهُ تعالى أعلمُ، وصلى اللهُ على محمدٍ وآلِه وصحبِه وسلِّم.

والحمد لله رب العالمين.

تمَّت في ١٨ / ١ / ١٤٢٦ هـ

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (١٩٧٨).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة



سلسلة شرح رسائل الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

شرح أصول الإيمان

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى

شرح معالي الشيخ الدكتور

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

اعتنى بإخراجه وأشرف على طبعه

معالي الشيخ الدكتور

عبد السلام بن عبد الله السليمان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء



ترجمة الشيخ/ صَالِح بنُ فَوْزان الفَوْزان(١)

❁ نَسَبُه:

هُو فَضِيلَة الشَّيخ الدُّكتور: صَالِح بنُ فَوْزَان بنِ عَبْد الله، من آل فَوزَان من أَهْل الشَّماسية الودَّاعين، من قَبِيلَة الدَّواسر.

❁ نَشْأَتُه وَدِرَاسَتُه:

وُلد عام ١٣٥٤هـ، وتُوفِّي والِدُه وهو صَغِير، فَتَرَبَّى في أُسْرَتِه، وَتَعَلَّم القُرْآن الكَرِيم، وَتَعَلَّم مَبَادِئ القِرَاءَة وَالكِتَابةِ على يَد إِمَام مَسْجِد البَلَد -وكان قارئًا مُتقِنًا-، وهو فَضِيلَة الشَّيخُ: حَمُّودَ بْنُ سُلَيْمَانَ التّلال، الذي تَوَلَّى القَضَاء أَخيرًا في بَلدَة ضَرِيَّة في مِنْطَقَة القصيم.

ثمَّ الْتَحَق بِمَدْرَسَة الحُكُومَة حين افْتِتَاحِهَا في الشَّماسية عام ١٣٦٩هـ، وَأَكْمَل دِرَاسَته الِابْتِدَائِيَّةَ في المَدْرَسَة الفَيْصَلِيَّة ببُرَيْدَة عام ١٣٧١هـ، وَتَعَيَّن مُدرِّسًا في الِابْتِدَائِيّ، ثمَّ الْتَحَق بالمعهد العِلمِيِّ ببريدة عند افْتِتَاحِه عام ١٣٧٣هـ، وتخرَّج منه عام ١٣٧٧هـ، وَالْتَحَق بِكُلِّيَّة الشَّرِيعَة بالرِّياض، وتخرَّج منها عام ١٣٨١هـ، ثمَّ نَال دَرَجَة المَاجسْتير في الفِقْه، ثمَّ دَرَجَة الدُّكتوراه من هذه الكُلِّيَّة في تَخَصُّص الفِقْه أَيضًا.

❁ أَعْمَالُه الوَظِيفيَّة:

بَعْد تَخَرُّجِه من كُلِّيَّة الشَّرِيعَة عُيِّن مُدرِّسًا في المَعْهَد العِلمِيِّ في الرِّيَاض، ثمَّ نُقل لِلتَّدْرِيس في كُلِّيَّة الشَّرِيعَة، ثمَّ نُقل لِلتَّدْرِيس في الدِّراسات العُلْيَا بِكُلِّيَّة أُصُول الدِّيْن، ثمَّ في المَعْهَد العَالِي لِلقَضَاء،

(١) كتب الترجمة: عبد العزيز بن عبد الكريم العيسى.

ثمَّ عُيِّن مُديرًا للمعهد العَالِي لِلقَضَاء، ثمَّ عَاد لِلتَّدْرِيس فيه بعد انْتِهَاء مُدَّة الإِدَارَة، ثمَّ نُقل عُضْوًا في اللَّجنَة الدَّائِمَة لِلإِفْتَاء والبُحوث العِلمِيَّة، ولا يَزَال على رَأْس العَمَل.

❁ أَعْمَالُه الأُخْرَى:

فَضِيلَة الشَّيخ عُضْوٌ في هَيْئَة كِبَار العُلَمَاء، وَعُضْوٌ في المَجْمَع الفِقْهِيِّ بِمَكَّة المُكرَّمة التَّابع للرَّابطة، وَعُضْوٌ في لَجنَة الإِشْرَاف على الدُّعَاة في الحَجِّ -إلى جَانِب عَمَلِه عُضْوًا في اللَّجنَة الدَّائِمَة لِلبُحُوث العِلمِيَّة وَالإِفْتَاء-، وإمامًا وخطيبًا ومُدرِّسًا في جَامِع الأَمِير مُتْعِب بْنِ عَبْد العَزِيز آل سُعُود في الملز، وَيُشَارِك في الإِجَابَة في بَرْنَامَج «**نُورٌ عَلى الدَّرْب**» في الإِذَاعَة، كما أَن لِفَضِيلَتِه مُشاركاتٍ مُنْتَظِمَةً في المجلَّات العِلمِيَّة على هَيْئَة بحوثٍ ودِراساتٍ وَرَسَائِلَ وَفَتَاوَى، جُمِع وطُبع بَعْضُهَا، كما أَن فَضِيلَته يُشْرِف على الكَثِير من الرَّسَائِل العِلمِيَّة في دَرَجَتَي المَاجسْتير والدُّكتُوراه، وتتلمذ على يَدَيْه العَدِيد من طَلَبَة العِلم الَّذِين يَرْتَادُون مَجَالِسَه ودروسَه العِلمِيَّة المُسْتَمِرَّة.

❁ مَشَايِخُه:

تتلمذ فَضِيلَة الشَّيخ على أَيْدِي عَدَدٍ من العُلَمَاء وَالفُقَهَاء البَارِزِيْن، ومن أَشْهَرِهِم: سَمَاحَة الشَّيخ عَبْدِ العَزِيز بن بَاز، وَسَمَاحَةُ الشَّيخ عَبْدِ اللهِ بنِ حُمَيْد -حيث كان يَحْضُر دُرُوسه في جَامِع بُرَيْدَة-، وَفَضِيلَةُ الشَّيخ مُحمَّدٍ الأَمِينِ الشِّنْقِيطِيِّ، وَفَضِيلَةُ الشَّيخ عَبْدِ الرَّزَّاق عفيفِي، وَفَضِيلَةُ الشَّيخ صَالِح بْنِ عَبْد الرَّحْمَن السّكيتي، وَفَضِيلَةُ الشَّيخ صَالِح بْنِ إِبْرَاهِيم البَلِيهيّ، وَفَضِيلَةُ الشَّيخ مُحمَّدِ بْنِ سَبِيل، وَفَضِيلَةُ الشَّيخ

عَبْدِ الله بْنِ صَالِح الخَلِيفِيّ، وَفَضِيلَةُ الشَّيخ إبْرَاهِيمَ بْنِ عُبَيْد العَبْد المُحْسِن، وَفَضِيلَةُ الشَّيخ حَمُّودَ بْنِ عَقْلا، والشَّيخُ صَالِحُ العَلِيُّ النَّاصِرُ. وتَتَلْمذ على غَيْرِهِم من شُيُوخ الأَزْهَر المنتدَبين في الحَدِيث وَالتَّفْسِيرِ وَاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ.

❁ مُؤَلَّفَاتُه:

❁ لِفَضِيلَة الشَّيخ مُؤَلَّفَاتٌ كَثِيرَةٌ، من أَبْرَزِهَا:

١- «التَّحْقِيقَات المَرْضِيَّة في المَبَاحِث الفَرْضِيَّة» في المَوَارِيث، وهو رِسَالَتُه في الماجستير، مُجَلَّد.

٢- «أَحْكَام الأَطْعِمَة في الشَّرِيعَة الإِسلاميَّة»، وهو رِسَالَتُه في الدكتوراه، مُجَلَّد.

٣- «الإِرْشَاد إلى صَحِيح الِاعْتِقَاد»، مُجَلَّد صَغِير.

٤- «شَرْح العَقِيدَة الواسطية»، مُجَلَّد صَغِير.

٥- «البَيَان فِيْمَا أَخْطَأ فيه بَعْض الكتَاب»، مُجَلَّد كَبِير.

٦- «مَجْمُوع مُحَاضَرَات في العَقِيدَة وَالدَّعْوَة»، مُجَلَّدَان.

٧- «الخُطَب المِنْبَرِيَّة في المُنَاسَبَات العَصرية»، في أَرْبَعَة مُجَلَّدَات.

٨- «مَن أَعْلَام المجدِّدين في الإِسلام».

٩- رَسَائِل في مَوَاضِيعَ مُخْتَلِفَةٍ.

١٠- «مَجْمُوع فَتَاوَى في العَقِيدَة وَالفِقْه»، مفرَّغة من بَرْنَامَج «نُورٌ على الدَّرْب»، وقد أَنْجز منه أَرْبَعَة أَجْزَاء.

١١- «نَقْد كتَاب: الحَلَال وَالحَرَام في الإِسلام».

١٢- «شَرْح كتَاب التَّوْحِيد» لِلشَّيْخ مُحمَّد بن عبْد الوَهَّاب، شَرْحٌ مدرسيٌّ.

١٣- «التَّعْقِيب على ما ذَكَرَه الخَطِيب في حَقّ الشَّيخ مُحمَّد بن عبْد الوَهَّاب».

١٤- «المُلَخَّص الفِقْهِيّ»، مُجَلَّدَان.

١٥- «إتْحَاف أَهْل الإِيمَان بدُروسِ شَهْر رَمَضَان».

١٦- «الضِّيَاء اللَّامِعُ من الأَحَادِيث القُدْسِيَّة الجَوَامِع».

١٧- «بَيَان ما يَفْعَلُه الحَاجُّ وَالمُعْتَمِرُ».

١٨- «كتَاب التَّوْحِيد»، جُزآن مُقَرَّرَان في المَرْحَلَة الثَّانَوِيَّة بوزارة المَعَارِف.

١٩- فَتَاوَى ومقالاتٌ نُشِرَت في «مجلَّة الدَّعْوَة»، وهو هذا الذي نُشِر ضِمْن «كتَاب الدَّعْوَة».

عِلَاوَةً على العَدِيد من الكُتُب والبُحوثِ وَالرَّسَائِلِ العِلمِيَّةِ، منها ما هو مَطْبُوعٌ، ومنها ما هو في طَرِيقه لِلطَّبْع.

نَسْأَل الله تعالى أن يَنْفَع بِه، وَأَن يَجْعَلَه في مَوَازِين حَسَنَات شَيْخنَا الجَلِيل، إنَّه سَمِيعٌ مُجِيبٌ.



بسم الله الرحمن الرحيم

في موكب الدَّعْوَة

الحَمْد لِلَّه رَبِّ العَالَمِين، وَالصَّلَاة والسَّلَامُ الأتمَّان الأَكْمَلَان على نَبِيِّنَا مُحمَّدٍ، وعلى آلِه وَأَصْحَابه وَأَتْبَاعِه إلى يوم الدِّيْن.

أَيُّهَا الإِخْوَة وَالأَخَوَات، السَّلَام عَلَيْكُم وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُه، وَحَيَّاكُم الله مع هذا اللِّقَاءِ الجَدِيدِ في برنامجكم «فِي موكب الدَّعْوَة».

ضَيْفُنَا في هذا اليَوْم هو صَاحِبُ الفَضِيلَة الشَّيخُ الدَّكتور: صَالِحُ بْنُ فَوزَان بْنِ عبْد الله الفوزَان، عُضْوُ اللَّجنَة الدَّائِمَةِ لِلإِفْتَاء، وَعُضْو هَيْئَة كِبَار العُلَمَاء.

فِي مَطْلَع هذا اللِّقَاءِ لا أملِك إلَّا أن أُرَحِّب -باسمكم جميعًا- بِصَاحِب الفَضِيلَة الشَّيخ صَالِح، شاكرًا له تكرُّمَه وتفضُّلَه بِإِجَابَة دَعْوَة البرنَامَج؛ فحيَّاكم الله يا شَيْخَ صَالِح.

شَيْخَ صَالِح -حَفِظَكُم اللَّه-، مِمَّا اعتدنا عَلَيْه في هذا البَرْنَامَج، أن نستمع في بِدَايَة كلِّ لِقَاءٍ من ضَيْفِنَا الكَرِيم، بوُدِّنا أن نستمع مِنْكُم -إذا تفضَّلتم- لِبَيَانٍ مُوجَزٍ مُقْتَضَبٍ عن مَوْلِدِكُم ونشأتِكم أَيْن كَانَت؟

- بِسْم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم، الحَمْد لِلَّه رَبِّ العَالَمِين، وَصَلَى الله وَسَلَّم على نَبِيِّنَا مُحمَّدٍ، وعلى آلِه وَأَصْحَابه أَجْمَعِين؛ أَمَّا بَعْد:

فَالمَوْلِد هو في عام ١٣٥٤ لِلهِجْرَة، في بَلَدَتِنَا المُسَمَّاة بالشَّماسية شَرْقِي القصيم، وَالنَّشْأَة بين الأَهْل وَمُزَاوَلَة مِهْنَة الزِّرَاعَة، التي كانت هي عَمَل أَهْل البَلَد الغَالِبَة لِلبَلَد في ذلك الوَقْت.

وأمَّا النَّشْأَة التَّعْلِيمِيَّة: فقد تعلَّمت القِرَاءَة وَالكتَابَةَ على أَئِمَّة المَسَاجِد في بَلدَتِنَا -كما هي العَادَة المُتَّبَعَة قبل إِيجَاد التَّعْلِيم النِّظاميِّ-، ثمَّ في سَنَة ١٣٦٨ لِلهِجْرَة فُتحت المَدْرَسَةُ الِابْتِدَائِيَّةُ في بَلدَتِنَا الشَّماسية فَالتَحَقْتُ بها، ثمَّ أَكْمَلت الدِّرَاسَة الِابْتِدَائِيَّةَ في عام ١٣٧١ لِلهِجْرَة، حيث نِلت الشَّهَادَة الِابْتِدَائِيَّةَ.

ثُمَّ تَعَيَّنْتُ مُدرِّسًا في الِابْتِدَائِيِّ لِمُدَّة سَنَةٍ، ثمَّ فُتح المُعْهَدُ العِلمِيُّ في مَدِينَة بُرَيْدَة، فَكُنْت من أَوَّل المُلْتحقين به في عام ١٣٧٣، وَأَكْمَلت الدِّرَاسَةَ المُتَوَسِّطَةَ وَالثَّانَوِيَّةَ، ثمَّ الْتَحقَت بِكُلِّيَّة الشَّرِيعَة في الرِّيَاض، وَأَكْمَلت الدِّرَاسَةَ العَالِيَةَ فِيهَا.

وَبعْد تَخَرُّجِي من الكُلِّيَّة تَعَيَّنْت مُدرِّسًا في المَعْهَد العِلمِيِّ بالرِّيَاض لِمُدَّة سَنَتَيْن، ثمَّ نُقِلْت لِلتَّدْرِيس في كُلِّيَّة الشَّرِيعَة، ثمَّ بَعْدَهَا بفترةٍ -وأنا في التَّدْرِيس في هذه الكُلِّيَّة- نُقِلْت لِلتَّدْرِيس بِكُلِّيَّة أُصُول الدِّيْن، لمَّا فُتحت الجَامِعَةُ وَتَعَدَّدَت فِيهَا الكُلِّيَّات، نُقِلْت لِلتَّدْرِيس في كُلِّيَّة أُصُول الدِّيْن وبالدِّراسات العُلْيَا فِيهَا بِالذَّات، ثمَّ نُقِلْت مُديرًا للمَعْهَد العَالِيِّ في القَضَاء لِمُدَّة سِتّ سَنَوَاتٍ، ثمَّ لمَّا تَمَّت المُدَّة النِّظَامِيَّةُ لِلإِدَارَة بَقِيْتُ فيه مُدرِّسًا لِلفِقْه، ثمَّ نُقِلْت إلى عُضوِيَّة اللَّجنَة الدَّائِمَةِ لِلبُحُوث العِلمِيَّة وَالإِفْتَاء، ولا أَزَال -وَالحَمْد لِلَّه-.

سُؤَال: أحسنتم يا شيخ صالح -أثابكم الله-، في الحقيقة خلال هذا المشوار المُبَارَك من البِدَايَات في التَّعْلِيم، والْتِحاقِكم بِالكُلِّيَّة، وَتَعْلِيمِكُم فِيهَا يا شَيْخَ صَالِح، لا بُدَّ أنَّ هناك العَدِيدَ من الشَّخْصِيَّات التي تأَثَّرتم بها، والتي كان لَهَا أَثَرٌ على حَيَاتِكُم وعلى توجُّهكم نَحْو طَلَب العِلم الشَّرْعِيِّ، أو على الأَصَحّ أن نَقُول: هناك العَدِيد من

المَشَايِخ الَّذِين أَخَذْتُم عَنْهُم وتلقَّيتم عَنْهُم، هل مُمْكِن أن نستمع من فضيلتكم إلى بَعْض أو أَبْرَز هذه الأَسْمَاء؟

- الحَمْد لِلَّه، أَنَا تَعَلَّمْتُ على مُدَرِّسِين كَثِيرَيْن في مَرَاحِل التَّعْلِيم، وَانْتَفَعْت بِهِم - الحَمْد لِلَّه وَجَزَاهُم الله عَنِّي وعن زُملائي خَيْر الجَزَاء -، وَلَكِن من أَبْرَز من اسْتَفَدْتُ منهم من أَهْل العِلم في المَرْحَلَة الِابْتِدَائِيَّة اثْنَان هُمَا: شَيْخِي الشَّيْخُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ ضَيْف الله اليوسف في مَدْرَسَة الشَّماسية، ثمَّ فَضِيلَةُ الشَّيخ إِبْرَاهِيم بْنِ عَبْد المُحْسِن بنِ عُبَيْد، في بُرَيْدَة عِنْدَمَا كُنْتُ في السَّنَة السَّادِسَةِ الِابْتِدَائِيَّةِ؛ لِأَنِّي أَكْمَلْت الِابْتِدَائِيَّة في المَدْرَسَة الفيصليَّة في مَدِينَة بُرَيْدَة وكان مُدرِّسًا فِيهَا، وَاسْتَفَدْت منه في عِلم الفِقْه وَالتَّوْحِيد، وَقَرَأْت عَلَيْه بَعْض القِرَاءَة في المَسْجِد.

وأَمَّا في المَرْحَلَة المُتَوَسِّطَةِ وَالثَّانَوِيَّةِ فَاسْتَفَدْت من مَشَايِخ كَثِيرَيْن، من السَّعوديِّين ومن غَيْرِهِم من المُنتدَبين لِلتَّدْرِيس هُنَا، من أبرزهم: الشَّيخُ صَالِحُ بْنُ عَبْد الرَّحْمَن السكيتي رَحِمَهُ اللَّهُ، اسْتَفَدْت منه في عِلم الفِقْه وَالتَّوْحِيد؛ وَالشَّيخُ مُحمَّدُ بْنُ عَبْد الله السُبَيِّل حِفْظِه اللَّه، اسْتَفَدْت منه في عِلم الفَرَائِض؛ وَالشَّيخُ صَالِحُ بْنُ إِبْرَاهِيم البليهي رَحِمَهُ اللَّهُ، اسْتَفَدْت منه في عِلم الفِقْه؛ هَؤُلَاء من أَبْرَز من انْتَفَعْت بِهِم في الفِقْه وَالتَّوْحِيد.

وأَمَّا المَرْحَلَة العَالِيَةُ - في كُلِّيَّة الشَّرِيعَة - فقد اسْتَفَدْت من فَضِيلَة الشَّيخ عَبْدِ العَزِيز بْنِ بَاز رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد درَّسني في الكُلِّيَّة عِلم الفَرَائِض وَالمَوَارِيثِ، ومن مَشَايِخِي في الكُلِّيَّة: العَلَّامَةُ الشَّيخُ مُحَمَّدُ الأَمِينُ الشِّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في مَادَّة الأُصُول، وكذلك اسْتَفَدْت من فَضِيلَة شَيْخنَا العَلَّامَةِ الشَّيخ عَبْدِ الرَّزَّاق عفيفي رَحِمَهُ اللَّهُ في مَادَّة الأُصُول وَعِلم العَقِيدَة، وكذلك اسْتَفَدْت في الفِقْه - وَإِن كانت المُدَّة مَعَه قَصِيرَةً - من فَضِيلَة

العَلَّامَة الفَقِيهِ الشَّيخ عَبْدِ الله بْنِ صَالِح الخَلِيفِي رَحِمَهُ اللَّهُ، هَؤُلَاء من أَبْرَز من انْتَفَعْت بِعُلُومِهِم.

وَاسْتَفَدْت من مَشَايِخِنَا المِصْرِيِّين في عِلم اللُّغَة العَرَبِيَّة وَعِلمِ الصَّرْف وَعِلمِ البَلَاغَة وَالبَيَانِ، وَاسْتَفَدْت من شَخْصِيَّات عِلمِيَّةٍ فَذَّة منهم - غَفر الله لِأَمْوَاتِهِم وَحَفِظ أَحْيَاءَهُم -، هَؤُلَاء من أَبْرَز من تَأَثَّرْتُ بِهِم، وَكُنْت أَحْضُر في مُدَّة دِراستي في بُرَيْدَة دُرُوس العَلَّامَةِ الشَّيخ عَبْدِ الله بْنِ مُحمَّد بْنِ حُمَيْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، وكانت دُرُوسُه في الفقه وَالتَّوْحِيدِ وَالنَّحْوِ وَالفَرَائِضِ تُواكب دروسي في المَعْهَد؛ ولذلك كُنْت أَحْضُر دُرُوسَه وأُلازمها؛ لأَنَّهَا شَرْحٌ لدُروسي التي أتلقَّاها في المَعْهَد العِلمِيِّ.

سُؤَال: أَحْسَنْتُم - أَثَابَكُم اللَّه -، الشَّيخَ الصَّالِحَ - حَفِظَكُم الله - هذه الأَسْمَاء المُبَارَكَةُ والعَطِرةُ التي تفضَّلْتم بِذِكْرِهَا وَسَرْدِهَا، والتي كانت لَهَا تَأْثِيرٌ في حَيَاتِكُم العِلمِيَّةِ، لا شَكَّ أنَّ من هذه الأَسْمَاء أَحْسَب أنَّ لَكُم علاقةً كانت خَاصَّةً مع سَمَاحَة الشَّيخ عَبْدِ العَزِيز بْنِ عَبْد الله بنِ بَاز رَحِمَهُ اللَّهُ، وكانت بَيْنَكُم عَلَاقَةٌ أَحْسَب أنَّها عَلَاقَة التِّلمِيذ مع شَيْخِه. شَيْخَ صَالِح، أَجِد أَنَّها فُرْصَةٌ لأستمع مِن فضيلتكم ومع مَن يَسْتَمِع إلى هذا البَرْنَامَج من الإِخْوَة المُسْتَمِعِين إلى شَيْء من حَيَاة ذلك العَلَم رَحِمَهُ اللَّهُ، خصوصًا وأنتم كُنْتم من القَرِيبين منه، سَوَاء كان في العِلم أو قبل ذلك في تلقِّيكم عَنْه في كُلِّيَّة الشَّرِيعَة وَغَيْرِهَا.

- الشَّيخ عَبْدُ العَزِيز بْنُ بَاز رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَمٌ من أَعْلَام العِلم وَالعَمَلِ وَالتَّوْجِيهِ في عَصْرِنَا الحَاضِرِ - لا يَخْفَى ذلك على أَحَدٍ -، وَكُنْتُ مِمَّن انْتَفَع بِعِلمِه وَتَوْجِيهه، وهو أَبْرَز من تَأَثَّرْتُ بِهِم وتلقَّيتُ العِلم على أَيْدِيهِم، فَمَن ذلك أَنَّنِي تَلَقَّيْتُ عَنْه عِلم الفَرَائِض وَالمَوَارِيث في كُلِّيَّة

الشَّرِيعَة، وَكُنْتُ أَحْضُر دُرُوسه ومحاضراتِه ومجالسَه، وأستمع إلى برامجه في الإذَاعَة، وَأَحْرِص على ذَلِك؛ اسْتَفَدْتُ منه العِلمَ الغَزِيرَ -وَالحَمْد لِلَّه-، يعني سَمِعْتُ منها العِلم الغَزِيرَ، وأمَّا أَنَّنِي حَفِظْت منها شيئًا، فحِفْظي قَلِيلٌ وذاكرتي ضَعِيفَةٌ، وَلَكِن كَنْت أَحْرِص على سَمَاعِهَا وَحُضُورِهَا وَالِاسْتِفَادَة منها.

وأمَّا مَجال العَمَل، فَمُنْذ انْتِقَالِي إلى دَار الإِفْتَاء وَالعَمَل تَحْت رِيَاسَتِه رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد اسْتَفَدْت منه الفَوَائِدَ العَظِيمَةَ في مَجَال العِلم وَالإِجَابَةِ عن الأَسْئِلَة، والتثبُّتِ في الإِجَابَة وَتَحرِّي الصَّوَاب وَالدِّقَّة، كَذَلِك اسْتَفَدْت منه الصَّبْر وَالتَّحَمُّلَ على مشاقِّ العَمَل، وَاسْتَفَدْت منه فَوَائِدَ عَظِيمَةً في هذا المَجَال.

اسْتَفَدْت منه أيضًا الحِرْص على بِنَاء الفَتْوَى، أو الجَوَابِ عن الدَّلِيل من الكتَاب وَالسُّنَّةِ وَتَحَرِّي الصَّوَاب، وَأَن المُفتيَ حِينَمَا يُفْتِي في مَسْأَلَةٍ فَإِنَّمَا يَضَع في ذِمَّته حملًا ثقيلًا؛ لأنّ هذا الجَوَابَ سيُنسَب إِلَيْه، وسيُسأل عَنْه أَمَام الله ﷻ، فَكُنْت أَسْتَفِيد منه التَّحَرِّي وَالدِّقَّة وَمُرَاعَاة المَسْئُولِيَّة، وَالخَوْفَ من الله ﷻ عند اخْتِيَار الجَوَاب، بِأَلَّا يكون فيه تَسَاهُلٌ أو إِخْلَالٌ أو تَفْرِيطٌ في رَبْطِه بِالدَّلِيل.

سُؤَال: أَثَابَكُم الله يا شَيْخَ صَالِح، في الحَقِيقَة بوُدِّنا أن نَنْتَقِل إلى الجَانِب الآخر، وهو أَنَّكم -ولله الحَمْد- لَكُم نَشَاطٌ مُبَارَكٌ وَمَشْهُودٌ في العَدِيد من المُؤَلَّفَات وَالكُتُب وَالرَّسَائِل التي دونتمُوها وكتبتمُوها، وهي كَثِيرَة، منها مَنْشُورٌ ومبثوثٌ -ولله الحَمْد-، أَجِد أَنَّها فُرْصَةٌ يا شَيْخَ صَالِح، لنستمع مِنْكُم إلى أَبْرَز هذه المُؤَلَّفَات التي كتبتموها ابتداءً بِأَوَّلِهَا تأليفًا؟

- أَنَا ليس لِي مُؤَلَّفَات في الحَقِيقَة، وإنَّما لِي بَعْض الكتَابات التي كَتَبْتُهَا لا بِنِيَّة التَّأْلِيف، وَلَكِن كَتَبْتها لِمُنَاسَبَةٍ حَصَلَت، أو مُشَارَكَةٍ في مُؤْتَمرٍ أو نَدْوَةٍ، أو مُشَارَكَةٍ في مجلَّةٍ، أو مُشَارَكَةٍ في برامجَ إذاعيَّةٍ كَتَبْت هذه الأَشْيَاء، ثمَّ رَأَيْت أنَّه من المُفِيد الِاحْتِفَاظ بها وَإِخْرَاجُهَا في صُورَة كتَابٍ لا في صُورَة مُؤَلَّفٍ، وإنَّما في صُورَة كتَابٍ جُمِعَت فيه ما صَدَر مِنِّي، أو كَتَبْته في هذه المُنَاسَبَات.

ومن ذَلِك ما كَتَبْتُه لِنَيْل دَرَجَةٍ عِلمِيَّةٍ، ابتداءً من دَرَجَة المَاجِسْتَيْر، فقد كَتَبْت في دَرَجَة المَاجِسْتَيْر في مَوْضُوع الفَرَائِض وَالمَوَارِيث رِسَالَةً، اسْمُهَا «**التَّحْقِيقَات المَرْضِيَّةُ في المَبَاحِث الفَرْضِيَّةِ**»، وهي مَطْبُوعَةٌ - ولله الحَمْد -، ومن ذَلِك ما كَتَبْته في رِسَالَةٍ لِنَيْل دَرَجَة الدكتُوراه في الفِقْه، وهي رِسَالَة «**الأَطْعِمَة ما يَحِلُّ منها وما يَحْرُم بِالأَدِلَّة**»، وهي أيضًا مَطْبُوعَةٌ ومُتداوَلةٌ.

ومن أَقْدَم ما كَتَبْتُ رِسَالَةً في الرَّدّ على الشَّيخ يُوسُف القَرْضَاوي في كتَابه «**الحَلَال وَالحَرَام في الإِسلام**»، فقد كَتَبْت كتَابةً سَمَّيْتهَا «**الإِعْلَام لِنَقْد كتَاب الحَلَال وَالحَرَام**»، وَعَرَضْتهَا - من أَوَّلِهَا إلى آخرهَا - على سَمَاحَة الشَّيخ عَبْدِ الله بْنِ مُحمَّد بْنِ حُمَيْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَرَأْتُهَا عَلَيْه من أَوَّلِهَا إلى آخرهَا، فَأَشَار عليَّ بِإِخْرَاجِهَا وطباعتِها، وهي مَطْبُوعَة ومُتداوَلةٌ - وَالحَمْد لِلَّه -.

ومن ذلك أيضًا: كتَاب «**الإِرْشَاد إلى صَحِيح الِاعْتِقَاد**»، وهو عِبارَةٌ عن حَلَقَاتٍ في العَقِيدَة كُنْت أُلْقِيهَا في الإِذَاعَة، فَجَمَعْتهَا في صُورَة كتَابٍ وَأَسْمَيْته بهذا الِاسْمِ، وهو مَطْبُوعٌ ومُتداوَلٌ.

ومن ذَلِك: «**كتَاب التَّوْحِيد**»، وهو عِبَارَةٌ عن كتَابةٍ كُلِّفْت بها من قِبَل وَزَارَة المَعَارِف لإِعْدَاد كتَابٍ للثَّانوي في عَقِيدَة التَّوْحِيد، فَكَتَبْته بِمُوجِب هذا التَّكْلِيف؛ وصار يَتَدَاوَل وَيُطْبَع الآن -وَالحَمْد لِلَّه-.

ومن ذَلِك: حَلَقَاتٌ كُنْت أُلقِيهَا في إِذَاعَة الرِّيَاض بِعِنْوَان «**مَن الفِقْه الإِسلاميِّ**»، وهي حَلَقَاتٌ امْتَدَّت من أَوَّل «**كتَاب الطَّهَارَة**» إلى آخَر «**كتَاب الإِقْرَار**»، على تَرْتِيب المُتَأَخِّرِين من فُقَهَاء الحَنَابِلَة، فجمعْت هذه الحَلَقَات تَحْت مُسَمَّى «**المُلَخَّص الفِقْهِيُّ**»، وهو مَطْبُوعٌ الآن في كتَاب -وَالحَمْد لِلَّه-.

ومن ذَلِك أنِّي لمَّا تَوَلَّيْت الخَطابة بِجَامِع الأَمِير مُتْعِبِ بْنِ عَبْدِ العَزِيز آل سُعُود -حَفِظَه الله- في الملز، كُنْت أُلقِي الخُطَب وأُدوِّنُها قبل إلقَائِهَا في مُسَوَّداتٍ، فَلَمَّا تجمَّع لَدَيَّ عَدَد كَثِيرٌ من هذه المُسَوَّدات؛ رَأَيْت -بعدما أَشَار عليَّ بَعْض الإِخْوَة- تمحيصَها وَإِخْرَاجَها في كتَابٍ مَطْبُوعٍ؛ لِيَمْتَدَّ النَّفْع بِه ولأُساعد إِخْوَانِي الخُطَبَاء؛ فَقُمْت بِإِخْرَاج هذه الخُطَب، وَسَمَّيْتهَا «**الخُطَبُ المِنْبَرِيَّةُ في المُنَاسَبَاتِ العصرِيَّةِ**»، وهذا المَجْمُوع يَتَكَوَّن من خَمْسَة مُجَلَّدَاتٍ، وهي مَطْبُوعَةٌ ومُتداوَلَةٌ -وَالحَمْد لِلَّه-.

هَذِه هي أَبْرَز ما يُنْسَب إِلَيَّ من كتَابات، وهناك كتَاباتٌ مُتَفَرِّقَةٌ ومُتنوِّعةٌ تَحْت مُسَمَّيَاتٍ كَثِيرَةٍ لا دَاعِي لِذِكْرِهَا الآن.

سُؤَال: أَحْسَنْتُم يا شَيْخَ صَالِح، -أَثَابَكُم اللَّه-، بِوُدِّي الحَقِيقَة أيضًا أن نتناول جانبًا قريبًا من هَذَا، وهو النَّشَاط العِلمِيُّ الذي تُقدِّمونه في الدُّرُوس في المَسْجِد، هل من المُمْكِن أن نستمع إلى أَبْرَز هذه الدُّرُوس التي تُلْقونها في المَسَاجِد يا شَيْخَ صَالِح؟

- مَسْأَلَة الدُّرُوس التي في المَسَاجِد إنَّما اتَّجَهْتُ إِلَيْهَا أخيرًا، لمَّا كَثُر الإلحَاح من الشَّبَاب ومن طُلَّاب العِلم، فَرَأَيْت أنَّه لا يَسَعُنِي أن أَعْتَذِر عن طَلَبِهِم وإلحاحهم، فَفَتَحْت لهم المَجَال في إلقَاء ما أستطيعه من الدُّرُوس وَالتَّوْجِيهِ، وذلك في المَسْجِد الذي أَتَوَلَّى الإِمَامَة وَالخَطَابَةَ فِيْه - والذي سَبَق ذِكْرُه آنفًا -، وفي الطَّائِف في الصَّيْفِيَّة أيضًا تَنْتَقِل دروسي التي أُلقِيهَا بالرِّياض إلى الطَّائِف هُنَاك، وفي الأَخِير رُتِّب لِي دَرْسٌ في المَسْجِد الحَرَام في الأُسْبُوع مَرَّة تَحْت مُسَمَّى «**دُرُوسٌ من القُرْآن الكَرِيمِ**»، وسنُواصل فيه - إن شَاء الله - في المُسْتَقْبَل.

سُؤَال: ما العُلُوم وَالدُّرُوس التي تدرِّسُونها يا شَيْخ صَالِح؟

- أَنَا أَحْرِص على دُرُوس العَقِيدَة؛ لأنَّ المُسْلِمِين بِحَاجَة إلى مَعْرِفَة العَقِيدَة وَتَأْصِيلِهَا؛ لأَنَّهَا هي الأَسَاس الذي يُبنى عَلَيْه جَمِيعُ أُمُور الدِّيْن، ثمَّ أيضًا دُرُوسِ الفِقْه؛ لأنَّ الفِقْه في الدِّيْن من أَهَمِّ المُهِمَّات، وكذلك دَرْسٍ في الحَدِيث «**بُلُوغ المَرَام من أَدِلَّة الأَحْكَام**» ما زِلْت أُوَاصِل التَّدْرِيس فِيْه، وَنِيَّتِي إكْمَالَه - إن شَاء الله - في الرِّيَاض وفي الطَّائِف أيضًا.

سُؤَال: الشَّيخ صَالِح - رعاكم اللَّه -، يُلحظ اهْتِمَام من فضيلتكم بِمُؤَلَّفات شَيْخ الإِسلام ابْنِ تَيْمِيَّة رَحِمَهُ اللَّهُ، وَلَكِن لَكُم بَرْنَامَج مُتَمَيِّز في إِذَاعَة القُرْآن الكَرِيم وهو «**قِرَاءَة في فَتَاوَى شَيْخ الإِسلام ابْنِ تَيْمِيَّة**»، بِوُدِّي أن تُبْدِي لَنَا أَهَمِّيَّة هذه الفَتَاوَى التي كان لَكُم رِحْلَةٌ طَوِيلَةٌ مَعَهَا، وهل من المُمْكِن إيجَاد تَعْلِيقَاتٍ مُفِيدَةٍ على بَعْض ما يُوجَد في هذه الفَتَاوَى من المَسَائِل المُهِمَّةِ التي تَرَوْن الحَاجَة إلى نَشْرِهَا مع التَّعْلِيق عَلَيْهَا؟

- لا يَخْفَى ما لمُؤلَّفات شَيْخ الإسلام ابْنِ تَيْمِيَّة رَحِمَهُ اللَّهُ، وتِلمِيذه ابْنِ القَيِّم من أَهَمِّيَّةٍ عَظِيمَةٍ في تَجْدِيد هذا الدِّيْن وَإِحْيَائِه، وَإِحْيَاءِ السُّنَّة المُحمَّديَّةِ، بعدما حَصَل للمُجْتَمِع الإسلاميِّ من دُخُول أَشْيَاء أَثَّرتْ على العَقِيدَة وعلى سُلُوك المُسْلِمِين، فَجَاء الله بهذا الإمام المُجدِّدِ، فَقَام رَحِمَهُ اللَّهُ بِتَنْبِيه الأُمَّة وَدَعْوَتِهَا إلى الرُّجُوع إلى الأَصْل الذي جَاء به رَسُول الله ﷺ، وَنَبَذ البِدَع والخُرَافاتِ والمُحْدَثاتِ التي تَجَمَّعَت في أَفْكَار كَثِيرٍ من المُسْلِمِين، فَأَثَّرَت عَلَيْهِم حِقْبةً من الزَّمَن، فكان لِدَعْوَتِه ولمُؤلَّفاته ولتلاميذه في إيقَاظ المُسْلِمِين ما لا يَجْحَدُه إلَّا مُكَابِر أو ضالٌّ.

ومن ذلك فَتَاوَاه، الفَتَاوَى العَظِيمَةُ المُنبثِقةُ عن كتَاب الله وَسُنَّة رَسُولِه ﷺ، وَمَنْهَجِ السَّلَف الصَّالِح في الِاعْتِقَاد وفي العَمَل وفي التَّعَامُل وفي الأَخْلَاق؛ فهي فَتَاوَى حَافِلَة، وَسِجِلٌ عَظِيمٌ من سِجِلَّات هذا الدِّيْن الإسلاميِّ العَظِيم، وَفَتَاوَاه كَثِيرَةٌ، لَكِن الذي جُمع منها الآن هو هذا الكَمُّ الهَائِلُ الذي يَبْلُغ خَمْسَة وثلاثين مُجلَّدًا ضخمًا.

وهناك مُؤَلَّفَاتٌ مُسْتَقِلَّةٌ، مثل: «**مِنْهَاج السُّنَّة النَّبَوِيَّة**»، وَمِثْل: «**اقْتِضَاء الصِّرَاط المُسْتَقِيم**»، وَمِثْل كِتَابه: «**نَقْض التَّأْسِيس في الرَّدِّ على الرَّازِي**»، وَمِثْل كتَابه: «**الجَوَاب الصَّحِيح فِيمَن بَدَل دِين المَسِيح**»، وهي كُتُبٌ عَظِيمَةٌ.

وكذلك رِسَالته العَظِيمَةُ مثل: «**رِسَالَة الحَمَوِيَّة**»، و«**رِسَالَة الوَاسطيَّة**»، و«**رِسَالَة التَّدمرية**»؛ وفي رُدوده على القبوريِّين والخُرافيِّين: كـ«**الرَّدِّ على الأَخْنَائِيِّ**»، و«**الرَّدِّ على ابْنِ البَكْرِي**»، و«**الرَّدِّ على ابْنِ سَبْعِين**»، وَالرَّدِّ على أَهْل وَحْدَة الوُجُود وعلى المُتَصَوِّفَة شَيْءٍ كَثِيرٍ لا يُمْكِن حَصَرَه، فَنَفَع الله ﷻ بهذا الجَهْد العَظِيمِ، نَفَع به المُسْلِمِين في مُخْتَلَف العُصُور.

وَ يَكْفِي من فَضَائِل هذا المَنْهَج العَظِيم هذه الدَّعْوَة المُبَارَكَةُ التي قَام بها شَيْخ الإِسلام المُجَدِّدُ مُحمَّدُ بْنُ عبْدِ الوَهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ، فَإِنَّهَا قامت على هذا التُّرَاث العَظِيمِ وَالمَجْدِ الأثِيلِ الذي أَصْلُه شَيْخ الإِسلام ابْنُ تَيْمِيَّة، فَالشَّيخ مُحمَّد بن عبْد الوَهَّاب قرأ هذه الكُتُب وهذه الفَتَاوَى فَانْتَفَع بها وَتَأَثَّر بها، وقام بِالدَّعْوَة على ضَوْئِهَا، وكان لَهَا الثَّمَرَات العَظِيمَةُ التي لا تَخْفَى على كلِّ ذي بَصِيرَةٍ.

وَقَد طُلِب مِنِّي من قِبَل الإِذَاعَة - إِذَاعَةِ القُرْآن الكَرِيمِ - أن أُلقِي الضَّوْء على شَيْءٍ من هذه الفَتَاوَى، وَإِعْطَاءُ المُسْتَمِعِين فِكْرَةً ولو مُخْتَصَرَةً عن هذه الفَتَاوَى بِالذَّات، وهذه الفَتَاوَى إِنَّما تُمَثِّل قِسْطًا يسيرًا من جهود هذا العَالِم وهذا الإمام؛ فَفَرِحْتُ بهذا الطَّلَب وَقُمْت بِقِرَاءَة هذه الفَتَاوَى وَكتَابةَ ما تَيَسَّر من أَجَل تَقْرِيب ما فِيهَا من عِلم وَفِقه في دِين الله عَزَّ وَجَلَّ ابتداءً من الجُزْء الأَوَّل، وَاسْتَمَرَّ هذا البَرْنَامَجُ عِدَّة سَنَوَاتٍ، فكان برنامجًا أُسْبوعيًّا، فَوَصَلْت فيه إلى الجُزْء العَاشِر من مَجْمُوع الفَتَاوَى، قَدَّمْت فيه حَلَقَاتٍ خِلَال هذه السَّنَوَات، ثَمَّ إِنَّه تَوَقَّف هذا البَرْنَامَجُ لفترةٍ، وَلَعَلَه يَعُود النَّشَاط فيه إن شَاء الله.

وأمَّا مَسْأَلَة التَّعْلِيق فَإِنَّنِي إذا سَنَحت فُرْصَةٌ وَرَأَيْت المُنَاسَبَة وَرَبْط الوَاقِع بِالمَاضِي، فَإِنَّنِي أُعَلِّق بَعْض التَّعْلِيق لِرَبْط وَاقِع النَّاس اليَوْم بِمَا جَاء في هذه الفَتَاوَى، لِأَجْل أن يَنْتَفِع بذلك من أَرَاد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من المُسْتَمِعِين.

سُؤَال: أَثَابَكُم الله، الحَقِيقَة يا شَيْخَ صَالِح، إن من المُلَاحَظ جدًّا لِمَن يَنْظُر إلى وَاقِع المُسْلِمِين، الجَهْلُ الذي يَغْشَى مُجْتَمَعَات المُسْلِمِين، خصوصًا فِيْمَا يَتَعَلَّق بِأُمُور عِبَادَاتِهِم وَمُعَامَلَاتِهِم، وَيَظْهَر هناك حَاجَة

مَاسَّةٌ نَحو تَعَلُّم الفِقْهِ الإسلاميِّ، خصوصًا بعد العِلم بِتَوْحِيد الله ﷻ وَتَحْقِيقِه، وهناك مُحاولاتٌ من العَدِيد من العُلَمَاء نَحْو إيجَاد ما يُسَمَّى «**صياغةً فِقْهِيَّة معاصرة**» تَتَنَاوَل النَّوَازِل وَالحَوَادِث المُسْتَجَدَّة، إلَّا أنَّها قد تَكُون في بداياتها. يا شَيْخَ صَالِح، وأنتم قد كَتَبْتُم في العَدِيد من المجالات الفِقْهِيَّة، وكان لَكُم إسْهَامٌ مَشْكُورٌ وَمَذْكُورٌ في ذلك، بل إنَّكُم الآن تُقرِّرون وتُدرِّسون في دورسكم العَدِيدَ من الكُتُب الفِقْهِيَّةِ، وَلَكُم بَرْنَامَجٌ في إذَاعَة القُرْآن الكَرِيم يَشْرَح كتَاب «**زَاد المُسْتَنْقع**». يا شَيْخ صَالِح، أَلَا تَرَوْن أن هناك حَاجَةً مَاسَّةً لِإيجَاد موسوعةً فِقْهِيَّةً مُعاصرةً بِلِسَان مُعَاصِر كما يَقُولُون؟ مع الِاسْتِفَادَة من الكُتُب التي تَرَكَهَا عُلَمَاؤُنَا وسلفُنا الكِرَامُ.

- لا شَكَّ أن رَبْط النَّاس بِالفِقْه أَمْرٌ مُهِمٌّ؛ لأنَّ الفِقْه في الدِّيْن هو أَسَاس العَمَل، فلا يُمْكِن لِغَيْر الفَقِيه أن يَعْمَل عملًا صالحًا ومُستقيمًا إلَّا إذا كان على فِقْهٍ في دِين الله ﷻ؛ ولذلك أَمْر الله بِالتَّفَقُّه في دِينِه وأَثْنى على المُتَفَقِّهِين، قال سُبْحَانَه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢] يعني لِلجِهَاد أو طَلَب العِلم؛ لأنّ ذلك يُعَطِّل الأَعْمَال ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ يعني: ليتفهَّموا أُمُور دِينِهم.

فَالفِقْه لغةً: هو الفَهْم، وَالفِقْه في الدِّيْن هو فهم أَحْكَام الدِّيْن وَشَرَائِع الدِّيْن، وَانْظُر كَيْف قَدَّم ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ على قوله: ﴿وَلِيُنذِرُوا۟﴾؛ لأنّ الإِنْذَار وَالدَّعْوَةَ إلى الله وَالأَمْر بِالمَعْرُوف وَالنَّهْيَ عن المُنْكَر إنَّما يكون بعد الفِقْه وَالعِلْم، فلا يَصْلُح الإِنْذَار وَالدَّعْوَةُ

وَالأَمْرُ بِالمَعْرُوف وَالنَّهْيُ عن المُنْكَر على جَهْلٍ، بل لابد أن يكون ذلك عن فِقْهٍ؛ ولذلك اتَّجَهَت هِمَّة السَّلَف من لَدُن الصَّحَابَة ﷺ إلى وَقْت المُسْلِمِين الحَاضِر، اتَّجَهَت هِمَّتُهُم إلى العِنَايَة بِالفِقْه وَتَفْقِيه النَّاس وَتَعْلِيمِهِم أمورَ دِينِهِم، وكان من ذلك هذه الحصيلةُ وَالثَّرْوَةُ الفِقْهِيَّةُ العَظِيمَةُ التي خلَّفها سَلَفُنَا الصَّالِحُ، مُقْتَبَسَةً من كتَاب الله وَسُنَّة رَسُولِه ﷺ.

فَهَذَا الفِقْهُ الذي خَلَّفَه سَلَفُنَا الصَّالِحُ إِنَّما هو وَسِيلَةٌ تُعِينُ على فهم الكتَاب وَالسُّنَّةِ وَالعَمَلِ بِهِمَا.

وَالفِقْه في نَظَرِي ليس بِحَاجَة إلى تَجْدِيد عِبَارَةٍ أو صِيَاغَةٍ جَدِيدَةٍ؛ لأَنَّه مَصُوغ بِعِبَارَة عَرَبِيَّة فَصِيحَة، والقُدامى أَفْصَح مِنَّا وَأَقْدَرُ مِنَّا على البَيَان، وَأَقْدَرُ مِنَّا على جَمْع المَعْلُومَات؛ لأنّ الله أَعْطَاهُم من المَقْدَرَة ما لم يَكُن لِمَن جَاء بَعْدَهُم إلَّا من شَاء الله ﷻ، ففي نَظَرِي أنَّ الفِقْه ليس بِحَاجَة إلى تَجْدِيد عِبَارَة أو صِيَاغَة، بل هو بِحَاجَة إلى تَعَلُّمٍ وَعِنَايَةٍ وَإِقْبَالٍ عَلَيْه، وَتَعْلِيمِ النَّاس إيَّاه وتنشئتِهم على الفِقْه السَّلَف الصَّالِحِ، هذا هو المُهِمُّ.

أَمَّا مَسْأَلَة الصِّيَاغَة وَالتَّعْبِيرِ الجَدِيدِ هذا لو حَصَل ما كفى؛ لأنَّ النَّاس في إعراضٍ عن الفِقْه، فَالآفَة لم تأتِ من الصِّيَاغَة أو العِبَارَة، وإنَّما جَاءَت من انْصِرَاف النَّاس وَجَهْلِهِم لِهَذَا الأَمْر، فإذا وُجِّهوا وعَمِلوا حَصَل المَقْصُود بِدُون أن نُكَلِّف أَنْفُسَنَا وَضْعَ عِبَارَةٍ جَدِيدَةٍ أو صِيَاغَةٍ جَدِيدَةٍ؛ لِأَنَّنَا لَن نَأْتِي بأفضلَ مِمَّا جَاء به من سَبَقَنَا من أَهْل العِلم وَالخِبْرَة وَالمَعْرِفَة.

سُؤَال: أَحْسَنْتُم وَأَثَابَكُم الله، يا شَيْخَ صَالِح، -حَفِظَكُم الله- الفَتْوَى في هذا العَصْر، بل في كلِّ عَصْر، أحوجُ ما يكون النَّاس إِلَيْهَا، وَالوَقْت الحَاضِرُ شَهِد الكَثِير من الَّذِين يَتَصَدَّرُون لِمِثْل هذا الأَمْر وَلَيْسُوا أهلًا لِذَلِك، وَأَصْبَحَت الفَتْوَى في بَحْر يَمُوج كلٌّ يُدْلِي بَدَلْوه بِعِلم أو بِغَيْر عِلمٍ، هل هناك ضَوَابِطٌ يَجِب أن تُضبط بها الفَتْوَى لِكَي يَسِير كلٌّ وَاحِدٍ من المُسْلِمِين على نَهْجٍ صَحِيحٍ؟ ثُمَّ هذا التَّعَدُّدُ في الفَتْوَى، أَلَا يُمْكِن أن يوجِد بَلْبَلَة لَدَى كَثِيرٍ من عَامَّة المُسْلِمِين؟

- لا شَكَّ أن أَمْر الفَتْوَى أمرٌ مُهِمٌّ، وَالحَاجَة إلى الفَتْوَى حَاجَةٌ ضَرُورِيَّةٌ؛ لأَنَّ النَّاس بِحَاجَةٍ إلى من يُجِيبُهُم عن تساؤلاتهم، وبحاجةٍ إلى من يَحِلُّ مُشْكِلَاتِهِم، وبحاجةٍ إلى من يَتَنَاوَل قَضَايَاهُم، هُم بِحَاجَةٍ إلى ذلك، وَلَكِن لَن يَقُوم بِهَذِه المُهِمَّات إِلَّا أَهْلُ العِلم المُخْتَصُّونَ الفقهاءُ في دِين الله ﷻ، فإذا قَام بهذا الوَاجِبِ وهذا العِبْءِ أَهْلُه من أَهْل العِلم المُخْتَصِّين، حَصَل المَقْصُود وَحَصَل المَطْلُوب، وَانْحَلَّت المُشْكِلَات، وَرَجَع النَّاس إلى أَهْل العِلم وإلى أَهْل البَصِيرَة.

وَإِذَا قَام أَهْل العِلم وَأَهْلُ البَصِيرَة بِالنَّظَر في مَشَاكِل النَّاس وَتَقْدِيم الحُلُول لَهَا، على ضَوْء كتَاب الله وَسُنَّة رَسُولِه ﷺ، حَصَل المَطْلُوب وَانْحَلَّت المَشَاكِل، كما كان ذلك في عَصْر سَلَف هذه الأُمَّة لَمَّا كان النَّاس يَرْجِعُون إلى العُلَمَاء الرَّاسِخين كانت مُشْكِلَاتِهِم تَنْحَلُّ، وكانت قَضَايَاهُم تُحَلُّ بِبَسَاطَةٍ على ضَوْءٍ من كتَاب الله وَسُنَّة رَسُولِه ﷺ.

وَاللَّه أَمَر بذلك فقال سُبْحَانَه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، فَأَمَر الجُهَّال بِسُؤَال أَهْل العِلم؛ لأَنَّ أَهْل العِلم هُم الَّذِين يَقْدِرُون على إجَابَة الأَسْئِلَة الفِقْهِيَّة.

وَقَال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣]، فَأَمَر النَّاس عِنْدَمَا يَحْصُل إِشْكَالٌ أو يَحْصُل أَخْذٌ ورَدٌّ في أَمْرٍ من الأُمُور المُهِمَّةِ أن يَرْجِعُوا إلى الرَّسُول ﷺ، وَأَن يَرْجِعُوا إلى أُولِي الأَمْر منهم أَهْلِ الشَّأْن وَالمَنْزِلَة، وهم أَهْل الرَّأْي وَأَهْلِ الفِقْه وَأَهْلِ الخِبْرَة والتَّجْرِبة، فحينئذٍ يَخْرُجُون إلى نَتِيجَةٍ مَرْضِيَّةٍ: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣].

لَكِن حِينَمَا تَكُون الأُمُور فَوْضَى، وَيَتَوَلَّى الإِجَابَةَ كلُّ من هبَّ وَدَبَّ مِمَّن يَنْتَسِب إلى أَهْل العِلم وهو جَاهِلٌ، أو من عِنْدَه عِلمٌ وَلَكِن ليس عِنْدَه عَمَلٌ، وإنَّما يَتْبَع هَوَاه وَرَغْبَتَه وَرَغْبَةَ الآخَرين وَإِرْضَاءَ الآخَرِين، حِينَئِذٍ يَحْصُل الفَسَاد، كما حَصَل لِبَنِي إِسْرَائِيل لَمَّا ضَلَّ أَحْبَارُهُم وَرُهْبَانُهُم، فحرَّموا ما أَحَلَّ الله وَأَحَلُّوا ما حَرَّم الله، وَأَطَاعَهُم عَامَّةُ النَّاس، فَهَلَك الجَمِيع: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

فَإِذَا صَارَت الأُمُور في أُمُور الفَتْوَى وَأُمُور العِلم فَوْضَى يُجِيب عنها الجُهَّال الَّذِين لا عِلمَ عِنْدَهُم، أو يُجِيب عنها فُسَّاق العُلَمَاء الَّذِين لا يَتَّبِعُون ما أَنْزَل الله على رَسُولِه، وإنَّما يَتَّبِعُون رَغَبَاتِهِم أو رَغَبَاتِ غَيْرِهِم، ويتلمَّسون لِلنَّاس ما يُرْضِيهِم ولو بِسَخَط الله ﷻ، فحينئذٍ يَحْصُل الفَسَاد في الأَرْض، وما هَلَكَت بَنُو إِسْرَائِيل إلَّا بِمِثْل هذا: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الشورى:٢١].

فَلا يَجُوز الرُّجُوع إلى أَهْل الهَوَاء وَأَهْلِ البِدَع، ولا الرُّجُوع إلى الجُهَّال، وإنَّما يَجِب الرُّجُوع إلى أَهْل العِلم وَالعَمَل، أَهْلِ العِلم النَّافِع

وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، وهذا هو الذي بَعَثَ الله به رَسُولَه ﷺ؛ فَإِن الله ﷻ بَعَث رَسُولَه بِالهُدَى وَدِيْن الحَقِّ، فالهُدى هو العِلمُ النَّافِعُ، وَدِيْن الحَقِّ هو العَمَلُ الصَّالِحُ، فَلَابُدَّ من اجْتِمَاع الأَمْرَيْن: العِلمُ النَّافِعُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ، أَمَّا إذا انْفَرَد أَحَدُهُمَا عن الآخَر فكان عَمَلٌ بِدُون عِلمٍ، فهذا طَرِيق أَهْل الضَّلَال، أو كان عِلمٌ بِدُون عَمَلٍ، فهذا طَرِيق المَغْضُوب عَلَيْهِم.

وَاللَّه أَمَرَنَا أن نَسْتَعِيذ به من الطَّرِيقَتَيْن: طَرِيقِ المَغْضُوب عَلَيْهِم، وهم الَّذِين عِنْدَهُم عِلمٌ وليس عِنْدَهُم عَمَلٌ، وَطَرِيقِ الضَّالِّين، وهم الَّذِين عِنْدَهُم عَمَلٌ وليس عِنْدَهُم عِلمٌ، وَأُمِرْنَا بِاتِّبَاع طَرِيق المُنعَم عَلَيْهِم، وهم الَّذِين جَمَعُوا بين العِلمِ النَّافِعِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ.

فَلا تَنْضَبِط الفَتْوَى إلَّا بهذا، يعني بأَنْ يَتَوَلَّاهَا أَهْل العِلم الرَّاسِخِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، فإذا اخْتَلَّ شَرْطٌ من هَذَيْن الشَّرْطَيْن، حَصَل الفَسَاد في الأَرْض، ولن يَقْتَصِر فَسَاد هَؤُلَاء على أَنْفُسِهِم، وإنَّما يَتَنَاوَل هذا عَامَّةَ النَّاس، فلا حَوْل ولا قُوَّة إلَّا بِاللَّه.

فَهَذَا الأَمْرُ خَطِيرٌ وَالوَاجِبُ التَّنَبُّه له، وَالوَاجِبُ على كلّ أَحَد حِينَمَا يُسأل أن يَتَّقِي الله ﷻ فلا يَتَسَرَّع إلى الجَوَاب، فَإِن كان هناك من هو أَعْلَم منه فَلْيُحِلِ السُّؤَالَ إلَيْه، ولقد كان السَّلَف يَتَدَافَعُون الفَتْوَى وهم على عِلمٍ، لَكِن يُرِيدُون أنْ يَتَوَلَّاهَا من هو أَكْبَر منهم وَأَوْثَقُ منهم، وهذا من وَرَعِهِم وَمَعْرِفَتِهِم بِصُعُوبَة المَوْقِف، والله ﷻ يقول: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦]، وَيَقُول لِنَبِيِّه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه:١١٤]. وَإِنْ كان ليس هناك من يَتَوَلَّى الفَتْوَى فَمَن هو أَعْلَم منه عَلَيْه أن يَتَّقِي الله وَأَن يَتَحَرَّى في إجَابَتِه ما يُنْجِيه عند الله هو أولًا ثُمَّ يُنْجِي السَّائِل أيضًا، فَيَعْتَبِر نَفْسَه أَوَّلَ من يَتَضَرَّر بِالفَتْوَى الخَاطِئَةِ.

سُؤَال: يا شَيْخَ صَالِح -حَفِظَكُم الله- نَنْتَقِل الآن إلى جَانِبٍ مُهِمٍّ، أو سُؤَالٍ آخر، أَعْتَقِد وَأَحْسَب أنَّه من المُتعيَّن أن نطرحه على فضيلتكم.

يا شَيْخَ صَالِح، لا شَكَّ أنَّ لِلإِعْلَام دورًا في تَوْجِيه النَّاس وَالتَّأْثِيرِ عَلَيْهِم سلبًا وإيجابًا، **كَيْف تَرَوْن أَهَمِّيَّة المُشَارَكَة من قِبَل طَلَبَة العِلم وَالعُلَمَاء في وَسَائِل الإِعْلَام،** لاسيَّما في هذا الوَقْت الذي يُسَمَّى عَصْرَ الإِعْلَام فَحَسْب؟

- لا شَكَّ أنَّ تَوْجِيه الأُمَّة في العَصْر الحَاضِرِ أَهَمُّ ما يَتَوَلَّاه جهَتَان، **الجِهَة الأُوْلَى:** جِهَة التَّعْلِيم، **وَالجِهَة الثَّانِيَةُ:** جِهَة الإِعْلَام، فَالوَاجِب على هَاتَيْن الجِهَتَيْن أن تعْرِف كلٌّ منهمَا مسئوليتها وَتَأْثِيرَهَا على مُجْتَمَع المُسْلِمِين، **فعلى جِهَة التَّعْلِيم:** أن تَتَّقِيَ الله ﷻ، وَأَن تُوَجِّه شَبَاب المُسْلِمِين وَأَبْنَاءَ المُسْلِمِين إلى ما فيه صَلَاحُهُم وَصَلَاحُ مُجْتَمَعِهِم، وَأَن يَعْتَنُوا بتوجيههم الوُجْهَة السَّلِيمَةَ في عَقِيدَتِهِم وفي عِبَادَاتِهِم وفي مُعَامَلَاتِهِم وفي أَخْلَاقِهِم، وذلك بِالمُحَافَظَة على المَنَاهِج المُسْتَقِيمَة التي وَضَعَهَا أَهْل العِلم وَاسْتَمَرَّت سِنِين طَوِيلَةً، وهي يُسْتَفَاد منها في مَجَال التَّعْلِيم.

وعَلَى المَسْئُولِين عن التَّعْلِيم أن يُحافظوا على هذه المَنَاهِج السَّلِيمَةِ، التي وَضَعَهَا أَهْل العِلم وَأَهْلُ الخِبْرَة لِيَسْتَمِرَّ العَطَاء النَّافِعَ وَالعَطَاءَ الخيْر.

وَالنَّاحِيَةُ الثَّانِيَةُ جِهَة الإِعْلَام، فالإعلام أَهَمُّ نَاحِيَة لأنَّه شَامِلٌ لِلشَّبَاب وَغَيْرِهم، لِلحَاضِرَة وَالبَادِيَةِ، ولأنه يَدْخُل البُيُوت وَيَدْخِل في الدَّكَاكِين وَيَدْخِل في المَرَاكِب: البَرِيَّة وَالبَحْرِيَّة والجوية، وهو يُصَاحِب الإِنْسَان في كلّ حَالَاتِه، حَتَّى على فِرَاشِه؛ فَالإِعْلَام جِهَةٌ مُهِمَّةٌ تنفُذ إلى البُيُوت وإلى أيِّ مَكَان، وتُصاحِب النَّاس، الذُّكُورَ وَالإِنَاثَ، الكِبَارَ وَالصِّغَارَ، وَالحَاضِرَةَ وَالبَادِيَةَ.

فَعَلَى المُتَوَلِّين لِنَاحِيَة الإِعْلَان أن يَتَّقُوا الله ﷻ، وَأَن يُمحِّصوا بَرَامج الإِعْلَام ويوظِّفوها فِيمَا هو نَافِع وَمُفِيد لِلنَّاس في دِينِهِم وَدُنْيَاهُم، وَأَن يُجنِّبوا بَرَامج الإِعْلَام ما هو سَيِّئٌ وما هو مُنْحَرِفٌ وما هو مضْيَعةٌ لِلوَقْت، فَإِنَّ الإِعْلَام إذا صلُح وجَّه الأُمَّة خَيْرَ وِجهةٍ، وإذا حَصَل فيه خَلَلٌ حَصَل الخَلَلُ على جَمِيع النَّاس، وَيَتَوَلَّى كِبْر الإِثْم في ذلك من يَقُومُون على وَسَائِل الإِعْلَام، وإنهم مَسْئُولُون أَمَام الله ﷻ، والنبيُّ ﷺ يقول: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»(١).

فَلا شَكَّ أن القَائِمين على الإِسلام رُعَاةٌ على ما اسْتَرْعَاهُم الله عَلَيْه، وأَنَّهم سيُسألون يوم القِيَامَة، فَالإِعْلَام إذا وُجِّه وِجهةً سَلِيمَةً، صَار أَدَاةً نَافِعَةً وَمُفِيدَةً، وإذا وُجِّه توجيهًا سيِّئًا، امْتَدَّ ضَرَرُه على جَمِيع النَّاس.

وأمَّا العُلَمَاء وَالدُّعَاة إلى الله ﷻ: فَيَجب عَلَيْهِم الدُّخُول في هذا المَجَال، يَجب عَلَيْهِم الدُّخُول في البَرَامج الإِعْلَاميَّة وَأَن يُشَارِكُوا فِيهَا؛ لأَنَّهَا وَسِيلَةٌ عَظِيمَةٌ من وَسَائِل الدَّعْوَة إلى الله ﷻ، فَعَلَيْهِم أنْ ينتهزوا هذه الفُرْصَةَ وأَلَّا يَتْرُكُوهَا لِغَيْرِهِم، بل يَنْتَهِزُون الفُرْصَة وَيَدْخُلُون في هذا المَجَال وَيُشَارِكُون فيه بِأَكْبَر إِسْهَام مُمْكِن، لِيَحْصُل بذلك النَّفْع لِلمُسْلِمِين وَتَعْلِيمُهُم وَالإِجَابَةُ عن مُشْكِلَاتِهِم، وفي تَوْجِيهِهِم لِمَا فيه صَلَاحُهُم وَصلاحُ دِينِهِم، وفي تَحْذِيرِهِم من الشُّرُور ومن الفِتَن الزَّاحفةِ، والدِّعاياتِ المُضَلِّلَة، فَإِن هذا مَجَال أَهْل العِلم وَمَجَالُ أَهْل الدَّعْوَة.

سُؤَال: أَحْسَنْتُم وَأَثَابَكُم الله يا شَيْخ صَالِح. يا شَيْخ صَالِح - حَفِظَكُم الله - الحَقِيقَة يَسُود العَالَم الإِسلاميَّ في الوَقْت الحَاضِرِ العَدِيدُ من مَظَاهِر العَوْدَة وَالرُّجُوعِ إلى الله ﷻ، وهي مَظَاهِرُ مبَشِّرَةٌ ولله

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٢٢٧٨)، ومسلم رقم (١٨٢٩).

الحَمْد. البَعْض يَنْظُر على هذه التَّوَجُّهَات بِحَذَر وأنَّها ليست مُرتكِزةً على عِلم شَرْعِيٍّ أَصِيلٍ؛ ولذلك من المُمْكِن أن تَزُول وَتَتَلَاشَى بين وَقْتٍ وَآخَر، وَالبَعْض يَنْظُر إلى هذه الرَّجْعَةِ، أو ما يَعْرِف في مُصْطَلَح البَعْض: «**بالصَّحْوَةِ الإِسْلَامِيَّةِ**» نَظْرَةَ تَفَاؤُلٍ كَبِيرٍ، يا شَيْخ صَالِح، ما هو تعليقكم على مثل هذا الأَمْر؟

- لا شَكَّ أن هذا الدِّيْن سَيَظْهَر مَهْمَا تَكَالَب الأَعْدَاء عليه ومهما وَقَف ضِدَّه أَهْل الشَّرِّ؛ فإنَّه سَيَظْهَر ويتغلَّب بِإِذْن الله، قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، فَلَابُدَّ أن يَظْهَر هذا الدِّيْن بِسُلطَتِه وَنُفُوذِه، أو بِسُلطَانِه وَدَلِيلِه وَوُضُوحِه على ما خَالَفَه من الأَدْيَان، وعلى من عَارَضَه من المُعَارِضِيْن، فَلَابُدَّ أن تَتَّضِح الحَقِيقَة أمَّا العُقَلَاء مَهْمَا زَيَّف الأَعْدَاء ومَهْمَا روَّجوا ضِدّ هذا الدِّيْن؛ فَإِنَّ شَمْس الحَقِيقَة ستكشف هذا الضَّبَاب الذي روَّجه أَعْدَاء الدِّيْن حَوْل هذا الإسلام وَحَوْل هذا الدِّيْن الذي بَعَث الله به رَسُولَه ﷺ، كما قال الله ﷻ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف:٨]، لابُدَّ من هَذَا.

وأمَّا ما تفضَّلْتَ به من صَحْوَة الشَّبَاب وَرَغْبَتِهِم في الخَيْر، وَكَثْرَةِ التَّائِبين وَالرَّاجِعَيْن إلى الله، فهذا من هذا البَاب الذي ذَكَرنَا، هذا من ظُهُور الدِّيْن وَظُهُورِ الحَقِيقَة، وَأَنَّ النَّاس ملُّوا الآن من المَنَاهِج والمباهج الأُخْرَى والمُغْرِيات، وملُّوا من الكَذِب وَالدَّجْلِ، اتَّجهوا إلى الحَقِيقَة، وليس أَمَامَهُم حَقِيقَةٌ إلَّا هذا الدِّيْنُ، وَغَيْرُه كُلُّه زَخْرَفٌ وزيف وَكُلُّه بَهْرَجٌ وَكُلُّه كَذِبٌ، فَرُجُوع النَّاس إلى هذا الدِّيْن أَمْرٌ حَتْمِيٌّ، وهذا

شَيْءٌ أَخْبَر الله ﷻ عَنْه: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٣٦].

هَذَا -حقيقةً- شَيْءٌ ثَابِتٌ، وَتَوَجُّه الشَّبَاب وَتَوَجُّه النَّاس نَحو الدِّيْن هذا مِمَّا أَخْبَر الله ﷻ عَنْه، وَلَكِن الشَّأْن في اسْتِغْلَال هذا التَّوَجُّه، فَإِن استُغِلَّ هذا التَّوَجُّهُ في الشَّبَاب وَغَيْرِهم نَحْو الدِّيْن استغلالًا حسنًا، وفَقِهُوا في دِين الله ﷻ، وَرَجَع هَؤُلَاء الشَّبَابُ وهؤلاء التَّائِبُون إلى أَهْل العِلم واسترشدوا بِآرَائِهم، صَار هذا الرُّجُوع حقيقيًّا وَاسْتَمَرَّ وأفاد، أَمَّا إذا اسْتَغَلَّ هذا الرجوعَ أَهْلُ الشَّرِّ وَأَهْلُ النِّفَاق، فَوَجَّهُوا هَؤُلَاء الرَّاجِعِين إلى الدِّيْن توجيهًا سيِّئًا، وزيَّفُوا عَلَيْهِم الحَقَائِق بِاسْم الدِّيْن، فَإِن العَاقِبَة سَتَكُون سَيِّئَةً.

فَالخَوَارِج من قَبْلُ كان عِنْدَهُم دِينٌ وَعِنْدُهُم حَمَاسٌ وَعِنْدُهُم مَحَبَّةٌ لِلجِهَاد في سَبِيل الله وغَيْرَةٌ على الدِّيْن، وَعِنْدَهُم عِبَادَةٌ عَظِيمَةٌ من صِيَامٍ وَصَلَاةٍ وَقِرَاءَةِ القُرْآن، ولمَّا لم يَكُونُوا على وَجْهٍ صَحِيحٍ، ولم يرتكز تَوَجُّهُهُم على دِينٍ صَحِيحٍ وفقهٍ في دِين الله، صَار وبالًا عَلَيْهِم، وَحَصَل عَلَيْهِم من النَّكَبَات ما حَصَل، كلُّ هذا بِسَبَب عَدَم التَّوَجُّه الصَّحِيح، وَعَدَمِ الرُّجُوع إلى أَهْل العِلم، وَعَدَمِ الرُّجُوع إلى أَهْل الفِقْه في دِين الله ﷻ لمَّا اسْتَقَلُّوا بِرَأْيِهِم وإيثارهم الأَشْرَار بِاسْم الدِّيْن وَالغَيْرَةِ، فَحَصَل عَلَيْهِم وعلى غَيْرِهِم من النَّكْبَة ما حَصَل.

فَالوَاجِب على أَهْل الصَّحْوَة وعلى الرَّاغِبين في دِين الله ﷻ - نَسْأَل الله أنْ يَزِيدَهُم من الخَيْر وَأَنْ يَزِيدَهُم من الثَّبَات - لَكِن نُرِيد منهم ونُنصِحُهم أنْ يتَّجِهوا إلى العِلم الصَّحِيح، وإلى أَهْل العِلم وإلى تَلَقِّي العِلم عن أَهْلِه، وإلى اسْتِغْلَال فُرْصَة وُجُود العُلَمَاء لِيَنْهَلُوا من عِلمِهِم وَتَوْجِيهِهِم، وَأَن يستشيروا أَهْل الرَّأْي وَأَهْلَ العُقُول السَّلِيمَةِ من كِبَار السِّنِّ ومن أَهْل الخِبْرَة، وألَّا يَسْتَقِلُّوا بِرَأْيِهِم، أو يستغلّهم أَعْدَاؤُهُم من الأَشْرَار بِاسْم الدِّيْن، الَّذِين يُمْكِن أن يُفَسِّرُوا الدِّيْن بِمُحَارَبَة الدِّيْن. هذا شَيْءٌ وَاقِعٌ حيث يُمْكِن أن يُوَظَّف اسْمُ الدِّيْن لِمُحَارَبَة الدِّيْن وَالقَضَاءِ عَلَيْه، كما فعل المُنَافِقُون من قَبْلُ: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]. المَكْر قَدِيمٌ، وَاسْتِغْلَال هذا المكر بِاسْم الدِّيْن قَدِيمٌ، فَعَلَيْنَا أنْ نَنْتَبِهُ لِهَذَا الأَمْر.

فَهَذَا الرُّجُوعُ وهذه الصَّحْوَةُ إن وُجِّهْت توجيهًا صحيحًا أَصْبَحْت خيرًا على أَهْلِهَا وعلى غَيْرِهِم، وَإِن استُغِلَّت استغلالًا سيِّئًا من قِبَل أَهْل الشَّرِّ وَأَهْلِ النِّفَاق ودُعاة الضَّلَال، أو أنَّ أَهْل الصَّحْوَة هَؤُلَاء اعْتَمَدُوا على أَنْفُسِهِم وعلى عِلمِهِم وَزَهِدُوا فِيمَا عند غَيْرِهِم من عِلمٍ، حَصَل الشَّرَّ وَحَصَل الفَسَاد بِاسْم الدِّيْن، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّه.

سُؤَال: أَثَابَكُم الله، أَحْسَنْتُم يا شَيْخ صَالِح. يا شَيْخ صَالِح حَفِظَكُم الله، المَرْأَة المُسْلِمَةُ في هذا الوَقْت تُوَاجِه العَدِيد من السِّهَام المَسْمُومَةِ التي تُحَاوِل المِسَاس بِكرامتها وَعِفَّتِهَا، وإبعادِها عن الطَّرِيق السَّوِيِّ وَالصَّحِيحِ، المَرْأَة المُسْلِمَةُ أَعْتَقِد أَنَّها من أَحْوَج النَّاس إلى أن تَسْتَمع إلى كَلِمَةٍ من فَضِيلَة الشَّيخ صَالِح الفوزان في هذه المُنَاسَبَة.

- **المَرْأَة المُسْلِمَةُ لا شَكَّ أن لَهَا مكانةً عَظِيمَةً في الإسلام**، وفي التَّرْبِيَة وَالتَّوْجِيهِ، وفي القِيَام بعِبْءٍ من أَعْبَاء الحَيَاة، فَالمَرْأَة عَوْنٌ لِلرَّجُل، فَالرَّجُل لا يَسْتَطِيع الِاسْتِقْلَال بِنَفْسِه وبمُهِمَّته إِلَّا وَبِجَانِبه المَرْأَةُ تَقُوم بِدَورِهَا وبمُهِمَّتها، فَمُنْذ أن خَلَق الله آدم -عليه السلام- خَلَق منه زَوْجَه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، أي: يَحْصُل بَيْنَهُمَا السَّكَن، قال ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

- **ومن أَعْظَم فَوَائِد المَرْأَة بِجَانِب الرَّجُل حُصُولُ السَّكَن بين الزَّوْجَيْن، السَّكَن**: يعني السَّكِينَة وَالطُّمَأْنِينَة، وَأَن يَطْمَئِنَّ كلٌّ منهمَا لِلآخَر، فَهُمَا شَرِيكَان يُؤَسِّسان شَرِكَةً عَظِيمَةً وهي البَيْت المُسْلِمُ الذي يَنْشَأ عَنْه الجِيل والأجيالُ المُسْلِمَةُ، فَالرَّجُل يَكْتَسِب وَيَكُدُّ وَيَكْدَحُ وَيُسَافِرُ وَيَتَعَرَّضُ للأخطار في طَلَب العَيْش، وَالمَرْأَةُ في البَيْت تُرَبِّي وَتَصْلُح أَعْمَال البَيْت وَتَحْفَظ البَيْت حَتَّى يَأْتِي صَاحِبُه، تُرَبِّي الأَوْلَاد وترعاهم، وإذا جَاء الزَّوْج مُتْعَبًا ومُثْقَلًا بِالأَعْمَال وَجَدَ أَمَامَه الزَّوْجَة التي يَسْكُن إِلَيْهَا، والتي هَيَّأَت له الرَّاحَة وهيأت له ما يَحْتَاج إِلَيْه، وَبِذَا حَصَل التَّعَاوُن بين الرَّجُل وَالمَرْأَة.

- **وأيضًا الأَوْلَاد الَّذِين يُحَصَّلُون بين الرَّجُل وَالمَرْأَة، من الذي يَتَوَلَّاهُم؟** الرَّجُل يُسَافِر لِطَلَب الرِّزْق وَيَغِيبُ المُدَّة الطَّوِيلَةَ، مَن الذي يَتَوَلَّى هَؤُلَاء الأَطْفَال إِلَّا المَرْأَة، إِلَّا أُمُّهم التي تُرَبِّيهم وَتقوم عَلَيْهِم وَتَسُدّ غَيْبَة وَالِدِهِم؛ ولهذا قال ﷺ: «**وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا**»[1]، مَسْئُولَةٌ عن بَيْت الزَّوْج وما فيه ومن فيه من

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٢٢٧٨)، ومسلم رقم (١٨٢٩).

الذُّرِّيَّة، هي المَسْئُولَة عن ذلك، فهي مسئوليَّةٌ عَظِيمَةٌ، وَلَهَا مَكَانَةٌ عَظِيمَةٌ وَلَهَا أَجْرٌ عَظِيمٌ، إذا أَطَاعَت زَوْجَهَا وصلَّت فَرضَهَا وَأَطَاعَت رَبَّهَا دَخلَت جَنَّة رَبِّهَا، فهي عليها مسئوليَّةٌ عَظِيمَةٌ، وهي تُؤَدِّي دورًا مُهِمًّا في المُجْتَمِع، وَلَها أَجْرٌ عَظِيمٌ إذا قامت بِوَظِيفَتِهَا في الحَيَاة.

أَمَّا إذا ضَيَّعْت وَظِيفتُها، ضَيَّعَت رَعِيَّتَهَا التي هي رَاعِيَةٌ لَهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْهَا، وَخَرَجْت إلى عَمَل غير عَمَلِهَا فَإِنَّهَا مَسْئُولَةٌ أَمَام الله، فَيَسْأَلُهَا الله يوم القِيَامَة عن هذه الرَّعِيَّة التي ضَيَّعَتْها وَخَرَجْت لِطَلَب الأَعْمَال هُنَا وهناك، وَضَيَّعَت عَمَل البَيْت.

المَرْأَة لا شَكَّ لَهَا دَورٌ عَظِيمٌ، فَإِنَّهَا هي الأُمُّ وهي الزَّوْجَة وهي القَرِيبَة، وهي محلُّ الأَمَانَة ومحلُّ الذِّمَّة في غِيَاب الزَّوْج، وحتَّى في حَضْرَة الزَّوْج هناك أَعْمَال لا يَقُوم بها الزَّوْج ولا يَدْرِي عَنْهَا شيء؛ لأَنَّهَا هي من عَمَل المَرْأَة، فمُهِمَّتها عَظِيمَةٌ.

وَأَعْدَاء الإِسلام يُحَاوِلُون أن يَصْرِفُوا المَرْأَة عمَّا هُيِّئت له، وَأَن يُوَلُّوهَا مُهِمَّةً غير مُهِمَّتها، وبهذا يَحْصُل الفَسَاد في المُجْتَمَع والنَّكْسَةُ العَظِيمَةُ، فَالمَرْأَة إذا خَرَجَت عن طَوْرِهَا وَتَوَلَّت عملًا غيرَ عَمَلِهَا، هي أَوَّلًا لا تُنْتِج في هذا العَمَل كما يَنْبَغِي، وثانيًا هي تَضِيع مسئوليَّتها وَرِعَايَتَهَا المُسْتَرْعَاةَ عليها أَمَام الله ﷻ، بِالتَّالِي يَضِيع المُجْتَمَع بِأَسْرِه وَتضيع بُيُوتُه، فإذا ضَاعَت البُيُوت وَالأُسَر ضَاع المُجْتَمَع كُلُّه، وهذا ما يُرِيدُه أَعْدَاء الإِسلام، يُرِيدُون أن يَتَّخِذُوا من المَرْأَة سِلاحًا يَطْعَنُون به المُسْلِمِين وهم لا يَشْعُرُون، بِحُجَّة تَثْقِيف المَرْأَة، وأنها قَرِينَة الرَّجُل، وَأَن. . . وَأَن. . . إلى آخِره.

نَعَم، نَحْن نَقُول: المَرْأَة قَرِينَة الرَّجُل، المَرْأَة لا شَكَّ أَنَّها إِنْسَان وَأَن

لَهَا كرامتَها، وَأَن لَهَا احترامَها، وَأَن لَهَا أعمالَها الخَاصَّةَ بها، وإذا ضَيَّعْت هذه المُهِمَّات خسرنا نِصْف المُجْتَمَع كما يَقُولُون. أمَّا إذا أَخْرَجْنَاهَا من بَيْتِهَا ووَلَّيْناها عملًا غيرَ عَمَلِهَا، هُنَا ضَاع المُجْتَمَع كُلُّه، فَيَجِب التَّنَبُّه من هذه الدِّعايات المُغْرِضة، وهذه الأَفْكَار الخَبِيثَة التي تُرِيد إفْسَاد المُسْلِمين بِسِلَاح المَرْأَة.

سُؤَال: أَحْسَنْتُم يا شَيْخ صَالِح وأَثَابَكُم الله. يا شَيْخ صَالِح، لا شَكَّ أن هناك في الوَقْت الحَاضِرِ العَدِيدَ من المَفَاهِيم التي حَاوَل البَعْض المِسَاسَ بها أو تَأْكِيدَهَا، وهناك قضيةٌ أو ما تُعْرَف بِالعَلَاقَة بين الحَاكِم وَالمَحْكُوم، وَالعَلَاقَة بين وُلَاة الأَمْر وَالرَّعِيَّة، حَاوَل البَعْض إيجَادَ شَيْء من اللُّبْس وَالتَّشْكِيك في هذه العَلَاقَة، وَظَهر في السَّاحَة العَدِيدُ من المَفَاهِيم والأغلاطِ في هذا الأَمْر، بوُدِّي من الشَّيخ صَالِح الفوزان أن يَتَفَضَّل ويتكرَّم مشكورًا بِبَيَان البَيَان، البَيَانِ الشَّرْعِيِّ لِهَذِه المَسْأَلَة المُهِمَّة.

- لا شَكَّ أن هذا جُزْءٌ من المَكْر الخَبِيثِ الذي يَحُوكُه أَعْدَاء الإِسلام، هُم حاكوا قَضِيَّة المَرْأَة، وحاكوا أيضًا قَضِيَّة العَلَاقَة بين الحَاكِم وَالمَحْكُوم؛ لأَنَّهُم يَعْلَمُون أنَّه إذا حَصَل الوِئَام بين الحَاكِم المُسْلِم وَالرَّعِيَّة المُسْلِمَة حَصَل الِاجْتِمَاع، وحَصَلَت القُوَّة، فَحَصَلَت المُوَاجَهَة مع الأَعْدَاء، فهم يُرِيدُون أن يقوِّضوا هذا البُنْيَان، وَأَن يَفْصِلُوا بين الحَاكِم وبين المحكومين حَتَّى يتنافر المُجْتَمَع، وحتَّى يَسْهُل عَلَيْهِم ابْتِلَاع المُسْلِمِين وَالتَّدَخُّلُ في شُئُونِهِم، الله ﷻ أَوْلَى هذا الأَمْرَ عِنَايَةً عَظِيمَةً، قال سُبْحَانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

عِنْدَنَا آيَتَان كما يقول شَيْخُ الإسلام ابْنُ تَيْمِيَّة، آيَتَان: وَاحِدَةٌ لِلرَّاعِي وَوَاحِدَةٌ لِلرَّعِيَّة.

فَالَّتِي لِلرَّاعِي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء:٥٨]، هذه تَوْجِيهٌ لِلرُّعَاة: ﴿أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء:٥٨].

وَالآيَة التي بَعْدَهَا في الرَّعِيَّة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

فَلَو أن الرُّعَاة وَالرَّعَايَا عَمِلُوا بهاتَيْن الآيَتَيْن لَحَصَل الخَيْر الكَثِيرُ، ولَانْسَدّ على دُعَاة الفِتْنَة ودُعَاة الشَّرِّ كلُّ طَرِيقٍ لِلإِفْسَاد؛ ولذلك كَتَب شَيْخُ الإسلام ابْنُ تَيْمِيَّة على هَاتَيْن الآيَتَيْن كتَابًا مُستقلًّا أَسْمَاه: «**السِّيَاسَة الشَّرْعِيَّة في إِصْلَاح الرَّاعِي وَالرَّعِيَّة**»، وهو كتَابٌ مَطْبُوعٌ وَنَافِعٌ ومُتداوَلٌ يَجب الرُّجُوع إِلَيْه في هذا الأَمْر المُهِمِّ.

فَلا شكَّ أن طَاعَة وُلَاة أُمُور المُسْلِمِين هي أَمْرٌ مُهِمٌّ، وهي طَاعَةٌ لِلَّه وَطَاعَةٌ لِلرَّسُول ﷺ.

قَال ﷺ: «**مَنْ أَطَاعَ الأَمِيْرُ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي**»(١).

وَأَمَر بِطَاعَتِهِم ولو جَارُوا ولو ظَلَمُوا ما لم يَرْتَكِبُوا مُكفِّرًا ناقضًا من نَوَاقِض الإِسلام؛ لِمَا في ذلك من المَصْلَحَة العَامَّة، وَلِمَا في الخُرُوج عَلَيْهِم من المَفَاسِد العَظِيمَةِ، وَإِنْ كان بِحُجَّة الأَمْر بِالمَعْرُوف وَالنَّهْي عن المُنْكَر، إِلَّا أَنَّ ما يَتَرَتَّب على الخُرُوج عَلَيْهِم من سَفْك الدِّمَاء وَتَفْرِيقِ

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٢٧٩٧)، ومسلم رقم (١٨٣٥).

الكَلِمَة وَتَسَلُّطِ الأَعْدَاء أَعْظَمُ مِمَّا يَحْصُل من إنْكَار المُنْكَر الجُزْئِيِّ، وَإِنْكَار المُنْكَر إذا تَرَتَّب عَلَيْه مُنْكَرٌ أَعْظَمُ فإنَّه لا يَجُوز، بل يَجِب ارْتِكَاب أخفِّ الضَّرَرَيْن لِدَفْع أَعْلاهُمَا.

فَالوَاجِب طَاعَتُهِم إلَّا إذا أَمَرُوا بِمَعْصِيَة الله، فَإِنَّهُم لا يُطَاعُون في المَعْصِيَة، لَكِن يُطَاعُون في غَيْرِهَا من الأَوَامِر، قال ﷺ: « **لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ في مَعْصِيَةِ الخَالِقِ** »(١)، وقال ﷺ: « **إِنَّمَا الطَّاعَةُ في المَعْرُوفِ** »(٢) يعني تُجتنب المَعْصِيَةُ لَكِن يُطَاعُون في غَيْرِهَا مِمَّا ليس فيه مَعْصِيَةٌ؛ لِمَا في ذلك من جَمْع الكَلِمَة وَحَزْم الرَّعِيَّة.

يَقُول شَيْخُ الإِسلام كلامًا مَعْنَاه: « **ما خَرَجَت أُمَّةٌ على رُعَاتِهَا إِلَّا حَصَل من الفَسَاد ما هو أَعْظَم من مَفْسَدَة البَقَاء على طَاعَتِهِم مع ما فيه من المَعْصِيَة** ». هذه قَاعِدَة مَعْرُوفَة.

وَإِذَا تَتَبَّعْتَ وَاقِع العَالَم وَجَدْت هذا صحيحًا حَتَّى عند الكُفَّار، فَالكُفَّار إذا أَطَاعُوا رُؤَسَاءَهُم وَانْقَادُوا لِوُلَاتِهم، حَصَل لهم الأَمْن، وإذا حَصَل منهم نِزَاعٌ بَيْنَهُم وبين رُعَاتِهم، حَصَل الفَسَاد، فَكَيْف بِالمُسْلِمِين؟ وإذا استقرأْتَ التَّارِيخَ وجدتَ ما يَحْصُل من المَفَاسِد في الخُرُوج على الوُلَاة أعظمَ من المَفَاسِد في البَقَاء على طَاعَتِهِم مع مَعْصِيَةٍ جُزْئِيَّةٍ.

أَمَّا إذا وَصَل الأَمْر في طاعة الوُلَاة إلى الكُفْر، بِالخُرُوج عن الإِسلام، فَإِنَّهَا لا تَجُوز طَاعَتُهِم: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]. وَالنَّبِيُّ ﷺ يقول: « **اسْمَعُوا وَأَطِيْعُوا إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَّاحًا عِنْدَكُم عَلَيْه مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ** »(٣).

---

(١) أخرجه: أحمد رقم (١٠٩٥)، والقضاعي في رقم (٨٧٣)، والطبراني في « الكبير » رقم (٣٨١)

(٢) أخرجه: البخاري رقم (٦٧٢٦)، ومسلم رقم (١٨٤٠).

(٣) أخرجه: البخاري رقم (٦٦٤٧)، ومسلم رقم (١٧٠٩).

فَإِذَا قَرَأْت تَارِيخ المُسْلِمِين، وما حَصَل من الخَوَارِج وَالمُعْتَزِلَةِ في مُنَازَعَتِهِم لِوُلَاة الأُمُور، وما حَصَل من الوَيْلات وَالحُرُوبِ، وما حَصَل من تسلُّط الأَعْدَاء وَسَفْكٍ لِلدِّمَاء، عَرَفْت قِيْمَة أوامر الله وأوامرِ الرَّسول ﷺ بالسَّمْع والطَّاعةِ واجتماعِ الكلمة.

أَسْأَل الله ﷻ أن يُوَفِّقنَا جميعًا، وَأَن يُوَفِّق المُسْلِمِين لِمَا فيه الخَيْر وَالصَّلَاحُ في دِينِهِم وَدُنْيَاهُم، وعلى المُسْلِمِين جميعًا أن يَعْرِفُوا وَقْتَهُم وَأَن يَعْرِفُوا مَكَانَتَهُم وَيَعْرِفُوا زَمَانَهُم، وَيَعْرِفُوا العدُوَّ من الصِّدِّيق، عَلَيْهِم أن يَعْرِفُوا العَدُوَّ من الصِّدِّيق، وَأَن يَقْبَلُوا من النَّاصِح وَأَن يَرْفُضُوا العَدُوَّ ولو تَظَاهَر لهم بمَظْهَر النَّاصِح وَمَظْهَرِ المُشْفِق وَمَظْهَرِ الصِّدِّيق، فَإِن العَدُوَّ لا يكون صديقًا أبدًا مَهْمَا تَظَاهَر، وَلَكِنّ النَّاصِح هو الصِّدِّيق في الحَقِيقَة وَإِنْ رَأَيْت منه ما لا تَقْبَلُه في أَوَّل الأَمْر، يعني لو وَاجَهَك بِشَيْءٍ تَكْرَهُه من أخطائك، فإنَّه خَيْرٌ لَك مِمَّن يَمْدَحُك وَيُثْنِي على جَمِيع أَعْمَالِك، فالذي يَذْكُر لَك شيئًا من عُيُوبِك هذا هو النَّاصِح، وهذا خَيْرٌ لَك، فإنك إن تكرَهَ بَعْض مُصارحتِه لَك خَيْرٌ لَك من هذا الذي يَتَمَلَّق لَك ويَمْدَحُك وَيُزَكِّي جَمِيع أَعْمَالِك، هذا هو الصِّدِّيق في الحَقِيقَة.

وَالمُنَافِق والغاشُّ هو عَدُوٌّ وَإِنّ تَظَاهَر لَك بمَظْهَر الصَّدِّيق وَالنَّاصِح، وَعَوَاقِب الأُمُور تُبَيِّن هَذَا.

فعلى المُسْلِمِين أن يَقْبَلُوا من النَّاصِحِين، ولهذا لَمَّا حَصَل الهَلَاك على قَوْم صَالِح ﵇ وأخذتْهم الصَّيْحَة: ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٧٩] هكذا، فَالوَاجِب على المُسْلِمِين أن يَعْرِفُوا هَذَا.

وَفَّق الله الجَمِيع لِمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَصَلَّى الله وَسَلَّم على نَبِيِّنَا مُحمَّدٍ، وعلى آلِه وَأَصْحَابه أَجْمَعِين.

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لِلَّه ربِّ العَالَمِين، والصَّلاة والسَّلام على رَسُول الله وعلى آلِه وَأَصْحَابه ومن والاهُ.

أمَّا بعد:

فإنَّ الإِيمَان هو أَحَد مَرَاتِب الدِّيْن؛ لأنَّ دِين الإِسلام على ثَلَاث مَرَاتِبَ كما جَاء ذلك في حَدِيث سُؤَال جِبْرِيل ﷺ للنَّبِيِّ ﷺ؛ حيث سَأَله عن الإِسلام، ثمَّ سَأَله عن الإِيمَان، ثمَّ سَأَله عن الإحسان، ولمَّا انْتَهى وَخَرَج قال النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابه: «**أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلُ؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**»[1]، وكان قد أَتَاهُم في صُورَة رَجُلٍ طالبٍ لِلعِلم، فدلَّ هذا الحَدِيث على أن الدِّين يَتَكَوَّن من ثَلَاث مَرَاتِبَ:

الأُوْلَى: الإِسلام.

الثَّانِيَة: الإِيمَان.

الثَّالِثَة: الإِحْسَان.

وكلُّ مَرْتَبَةٍ أَعْلَى من التي قَبْلهَا، وَالمَقْصُود الآن هي المَرْتَبَة الثَّانِيَةُ وهي الإِيمَان، فَقَوْل الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ: «**أُصُول الإِيمَان**»؛ أي: أدلَّته؛ لأنّ الأَصْل عند الأُصوليِّين هو الدَّليل، ففي هذا الكتَاب ذكر الشَّيخ فيه أَدِلَّة الإِيمَان من الأَحَادِيث الوَارِدَة عن النَّبِيِّ ﷺ.

وَالإِيمَان في اللُّغَة: التَّصديق، يُقَال: آمَن له؛ أي: صدَّقه، وكذا في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، أي: صدَّقه،

(١) أخرجه: البخاري رقم (٥٠)، ومسلم رقم (٨).

حيث صدَّق لوطٌ إبراهيمَ ﷺ، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف:١٧]، أي: بمُصدِّقٍ لِما قلناه لَك. هذا مَفْهُوم الإِيمَان لُغَةً.

وأمَّا الإِيمَان شرعًا: فقد عرَّفه أَهْل السُّنة وَالجَماعَة بِأَنَّه: قولٌ بِاللِّسَان، وَاعْتِقَادٌ في القَلب، وعملٌ بِالجَوَارِح، يَزِيد بِالطَّاعَة وَيَنْقُص بِالمَعْصِيَة.

وهذا التَّعْرِيف مَأْخُوذٌ من الكتَاب والسُّنَّةِ، فَتَعْرِيفُه بهذا التَّعْرِيف إنَّما هومن باب الحَقِيقَة الشَّرْعِيَّةِ؛ لأنّ الحَقَائِق ثَلاثٌ: حَقِيقَةٌ لُغَوِيَّةٌ، وَحَقِيقَةٌ شَرْعِيَّةٌ، وَحَقِيقَةٌ عُرْفِيَّةٌ. وَالحَقِيقَة الشَّرْعِيَّةُ هي التي جَاء بها الشَّرْع، وقد جَاء الشَّرْع بأَنَّ الإِيمَان يَتكَوَّن من هذه الأَشْيَاء الثَّلاثَةِ: نُطقٌ بِاللِّسَان، واعتقادٌ بِالقَلب، وعملٌ بِالجَوَارِح، ولابُدَّ من اجْتِمَاع هذه الأُمُور الثَّلاثَةِ.

فليس الإِيمَان هو نُطقٌ بِاللِّسَان فَقَط كما تَقُول الكَرَّاميَّة، وليس هو اعْتِقَادٌ بِالقَلب فَقَط كما تَقُول الأَشَاعِرَة، وليس هو النُّطق بِاللِّسَان وَالِاعْتِقَاد بِالقَلب كما تَقُول الحَنَفِيَّة، وإنَّما هو بِمَجْمُوع الثَّلاثَة معًا: نُطْقٌ بِاللِّسَان، وَاعْتِقَادٌ بِالقَلب، وعَمَلٌ بِالجَوَارِح، يَزِيد بِالطَّاعَة وَيَنْقُص بِالمَعْصِيَة؛ فإذا عَمَل الإِنْسَان الطَّاعَات زَاد إِيمَانه.

وكما قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢].

وَقَال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤]؛ وكلَّما عَمل الإِنْسَان طاعةً زَاد إِيمَانه حَتَّى يعظُم هذا الإِيمَان، وكلَّما عَمَل

مَعْصِيَةً فإنَّه يَضْعُف إِيمَانه وَيَنْقُص، حَتَّى إنَّه لِيَصِل إلى مِقْدَار حبَّة الخَرْدَل أو أقلَّ كَلَّمَا ازْدَاد في عَمَل المَعَاصِي.

فَالنَّاس لَيْسُوا في الإِيمَان سواءً؛ فَمِنْهُم من إِيمَانه عَظِيمٌ، ومنهم من إِيمَانه قَلِيلٌ، وقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ؛ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**»(١)؛ فدلَّ هذا على أنَّ الإِيمَان يكون ضعيفًا ويكون أضعفَ.

وكذلك جَاء في الحَدِيث أنَّ الله تعالى يقول يوم القِيَامَة: «**أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ**»(٢)؛ يعني: أَقَلَّ الناسِ إِيمَانًا، فإنَّه يَخْرُج من النَّار، ولا يَبْقَى في النَّار إلَّا من ليس في قَلْبِه إِيمَانٌ أصلًا، من الكفَّار والمُنافقين وَالمَلَاحِدَة، وأمَّا من كان في قَلْبِه إِيمَانٌ ولو عُذِّب في النَّار وَمَكَث فِيهَا مدَّةً، فإنَّ الله يُخْرِجُه منها بِإِيمَانه ولوكان ضعيفًا.

وَالشَّاهِد من كلِّ هذا هو بَيَان أنَّ الإِيمَان قد يكون ضعيفًا؛ قال تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، فدلَّ هذا على أنَّ هناك إِيمَانًا ضعيفًا يكون أَقْرَبَ إلى الكُفْر، هذا معنى قَوْلهم: «**وَيَنْقُص بِالمَعْصِيَة**»، وهذا تَعْرِيف دَقِيق مأخوذٌ من النُّصُوص.

وَالإِيمَان له أَرْكَانٌ بيَّنها النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِه: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْيَومِ الْآخِرِ، وَبِالقَدَر خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(٣).

وَالإِيمَان كَذَلِك له شُعبٌ تَزِيد عَلى سِتِّين أو سَبْعِين شُعْبَة، كما قال ﷺ: «**الإِيْمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أو بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً:**

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٤٩).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (٢٢)، ومسلم رقم (١٨٤).

(٣) أخرجه: مسلم رقم (٨).

أَعْلَاهَا: قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا: إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيْمَانِ»⁽¹⁾؛ فشُعَب الإِيمَان وخِصاله كَثِيرَةٌ.

وهذا الكتَاب يُبيِّن فيه الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: **ما وَرَد عن الرَّسُول ﷺ من خِصَال الإِيمَان وشُعَبِه.**

وَأَوَّل هذه الشُّعَب: مَعْرِفَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وذلك بأنْ يَعْرِف العَبْد ربَّه بِأَسْمَائِه وَصِفَاتِه الوَارِدَةِ بِكتَاب الله تعالى وسُنَّةِ رَسُولِه ﷺ؛ لأنَّ الله تعرَّف إلى عِبَادِه بِأَسْمَائِه وَصِفَاتِه، وهو أَعْلَم بِنَفْسِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَمَا سمَّى الله تعالى به نفسَه وَجَب الإِيمَان به، وبه يُعرف جَلَّ وَعَلَا، فمثلًا يُعرف تعالى بِأَنَّه الله الذي لا إِلَه إلَّا هو الحيُّ، القَيُّومُ، الرَّحمنُ، الرَّحيمُ، العَزِيزُ، الحَكِيمُ، فهذه كُلهَا أَسْمَاء الله جَلَّ وَعَلَا.

وأمَّا صِفَاتُه: فَكُلُّ اسْمٍ من أَسْمَائِه يتضمَّن صِفَةً، فالعليم يتضمَّن العِلم، وَالحَكِيم يتضمَّن الحِكْمَة، وَالرَّحِيم يتضمَّن الرَّحمة، وَالكَرِيم يتضمَّن الكَرْم، وَالعَظِيم يتضمَّن العَظَمَة، وهكذا، فَأَسْمَاء الله تعالى ليست أَسْمَاءً مجرَّدةً، وإنَّما هي أَسْمَاءٌ حُسنى وعظيمةٌ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فَوَصَفَهَا بِأَنَّها حُسنى، فَكُلُّ اسْمٍ منها يتضمَّن صفةً من صِفَاتِه جَلَّ وَعَلَا؛ حيث قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ فَالإِنْسَان يعرف الله جَلَّ وَعَلَا وَيَدْعُوه بِأَسْمَائِه وَصِفَاتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَهَذِه الأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ تَوْقِيفِيَّةٌ، فلا أَحَد يُسمِّي الله إلَّا بِمَا سمَّى به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نفسَه، أو سمَّاه به رسولُه، فلا أَحَد أَعْلَم بِاللَّه من الله جَلَّ وَعَلَا، ولا أَحَد أعلمُ بِاللَّه من رَسُول الله ﷺ؛ فَلِذَلِك لا يَجُوز وَصفُ الله

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٣٥).

تعالى أو تَسْمِيَتُه إلَّا بِمَا وَرَدَ في كتَاب الله ﷻ، وسُنَّة رَسُولِه ﷺ؛ لأنَّ الله ﷻ أعلمُ بِنَفْسِه وبغيره، وأحسنُ حديثًا من خَلقه، فَنَحْن نَعْرِف الله بِأَسْمَائِه وَصِفَاتِه ﷻ.



قال الشَّيخ الإمام المجدِّد مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّه تعالى:

بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نَسْتَعِين

بَاب مَعْرِفَة الله تعالى وَالإِيمَان به

عن أَبِي هُرَيْرَة ﵁ قال: قال رَسُول الله ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيْهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ»(١). [١]

---

[١] هذا الحَدِيث من الأَحَادِيث القُدْسِيَّة، وهو ما يَرْوِيه النَّبِيُّ ﷺ عن ربِّه، فَلَفْظُه ومعناه من الله ﷻ، فتكلَّم الله به وَرَواه رَسُولِه ﷺ وبلَّغه لِأُمَّتِه.

وقولُه: «قَالَ اللهُ تَعَالَى» فيه إِثْبَات القَوْل وَالكَلَام لِلَّه تَعَالَى، وهذه صِفَة من صِفَاتِه ﷻ.

وقولُه: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ» فيه إِثْبَات الغِنى لِلَّه ﷿، فالله ﷻ يقول: ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨]؛ فالله تعالى غنيٌّ عن خَلقه لا يَحْتَاج إلى مُعينٍ ولا إلى شَرِيك ولا إلى ظَهِير، فهو غَنِيٌّ عن خَلقه، وخلقُهُ مُحْتَاجُون إِلَيْه؛ قال سُبْحَانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فَاطِر: ١٥] فهذا فيه وَصْفُ الله بِالغِنَى، وفيه نَفْي الشِّرك عَنْه ﷻ؛ إذ ليس له شَرِيكٌ في المُلك وليس له شَرِيكٌ في العِبَادَة، ولا في أَسْمَائِه وَصِفَاتِه، فالله وَاحِدٌ

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٩٨٥).

نَفْي النَّوْم عن الله تعالى

وعن أَبِي مُوسَى ﵁ قال: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ ويَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُه مِنْ خَلْقِهِ»[1]. [٢]

أَحدٌ، فَردٌ صَمَدٌ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ٣- ٤]، هذه صِفَة الله ﷻ. وَلَمَّا قال المُشْرِكون للنَّبِيِّ ﷺ: صِفْ لَنَا ربَّك، أَنْزَل الله هذه السُّورَة[2].

فَفِي هذا تنزيهُ الله -تعالى- عن الشِّرك، وأنَّ العَمَل الذي يَقَع فيه الشِّرك لا يتقبَّله الله؛ ولهذا قال كما في هذا الحَدِيث القُدْسِيِّ: «**تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ**»، فَالعَمَل الذي فيه شِرْكٌ لا يَقْبَلُه الله تَعَالَى، وهو مَرْدُودٌ على صَاحِبِه وَبَاطِلٌ، فهو -سُبْحَانَه- لا يَقْبَل من الأَعْمَال إلَّا ما كان خالصًا لِوَجْهِه الكَرِيم، وكان صوابًا على سُنَّة نَبِيِّه ﷺ.

[٢] هذا حَدِيث عَظِيمٌ، فيه تعريفٌ بِاَللَّه ﷻ، فَقوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَنَامُ**» فقد نَفَى الله تعالى عن نَفْسِه النَّوْم في القُرْآن الكَرِيم فقال سُبْحَانَه: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ لأنَّ النَّوْم مَوْتَةٌ صُغْرَى، ولأنَّ النَّوم ضَعْفٌ في النَّائِم، والله يُنزَّه عن ذلك، وذلك لِكَمَال

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (١٧٩).

(٢) أخرجه: ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٤٠) عن أبي بن كعب ﵁ موقوفًا.

حَيَاتِه ﷻ؛ ولهذا قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فهو سُبْحَانَه لِكَمَال حَيَاتِه وَلِكَمَال قيوميته ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ﴾ [البقرة: ٢٥٥]: وهي النُّعاس الخَفِيفُ ﴿وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] مُستغرَق، فهو سُبْحَانَه منزَّه عن ذلك؛ لأنَّ النَّوم من صِفَات البَشَر وَالمَخْلُوقِين، وهو صفةُ نقص.

وقوله ﷺ: «**وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ**» يَعْنِي: لا يَلِيق به ﷻ أن يَنَام؛ لأَنَّه الكَامِل في حَيَاتِه وقيُّوميَّته ﷻ، فهو مُنزَّهٌ عن هذه الصِّفَة، فلا يَنْبَغِي أن يَنَام.

وقولُه: «**يَخْفِضُ القِسْطَ ويَرْفَعُهُ**» قوله: «**يَخْفِضُ القِسْطَ**» بِمَعْنَى أَنَّه ينزِّل على عِبَادِه أَرْزَاقَهُم وما كَتَبَه سُبْحَانَه لهم، والقِسط: العَدْل وَالمِيزَان، وقوله: «**ويَرْفَعُهُ**» بِمَعْنَى أَنَّه يُرفع إِلَيْه العَمَلُ الذي اكْتَسَبَه بَنُو آدَم، والله ﷻ دائمًا هذه صِفَتُه، يُنزِّل الأَرْزَاق وَالمَقَادِير على عِبَادِه، وتُرفع إِلَيْه الأَعْمَالُ، خيرُها وشرُّها، صَالِحُهَا وسيِّئُها؛ فهذا فيه تَنْزِيه الله سُبْحَانَه عن النَّوم، ووَصفُه بِالحَيَاة الكَامِلَة، ووصفُه ﷻ بِأَنَّه يُدبِّر أُمُور الخَلق، ويُحصي أَعْمَالَهُم؛ لِيُجازِيهم بها يوم القِيَامَة.

وقوله ﷺ: «**يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ**» هذا من عَمَل الحَفَظَة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢].

وفي الحَدِيث: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ في صَلَاةِ الْعَصْرِ وَصَلَاةِ الفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ،**

فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»[1].

وَلِهَذَا قال ﷻ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]؛ أي: محضورًا، تَحْضُرُه مَلَائِكَة اللَّيْل وَمَلَائِكَةُ النَّهَار، فَيَجْتَمِعُون في صَلَاة العَصْر وَصَلَاةِ الفَجْر كما في الحَدِيث، ولهذا كانت هَاتَان الصَّلَاتَان أَفْضَلَ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ.

وَقَال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ [ق: ٣٩] أي: الفَجْر ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩]، أي العَصْر، فَفِيهِمَا فَضِيلَةٌ على غيرهما لِحُضُور المَلَائِكَة فِيهِمَا.

وقوله ﷺ: «حِجَابُهُ النُّور، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُه مِنْ خَلْقِهِ» هذا فيه وَصْفُ الله ﷻ بالنُّور؛ **والنُّور على قسمين:**

١- نورٌ هو من صِفَات الله ﷻ؛ أي: نُور الله ﷷ.

٢- ونورٌ مَخْلُوقٌ، كَنُور الشَّمْس وَنُورِ القَمَر.

وهناك نُورٌ آخَرُ وهو نُور الوَحْي؛ فالله ﷻ هو النُّور، ومنه النُّور، وَنُور الله ﷻ قد حَجَبه عن رُؤْيَة عِبَادِه له، لأَنَّهم لا يَسْتَطِيعُون رُؤْيَته ﷻ في الدُّنْيَا، ولو تجلَّى لِشَيْءٍ من خَلقِه لاحترق.

وفي قِصَّة مُوسَى ﵇ لمَّا جَاء لِمَوْعِد الله له يتلقَّى منه التَّوْرَاة أوضحُ الدَّلِيل على ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٥٣٠)، ومسلم رقم (٦٣٢).

رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ [الأعراف: ١٤٣] فهذا الجَبَل الجَمَادُ الصُّلبُ لمَّا تجلَّى الله له اندكَّ وصار تُرابًا وَعِنْدهَا ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، أي: مغشيًّا عَلَيْه ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فَلا أَحَد في هذه الدُّنْيَا يَسْتَطِيع أن يَرَى الله ﷻ؛ لأنَّ حِجَابَه النُّور.

وفي لَيْلَة المِعْرَاج سُئِل النَّبِيُّ ﷺ: هل رَأَيْت ربَّك؟ قال «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**»[1]؛ وذلك لأَنَّه سُبْحَانَه حِجَابُه النُّور، فلا يَرَاه أَحَدٌ في هذه الدُّنيا لا النَّبِيُّ ﷺ ولا غَيْرُه؛ إذ الخَلق لا يَسْتَطِيعُون رُؤْيَتَه لِعَظَمَتِه ﷻ؛ ولهذا قال: «**لَوْ كَشَفَهُ**» أي: لو كُشِف الحِجَاب «**لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ**» أي: نُور وَجْهه وَجَلَالِه «**مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُه مِنْ خَلْقِهِ**».

فَهَذَا فيه وَصْفُ الله ﷻ بأنَّ له حجابًا يَحْتَجِب به عن المَخْلُوقَات؛ لأنَّ المَخْلُوقَات لا تُطِيق رُؤْيَة الله ﷻ في هذه الدُّنيا.

وفي الحَدِيث إثْبَات البَصَر لِلَّه ﷻ؛ لِقَوْلِه ﷺ: «**مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُه**»، ولقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨- ٢١٩]. فهو ﷻ يَرَى ويُبصر عِبَادَه فلا يَحْجُبُه عَنْهُم شَيْءٌ، لا جُدْرَانٌ ولا حُصُونٌ، ولا ظُلمةٌ ولا سَتَائِرُ ولا أيُّ شَيْءٍ، فيراهم أَيْنَمَا كانوا.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (١٧٨).

مَا جَاء في أن لِلّه يمينًا

وعن أَبِي هُرَيْرَة ﷺ مرفوعًا: «يَمِينُ اللهِ مَلْأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيلَ والنَّهارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَالْقِسْطُ بِيَدِهِ الْأُخْرَى؛ يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ»[1]. [٣]

فَهَذَا الحَدِيث حَدِيثٌ عَظِيمٌ فيه - إضافةٌ إلى ما سَبَق - وصْفُ الله ﷻ بالحِجَاب، وأنَّه نُورٌ، وأنَّه لو كُشِف هذا الحِجَابُ لَاحْتَرَق ما يَنْتَهِي إلَيْه بَصَرُه من خَلقِه، وَبَصَر الله ﷻ لا يَحْجُبُه شَيْءٌ، وفيه بَيَان الحِكْمَة من الحِجَاب وهي كما جَاء في هذا الحَدِيث خشْيةَ أن يَحْتَرِق ما انْتَهى إلَيْه بَصَرُه سُبْحَانَه من خَلقِه، وَأَن المَخْلُوقَات لا تَسْتَطِيع مُقَابَلَة جَلَال الله ﷻ لِعَظَمَتِه.

وأمَّا في الآخِرَة، فَإِن الله ﷻ يُعطي أَهْل الجَنَّة قُوَّةً يَسْتَطِيعُون بها رُؤْيَته سُبْحَانَه، وهذا من إكْرَامِهِم لمَّا عَبَدُوه في هذه الدُّنْيَا ولم يَرَوْهُ، بل عَبَدُوه إِيمَانًا به سُبْحَانَه فَأَكْرَمَهُم الله بأنَّ يتجلَّى لهم يوم القِيَامَة في الجَنَّة وَيرَوْنَه ﷻ فَيَرَوْنَه في عَرَصات القِيَامَة وَيَرَوْنَه في الجَنَّة، لأَنَّه سُبْحَانَه يُعْطِيهِم قُوَّةً ليست لهم في هذه الدُّنْيَا، وإنَّما هي لهم في الآخِرَة، فيستطيعون بها رُؤْيَته سُبْحَانَه ويتلذَّذُون بها، وهذا من كَرَمِه ﷻ لهم.

[٣] هذا الحَدِيث فيه وَصْفٌ لِلَّه ﷻ بأنَّ له يَدَين، وهو سُبْحَانَه أَثْبَت هذا في القُرْآن الكَرِيمِ فقال لإِبْلِيس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٤٤٠٧)، ومسلم رقم (٩٩٣).

[ص:٧٥] أي: لِآدَم ؈، خَلقَه الله بِيَدَيْه، فيه إِثْبَات اليَدَيْن لِلَّه، وأنَّ له يمينًا.

وُفِيَه وَصْفُ الله تعالى بِالجُود وَالكَرَم، وأنَّه هو الذي يُنْفِق على عِبَادِه، فيَدُه «**سحَّاءُ اللَّيلَ والنَّهَارَ**»، والسَّحُّ: الصَّبُّ الدَّائِمُ؛ أي: دَائِمَةٌ بِالعَطَاء وَالجُودِ وَالكَرَم.

وقولُه: «**أَرَأَيْتُم مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ**» أي: لا تَنْقُص خَزَائِنُه ﷻ بِالإِنْفَاق؛ لأَنَّه الغنيُّ؛ قال سُبْحَانَه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المُنَافِقُون: ٧] فَجَمِيع الأَرْزَاق التي للآدميِّين وَلِلبَهَائِم وللحشراتِ وللطُّيورِ وللوُحوشِ كُلِّهَا من رِزْق الله، وَإِنْفَاقُه على مَخْلُوقَاتِه، وعلى كَثْرَة هذا الإِنْفَاق لا يَنْقُص ما عِنْدَه ﷻ، بِخِلَاف المَخْلُوق، فإنَّه وَإِنْ كانت عِنْدَه ثَرْوَةٌ هَائِلَةٌ فإنَّه إذا ما أَنْفَق منها فَإِنَّهَا تَنْقُص حَتَّى تَنْفَد؛ قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

وفي هذا الحَدِيث إِثْبَات اليَد لِلَّه وَوَصْفُهَا بِاليَمِين، وَجَاء أيضًا وَصْفُ الأُخْرَى بِالشِّمَال، وَكِلتَا يَدَيْه تعالى يَمِينٌ، فهي شِمَالٌ ليست كَشِمَال المَخْلُوقِين، بل هي شِمَالٌ وَهِي يَمِينٌ أيضًا، وَاحِدَةٌ من يَدَيْه سُبْحَانَه فِيهَا الإِنْفَاق على العِبَاد، والأخرى فِيهَا القِسْط.

وقولُه: «**يَمينُه مَلأى**» أي: يَدُه سُبْحَانَه مَلأَى بِالرِّزْق وَالخَيْر «**لا تَغِيضُهَا نَفَقَة**» أي: لا يَنْقُص ممَّا في يَمِينِه ﷻ بِمَا يُنْفِق على عِبَادِه.

وقولُه: «**سَحَّاءُ اللَّيلَ والنَّهارَ**» سحَّاء؛ أي: كَثِيرَة العَطَاء الذي لا حَدَّ

له، فعطاؤه مُسْتَمِرٌّ ليلًا ونهارًا، فلا يُعْطِي في وَقْتٍ وَيَمْنَع في وَقْتٍ آخَرَ كالمخلوقين، فعطاؤه دَائِمٌ في جَمِيع اللَّحَظَات وَالسَّاعَاتِ.

وقولُه: «**أَرَأَيْتُم مَا أَنْفَق مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فَإِنَّه لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ**» هذا تَقْرِيبٌ لِبَيَان سَعَة الرِّزْق وَكَثْرَتِه من الله ﷻ وَغِنَاه، وأَنَّه مع كَثْرَة إنْفَاقِه فإِنَّه لا يَنْقُص ما في يَمِينِه ولا ممَّا في خَزَائِنِه، بِخِلَاف المَخْلُوقِين فَإِنَّهُم إذا أَنْفَقُوا فإنَّه يَنْقُص مِمَّا عِنْدَهُم فَيَنْفَد، فإذا تأمَّلت هذه المَخْلُوقَات في البَرِّ وَالبَحْرِ وَجَدْت أنَّها كُلَّهَا تَعِيش من رِزْق الله، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، فهو سُبْحَانَه يُنْفِق على هذه المَخْلُوقَات مُنْذ خَلَق السَّموات وَالأَرْض، فَلَم يَنْقُص ذلك مِمَّا عِنْدَه شيئًا، ولم يَنْقَطِع رِزْقُه ﷻ عن مَخْلُوقَاتِه، فهذا دَلِيلٌ على كَمَال غِنَاه، وَأَنَّ هذا الإِنْفَاق في هذا الزَّمَانِ الطَّوِيلِ لم يَنْقُص ما في يَمِينِه ﷻ.

قولُه: «**والقِسْطُ بِيَدِه الأُخْرَى يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ**» هذا فيه بَيَان أنَّ لِلَّه ﷻ يَدَين، اليَد اليُمْنَى فِيهَا العَطَاء وَالكَرَم وَالجُود وَالإِنْفَاق على عِبَادِه، وَالثَّانِيَةُ فِيهَا القِسْط وَالعَدْل، «**وَيَخْفِضُ**»، أي: يَرْفَع، وَيَخْفِض المَقَادِير ويُنزلها على عِبَادِه، وَيُرْفَع أَعْمَالَهُم ويُحصيها.

مَا جَاء في وصْف الله تعالى بالعِلم

وعن أَبِى ذرٍّ ﷺ قال: رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ شَاتَيْنِ يَنْتَطِحَانِ فَقَالَ: «أَتَدْرِى فِيْمَ يَنْتَطِحَانِ يَا أَبَا ذَرٍّ؟» قُلْتُ: لَا، قَالَ: «لَكِنَّ اللهَ يَدْرِي وَسَيَحْكُمُ بَيْنَهُمَا»[1]. [٤]

---

[٤] هذا الحَدِيث فيه وصْفُ الله تعالى بِالعِلم، وأنَّه ﷻ يَدْرِي ما يَدُور بين مَخْلُوقَاتِه حَتَّى الذي يكون بين البَهَائِم.

فَقَوْلُه: رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ شَاتَيْنِ يَنْتَطِحَانِ فقال: «**أَتَدْرِي فيمَ ينتطحانِ**» أي: ما السَّبَب الذي جَعَل بَيْنَهُمَا هذا التَّضارُبَ وَالتَّدَافُعَ؟ فقال أَبُوذَرٍّ: لا، فقال: ﷺ «**وَلَكِنَّ الله يَدْرِي**» أي: الله يَعْلَم ما بين هَاتَيْنِ الشَّاتَيْنِ، وإذا كان هذا في الشَّاتَيْن ففي غيرهما من باب أَولى، فهو سُبْحَانَه يَعْلَم ما يَدُور بين العِبَاد من الاخْتِلَاف والنِّزاعِ والشِّقاقِ لا يَخْفَى عَلَيْه شَيْءٌ، وأنَّه تعالى يَحْكُم بَيْنَهُم يومَ القِيَامَة.

حَتَّى أنَّه ﷻ يَحْكُم بين البَهَائِم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]، فالوحوش تُحْشَر وتُبعث يومَ القِيَامَة ويُقتصُّ من بَعْضِهَا لِبَعْض كما قال ﷺ: «**لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقادَ لِلشَّاةِ الجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ**»[2]، فإذا جَرَى القِصَاص بين الحَيَوَانَات قال الله ﷻ لَهَا: كُونِي تُرابًا، فَتَكُون تُرابًا، فهي تُبعث من أَجل القِصَاص فِيْمَا بَيْنَهَا، وإذا كان القِصَاص وَالحُكْمُ بِالعَدْل يَجْري بين

---

(١) أخرجه: الطيالسي رقم (٤٨٢).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (٢٥٨٢).

إثْبَات صِفتَي السَّمْع وَالبَصَر لِلَّه تعالى

وعن أَبي هُرَيْرَة رضي الله عنه: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ** ﷺ **قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء:٥٨] **إلى قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء:٥٨] **وَيضَعُ إِبْهَامَيْهِ عَلَى أُذُنَيْهِ وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى عَيْنَيْهِ**»(١). [٥]

البَهَائِم فَبَيْن غَيْرِهَا من باب أولى، وهذا من عَدْلِه ﷻ. وَالحَدِيث فيه صِفَتَان من صِفَات الله:

الأُوْلَى: عِلم الله ﷻ بِمَا يَجرِي بين المَخْلُوقَات على اخْتِلَاف أَصْنَافِهَا.

وَالثَّانِيَة: الحُكم؛ حيث إنَّه ﷻ يَحْكُم يومَ القِيَامَة بين النَّاس وبين الحَيَوَانَات، فَيَقْضِي بَيْنَهُم ويُنْصِف المَظْلُوم من الظَّالِم.

[٥] **الأَمَانَات**: جَمَع أَمَانَة: وهي كلُّ ما اؤتُمن عَلَيْه من الأَمْوَال وَالأَسْرَارِ وَالأَعْمَالِ المُسْنَدَةِ إلى المُؤتَمَن، وكلُّ المسئوليَّات أَمَانَةٌ، فَلَيْسَت الأَمَانَة خَاصَّةً بالوَدِيعَة كما يَفْهَم بَعْض العَوَّام، بل الأَمَانَة عَامَّةٌ في كلِّ ما يُؤتَمن عَلَيْه؛ فعلى الإِنْسَان أن يؤدِّي ما استُحْفِظ عَلَيْه إلى من ائْتَمَنَه وألا يَخُون الأَمَانَة؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

وَقَال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

---

(١) أخرجه: الحاكم رقم (٦٣).

فَهِي أَمَانَةٌ بين العَبْد وبين الله، وبين الفَرْد ووليِّ الأَمْر، وبين الفَرْد وبين النَّاس، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨].

وَالآيَة عامَّةٌ في كلِّ ما يَتَعَلَّق بِمَوْضُوع الأَمَانَات وَإِنْ كانت نَازِلَةً في الوَظَائِف وبأنَّه يَجِب على وليِّ الأَمْر أن يُسْنِد الوَظَائِف إلى من يَقُوم بها من النَّاس ولا يُحابي فِيهَا؛ لأنَّ الآيَة نَزَلَت في ردِّ مِفْتَاح الكَعْبَة إلى بَنِي شَيْبَة، فلمَّا فَتَحَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ، أَخَذ عليٌّ رضي الله عنه المِفْتَاح من بَنِي شَيْبَة؛ فَأَنْزَل الله هذه الآيَةَ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨]، فَأَخَذ النَّبِيُّ ﷺ المِفْتَاح من عليٍّ وَدَفَعه إلى بَنِي شَيْبَةَ، ولا يَزَال في يَدِهِم إلى يوم القِيَامَة كما أَخْبَر النَّبِيُّ ﷺ بذلك، فسببُ نُزُول الآيَة خَاصٌّ، وَلَكِنَّ اللَّفْظ عامٌّ، وَالعِبْرَة بعُموم اللَّفْظ لا بِخُصُوص السَّبَب كما قَرَّر ذلك عُلَمَاء التَّفْسِير وَالأُصُولِ.

فَتَشْمَل هذه الآيَةُ جَمِيعَ الأَمَانَات الحِسِّيَّة وَالمَعْنَوِيَّة، فكلُّ ما كُلِّف به العَبْدُ من الأَعْمَال فهو أَمَانَةٌ بَيْنَه وبين الله ﷻ؛ فَالوُضُوء أَمَانَةٌ، وَالاِغْتِسَال من الجَنَابَة أَمَانَةٌ، فَجَمِيع الأَعْمَال التي أَوْجَبَهَا اللهُ تعالى على عِبَادِه أَمَانَةٌ، وَجَمِيعُ ما حرَّمه اللهُ على عِبَادِه أَمَانَةٌ كَذَلِك، وكذا جَمِيع الأَعْمَال وَالأَمْوَالِ وَالدُّيُونِ التي في ذِمَّة الَّذِين أُؤْتُمِنُوا عليها إنَّما هي أَمَانَةٌ، فعلى العَبْد أن يَحْفَظ الأَمَانَة وَأَن يؤدِّيها في جَمِيع أُمُورِهَا، فلا أَحَدَ يَخْلُ من الأَمَانَة، فَالأَوْلَاد أَمَانَةٌ في ذِمَّة وليِّ أَمْرِهِم وهو مَسْؤُولٌ عَنْهُم.

وعن ابْنِ عُمَرَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: مَفَاتِيْحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ: لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيْضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ ﷻ »(١). [٦]

فَالأَمَانَات كَثِيرَةٌ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨].

ومَحلُّ الشَّاهِد في هذه الآيَةِ: قولُه ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨]، فَفِيهَا وَصْفُ الله بالسَّمع والبَصَر، وبأنه سَمِيعٌ بَصِيرٌ، وهذان اسْمَان لِلَّه ﷻ يتضمَّنان إثْبَات السَّمْع وَالبَصرِ له ﷻ، بِخِلَاف فِرَق الضَّلَال الَّذِين يُؤَوِّلُون الصِّفَات وَالأَسْمَاءَ، الَّذِين يَزْعُمون أنَّ هذا من باب المَجَاز، وعلى قَوْلِهم فليس لِلَّه سمعٌ حَقِيقَةً وليس له سُبْحَانَه بَصرٌ حقيقةً، وإنَّما هذا وَنَحْوُه من المَجَاز !

ويُجاب على هَؤُلَاء: بأنَّ الرَّسُول ﷺ أَبْطَل هذا وبيَّن أنَّ السَّمْع حَقِيقِيٌّ، فَوَضَع أُصْبُعَه على أذنه ليُبيِّن أنَّ هذا حَقِيقِيٌّ، وَوَضَع الإِصْبَعَ الأُخْرَى على عَيْنِه ليُبيِّن أنَّه بَصَر حَقِيقِيٌّ وليس مجازيًّا، وهذا فيه ردٌّ على الَّذِين يُؤَوِّلون أَسْمَاء الله وَصِفَاتِه، وَيَدُلُّ على أنَّ الوَاجِب إثْبَاتُهَا كما جاءَت، وكما دلَّت عَلَيْه من غير تَحْرِيفٍ ولَا تَعْطِيلٍ، ومن غير تَكْيِيفٍ ولا تَمْثِيلٍ.

[٦] هذا الحَدِيثُ فيه إثْبَات العِلم لِلَّه ﷻ، وَأَنَّ الله عَلِيمٌ، وفيه أنَّ مَفَاتِيح الغَيْب لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هو؛ ولهذا قال جلَّ شَأْنُه: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٤٤٢٠).

ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ﴾ [الأنعام: ٥٩]، جَاء تَفْسِير هذه المَفَاتِيح في آخِر سُورَة لُقْمَان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ [لقمان: ٣٤].

هَذِه المَفَاتِيحُ الخَمْسَةُ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا الله، فلا يَعْلَمُهَا مَلَكٌ مقرَّبٌ، ولا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، ولا أَحَدٌ من خَلقِه ﷻ، فهي من الأُمُور التي اخْتَصَّ الله بِعِلمِهَا، ولهذا لمَّا سَأَل جبريلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وقال له: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «**مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»(١)، يعني: أَنا وَأَنْت سَوَاءٌ لا نَعْلَم هذا الأَمْرَ، لأنَّ هذا من اخْتِصَاص الله ﷻ.

وَقَد ذكر هذا في القُرْآن الكَرِيمِ، فقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وَقَال: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

فَلا يَعْلَم أحدٌ متى قِيَام السَّاعَة إلّا الله، وأمَّا هَؤُلَاء الَّذِين يَحسبون ليُقدِّروا عُمْرَ الحَيَاة الدُّنْيَا إنَّما هُم من الكَذَبة الَّذِين يَكْذِبُون على الله ﷻ ويُنازعونه في عِلْمِه.

وقوله ﷻ: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقوله في آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورى: ٢٨]، فيه بَيَان أنَّه لا أَحَد يَسْتَطِيع أن ينزِّل الغيثَ من السَّمَاء إلَّا الله ﷻ، ولا أَحد يَدْرِي أيضًا متى يُنْزِل الله الغيثَ، فهو من اخْتِصَاص الخَالِق ﷻ.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٥٠)، ومسلم رقم (٨).

وأمَّا ما يُذكر في وَسَائِل الإِعْلَام كالإذاعة والتِّلْفَاز من توقُّعات حَوْل هُبُوب الرِّياح وما أَشْبَه ذلك فهو ليس من باب الجَزْم، إنَّما هو من التَّوقُّعات المَبْنِيَّة على ظَوَاهِر جويَّة والتي من المُمْكِن أن تُصِيب وَأَن تُخْطِئ؛ فلا يُقَال: إنَّ هَؤُلَاء يَعْلَمُون ممَّا اسْتَأْثَر الله بِعِلمِه من نُزُول المَطَر.

وقوله ﷻ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤] أي: الأجنَّة التي في البُطُون، لا يَعْلَمُهَا إلّا الله ﷻ، سَوَاء التي في بُطُون الآدميَّات، أو التي في بُطُون البَهَائِم وَالحَيَوَانَات، فلا أَحَد يَدْرِي ما في بُطُونِهَا من حيث كَوْنه ذَكَرًا أو أُنْثَى، أو حيًّا أو مَيِّتًا، أو كَامِلَ الخِلْقة أو نَاقِصَ الخِلْقة، فلا يَعْلَم كلُّ هذا إلّا الله ﷻ، حَتَّى المَلَك المُوكَّل بِنَفْث الرُّوح إذا جَاء لِيَنْفُخ الرُّوح، فإنَّه يَسْأَل الله ﷻ عن أَجَلِه وَعَمَلَه وهل هو شقيٌّ أو سَعِيدٌ فَيَكْتُب ما أَخْبَرَه الله ﷻ.

أَمَّا بِخُصُوص ما استُحدث الآن من صُوَر الأَشِعَّة التي تُشخِّص الحَمْل على الأجهزة المصوَّرة؛ فَيُخْبِرُون بِكَوْنِه ذَكَرًا أو أُنْثَى، فهذا ليس من الأُمُور الدَّاخِلَةِ في عِلم الغَيْب، وإنَّما هو من عِلم الشَّهَادَة التي تَحْصُل بِوَاسِطَة الأجهزة التي تصوِّر ما في البُطُون فتظهره، فهو ليس من عِلم الغَيْب؛، لأَنَّه لا أَحَد يَعْلَم حَقِيقَة ذلك قبل التَّصْوِير التي تَتِمُّ بوَاسِطَة الأَجْهِزَةِ المَذْكُورَةِ، ثُمَّ لو قُدِّر أَنَّهُم عَلِمُوا بِكَوْنِه ذَكَرًا أو أُنْثَى أو حيًّا أو ميِّتًا، فهم لا يَدْرُون شيئًا من أجَله أو عن عَمَلِه، أو هل هو شقيٌّ أَم سَعِيدٌ، حتمًا هُم لا يَدْرُون شيئًا عن ذلك كما لا يَدْرُون شيئًا عن رِزْقِه، فَكُلُّ هذه الأُمُورِ من الأَشْيَاء التي اسْتَأْثَر بِعِلْمِهَا اللهُ ﷻ.

وقوله ﷻ: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤]، فهذا من المُسلَّمات التي أقرَّ بها النَّاسُ قبل نُزُول القُرْآن، ولهذا قال الشَّاعِر الجَاهِلِيُّ زُهَيرُ بْنُ أَبِي سُلْمَى:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ اليَوْمِ والأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنَّنِي عن عِلمِ ما في غَدٍ عَمِ

هَذَا وهو إِنْسَانٌ جَاهِلِيٌّ، لا يَدْرِي مَاذَا يُمْكِن أن يَجْرِي في الغَد أو في المُسْتَقْبَل، كَوْنَ هذا الأَمْرِ من عِلم الله ﷻ، فَمِن باب أَولى أن يُقِرَّ بذلك من جَاء بَعْدَه على مَرِّ العُصُور !

وقوله ﷻ: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، المَوْت لابُدَّ منه، وَلَكِنَّ المَجْهُول مَكَانَه وَزَمَانِه، هل هو في البَرِّ، أَم في البَحْرِ، أَم في الجَوِّ؟ فلا أَحَد يَدْرِي متى وأَيْنَ يكون ذلك، لِكَوْنِه في عِلم الله وَحْدَه جلَّ شَأْنُه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

هَذِه مَفَاتِيح الغَيْب التي لا يَعْلَمُهَا إِلَّا الله ﷻ.

ففي هذا الحَدِيث إِثْبَات العِلم لِلَّه ﷻ، وفيه بَيَان مَفَاتِح الغَيْب التي ذَكَرَهَا الله فَيَقُولُه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فهو تَفْسِيرٌ لِلآيَة.

والغيبُ: ما غَاب عن النَّاس؛ **وَالشَّهَادَة**: ما شَاهَدُوه، والله ﷻ عَالِم الغَيْب وَالشَّهَادَة، أي: ما ظَهَر لِلنَّاس وما خَفِي عَلَيْهِم، فالله سُبْحَانَه عَلِيمٌ به.

إثبَات صِفَة الفَرَح لِلَّه تعالى

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِيْنَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا وَقَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَه فَأَخَذَ بِخُطَامِهَا فَقَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ؛ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»(١). [٧]

---

[٧] هذا الحَدِيثُ فيه إثْبَات صِفَةِ الفَرَح لِلَّه ﷻ، وأنَّه يَفْرَح بِتَوْبَة عَبْدِه، وفيه إثْبَات التَّوْبَة، وأنَّه ﷻ يَتُوب على عَبْدِه إذا ما أَقْبَل إلَيْه بإخْلَاص.

وَالتَّوْبَة مَعْنَاهَا: الرُّجوع، فالله ﷻ يَعُود على عَبْدِه بالرِّضا بَدَل الغَضَب، وَبِالمَغْفِرَة بَدَل العَذَاب. ومن أَسْمَائِه ﷻ التَّوَّابُ، فقال: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠]؛ أي: كَثِير التَّوْبَة على عِبَادِه؛ ففيه إثْبَات التَّوْبَة لِلَّه، وأنَّه يَتُوب على عِبَادِه وَيَرْجِع عَلَيْهِم بِالخَيْر.

وفي الحَدِيث: إثْبَات الفَرَح لِلَّه ﷻ، وأنَّ الله يَفْرَح بِتَوْبَة عَبْدِه، وفيه حثُّ العِبَاد على التَّوْبَة وَعَدَم القُنُوط من رَحْمَة الله، وأنَّه سُبْحَانَه يَفْرَح بهذا، وهذا من كَرَمِه سُبْحَانَه، وهو ليس مُحتاجًا إلَيْنَا، فإذا تُبْنا لم يَزِد في مِلْكِه شيئًا، وإذا لم نَتُبْ لم نُنْقِص من مُلْكِه شيئًا، وَلَكِنَّ الله يَفْرَح بذلك تكرُّمًا ولُطْفًا منه ﷻ بِعِبَادِه؛ لأنَّه يُرِيد لهم الخَيْر وَالنَّجاةَ وَالفَوْزَ،

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٧٤٧).

ولا يُحِبُّ لهم الكُفْر وَالعَذَاب، وإنَّما يُحِبُّ لهم التَّوْبَة وَالمَغْفِرَةَ وَالنَّعِيمَ، وهذا كلُّه من فَضْلِه ﷻ.

فَقوله ﷺ: «**لله أشدُّ فَرَحًا بِتَوْبَة عَبْدِه**» فيه أنَّ الله يَفْرَح فَرَحًا شديدًا أَشَدَّ من فَرَح المَخْلُوقِين.

ثُمَّ ضَرَب ﷺ مَثَلًا في رَجُل فَقَدَ رَاحِلَتَه في أَرْض مَهْلَكةٍ ليس فِيهَا ماءٌ ولا طَعَامٌ، وقد اسْتَسْلَم لِلمَوْت وَنَام تَحْت ظِلِّ الشَّجَرَة بِانْتِظَار هَلَاكِه، وَبَيْنَمَا هو كَذَلِك فإذا بِرَاحِلَتِه فَوْق رَأْسِه وعليها طعامُه وَشَرَابُه.

فَهَذَا فيه أنَّه لا يَجُوز القُنُوط من رَحْمَة الله ﷻ مَهْمَا اشتدَّ الأَمْر والضِّيقَ بِالعَبْد، بل عَلَيْه أن يُعَظِّم الرَّجاء بِاللَّه، فكُلَّما اشتدَّ العُسْرُ كان اليُسْرُ قريبًا؛ لِقَوْلِه ﷺ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا**»(١) وكما في القُرْآن ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشَّرح: ٥- ٦].

فَفَرِح هذا الرَّجُل فرحًا شديدًا حَتَّى أنَّه أَخْطَأ في التَّعْبِير عن فَرَحِه من شدَّته فقال: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ**»، والله أشدُّ فَرَحًا من هذا الإِنْسَان، ففي الحَدِيث إثْبَات صِفَة الفَرَح لِلَّه ﷻ مع الِاعْتِقَاد بأنَّ الله مُنزَّهٌ عن مُشَابَهَة المَخْلُوقِين.

وفي الحَدِيث بَيَان أن المُخْطِئ لا يُؤَاخَذ، فهذا الإِنْسَان أَخْطَأ في التَّعْبِير من شِدَّة فَرْحَةٍ، لَكِنَّ الله لم يُؤَاخِذْه مع كَوْنه وصَفَ الله ﷻ بِأَنَّه عبدٌ، ووَصَفَ نفسَه بِأَنَّه الرَّبُّ لَكِنَّه لم يتعمَّد هَذَا، والله ﷻ يقول:

(١) أخرجه: أحمد رقم (٢٨٠٤)، والحاكم رقم (٦٣٠٤).

مَا جَاء في أنَّ لِلَّه تعالى يدًا

وعن أَبِى مُوسَى الأَشْعَرِيّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»(١). [٨]

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، ولِمَا نَزَلَت هذه الآيَةُ ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال الله ﷻ: «**قَدْ فَعَلْتُ**»(٢).

فهذه الأَحَادِيث فِيهَا مَعْرِفَة الله ﷻ، وقد اخْتَارَهَا الشَّيخ عن فقهٍ وعن معرفةٍ تامَّةٍ، لِكَوْنِهَا تُعرِّف بِاللَّه ﷻ، وتُبيِّن أَسْمَاءَه وَصِفَاتَه المَذْكُورَةَ في ثَنَايَا هذه الأَحَادِيث الثَّابِتَةِ.

[٨] هذا الحَدِيث فيه إِثْبَات صِفة اليَد لِلَّه ﷻ، وَهي يدٌ ليست كَأَيْدِي المَخْلُوقِين، إِنَّما هي يَدٌ تَلِيق بِجَلَال الله ﷻ دون تَشْبِيهٍ، ولا تَمْثِيلٍ ولا تَعْطِيلٍ، وأَنَّه يبسُطها تكرُّمًا منه سُبْحَانَه وفضلًا.

قَولُه ﷺ: «**يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ**» هذا فيه إِثْبَات أَنَّ الله يَتُوب على عِبَادِه ليلًا ونهارًا متى ما تَابُوا، وَأَنَّ التَّوْبَة ليس لَهَا وَقْتٌ مُحدَّدٌ، ففي أيِّ ساعةٍ من ليلٍ أو نَهَارٍ فإِنَّه ﷻ يَقْبَل التَّوْبَة من عِبَادَة، فهو جلَّ شَأْنُه ليس على أَبْوَابِه حُجَّاب، وليس لِفَضْلِه حدٌّ، وليس لِلتَّوْبَة إِلَيْه وَقْتٌ مُحدَّدٌ؛ ولهذا قال ﷺ: «**وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ**» فَهَذَا شَأْنُه ﷻ.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٧٥٩).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (١٢٦).

مَا جَاء في إِثْبَات صِفة الرَّحمة لِلَّه تعالى

ولهما من حديث عُمَرَ ﷺ قَالَ: قُدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِسَبْيٍ هَوَازِنَ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَسْعَى، إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ فَأَخَذَتْهُ فَأَلْزَقَتْهُ بِبَطْنِهَا فَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قُلْنَا: لَا وَاللهِ! فَقَالَ: «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»[١]. [٩]

وفي الحَدِيث كَذَلِك الحثُّ على التَّوْبَة وَالمُبَادَرَةِ إِلَيْهَا، وأنَّه على الإِنْسَان أَلَا يُؤخِّرها.

وَفِيه وَصْفُ الله بأنَّ له يدًا، وأنَّها مَبْسُوطَةٌ غيرُ مَقْبُوضَةٍ، وأنَّه يَتُوب على عِبَادِه ﷻ دائمًا وأبدًا، في اللَّيْل والنَّهار، وأنَّ التَّوْبَة إِلَيْه ﷻ لا تَخْتَصُّ بِوَقْت مُعَيَّنٍ أو مَكَانٍ مُعَيَّنٍ كما هو شَأْن بَعْض المِلَل الأُخْرَى.

وَلِهَذَا جَاء في الحَدِيث القُدْسِيِّ قولُه: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ!**»[٢].

[٩] هذا الحَدِيث فيه إِثْبَات صِفة الرَّحمة لِلَّه ﷻ، وأنَّ رَحْمَتَه أشدُّ من رَحْمَة الوَالِدَة بِوَلَدِهَا؛ إذ ليس هناك من الخَلق أَرْحَمُ من الوَالِدَة بِوَلَدِهَا، والله ﷻ أَرْحَم بِعِبَادِه من الوَالِدَة بِوَلَدِهَا، فَرَحْمَتُه - سُبْحَانَه - عَظِيمَةٌ شَدِيدَةٌ.

وقولُه: «بِسَبْيِ هَوَازِن» هَوَازِن: هي قَبِيلَة مَعْرُوفَةٌ، وَتُسَمَّى الآن عُتَيْبَة، وَقِصَّتُهُم: أنَّ رَسُول الله ﷺ لمَّا فَتَح مَكَّة عام ثَمَانٍ من الهِجْرَة

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٥٦٥٣)، ومسلم رقم (٢٧٥٤).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (٢٥٧٧).

وَدَخلت قُرَيْش في طَاعَتِه ﷺ وكانت هَوَازِنُ تُقيم قريبًا من مَكَّة، فَخَشَوْا من رَسُول الله ﷺ أن يَغْزُوَهُم فَاجْتَمَعُوا على غَزْو الرَّسُول ﷺ قبل أن يَغْزُوَهُم، فَعَلِم ﷺ بذلك فَجهَّز الجَيْش من الَّذِين جَاءُوا مَعَه من المَدِينَة ومن أَهْل مَكَّة الَّذِين أَسْلَمُوا عام الفَتْح، فَخَرَج مَعَه ﷺ جَيْشٌ عَظِيمٌ، وَالْتَقَى الفَرِيقَان في وَادِي حُنَيْنٍ، وَحَصَل على المُسْلِمِين في أَوَّل الأَمْر ضِيقٌ شَدِيدٌ بعدما كانوا مُعْجَبِين من كَثْرَة عَدَدِهِم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

لَكِنَّ الرَّسُول ﷺ ثَبَت ولم يَتَزَحْزَح من مَكَانِه، وَجَعَل يُنَادِي المُسْلِمِين حين أَمَر عَمَّه العَبَّاس أن يُنَادِي بِصَوْتِه الجَهْوَرِيِّ، فَنَادَى المُسْلِمِين بِنِدَاء رَسُول الله ﷺ فَعَاد المُسْلِمُون وَالْتَفُّوا حَوْل الرَّسُول ﷺ، ثُمَّ دَارَت المَعْرَكَة من جَدِيدٍ فَنَصَر الله المُسْلِمِين، وَغَنِمُوا أَمْوَال هَوَازِن ونساءَها وأطفالَها، لأنَّ هَوَازِن جَاءَت بأموالها ونسائِها وأطفالِها إلى أَرْض المَعْرَكَة؛ فَصَارَت غَنِيمَةً لِلمُسْلِمِين.

فَلَمَّا انْتَهَت المَعْرَكَة وَغَنِم المُسْلِمُون مَغَانِم هَوَازِن، وجُمعت هذه الغَنَائِم، رَأَى الرَّسُول ﷺ امْرَأَةً مُسْرِعَةً تُجَوِّب العَسْكَر مُشْفِقَةً تَبْحَث عن وَلَدِهَا، فَلَمَّا رَأَتْه أَخَذَتْه وَأَلْزَقَتْه بِبَطْنِهَا وَجَعَلت تُرضعه، فقال النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِه: «**أَتَرَوْن هذه المَرْأَةَ طارحةً وَلَدَهَا في النَّار؟**» قالوا: لا واللهِ. فقال ﷺ: «**لَلَّه أَرْحَم بِعِبَادِه من هذه بِوَلَدِهَا**»[1].

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٥٦٥٣)، ومسلم رقم (٢٧٥٤).

مَدَى سَعَة رَحْمَة الله تعالى

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي!»[(١)]. [١٠]

فهذا فيه إِثْبَات صِفة الرَّحْمَة لِلَّه ﷻ، وأَنَّها أَرْحَم من رَحْمَة الوَالِدَة بِوَلَدِهَا، لَكِن هذا لِمَن تَسَبَّب في طَلَب الرَّحْمَة، وأَمَّا من ضَيَّع العَمَل الصَّالِحَ وَعَصَى الله ﷻ وَكَفَر به، فقد فَرَّط وَضَيَّع نَفْسَه، وأَمَّا من أَطَاع الله وَأَطَاع رَسُولَه ﷺ وَعَمَل بِأَسْبَاب الرَّحْمَة، فَإِن الله ﷻ أَشَدُّ رحمةً به من هذه المَرْأَة بِوَلَدِهَا.

[١٠] قوله: «**لَمَّا خَلَق الله الخَلق**» يعني: فَرَغ من خَلْق الخَلق، السَّمَوَاتِ وَالمَخْلُوقَاتِ كُلَّهَا كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وِجَاء تَفْصِيل خَلْقِه في هذه السِّتَّة أَيَّامٍ في سُورَة فَصلَت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] الآيات، فَلَمَّا خَلَق الخَلْق ﷻ كَتَب كِتَابًا فهو عِنْدَه فَوْق العَرْش كما جَاء في الحَدِيث، وَالمَقْصُود بِالكِتَاب: كتَاب القَضَاء وَالقَدَر، وهذا فيه الإِيمَان بِالقَضَاء وَالقَدَر وأَنَّه مَكْتُوبٌ في اللَّوْح المَحْفُوظ، وَمَكْتُوبٌ في غَيْرِه أيضًا مِمَّا شَاء الله ﷻ، فَمَا من شَيْءٍ إِلَّا وهو مَكْتُوبٌ، وهذه الكِتَابة بعد خَلْق السَّمَوَات وَالأَرْض، وهذه الكتَابة غير الكِتَابة العَامَّةِ في اللَّوْح

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٣٠٢٢)، ومسلم رقم (٢٧٥١).

المَحْفُوظِ؛ لأنَّ الكِتَابة العَامَّةَ في اللَّوْح المَحْفُوظِ كانت قبل أن يَخْلُق اللهُ ﷻ السَّمَوَات وَالأَرْضَ بِخَمْسِين أَلف سَنَةٍ، وإنَّما هذه الكتَابة المَذْكُورَةُ في هذا الحَدِيث كِتَابةٌ خَاصَّةٌ.

فَقوله ﷺ: «**كَتَبَ في كتَابٍ**» هذا فيه إثْبَات الكِتَابة وأنها من أَفْعَال الله ﷻ.

وقولُه: «**عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ**» العَرْش: هو عَرْش الرَّحْمَن ﷻ وهو أَعْظَم المَخْلُوقَات وأعلاها وَأَعْظَمُهَا، فهو عَرْشٌ عَظِيمٌ، لا يَعْلَم عِظَمَه إلَّا الله ﷻ، وَالعَرْش في الأَصْل: السَّرِير الذي يَجْلِس عَلَيْه المَلِك، وَالمُرَاد به هُنَا: هذا المَخْلُوق العَظِيمُ الذي اسْتَوَى الله ﷻ عَلَيْه.

وهذا فيه إثْبَات العُلُوِّ لِلَّه وَاسْتِوَائِه على العَرْش، وَالإِيمَانِ به لأنَّ الله اخْتَصَّ هذا الكِتَاب عِنْدَه، وإذا كان عِنْدَه فهذا يَدُلُّ على أنَّ هذا الكِتَاب في مَكَان قَرِيْبٍ من الله ﷻ، وليس المُرَاد بِقَوْله: «**عِنْدَه**» أنَّه في مُلْكِه؛ لأنَّ كلَّ المَخْلُوقَات في مُلْكِه، ولكنَّه اخْتَصَّ بَعْض الأَشْيَاءِ بِأَنَّها عِنْدَهُ مثل بَعْض المَلَائِكَة المُقَرَّبِينَ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ١٩]، فَخَصَّ بَعْض الأَشْيَاءِ بِأَنَّها عِنْدَهُ مُقرَّبةٌ، وهذا يدُلُّ على أَهَمِّيَّةِ هذا الكتَاب وَمَكَانَتِه عند الله ﷻ.

وَمَضْمُون هذا الكتَاب ما عَبَّر عَنْه ﷺ بِقَوْلِه: «**إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**» هذا فيه وَصْف الله ﷻ بهاتَيْن الصِّفَتَيْن: الرَّحْمَةِ وَالغَضَبِ، وهذا من صِفَات أَفْعَالِه ﷻ، فهي صِفَات فِعْلِيَّةٌ، يَرْحَم إذا شَاء، وَيَغْضَب إذا شَاء، فَهُمَا صِفَات الله ﷻ تَلِيقان بِجَلَالِه، وَرَحْمَتُه ليست كَرَحِمة

المَخْلُوق، ولا غَضَبُه كَغَضَب المَخْلُوق، وإنَّما هُمَا صِفَتَان تَلِيقان بِجَلَالِه ﷻ.

وفي الحَدِيث أنَّ الرَّحْمَة سَبقَت الغَضَب فهو - سُبْحَانَه - يُحِبُّ أن يَرْحَم عِبَادَه إذا هُم فَعَلُوا الأَسْبَاب التي تُسَبِّب الرَّحْمَة، وأمَّا إذا فَعَلُوا مُوجِبَات الغَضَب وَأَسْبَابَه كَالمَعَاصِي وَالمُخَالَفَات، فإنَّه سُبْحَانَه يَغْضَب عَلَيْهِم، فَالرَّحْمَة لَهَا أَسْبَاب، وَالغَضَب كَذَلِك، فَالأَعْمَال الصَّالِحَةُ سَبَبٌ لِرَحْمَة اللَّه، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وَلِلغَضَب أَسْبَابُه كالكُفْر وَالشِّرْك وَالمَعَاصِي، فَإن ذلك كُلَّه مِمَّا يُغْضِب الله ﷻ.

وفي الحَدِيث كَذَلِك بَيَانُ أنَّ الله يُحِبُّ أن يَرْحَم عِبَادَه، ولا يُحِبُّ أن يُعَذِّبَهُم، وهذا من فَضْلِه وَكَرَمِه سُبْحَانَه على عِبَادِه، إلَّا إذا تَرَكُوا أَسْبَاب الرَّحْمَة وَفَعَلُوا أَسْبَاب الغَضَب، فهم الَّذِين جَنَوا على أَنْفُسِهِم، وهو - سُبْحَانَه - لا يُعَذِّب أحدًا وهو ظَالِمٌ له، أو بِدُون سَبَبٍ، وإنَّما يُعَذِّب على أَسْبَاب تَقْتَضِي الغَضَب منه ﷻ، وهي الكُفْر وَالشِّرْكُ وَالنِّفَاقُ وَالمَعَاصِي، وَلَكِنَّ الله يُحِبُّ أن يَعْفُو وَأَن يَغْفِر إذا ما تَاب العِبَاد إلَيْه وَأَنَابُوا وَاسْتَغْفَرُوا، فإنَّه ﷻ يَقْبَل تَوْبَتَهُم وَيَغْفِر ذُنُوبِهِم، وهذا أَحَبُّ إلَيْه ﷻ، لأَنَّه عَفُوٌّ يُحِبُّ العَفْو، كما جَاء في دُعَاء النَّبِيِّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ**»(١)، وهذا من كَرَمِه وَجُودِه ﷻ، وَإلَّا فهو ليس بحاجةٍ إلى عِبَادِه، بل هُمُ الْمُحْتَاجُون إلَيْه ﷻ، وهو يُحِبُّ لهم

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٣٥١٣)، وابن ماجه رقم (٣٨٥٠)، وأحمد رقم (٢٥٣٨٤).

ولَهُمَا عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الخَلَائِقُ حَتَّى تَرْفَعُ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ»[1]. [١١]

ما يُصلحهم، وَيُحِبُّ أن يَتُوب عَلَيْهِم وَيَغْفِرَ لهم وَيُنْعِمَهُم بِالجَنَّة إذا هُم تَقَرَّبُوا وَتَابُوا إِلَيْه وَاسْتَغْفِرُوه؛ ولذلك حَثَّ عِبادَه على التَّوْبَة وَالِاسْتِغْفَارِ، ونَهَاهُم عن المَعَاصِي وَأَمَرَهُم بِالطَّاعَات، وكُلُّ ذلك من لُطْفِه ﷻ ومن مَحَبَّتِه لِلمَغْفِرَة وَلِلعَفْو، وهو من صِفَاتِه تَعَالَى العَظِيمَةِ.

[١١] هذا حَدِيثٌ عَظِيمٌ فيه بَيَان سَعَة رَحْمَة الله ﷻ كما قال في كتَابه الكَرِيم: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦- ١٥٧]، فَالرَّحْمَة لَها أَسْبابٌ، وهي رَحْمَة وَاسِعَة، قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

ومن هذه الرَّحْمَة المَذْكُورَةِ في هذا الحَدِيثِ المُتَّفَقِ عليه أَنْزَل الله منها رَحْمَةً وَاحِدَةً في الأَرْض، وَعِنْده تِسْعَ وتسعون رَحْمَةً قد ادَّخَرَها

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٧٥٢).

- سُبْحَانَه - لِيَوْم القِيَامَة، وهذه الرَّحْمَة التي أَنْزَلَهَا في الأَرْض تتراحم المَخْلُوقَات من آثَارهَا، حَتَّى إن «**الدَّابَّةَ**» أي: البَهِيمَة التي ليس عِنْدَهَا عَقْلٌ «**تَرْفَعُ حَافِرَهَا عن وَلَدِهَا خَشْيَةَ أن تُصِيبَه**» فهي رَحْمَةٌ طَيِّبَةٌ جعلَهَا الله فِيهَا، وهي من آثَار هذه الرَّحْمَةِ التي أَنْزَلَهَا الله - سُبْحَانَه - تتراحم بها الخَلَائِق فِيْمَا بَيْنَهُم، فإذا كانت هذه آثَار رَحْمَةً وَاحِدَةً، فَكَيْف بِبَقِيَّة الرَّحْمَة التي عِنْدَه ﷻ !

وفي يوم القِيَامَة تَنْضَمُّ هذه الرَّحْمَة إلى ما عِنْدَه من الرَّحْمَة التي ادَّخرها ﷻ لِتَكُون مِائَة رَحْمَةٍ يَرْحَم بها من يَسْتَحِقُّ الرَّحْمة من عِبَادِه الَّذِين فَعَلُوا الأَسْبَاب المُوجِبَةَ لَهَا في هذه الدُّنْيَا، فَتَابُوا وَاسْتَغْفَرُوا وَأَنَابُوا وَرَجَعُوا إلى الله وَأَصْلَحُوا أَعْمَالَهَم.

فَهَذَا الحَدِيثُ فيه وَصْف الله ﷻ بِالرَّحْمَة، وأَنَّها رَحْمَةٌ عَظِيمَةٌ وَأَنَّ الله تعالى يَرْحَم في الدُّنْيَا وَلَكِنَّ رَحْمَتَه في الآخِرَة أَعْظَمُ، فَمَن لم تسِعْه رَحْمَة الله، فإنَّه خَاسِر لا خَيْر فيه، والله ﷻ يَرْحَم من عِبَادِه الرُّحَماءَ؛ ولهذا قال ﷺ: «**ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»[1]، وقال: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِين في تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَه سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»[2] فإذا تَرَاحَمُوا رَحِمَهُم الله، فَمِن مُقْتَضَى هذا الحَدِيثِ ذَكَر أَنَّ أَسْبَاب رَحْمَة الله تعالى إنَّما تَنْشَأ من تراحُم العِبَاد فِيْمَا بَيْنَهُم.

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٤٩١٤)، والترمذي رقم (١٩٤٢)، وأحمد رقم (٦٤٩٤).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (٢٥٨٦).

وَلِمُسْلِم مَعْنَاه من حَدِيث سَلْمَانُ، وفيه: «كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» وَفِيْه: «فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كَمَّلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ»(١). [١٢]

[١٢] في الحَدِيث بَيَان مَدَى سَعَة أنَّ كلَّ رَحْمَةٍ من المِائَة رَحْمَةٍ التي اتَّصَف الله بها، فالرَّحمة الواحدةُ تَسَعُ السَّمَوَات وَالأَرْضَ، فإذا كان يوم القِيَامَة تَكَامَلَت الرَّحْمَة مِائَةَ رَحْمَةٍ، بِانْضِمَام الجُزْء الذي أَنْزَلَه الله ﷻ إلى الأَرْض إلى ما ادَّخَره في السَّماء، فَصَارَت منه رَحْمَةً في الآخِرَة، وهذا دَلِيلٌ على سَعَة رَحْمَة الله ﷻ.

وهذا أيضًا من شَأْنِه أن يَجْعَل الإِنْسَان لا يَقْنَط من رَحِمَة الله تعالى: قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

وَقَال تعالى على لِسَان إبْرَاهِيْم الخَلِيلِ ﷺ: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحِجر: ٥٦].

وَقَال تعالى على لِسَان يَعْقُوبَ ﷺ: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وفي هذا الحَدِيث وما جَاء بِمَعْنَاه من الأَحَادِيث وَالآيَاتِ الكَرِيمَةِ بَيَانُ أنَّه لا يَنْبَغِي لِلمُسْلِم أن يَقْنَط من رَحْمَة الله، حَتَّى ولو تعاظَمَ ذَنْبُه، فإنَّه يَنْبَغِي أَلَّا يَيْأَس من العَوْدَة والرُّجوعِ إلى الله وأَلَّا يَعْتَقِد بِأَنَّه لَن يَغْفِر الله له، وأَلَّا يَتْرُك التَّوْبَة وَيَيْأَس من رَحْمَة الله ﷻ، بل عَلَيْه أن يَتُوب وَيَرْجُو رَحْمَة الله، مَهْمَا كان ذَنْبُه ومهما كانت مَعْصِيَتُه، فإذا تَاب منها تَاب الله عَلَيْه.

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٧٥٣).

وكذا المُشْرِك وَالكَافِرُ وَالمُنَافِقُ وَالزَّانِي وَالسَّارِقُ وَشَارِبُ الخَمْر وَآكِل الرِّبَا، فهؤلاء جميعًا إذا ما تَابُوا تَاب الله عَلَيْهِم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزُّمَر: ٥٣- ٥٤].

وَلَكِن يَنْبَغِي لِلإِنْسَان أَلَّا يتَّكِل على سَعَة رَحْمَة الله؛ وبالتَّالي يتَهَاوَن بِالمَعَاصِي، فَكَمَا أنَّ الله ﷻ وَاسِع المَغْفِرَة، فإنَّه شَدِيد العِقَاب، قال تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

وَقَال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣].

فَعَلَى الإِنْسَان أَلَّا يَتَسَاهَل في عَمَل المَعَاصِي، بل عَلَيْه أن يتَّقِي اللهَ وَيَخَافَ من العَذَاب كما يَرْجُو الرَّحمة، فَالجَمْع بين الأَمْرَيْن هو المَطْلُوب، بين الخَوْف والرَّجاءِ، الخَوْف من عَذَاب الله، فلا يَخَاف خوفًا يُقنِّطُه من رَحِمَة الله، ولا يَرْجُو رجاءً يؤمِّنُه من مَكْر الله، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]

وكما أنَّ الله وَاسِع الرَّحْمَة وَالمَغْفِرَةِ فإنَّه كَذَلِك شَدِيد العِقَاب ﷻ، وقد جَمَع -سُبْحَانَه- بَيْنَهُمَا في آيَةٍ وَاحِدَةٍ بِقَوْلِه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، وبقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

وعن أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً، أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ، وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ»[١]. [١٣]

فَيَنْبَغِي عَدَم الغَفْلَة عن هذا الجَمْع بين الخَوْف وَالرَّجَاءِ، فلا يُغلِّب أَحَدَهُمَا على الآخر، وَلَكِن قالوا: إلَّا في حَالَةٍ وَاحِدَةٍ وهي عند المَوْت، فإنَّه يُغلِّب جَانِب الرَّجَاء: قال ﷺ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ** ﷻ»[٢]، فإذا ما عَجز المَرْء عن العَمَل وحَضَره الموتُ، فإنَّه يُغلِّب جانبَ الرَّجاء ولا يُغلِّب جانبَ الخَوْف، أَمَّا وإنه ما دَام على قِيد الحَيَاة، وكان متمكِّنًا من العَمَل الصَّالِح وَالإِقْلَاع عن الذُّنُوب وَالمَعَاصِي، فإنَّه يَنْبَغِي أن يكون بين الخَوْف وَالرَّجَاء.

وَالرَّجَاء المَحْمُودُ هو الذي لا يأمَن به صاحبُه من غَضَب الله ﷻ وَعُقُوبَتِه، وَالخَوْف المَحْمُودُ هو الذي لا يَقْنِط صاحبُه من رَحْمَة الله ﷻ.

[١٣] في هذا الحَدِيث بَيَان الفَرْق بين المُسْلِم وَالكَافِر؛ من حيث إنَّ الكَافِر إذا عَمِل حسنةً في الدُّنيا بأنْ أَطْعَم جائعًا أو كَسَا عاريًا أو سَقَى عَطْشَان، وَنَحْوَ ذلك من الأَعْمَال الدَّاخِلَةِ في باب الإِحْسَان إلى النَّاس، فإنَّه وَإِنْ كان هذا العَمَلُ من كافر، فإنَّ الله ﷻ لا يُضِيع عَمَل عاملٍ؛ ولهذا فإنَّه - سُبْحَانَه - يُعجِّل له جَزَاءَه، فيُعطي بها طُعْمةً في هذه الدُّنيا، إمَّا بأنْ يُطيل في عُمره أو بأنْ يُوسِّع له في رِزْقِه أو غيرِ ذلك من مَصَالِح الحَيَاة الدُّنْيَا؛ لأنَّه سُبْحَانَه لا يَظْلِم أحدًا، فهذا المُرَاد من قوله ﷺ: «**أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا**».

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٨٠٨).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (٢٨٧٧).

مَا جَاء في إثْبَات صِفَة الرِّضَا لِلَّه تعالى

وَلَهُ عَنْه مرفوعًا: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»(١). [١٤]

وأمَّا المُؤْمِن فإنَّه إذا عَمِل الحَسَنَات، فإنَّ الله يَجمع له بين خَيرَي الدُّنْيا وَالآخِرَة، فيدَّخر له حَسَنَاتِه في الآخِرَة، لأنَّ جَزَاء الآخِرَة خَيْرٌ وَأَحْسنُ، ولا يُحْرِمُه أيضًا من الجَزَاء في الدُّنيا، بل يُعجِّل له شيئًا من الجَزَاء في هذه الحَيَاة الدُّنيا من سَعة الرِّزق والصِّحةِ وَالعَافِيَةِ، فهو -سُبْحَانَه- يُعطي المُؤْمِن على حَسَنَاتِه في الدُّنيا وَالآخِرَة، ولكنَّه -سُبْحَانَه- يُعْطِيه في الآخِرَة أَكْثَر مِمَّا يُعطيه في الدُّنيا، وهذا بِخِلَاف الكَافِر، فَإن الله يُعطيه في الدُّنيا، وأمّا في الآخِرَة فإنَّه -سُبْحَانَه- يَحْرِمُه من رَحْمَتِه وجنَّته، هذا ما يَدُلُّ عَلَيْه المَفْهُوم من الحَدِيث.

وفي الحَدِيث كَذَلِك بَيَان سَعَة فَضْل الله ﷻ حَتَّى إنَّه يَشْمَل أَعْدَاء الله والكُفَّارَ، فهو -سُبْحَانَه- يَرْزُقُهُم ويُنْعِمُ عَلَيْهِم في هذه الدُّنيا ويُصِحُّ أبدانهم، وهذا كُلُّه من إحْسَانِه وَفَضْلِه ﷻ، فلا يُعاجلهم بِالعُقُوبَة، وَلَكنَّهُم إذا مَاتُوا على كُفْرِهِم فَإِنَّهُم لا ثَوَاب لهم في الآخِرَة.

[١٤] في الحَدِيث وَصْفُ الله ﷻ بالرِّضا، وهي صِفَةٌ تَلِيق بِجَلَالَه ﷻ: فَقَوْلُه: «**لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ...**» إلَخ يَعْني: يَرْضَى عن العَبْد الذي يَشْكُر النِّعَم.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٧٣٤).

بَيَان مَدَى عَظَمَة الله تعالى

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلهِ تَعَالَى، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى»[١].

قَوْلُه: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»[٢]. [١٥]

وفي هذا مَشْرُوعِيَّة الشُّكر وَالحَمْدِ لِلَّه ﷻ، فإذا أَكَل يقول: الحَمْد لِلَّه، وإذا شَرِب يقول ذلك، كما أنَّه عند البِدَايَة يقول: بِاسْم الله، وهذا من آدَاب الإِسلام؛ لأنَّ هذا الأَكْلَ وهذا الشُّرْبَ لم يَصِل إلى الإِنْسَان إلَّا بِفَضْلِه ﷻ، فهو الذي خَلَقَه ويسَّره، وهو الذي مكَّن العَبْد منه، وهو الذي يُنفع به إذا أُكل وشُرب، فيُغذِّي العَبْد به ويُخلِّصه من أَذَاه، فكلُّ هذا وَنَحْوِه من فَضْلِه وَكَرْمِه ﷻ، فإذا ما أَكَل وَشَرِب العَبْد وَشَكَر الله على ذلك، فإنَّه - سُبْحَانَه - يَرْضَى عَنْه.

ففي هذا الحَدِيث إِثْبَات صِفَة الرِّضا لِلَّه ﷻ من غير تَكْيِيفٍ ولا تَمْثِيلٍ، وفيه بَيَان مشروعيَّة حَمْد الله على الأَكْل وَالشُّرْب.

[١٥] هذا حَدِيثٌ عَظِيمٌ، فيه بَيَان عَظَمَة الله ﷻ، وَفِيْه وَصْفٌ لِصَوْت السَّمَاء من ثِقَل ما عليها من ازْدِحَام المَلَائِكَة وَكَثْرَةِ السَّاجِدِين فِيهَا.

---

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢٣١٢)، وابن ماجه رقم (٤١٩٠)، والبيهقي رقم (١٣١١٥).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (٤٣٤٥)، ومسلم رقم (٢٣٠٩).

وقوله ﷺ: «**أَطَّتِ السَّمَاءُ**» الأَطِيط: هو في الأَصْل صَوْت الرَّحْل من ثِقَل ما عَلَيْه، فإذا أَثْقَل الرَّاكِب الرَّحْلَ يَصِير له صَوْت يُسَمَّى بالأطيط من شِدَّة التَّحمُّل، وَالمُرَاد هُنَا: أَنَّه صَار لِلسَّمَاء صَوْتٌ من شِدَّة التَّحمُّل على الرَّغْم من قُوَّتِهَا وَسَعَتِهَا من كَثْرَة المَلَائِكَة الَّذِين أثْقلوها.

وقولُه: «**إِلَّا وفيه مَلَكٌ سَاجِدٌ**» المَلَائِكَة من عَالِم الغَيْب الذي لا يَعْلَمُه إِلَّا الله ﷻ، فهم خَلْقٌ وجُنْدٌ من جُنْد الله تعالى لا أَحَد يَرَاهُم، وَلَكِنَّنَا نُؤْمِن بِهِم، وَالإِيمَان بِهِم هو أَحَد أَرْكَان الإِيمَان السِّتَّةِ كما قال: «**الإِيْمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاَللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَومِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١).

وَقَال تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وَقَال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

هذه أَرْكَان الإِيمَان ومن بَيْنِهَا الإِيمَان بِالمَلَائِكَة، وهم خَلْقٌ من خَلَق الله ﷻ، خَلَقَهُم الله من نُورٍ، وَخَلَق الجِنَّ من نَارٍ، وَخَلَق بَنِي آدم من تُرَابٍ، فَالجِنُّ وَالشَّيَاطِينُ من عَالَم الغَيْب وَلَكِن الله خَلَقَهُم من مَارِجٍ من نَارٍ، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥] أيْ: من لَهَب النَّار المُرْتَفِع.

فَهُنَاك مَخْلُوقَاتٌ كَثِيرَةٌ خَلَقَهَا الله، منها ما هو من عَالَم الغَيْب، ومنها ما هو من عَالَم الشَّهَادَة، ومن عَالَم الغَيْب: المَلَائِكَةُ، فَنُؤْمِن بِهِم

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٥٠)، ومسلم رقم (٨).

كما ذَكَرَهُم الله ﷻ، وكما ذَكَرَهم رَسُولُ الله ﷺ في أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ، فالذي لا يُؤْمِن بِالمَلَائِكَة كافرٌ بِاللَّه ﷻ؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ [النساء: ١٥٠]؛ فَالمَلَائِكَة رُسُلٌ خَلَقَهُم الله ﷻ لِمُهِمَّات.

ومن مهماتهم أنَّ الله يُرْسِلُهُم بِأَوَامِرِه، قال ﷻ: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ [فاطر: ١].

وَهُم رُسُلٌ يَعْبُدُون الله ﷻ، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦- ٢٨].

وَقَال: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

وَقَال: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ [فُصِّلَت: ٣٨].

وَقَال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، هذه هي صِفَة المَلَائِكَة عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ومن هَؤُلَاء المَلَائِكَة من اقْتَصَر عَمَلُه على عِبَادَة الله تَعَالَى؛ ولهذا قال ﷺ: «**مَا فِيهَا**» أي: في السَّمَاء «**مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلهِ تَعَالَى**»، وهذا فيه دَلِيلٌ على كَثْرَة المَلَائِكَة، وفيه دَلِيلٌ على فَضْلِهِم وأَنَّهم يَعْبُدُون الله ﷻ، فهم لا يفتُرون

عن عِبَادَتِه، وَيُنَفِّذُون أَوَامِرَه -سُبْحَانَه- في الخَلْق وَالكَوْن، وهم جُنْدٌ من جُنْد الله ﷻ، يَجِب الإِيمَان بِهِم كما جَاء ذِكْرُهُم في القُرْآن الكَرِيم، وَالإِيمَان بِأَعْمَالِهِم التي يَقُومُون بها مِمَّا جَاء تَفْصِيلُه في القُرْآن الكَرِيم وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ.

ثُمَّ إِنَّ الَّذِين لا يُؤْمِنُون بِالمَلَائِكَة، أو يُؤَوِّلُون حَقِيقَتَهُم كما هو الحَال عند بَعْض الفَلَاسِفَة الَّذِين يُؤَوِّلُون حَقِيقَة وُجُود المَلَائِكَة بِأَنَّهَا قُوَى الخَيْر النَّفْسَانِيَّةُ التي لَدَى الإِنْسَان، كما يُسَمُّون القُوَى الشِّرِّيرَةَ التي في الإِنْسَان الشَّيَاطِينَ، ويقولون: ليس هناك شَيَاطِينُ لهم أَجْسَامٌ، وليس هناك مَلَائِكَةٌ مَخْلُوقُون لهم أَجْسَامٌ حِسِّيَّةٌ، وإِنَّما هي مُجَرَّد هَوَاجِس الخَيْر المُتمثِّلَةِ بِالمَلَائِكَة، وَهَوَاجِس الشَّرِّ المُتمثِّلَةِ في الشَّيَاطِين، وهذا وَنَحْوُه من التَّخرُّصات وَالأَبَاطِيلِ من تَأْوِيل القَرَامِطَة وَالفَلَاسِفَةِ وَالبَاطِنِيَّةِ، ومع الأَسَف هذا مَوْجُودٌ في «تَفْسِير المَنَار» لِمُحمَّد رَشِيد رِضًا عند تَعَرُّضِه لِقِصَّة آدم ﷺ، وقد ذَكَرَه صَاحِب «المَنَار» عن شَيْخِه مُحمَّد عَبْدَه، وَشَيْخُه مُحمَّدُ عَبْدَه نَقَلَه عن كتَاب «الإِحْيَاء» لِلغَزَالِيِّ، الذي كانت عِنْدَه نَزْعَةٌ فَلسَفِيَّةٌ أَثَّرَت عَلَيْه، وهذا التَّأْوِيل منها.

وَالحَاصِل: أَنَّ الذي يُفَسِّر المَلَائِكَة على أَنَّها القُوَى النَّفْسِيَّةُ إن كان مُتعمِّدًا لِهَذَا فهو كافِرٌ، وَإِن كان مُقلِّدًا فهو ضَالٌّ وَمُخْطِئٌ، فَعَلَيْنَا أن نَعْرِف أَفْكَار الفَلَاسِفَة وَنَعْرِفَ الوَحْيَ المُنزَّلَ من عند الله ونُفرِّقَ بَيْنَهُمَا.

فَفِي هذا الحَدِيث: الحَثُّ على وُجُوب الإِيمَان بِالمَلَائِكَة، وفيه بَيَان كَثْرَتِهِم، وأَنَّهم يَمْلَئُون السَّمَوَات على سِعَتِهَا.

وَفِيه: دَلِيلٌ على فَضْلِهِم وَعِبَادَتِهِم لِلَّه ﷻ، فهم عَالَمٌ شَرِيفٌ جَلِيلٌ من عَالَم الغَيْب الذي خَلَقَه الله ﷺ، لا يَعْلَمُهُم إلَّا اللهُ ﷻ.

وأمَّا قوله في آخر الحَدِيث: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**»؛ في «**الصَّحِيحَيْن**» أي: هو مُتَّفَق عَلَيْه رَوَاه البُخَارِيُّ وَمُسْلِمُ، وأمّا أَوَّلُه فهو في السُّنن و«المُسْنَدِ» عند أَحْمَد.

وقولُه: «**وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى**» هذا فيه ذكر شِدَّة الخَوْف من أَهْوَال يوم القِيَامَة وما فِيهَا من أَخْطَارٍ عَظِيمَةٍ، والله ﷻ ذَكَر هذا في القُرْآن فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحجّ: ١، ٢].

وَنَحْن لا نَعْلَم من أَهْوَال يوم القِيَامَة مثل الذي يَعْلَمُه النَّبِيُّ ﷺ؛ لأنَّ الله ﷻ أَطْلعه على أُمُور الآخِرَة ما لم نَطَّلِع عَلَيْه؛ رَحْمَةً بِنَا، ولأنه لو أَطْلَعَنَا على هذه الأَشْيَاء لِحَدَث بِنَا ما ذَكَرَه النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِه: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى**»، وقوله: «**تَجْأَرُونَ**»، يعني: تَرْفَعُون أَصْوَاتَكُم بِالبُكَاء وَالتَّضَرُّع من شِدَّة الخَوْف، فَالأَمْر شَدِيدٌ، والخَطْب هَائِلٌ، فَيَجِب على المُسْلِم أن يكون مُستعدًّا لِهَذِه المَوَاقِف وَالأَخْطَارِ التي هو قَادِمٌ عَلَيْهَا.

ومما أَطْلَع الله ﷻ نَبيَّه ﷺ عَلَيْه، عَذَابُ القَبْر الذي لا يَخْلُو من المَوَاقِف وَالعَجَائِب التي لا يَعْلَمُهَا إلَّا الله، من أَحْوَال المَوْتَى الَّذِين يُعذَّبون أو يُنعَّمون، وَنَحْن لا نُحِسُّ بهذا، وَلَكِنَّ الرَّسُول ﷺ أَطْلَعَه الله على شَيْءٍ من ذلك.

وَحِينَمَا مَرَّ على قَبْرَيْن فقال: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَان**»، فَنَحْن نَمُرُّ على القُبُور ولا نَشْعُر بِشَيْءٍ من ذلك مع أن هذه القُبُورَ إِمَّا رَوْضَةٌ من رِيَاض الجَنَّة أو حُفْرَةٌ من حُفَر النَّار، فَكُلُّ هذا من أُمُور الآخِرَة التي لا يَعْلَمُهَا إِلَّا الله ﷻ، ومن الأُمُور التي حَجَبَهَا الله عَنَّا، وقد يَحْصُل شَيْءٌ من الاِطِّلَاع لِبَعْض النَّاس على عَذَاب القَبْر من باب العِظَة، وهذا شَيْءٌ مَعْرُوفٌ، ومن أَرَاد شيئًا من هذا فَلْيُرَاجِع كتَاب «أَهْوَال القُبُور» لِلحَافِظ ابْنِ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ وَغَيْرَه من الكُتُب المُؤَلَّفَةِ في هذا البَاب؛ لِيَعْتَبِر وَيَتَّعِظ، مع أَنَّ الذي غُيِّب عَنَّا ولم نَعْلَمْه كَثِيرٌ.

وَلَمَّا مَرَّ الرَّسُول ﷺ بِقَبْرَيْن قال: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**»[(١)]؛ فَهَذَان سَبَبَان من أَسْبَاب عَذَاب القَبْر، فهذا مِمَّا أَطْلَع الله نَبِيَّه ﷺ عَلَيْه.

وَقَال: «**لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٢١٥)، ومسلم رقم (٢٩٢).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (٢٨٦٧).

حُرمة التَّألِّي على الله تعالى

وَلِمُسْلِم عن جُنْدُبٍ ﷺ مرفوعًا: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلانٍ، فَقَالَ اللهُ ﷻ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَلَّا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟! إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ!»(١). [١٦]

فَهُو ﷺ يَطَّلِع على أَشْيَاء قد أَطْلَعَه الله ﷻ عَلَيْهَا، وهذا مُعْجِزَةٌ له ﷺ، وَالبَشَر لا يُطِيقُون سَمَاع وَمُشَاهَدَة ما أَطْلَع الله -سُبْحَانَه- نَبِيَّه ﷺ عَلَيْه، وَحَجَبَهَا عَنَّا رَحْمَةً من الله بِنَا، وَلَكِنَّ هذه الأَشْيَاءَ تَنْكَشِف لَنَا عند المَوْت، قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ [ق:٢٢]؛ فَالمَيِّت يُعَايِن عند المَوْت، يُعَايِن المَلَائِكَة وَمَنْزِلَتَه عند الله إن كان من أَهْل الخَيْر، وَإِن كان من أَهْل الشَّرِّ، فإِنَّه يُعَايِن ما سَيَئُول إِلَيْه مَصِيرُه من الشَّقَاء وَالعَذَابِ، وإذا وُضِع في قَبْرِه، فإِنَّه يُعَايِن هذه الأُمُورَ وَغَيْرَهَا مِمَّا لا يَعْلَمُه إِلَّا الله، أَمَّا وإنه ما دَام على قَيْد الحَيَاة فَإِن الله حَجَب هذه الأُمُورَ عَنْه رَحْمَةً به، وَإِلَّا فلو دَرَى بها وَعَايَنَهَا لَمَا عَاش ولا تَلَذَّذ بِأَكْلٍ ولا شُرْبٍ ولا بِأَيّ شَيْءٍ من مَلَذَّات الحَيَاة الدُّنْيَا.

[١٦] في هذا الحَدِيث بَيَان مَدَى سَعَة مَغْفِرَة الله ﷻ، وأَنَّه يَنْبَغِي أَلَا يَقْنَط أَحَدٌ من رَحْمَة الله، ولا أن يُقَنِّط أحدٌ أحدًا من رَحْمَة الله وَعَفْوِه، وإِنَّما يَنْبَغِي الحَثُّ على التَّوْبَة وَالِاسْتِغْفَارِ، وَيَدْخُل في ذلك الكَافِر؛ حيث يَنْبَغِي حَثُّه على التَّوْبَة وعلى الدُّخُول في الإِسلام وَتَرْغِيبه في

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٦٢١).

دُخُول الجَنَّة وَالنَّجَاةِ من النَّار، ومن باب أَوْلَى عَدَم تقنيط المُؤْمِن من رَحْمَة الله ﷻ إذا ما رُئِي على مَعْصِيَةٍ، وإنَّما الوَاجِبُ حَثُّه على التَّوْبَة وَالِاسْتِغْفَارِ وَتَخْوِيفِه من العَذَاب، وأمَّا الجَزْم بِأَنَّه لَن يَغْفِر له وَالحَلِف على ذلك، فهذا من باب الإِسَاءَة في حَقِّ الله ﷻ، كما أنَّ فيه تقنيطًا من رَحْمَة الله ﷻ.

مَع أنَّ هذا القَائِلَ لِهَذِه العِبَارَة كما وَرَدَ في الحَدِيث إنَّما قالها من باب الغَيْرَة وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوف وَالنَّهْيِ عن المُنْكَر؛ لأَنَّه رَأَى أَخَاه على المَعْصِيَة فَنَهَاه، ولكنَّه أَبَى أن يَتْرُكَ المَعْصِيَة، فَعِنْد ذلك غَضِب عَلَيْه وقال: «**وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلانٍ**»، وَلَكِنَّ الله قال: «**مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ**» وهذا اسْتِنْكَارٌ منه ﷻ لِمَا قَالَه.

وقولُه: «**يَتَأَلَّى**» يعني: يَحْلِف «**عَلَيَّ أَلَّا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟! إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**»، لمَّا أَسَاء الأَدَب مع الله وقنَّط من رَحْمَتِه ﷻ؛ وقد قال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، فَلَمَّا قنَّط من رَحْمَة الله فإنَّه - سُبْحَانَه - أَحْبَط عَمَلَه.

❁ فَهَذَا الحَدِيث فيه مَسَائِل:

ففيه أولًا: بَيَان مَدَى سَعَة رَحْمَة الله ﷻ، وأنَّه يَنْبَغِي لِلعَاصِي أَلَّا يَقْنَطَ منها، وَلَكِن ليس مَعْنَاه أن يُقِيم على مَعْصِيَتِه، فإذا كان يُرِيد الرَّحْمَة فإنَّه يَتُوب إلى الله ﷻ، ولا يَنْبَغِي له أن يَرْجُو رَحْمَة الله وهو مُقِيمٌ على المَعَاصِي، فهذا أَمْرٌ لا يَجُوز، وهو في هذه الحَالَةِ قد أَمِن من مَكْر الله ﷻ.

ثانيًا: أنَّه لا يَجُوز لِأَحَدٍ أن يقنِّط النَّاس من رَحْمَة الله مَهْمَا رَأَى عَلَيْهِم من المَعَاصِي وَالمُخَالَفَات، وَلَكِن يَدْعُوهُم إلى الله وَيَأْمُرُهُم بِالتَّوْبَة، وَيُحَبِّبُهُم بها وَيُرَغِّبُهُم في ثَوَاب الله وَفَضْلِه، وألَّا يَحْلِف أنَّه لَن يَغْفِر لهم.

ثالثًا: أنَّه لا يَجُوز الحَلِف على الله في مَنْعِه ﷻ مِنْ فِعْل المَغْفِرَةِ وَالإِفْضَال على عِبَادِه، وأمَّا الحَلِف على الله على أن يَفْعَل الخَيْر وَيُنْزِلَه، فهذا لا بَأْس به، قال ﷺ: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ، مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**»[1]، وهذا في الرَّجَاء وَحُسْنِ الظَّنِّ بِاَللَّه ﷻ، فإذا حَلَف المُسْلِم على الله بأنْ يَفْعَل الخَيْر وَيَغْفِرَ لِعِبَادِه وَيَرْحَمَهُم، أُعْتُبِر هذا من باب حُسْن الظَّنِّ بِاَللَّه ﷻ، وليس هو من سُوء الظَّنِّ به ﷻ، هذا الفَرْق بين الحَالَتَيْن، وهذا الجَمْع بين الحَدِيثَيْن، حَدِيث: «**وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلانٍ**»، وَحَدِيث: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ، مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**»، فَالأَوَّل أَحْبَط الله عَمَلَه، والثَّاني في الرَّجَاء وَحُسْن الظَّنِّ بِاَللَّه ﷻ.

رابعًا: وفي الحَدِيث خَطَرُ الكَلَامِ السَّيِّئِ، وأنَّه على المُسْلِم أنْ يَحْفَظ نَفْسَه من الانْزِلاق في الكَلَام السَّيِّئِ في حَقِّ الله ﷻ أو في حَقِّ العِبَاد، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، فعلى المُسْلِم أن يَحْفَظ لِسَانَه من أن يقول كَلِمَةً وَاحِدَةً فَيَكْتُب الله له بها غَضَبَه إلى يوم يَلْقَاه، قال أَبُو هُرَيْرَةَ عند هذا الحَدِيث: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ**».

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٢٥٥٦)، ومسلم رقم (١٦٧٥).

التَّرْغِيب في الجَمْع بين الخَوْف والرَّجاء

وَلَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ مرفوعًا: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ»[1]. [١٧]

فَفِيه خَطَر اللِّسَان، فعلى الإِنْسَان أن يَحْفَظ لِسَانَه من الكَلَام السَّيِّئ؛ لأَنَّه رُبَّمَا يقول كَلِمَةً تُحْبِط عَمَلَه، فلا يَتَسَاهَل الإِنْسَان بالكَلَام؛ وفي الحَدِيث: «**وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»[2]. وَالنَّبِيُّ ﷺ يقول: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»[3].

[١٧] إِنَّ الله ﷻ وَاسِعُ المَغْفِرَة وهو شَدِيد العِقَاب، فلو عَلِم المُؤْمِن ما عند الله من العَذَاب لمَا طَمِع في رَحْمَة الله أَحَدٌ، ولو عَلِم الكَافِر ما عند الله من العَفْو وَالمَغْفِرَةِ لمَا قَنِط من رَحْمَتِه أَحَدٌ.

فَهَذَا فيه دَلِيلٌ على سعَة رَحْمَة الله ﷻ وعلى شِدَّة غَضَبِه، وَأَنَّ سعَة الرَّحْمَة لا تَحْمِل المُؤْمِن على الأَمْن من مَكْر الله وَالتَّسَاهُل في عَمَل المَعَاصِي وَالسَّيِّئَاتِ، وَأَنَّ الخَوْف من عَذَاب الله لا يَحْمِل العَبْد على القُنُوط من رَحْمَة الله فَيَتْرُك التَّوْبَة وَالاسْتِغْفَار؛ ظَنًّا منه أَنَّه لَن يَغْفِر له، أو أَنْ يَدْفَع هذا الأَمْرَ أحدًا لتقنيط الآخَرِين من رَحْمَتِه ﷻ، فمثل هذا لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ، لأَنَّه ﷻ فَتَح بَابَه لِلتَّائِبِين.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٧٥٥).

(٢) أخرجه: الترمذي رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه رقم (٣٩٧٣)، وأحمد رقم (٢٢٠١٦).

(٣) أخرجه: البخاري رقم (٥٦٧٢)، ومسلم رقم (٤٧).

وَهْو سُبْحَانَه بين عَذَابِه وَشِدَّة غَضَبِه، وهذا من حِكْمَتِه ﷻ من أَجْل أنْ يُرَغِّب العِبَاد في الأَعْمَال الصَّالِحَةِ ويُنفِّرَهم من الأَعْمَال السَّيِّئَة؛ ولهذا فَإِنَّ القُرْآن الكَرِيمَ مَلِيءٌ بِآيَات الوَعْد وَالوَعِيدِ، وغالبًا ما يَأْتِي ذِكْر الجَنَّة بعد ذِكْر النَّار، فَيَذْكُر سُبْحَانَه النَّار وما اشْتَمَلَت عَلَيْه من العَذَاب، ثمَّ يَذْكُر الجَنَّة وما فِيهَا من النَّعِيم، فَتَجِد هذا في الآيَات المُتَجَاوِرَةِ، وَالحِكْمَة في ذلك دَفَع العَبْد لِلخَوْف وَالرَّجَاء، فإنَّه إذا قَرَأ عن النَّار وَعَرَف ما فِيهَا من العَذَاب لَعَلَّه يَتُوب إلى الله وَيَسْتَغْفِرُه ولا يَقْنَط من رَحْمَتِه، وإذا قَرَأ عن الجَنَّة وما فِيهَا من النَّعِيم لَعَلَّه يَطْمَع في رَحْمَة الله فَيَعْمَل الأَعْمَال الصَّالِحَةَ، فإذا ذُكِرَت النَّارُ تَاب من الذُّنُوب، وإذا ذُكِرَت الجَنَّةُ أَكْثَر من عَمَل الحَسَنَات، هذه هي حِكْمَة الله ﷻ في كَوْنه يَجْمَع بين الأَمْرَيْن.

وكذلك فإنَّه يَنْبَغِي على الدُّعَاة والوُعَّاظِ أَلَّا يَعْتَمِدُوا على آيَات الوَعِيد فَحَسْب، وأَلَّا يُبَالِغُوا في تَخْوِيف النَّاس، وإنَّما عَلَيْهِم أن يُبَادِرُوا إلى فَتْح باب الرَّجَاء وَالطَّمَع في رَحْمَة الله؛ وَعَلَيْه فَإِنَّ الأَصْل في ذلك تَرْغِيبُهم وتَرْهِيبُهم فَيَجْمَعُون بين هذا وَهَذا، وَعَدَم اقْتِصَارِهِم على ذِكْر آيَات العَذَاب وَالوَعِيدِ، أو الِاقْتِصَار على ذِكْر آيَات الرَّحْمَة وَالثَّوَابِ، هذا هو المَطْلُوب من الدُّعَاة وَالوُعَّاظِ والآمرين بِالمَعْرُوف وَالنَّاهِين عن المُنْكَر.

بَيَان مَدَى قُرْب الجنَّة والنَّار من العَبْد

وَلِلبُخَارِيِّ عن ابْنِ مَسْعُودٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ»[(١)]. [١٨]

---

[١٨] هذا الحَدِيث في بَيَان مَدَى قُرْب الجَنَّة من الإِنْسَان وَقَرْب النَّار منه كَذَلِك، وذلك أَنَّه إذا مَات الإِنْسَان وكان صالحًا دَخَل الجَنَّة، وَإِنْ كان غيرَ صَالِح دَخَل النَّار، وَالمَوْت قَرِيْبٌ من الإِنْسَان، فَرُبَّمَا يكون في لَحْظَةٍ، فَيَئُول أَمْرُه إمَّا إلى الجَنَّة وإما إلى النَّار في لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، فَالجَنَّة قَرِيبَةٌ والنَّار كَذَلِك، فلا يَنْبَغِي لِلعَبْد أنْ يُوسِّع الأَمَل في هذه الدُّنْيا فَيَبْسُط النَّفْس فِيهَا وَيَسْتَبْعِد المَوْت وَمَجِيءَ يوم القِيَامَة.

وفي قِصَّة الرَّجُلَيْن اللَّذَيْن مَرَّا على الصَّنَم الذي لم يَكُن أَحَدٌ يَجُوزه حَتَّى يُقَرِّب له قُرْبانًا، فقالوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ، فقال: لا أَمْلِك شيئًا أُقَرِّبُه، فقالوا: قَرِّب ولو ذُبابًا، فقَرَّب ذُبابًا؛ فخلوا سَبِيلَهُ، فدخل النَّارَ، وقالوا للآخر كَذَلِكَ، فقال: ما كُنْتُ لِأُقَرِّب لأحدٍ شيئًا دون الله؛ فقتلوه فدخل الجَنَّةَ[(٢)].

وَقَال الشَّيخُ ﵀ عند هذا الحَدِيث: فِيْه: «**قُرْب الجَنَّة والنَّار مِن الإِنْسَان**»، فَأَمْر الجَنَّة والنَّارِ قَرِيْبٌ من الإِنْسَان.

فَيَنْبَغِي عَدَم فَتْح باب طَوْل الأَمَل من خِلَال اسْتِبْعَاد المَوْت وَمَجِيءِ يوم القِيَامَة، وبالتَّالي التَّمَادِي في الذُّنُوب وَالغَفْلَةُ عن الآخِرَة وَقُدُومُ لَحْظَة المَوْت.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٦١٢٣).

(٢) أخرجه: أبو نعيم في «الحلية» (١/٢٠٣) من قول سلمان ﵁.

وَالأَصْل في ذلك هو الِاسْتِعْدَاد دائمًا لِذِكْر الجَنَّة وَاسْتِحْضَار النَّار، وأنهما قَرِيبَتَان من الإِنْسَان، إذ ليس بَيْنَه وَبَيْنهمَا إِلَّا قَبْضُ الرُّوح ثُمَّ المَآل إلى أَحَدِهِمَا، فَتَصَوُّرُ الجَنَّة يَدْفَع بِالعَبْد إلى فِعْل الأَعْمَال الصَّالِحَةِ، وتَصَوُّرُ النَّار يَدْفَعُه إلى التَّوْبَة وَالِاسْتِغْفَارِ من الذُّنُوب؛ وَالحَذَر كلَّ الحَذَر من أنْ يَفْجَأَ العبدَ الموتُ وهو على حَالَةٍ غيرِ مَرْضِيَّةٍ، فإذا وَقَع العَبْد في ذَنْبٍ، فلا يَنْبَغِي له الِاغْتِرَارُ بِصِغَر سِنِّه وَبِطُول الأَمَل، زاعمًا أَنَّه سيتوب إلى الله إذا ما طَال به العُمُر، وَكَأَنَّه ضُمِن أنَّ ذلك سَيَكُون وهو لا يَدْرِي أنَّ هذا من تَلَاعُب الشَّيْطَان بِه، والله ﷻ يَقُول: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]، فهؤلاء سيتوب الله عَلَيْهِم؛ وَدَلَالَة ذلك قولُه ﷻ: ﴿يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧].

وأَمَّا الذي يَفْتَح لِنَفْسِه باب الأَمَل ويُسَوِّف في التَّوْبَة بعدما غَرَّرَ به الشَّيْطَانُ مُزيِّنًا له أنَّه ما زَال شابًّا في أَوَّل عُمْرِه، فَيَبْدَأ بِتَأْجِيل التَّوْبَة إلى أن يَصِل إلى آخَر عُمْرِه فَيُحْسِن خَاتِمَتَه بِالتَّوْبَة المَزْعُومةِ! فَمَن الذي يَضْمَن له أنَّ عُمْرَه سَيَمْتَدُّ إلى أنْ يَشِيخ وَيَكْبُر؟ بل مَن الذي يَضْمَن له أنَّه سَيَعِيش بُرْهَةً من الزَّمَن؟ فَكَم من إنْسَانٍ فَاجَأَه المَوْت وهو جَالِس مع الآخَرين في لَحْظَةٍ؟ ولهذا نَقُول: إن الآجَال بِيَد الله ﷻ، وقد أَخْفَاهَا عَنَّا، فَقَال: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسُۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ﴾ [لقمان: ٣٤].

الحثُّ على الإِحْسَان إلى المَخْلُوقَات

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ مرفوعًا: «أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا فَغُفِرَ لَهَا بِهِ»[(١)]. [١٩]

فَفِي هذا الحَدِيث الحَثُّ على تَقْوِيَة اليَقِين بِقُرْب الجَنَّة والنَّار، وفيه الحَثُّ على المُبَادَرَة وَالإِسْرَاعِ بِالأَعْمَال الصَّالِحَةِ وَالتَّوْبَةِ من الأَعْمَال السَّيِّئَة، وفيه أنَّ النَّار وَالجَنَّةَ يَبْدَأَانِ مِن حين مَوْت الإِنْسَان ووضْعِه في القَبْر، فَيأْتِيه نَصِيبَه إمَّا من الجَنَّة وإما من النَّار، وَيَصِير قَبْرُه إمَّا رَوْضَةً من رِيَاض الجَنَّةوإِمَّا حُفْرَةً من حُفَر النَّار، وَالقَبْر هو أَوَّل مَنَازِل الآخِرَة، فَإِن نَجَا العَبْد منه فَمَا بَعْدَه أَيْسَر منه.

[١٩] **قَوْلُه: «أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا»**، وَالمَرْأَة البَغِيُّ: هي الزَّانِيَة؛ قال تَعَالَى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ [النُّور: ٣٣]؛ يَعْنِي: على الزِّنَا، وهذه المَرْأَة من بَنِي إِسْرَائِيل مِمَّن كان قَبْلَنَا، وَالنَّبِيُّ ﷺ كان يُحَدِّث أحيانًا عن بَنِي إِسْرَائِيل، بِمَا فيه عِبْرَةٌ وَعِظَةٌ لَنَا، وهذه المَرْأَةُ كانت تُمَارِس الزِّنَا وهي كَبِيرَةٌ من كَبَائِر الذُّنُوب وَفَاحِشَةٌ، وقد كانت ذَات يوم تَسِير في طَرِيق فَأَدْرَكَهَا العَطَش، فَنَزَلَت في بِئْر لِتَشْرَب منه فَشَرِبَت وصَعِدت من البِئْر فَلَمَّا خَرَجَت منه رَأَت كَلْبًا يَلهَث من شِدَّة العَطَش، وفي رِوَايَة: «**يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ**»[(٢)]، فرَحِمَتْه، فَنَزَلَت في البِئْر مَرَّةً ثَانِيَةً،

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٢٤٥).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (١٧١)، ومسلم رقم (٢٢٤٤).

« **فَنَزَعَتْ مُوقَهَا** »، وَالمُوق: وهو الخُفُّ الذي يُلْبَس على القَدَم، فَنَزَعَتْه لِعَدَم وُجُود الإِنَاء الذي يُحْمَل فيه المَاء، وَمَلَأَتْه مَاء، وَأَمْسَكَتْه في فَمِهَا ثـمَّ صَعِدَت من البِئْر فَسَقَت الكَلْب، فَشَكَر الله لَهَا هذا الإِحْسَان إلى هذه البَهِيمَة فَغَفَر لَهَا هذه الخَطِيئَة.

فَهَذَا الحَدِيث فيه فَوَائِدُ عَظِيمَةٌ، منها: فَضْل الإِحْسَان إلى البَهَائِم، وأَنَّه يَجِب على الإِنْسَان أن يَحْسُن إِلَيْهَا بِإِطْعَامِهَا وسَقْيِها وَتَقْدِيم ما تَحْتَاج إِلَيْه، وفيه فَضْل سَقْي المَاء لِلعَطْشَان، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُوْل: « **أَيُّمَا مُؤْمِنٍ سَقَى مُؤْمِنًا عَلَى ظَمَأٍ سَقَاهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ** »[1]، وكذلك البَهَائِم.

وفي الحَدِيث بَيَان سَعَة رَحْمَة الله ﷻ، وأَنَّه يَغْفِر الذُّنُوب، ولو كانت كَبَائِرَ دون الشِّرْك؛ قال تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، وَقَال: ﴿ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ [النساء: ٤٨] يَعْنِي: ما دون الشِّرْك، فهذه امْرَأَة تُمَارِس كَبِيرَةً قَبِيحَةً من كَبَائِر الذُّنُوب فَغَفَر الله لَهَا.

وهذا فيه رَدٌّ على الخَوَارِج الَّذِين يَرَوْن أن مُرْتَكِب الكَبِيرَة يَخْرُج من الإِسلام فَيَكْفُر بِذَلِك، وهذا مَذْهَبُهُم، وَالمُعْتَزِلَة يَقُولُون: يَخْرُج من الإِسلام ولا يَدْخُل في الكُفْر، فَيَكُون في مَنْزِلَة بين المَنْزِلَتَيْن، وهذا من أُصُول المُعْتَزِلَة، وَأَهْلُ السُّنَّة وَالجَمَاعَةِ يَقُولُون: إِنَّ مُرْتَكِب الكَبِيرَة التي دون الشِّرْك لا يَكْفُر، ولكنَّه يَنْقُص إِيمَانُه بِالذُّنُوب كما أَنَّه يَزِيد إِيمَانُه بِالطَّاعَات، فَالإِيمَان يَزِيد وَيَنْقُص ولا يَزُول بِالمَعَاصِي التي دون الشِّرْك

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢٤٤٩)، والبيهقي في « الشعب » رقم (٣٠٩٨).

وَقَالَ: «دَخَلَتِ النَّارَ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا؛ لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»[١].

قَال الزُّهريُّ: لئلَّا يتَّكِلَ أحدٌ ولا ييأسَ أحدٌ. [٢٠]

وَإِنّ كانت كَبَائِر، وَلِكنَّهَا تُنْقِص الإِيمَان، وهذا الحَدِيثُ أَصْلٌ من أُصُول أَهْل السُّنَّة وَالجَمَاعَة في هذه المَسْأَلَة، وهي مَسْأَلَة مُرْتَكِب الكَبِيرَة، وَبَيَان أن الله سُبْحَانَه يَغْفِر له إذا شَاء ﷻ.

وَفِيْه أن الحَسَنَات يُذْهِبْن السَّيِّئَات، فهذه امْرَأَةٌ أَحْسَنْت إلى هذه البَهِيمَة، فسقتها على عَطَشٍ، فَأَذْهَب الله عنها إِثْم هذه السَّيِّئَة القَبِيحَةِ بِسَبَب الحَسَنَة.

وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُوْل: «**وَأَتْبِع السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا**»[٢].

وَاللَّه ﷻ يَقُوْل: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وَقَد سَأَل الصَّحَابَة ﷺ رسولَ الله ﷺ: وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ قَالَ: «**فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**»[٣]، يَعْنِي: سَوَاء كانت الكَبِد الرَّطْبَة من الآدَمِيِّين أو من البَهَائِم.

[٢٠] هذا الحَدِيث على عَكْس الحَدِيث الذي قَبْلَه، فَهَاهُنَا امْرَأَةٌ أَسَاءَت إلى حَيَوَانٍ، فقد كان عِنْدَهَا هِرَّةٌ حَبَسَتْهَا عن الخُرُوج لِطَلَب الرِّزْق، ولم تُؤَمِّن لَهَا ما يُبقِي على حَيَاتِهَا حَتَّى هَلَكَت هذه الهِرَّةِ، وهذه جَرِيمَةٌ وَإِسَاءَةٌ إلى هذا المَخْلُوقِ، فَدَخَلَت النَّار بِسَبَب هذه السَّيِّئَةِ،

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٢٢٣٦)، ومسلم رقم (٢٢٤٢).
(٢) أخرجه: الترمذي رقم (١٩٨٧)، والدارمي رقم (٢٧٩١)، وأحمد رقم (٢١٣٥٤).
(٣) أخرجه: البخاري رقم (٢٢٣٤)، ومسلم رقم (٢٢٤٤).

وليس معنى ذلك أنَّها كَفَرَت، فقد يَدْخُل النَّار من هو مُؤْمِنٌ، إذا كان عِنْدَه ذُنُوبٌ، ولكنَّه لا يَخْلُد فِيهَا، فَيُعَذَّب فِيهَا إلى ما شَاء اللَّه، ثمَّ يَخْرُج منها، فلا يَخْلُد في النَّار إلَّا الكُفَّار.

قوله ﷺ: «**دَخَلَتِ النَّارَ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ**» هذا مثل ما سَبَق مَعَنَا في الحَدِيث أنَّه دَخَل رَجُلٌ النَّار في ذُبَاب، وَدَخَل الجَنَّة رَجُلٌ في ذُبَاب، وَهُنَا ذُكِرَت أنَّه بِسَبَب هِرَّة دَخَلَت المَرْأَة النَّار «**حَبَسَتْهَا**» حيث لم تُؤَمِّن لَهَا ما يَكْفِيهَا من الطَّعَام وَالشَّرَاب، فَدَلَّ هذا على أنَّ من أَسَاء إلى البَهَائِم أنَّه يُؤَاخَذ، وَأَنَّ عَلَيْه هذا الوَعِيدُ، فلا يَنْبَغِي أن يَسْتَخِفَّ الإِنْسَان بِهَذِه البَهَائِمِ فَيَظْلِمُهَا؛ لأنَّ الظُّلم قَبِيحٌ سَوَاءٌ كان مع البَهَائِم أو مع غَيْرِهَا.

وفي هذا الحَدِيث دَلِيلٌ على أنَّه يَجُوز حَبس البَهَائِم بِشَرْط أن يُؤَمِّن لَهَا ما يُبقيها على قَيْد الحَيَاة من المَأْكَل وَالمَشْرَب، فهذه المَرْأَةُ لو أَمَّنت لَهَا ما يَكْفِيهَا لمَاَ دَخَلَت النَّار، فَدَلَّ هذا على أنَّه يَجُوز لِلإِنْسَان أن يَحْبِس الطُّيُور وَالبَهَائِمَ وَلَكِن دون تَعْذِيبِهَا أو إهْلَاكِهَا أو تَعْرِيضِهَا لِلخَطَر.

قَوْلُه: «**قَال الزُّهْرِيُّ**» هو مُحَمَّدُ بْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ، الإمامُ الجَلِيلُ، وَقَوْله: «**لِئَلَّا يَتَّكِل أَحَدٌ**» يَعْنِي: لِئَلَّا يَتَّكِل أَحَدٌ على عَمَلِه، بل يَنْبَغِي أن يَخَاف من الذُّنُوب وَإِنْ كان مُؤمنًا، فهذه امْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ دَخَلَت النَّار بِسَبَب هِرَّة، فلا يَنْبَغِي أن يَأْمَن وَيَتَّكِل على عَمَلِه، بل يَخَاف أن يَدْخُل النَّار.

وَقَوْله: «**ولا يَيْأَس أَحَدٌ**» لِأَجل أنَّ هذه امْرَأَةٌ بَغِيٌّ وكانت قد ارْتَكَبَت الكَبَائِر من الذُّنُوب، فَلَم تَيْأَس من رَحْمَة الله ﷻ، وَعَلَيْه فلا يَنْبَغِي لِلعَبْد

إثْبَات صِفَة العَجَب لِلَّه تعالى

وَعَنْهُ مرفوعًا: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ»(١). [٢١]

أن يَيْأَس من رَحْمَتِه ﷻ بل عَلَيْه المُبَادَرَة إلى التَّوْبَة، قال تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

وَحَدِيث البَغِيِّ يَدُلُّ على أنَّ المُسْلِم لا يَقْنَط من رَحْمَة الله مَهْمَا بَلَغَت ذُنُوبُه، فإذا تَاب إلى الله تَاب الله عَلَيْه.

وَمَسْأَلَة الخَوْف وَالرَّجَاء هي من أُصُول الإِيمَان، وَالخَوْف وَالرَّجَاء من أَعْظَم أَنْوَاع العِبَادَة؛ قال تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ﴾ [الأنبياء: ٩٠] فَقَوْلُه ﷻ: ﴿رَغَبًا﴾ يَعْنِي: رَجَاءً، و ﴿وَرَهَبًاۖ﴾ يَعْنِي: خوفًا، فَيَجْمَعُون بين الخَوْف وَالرَّجَاء، فلا يَخَافُون فقَط، ولا يَرْجُون فقَط، وإنَّما يَجْمَعُون بَيْنَهُمَا، فَمِن خِلَال هَذَيْن الحَدِيثَيْن يَتَبَيَّن لَنَا هَذَا، وَالشَّيخ لمَّا ذَكَر الحَدِيث الأَوَّلَ خَاف على سَامِعِه أنْ يَتَّكِل على ما فيه من سَعَة الرَّحْمَة وعِظَم الرَّجَاء، فَضَمَّ إِلَيْه حَدِيث الهِرَّة الذي فيه التَّخْوِيف ضِدَّ ذلك لِيَجْتَمِع الخَوْف وَالرَّجَاءُ.

[٢١] قوله ﷺ: «**عَجِبَ رَبُّنَا**»: هذا فيه إثْبَات صِفَة العَجَب لِلَّه ﷻ، أَي: أنَّ الله ﷻ يَعْجَب، وهي صِفَة من صِفَاتِه ﷻ كما يَلِيق بِجَلَالِه، وهذا العَجَب ليس كَعَجِب المَخْلُوق، وإنَّما هو عَجَبٌ خَاصٌّ بِاللَّه ﷻ كَسَائِر صِفَاتِه.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٢٨٤٨).

وَقَوْله: «مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ» أَي: أَنَّهُم أُسِروا وقُيِّدوا حَال كَوْنَهُم كُفَّارًا في الجِهَاد في سَبِيل اللَّه، ثمَّ بعد ذلك أَسْلَمُوا، فَيَكُون هذا الأَسْر سببًا لِإسلامهِم ومن ثَمَّ لِدُخُولِهِم الجَنَّة، فكان أَسْرُهُم مصلحةً لَهُم، وهذا من العَجَائِب؛ إذ لا أَحَد يَرْفُض دُخُول الجَنَّة، وَلَكِن إذا كان الإِنْسَان لم يَعْمَل عملًا يُؤهِّله لِدُخُول الجَنَّة فإنَّه لا يَدْخُلُهَا، فَالكَافِر لا يَدْخُل الجَنَّة، وَلَكِن إذا أَرَاد الله له السَّعَادَة فإنَّه قد يَدْخُل الجَنَّة بِسَبَبٍ يَكْرَهُه، فهو يَكْرَه الأَسْر، ولكنَّه صَار سببًا في سَعَادَتِه، أَسَرَه المُسْلِمُون وَقَيَّدُوه بِالسَّلَاسِل ثمَّ إنَّه تَاب وَأَسْلَم بِسَبَب الأَسْر فَدَخَل الجَنَّة، وهذا من العَجب!

فَهَذَا الحَدِيث فيه إثْبَات صِفَة العَجَب لِلَّه ﷻ، وَهَى صِفَة تَلِيق بِجَلَالِه.

وَفِيْه أنَّ الإِنْسَان قد يَكْرَه شيئًا ويكون خيرًا لَه، وقد يُحِبُّ شيئًا ويكون شرًّا لَه، قال تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وَفِيْه أَنَّ الجِهَاد في سَبِيل الله شُرِع لِغَايَةٍ عَظِيمَةٍ وهي إِخْرَاج النَّاس من الكُفْر إلى الإِيمَان، وَإِنْقَاذُهُم من النَّار إلى الجَنَّة، فَلَم يُشْرَع الجِهَادُ في الإِسلام من أَجْل قَتْل النَّاس وَسَفْكِ دِمَائِهِم أو من أَجْل أَخْذ أَمْوَالِهِم وَسَبْي نِسَائِهِم وَالِاسْتِيلَاء على بِلَادِهِم، لم يُشْرَع الجِهَادُ في الإِسلام من أَجْل ذَلِك، وإِنَّما شُرِع من أَجْل غَايَةٍ عَظِيمَةٍ وهي إِخْرَاج النَّاس من النَّار

إثْبَات صِفَة الصَّبر لِلّه تعالى

وعن أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ، يَدْعُونَ لَهُ الْوَلَدَ، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ»(١). [٢٢]

إلى الجَنَّة ولو بِالسَّلَاسِلِ، هذا هو غَايَة الجِهَاد في سَبِيل اللَّه، وهو من مَصْلَحَة النَّاس؛ فَالمُؤْمِن يَنَال به الأَجْر وَالثَّوَابَ وَالشَّهَادَةَ، وقد يكون الكَافِر سببًا في دُخُول الكَافِر الإِسلام وَإِخْرَاجه من الكُفْر إلى الإِيمَان وبالتَّالي دُخُولِه الجَنَّة. وقد قال الله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] أَي: إذا دَعَاكُم لِلجِهَاد؛ سَمَّاه حياةً!

[٢٢] هذا الحَدِيثُ فيه أنَّ الله ﷻ يَصْبِر على أَذَى عِبَادِه؛ وَالصَّبْر مَعْنَاه: الحَبْس، فالله ﷻ يَصْبِر على أَذَى عِبَادِه، فلا يُعاجلهم بِالعُقُوبَة، وإنَّما يُؤَخِّرُهُم، فَإِن تَابُوا تَاب الله عَلَيْهِم، وَتَأْخِيرُهُم إنَّما هو من باب الإِحْسَان إليهم، وَإِعْطَائِهِم الفُرْصَة وَالمُرَاجَعَةَ، فلا يُعاجلهم في العُقُوبَة.

فَهَذَا الحَدِيثُ فيه وَصْفُ الله بِالصَّبْر، وأَنَّه ﷻ يَصْبِر، ومن أَسْمَائِه ﷻ الصَّبُور، والصبور مَعْنَاه: شَدِيد الصَّبْر الذي لا يُعَاجِل النَّاس بِالعُقُوبَة، ومما يَدُلُّ على صَبْرِه سُبْحَانَه أَنَّ النَّاس يَسُبُّونَه وَيُشْرِكُون به وَيَعْصُونَه ومع ذلك يُغَذِّيهِم بِالنِّعَم وَيُعْطِيهِم العَافِيَة وَيُحْسِن إليهم؛ رَحْمَةً بِهِم لَعَلَّهُم يَتُوبُون إِلَيْه ﷻ.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٦٩٤٣)، ومسلم رقم (٢٨٠٤).

وفي الحَدِيث: أنَّ الله يَتَأَذَّى بِأَفْعَال عِبَادِه؛ قال تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وفي الحَدِيث الصَّحِيح: «**يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»(١).

وَاللَّه يَتَأَذَّى بِأَفْعَال عِبَادِه لَكِنَّه لا يَتَضَرَّر، فلا تَضُرُّه المَعَاصِي، قال تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [محمد: ٣٢]؛ فالله لا يَضُرُّه أَحَدٌ، ولا تَضُرُّه المَعَاصِي، وإنَّما تَضُرُّ مَنْ فَعَلَهَا، كما أنَّ الطَّاعَات لا تَنْفَعُه سُبْحَانَه وإنَّما تَنْفَع صَاحِبَهَا، فَالضَّرَر بِالمَعَاصِي وَالنَّفْع بِالطَّاعَات رَاجِعٌ إلى العِبَاد، أمَّا الله ﷻ فلا تَضُرُّه مَعْصِيَة العَاصِين، ولا تَنْفَعُه طَاعَة الطَّائِعِين؛ لأنَّه -سُبْحَانَه- غَنِيٌّ عن عِبَادِه؛ قال تَعَالَى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وفي الحَدِيث القُدْسِيِّ: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا!**»(٢).

فَفِي هذا الحَدِيث أنَّ الله يَتَأَذَّى بِأَفْعَال عِبَادِه من الكُفْر وَالمَعَاصِي، وفيه أنَّه ﷻ يَصْبِر عَلَيْهِم ويُمْهِلُهُم وَيُعَامِلُهُم بِالإِحْسَان مع أَنَّهُم يُعَامِلُونَه

(١) أخرجه: البخاري رقم (٤٥٤٩)، ومسلم رقم (٢٢٤٦).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (٢٥٧٧).

بِالإِسَاءَة، وفي الحَدِيث: «**يَا بْنَ آدم خَيْرِي يَنْزِلُ إِلَيْكَ، وَشَرُّكَ يَصْعَدُ إِلَيَّ، وَأَتَحَبَّبُ إِلَيْكَ بِالنِّعَمِ، وَتَتَبَغَّضُ إِلَيَّ بِالمَعَاصِي**»[1].

وقوله ﷺ: «**يَدْعُونَ لَهُ الْوَلَدَ**» هذا من أَشَدِّ الكُفْر، والله ﷻ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣- ٤]، وهو -سُبْحَانَه- مُنَزَّهٌ عن الوَلَد؛ لأنَّ الوَلَد جُزْءٌ من أَبِيه؛ قال تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزُّخرُف: ١٥]؛ يَعْنِي: نَسَبُوا له الوَلَد؛ وَالوَلَد يُشْبِه أَبَاه؛ لأَنَّه جُزْءٌ منه، والله ﷻ لا شَبِيه لَه، ولو كان له وَلَدٌ لَصَار شريكًا له في المُلْك، وهو -سُبْحَانَه- مُنَزَّهٌ كَذَلِك عن الشَّرِيك وَالشِّرْكِ، وَالوَالِدُ يَحْتَاج إلى الوَلَد، وهو -سُبْحَانَه- ليس بِحَاجَةٍ إلى شَيْءٍ، فَلَه -سُبْحَانَه- مُلْك السَّمَوَات وَالأَرْض، فليس بِحَاجَةٍ إلى الوَلَد من أَجَل أن يُعِينَه أو يَنْفَعَه، تعالى الله عن ذَلِك، لَكِن مع هذا يَنْسِب المُشْرِكُون له الوَلَدَ فَيُؤْذُونَه ﷻ بِذَلِك، وفي هذا بَيَانُ فَضْله -سُبْحَانَه- بِالإِحْسَان إليهم مع إساءاتهم بِخِلَاف طَبَائِع البَشَر، فلا يُوصَف بِالإِحْسَان إلى المُسِيء مِثْله ﷻ.

(١) أخرجه: البيهقي في «الشعب» رقم (٤٥٨٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٧٧).

إِثْبَاتُ صِفَةِ الحُبِّ لِلَّه تعالى

وَله عن أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى: يَا جِبْرِيلُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»[(١)]. [٢٣]

[٢٣] هذا الْحَدِيثُ فيه وَصَفُ اللهِ تعالى بِأَنَّه يُحِبُّ كما قالَ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، واللهُ ﷻ يُحِبُّ من عِبَادِه أَهْلَ الطَّاعَةِ وَأَهلَ الْإِيمَان، فالحبُّ صِفَةٌ من صِفَاتِه ﷻ، وهي صِفَةٌ تَلِيقُ بِجَلَالِه وليست محبَّته كَمَحَبَّةِ الْمَخْلُوقِين، فهو سُبْحَانَه يُحِبُّ وَالْمَخْلُوق يُحِبُّ ولا تُشْبه مَحَبَّةُ الْخَالِقِ مَحَبَّةَ الْمَخْلُوقِين، وهذا أَصْلٌ مُتَقَرِّر عند أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَة.

وَاللَّهُ ﷻ يُحِبُّ بَعْضَ عِبَادِه من أَهْلِ الطَّاعَاتِ والتقوى، فإذا أَحَبَّهُم نَادَى اللهُ تعالى جِبْرِيلَ ﷺ: «**يَا جِبْرِيلُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ،فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ**».

وهذا فيه دَلِيلٌ على أَنَّه يَجِبُ أن نُحِبَّ من يُحِبُّه الله، واللهُ يُحِبُّ التَّوَّابِين وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِين، فَنَحْن نُحِبُّهم بِحُبِّ اللهِ ﷻ لهم، ونبغضُ أَهْلَ الْكُفْر وَالْمَعَاصِي، وهذا من الْوَلَاءِ والبَراء، فَالْمَلَائِكَةُ تُحِبُّ ما يُحِبُّه الله، وَنَحْن كَذَلِك نُحِبُّ ما يُحِبُّه اللهُ من الْأَعْمَالِ ومن الْأَشْخَاص.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٣٠٣٧)، ومسلم رقم (٢٦٣٧).

إثْبَاتُ رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِين لِرَبِّهِم يوم الْقِيَامَة

وعن جَرِيرِ بنِ عَبْدِ الله البَجَليِّ ﷺ قال كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ قَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا» ثم قرأ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠] (١). **[٢٤]**

وقولُه ﷺ: «**ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ**» أي: تُوضَع له الْمَحَبَّةُ في قُلُوبِ النَّاسِ، فإذا رَأَيْتَ شخصًا يُحِبُّه النَّاسُ من أَهْلِ الْخَيْرِ وَالْإِيمَانِ، فهذا عَلَامَةٌ على أنَّ اللهَ قد أَحبَّه وَأَحَبَّتْه الْمَلَائِكَة، وإذا رَأَيْت شخصًا يَكْرَهُه أَهْلُ الدِّينِ وَأَهلُ الإِيمَانِ فَاعْلَم بأنَّ هذه عَلَامَةٌ على أن اللهَ يَكْرَهُه وَيَكْرَهُه كَذَلِك أَهْلُ السَّمَاء؛ واللهُ ﷻ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] أي: مَحَبَّة.

فَالطَّاعَاتُ سَبَبٌ لِنَيْلِ مَحَبَّةِ اللهِ ﷻ، وَمَحَبَّةِ الْمَلَائِكَةِ وَأَهلِ الأَرْض، وَالْمَعَاصِي على الْعَكْس، فهي سَبَبٌ لِبُغْضِ اللهِ ﷻ لَهَا وَلِصَاحِبِهَا، وَبُغْضِ أَهْلِ السَّمَاءِ وَأَهلِ الأَرْض له؛ ولهذا يقولُ ﷺ: «**أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ**» (٢).

[٢٤] هذا الْحَدِيثُ فيه أن الصَّحَابَةَ ﷺ كانوا جلوسًا عند النَّبِيِّ ﷺ «**إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ**»؛ يعني: لَيْلَة التَّمَام، إمَّا لَيْلَة الرَّابع عَشَر

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٥٢٩)، ومسلم رقم (٦٣٣).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (١٣٠١)، ومسلم رقم (٩٤٩).

أو الْخَامِس عَشَر التي فِيهَا يَتَكَامَل الْقَمَر؛ لأَنَّه يَبْدُو في أَوَّلِ الأَمْرِ هلالًا ثم يَكْبُر ولا يَزَال يَكْبُر حَتَّى يَتَكَامَل فَيَصِيرُ بدرًا كاملًا ثم يَأْخُذ في النَّقْصِ حَتَّى يَعُودَ هلالًا في آخرِ الشَّهْر، وهذا من عَجَائِبِ خَلْقِ اللهِ ﷻ، وَالْحِكْمَةُ في تَقْدِيرِ مَنَازِلِ الْقَمَر هي لِأَجْلِ أن يَعْرِفَ النَّاسُ الْحِسَابَ، قال تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ ﴾ [يونس: ٥].

فَقَوْلُه: «**إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ**»: أي: في حَالِ تكامُلِه وبهائِه وحُسْنِه فقال: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ**» والقمرُ في لَيْلَةِ الْبَدْر يَرَاه جَمِيعُ النَّاس، كلٌّ في مَكَانِه دون أن يتزاحموا، فَيَرَاه أَهْلُ الْبَرِّ وَأَهلُ الْبَحْر من غيرِ مُزَاحَمَة، فَالْمُؤْمِنُون يَرَوْن اللهَ ﷻ يومَ الْقِيَامَةِ كما يَرَوْن الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْر، وهذا معنى قولِه: «**لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ**». وفي رِوَايَة تَقْرَأ «**لا تَضامُّون**»؛ إذ يَجُوز ضَمُّ التَّاء وَفَتْحُهَا، وهو بِتَشْدِيد الْمِيم، من الضَّمِّ؛ أي: لا يَنْضَمُّ بَعْضُكُم إلى بَعْضٍ فلا تتزاحمون لِرُؤْيَتِه، بل تَسْتَوُون كُلُّكُم في رُؤْيَتِه تَعَالَى؛ إذ من عَادَة النَّاس أَنَّه إذا كان المَرئي شيئًا واحدًا أَنَّهُم يَتَزَاحَمُون على رُؤْيَتِه، لَكِن الله ﷻ يُرَى يوم الْقِيَامَة دون مُزَاحَمَة، فَكُلّ يَرَاه وهو في مَكَانَه، وهذا في الْمَخْلُوق كَذَلِك، فَالْقَمَر مَخْلُوق من مَخْلُوقَات الله ومع ذلك يَرَاه النَّاس من غير مُزَاحَمَة.

وهذا من بابِ ضَرْبِ المَثَل لِيُقَرِّبَ لِلنَّاسِ مَعْرِفَةَ هذا الشَّيْء، فإذا كان الْمَخْلُوقُ يَرَاه النَّاسُ دون مُزَاحَمَةٍرُؤْيَةً وَاضِحَة، فَإِن الرَّبَّ ﷻ يَرَاه الْمُؤْمِنُون يومَ الْقِيَامَة دون مُزَاحَمَة، وليس هذا من بابِ تَشْبِيهِ الْقَمَرِ

بَاللَّهِ ﷻ، وإنَّما هو من بابِ تَشْبِيه الرُّؤْيَةِ بِالرُّؤْيَة، فهو سُبْحَانَه لا يُشْبِهُه شَيْءٌ، وَلَكِن هذا من بابِ ضَرْبِ الْمَثَل لِتَشْبِيه الرُّؤْيَة بِالرُّؤْيَة، لا من بابِ تَشْبِيهِ الْمَرْئِيِّ بِالْمَرْئِيِّ؛ إذ قد يُشْكِل هذا على بَعْضِ النَّاس.

وقولُه ﷺ: « **فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا** » أي: لا يَغْلِبَكُم الشَّيْطَانُ ولا تَغْلِبَكُم النَّفْسُ وَالْأَشْغَالُ الدُّنْيَوِيَّة « **عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ** » وهي صَلَاةُ الْفَجْر « **وَصَلَاةٌ قَبْلَ غُرُوبِهَا** » وهي صَلَاةُ الْعَصْر « **فَافْعَلُوا** » أي: اجْتَهِدُوا في الْمُحَافَظَةِ على هَاتَيْنِ الصَّلَاتَيْن في وَقتِهما، لتحظَوْا يومَ الْقِيَامَةِ بِرُؤْيَةِ اللهِ ﷻ، فَهَاتَان الصَّلَاتَان لهما فَضِيلَةٌ على غيرِهما من الصَّلَوَاتِ الْخَمْس؛ قال تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وَالصَّلَاة الْوُسْطَى: هي صَلَاةُ الْعَصْر، عَطَفَهَا اللهُ على الصَّلَوَاتِ من بابِ عَطفِ الْخَاصِّ على الْعَامِّ، واهتمامًا بها.

وقولُه: « **ثُمّ قرأ** ﷺ **قولَه تعالى**: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ [ق:٣٩] »: يَعْنِي: صَلِّ، وَالصَّلَاةُ تُسَمَّى تسبيحًا ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ ﴾ [ق:٣٩] أي: صَلَاة الْفَجْر ﴿ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ [ق:٣٩] أي: صَلَاة الْعَصْر؛ وَالْمُرَاد: صَلَاتَا الْفَجْر وَالْعَصْر.

وَصَلَاةُ الْفَجْر يَتَهَاوَن بها كَثِيرٌ من النَّاس، فَيَنَامُون عنها ولا يَهْتَمُّون بها، وَبَعْضُهم لا يُصَلِّيهَا أبدًا، فَيَذْهَب إلى عَمَلِه وقد أَهْمَلَهَا، فمثلُ هذا كافرٌ بِاللَّهِ ﷻ، وَبَعْضُهُم يُصَلِّي متى قَام من نَوْمِه، فَصَلَاتُه هذه غيرُ صَحِيحَة، لِكَوْنِه لم يُصَلِّ الصَّلَاةَ التي أَمَرَ اللهُ بها، وإنَّما صَلَّى صَلَاةً على اخْتِيَارِه هو، لا على اخْتِيَارِ اللهِ ﷻ؛ فهي لا تُقبَل؛ لأَنَّه تعمَّد

إِخْرَاجَهَا عن وقتِهَا، وإذا تَعَمَّد إِخْرَاجَهَا عن وَقْتِهَا فهي غيرُ مَقْبُولَةٍ ولا تَصِحّ.

وَبَعْضُهُم يَخْرُج من الْعَمَل بعد الظُّهْرِ فَيَتَنَاوَل غَدَاءَه وَيَنَام ويُهمِلُ صَلَاةَ الْعَصْر وهذا مُضَيِّعٌ لِلصَّلَاةِ وَرُبَّمَا لا يُصَلِّيهَا أبدًا، فمثل هذا كافر، وَرُبَّمَا صَلَّاهَا إذا اسْتَيْقَظ بعد الْغُرُوب أو وَسْط اللَّيْل، فهذا أيضًا لا تُقْبَل منه صَلَاتُه، فمثلُ هذه الصَّلَاةِ على هذا النَّحْو لم يُشَرِّعْهَا اللهُ ﷻ، فلا يَجُوزُ له التَّلَاعُبُ في الْعِبَادَة، وَمِثْلُ هَؤُلَاء يُحْرَمون من رُؤْيَةِ اللهِ ﷻ يوم الْقِيَامَة.

فَهَذَا الْحَدِيثُ حَدِيثٌ عَظِيمٌ يَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِين لِرَبِّهِم يومَ الْقِيَامَة، وهي من أَعْظَمِ النِّعمِ التي تُعْطَى يومَ الْقِيَامَة؛ إكرامًا لهم، ولا شَيْء أَلَذّ عَلَيْهِم من رُؤْيَة رَبِّهِم ﷻ، فهي أَلَذُّ عِنْدَهُم من جَمِيع النَّعِيم وَالْمَلَذَّات التي هُم فِيهَا، ولذلك يَمْنَحهُم اللهُ هذه الْكَرَامَة فَيَرَوْنَه عِيانًا بِأَبْصَارِهِم.

وفِيه ضَرْبُ الْأَمْثِلَةَ لِلْأُمُورِ الْغَائِبَةِ بِأُمُورٍ مَحْسُوسَةٍ ومشاهَدة من أَجَل تَقْرِيب الْمَعَانِي، فَالنَّبِيُّ ﷺ ضَرَب الْمِثَالَ على الشَّيْءِ الْغَائِبِ بِشَيْءٍ حَاضِرٍ مَحْسُوس، لِئَلَّا يُقَال: كَيْف سَيَرَى أَهْلُ الْجَنَّةِ كلُّهم رَبِّهِم ﷻ وهو وَاحِد، فلا يُمْكِن هذا؟! فَبَيَّن الرَّسُولُ ﷺ أن هذا أَمْكَن في الْمَخْلُوق وهو الْقَمَر، فهو مُمْكِن في حَقِّ اللهِ ﷻ من باب أَوْلَى، ففي هذا إِزَاحَةٌ لِلْإِشْكَال، وَإِيضَاحٌ بِالْمِثَال.

وفي الْحَدِيث: الْحَثُّ على الْمُحَافَظَةِ على الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ لاسِيَّما الْفَجْر وَالْعَصْر، وَأَن ذلك سَبَبٌ لِرُؤْيَةِ اللهِ ﷻ يومَ الْقِيَامَة.

انْتِصَارُ اللهِ لِأَوْلِيَائِه وَانْتِقَامِه من أَعْدَائِهِم

وعن أَبِي هُرَيْرَة ﷺ أن رَسُول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ ﷻ قال: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي المؤمنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[1]. [٢٥]

وُفِيَه أَنَّ مَن لم يُحَافِظ على الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ فإِنَّه يُحْرَمُ من رُؤْيَةِ اللهِ يومَ الْقِيَامَة؛ نَسْأَلُ اللهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَة.

[٢٥] هذا حَدِيثٌ عَظِيم، فيه أن اللهَ ﷻ يقولُ في هذا الْحَدِيث الْقُدْسِيّ: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ**» الْوَلِيّ: الْعَالِمُ بِالله الْمُوَاظِبُ على طَاعَتِه الْمُخْلِص في عِبَادَتِه، وهو الْمَحْبُوب، وَوَلِيُّ الله: عَبْدَه الذي يُحِبُّه ﷻ، وقد تَقَدَّم لَنَا أن اللهَ يُوصَف بِأَنَّه يُحِبُّ أَهْلَ الْإِيمَان، فَمَن أَحَبَّه الله فهو وَلِيُّ الله، والوَلَايةُ بِفَتْح الْوَاو: الْحُبّ، وأَمَّا الوِلَاية بِكَسْر الْوَاو: فهي الْوَظِيفَةُ وَالْإِمَارَة، وأَمَّا الْوَلَايَة بِفَتْح الْوَاو: فهي الْمَحَبَّة.

وَقَد بيَّن اللهُ ﷻ من هو وَلَيُّه في كِتَابِه الْعَزِيز فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٦١٣٧).

يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٣] هَؤُلَاء هُم أَوْلِيَاءُ الله ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٣] فَمَن اتَّصَف بِالْإِيمَانِ والتقوى فهو وَلِيُّ الله ﷻ، ومن تَرَك الْإِيمَانَ والتقوى فهو عَدُوُّ الله، فإذا أَرَدْتَ أن تَكُونَ وليًا لِلَّه فَكُن من الْمُؤْمِنِين الْمُتَّقِين؛ فَلَيْسَت الْوِلَايَةُ مُجَرَّدَ دَعْوَى بِاللِّسَان كَقَوْلِ الْيَهُود والنصارى كما أَخْبَر سُبْحَانَه: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ [المائدة: ١٨]، فلو كنتم أَوْلِيَاءَ اللهِ لمَا عذبكم، فاللهُ رَدَّ عَلَيْهِم بِأَنَّهُم لَيْسُوا بِمُؤْمِنِين ولا مُتَّقِين، ثم قال: ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [المائدة: ١٨]، فَدَعْوَى الْوِلَايَة لا تثبت إلَّا بِدَلِيلٍ وَبُرْهَان، فَمَن كان تقيًّا ومؤمنًا بِاللَّه ﷻ فهو وَلِيٌّ لِلَّه، وأمَّا من كان بِخِلَافِ ذلك فإنَّه عَدُوٌّ لِلَّه ﷻ.

فَقَوْلُه: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا**»: أي عبدًا محبوبًا لِي من الْمُؤْمِنِين الْمُتَّقِين، «**فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ**» أي: أَعْلَمْته بِأَنِّي أحاربه على عَدَاوَتِه لِوَلِيِّي؛ وَإِعْلَانُ الْحَرْبِ من اللهِ ﷻ بِمَا يَشَاء من جُنُودِه، فقد يُحَارِبُه بِالْأَمْرَاضِ وبالفقرِ أو بِمَوْتِ الْأَحْبَاب وَالْأَقَارِب، ويحاربُه بِكُلِّ الْمَصَائِب أو بِتَسْلِيط الظَّلَمة عَلَيْه، فَلَه سُبْحَانَه جُنُود السَّمَوَات وَالْأَرْض، فهو سُبْحَانَه يُحَارِبُ أعداءَه بِجُنُودِه التي هي جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْض، فقد نَرَاهُم وقد لا نَرَاهُم، فالذي يُعَادِي أَوْلِيَاءَ اللهِ فإنَّه سُبْحَانَه يُحَارِبُه.

فَهَذَا الْحَدِيثُ فيه أنَّه لا يَجُوزُ مُحَارَبَةُ أَوْلِيَاءِ اللهِ وَمُعَادَاتِهِم، وَأَن من عَادَاهُم وَآذَاهُم فَإِن اللهَ يَنْتَقِمُ منه، فهؤلاء الَّذِين يُؤْذُون الْمُؤْمِنِين بِالِاسْتِهْزَاءِ وَالسُّخْرِيَةِ والتنقُّصِ منهم من خِلَال كتاباتهم في الصُّحُفِ

والمجلاتِ وَوَسَائِلِ الْإِعْلَام، فَيَسْخَرُون من أَهْلِ الدِّيْنِ وَالْإِيمَانِ وَأَهَلِ الْحِسْبَة وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عن الْمُنْكَرِ هَؤُلَاء يَتَنَاوَلُهُم هذا الْحَدِيث، واللهُ يَنْتَصِرُ لِأَوْلِيَائِه، فَيَنْبَغِي عَدَمُ إِيذَاءِ أَوْلِيَاء اللهِ وَعُدِم التنقص لهم، أو التَّعَرُّض لهم بِأَيِّ نَوْع من أَنْوَاع الْأَذَى.

وقولُه: « **وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ** » هذا فيه -كَمَا سَبَق- إِثْبَاتُ صِفَةِ الْحُبِّ لِلَّهِ ﷻ، وأنَّه سُبْحَانَه يُحِبُّ الْأَشْخَاصَ وَالْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ التي تُعمَل من قِبَلهم

وُفِيَه أنَّ الْفَرَائِضَ أَحَبَّ إلى اللهِ من النَّوَافِل، فَيَنْبَغِي على الْإِنْسَانِ أن يُحَافِظَ على الْفَرَائِضِ أولًا ثم يَأْتِي بِالنَّوَافِل، أَمَّا أن يَأْتِي بِالنَّوَافِل وَيُتْرَك الْفَرَائِضُ فهذا على عَكْسِ ما يُحِبُّه اللهُ تَعَالَى، وهذا لا يَنْفَعُه؛ إذ لا تُقْبَل النَّوَافِلُ إلَّا بعد أَدَاءِ الْفَرَائِضِ، فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِم الِاهْتِمَامُ بِأَدَاءِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَصَوْمِ رَمَضَان، وَدَفْعُ الزَّكَاةِ وَأَدَاءُ فَرِيضَةِ الْحَجِّ، وَكُلُّ ما افْتَرَضَه اللهُ عَلَيْه كَالْبِرِّ بِالْوَالِدَيْن وَالْإِحْسَانِ إلى الْأَقَارِب. فَالْأَصْلُ في هذا هو أَدَاءُ الْفَرَائِضِ أولًا ثم بعد ذلك التزوُّد بِالنَّوَافِل، هذا هو الْأَسَاسُ السَّلِيمُ للأعمالِ الصَّالِحَةِ.

وقولُه: « **وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ** » وَالنَّوَافِل: هي الْعِبَادَاتُ غير الْمَفْرُوضَة سَوَاءٌ في الصَّلَاة أو في الصَّدَقَات أو في الصِّيَام أو في الْحَجِّ وَالْعُمْرَة، فَكُلُّ عَمَلٍ صَالِحٍ يَنْقَسِم إلى قسمين: فَرَائِض، وَنَوَافِل، فَيَبْدَأ بِالْفَرَائِضِ أولًا، ثم بعد ذلك يَأْتِي بِالنَّوَافِل، فَيَنْبَغِي التَّقَرُّبُ إلى اللهِ بِالْوُصُولِ إِلَيْه من خِلَالِ هذه النَّوَافِل،

وأمَّا عِصْيَانُه فإنَّه يُؤَدِّي إلى الابْتِعَادِ عَنْه ﷻ، فَالتَّقَرُّبُ إلى اللهِ إنَّما يكونُ بالطَّاعَاتِ والابتعاد عَنْه ﷻ يكونُ بِعَمَلِ الْمَعَاصِي.

وقولُه: «**حَتَّى أُحِبَّهُ**» فَكَمَا ذَكَرنَا فيه إثْبَاتُ صِفَةِ الْحُبِّ لِلَّهِ ﷻ، وأنَّه يُحِبُّ عَبْدَه الذي يَتَقَرَّبُ إلَيْه بِالْفَرَائِضِ أولًا ثم بِالنَّوَافِلِ.

وقولُه: «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ**» ومعنى ذلك كما فَسَّرَه في آخَرِ الْحَدِيث بِقَوْلِه: «**وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**» فَآخِرُ الْحَدِيثِ يُفَسِّر أَوَّلَه، وَالْمُرَادُ أن اللهَ ﷻ يكون مَعَه مَعِيَّة خَاصَّة فَيُسَدِّدُه في أَقْوَالِه وفي أَفْعَالِه؛ هذا معنى قوله: «**كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ . . .**»إلَخ، وليس مَعْنَاه أنَّه ﷻ مَعَه مَعِيَّةٌ حِسِّيَّةٌ تَقْتَضِي الْمُخَالَطَة؛ أو يَخْتَلِطُ في جِسْمِه كما تَقُولُه الحلولية والبهائية مِمَّا يُعتبَر من الْكُفْر وَالإلْحَاد، وَلَكِن مَعْنَاه أنَّه سُبْحَانَه يكون مَعَه مَعِيَّة خَاصَّة تَقْتَضِي التَّوْفِيقَ وَالْهِدَايَةَ وَالتَّسْدِيد في جَمِيعِ تَصَرُّفَاتِه، وهذا نَتِيجَةُ مَحَبَّةِ اللهِ له، وهذا كُلُّه حَاصِلٌ من التَّقَرُّبِ إلى اللهِ ﷻ بِالْفَرَائِض وَالنَّوَافِلِ؛ ففيه فَضْلُ التَّقَرُّبِ إلى اللهِ بِالْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ.

وقولُه: «**وما تَرَدَّدت عن شَيْءٍ أَنَا فَاعِله تَرَدُّدِي عن قَبْضِ نَفْس عَبْدِي الْمُؤْمِن**» الله ﷻ يُحِبُّ ما يُحِبُّه عَبدُه الْمُؤْمِن، وَيُكْرَه ما يَكْرَهُه، فَالْمُؤْمِنُ يَكْرَه الْمَوْت، واللهُ ﷻ يكْرَه له ذلك، ولكنه لا بدَّ منه؛ ولهذا قال: «**وما تَرَدَّدت**» وَالتَّرَدُّدُ يكونُ بين شَيْئَيْن، وَلَكِنَّ اللهَ ﷻ لا يَتَرَدَّد، وإنَّما مَعْنَاه كَرِهْت، وهو ما جَاء في آخَرِ الْحَدِيث، وَالْمُرَاد: ما كَرِهْتُ شيئًا أَشَدّ من قَبَضِ رُوحِ الْمُؤْمِن؛ لأنَّ الإِنْسَانَ بطبيعتِه يَكْرَه الْمَوْت،

إِثْبَاتُ نُزُولِ اللهِ تعالى إلى سَمَاءِ الدُّنْيَا

وَعَنْه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»[(١)]. [٢٦]

وحتى الْبَهَائِم تَكْرَه الْمَوْت، وَلَكِن لا بدَّ له منه؛ وقوله: «**أَكْره مَساءته**» يُفَسِّر قوله: «**مَا تَرَدَّدَت**»؛ فَالْحَدِيثُ يُفَسِّر بَعْضُه بعضًا، فَإِمَّا أن يكون في حَدِيثٍ وَاحِدٍ أو في حَدِيثٍ آخَر، وكذا كَلَامُ اللهِ يُفَسِّرُ بَعْضُه بعضًا، وَمِثْل هذا يَحْتَاجُ إلى فِقْهٍ وَعدَم اسْتِعْجَالٍ في الْفَهْم.

[٢٦] الله ﷻ مَوْصُوف بِالْعُلُوّ فَوْق مَخْلُوقَاتِه، وَمَوْصُوفٌ بِالِاسْتِوَاءِ على الْعَرْش، وَمَوْصُوفٌ بِأَنَّه يَنْزِل إلى سَمَاءِ الدُّنْيَا، وُكلُّ هذا نُثْبِتُه لِلَّهِ ﷻ؛ لأَنَّه جَاء بِأَدِلَّةٍ صَحِيحَة، فَنُثْبِت لِلَّهِ الْعُلُوَّ، وَنُثْبِتُ له الِاسْتِوَاءَ على الْعَرْش، وَنُثْبِتُ له سُبْحَانَه النُّزُولَ إلى سَمَاءِ الدُّنْيَا كما جَاءَ عن رَسُولِ اللهِ ﷺ الذي وصفَه اللهُ تعالى بِقَوْلِه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣- ٤]، فَنَحْن نُثبتُ نزولَ اللهِ تعالى إلى سَمَاءِ الدُّنْيَا كلَّ لَيْلَة كما صَحَّ في الْحَدِيثِ ولا نَدْخُل في تَأْوِيلِ ذلك أو في اسْتِنْكَارِه، بل نُثْبِتُ ما أَثْبَتَه اللهُ ﷻ لِنَفْسِه، وَأَثْبَتَه له رَسُولُه ﷺ كما جَاء دون الدُّخُول في الْكَيْفِيَّة.

فَلا نَقُول: كَيْف يَنْزِل؟ وهل يَنْتَقِل من مَكَانٍ إلى مَكَان؟ وَنَحْو هذه الْأَسْئِلَة التي لم نُكلَّفْ بها، ولا فَائِدَة منها، وَلَكِن نَقُول: يَنْزِلُ كَيْف

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (١٠٩٤)، ومسلم رقم (٧٥٨).

يَشَاء ﷻ، فَكَيْفِيَّة النُّزُول لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هو ﷻ، وكذلك الِاسْتِوَاء، فلا نَعْلَمْ كَيْفِيَّة اسْتِوَائِه ﷻ.

وَلَمَّا سَأَل رَجُلٌ الإمامَ مَالِكَ بنَ أَنَس قال: «﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، كَيْف اسْتَوَى؟ فقال الإمامُ مَالِك بعدما أَخَذْته الرُّحضاء، ثم أَطْرَق رَأْسَه حَيَاءً من الله ﷻ، ثم رَفَع رَأْسَه وقال: يا هَذَا، الِاسْتِوَاءُ مَعْلُوم، وَالْكَيْفُ مَجْهُول، وَالْإِيمَانُ به وَاجِب، وَالسُّؤَالُ عَنْه بِدْعَة. ثم أَمَر به فَأُخْرِج من الْمَجْلِس».

هَكَذَا كان السَّلَفُ الصَّالِحُ يُثْبِتُون ما أَثْبَتَه اللهُ لِنَفْسِه على مَعْنَاه الصَّحِيح الذي جَاء به، ولا يَتَعَرَّضُون لِلْكَيْفِيَّة، وَنَحْن نُثْبِت النُّزُولَ كما نُثْبِتُ الِاسْتِوَاءَ وَالْعُلُوَّ لِلَّهِ ﷻ، وَنَقُول: الله أَعْلَم بِكَيْفِيَّة نُزُولِه وَاسْتِوَائِه.

فَقَوْلُه: «**يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا**» فيه إِثْبَاتُ النُّزُولِ لِلَّهِ ﷻ، وهو أَمْرٌ مُتَوَاتِر عن الرَّسُولِ ﷺ، وقد كَتَبَ شَيْخُ الإسلام ابن تَيْمِيَّة رَحِمَهُ اللهُ مؤلَّفًا مستقلًّا على هذا الْحَدِيثِ سَمَّاه «شَرْح حَدِيث النُّزُول» وهو مَطْبُوعٌ ومنتشرٌ ولله الْحَمْدُ وهو من عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَة.

وقولُه ﷺ عن رَبِّه: أنَّه يقول «**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**» فيه فَضْلُ وقت آخِرِ اللَّيْل، أي: الثُّلُث الْأَخِير منه، وَفَضْلُ قِيَام الْعَبْد في هذه الْفَتْرَة وَصَلَاتِه وَدُعَائِه وَاسْتِغْفَارِه وَتَوْبَتِه وَسُؤَالِه لِرَبِّه من أَجل أن يَنَالَ هذه الْكَرَامَاتِ من اللهِ ﷻ، فلا تَمر عَلَيْه هذه الْفَتْرَة وهو نَائِم، بل يَقُوم في الثُّلُث الْأَخِير من اللَّيْل وَيَتَعَرَّض لِنَفَحَات الله وَيَحْظَى بِهَذِه الإجابات منه ﷻ.

وعن أَبِى مُوسِي الأشعريِّ ﷺ قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَرَوْا رَبَّهُمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»[1]. [٢٧]

وَأهلُ التَّأْوِيلِ يؤوِّلون هذا الْحَدِيثَ بِقَوْلِهِم: إنَّما يَنْزِل أَمْره إلى سَمَاءِ الدُّنْيَا ! وَنَحْن نَقُول: هل الأَمْرُ الذي أوَّلوا به النُّزُولَ يقول: من يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيب له؟ أو من يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَه؟ وهل الأَمْر يَغْفِر؟ وهل الأَمْر يُجِيب الدُّعَاء وَيَتُوب على التَّائِب؟! ما أقبحَ هذا التَّأْوِيل ! فَالْحَدِيثُ وَاضِحٌ في أنَّ اللهَ يَنْزِلُ بِذَاتِه نزولًا حقيقيًّا لا أَمْرِه؛ إذ إن أَمْرِه يَنْزِل إلى سَمَاء الدُّنْيَا وإلى الأَرْض كلّ وَقْت وليس في وقت مَخْصُوص، وَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا وَالْحَالَة هذه الْإِيمَان بِمَا جَاء في كتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِه ﷺ، وألا نَدْخُلَ في الْكَيْفِيَّة.

وَبَعْضُهم يُورِد شُبْهَةً أُخْرَى في هذا الْحَدِيث وَيَقُول: ثُلُث اللَّيْل الآخر يَخْتَلِف بِاخْتِلَاف الْأَقَالِيم !

نَقُول: إن هَؤُلَاء يَبْحَثُون في أُمُورٍ لم يُكَلِّفْهُم اللهُ بِالْبَحْثِ فِيهَا، فالذي خَلَقَ اللَّيْلَ والنهار وَخَلَقَ الْأَقَالِيم قَادِرٌ على أن يَنْزِلَ نزولًا يَلِيقُ بِجَلَالِه، متى شَاء وَكَيْف شَاء ﷻ، فالله ﷻ قَادِر على كلّ شَيْء، فهو سُبْحَانَه أَخْبَرَنَا أنَّه يَنْزِل، فَنَقُول: يَنْزِل، سَوَاء اخْتَلَف اللَّيْل، أو اخْتَلَفَت الْأَقَالِيم، واللهُ تعالى أَعْلَم.

[٢٧] **الْجَنَّاتُ كَثِيرَة،** فهناك جنَّة عَدَن، وَجَنَّة الْفِرْدَوْس، وَجَنَّة النَّعِيم، وهناك جنان كَثِيرَة، وأعلاها الْفِرْدَوْس، وفي الْحَدِيث:

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٤٥٩٧)، ومسلم رقم (١٨٠).

باب: قَوْلُ الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣]. [٢٨]

«إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»(١)، وَالْجِنَانُ مَخْلُوقَةٌ، فَمِنْهَا ما هو مَخْلُوق من ذَهَبٍ كُلّه بآنيتِه وما فيه، ومنها ما هو مَخْلُوق من فِضَّة آنِيَتِه وما فيه، وَالْمُؤْمِنُون يَنْزِلُون في الْجِنَان بِحَسَب أَعْمَالِهِم.

فَفِي الْحَدِيثِ إثْبَاتُ الْجِنَان وهي من أُمُورِ الآخِرَة ومن عِلْمِ الْغَيْبِ الذي لا يَعْلَمُه إلَّا اللهُ ﷻ، فَنُؤْمِنُ بِوُجُودِ الْجَنَّةِ وَبِوُجُودِ النَّار، وَنُؤْمِنُ بِمَا يكونُ يومَ الْقِيَامَة بِجَمِيعِ ما أَخْبَر اللهُ ﷻ به وما أَخْبَر عَنْه رَسُولُه ﷺ، فَمَا صَحَّ في الْخَبَر نُؤْمِنُ به.

وَالشَّاهِدُ في الْحَدِيث: بَيَان أَنَّه ليس بين أَهْلِ الْجَنَّةِ وبين أن يَرَوْا رَبَّهم إلَّا أن يَنْزِعَ سُبْحَانَه الْحِجَاب، فهذا فيه إثْبَاتُ الرُّؤْيَةِ كما سَبَق، وَأَن الْمُؤْمِنِين يَرَوْن رَبَّهم.

وفِيَه إثْبَاتُ الْحِجَابِ لِلَّهِ ﷻ، وأنَّه اتَّخَذ الْحِجَاب، فإذا شَاء سُبْحَانَه وأرادَ إكْرَامَ الْمُؤْمِنِين حفَّهم بِرَأْفَتِه وَتَفَضَّل عَلَيْهِم وَنَزَعَه فَرَآه الْمُؤْمِنُون.

[٢٨] قال الشيخُ ﵀: «**بَاب قَوْل الله تعالى**: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]» أي: بَيَان تَفْسِير هذه الآيَة وما جَاء بِمَعْنَاهَا من الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَة؛ لأنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ يُفَسَّر بِالْقُرْآن، فإذا لم يُوجَد في الْقُرْآنِ تَفْسِير، فإنَّه يُفَسَّر

(١) أخرجه: البخاري رقم (٦٩٨٧).

بِالسُّنَّةِ الثَّابِتَةِ عن الرَّسُولِ ﷺ، وهذه الْآيَة جَاء تَفْسِيرُهَا في السُّنَّةِ.

فَقَوْلُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣] يعني: الْمَلَائِكَة إذا سَمِعْتَ كَلَامَ الرَّبِّ ﷻ، فإِنَّه يُصِيبَهُم فَزِعٌ وَخَوْفٌ من اللهِ ﷻ؛ لأَنَّ كَلَامَه عَظِيمٌ تُرْعَد له السَّمَوَات، ولو أَنْزَل اللهُ الْقُرْآنَ على جَبَلٍ لَأَصْبَح خاشعًا متصدِّعًا من خَشْيَةِ الله.

فَكَلَامُه سُبْحَانَه له هَيْبَةٌ وَعَظَمَةٌ وَجَلَال، فإذا تَكَلَّم اللهُ بِالْوَحْي أَخَذَت السَّمَوَاتُ منه رَعدةٌ شَدِيدَة وهي جَمَاد، فإذا سَمِع ذلك الْمَلَائِكَةُ صُعِقوا وَأَصَابَهُم غَشْيٌ وخرُّوا لِلَّه سُجَّدًا تعظيمًا له ﷻ وَهَيْبَة من كَلَامِه، وخوفًا من غَضَبِه.

هَذَا كَلَامُ اللهِ الذي هو بين أَيْدِينَا الْآن ولا نُحرِّكُ مَعَه ساكنًا إذا سَمِعْنَاه أو قَرَأْنَاه وذلك لِقَسْوَة قُلُوبِنَا ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاَللَّه، فلو كانت الْقُلُوبُ حَيَّةً لأصابَها الْخَوْفُ وَالْإِجْلَالُ وَالتَّعْظِيمُ لِكَلَامِ اللهِ ﷻ؛ قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] فالجبلُ أَلْيَنُ من قُلُوبِ بَنِي آدَم، وهذا من الْعَجَائِب.

لَكِن ما السَّبَبُ الذي جَعَلَ الْقُلُوبَ هَكَذَا؟

إِنَّهَا الذُّنُوبُ وَالْمَعَاصِي وَالْغَفْلَةُ عن ذكرِ الله، وَأَكْلُ الْحَرَام وَالِاشْتِغَالُ بالقِيلِ والقَالِ وَالضَّحِكِ والمِزاح، كلُّ هذه الْأُمُورِ من شَأْنِهَا أن تُقسِّيَ الْقُلُوب، فإذا سَمِعَتْ هذه الْقُلُوبُ كَلَامَ اللهِ فَإِنَّهَا لا تَتَأَثَّرُ ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاَللَّه؛ مع أَنَّ السَّمَوَاتِ على عِظَمِها تَرْعَد من كَلَامِ الله، وَالْمَلَائِكَة تُصعَق وَتَخِرُّ سَاجِدَةً لِلَّهِ جلَّ شَأْنُه عند سَمَاعِ كَلَامه.

بَيَانُ افْتِرَاءِ الْكَهَنَةِ وَكَذبهِم

وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنه قال: أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْأَنْصَارِ أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، كُنَّا نَقُولُ: وُلِدَ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَإِنَّهَا لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ. قَالَ: فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبَرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَتَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ فَيَقْذِفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ، وَيُرْمَوْنَ بِهِ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ»[(١)]. [٢٩]

ثُمَّ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَتَسَاءَلُون إذا ذَهَب عَنْهُم الْفَزَع: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ [سبأ: ٢٣]؟ يَسْأَلُون جِبْرِيلَ عليه السلام، أَمِينَ الْوَحْي، فَيَقُول جِبْرِيل: قال الْحَقّ، فإذا سَمِعُوا ذلك: ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، فهذا فيه بَيَانُ عَظَمَةِ كَلَامِ اللهِ جل وعلا، ووَجَل الْمَلَائِكَةِ وَالسَّمَوَاتِ وَالْمَخْلُوقَاتِ الْعُلْوِيَّة منه.

[٢٩] **قوله: «حَدَّثَنِي رَجُل عن أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ»** كَوْنه قال: «**عَن أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ**» فهذا لا يَحْتَاج إلى بَحْث؛ لأنّ الصَّحَابَة كلهم

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٢٢٩).

عُدُول، فَالْجَهَالَة في اسْم الرَّاوِي لا تَضُرّ، إنَّما الْمَجْهُول إذا كان من غير الصَّحَابَة فإنَّه يُبحَث عَنْه، وأمَّا الْمَجْهُول من الصَّحَابَة فلا حَاجَة لِلْبَحْث عَنْه؛ لأنّ الله سُبْحَانَه عدَّلهم وَمَدَحَهُم وأثنى عَلَيْهِم، وكذا النَّبِيّ ﷺ مَدَحَهُم وأثنى عَلَيْهِم.

قولُه: «**رُمِيَ بِنَجْمٍ**» أي: بِشِهَاب، وَالْمُرَاد: رَجَم الشُّهُب التي تُرْمَى بها الشَّيَاطِين التي تُحَاوِل اسْتِرَاق السَّمْع كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [المُلك: ٥].

وَقَال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦- ١٠]، ورَمْيُ الشُّهُب من السَّمَاء سَبَبه أنَّه رجوم لِلشَّيَاطِين.

قَولُه: «فَقَال ﷺ: «**مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا؟**»»: يعني: في الْجَاهِلِيَّة؛ لأنَّ رَمْيَ الشُّهُب مُتَكَرِّر، وهو في الْجَاهِلِيَّةِ أَكْثَر، فَكَانُوا في الْجَاهِلِيَّةِ يَعْتَقِدُون اعتقادًا سيئًا فَيَقُولُون: إنَّه إذا رُمي بِالشِّهَابِ فإنَّه سَيَمُوتُ عَظِيمٌ أو سَيُولَد عَظِيم، هذا ظَنُّهم وتخرُّصهم، كما كانوا يَعْتَقِدُون ذلك إذا ما كُسِفت الشَّمْسُ أو خُسف الْقَمَر، فبيَّن ﷺ كذِبَ هذا الزَّعْم وأنَّه غيرُ صَحِيح، وَأَن هذه الشُّهب ليست لِوِلَادَة أَحَدٍ أو لِمَوْتِ أَحَد، وإنَّما هي لِأَمْرٍ أَعْظَم من ذلك.

قَولُه: «**فَقَال** ﷺ: «**إِنَّهَا لم تَرْم لِمَوْتِ أَحَدٍ ولا لِحَيَاتِه**»»: في هذا تَصْحِيحٌ منه ﷺ لِاعْتِقَادِهِم، وفيه تَعْلِيمُ الْجُهَّالِ ولاسيما في الْمُنَاسَبَاتِ الشَّبِيهَة بِهَذِه.

قَوْلُه: «ولكنْ ربُّنا ﷻ إذا قَضِى أمرًا سبَّحت حَمَلةُ العرشِ» إذا قَضَى أمرًا ﷻ من الْأُمُورِ التي سَتَحْدُثُ في هذا الْكَوْنِ مِمَّا قضاه وَقَدَّرَه، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ الَّذِين يَحْمِلُون الْعَرْشَ يَشْرعُون بِالتَّسْبِيح، وهذا فيه أن كلَّ شَيْءٍ يَحْدُث في هذا الْكَوْنِ إنَّما هو بِقَضَاءٍ وَقَدَر من اللهِ ﷻ، فلا يكونُ في هذا الْكَوْنِ إلَّا ما شَاءَه اللهُ ﷻ وقضاه وَأَرَادَه وَقَدَّرَه؛ وفي هذا إثْبَاتُ الْقَدْر.

قَوْلُه: «حَتَّى يُسبِّحَ أهلُ السماءِ الَّذِين يَلُونهم» هَؤُلَاء الْمَلَائِكَةُ إذا سَمِعُوا كَلَامَ الله فَإِنَّهُم يُسَبِّحُون له؛ أي: يُنَزِّهُونَه ﷻ عن النَّقْصِ وَالْعَيْب، فَيَشْتَغِلُون بِالذِّكْر.

وقولُه: «حَتَّى يبلغَ التَّسبيحُ أهلَ السماءِ الدُّنيا» هذا فيه أن السَّمَوَاتِ مَعْمُورَةٌ بِالْمَلَائِكَة، فَكُلُّ سَمَاءٍ لَهَا مَلَائِكَةٌ خاصون يَسْكُنُونَهَا، وهي سَبْعُ سَمَوَات، وَالْمَلَائِكَةُ هُم عُمَّارُ السَّمَوَاتِ بِالْعِبَادَةِ وَالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيل، ومنهم حَمَلَةُ الْعَرْش.

وقولُه: «فَيَقُول الَّذِين يَلُونَ حَمَلَةَ العرشِ: مَاذَا قال ربُّكم؟» هذا فيه إثْبَاتُ وُجودِ حَمَلَة الْعَرْش، وهم أَرْبَعَةُ مَلَائِكَة، ولا يَعْلَمُ عِظَمَ خِلْقَتِهِم إلَّا اللهُ ﷻ، ثم إنَّه يومَ الْقِيَامَة عند قِيَام السَّاعَة يُضَاعَف عَدَدُهم فَيَكُونُون ثَمَانِيَة؛ قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] زَاد عَدَدُهم الضِّعْف لِلْهَوْل الذي يَحْصُل.

وقولُه: «فَيَسْتَخْبِر أَهْلُ السَّمَوَات بَعْضهُم بعضًا» يَسْأَل بَعْضهُم بعضًا: ما الذي قضاه الله؟ وما الذي قَالَه ﷻ؟

وقولُه: «**حَتَّى يبلغَ الخبرُ أهلَ السماءِ الدُّنيا**» السَّمَاءُ الدُّنْيَا هي التي تَلِي الأَرْض، فَحِينَمَا يَتَكَلَّمُون فَإِن الشَّيَاطِينَ تَسْتَرِقُّ السَّمْع فَتَرْتَفِعُ في الْعِنَان وَيَرْكَب بَعْضهُم بعضًا حَتَّى يَصِلُوا إلى الْجَوِّ قُرْبَ السَّمَاءِ ليستمعوا مَاذَا تَقُول الْمَلَائِكَة.

وقولُه: «**فتَخطَفُ الجِنُّ السَّمعَ فيُلقونَه إلى أَوْلِيَائِهِم**» فهؤلاء الْجِنُّ يُحَاوِلُون اسْتِرَاق السَّمْع فَيُرْمُون بِالشُّهُبِ ولا يُدْرِكُون ما أَرَادُوا إِلَّا في بَعْض الْأَحْيَان، فقد يخطِفُ الشَّيْطَان كَلِمَة من كَلَام الْمَلَائِكَة، ثم يُلْقِيهَا إلى وَلِيِّه من بَنِي آدَم من الْكَهَنَة، لأنَّ هَؤُلَاء الْكُهَّان يَأْخُذُون عن الشَّيَاطِين؛ قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١- ٢٢٣] فإذا حَصَل الشَّيْطَانُ على هذه الْكَلِمَة أَلْقَاهَا إلى الْكَاهِنِ من بَنِي آدَم، ثم الْكَاهِن يَكْذِبُ مَعَهَا مِائَة كَذِبَة وَيُحَدِّثُ بها فَيُصَدِّقُه النَّاسُ في كلِّ ما قال من الْكَذِبِ بِسَبَبِ الْكَلِمَة التي سَمِعَهَا الشَّيْطَانُ من كَلَامِ الْمَلَائِكَة.

وقولُه: «**فَمَا جَاءُوا به على وَجهِه فهو الحَقُّ**» يعني: يَصْدُق في كَلِمَة وَاحِدَة وهي التي سَمِعَتْهَا الشَّيَاطِين، ثم قال: «**وَلَكِنَّهُم يَقْرِفُونَ وَيَزِيدُونَ**» أي: وَلَكِن الْكَهَنَة يَزِيدُون على الكلام الذي يَسْمَعُونَه كما جَاء في الْحَدِيث: أَنَّه «**يَكْذِب مع الْكَلِمَة الْوَاحِدَة مِائَة كَذِبَة**»[1]، فَيُحدِّث بها النَّاسَ فَيُصَدِّقُونَه في كلِّ ما قال بِسَبَبِ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ وَيَقْبَلُون منه التِّسْعَ وَالتِّسْعِين من الْكَذِب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٣].

(١) أخرجه: البخاري رقم (٣٠٣٨)، ومسلم رقم (٢٢٢٨).

وعن النَّواسِ بنِ سَمعان ﷺ قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ ﷻ أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ تكَلَّمَ بِالْوَحْيِ أَخَذَتِ السَّمَاوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً، - أَوْ قَالَ: رَعْدَةً شَدِيدَةً -، خَوْفًا مِنَ اللَّهِ، فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ صَعِقُوا، وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ ﷺ: قَالَ الْحَقَّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ قَالَ: فَيَقُولُونَ: كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ»(1). [٣٠]

وَالرَّسُولُ ﷺ قد بيَّن لِلصَّحَابَة وَلِغَيْرِهِم من الْمُسْلِمِين إلى أن تَقُوم السَّاعَة سَبَب رَمْي الشُّهُب، وأَنَّه ليس كما تَقُولُه الْجَاهِلِيَّة إِنَّما كان لِمَوْت عَظِيم أو لِولَادَة عَظِيم، وإِنَّما كان ذلك بِسَبَب مُحَاوَلَة اختراق الشَّيَاطِين السَّمْع، وأنهم يُرْمَون بِهَذِه الشُّهُب، هذا ما يَدُلّ عَلَيْه هذا الْحَدِيث.

وفي الْحَدِيثِ أيضًا إِثْبَاتُ صِفَةِ الْعُلُوِّ لِلَّه ﷻ فَوْقَ مَخْلُوقَاتِه على عَرْشِه.

وُفِيَه أن السَّمَوَاتِ مَعْمُورَةٌ بِالْمَلَائِكَة، كلُّ سَمَاءٍ مَمْلُوءَةٌ بالعُمَّارِ من الْمَلَائِكَةِ الَّذِين يَعْبُدُون اللهَ ﷻ وَيَمْتَثِلُون ما يَأْمُرُهُم به.

وُفِيَه إِثْبَاتُ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وفيه تَفْسِيرُ لِلْآيَة الْكَرِيمَة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] كما يَأْتِي هذا في حَدِيثِ النَّوَّاسِ بن سَمْعَان ﷺ التَّالِي.

[٣٠] قولُه: «**إِذَا أرادَ اللهُ**» هذا فيه إِثْبَاتُ الإِرَادَةِ لِلَّهِ ﷻ.

وقولُه: «تكلَّم بِالْوَحْي» فيه إِثْبَاتُ صِفَةِ الْكَلَامِ لِلَّهِ ﷻ «**أخذتِ**

---

(١) أخرجه: ابن خزيمة في كتاب (التوحيد) (١/٣٤٨)، وابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٥١٥).

السَّمَوَات منه رَجفةٌ - أو قال: رِعْدَةٌ - شديدةٌ؛ » السَّمَوَات - وهي جَمَاد - تَرْتَجِفُ وترعدُ من خَشْيَةِ اللهِ ﷻ وَتَعْظِيم كَلَامِه ﷻ.

وقولُه: « **صَعِقوا** » يعني: أَصَابَهُم الغَشْيُ من هَيْبَةِ اللهِ ﷻ كما في قولِه تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، هذا لَمَّا تَجلَّى اللهُ لِلْجَبَلِ واندك ذلك الْجَبَلُ خَرَّ مُوسَى على الأَرْضِ صَعِقًا من شِدَّة الْهَوْلِ وَالْخَوْفِ من اللهِ تَعَالَى، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] من الصَّعْقِ ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وكذلك الْمَلَائِكَة إذا أُزِيل الْفَزَعُ الذي أَصَابَ قُلُوبَهم أَخَذُوا يُنَادُون جِبْرِيلَ وَيَسْأَلُونَه.

وقولُه: « **فَيَكُون أولَ من يَرْفَعُ رأسَه جَبْرائيلُ** ﷺ » لأَنَّه أَمِينُ الْوَحْي، وَالسَّفِير بين الله ﷻ وبين رُسُلِه بِالْوَحْي، وهو أَشْرَفُ الْمَلَائِكَةِ سَمَّاه اللهُ أمينًا فقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٤]؛ فَجِبْرِيل ﷺ مُوَكَّل بِالْوَحْي، وهذا يَدُلّ على شَرَفِه وَفَضْلِه ﷺ.

وقولُه: « **فيُكلِّمُه اللهُ من وَحْيِهِ بِمَا أَرَاد** » هذا فيه إِثْبَاتُ صِفَةِ الْكَلَامِ لِلَّهِ ﷻ، فَيُكَلِّمُ جِبْرِيلُ ﷺ بِالْوَحْي الذي يُوحِيه إلى أَحَدِ أَنْبِيَائِه.

وقولُه: « **ثم يَمرُّ جبرائيلُ على الْمَلَائِكَةِ كُلَّما مرَّ بسَماءٍ سَأَلَه مَلَائِكَتُها: مَاذَا قال ربُّنا يا جَبْرَائِيل؟** » هذا فيه اهْتِمَامُ الْمَلَائِكَةِ بِكَلَامِ اللهِ ﷻ، وفيه فَضْلُ جِبْرِيل كَوْنه هو الذي يَحْمِلُ الْوَحْي، اخْتَصَّ بذلك من بينِ الْمَلَائِكَة، حَتَّى إن الْمَلَائِكَةَ يَسْأَلُونَه سُؤَالَ الْمُتَعَلِّمِ لِلْعَالِم.

وقولُه: «**فَيَقُولُ: قال الحَقَّ وهو العَلِيُّ الكبيرُ**» يقول جِبْرِيل بعدما سَأَلَه الْمَلَائِكَة: «**مَاذَا قال ربُّنا يا جَبْرَائِيل؟**»، فَيُجِيبُهُم: «**فَيَقُولُ: قال الحَقَّ وهو العلِيُّ الكبيرُ، فَيَقُولُون كلُّهم مثل ما قال جبرائيلُ**». وهذا فيه إِثْبَاتُ صِفَةِ الْكَلَامِ لِلَّهِ ﷻ وَأَن كَلَامَه حَقٌّ لا يَعْتَرِيه الْبَاطِلُ كما قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَت: ٤٢].

قولُه: «**فَيَقُولُون كلُّهم مثل ما قال جبرائيلُ**» أي: قالوا كلهم: «**قال الحَقَّ وهو العلِيُّ الكبيرُ**»، هذا تَفْسِيرُ آيَة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٢٣] أي: قالوا: قالَ اللهُ الْحَقَّ.

قولُه: «**فَيَنْتَهِي جبريلُ بِالْوَحْيِ إلى حيث أمرَه اللهُ**» أي: يَنْتَهِي به جِبْرِيل إلى ما أَمَره اللهُ من تَبْلِيغِ الرُّسُلِ عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَام؛ لأنَّ جِبْرِيلَ هو الْوَسِيطُ بِالْوَحْيِ بين اللهِ ﷻ وَرُسُلِه عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَام؛ قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧] وَالْيَهُود يُعَادُون جِبْرِيل، فقد قالوا لِلرَّسُولِ ﷺ: لو كان الذي يَأْتِيك غيرَ جِبْرِيل لآمنا بِك، لأنَّ جِبْرِيلَ عَدُوٌّ لَنا، فَأَنْزَل اللهُ قوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، فهذا الْقُرْآنُ ليس من كَلَامِ جِبْرِيل، وإنَّما هو من كَلَامِ اللهِ ﷻ، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨] هذه مَقَالَةُ الْيَهُود.

بابُ قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٧]. [٣١]

وهناك من الطَّوَائِفِ الضَّالَّةِ الْمُنْحَرِفَةِ من يقولُ بِقَوْلِ الْيَهُود، ويقولون: إن جِبْرِيلَ خَان الرِّسَالَةَ لأَنَّهَا لعليٍّ بنِ أَبِي طَالِب، وَلَكِنَّ جِبْرِيلَ صَرَفَها لِمُحَمَّد ﷺ، ويقولون: خَان الْأَمِين؛ قَبَّحَهُم الله، لأَنَّهُم هُم أَنْفُسُهم منحدرون من الْيَهُود، فهذه مَقَالَةُ الْيَهُودِ تمامًا.

[٣١] هذا الْبَابُ جَاء في تَفْسِيرِ قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٧].

وَتَفْسِيرُ هذه الْآيَةِ جَاء في السُّنَّةِ كما في «صَحِيح مُسْلِم»: «**يَطْوِي اللهُ ﷻ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟**»(١)، وَيُكَرِّر هذا فلا يُجِيبُه أَحَد، كما جَاء في حَدِيثٍ آخر، فَيُجِيبُ ﷻ نَفْسَه فَيَقُول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] ولا أَحَد يَعْتَرِضُ على هَذَا، كلٌّ مُقِرٌّ بأَنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ ﷻ، وهذا من تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وهو مُقِرَّة به جَمِيع الْأُمَم وَأَن الْمُلْك الْيَوْم لِلَّه، وَلَكِنَّهُم في حَيَاتِهِم الدُّنْيَا كانوا يَعْبُدُون مَعَه غَيْرَه، يَزْعُمُون أن هَؤُلَاء شُفَعَاءُ وَوَسَائِطُ عند اللهِ ﷻ، وَإِلا فهُم يَعْرِفُون أَنَّ هذه الْمَعْبُودَاتِ ليس لَهَا من الْمُلْكِ شَيْء، وَأَن الْمُلْكَ لِلَّهِ ﷻ.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٧٨٨).

قَبْضُ اللهِ تعالى الأَرْضَ وطيُّ السَّمَاءِ بِيَمِينِه

عن أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قال: سَمِعْت رسولَ الله ﷺ يقول: «يَقْبِضُ اللهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟»[1]. [٣٢]

---

[٣٢] وهذا تَفْسِيرٌ آخَر لِلْآيَةِ فيه أنَّ اللهَ ﷻ يَقْبِضُ الأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَدَيْه ﷻ، وفي هذا دَلِيلٌ على عَظَمَةِ اللهِ ﷻ، وَأَن هذه الْمَخْلُوقَاتِ حَقِيرَةٌ قياسًا بِعَظَمَةِ اللهِ ﷻ؛ ولهذا قال سُبْحَانَه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزُّمَر: ٦٧]؛ أي: ما عَظَّمُوه حَقَّ تَعْظِيمِه؛ حيث إِنَّهُم كَذَّبُوا رُسُلَه وَأَشْرَكُوا بِاللَّهِ ﷻ وَعَبَدُوا غَيْرَه وأنكروا كَلَامَه، وأنكروا أَسْمَاءَه وَصِفَاتِه، وَتَجَرَّءُوا على حُرُمَاتِه، وَتَرَكُوا طَاعَتَه، كلُّ هَؤُلَاء ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزُّمَر: ٦٧] وهم الْكُفَّارُ وَالْمُشْرِكُون وَالْعُصَاةُ وَالْفِرَقُ الضَّالَّةُ من الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالْأَشَاعِرَةِ الَّذِين نَفَوْا أَسْمَاءَ اللهِ وَصِفَاتِه وَحَرَّفُوا، فَجَمِيعُهُم دَاخِلُون في قولِه تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزُّمَر: ٦٧]، أي: ما عَظَّمُوه حَقَّ تَعْظِيمِه، وكذلك كلُّ من خَالَف أَمْرَ اللهِ وَعَصَاه وَارْتَكَبَ ما نَهَاه عَنْه، وَتَرَكَ ما أَوْجَبَه عَلَيْه، فإِنَّه لم يُقَدِّر اللهَ حَقَّ قَدْرِه.

وَقَد بيَّن سُبْحَانَه عَظَمَتَه، وَأَن من عَظَمَتِه أَنَّه يَطْوِي هذه الْمَخْلُوقَات يومَ الْقِيَامَةِ وَيَقْبِضُهَا بِيَدَيْه على الرَّغْمِ من اتِّسَاعِهَا وضخامتِها، وهي سَبْعُ

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٤٥٣٤)، ومسلم رقم (٢٧٨٧).

وَله عن ابنِ عمرَ ﵄ عن رَسُولِ اللهِ ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَرْضَ، وَتَكُونُ السَّمَوَاتُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ»(١). [٣٣]

سَمَوَاتٍ وَسَبْعُ أَرَضِين مضافًا إليهما ما في الأَرْضِ من الْمَخْلُوقَاتِ وَالْجِبَالِ وَالْبِحَارِ وَالْأَشْجَار، كُلُّهَا يَقْبِضُها اللهُ ﷻ بِيَدَيْه وعلى أَصَابِعِه ﷻ كما جَاءَ في الْحَدِيث(٢).

[٣٣] يقول اللهُ ﷻ يومَ الْقِيَامَة: «**أَنَا الْمَلِكُ**» أَيْن الْجَبَّارُون؟ أَيْن الْمُتَكَبِّرُون؟ لَقَد كان في الدُّنْيَا جَبَابِرَة ومتكبرون عن طَاعَتِه ﷻ، وكانوا يَسْتَعْمِلُون جبروتَهم على النَّاس، ويظلمونهم، وَيَتَسَلَّطُون على الْعِبَاد، لَكِن في الْآخِرَة وَبِمُجَرَّد أن تَقُومَ الْقِيَامَةُ يَذْهَبُ سُلْطَانُهم وَملكُهُم، ولا يَبْق الْمُلْك إِلَّا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّار ﷻ.

وهذا الْحَدِيثُ فيه إِثْبَاتُ أَنَّ من أَسْمَائِه ﷻ الْمَلِك، وهو الْمُلْك الْحَقِيقِيّ، وأَمَّا غَيْرُه من الْمُلُوك فملكهم إِنَّما هو مُجَرَّدُ مِنْحَة منه ﷻ، وَإِلا فَالْمُلْك الْحَقِيقِيُّ هو لِلَّه ﷻ؛ قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، فملوكُ الدُّنْيَا جَمِيعُهم إِنَّما مُلْكُهم مِنْحَة وَعَطِيَّة منه ﷻ، وليس ملْكُهُم بِسَبَبِ قُوَّتِهم وَمَكَانَتِهم وإِنَّما هو ابْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ منه ﷻ، يَبْتَلِيهُم وَيَبْتَلِي بِهِم، يَبْتَلِيهُم بِإِعْطَائِهِم الْملْك وَيَبْتَلِي بِهِم النَّاس بِتَسْلِيطِهم عَلَيْهِم.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٦٩٧٧)، ومسلم رقم (٢٧٨٨).

(٢) انظر: البخاري رقم (٦٩٧٨)، ومسلم رقم (٢٧٨٦).

وفي روايةٍ عَنْه: أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرأَ هَذِهِ الآيَةِ ذَاتَ يَوْم عَلَى الْمِنْبَرِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ هَكَذَا «بِيَدِهِ وَيُحَرِّكُهَا يُقْبِلُ بِهَا وَيُدْبِرُ»: «يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ: أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ» فَرَجَفَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ الْمِنْبَرُ حَتَّى قُلْنَا: لَيَخِرَّنَّ بِهِ(١). [٣٤]

---

[٣٤] لَقَد بيَّن الرَّسُولُ ﷺ لِلصَّحَابَةِ رِضْوَان اللهِ عَلَيْهِم هذه الآيَة وفسَّرها على الْمِنْبَر، فَأَخْبَرَهُم أن اللهَ ﷻ يَقْبِضُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِيَدَيْه، ثم يقول: أَنَا الْمَلك، أَيْن مُلُوك الدُّنْيَا؟ أَيْن الْجَبَّارُون؟ أَيْن الْمُتَكَبِّرُون؛ ثم إنَّه ﷻ يُعَظِّم نَفْسَه بِأَسْمَائِه وَصِفَاتِه، كما ذكر ذلك النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِه ﷺ، حَتَّى إنَّ الْمِنْبَر وهو جَمَادٌ قد اهْتَزّ من هَيْبَةِ اللهِ وَجَلَالِه وَعَظَمَتِه، وهذا يعني أنَّ الْإِدْرَاكَ مَوْجُودٌ في الْجَمَادَات، فهي تَعْرِفُ رَبَّهَا، كما قال سُبْحَانَه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، فَكُلُّ الْمَخْلُوقَاتِ تُسَبِّحُ اللهَ بِلُغَتِهَا التي لا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ ﷻ. وهذا الْمِنْبَرُ قد اهْتَزّ من هَيْبَةِ اللهِ وَعَظَمَتِه ﷻ.

وَقَد كان ﷺ يَخْطُبُ في أَوَّلِ الأَمْرِ على جِذْعِ نَخْلَة، فَيَضَع يَدَه عليها ﷺ وَيَخْطُب، ثم لَمَّا صُنع له الْمِنْبَرُ تَرَكَ الْجِذْعَ وَصَعَد على الْمِنْبَرِ وصار يَخْطُب النَّاس، وَلَكِنَّ الْجِذْعَ حَنَّ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وبكى كما

---

(١) أخرجه: أحمد رقم (٥٤١٤)، وابن حبان رقم (٧٣٢٧)، وابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٥٤٦).

وَرَواه مُسْلِم عن عُبَيْدِ بن مِقْسَم أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ ﵄ كَيْفَ يَحْكِي رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «يَأْخُذُ اللهُ ﷿ سَمَاوَاتِهِ وَأَرَضِيهِ بِيَدَيْهِ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ» حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ[1]. [٣٥]

يَبْكِي الصَّبِيّ، وَسَمِع الصَّحَابَةُ الْجِذْع، حَتَّى نَزَل رَسُولُ الله ﷺ، وَوَضْع يَدَه عَلَيْه، فَجَعَل يَئِنُّ كأنين الطِّفْل[2]، وهذا إدْرَاكٌ من الْجَمَادَات، وقد يُظهِر اللهُ لِعِبَادِه شيئًا من ذلك لِلاعْتِبَار وَالْعِظَة.

[٣٥] الرَّسُول ﷺ يُوضِّح في هذا الْحَدِيثِ لِلصَّحَابَةِ ﷺ كَيْفِيَّةَ قَبضِ اللهِ تعالى للسمواتِ وَالْأَرْض، وأنَّه قَبْضٌ حَقِيقِيٌّ، وهذا فيه رَدٌّ على الَّذِين يَقُولُون بِالْمَجَاز، فَيُبَيِّن لهم ﷺ أنَّه قَبْضٌ حَقِيقِيّ، فَيَقْبِضُ بِيَدَيْه ويفتحهما، وهذا تَوْضِيحٌ وليس مَعْنَاه تشبيهَ يَدَي الرَّسُول ﷺ بِيَدِ اللهِ كما قال ﷺ: **«أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ»**[3]، فليس هذا من باب تَشْبِيه الْقَمَر بِاللَّه ﷻ، وإنَّما هو تَشْبِيه لِرُؤْيَة الله بِرُؤْيَة الْقَمَر، وكذلك هُنَا كما جَاء في رِوَايَة ابن عُمَر فقد قَبَض الرَّسُول ﷺ يَدَيْه لِيُبَيِّن لهم أن الْقَبْض حَقِيقِيّ وليس مجازًا.

وقولُه: «حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ...» إلَخ هذا فيه أن الْمِنْبَرَ أَصَابَه ما أَصَابَه من الْهَيْبَةِ لِلَّهِ وهو جَماد!

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٧٨٨).

(٢) انظر: البخاري رقم (٣٣٩٢).

(٣) أخرجه: البخاري رقم (٥٢٩)، ومسلم رقم (٦٣٣).

مَا هو أوَّلُ هذا الأمْر

وفي «الصَّحِيحَيْن» عن عِمْرَانَ بن حُصَين ﷺ قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيم» قَالُوا: قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا؟ قَالَ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ» قَالُوا: قَدْ قَبِلْنَا، فَأَخْبِرْنَا عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ؟ قَالَ: «كَانَ اللهُ [تَبَارَكَ وَتَعَالَى] قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي اللَّوْحِ ذِكْرَ كُلِّ شَيْءٍ» قَالَ: وَأَتَانِي آتٍ فَقَالَ: يَا عِمْرَانُ، انْحَلَّتْ نَاقَتُكَ مِنْ عِقَالِهَا، قَالَ: فَخَرَجْتُ فِي أَثَرِهَا، فَلَا أَدْرِي مَا كَانَ بَعْدِي[1]. [٣٦]

---

[٣٦] الرَّسُولُ ﷺ عَرَض الْبُشْرَى على بَنِي تَمِيم، وَلَكِنَّهُم اسْتَعْجَلُوا ذلك وقالوا: أَعْطِنَا، دون أن يَسْتَفْسِرُوا وَيَعْرِفُوا حَقِيقَةَ هذه الْبُشْرَى، وإِنَّما كان هَمَّهُم نَصِيبَهُم من عَرَض الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فقالوا: بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، فَأَعْرَض عَنْهُم الرَّسُولُ ﷺ وقال لِأَهْلِ الْيَمَن: «**اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ**» قال ذلك بعدما لم يَقْبَلُهَا بَنُو تَمِيم، فقالوا: قد قَبِلْنَا فَأَخْبَرَنَا عن هذا أَوَّل الأَمْر.

ذَلِك أنَّ بَنِي تَمِيم لم يَقْبَلُوا وَلَكِنَّهُم قالوا: فَأَعْطِنَا؛ ظنًّا منهم أن الْبُشْرَى أَمْرٌ دُنْيَوِيّ، ولكنه ﷺ لم يَكُن هذا قَصْده، ولذلك كان أَهْلُ الْيَمَن أَحْسَنَ أدبًا من بَنِي تَمِيم؛ فقالوا: قد قَبِلْنَا يا رَسُول الله؛ فَأَخْبِرنا عن أَوَّلِ هذا الأَمْر، يعني: عن أَوَّلِ هذا الْخَلْق، فقد طلبوا من الرَّسُولِ ﷺ أن يُبَيِّنَ لهم بِدَايَةَ هذا الْخَلْق، وَالْخَلْق - لا شَكّ - أنّه

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٣٠١٩).

حَادِث، وَأَن له بِدَايَة، وأمَّا الْخَالِق ﷻ فإنَّه ليس له بِدَايَة، ولهذا قال ﷺ: «**أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**»(١)، هذا تَفْسِيرُ الرَّسُولِ ﷺ لِقَوْلِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] في هذه الْأَسْمَاء الْأَرْبَعَة الْمُتَقَابِلَة.

قولُه: «**كَانَ اللهُ [تَبَارَكَ وَتَعَالَى] قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ**» يعني: أَنَّه سُبْحَانَه ليس له بِدَايَة، وأمَّا الْمَخْلُوقَاتُ فإنَّها لَهَا بِدَايَة؛ لأَنَّه هو الْأَوَّلُ فليس قَبْلَه شَيْءٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقولُه: «**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**» أي: على الْمَاء الذي فَوْقَه السَّمَوَات وهذا فيه دَلِيلٌ على أن الْعَرْشَ هو أَوَّلُ الْمَخْلُوقَات، وهو أَعْلَاهَا؛ إذ ليس قبل الْعَرْشِ شَيْءٌ من الْمَخْلُوقَات، وكان على الْمَاء، فهو بَحْرٌ في السَّمَوَاتِ كما جَاء في الْحَدِيث: «**وَمَا بَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ مَسِيرَةَ خَمْسِ مِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ عَلَى الْمَاءِ، وَاللهُ ﷻ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ**»(٢).

وكما قال تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧].

وقوله: «**وَكَتَبَ فِي اللَّوْحِ ذِكْرَ كُلِّ شَيْءٍ**» هذا فيه أن كلَّ شَيْءٍ يَحْدُثُ من أَوَّلِ الْخَلْقِ إلى آخِره إنَّما هو مقدَّرٌ وَمَكْتُوبٌ في اللَّوْحِ الْمَحْفُوظ، وفي هذا إِثْبَاتُ الْقَضَاء وَالْقَدَر، وَالْكِتَابَة في اللَّوْحِ الْمَحْفُوظ.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٧١٣).

(٢) أخرجه: الطبراني في «الكبير» رقم (٨٩٨٧)، وابن خزيمة في (التوحيد) (١/ ٢٤٤) من قول ابن مسعود رضي الله عنه.

النَّهْيُ عن الاسْتِشْفَاعِ بِاللَّهِ على أَحَد

وعن جُبَيْر بن مُحَمَّد بن مُطْعِم عن أَبِيه عن جَدِّه قال: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، جُهِدَتِ الْأَنْفُسُ، وَضَاعَتِ الْعِيَالُ، وَنُهِكَتِ الْأَمْوَالُ، وَهَلَكَتِ الْأَنْعَامُ، فَاسْتَسْقِ اللهَ لَنَا فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللهِ وَبِاللهِ عَلَيْكَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟» وَسَبَّحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ! إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ لَهَكَذَا» وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ «وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ»(1). [٣٧]

وقولُه: «**قَالَ: وَأَتَانِي آتٍ فَقَالَ: يَا عِمْرَانُ، انْحَلَّتْ نَاقَتُكَ مِنْ عِقَالِهَا...**» إلخ لم يَكُن عِمْرَان رضي الله عنه اسْتَكْمَل كَلَامَه مع الرَّسُولِ ﷺ بِسَبَبِ أن نَاقَتَه قد انْحَلَّتْ من عِقَالِهَا، فَلَمَّا أُخبِر بذلك خَرَج في إِثْرِهَا لِطَلَبِهَا، ولم يَكُن قد أَدْرَكَ آخرَ الْحَدِيث.

[٣٧] وهذا الْحَدِيثُ كَذَلِك جَاء في تَفْسِيرِ قولِه تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزُّمَر: ٦٧] فهذا الْأَعْرَابِيُّ كان قد حَصَلَت منه إِسَاءَةٌ في حَقِّه جل جلاله، فهو ما قَدَر اللهَ حَقَّ قِدْرِه، وذلك لأَنَّه لم يَعْرِف اللهَ عز وجل من خِلَال قوله لِلرَّسُول ﷺ: «... **وَبِاللهِ عَلَيْكَ**» بِسَبَب جَهْلِه؛ وَالْجَهْل آفَة.

---

(1) أخرجه: أبو داود رقم (٤٧٢٦)، وابن أبي عاصم في «السنة»رقم (٥٧٥)، والطبراني في «الكبير»رقم (١٥٤٧).

فَفِي هذا الْحَدِيثِ الحثُّ على مَعْرِفَةِ اللهِ ﷻ بِأَسْمَائِه وَصِفَاتِه وَأَفْعَالِه، حَتَّى يَقْدروه حقَّ قَدْرِه ﷻ، فمَن لم يَعْرِف اللهَ فإنَّه حَرِيٌّ بأن لا يَقْدر اللهَ حَقَّ قدْره.

وقولُه: «جَاءَ أَعْرَابِيٌّ» الْأَعْرَابِيُّ: هو الذي يَسْكُنُ الْبَادِيَة؛ وَالْحَضَرِيّ: هو الذي يَسْكُنُ الْحَاضِرَة. وَالْغَالِب على الْأَعْرَاب الْجَفَاء وَالْجَهْل؛ قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧]، ولهذا جَاء النَّهْيُ عن الْبَقَاءِ في الْبَادِيَةِ ولهذا قال ﷺ: «**مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا**»[(١)]، وجَاء الْحَثُّ على الذَّهَابِ إلى أَهْلِ الْحَوَاضِرِ لِأَجْلِ التَّعَلُّم، فلا يَبْقَى الْإِنْسَانُ أعرابيًّا وبدويًّا طَوَال حَيَاتِه، وإنَّما يَنْبَغِي له أن يَتَفَقَّه في دِينِ اللهِ ﷻ.

فَهَذَا الْأَعْرَابِيُّ جَاء وَطلَب من النَّبِيِّ ﷺ أن يَسْتَسْقِي لهم، وطلبٌ كهذا لا غُبَار عَلَيْه، فقد كان الصَّحَابَةُ رِضْوَان اللهِ عَلَيْهِم إذا أجدبوا يَطْلُبُون من النَّبِيِّ ﷺ أن يَسْتَسْقِي لهم، وكان هذا الْأَعْرَابِيُّ قد أَخْبَر النَّبِي ﷺ ما حَصَل لِلنَّاسِ بِسَبَبِ تأخُّر نُزُولِ الْمَطَر من الْجَدْبِ وَالْقَحْطِ وَالْفَقْر، وَمِثْلُ هذه الْأُمُورِ لا بَأْسَ من ذِكْرِهَا لِلْغَيْرِ حَتَّى يكونَ هذا حافزًا لِطَلَبِ السُّقيا من اللهِ ﷻ.

وَلَهَذَا قال هذا الْأَعْرَابِيُّ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «**فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللهِ**» وهذا الْقَوْلُ أيضًا لا غُبَارَ عَلَيْه، إِنَّهُم يَطْلُبُون الشَّفَاعَةَ من الرَّسُولِ ﷺ،

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٢٨٥٩)، والترمذي رقم (٢٢٥٦)، والنسائي رقم (٤٣٠٩)، وأحمد رقم (٣٣٦٢).

وَطلبُ الشَّفَاعَةِ منه ﷺ أو من غَيْرِه إن كان حاضرًا لا بَأْسَ به، وهذا بِخِلَافِ طَلَبِ الشَّفَاعَةِ من الْمَيِّت، فهو الْمَمْنُوع. وَالشَّفَاعَةُ مَعْنَاهَا: الدُّعاء، فإذا دَعَوْت لِأَخِيك فقد شَفَعْت له، وَصَلَاةُ الْمُسْلِمِين على الْمَيِّتِ شَفَاعَةٌ له، وَالشَّفَاعَةُ إنَّما تُطلَب من الْأَحْيَاءِ الْقَادِرِين على الدُّعاء، فَقَوْلُه: « **نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللهِ** » يعني: بِدُعَائِك، وهذا الْقَوْلُ منه لِلنَّبِيِّ ﷺ مَقْبُول.

وقولُه: « **وَ بِاللهِ عَلَيْكَ** »؛ أي: نَسْتَشْفِع بِاَللَّهِ عَلَيْك، هذه الْجُمْلَةُ هي التي أَنْكَرَهَا الرَّسُولُ ﷺ؛ لأَنَّه جَعَل اللهَ ﷻ شفيعًا عندَ الرَّسُول ﷺ، فَجَعَلَ الْخَالِقَ شافعًا عند الْمَخْلُوق، وهذا فيه تنقُّصٌ لِلَّهِ ﷻ، فهو لم يُقَدِّر الله حَقّ قدْرِه، فهذا هو وَجْهُ إنْكَار الرَّسُول ﷺ على قوله هَذَا؛ لأَنَّه تنقَّصَ اللهَ فَاسْتَشْفَع به إلى الرَّسُول ﷺ، وهو ﷺ لم يَرْض بهذا بل أَنْكَرَه.

فَفِي هذا الْحَدِيثِ إنْكَارُ الْمُنْكَر، وفيه تَغْلِيظٌ على من أَسَاءَ بِحَقِّ اللهِ ﷻ، فلا يُقَال: هذا جَاهِل، بل يُغَلَّظ عَلَيْه لِأَجْلِ أن يَرْتَدِعَ هو وَغَيرُه، فَمَن أَسَاء بِحَقِّ اللهِ فإنَّه يُنْكِر عَلَيْه وَيُشَدَّد الْقَوْلُ بِحقِّه ولا يُتْرُك بِحُجَّة أنَّه جَاهِل؛ لِأَجْلِ أن يُدْرَك وَيَعْرِف أنَّه أَخْطَأ وَأَسَاء الْأَدَب مع خَالِقِه ﷻ؛ فَيَتُوب وَيُقَدِّر اللهَ ﷻ حَقّ قَدْرِه؛ ولهذا شَدَّدَ الرَّسُولُ ﷺ عَلَيْه وَسَبَّح اللهَ وَنَزَّهَه عمَّا قال هذا الْأَعْرَابِيُّ وَكُرِّر التَّسْبِيحَ تنزيهًا عمَّا قَالَه هذا الْأَعْرَابِيّ !

وقولُه: « **فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ** »، يعني:

قد شَاهد الصَّحَابَةُ رِضْوَان اللهِ عَلَيْهِم شِدَّة التَّأَثُّر في وَجْهِه ﷺ، لمَا قال هذا الْأَعْرَابِيُّ، وبالتالي عُرِف ذلك في وُجُوه الصَّحَابَةِ ﷺ.

ثُمّ بيَّن ﷺ لِلْأَعْرَابِيّ بعدما أَنْكَرَ عَلَيْه وبعدما نَزَّه اللهَ ﷻ عن هذا التنقصِ وَعَلَّمَه بِقَوْلِه: «**وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللهُ؟**» ثم بيَّن له ﷺ عَظَمَةَ اللهِ ﷻ وَأَن هذه الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ الْهَائِلَة من السَّمَوَات وَالْأَرْض كُلُّهَا تَحت الْعَرْش، وَالْعَرْشُ هو أَعْظَمُهَا وَأَكْبَرُهَا، واللهُ ﷻ فَوْق عَرْشِه، وهذا الْعَرْشُ الْعَظِيمُ الذي هو أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ له تَأْثِيرٌ من اسْتِوَاءِ اللهِ عَلَيْه، حَتَّى إن له أطيطًا، يعني: له صَوْت؛ ولهذا قال ﷺ: «**وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ**» وهذا دَلِيلٌ على عَظَمَتِه ﷻ، فهذا الْعَرْشُ الْعَظِيمُ الذي فَوْقَ السَّمَوَاتِ وَمُحِيط بها وَشَامِلٌ لَهَا كُلْهَا، وَالْكُرْسِيُّ قد وسِع السَّمَوَات وَالْأَرْض، وَالْكُرْسِيّ في الْعَرْش كَحَلْقَة في أَرْض فَلَاة.

وهذا دَلِيلٌ على عَظَمَةِ هذا الْعَرْش، واللهُ ﷻ أَعْظَمُ من ذلك، فَالْعَرْشُ مع عَظَمَتِه وَسَعَتِه يَحْصُل له هذا التَّأَثُّر الذي عَبَّر عَنْه ﷺ بِقَوْلِه: «**وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ**» من اسْتِوَاءِ اللهِ عَلَيْه، فَكَيْف مَن هذا شَأْنه، وهذه عَظَمَتُه ﷻ يُستشفَع به على مَخْلُوق من خَلْقِه؟! ولهذا قال ﷺ لِلْأَعْرَابِيّ: «**أَتَدْرِي مَا اللهُ؟**» أي: هل تَعْرِفُ شَأْنَ اللهِ وَتَعْرِف معنى ما قلتَه بِحَقِّ اللهِ ﷻ، وَكَيْف أَنَّك أَسَأْت بِحَقِّه وَتَنَقَّصْتَه؟!

وأَمَّا قولُه: «**فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ**» هذا فيه التَّسْبِيحُ عند إِنْكَارِ الْمُنْكَر، وكذا التَّكْبِيرُ عند رُؤْيَةِ أو سَمَاعِ شَيْءٍ مُنْكَر، وكذلك عندَ رُؤْيَةِ شَيْءٍ يَعْجَب به، فإنَّه يُسَبِّحُ وَيُكَبِّرُ اللهَ ﷻ.

وقولُه: «**حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ**» فقد تأثروا - رِضْوَان اللهِ عَلَيْهِم - لتأثُّر رَسُولِ الله ﷺ، فَالْأَمْرُ عَظِيم، وَالْكَلِمَةُ شَنِيعَة.

وهذا فيه أن بَعْضَ الْكَلِمَاتِ تَكُونُ وَخيمَة، فَيَنْبَغِي على الْإِنْسَانِ أن يَحْفَظَ لِسَانِه.

وُفِيَه أن الْإِنْسَانَ لا يَتَكَلَّمُ بِحَقِّ اللهِ ﷻ إلَّا عن عِلْمٍ وَمَعْرِفَة، ولا يقولُ على اللهِ بِلَا عِلْم.

وقولُه: ثُمّ قال: «**وَيْحَكَ**» كُرِّر قوله ﷺ: «**وَيْحَكَ**» دَلَالَةً على عِظَم الأَمْر، وَكَلِمَة «**وَيْحَكَ**» كَلِمَة تُقَال لِمَن أَشْرَف على الهَلَكة، وفيها معنى الزَّجْر.

وقولُه: «**إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ لَهَكَذَا**»، وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ، أي: أَشَار بِيدَيْه كَالْقُبَّة؛ لأنّ الْعَرْشَ هو سَقْفُ الْمَخْلُوقَات، فإذا كان هو كَذَلِك ففيه دَلِيلٌ على عَظَمَتِه، لأنّ الْمَخْلُوقَاتِ على سِعَتِهَا وَامْتِدَادِهَا بِمَا في ذلك السَّمَوَات وَالْأَرْض وما بَيْنَهُمَا كُلها سَقْفهَا الْعَرْش، فهو عَرْشٌ متناهٍ في الْعِظْم! وفيه بَيَانُ أنَّ الْعَرْشَ مقبَّب.

وقولُه: «**لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ**» بَيَان أنَّه إذا كان هذا الْعَرْشُ على عَظَمَتِه وضخامتِه يُصِيبُه هذا التَّأَثُّر من عَظَمَةِ اللهِ ﷻ فَكَيْف بِغَيْرِه من الْمَخْلُوقَات؟!

وهذا فيه إِثْبَات اسْتِوَاء الله على عَرْشِه.

وُفِيَه أن الْعَرْشَ هو أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَات.

وُفِيَه أنَّه لا يُسْتَغَاث بِاَللَّهِ على أَحَدٍ من خَلْقِه، وإنَّما الْعَكْس أنَّه يُسْتَغَاث بِالْمَخْلُوقِ الْحَيِّ الْحَاضِر إلى الْخَالِق، بِمَعْنَى طَلَب الشَّفَاعَةِ من

صَبْرُ اللهِ تعالى على تَكْذِيبِ الْمَخْلُوقِ له

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ ﷻ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا! وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفْئًا أَحَدٌ»(١).

وفي رِوَايَةٍ عن ابن عَبَّاس ﷺ: «وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا»(٢). [٣٨]

الْمَخْلُوقِ عند اللهِ ﷻ، وذلك بِدُعَائِه ﷺ لِلْمحْتَاج، والدعاءُ لِلْمحْتَاجِ إنَّما هو شَفَاعَةٌ أو نَوْعٌ منها.

[٣٨] في هذا الْحَدِيثِ تَكْذِيبُ الْمَخْلُوق لِخَالِقِه ﷻ، وذلك أَنَّه ﷻ أَخْبَر أنَّه سَيَبْعَثُ الْخَلْقَ يومَ الْقِيَامَة، وَكَثِيرٌ من الْخَلْقِ قد أَنْكَرُوا الْبَعْثَ، وقالوا: إن الْمَيِّتَ لا يُمْكِن أن يُبْعَثَ حيًّا مَرَّةً أُخْرَى بعد أن صَار ترابًا، فهؤلاء الْقَائِلُون لِهَذِه الْمَقَالَة ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قدْرِه، وما عَرَفُوا أن اللهَ على كلِّ شَيْءٍ قَدِير، وَوَصَفُوا قُدْرَة اللهِ بِالْعَجْزِ عن إحْيَاءِ الْأَمْوَات، وفي هذا تَكْذِيبٌ له ﷻ، مع أنَّه سُبْحَانَه قد أَقَام الْأَدِلَّةَ وَالْبَرَاهِينَ الدَّالَّةَ على إعَادَةِ الْخَلْقِ وَالإِحْيَاءِ وَالْبَعْث، فَذَكَر أنَّه يُحْيِي الأَرْضَ بَعْد مَوْتِهَا، فَتَكُونُ جدباءَ قاحلةً ثم يَنْزِل عليها الْمَاء وَسَرَعَان ما تَهْتَزّ فَتُصْبِح خَضْرَاءَ

(١) أخرجه: البخاري رقم (٤٦٩٠).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (٤٢١٢).

وبهيجة، فالذي قَدَر على إحْيَاءِ الأَرْض بعد مَوْتِهَا قَادِرٌ على أن يُحْيِيَ الْأَمْوَاتَ يومَ الْقِيَامَة.

ثُمّ إن الذي خَلَقَهُم أَوَّل مَرَّة من عَدَم أَلَيْس قادرًا على أن يُعِيدَهُم مَرَّة ثَانِيَة؛ وَالْإِعَادَة في نَظَرِ الْعُقُولِ أَهْوَنُ من الْبِدَايَة؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

فَالَّذِي قَدَر على البُداءة من لا شَيْء لِقَوْلِه تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩]؛ وقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، فهو قَادِر على الْإِعَادَة من باب أَوْلَى، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٧٨- ٨٠].

ثم إن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَعْظَمُ من خَلَقِ الْإِنْسَان، فالذي قَدَر على خَلْقِ ما هو أَعْظَم قَادِرٌ على خَلَقِ ما هو دون ذلك من بابِ أَوْلَى، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وهذه كُلُّهَا بَرَاهِينُ عَقْلِيَّة على حُصُولِ الْبَعْث، ومع ذلك فَإِن بَعْضَ الْخَلْقِ يُنْكِر ذلك، وَيُكَذِّب الْخَالِقَ ﷻ، وما كان لهم أن يُكَذِّبُوه ﷻ!

وأَمَّا شَتْمُه لِلَّهِ ﷻ وذلك بأَنَّ يَنْسُبُوا له الْوَلَد، واللهُ ﷻ لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ولم يَكُن له كفوًا أَحد، ولأن الْوَلَدَ يُشْبِه الْوَالد، وهو ﷻ لا شَبِيهَ

له، وَالْوَلَدُ كَذَلِك جُزْءٌ من الْوَالِد، وهو ﷻ ما يَنْبَغِي أن يكونَ له جُزْء مَخْلُوق -تعالى الله عن ذلك- وفي الْقُرْآنِ الْكَرِيم: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزُّخرُف: ١٥]؛ يعني: ولدًا، وَالْوَلَد كما ذَكَرنا جُزْء من الْوَالِد، وَالْوَلَدُ بذلك يكون إلهًا مع الله، واللهُ ﷻ ليس له شَرِيك، فلو كان له وَلَدٌ لَصَار له شَرِيك، تعالى اللهُ عن ذلك.

والنصارى قالوا: الْمَسِيحُ ابنُ الله، وَالْيَهُود قالوا: عُزَيْر ابن الله، وَأَهَلُ الْجَاهِلِيَّةِ من مُشْرِكِي الْعَرَب قالوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ الله؛ لأَنَّه سُبْحَانَه -بِزَعْمِهِم- تَزَوَّج من الْجِنّ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨]، فَيَنْسِبُون الْبَنَاتِ إِلَيْه ﷻ، وهم لا يُرِيدُون الْبَنَات لِأَنْفُسِهِم! قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النحل: ٦٢]، تعالى الله عمَّا يَقُولُون.

وقولُه في حَدِيثِ ابنِ عَبَّاس: «**فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا**» قوله «**صَاحِبَةً**»، يعني: زَوْجَة؛ لأنّ الْوَلَدَ لا يكونُ إلَّا من زَوْجَة، واللهُ سُبْحَانَه ليس له صَاحِبَة؛ قال تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]؛ يعني: ليس له سُبْحَانَه زَوْجَة.

النَّهْي عن سَبِّ الدَّهر

ولهما عن أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قال: قال رَسُول الله ﷺ: «قَال اللهُ تعالى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»[1]. [٣٩]

---

[٣٩] في هذا الْحَدِيث بَيَانُ أن ابنَ آدَم يَسُبُّ اللهَ من خِلَال سَبِّه لِلدَّهْر، فإذا ما أَصَابَه شَيْءٌ أَخَذ يَلُوم الدَّهْرَ واليوم وَالسَّاعَة وَالسَّنَة، وَالدَّهْر إنَّما هو زَمَانٌ خَلَقه اللهُ ﷻ، وهو ظَرْفُ زَمَان ليس بِيَدِه شَيْء، وإنَّما الذي أَوْجَد هذه النَّوَازِل وَالْحَوَادِث وَالْمَصَائِب وَالْمَكَارِه هو الله ﷻ، فكان سَبُّه لِلدَّهْرِ سبًّا لِلَّه ﷻ؛ لأنَّ اللهَ هو الذي قَدَّر هذه الْحَوَادِث وَالنَّوَازِل وَالْمَصَائِب التي تَقَع على الْعِبَاد.

وقولُه: «**أَنَا الدَّهْرُ**» ليس مَعْنَاه أن الدَّهْرَ من أَسْمَاءِ اللهِ ﷻ، وقد فَسَّر ذلك في آخِرِ الْحَدِيث وقال: «**بِيَدِي الْأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»، وهذا تَفْسِيرٌ منه ﷺ فِيمَا يَرْوِيه عن رَبِّه ﷻ، وهو في سِيَاقِ حَدِيثٍ قُدْسِيّ شَرِيف.

وقولُه: «**بِيَدِي الْأَمْرُ**» تَفْسِير لِقَوْلِه: «**وَأَنَا الدَّهْرُ**»؛ إذ الْبَعْضُ يَعْتَقِدُ أن كَلِمَةَ «**الدَّهْرُ**» من أَسْمَاءِ الله ﷻ!

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٤٥٤٩)، ومسلم رقم (٢٢٤٦).

بَاب الْإِيمَان بِالْقَدْر

وَقَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١].

﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨].

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر:٤٩].

وفي «صَحِيح مُسْلِم» عن عَبْد الله بن عَمْرِو بن الْعَاص رضي الله عنهما قال: قال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ الله قَدَّر مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سنة» قال: «وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»[1]. **[٤٠]**

---

[٤٠] **قوله** رحمه الله: «**بَاب الْإِيمَان بِالْقَدْر**»: الْقَدَر: هو إِحَاطَةُ اللهِ سبحانه وتعالى بِمَقَادِيرِ الْأَشْيَاء، وقضاؤه سُبْحَانَه ما يَجْرِي بهذا الْكَوْن من الْحَوَادِثِ التي تَقَعُ شيئًا فشيئًا في هذا الْكَوْن، فإنَّه لا يَقَعُ في هذا الْكَوْنِ من شَيْء، أو يَحْصُلُ فيه من شَيْءٍ إِلَّا وقد عَلِمَه اللهُ جَلَّ وَعُلَا في الْأَزَلِ وقضاه وَقَدَّرَه، لا يَخْرُجُ شَيْءٌ عن قِدْرِه وقضائِه، وَالْأَزَل مَعْنَاه: الزَّمَان الْمَاضِي الذي لا حدَّ ولا بِدَايَةَ له، وَالْأَبَد: هو الزَّمَانُ الْمُسْتَقْبَلُ الذي لا حَدَّ لِنِهَايَتِه، فلا يَجْرِي في هذا الْكَوْنِ شَيْءٌ اعتباطًا أو دون تَقْدِيرٍ وَقَضَاءٍ من اللهِ عز وجل، ولا يكونُ فيه شَيْءٌ يَخْرُجُ عمَّا قضاه سبحانه وتعالى وَقَدَّرَه في الْأَزَل.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٦٥٣).

وَالْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَر هو أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السِّتَّة كما قال ﷺ: «**الْإِيمَانُ أن تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِه وَكُتُبِه وَرُسُلِه واليومِ الآخرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَر خَيرِه وَشَرِّه**»[(١)]، وَمَحَلّ الشَّاهِد قوله ﷺ: «**وَتُؤْمِن بِالْقَدر خَيرِه وَشَرِّه**»؛ فَمَا يَجْرِي من الْخَيْرِ وَالشَّرِّ في هذا الْكَوْنِ فإنَّه قد قضاه اللهُ وَقَدَّرَه.

فَمَن لم يُؤْمِنْ بهذا فإنَّه ليس بِمُؤْمِنٍ بِاللَّهِ ﷻ، وإذا مَات وهو يُنْكِرُ الْقَضَاءَ وَالْقَدَر فإنَّه من أَهْلِ النَّارِ كما جَاءَت بذلك الْأَحَادِيثُ التي سَتَأْتِي في هذا الْبَاب: أن من لم يُؤْمِنْ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَر فإنَّه لم يُؤْمِنْ بِاللَّه؛ لأَنَّه نَفَى شيئًا من أَفْعَالِ اللهِ ﷻ، وَزَعَم أن اللهَ عَاجِزٌ وأنَّه يَحْدُث في ملْكِه ما لم يَقْضِه ولم يُقدِّره -تعالى الله عن ذلك-، فَمَن لم يُؤْمِنْ بِهِمَا فهو كافرٌ وَعَلَيْه وَعِيدٌ شَدِيد، وهو من أَهْلِ النَّارِ ولو أَنْفَقَ مثل أُحُد ذهبًا، فَإِن اللهَ لا يَتَقَبَّلُه منه.

❁ **وَالْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَ مَرَاتِب:**

الْمَرْتَبَة الْأُوْلَى: الْإِيمَانُ بأَنَّ اللهَ علِمَ ما كان وما يكون في عِلْمِه الْأَزَلِيّ، ولا يَقَعُ شَيْءٌ لا يَعْلَمُه اللهُ ﷻ.

الْمَرْتَبَة الثَّانِيَة: الْإِيمَانُ بأنَّ اللهَ كَتَبَ في اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ كلِّ شَيْءٍ إلى أن تَقُومَ السَّاعَة، عَلِمَه أولًا ثم كتَبه في اللَّوْح الْمَحْفُوظ، «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ. فَقَالَ لَهُ: اُكْتُبْ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[(٢)]، وكما قال ﷻ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ

(١) أخرجه: البخاري رقم (٨٠)، ومسلم رقم (٨).

(٢) أخرجه: أبو داود رقم (٤٧٠٠)، والترمذي رقم (٢١٥٥)، والطيالسي رقم (٥٧٨).

أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ [الحديد: ٢٢]، وَالْكِتَاب: هو اللَّوْح الْمَحْفُوظ. وقولُه تعالى: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ [الحديد: ٢٢] أي: من قبل أن نخلقَها ونُوجِدَها، فهي مَكْتُوبَةٌ في اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ من قبلِ أن نوجدَها.

الْمَرْتَبَة الثَّالِثَة: الْإِيمَان بأنَّ اللهَ ﷻ شَاء كلَّ شَيْءٍ وَأَرَادَه مِمَّا قضاه وَقَدَّرَه في اللَّوْحِ الْمَحْفُوظ، فلا يَقَعُ شَيْءٌ إلَّا بِإِرَادَتِه وَمَشِيئَتِه ﷻ، ولا يَقَعُ في مُلْكِه ما لا يُرِيد؛ قال تعالى: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٧].

الْمَرْتَبَة الرَّابِعَة: الْإِيمَانُ بأنَّ كلَّ ما يَقَعُ في هذا الْكَوْنِ هو من خَلقِ اللهِ ﷻ؛ فَكُلُّ شَيْءٍ في هذا الْكَوْنِ من خَيْرٍ أو شَرٍّ إنَّما هو من خَلْقِه جلَّ شَأْنُه، وهو فعلُ الْعِبَاد، فَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ من أَفْعَالِ الْعِبَادِ وهما خَلْقٌ من خَلقِ اللهِ كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦] أي: وخَلَق ما تَعْمَلُون، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزُّمَر: ٦٢]، وكلُّ ما يَجْرِي وما يَحْدُث وما يكون فإنَّه خَلْقُ اللهِ ﷻ.

فَلَابُد من الْإِيمَان بِهَذِه الْمَرَاتِب كُلْهَا، سَوَاء الْإِيمَان بِعِلْم الله السَّابِق، أو الْإِيمَان بِالْكِتَابَة بِاللَّوْح الْمَحْفُوظ، وَالْإِيمَان بِمَشِيئَة الله وَإِرَادَتُه وَبِكُلّ ما يَحْدُث، وَالْإِيمَان بأنَّ كلّ ما يَحْدُث بِأَنَّه خَلْقُ الله ﷻ، فلا أَحَدَ يَخْلُقُ مع اللهِ ﷻ، ولا يَكْفِي الْإِيمَانُ بِمَرْتَبَةٍ دونَ مُرَتَّبَة أُخْرَى أو بِمَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ أو اثْنَتَيْن أو ثَلَاث، فَلَابُد من الْإِيمَانِ بِكُلِّ هذه الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَع، وهي مَوْجُودَةٌ في كُتَّابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِه ﷺ قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾ [الحج: ٧٠]؛ ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [الحج: ٧٠] هذه مُرتَّبَة الْعِلْم ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾ [الحج: ٧٠] وهذه مُرتَّبَةُ الْكِتَابَةِ في اللَّوْحِ الْمَحْفُوظ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، فهذه مَرَاتِبُ الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَر.

ثُمّ إنَّه بعد الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَإِثْبَاته كما جَاء فلا يَنْبَغِي تَرْكُ الْعَمَلِ بِحُجَّة أن كلَّ شَيْءٍ مُقَدَّرٌ وَيَكْفِي التَّسْلِيمُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَر، وَبِحُجَّةِ أَنَّ دُخُولَ الْجَنَّةِ والنارِ مُقَدَّرٌ منه ﷻ ولا فَائِدَةَ من الْعَمَل ! هذا كَلَامٌ بَاطِل؛ لأنَّ الْإِنْسَانَ مَأْمُورٌ بِالْعَمَل؛ إذ دُخُولُ الْجَنَّةِ لا يكونُ إِلَّا بِالْعَمَلِ لَهَا، ولا يُمْكِنُ دُخُولُ النَّارِ إِلَّا بِسَبَب، و اللهُ لا يُعَذِّبُ على الْقَضَاءِ وَالْقَدَر، وإنَّما يُعَذِّب على الْأَعْمَال، ولا يَنْعَمُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَر وإنَّما بِالْأَعْمَال؛ قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]؛ فَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ لا يَتَعَلَّقَان بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَر، وإنَّما يَتَعَلَّقَان بِأَفْعَالِ الْعِبَاد.

وَلَهَذَا لَمَّا أَخْبَر النَّبِيُّ ﷺ الصَّحَابَة أن كلَّ إِنْسَانٍ مُقَدَّرٌ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، قالوا: يا رَسُولَ الله، فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ قَالَ: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**» ثُمَّ قَرَأَ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ الْآيَة[1] [الليل: ٥ - ٦]. يعني: الْجَنَّة. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾

(١) أخرجه: البخاري رقم (١٢٩٦)، ومسلم رقم (٢٦٤٧).

رَتَّب تَفْسِيرُه لِلْيُسْرَى على الْعَمَل أي: على عَمَل الْعَبْد ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [اللَّيل: ٨ - ١٠] هي النَّارُ فرتَّب تيسيرَه للعسر على عَمَل الْعَبْد، وليس بِسَبَبِ الْقَضَاءِ وَالْقَدر.

فَإِذَا ما كان الْجُوعُ الذي يَشْعُرُ به الْإِنْسَانُ يتطلَّبُ الْبَحْثَ عن الطَّعَامِ وَالرِّزْق، وكذا دَفْعُ الظُّلْمِ يَحْتَاجُ إلى عَمَلٍ وَردة فعل وَطَلَبَ الْقِصَاص مِمَّن ظَلْم، فَكَيْف يُقَال: إن الْجَنَّة والنار لا تَحْتَاجَان إلى عَمَل، أو إن الْمَصِير إليهما لا يَتَرَتَّب على الْعَمَلِ الذي يَقُومُ به الْعَبْد.

وَالْحَقُّ أنَّه لا بدَّ من السَّعْي وَالْعَمَلِ سَوَاء في أُمُورِ الْآخِرَة أو في أُمُورِ الدُّنْيَا، فإذا كان الْإِنْسَانُ في أُمورِه الدُّنْيَا لا يَتَّكِلُ على الْقَضَاءِ وَالْقَدر فَأُمُورُ الْآخِرَةِ من بابِ أَوْلَى، فليس معنى الْإِيمَان بِالْقَضَاءِ وَالْقَدرِ تَرْكُ الْعَمَل؛ لأنَّ هذا لا يكونُ إلَّا من الْقَدَرِيَّةِ الَّذِين يَحْتَجُّون بِالْقَضَاءِ وَالْقَدرِ على تَرْكِ الْفَرَائِض، وهؤلاء مَحْجُوجُون، كَوْنَهُم لا يَحْتَجُّون بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ في مَصَالِحِهِم الدُّنْيَوِيَّة.

وَفَائِدَةُ الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ: مَعْنَاه الصَّبْر على الْمَصَائِبِ وَعدم الْجَزَع؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]؛ وَالْحِكْمَةُ في ذلك متمثلةٌ في قولِه تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] هذه هي الْحِكْمَةُ في ذلك، وهي أنَّ اللهَ أَخْبَرَنَا بأنَّ كلَّ ما يَحْدُثُ من مَصَائِبِ إنَّما هو في كُتَّابٍ في اللَّوْح الْمَحْفُوظ؛ لِأَجل أَلَا يَجْزَعَ الْإِنْسَانُ بل يَصْبِرُ وَيَحْتَسِب، هذه هي حِكْمَةُ

الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَر، وليس مَعْنَاه تَرَكُ الْعَمَلِ وتعطيلُه؛ ولهذا يقولُ ﷺ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كذا كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ «لَوْ» تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[1]. هذه هي فَائِدَةُ الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقُدْرَة الْمَبْنِيَّة على الصَّبْر وَالِاحْتِسَاب وَعدم الْجَزَع والتسخُّط.

وَالْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَر ضَلَّ فيه طائفتان؛ طَائِفَةُ الْجَبْرِيَّة، وَطَائِفَةُ الْقَدَرِيَّة من الْمُعْتَزِلَة.

فالجبريةُ: غَلَت في إِثْبَاتِ الْقَدْرِ وَنَفَت أَفْعَالَ الْعِبَاد، وقالت: إنَّما هذه أَفْعَالُ اللهِ وقضاؤه، وَالْعَبْدُ إنَّما هو مَجْبُورٌ كَالْآلَةِ أو كالريشةِ يُحَرِّكُهَا الْهَوَاء، تعالى اللهُ عمَّا يَقُولُون، فَالزِّنَا وَالسَّرِقَةُ وَظُلْمُ الْعِبَادِ وَشُرْبُ الْخَمْر إنَّما هي أَفْعَالُ اللهِ ﷻ وليست أَفْعَالَ الْعَبِيد، وكفى بهذا الْقَوْلِ شَنَاعَة وكفرًا!

وأمَّا الْقَدَرِيَّةُ: فَكَانَت في مُقَابَلَةِ الْجَبْرِيَّة، فَغَلَوْا في إِثْبَاتِ أَفْعَالِ الْعِبَاد، وَنَفَوْا الْقَضَاءَ وَالْقَدَر، وقالوا: إن الْإِنْسَانَ حُرٌّ حُرِّيَّة كَامِلَة ليس لَهَا تعلُّقٌ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِه، فهو الذي يَخْلُقُ فعلَ نَفْسِه، ولم يَخْلُقْه الله، وليس له سُبْحَانَه تدخُّلٌ في أَفْعَالِ الْعِبَاد؛ وهم في ذلك كانوا على النَّقِيضِ من الْجَبْرِيَّةِ الَّذِين غَلَوا في إِثْبَاتِ الْقَضَاءِ وَالْقَدرِ وَنَفَوْا أَفْعَالَ الْعِبَاد، وهؤلاء الْقَدَرِيَّةُ كانوا على الْعَكْسِ فقد غَلَوا في إِثْبَاتِ أَفْعَالِ

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٦٦٤).

الْعِبَادِ وَنَفَوْا الْقَضَاءَ وَالْقَدَر؛ ولذلك يُسَمُّون بِالْقَدَرِيَّة؛ لأَنَّهُم نَفَوْا الْقَدْر؛ فهؤلاء لا يُؤْمِنُون بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَر، وهم بذلك جَحَدُوا الرُّكْنَ السَّادِسَ من أَرْكَانِ الإسلام.

وأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَة: فقد تَوَسَّطُوا -كَعَادَتِهِم أَنَّهُم وَسَطٌ في جَمِيعِ الْأُمُور- بين الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيط، وبين الْغُلُوِّ وَالْجَفَاء، فقد أَثْبَتُوا الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ وَأَثْبَتُوا أَفْعَالَ الْعِبَاد، ولا تَنَاقُضَ بَيْنَهُمَا، فاللهُ ﷻ قضى وَقَدَّر، وَالْعَبْدُ يَفْعَلُ بِاخْتِيَارِه وَإِرَادَتِه، ولكنه لا يَخْرُجُ على قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِه، وهذا هو مُوجِبُ الْكِتَابِ وَالسَّنَة، وهو الْمَذْهَبُ الْوَسَط وَالْعَدْل المتمشِّي مع الْأَدِلَّة. هذا حَاصِلُ الْخِلَافِ في مَسْأَلَةِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] يعني: في الْقَضَاءِ وَالْقَدَر؛ حيث إنَّ اللهَ قدَّر لهم الْجَنَّةَ وَالنَّجاةَ من النَّار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] أي: عن النَّار ﴿مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] ثم قال: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٢، ١٠٣] هذا فيه إِثْبَاتُ الْقَضَاءِ وَالْقَدَر. فَمَعْنَى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] أي: قَدَّرْنَا لهم ذلك، فهم عَمِلُوا ما يُسَبِّبُ لهم دُخُولَ الْجَنَّةِ، فَأَبْعَدُهُم اللهُ من النَّار.

وَسَبَبُ نُزُولِ الْآيَةِ أن اللهَ ﷻ لَمَّا قال: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] لَمَّا سَمِع الْمُشْرِكُون هذه الْآيَة

قالوا: نَحْن نَعْبُد أناسًا صَالِحِين، فإذا كانوا مَعَنَا في النَّار فَإِن الأَمْر يَهُون عَلَيْنَا، يعني: هُم ينتقدون كَلَام الله ﷻ، ومن جُمْلَة ما يَعْبُدُون من دون الله مَلَائِكَة ورسلًا مثل عِيسَى عليه السلام؛ فَكَيْف يَكُونُون في النَّار؟ فَأَنْزَل الله هذه الْآيَة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] وهم الْمَلَائِكَةُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ وَالصَّالِحُون، هَؤُلَاء لا تَتَنَاوَلُهُم هذه الْآيَة، فهو تَخْصِيصٌ بعد عُمُوم.

لَمَّا نَزَلَت هذه الْآيَة ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال ابن الزِّبَعْرَى: فَنَحْن نَعْبُدُ الْمَلَائِكَة، وَالْيَهُودُ تَعبدُ عزيرًا، والنصارى تَعبدُ الْمَسِيحَ عِيسَى بنَ مَرْيَم، فهل هَؤُلَاء مَعَنَا في النَّار؟![1].

وَغَرَضُ الْمُشْرِكِين من هذا انْتِقَادِ كَلَامِ الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٥٧- ٥٨]؛ لأَنَّه من الْمَعْرُوفِ أَنَّ عِيسَى ابنَ مَرْيَم والصالحين لا يَدْخُلُون النَّار لأنَّ اللهَ تَكَفَّلَ بأن يُدخِلَهم الْجَنَّة، وهم يَعْرِفُون هَذَا، لَكِنَّهُم من بابِ الْمُغَالَطَةِ يَقُولُون ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الزُّخرُف: ٥٨، ٥٩] وقد رَدّ الله ﷻ عَلَيْهِم بِقَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] كَعِيسَى عليه السلام وَعُزَيْر ومن عُبِدَ من دونِ الله من عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِين، هَؤُلَاء مستثنَوْن من دُخُولِ جَهَنَّم.

(١) انظر: «تفسير ابن جرير الطبري» (٩/ ٩٠)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٦٥).

وَالشَّاهِدُ من الْآيَةِ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] هذا فيه إِثْبَاتُ الْقَضَاءِ وَالْقَدَر.

وقولُه تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] وهذه الآيةُ مُتَضَمِّنَةٌ إِثْبَات الْقَضَاءِ وَالْقَدَر، فَقَوْلُه تعالى: ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: الأَمْر الْكَوْنِيّ، على اعْتِبَارِ أن: **أَمْر الله قِسْمَان:**

الْأَوَّل: الأَمْر الْكَوْنِيّ: كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

والثاني: الأَمْر الشَّرْعِيّ: كالأمر بِالصَّلَاة وَالزَّكَاة وَبِرِّ الْوَالِدَيْن وَنَحْو ذلك من الْأُمُور التَّكْلِيفِيَّة.

وَالْأَمْرُ الْكَوْنِيّ لا بدَّ أن يَقَع، وأمَّا الأَمْرُ الشَّرْعِيّ، فقد يَقَعُ وقد لا يَقَع، فَمن النَّاسِ من يَمْتَثِلُ ومنهم من يَعْصِي، هذا الْفَرْقُ بين الْأَمْرَيْن؛ فَقَوْلُه تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] يُرَاد به الأَمْرُ الْكَوْنِيّ الْقَدَرِيّ، بِمَعْنَى أن كلَّ ما يَجْرِي في هذا الْكَوْنِ مُقَدَّر.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]؛ أي: وَخَلَق ما تَعْمَلُون، هذه الْآيَةُ فِيهَا أنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ إنَّما هي من خَلق اللَّه ﷻ، نَعَم هي فعلُ الْخَلْق وَلكِنَّهَا خَلقُ الْخَالِق ﷻ، فَيَجْتَمِعُ فِيهَا الْأَمْرَان: أنَّها خَلقُ اللهِ، وأنها فعلُ الْعَبْد.

وفي الْآيَةِ رَدٌّ على الْمُعْتَزِلَةِ الَّذِين يَنْفُون الْقَضَاءَ وَالْقَدَر، ويقولون: إن الْعَبْدَ إنَّما يَفْعَلُ بِاخْتِيَارِه الْمُطْلَق الذي ليس لِلَّه فيه أي قَضَاء وَقَدَر.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وفي هذه الْآيَة أيضًا إِثْبَات لِلْقَضَاء وَالْقَدَر؛ إذ كلّ الْمَخْلُوقَات من خَير أو شَرّ إنَّما يَقع

عَدَم جَوَاز الِاتِّكَال على الْقَضَاء وَالْقَدَر وَتَرْك الْعَمَل

وعن عَلَيٍّ بن أَبِي طَالِب ﷺ قَال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ قَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثُمَّ قَرَأَ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [اللَّيل: ٥ - ٧][1]. [٤١]

بِقَدْر الله ﷻ؛ **ففي الْآيَة أَمْرَان:**

الْأَوَّل: أن كلَّ ما يَحْدُثُ في هذا الْكَوْنِ إنَّما هو خَلق الله ﷻ.

الثَّانِي: أن كلَّ ما يَحْدُثُ إنَّما هو بِقَدْرِ اللهِ ﷻ.

وأمَّا حَدِيثُ عَبْدِ الله بن عَمْرٍو ﷺ وهو حَدِيثُ الْبَابِ الذي فيه: «**إنَّ اللهَ قَدر مَقَادِير الْخَلَائِق . . .**» إلَخ فهذا فيه إثْبَاتُ أنَّ اللهَ قَدَّر مَقَادِيرَ الْخَلَائِق، وَأَنَّ التَّقْدِيرَ سَابِقٌ لِخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِين أَلْف سَنَة، وكان عَرْشُه على الْمَاء، فهذا فيه إثْبَاتُ أَسْبَقِيَّة الْقَضَاءِ وَالْقَدَر على حُدُوثِ الْأَشْيَاءِ وأنها مُقَدَّرَةٌ قبل وُقُوعِهَا.

[٤١] لمَّا ذكر الشيخُ رَحِمَهُ اللهُ الْأَدِلَّةَ على إثْبَاتِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَر بين أنَّه لا يَجُوزُ الِاعْتِمَادُ على الْقَدْرِ وَتَرْكَ الْعَمَل، وإنَّما يَنْبَغِي لِلْمُسْلِم أن يَعْمَل الْأَعْمَال التي تَنْفَعُه في الدُّنْيَا وَالْآخِرَة وَعَدَم الِاتِّكَال على أن كلَّ شَيْءٍ مُقَدَّرٌ سَوَاء عَمِلَ الْإِنْسَانُ أو لم يَعْمَل، فَكَمَا أن الْإِنْسَانَ لا يَتَّكِلُ في

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (١٢٩٦)، ومسلم رقم (٢٦٤٧).

أُمُورِ دُنْيَاه على الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ لأنَّ اللهَ ﷻ رَتَّب الْأَشْيَاءَ على الْأَسْبَاب، وكذلك الأَمْرَ نَفْسَه يُقَال في أُمُورِ الْآخِرَة، فَالْإِنْسَانُ بِفِطْرَتِه التي تَقْتَضِي أَنَّه عَلَيْه أن يَعْمَلَ لِتَحْصِيلِ أُمُورِ دُنْيَاه، فَكَيْف يُعَطِّلُ أَعْمَالَ الْآخِرَةِ وَيُعْتَمَدُ على الْقَضَاءِ وَالْقَدَر؟!

ومن دَلَالَةِ فِقْه الشيخِ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّه لمَّا ذكرَ أَدِلَّةَ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ذكر أَدِلَّةَ إِثْبَاتِ الْعَمَلِ، فَسَاق هذا الْحَدِيث الذي يَدُلُّ على أنَّ الْأَصْلَ في الْإِنْسَانِ عَدَمُ تَرْكِ الْعَمَلِ اعتمادًا على الْقَضَاءِ وَالْقَدَر، فقد بيَّن ﷺ في هذا الْحَدِيثِ لِلصَّحَابَةِ بعدما ذكر لهم أن كلَّ إِنْسَانٍ قد كُتِب مَقْعَدُه من النَّارِ وَمَقْعَدُه من الْجَنَّة، وأجابوا بِقَوْلِهِم: أَفَلَا نَتَّكِلُ وَنَدَعُ الْعَمَل؟ ولكنه ﷺ بيَّنَ لهم غَلَطَهُم في هَذَا، وَأَن ما فَهِمُوه من قوله إنَّما هو فَهْمٌ خَاطِئ، وأنَّه ليس معنى الْإِيمَانِ بِالْقَضَاء وَالْقَدَر تَرْكُ الْأَعْمَال، بل بيَّن ﷺ أن هذا فيه حَثٌّ لِلْإِنْسَانِ على الْعَمَل؛ لأنَّ الْجَنَّةَ لا يَدْخُلُهَا إلَّا من عَمِل لَهَا، وَأَن النَّارَ لا يَسْلَمُ منها إلَّا من تَرَك الْأَعْمَال التي من شَأْنِهَا أن تُورِدَ الْمَرْءَ إِيَّاهَا.

ثُمّ اسْتَدَلَّ ﷺ بِالْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فَقَرَأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [اللَّيْل: ٥- ٧]، فَدَلَّ على أن دُخُولَ الْجَنَّةِ إنَّما هو بِسَبَبِ الْأَعْمَال، وَأَن دُخُولَ النَّارِ كَذَلِك، لا بِسَبَبِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ فَحَسْب؛ لأنَّ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ إنَّما هو من شَأْنِ اللهِ ﷻ، وَالْإِنْسَان لا يَدْخُلُ بشئونِ خَالِقِه، وإنَّما يَدْخل بسبب شُئُون نَفْسِه لذلك يَنْبَغِي له الْعَمَل، لا السُّؤَالُ عن الْقَضَاءِ وَالْقَدَر.

وعن مُسْلِم بن يَسارٍ الجُهَني قال: سُئِلَ عُمَرُ بنُ الْخَطَّاب ﷺ عَن هذه الآيَة ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] **فقال عُمَر ﷺ: سَمِعْت رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِل عنها فقال: «إنَّ اللهَ ﷻ خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ، اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُدْخِلَهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ، اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ، فَيُدْخِلَهُ بِهِ النَّارَ»(١). [٤٢]**

---

[٤٢] **قَوْلَه**: «**وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ**» لم يَقُل: خَلَقْتُهم لِلْجَنَّة فهم يَدْخُلُون الْجَنَّة، وإنَّما قال: «**وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ**»؛ فَدَلَّ على أنَّ الْجَنَّةَ لا تُدخَل إلَّا بِعَمَل. كما قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

وكذا قولُه: «**وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ**»، لم يَقُل: خَلَقتُهم لِلنَّارِ فَحَسْب، بل قال: «**وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ**» فَدَلَّ على أنَّه -كما ذكر- أنَّه لا أَحَدَ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ إلَّا بِعَمَل، ولا يَدْخُلِ النَّار إلَّا بِعَمَل، أي: ليس بِمُجَرَّدِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَر، وهذا وَاضِحٌ من الْحَدِيث.

فَفِي الْحَدِيثِ بَيَانُ أنَّه لا بدَّ من الْعَمَل، ولا يعني هذا أنَّ من قَضَى اللهُ له أنَّه من أَهْلِ النَّارِ أنَّه يَتْرُكُ الْعَمَلَ الذي يُنْجِيه من النَّار، أو من

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٤٧٠٣)، والترمذي رقم (٣٠٧٥)، وأحمد رقم (٣١١).

وقال إسْحَاقُ بن راهَوَيْهِ: حَدَّثَنَا بَقِيَّةُ بنُ الْوَلِيد، قال: أَخْبَرَنِي الزُّبَيديُ مُحَمَّدٌ بنُ الْوَلِيد، عن رَاشِدِ بن سَعْدٍ بنِ عَبْد الرَّحْمَن بن أَبِي قتادة، عن أَبِيه، عن هِشَام بن حَكِيم بن حزَام: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتُبْتَدَأُ الْأَعْمَالُ، أَمْ قَدْ قُضِيَ الْقَضَاءُ فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا أَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ ظَهْرِهِ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ، ثُمَّ أَفَاضَ بِهِمْ مِنْ كَفَّيْهِ، قَالَ: هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ، وَهَؤُلَاءِ لِلنَّارِ، فَأَهْلُ الْجَنَّةِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ»(١). [٤٣]

قَدَّر اللهُ له أنَّه من أَهْلِ الْجَنَّةِ أنَّه يَتْرُكُ الْعَمَلَ الذي يُسَبِّبُ له دُخُولَ الْجَنَّة، فَلَابُّد من الْعَمَل، لأنَّ الْجَنَّةَ لا تُدخَلُ إلَّا بِعَمَلِ الْخَيْر، والنار كَذَلِك لا تُدخَلُ إلَّا بِعَمَلِ الشَّرّ؛ فلا يَنْبَغِي أن تُعَطَّلَ الْأَعْمَال.

[٤٣] هَذَا الْحَدِيث يَشْهَدُ لِلَّذِي قَبْلَه في أنَّ الْقَضَاءَ وَالْقَدَر حَاصِل، ولكنه لا بدَّ من الْعَمَل، سَوَاء الْعَمَل الذي يُنْجِي من النَّارِ وَيُدْخِلُ الْجَنَّةَ أو الذي يَدْخُل الْجَنَّة.

---

(١) أخرجه: ابن أبي عاصم في «السنة» رقم (١٦٨)، والطبراني في «الكبير» رقم (٤٣٤).

كتابة الْعَمَل وَالْأَجَل وَالرِّزْق وَالشَّقَاء وَالسَّعَادَة

وعن عَبْدِ اللهِ بن مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ- وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا»[1]. [٤٤]

---

[٤٤] **قَوْلَه** ﷺ: «**أَرْبَعِين يومًا نُطْفَة**» النُّطْفَة: هو الْمَنِيُّ الذي يَقْذِفُه الرَّجُلُ في رَحِم الْمَرْأَة، فَيَبْقَى منيًّا أَرْبَعِين يومًا، ثم بعد الْأَرْبَعِين يَتَحَوَّلُ إلى «**عَلَقَةً**»؛ يعني إلى دَم، فَيَبْقَى أَرْبَعِين يومًا كَذَلِك وهو دَم، ثم بعد الْأَرْبَعِين الثَّانِيَة يَتَحَوَّل إلى «**مُضْغَةً**» يعني: قِطْعَة لَحم، وَالْمُضْغَةُ هي التي يكونُ منها تَرْكِيبُ الْإِنْسَانِ من الْعُرُوقِ وَالْأَعْضَاءِ وَالْعَصَبِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْعِظَام، وغير ذلك من تَرَاكِيبِ الْإِنْسَان، ثم في الْأَرْبَعِين الْأَخِيرَةِ تُنْفَخ فيه الرُّوحُ بعدما يَأْتِيه الْمَلَك، ثم يُؤْمَرُ الْمَلكُ بِأَرْبَع كَلِمَات، فَيَكْتُبُ عَمَلَه وَأَجَلَه وَرِزْقَه، وهل هو شَقِيٌّ أو سَعِيد، وهي كتابةٌ خَاصَّةٌ غيرُ الْكِتَابَةِ التي في اللَّوْحِ الْمَحْفُوظ، بل هي كتابةٌ مَأْخُوذَةٌ من

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٣٠٣٦)، ومسلم رقم (٢٦٤٣).

اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ التي هي كتابةٌ عَامَّة؛ فهناك كتابةٌ خَاصَّةٌ وَكِتَابَةٌ عَامَّة، ومن الْكِتَابَاتِ الْخَاصَّةِ ما يَأْتِي في لَيْلَةِ الْقَدْرِ ومنها ما جَاء في هذا الْحَدِيث، وأمَّا ما يَأْتِي في كلِّ يومٍ من الْأَيَّامِ فَكُلُّهَا من بابِ الْكِتَابَةِ الْخَاصَّةِ الْمَنْقُولَةِ من اللَّوْحِ الْمَحْفُوظ.

وقوله ﷺ: «ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ» الْعَلَقَة: قِطْعَة اللَّحْم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤].

وَتَفْصِيلُ هذه الْأُمُورِ في سُورَةِ [الْمُؤْمِنُون]، و قوله في الْآيَةِ الْكَرِيمَة: ﴿مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] يعني: آدم ﷺ. وَالْقَرَار الْمَكِين: هو رَحِمُ الْمَرْأَةِ الذي هو ثَابِتٌ لا يَتَغَيَّرُ، وَالنُّطْفَةُ مُسْتَقِرَّةٌ فيه دون اضْطِرَاب، وقولُه: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ﴾ [المؤمنون: ١٤] يعني: الْمَنِيُّ ﴿عَلَقَةً﴾ [المؤمنون: ١٤] يعني: دمًا يعلَق بِالْيَد؛ جَاء بـ«ثُمَّ» التي تُفِيدُ التَّرَاخِي؛ إذ كلُّ طَوْر له أَرْبَعُون يومًا ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [الْمُؤْمِنُون: ١٤].

وقولُه: «ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ» لِيَنْفُخَ فيه الرُّوحَ لِيَحْيَا وَيَتَحَرَّك؛ ولذلك يَتَحَرَّكُ الْحَمْلُ في الشَّهْرِ الرَّابع.

وقولُه: «فَيَكْتُبُ: رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ» مع نَفَخ الرُّوحِ فيه يُكْتَبُ ما يَجْرِي عَلَيْه من الْكِتَابَةِ الْخَاصَّةِ بِالنِّسْبَةِ لِكُلِّ فَرْدٍ من بَنِي آدَم، وأمَّا الذي في اللَّوْحِ الْمَحْفُوظ فهي كتابةٌ عَامَّةٌ لِلْجَمِيع فلا تعارُضَ بين الْكِتَابَتَيْن، فَالْكِتَابَةُ الْعَامَّةُ سَابِقَةٌ لِخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْض، وَالْكِتَابَةُ الْخَاصَّةُ تَتَكَرَّرُ بِإِذْن اللهِ إلى آخرِ الْخَلِيقَةِ مع كلِّ مَوْلُود.

وقولُه: «ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحَ» كقوله تعالى: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السَّجدَة: ٩]؛ أي: من رُوحِ اللهِ ﷻ الْمَخْلُوقَةِ فَالرُّوحُ مَخْلُوقَة، وَإِضَافَتُهَا إلى اللهِ إضَافَةُ مَخْلُوقٍ إلى خَالِقِه، فهي ليست من صِفَاتِ اللهِ ﷻ، وإنَّما معنى قولِه: ﴿مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة: ٩] أي: الرُّوح الْمَخْلُوقَة له ﷻ.

وقولُه: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا» إذا قُدِّر أنَّه من أَهْلِ النَّارِ فَلابُد وَأَن يَعْمَل بِعَمَلِ أَهْلِ النَّار، إمَّا في كلِّ عُمْرِه، يكونُ من أَهْلِ الْمَعَاصِي وَأَهلِ الْكُفْر وَيَمُوت على هَذَا، وإما بأنَّ يَعْمَل بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ثم يَخْتِم له بِعَمَلِ أَهْلِ النَّار، فَتَسُوءُ خَاتِمَتُه فَيَدْخُلِ النَّار، أو الْعَكْس يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ طول عُمْرِه، ثم يُخْتَم له بِعَمَلٍ صَالِحٍ فَيَكُون من أَهْلِ الْجَنَّة، وَالْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيم.

❁ **وفي هذا مَسْأَلَتَان:**

الْمَسْأَلَة الْأُوْلَى: أنَّه لا بدَّ من الْعَمَل.

الْمَسْأَلَة الثَّانِيَة: أن الْأَعْمَالَ بِالْخَوَاتِيم، ولذلك لا يَنْبَغِي أن يُشْهَد لِأَحدٍ بِجَنَّة أو نَار، لأَنَّه لا يُدْرَى ما يُخْتَم له؛ لأَنَّه في عِلْم اللهِ ﷻ.

❁ **ففي هذا الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ جُمْلَةٌ من الْفَوَائِد، منها:**

أولًا: بَيَانُ قُدْرَةِ اللهِ ﷻ على خَلَقِ هذا الْإِنْسَانِ ونَقْلِه من طُورٍ إلى طُور.

ثانيًا: فيه إِثْبَاتُ الْقَضَاءِ وَالْقَدَر، لأنَّ الْملِكَ يَكْتُبُ رِزْقَ الْإِنْسَانِ وَأَجَلِه وَعَمَلِه وهل هو شَقِيٌّ أو سَعِيد.

ثالثًا: فيه أنَّ الْجَنَّةَ والنار لا تُدخَلان إلَّا بِعَمَل، إمَّا بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُل الْجَنَّة ولو بِعَمَلٍ قَلِيل، فإذا خُتِمَ له بِعَمَلٍ صَالِحٍ دَخَل الْجَنَّة، وإما بِعَمَلِ أَهْلِ النَّار، فَيَدْخُلِ النَّار، ولو عَمل ابْتِدَاءً بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّة، لأَنَّه في آخِر عُمْرِه عَمِل بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ كأن يرتدَّ فَيَمُوت على الرِّدَّةِ فَيَكُون من أَهْلِ النَّار.

رابعًا: وفيه أن الْأَعْمَالَ بِالْخَوَاتِيم، فعلى الْإِنْسَانِ أَلَا يَغْتَرَّ بِصَلَاتِه وَصَلَاحِه وَاسْتِقَامَتِه، بل عَلَيْه أن يَخْشَى من سُوءِ الْخَاتِمَة، وعلى الْعَاصِي أَلَا يَقْنَط من رَحِمَةِ الله، بل يَرْجُو حُسَنَ الْخَاتِمَةِ وَيُسْأَلُ الله حُسْنَهَا.

خامسًا: فيه أَلَا يُشهَدَ لِأَحَدٍ بِجَنَّةٍ أو نَار، وإنَّما يُرجَى لِلْمُحْسِنِين ويُخاف على المسيئين، لأنَّ الشَّهَادَةَ لا بدَّ فِيهَا من خَبَرِ الْمَعْصُومِ ﷺ أنَّ هذا من أَهْلِ النَّارِ وهذا من أَهْلِ الْجَنَّة.

وعن حُذَيْفَةَ بنِ أُسَيدٍ ﷺ يبلغ به النَّبِيّ ﷺ قال: «يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَمَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَيُكْتَبَانِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى؟ فَيُكْتَبَانِ، وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ، وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ، ثُمَّ تُطْوَى الصُّحُفُ فَلَا يُزَادُ فِيهَا، وَلَا يُنْقَصُ»(١). [٤٥]

---

[٤٥] هَذَا الْحَدِيث كَحَدِيث ابن مَسْعُود ﷺ الَّذِي سَلَف قَبْلَه، ففيه أن الْملَكَ يَدْخُل عَلَى الْجَنِينِ في بَطْنِ أُمِّه - واللهُ قَادِرٌ على كلِّ شَيْء - فَيَسْأَلُ رَبَّه مَاذَا يَكْتُب، واللهُ ﷻ يُخْبِرُه مَاذَا يَكْتُب.

فَفِي هذا الْحَدِيثِ بَيَانُ أَنَّه لا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ ﷻ، وفيه إِثْبَاتُ حَقِيقَةِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَر، وفيه أَنَّه لا بدَّ من الْعَمَل.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٦٤٤).

لا يُقطَع لِأَحَدٍ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ والنارِ إِلَّا بِدَلِيل

وفي «صَحِيح مُسْلِم» عن عَائِشَةَ رَضِي اللهُ عنها قالت: دُعِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى جِنَازَةِ صَبِيٍّ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقُلْتُ: طُوبَى لَهُ، عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ لَمْ يَعْمَلِ السُّوءَ، وَلَمْ يُدْرِكْهُ، قَالَ: «أَوَغَيْرُ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ! إِنَّ اللهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا، وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ»(١). [٤٦]

---

[٤٦] فِي هذا الْحَدِيثِ أَنَّه لا يُشهَدُ لِأَحَدٍ بِأَنَّه من أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَّا بِدَلِيل، وكذلك لا يُشْهَد لِأَحَدٍ أَنَّه من أَهْلِ النَّارِ إِلَّا بِدَلِيل، وَعَائِشَة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت في هذا الْحَدِيث: «**طُوبَى لَهُ، عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ**» وهي بذلك شَهِدَت له بِدُخُولِ الْجَنَّة، وَلَكِنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَنْكَر عليها هذه الشَّهَادَة.

وأَمَّا مَسْأَلَةُ أَطْفَالِ الْمُسْلِمِين وماذا يكون مَصِيرُهُم في الْآخِرَة، نَقُول: إِنَّ أَطْفَالَ الْمُؤْمِنِين تَبَعٌ لِآبَائِهِم في الْجَنَّة.

وأَمَّا أَطْفَالُ الْكُفَّارِ فهؤلاء مَوْضِعُ خِلَافٍ بين الْعُلَمَاء، منهم من يقول: إِنَّهُم من أَهْلِ النَّار وهم تَبَعٌ لِآبَائِهِم، ومنهم من يقول: إِنَّهُم من أَهْلِ الْجَنَّة؛ لأَنَّهُم لم يَعْمَلُوا عَمَلَ أَهْلِ النَّار، فهم من أَهْلِ الْجَنَّة، ومنهم من يقول: إِنَّه يُرْسَلُ إليهم رَسُولٌ يومَ الْقِيَامَةِ وَيَدْعُوهُم، فَمَن آمَن دَخَل الْجَنَّةَ ومن كَفَر دَخَلَ النَّار، وَالصَّحِيحُ التَّوَقُّفُ في هذا الأَمْر،

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٦٦٢).

كلُّ شَيْءٍ بِقَدَر

وعن ابنِ عمرَ ﵄ قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ»(١). [٤٧].

وهو أَمْرٌ مَوْكُولٌ إلى اللهِ ﷻ، فهو أَعْلَمُ بِهِم وبمصيرِهم، وأمَّا نَحْن فَيَنْتَهِي علمُنَا عند ذلك.

[٤٧] قوله ﷺ: «**كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ**» فيه إثْبَات القَدَر «**حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ**» فَالْعَجْز من الْإِنْسَان وَكَوْنُه يَتْرُك الْعَمَل تكاسلًا فهو مُقدَّر عَلَيْه؛ قال تعالى عن الْمُنَافِقِين: ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

و«**الْكَيْسُ**»: هو النَّشَاطُ والعَزمُ وَالْحَزْمُ على مُزَاوَلَةِ الْعَمَلِ الصَّالِح، فَهُمَا مَكْتُوبَان في اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ومقدَّران على الْإِنْسَان، بأن يكونَ كَسْلَانَ أو نشيطًا وحازمًا في الْعَمَل؛ فدلَّ هذا على أنَّ الْكَسَلَ وَالْحَزْمَ إنَّما هُمَا من فعلِ الْعَبْدِ إلَّا أَنَّهُمَا مقدَّران مَكْتُوبَان في اللَّوْحِ الْمَحْفُوظ.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٦٥٥).

[تَفْسِيرُ قولِه تعالى:
﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]

عن قَتادةَ ﷺ فِي قولِه تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القَدْر: ٤] قال: «يُقضى فِيهَا ما يكون في السَّنة إلى مِثْلِها»[1].

وَقَد رُوِي معنى ذلك عن ابنِ عَبَّاسٍ ﷺ وَالْحَسَن، وَأبي عَبْدِ الرَّحمنِ السُّلَمي وَسَعِيدِ بن جُبير وَمُقَاتِل[2]. [٤٨]

---

[٤٨] قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤] هذا التَّقْدِيرُ الْحَوْلِيّ سَبَق التَّقْدِيرَ العُمُري في بَطْنِ الأُمّ؛ وَالتَّقْدِير الْحَوْلِيّ: هو ما يَحْصُلُ في لَيْلَةِ الْقَدْر، وهي من لَيَالِي رَمَضَان؛ قال اللهُ ﷻ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

وَقَال ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ١- ٥].

هَذِه لَيْلَةُ الْقَدْرِ يُقدَّر فِيهَا ما يَجْرِي في السنةِ من حَيَاةٍ وَمَوْت، وَخَصْب وَقَحْط، وغنًى وَفَقْر وغير ذلك، وهو مَأْخُوذٌ من القَدَرِ السَّابِق الْمَكْتُوبِ في اللَّوْحِ الْمَحْفُوظ، هذا التَّقْدِيرُ الْحَوْلِيّ وهو تَقْدِيرٌ خَاصّ.

قولَه: «يُقضى فِيهَا ما يكون في السَّنة إلى مِثْلِها» أي: يُقدر فِيهَا ما يكونُ في السَّنةِ وهو مأخوذٌ من التَّقْدِيرِ الْعَامّ المدوَّنِ في اللَّوْحِ الْمَحْفُوظ.

---

(١) انظر: عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٣٨٦)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٥٣).

(٢) انظر: «الدر المنثور» (٨/ ٥٦٨، ٥٦٩).

مَا جَاء في صِفَةِ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظ

وعن ابنِ عَبَّاسٍ ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ لَوْحًا مَحْفُوظًا مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، دَفَّتَاهُ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، قَلَمُهُ نُورٌ، وَكِتَابُهُ نُورٌ، عَرْضُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، يَنْظُرُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ ثَلَاثَمِائَةٍ وَسِتِّينَ نَظْرَةً، فَفِي كُلِّ نَظْرَةٍ مِنْهَا يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ، وَيُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ»، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] [(١)].

قَال ابنُ الْقَيِّم[(٢)] -رحمه الله تعالى- لَمَّا ذكر هذه الأَحَادِيثَ وما في مَعْنَاهَا، قال: «فهذا تَقْدِيرٌ يَوْمِيّ، والذي قَبْلَه تَقْدِيرٌ حَوْلِي، والذي قَبْلَه تَقْدِيرٌ عُمري عند تعلُّقِ النَّفْسِ به، والذي قَبْلَه كَذَلِك عند أَوَّلِ تَخْلِيقِه وَكَوْنه مُضْغَة، والذي قَبْلَه تَقْدِيرٌ سَابِقٌ على وُجودِه لَكِن بعد خَلَقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْض، والذي قَبْلَه تَقْدِيرٌ سابقٌ على خَلَقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِين أَلْف سَنَة، وَكُلٌّ واحدٍ من هذه التَّقَادِيرِ كَالتَّفْصِيلِ من التَّقْدِيرِ السَّابِق، وفي ذلك دَلِيلٌ على كَمَالِ عِلْمِ الربِّ وقُدرتِه وحكمتِه، وَزِيَادَةِ تَعْرِيفِه الملائكةَ وعبادِه الْمُؤْمِنِين بِنَفْسِه وَأَسْمَائِه.

ثُمّ قال: فَاتَّفَقَت هذه الْأَحَادِيثُ وَنَظَائِرُهَا على أَنَّ القَدَرَ السابقَ لا يَمْنَعُ الْعَمَلَ ولا يُوجِبُ الِاتِّكَال عَلَيْه، بل يُوجِبُ الجِدَّ وَالِاجْتِهَاد؛ ولهذا لَمَّا سَمِع بعضُ الصَّحَابَةِ ذلك قال: ما كُنت بأشدَّ اجتهادًا مِنِّي الْآن.

---

(١) أخرجه: الحاكم رقم (٣٧٧١)، والطبراني في «الكبير» رقم (١٠٦٠٥).

(٢) انظر: «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (١/ ٢٣، ٢٤).

وَقَال أَبُو عُثْمَان النَّهْدِيّ لِسَلْمَان: لأَنا بأَوَّلِ هذا الأَمْر أَشَدُّ فرحًا مِنِّي بِآخِرِه.

وَذَلِك لأَنَّه إذا كان قد سَبَقَ له من اللهِ سَابِقَةٌ وهيأهُ وَيسَّرْه لِلْوُصُولِ إِلَيْهَا كان فرحُه بِالسَّابِقَة التي سَبَقَت له من اللهِ أَعْظَمُ من فَرَحِه بِالْأَسْبَابِ التي تَأْتِي بَعْدَهَا». [٤٩].

---

[٤٩] قولُه تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، هذا من التَّقْدِيرِ الْيَوْمِيّ بعد التَّقْدِيرِ السنوي أو الْحَوْلِيّ، **وهناك ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ من التَّقْدِير:**

الْأَوَّل: التَّقْدِيرُ الْعُمْرِيّ.

الثَّانِي: التَّقْدِيرُ السنوي.

وَالثَّالِث: التَّقْدِيرُ الْيَوْمِيّ، كما في قولِه تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. وجَاء تَفْسِيرُ ذلك في الْحَدِيثِ الذي سَاقَه الْمُصَنِّفُ في هذا الْبَابِ وفيه: «**يَنْظُرُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ ثَلَاثَمِائَةٍ وَسِتِّينَ نَظْرَةً**» فيدبِّرُ ما يَشَاءُ ﷻ، ويقضي وَيَخْلُق وَيَرْزُق كلَّ يومٍ إذا نَظَر في اللَّوْحِ الْمَحْفُوظ، وهذا تَقْدِيرٌ خَاصٌّ من التَّقْدِيرِ الْعَامّ.

وَابْنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ سَاق جُمْلَةً من نَحْو هذه الْأَحَادِيثِ وَعلَّق عليها في كِتَابه «شِفَاء الْعَلِيل في الْقَضَاء وَالْقَدَر وَالْحِكْمَة وَالتَّعْلِيل»، فَقَوْلُه: «فَهَذَا تَقْدِيرٌ يَوْمَيّ، والذي قَبْلَه تَقْدِير حَوْلِي، والذي قَبْلَه تَقْدِيرٌ عُمري» هذا قد أَخَذَه واستنبطه رَحِمَهُ ٱللَّهُ من مَجْمُوعِ الأَحَادِيث.

فَقَوْلُه: «**هَذَا تَقْدِيرٌ يَوْمَيّ**» كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

وقولُه: «**وَالَّذِي قَبْلَه تَقْدِيرٌ حَوْلِي**» كما في قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

وقولُه: «**وَالَّذِي قَبْلَه تَقْدِيرٌ عُمُري**» وهو ما يُكتب على الْجَنِينِ في بَطْنِ أُمِّه.

وقولُه: «**وَالَّذِي قَبْلَه كَذَلِك عند أَوَّل تَخْلِيقِه وَكَوْنِه مُضْغَة**» يُشِيرُ بذلك إلى ما جَاء في حَدِيثِ حُذَيْفَةَ بن أُسَيدٍ من أن الْملَكَ «**يَدْخُلُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَمَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً**»(١)، وأمَّا حَدِيثُ ابنِ مَسْعُود فَذَكَر أنَّه عِنْدَمَا تُنفخُ فيه الرُّوح، وهذا مُرَادُه من ذكرِ هذا الْقَوْل. وهو بَيَانُ اخْتِلَافِ الْحَدِيثَيْن؛ حَدِيثِ ابن مَسْعُود والذي بَعْدَه.

وقولُه: «**وَالَّذِي قَبْلَه تَقْدِيرٌ سَابِقٌ على وَجُودِه لَكِن بعد خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْض**» يُشِيرُ بذلك إلى تَقْدِيرِ الْعَامِ السَّابِقِ على وُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ وهو ما كان في اللَّوْحِ الْمَحْفُوظ؛ وَالْمُرَادُ به حَدِيثُ آدَمَ عِنْدَمَا أَخَذ اللهُ ذُرِّيَّتَه وقال: «**هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَهَؤُلَاءِ لِلنَّارِ**»(٢) وهذا بعد خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ؛ لأنَّ خَلْقَ آدَمَ مُتَأَخِّرٌ عن خَلْقِهِمَا.

وقولُه: «**وَالَّذِي قَبْلَه سَابِقٌ على خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِين أَلْف سَنَة**» يُرِيد بِالَّذِي قَبْلَه ما جَاء في الْحَدِيثِ من أنَّ اللهَ «**مَسَحَ ظَهرَ آدَمَ فَاسْتَخْرَجَ منه ذُرِّيَّةً وقال: هَؤُلَاء لِلْجَنَّة، وهؤلاء لِلنَّار**»(٣)

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٦٤٤).

(٢) أخرجه: ابن أبي عاصم في «السنة» رقم (١٦٨)، والطبراني في «الكبير» رقم (٤٣٤).

(٣) أخرجه: أبو داود رقم (٤٧٠٣)، والترمذي رقم (٣٠٧٥)، وأحمد رقم (٣١١).

فهذا تَقْدِيرٌ بعد خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حين خَلَق آدَمَ ﷺ. والذي قَبْلَه النهائي هو التَّقْدِيرُ الْعَامّ.

فَلَقَد رَتَّبَ ابنُ الْقَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ مَدْلُولَات هذه الْأَحَادِيث على هذا التَّرْتِيبِ الدَّقِيقِ الْعَجِيب، فَكُلُّ وَاحِدٍ من هذه التَّقَادِيرِ التي بعد ما في اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ تفاصيلُ لمَا في اللَّوْحِ الْمَحْفُوظ.

وَهَذِه التَّقَادِيرُ الدَّقِيقَةُ التي لا تَخْتَلِفُ أبدًا إنَّما هي دَلِيلٌ على عِلْمِ الرَّبِّ وَقُدْرَتِه ﷻ، وأنَّه سُبْحَانَه أَظْهَر هذا لِعِبَادِه ليتعرفوا عَلَيْه، ولتتعلقَ رَغْبَتهم في اللهِ ﷻ ليخافوا منه ويرجوه، وليعبدوه ﷻ، فإِطْلاعُه سُبْحَانَه لهم على هذه التَّقَادِيرِ وَأَنْوَاعِهَا في الْقُرْآنِ وَالْأَحَادِيثِ إنَّما هو مَصْلَحَةُ الْعِبَاد؛ لِأَجْلِ أن يَعْرِفُوا رَبَّهُم ﷻ وَقَضَاءَه وَقَدَرَه وتدبيراته وَأَحْكَامَه لِيَكُونُوا على بَصِيرَة، لا أن يَكُونُوا كَالْبَهَائِم التي لا تَدْرِي لِمَاذَا خُلقت! هذا مُرَادُه رَحِمَهُ اللَّهُ من قولِه: «**وفي ذلك دَلِيلٌ على كَمَالِ عِلْم الرَّبِّ . . .**» إلَخ.

وأمَّا قولُه: «فَاتَّفَقَت هذه الْأَحَادِيثُ وَنَظَائِرُهَا على أن الْقَدَرَ السَّابِقَ لا يَمْنَعُ الْعَمَلَ ولا يُوجِبُ الِاتِّكَال . . .» إذ كلُّ الْأَحَادِيثِ يَأْتِي فِيهَا ذكرُ الْعَمَل، فدلَّ على أن التَّقَادِيرَ لا تَسُدُّ مَسَدَّ الْعَمَل؛ ولذلك أَعْطَى اللهُ ﷻ الْإِنْسَانَ الْقُدْرَةَ وَالْمَشِيئَةَ وَالِاخْتِيَارَ بعد أن بيَّنَ له الْخَيْرَ من الشَّرِّ، كلُّ ذلك لِأَجْلِ أن يَعْمَل، لا من أَجَلِ الِاطِّلَاعِ فَقَط، وهذا من لُطفِه ﷻ بِالْإِنْسَان، وهذا يُوجب عَلَيْه بعد مَعْرِفَتِه لِهَذِه الْأُمُورِ أن يَجْتَهِدَ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ وَيَتَجَنَّب الْعَمَلَ السَّيِّئ.

ثَمَرَةُ الإِيمَانِ بِالْقَدَرِ

وعن الْوَلِيدِ بنِ عُبادةَ قال: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عُبَادَةَ وَأَنَا أَتَخَايَلُ فِيهِ الْمَوْتَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ، أَوْصِنِي، وَاجْتَهِدْ لِي، فَقَالَ: أَجْلِسُونِي، فَلَمَّا أَجْلَسُوهُ قَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ تَطْعَمَ طَعْمَ الْإِيمَانِ وَلَمْ تَبْلُغْ حَقَّ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللهِ [تَبَارَكَ وَتَعَالَى] حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ، فَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ وَشَرُّهُ؟ قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، يَا بُنَيَّ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ [تَبَارَكَ وَتَعَالَى] الْقَلَمُ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، يَا بُنَيَّ: إِنْ مُتَّ وَلَسْتَ عَلَى ذَلِكَ دَخَلْتَ النَّارَ»[1]. [٥٠]

وقولُه: «لَمَّا سَمِع بَعْضُ الصَّحَابَةِ ذلك قال: ما كُنْت بأشَدَّ اجتهادًا مِنِّي الْآن» هذا من فِقْهِ الصَّحَابَةِ ﷺ، فَلَمَّا عَرَفُوا هذا زَاد اجْتِهَادُهُم في الْعَمَلِ، ولم يتكاسلوا أو يَتَّكِلُوا على الْقَضَاءِ وَالْقَدَر.

[٥٠] وهذا الْحَدِيث أيضًا في مَوْضُوع الْإِيمَان بِالْقَضَاء وَالْقَدَر، وَالْإِيمَان بِهِمَا هو أَحَد أَرْكَان الْإِيمَان السِّتَّة، ففي هذا الْحَدِيث أَنَّ الْوَلِيد بن عِبَادَة بن الصَّامِت ﷺ دَخَل على أَبِيه عُبادة بن الصَّامِت ﷺ وهو في آخَر حَيَاتِه عند الْمَوْت، فلمَّا عَلِمَ بأنَّ أَبَاه قد احتُضر أو قَارِب الْمَوْت طَلَب منه وصيَّةً تَكُون من الْمَيِّت، لأَنَّه يُسْتَحَبّ لِلْمَيِّت أن يُوصي قبل مَوْتِه أَوْلَادِه وَأَقَارِبُه بِتَقْوَى الله وَالتَّمَسُّك بالدِّين من بَعْدِه كما قال تعالى:

---

(١) أخرجه: أحمد رقم (٢٢٧٠٥)، والضياء رقم (٤٢٦).

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٣٢]، هَكَذَا يَطْمَئِنّ الْوَالِدُ على عَقِيدَةِ أَوْلَادِه من بَعْدِه، وهذا من النُّصح ومن كَمَالِ الشَّفَقَة، وإذا كان هذا عند الْمَوْتِ فَكَيْف بِحَالِ الْحَيَاةِ وَالصِّحَّة ! ولهذا فإنَّه يَنْبَغِي لِلْوَالِدِ أن يَعْتَنِيَ بِالْمُحَافَظَةِ على أَوْلَادِه، وَالْمُحَافَظَة على عَقِيدَتِهِم وعلى دِينِهِم، وَأَن يعلِّمَهم الْخَيْرَ وَيَحُثُّهُم على تجنُّبِ الشرِّ وَوَسَائِلِ الْمَعَاصِي حَتَّى يُنْشَّئُوا نشأةً صالحةً.

وفي هذا الْحَدِيثِ أيضًا أنَّ الْوَلِيدَ يَطْلُبُ من وَالِدِه أن يُوصِيه، وهذا من حَرَصِ السَّلَفِ على الْخَيْرِ وَالتَّوَاصِي به كما قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العَصْر: ٣].

وفي الْحَدِيثِ أن عُبَادَةَ بنَ الصَّامِتِ طَلَبَ أن يُجلِسوه، اهتمامًا منه ﷺ بِالْوَصِيَّة، فأَجلَسوه، فَأَوْصَى ابْنَه وَصِيَّته الْعَظِيمَة، أَوْصَاه أن يُؤْمِنَ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَر، فَدَلَّ على أَهَمِّيَّةِ هذا الأَمْر، فإنَّه في هذا الْمَوْقِفِ وهذه الْحَالَةِ الْحَرِجَةِ أَوْصَاه الْإِيمَانَ بِالْقَضَاء وَالْقَدَر؛ لأَنَّه قد ظَهَرَت في آخَرِ عَهْدِ الصَّحَابَةِ فِرْقَةُ القدَريةِ الَّذِين كانوا يَنْفُون القَدَر، فتَحاذَرهم الصَّحَابَةُ ﷺ وحذَّروا منهم؛ وهكذا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِين إذا ظَهَرَت فِرْقَةٌ ضَالَّةٌ أن يُحاصروها وَأَن يحذروا منها، وَأَنْ يقوموا ضدَّها حَتَّى يَسْلَمَ هذا الدّيْن من دُعاةِ الضَّلَالِ.

وَلَمَّا ظَهَرَت فِرْقَةُ الْقَدَرِيَّةِ أَوْصَى عُبَادَةُ ابْنَه بِالْحَذَرِ من هذه الْفِرْقَةِ وَمَذْهَبِهَا وَأَن يُؤْمِنَ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ عكسًا لمَّا عَلَيْه هذه الْفُرْقَةُ الضَّالَّةُ التي تُشكِّكُ أو تَنْفِي الْقَضَاءَ وَالْقَدَر، فَأَوْصَاه أن يُؤْمِنَ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَر، وقال لَه: «**لَن تَجِدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَر،**

عَدَمُ الْمُنَافَاةِ بين الْإِيمَانِ بِالْقَدْرِ وَالتَّدَاوِي

وعن أَبِي خُزامةَ عن أَبِيه ﷺ قَال: قُلْت: يا رَسُولَ اللَّه، أَرَأَيْتَ رُقًى نَسْتَرْقِيهَا، وَدَوَاءً نَتَدَاوَى بِهِ، وَتُقَاةً نَتَّقِيهَا، هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ شَيْئًا؟ قَالَ: «هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ»(١). [٥١]

وأنَّ ما أَصَابَك لم يَكُنْ لِيُخْطِئَك، وما أَخْطَأَك لم يَكُنْ لِيُصيبَك»، وروى عن رَسُولِ اللهِ ﷺ - وهكذا يَنْبَغِي لِمَن يقولُ قولًا أن يَذْكُرَ دَلِيلَه من الْكِتَابِ والسُّنة - فهذا عِبَادَةُ بنُ الصَّامَت لمَّا أَوْصَى ابْنَه بِهَذِه الْوَصِيَّةِ الْعَظِيمَةِ ذكر دَلِيلَه على هذه الْوَصِيَّةِ من حَدِيثِ الرَّسُولِ ﷺ، وأشار بِأَنَّه ﷺ ذكرَ بأنَّ منْ لم يُؤْمِنْ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَر أَحْرَقَه اللهُ بِالنَّار، هذا وَعِيدٌ شَدِيد، يَدُلُّ على كُفرِ من أَنْكَرَ الْقَضَاءَ وَالْقَدَر.

[٥١] هذا حَدِيثٌ عَظِيم، فيه أنَّه لا مُنافاةَ بين الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَاتِّخَاذِ الْأَسْبَابِ النَّافِعَة، فلا يُقَالُ: نُؤْمِنُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ دونَ الْحَاجَةِ إلى اتِّخَاذِ الْأَسْبَاب، لأَنَّه من الْخَطأ، ولا يُقَال: نَتَّخِذُ الْأَسْبَابَ وَحَسْب ولا حَاجَةَ إلى الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَر، وهذا أيضًا من الْخَطأ، لأنَّ الِاعْتِمَادَ على الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ضَلَال، وكذلك الِاعْتِمَادُ على الْأَسْبَابِ لوحدِها ضَلَال، وَالْحَقُّ هو الْجَمْعُ بين الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَاتِّخَاذِ الْأَسْبَابِ النَّافِعَة؛ لأَنَّهَا لا تُنَافِي الْقَضَاءَ وَالْقَدَر، لأنّ اتّخاذ الْأَسْبَاب إنَّما هو من الْقَضَاء وَالْقَدَر، فَلَوْلَا أن الله قدَّر اتّخَاذ هذه الْأَسْبَاب التي

---

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢٠٦٥)، وأحمد رقم (١٥٤٧٤).

اتَّخَذَهَا الْإِنْسَان، فلا تُنَافِي في ذلك بَيْنَهُمَا؛ لأَنَّه لا يكون في هذا الْكَوْن شَيْء إلَّا بِقَضَاء الله وَقَدْرَه.

وقولُه في الْحَدِيثِ «**رُقًى نَسْتَرْقِيهَا**» رُقى: جَمَع رُقية، وَالْمُرَادُ بها التعويذةُ التي يتعوَّذُ بها الْمَرِيض، وهذه الرُّقي إن كانت من كُتَّابِ اللهِ ﷻ ومن الْأَدْعِيَةِ الْمَشْرُوعَةِ فهي رُقًى شَرْعِيَّةٌ صَحِيحَة، فقد رَقى النَّبِيُّ ﷺ ورقي الرُّقى الشَّرْعِيَّة، وهي صَحِيحَةٌ فِعْلُهَا وَمَضْمُونُهَا؛ لأَنَّهَا من اتِّخَاذِ الْأَسْبَاب.

وَاَللَّهُ ﷻ جعَلَ الْقُرْآنَ شفاءً من الْأَمْرَاضِ ومن الشُّكُوكِ وَالْأَوْهَام وَالشُّبُهَات، فهو شفاءٌ لِلْأَجْسَامِ وللقلوبِ كما قال تَعَالَى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وَقَال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، فهو يَشْفِي من الْأَمْرَاضِ وَالْأَسْقَامِ وَيَشْفِي من الشُّبهاتِ وَالشُّكُوكِ وَالْوَسَاوِسِ التي تَكُونُ في الْقُلُوب.

فَإِذَا كانت الرُّقيةُ من الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ومن الْأَدْعِيَةِ الْمَشْرُوعَةِ فإنَّه لا بَأْسَ بها، وأَمَّا إن كانت من الشِّركيَّات وعن طَرِيقِ الِاسْتِعَانَةِ بِالْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ أو كانت بِأَلْفَاظٍ مَجْهُولَة وبحروفٍ مُقَطَّعَةٍ وطلاسمَ فهي رُقيةٌ شركيةٌ شَيْطَانِيَّةٌ فلا يَجُوزُ الْعَمَلُ بها.

وَقَد قال النَّبِيُّ ﷺ«**اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ تَكُنْ شِرْكًا**»[1]؛ لأَنَّهُم كانوا في الْجَاهِلِيَّةِ يَعْمَلُون الرُّقى الشِّركية، وأَمَّا الإسلامُ فقد جَاء بالرُّقى الشَّرعية.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٢٠٠).

وَقَوْلُه: « **وَدَوَاءً نَتَدَاوَى بِهِ** » الْمُرَاد: الْأَدْوِيَةُ الحسِّيةُ التي يُتَدَاوَى بها النَّاسُ في المستشفياتِ والمستوصفات، أو بِالطِّبِّ النَّبَوِيِّ الْمَعْرُوف، وما يُسمونه بِالطِّبِّ الشَّعْبِيّ، وَالصَّحِيحُ منه هو الطِّبُّ النَّبَوِيّ، وما ليس بِصَحِيح فهو ليس من الطِّبِّ النَّبَوِيّ؛ فالأدويةُ الحسِّيةُ لا بَأْس بها، فقد قال ﷺ « **مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً** »[1]، وفي رِوَايَة بِزِيَادَةِ: « **عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ** »[2]؛ فهو سُبْحَانَه جَعَل في هذه الْمَخْلُوقَاتِ وهذه النَّبَاتَاتِ أَدْوِيَةً يَسْتَخْرِجُهَا الْأَطِبَّاءُ وَأَهَلُ الْخِبْرَةِ فَيَنْفَعُ اللهُ بها، فلا بَأْسَ بِالتَّدَاوِي وَالْعِلَاج بِالْأَدْوِيَةِ الْمُبَاحَة.

لَكِنَّ السَّائِلَ سَأَل النَّبِيَّ ﷺ عن هذه الرُّقى وَالْأَدْوِيَةِ والتُّقاة التي يتَّقون بها الْمَكْرُوه: هل هي تردُّ الْقَضَاءَ وَالْقَدَر؟ فقال النَّبِيُّ ﷺ: « **هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ** »؛ لأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ واللهُ هو الذي قدَّرها ﷻ وَجَعلَهَا أَدْوِيَةً وَشِفَاء لِلنَّاس، فهي من الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ولا تُنافيه، فَإِن يُتَدَاوَى النَّاسُ وَيُؤْمِنُوا بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ فَذَلِك هو الْمَنْهَجُ الصَّحِيحُ وَالْعَقِيدَةُ السَّليمة، فَاتِّخَاذُ الْأَسْبَابِ الْمُبَاحَةِ لا يُنَافِي الْإِيمَانَ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَر؛ لأَنَّهَا هي من الْقَضَاءِ وَالْقَدَر؛ فلا شَيْءَ في هذا الْكَوْنِ إِلَّا وقد قدَّره اللهُ ﷻ.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٥٣٥٤).

(٢) أخرجه: أحمد رقم (٣٥٧٨)، وأبو يعلى رقم (٥١٨٣)، والطبراني في « الكبير » رقم (١٠٣٣١).

الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْر من الْمُؤْمِن الضَّعِيف

وعن أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كذا كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ «لَوْ» تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[1]. [٥٢]

---

[٥٢] في هذا الْحَدِيثِ الصَّحِيح: أَنَّه لا تَنَافي بين فعلِ الأَسْبَابِ وَالْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَر.

قَولُه ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ» أَي: القويّ في إيمَانِه وَعَزِيمَتِه وَرَأْيِه وفي بَدَنِه، فإذا اجْتَمَع له قُوَّةُ الْإِيمَانِ وَالْقُوَّةِ الْبَدَنِيَّةِ فهو خيرٌ من الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ في رَأْيِه وَإِيمَانِه؛ لأَنَّ الْمُؤْمِنَ الْقَوِيَّ يَنْفَعُ نفسَه وَيَنْفَعُ غيرَه، وأمَّا الْمُؤْمِنُ الضَّعِيفُ فهذا يَقْتَصِرُ نَفْعُه على نَفْسِه فَقَط ولا يَنْفَع غَيْرَه.

وَقَوْله: «وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ» أَي: الْمُؤْمِن القويّ وَالْمُؤْمِن الضَّعِيف، كلٌّ منهمَا خَيْر، لَكِنَّ الْخَيْرَ الذي في الْمُؤْمِنِ الْقَوِيِّ أَكْثَرُ منه في الضَّعِيف، فهذا فيه مَدْحٌ لِلْمُؤْمِنِ الْقَوِيّ؛ لِمَا يَجْعَل اللهُ فيه من الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ لِلْمُسْلِمِين، وفيه أنَّ الْمُؤْمِنَ الضَّعِيفَ فيه خَيْر فلا يُزهَد فِيْه؛ لأَنَّه مُؤْمِن، لَكِن نفعُه قاصرٌ على نَفْسِه.

وقولُه ﷺ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ» احرصْ؛ أَي: جِدَّ في طَلَبِ الْخَيْرِ ولا تَكْسَلْ، وَاحْرِص على ما يَنْفَعُك في دَيْنِك وَدُنْيَاك، وهذا فيه

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٦٦٤).

الْحَثُّ على الْكَسْبِ وَالْعَمَل، وألا يَرْكَنَ الْإِنْسَانُ إلى الرَّاحَةِ وَالْخُمُول، أو الِاتِّكَال على الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ دون الْعَمَلِ وَالْمُثَابَرَةِ عَلَيْه، فهذه مُغَالَطَةٌ يُضلِلُ فِيهَا شَيَاطِينُ الْإِنْسِ والجنِّ الجُهَّالَ من الْمُسْلِمِين، لِتَخْذِيلِهِم عن السَّعْي لِطَلَبِ الْخَيْر، بِحُجَّةِ أنَّ الْمَقْسُومَ حَاصِل.

وقولُه ﷺ: «**وَاسْتَعِنْ بِاللهِ**» يَعْنِي: لا تَعْتَمِد على حِرْصِك وأعمالِك بل لا بدَّ من الِاسْتِعَانَةِ بِاَللَّهِ والتوكُّلِ عَلَيْه ﷻ، فَالْأَصْلُ في هذا هو الْجَمْعُ بين الْأَمْرَيْن، الْحِرْصِ على ما يَنْفَع، وَالِاسْتِعَانَةِ بِاَللَّهِ والتوكُّلِ عَلَيْه ﷻ؛ فهذا فيه دَلِيلٌ على أنَّ السَّعيَ في طَلَبِ الرِّزْقِ وَغَيرِه من الْأُمُورِ النَّافِعَةِ لا يَكْفِي دونَ التوكُّلِ على اللهِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِطَلَبِ الْعَوْنِ منه ﷻ؛ فلا يَقْتَصِرُ الْإِنْسَانُ على التوكُّلِ على اللهِ وَيُتْرَك السَّعْيَ لِطَلَبِ الْخَيْر، ولا يَعْتَمِدُ على السَّعي وَيُتْرَكُ التوكُّلَ على اللَّه، فَلَابُد من الْجَمْعِ بين الْأَمْرَيْن.

وَقَوْلُه: «**وَلَا تَعْجِزْ**» يَعْنِي: لا تكسل؛ وَالْعَجْزُ هُنَا مَعْنَاه: الْكَسَلُ وَالْخُمُول؛ إذ بَعْضُ النَّاسِ يُقعِده الْعَجْزُ وَالْكَسَل، ولهذا يَنْهَى ﷺ عن الْعَجْزِ وَالْكَسَل؛ ولهذا اسْتَعَاذَ ﷺ من الْعَجْزِ وَالْكَسلِ وَالْجُبنِ وَالْبُخْلِ بِقَوْلِه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ**»[1]، فإذا فَعَلْت هذا بأنْ سعيتَ في طَلَبِ الْخَيْرِ واستعنتَ بِاَللَّه، فَإِن حَصَل كلُّ مَقْصُودِك فاحمَدِ اللهَ ﷻ، وَإِنْ لم يَحْصُلْ لَك مَقْصُودُك فلا تتحسَّرْ وتتأسَّ، بل اعْلَم أنَّ هذا قَضَاءٌ وَقَدَر، وأنَّه لو كان قُدِّر لَك هذا الشَّيْءُ

(١) أخرجه: البخاري رقم (٢٦٦٨)، ومسلم رقم (٢٧٢٢).

لَحَصَل، فارضَ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِه بعد تَقْدِيم الْأَسْبَاب، وأمَّا الرِّضَا بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِه مع تَعْطِيلِ الْأَسْبَابِ فهو غيرُ مَشْرُوع.

فَإِذَا أَصَابَك شَيْءٌ فلا تَقُلْ: لو أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَان كَذَا وكذا، فَالْقَدَرُ لا يُنجِّي منه شَيْء، وَلَكِن قَل: قَدَّر اللهُ وما شَاء فَعَل، هذا هو الْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَر، وهذا يُطَمْئِنُ الْمُؤْمِن؛ لأنَّ الذي لا يُؤْمِنُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ إذا فَاتَه ما يُرِيدُ فإنَّه يتحسَّرُ وأمَّا الْمُؤْمِنُ فلا يَحْزَن ولا يتحسَّر ولا يَلُومُ أحدًا؛ لأَنَّه يُؤْمِنُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ لمَا فيه رَاحَةٌ لِلْمُؤْمِن.

بَابُ ذكرِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِم السَّلامُ وَالْإِيمَان بِهِم

قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فُصِّلَت: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩- ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧]. **[٥٣]**

---

[٥٣] كما ذَكرنَا سابقًا أنَّ الْإِيمَانَ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ رُكْنٌ من أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السِّتَّة، فَكَذَلِك الإِيمَانُ بِالْمَلَائِكَةِ رُكْنٌ من أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السِّتَّة كما قال سُبْحَانَه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وَقَال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وَالْمَلَائِكَة: جَمعُ مَلَك، وَالْمَلَك أَصْلِه «مَلْأَك» بِالْهَمْز مَأْخُوذ من الأَلُوكَة: وهي الرِّسَالَة؛ لأنَّ المَلَكَ رسولٌ من اللهِ ﷻ.

وَالْمَلَائِكَةُ خَلْقٌ من خَلقِ اللهِ ﷻ من عالَمِ الْغَيْب، نُؤْمِنُ بِهِم ولو لم نَرَهُم؛ اعتمادًا على خَبَرِ اللهِ ﷻ وَخَبرِ رَسُولِه ﷺ، فَإن اللهَ أَخْبَر عن الْمَلَائِكَة، وكذا النبيُّ ﷺ، فليس كلُّ مَوْجُودٍ يُرى ويُشاهَد، فَالرُّوحُ مثلًا هي مَوْجُودَةٌ وَلِكِنَّهَا لا تُرى، وكذا الْعَقْلُ هو مَوْجُودٌ وَلَكِنَّنَا لا نَرَاه، وَنَحْن نُؤْمِنُ بِالْمَلَائِكَةِ وَإِنْ لم نَرَهُم.

بِخِلَافِ الْمَلَاحِدَةِ الَّذين يَقُولُون: لا نُؤْمِنُ إِلَّا بِمَا نُشَاهِدُه، فهؤلاء ليس لهم ميزة، وَلَكِنَّ المِيزَةَ تَكُونُ لِلَّذين يُؤْمِنُون بِالْغَيْبِ اعتمادًا على خَبَرِ اللهِ ﷻ وَخَبرِ رَسُولِه ﷺ؛ ولهذا فإنَّه جَاء في أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ قولُه تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢- ٣]؛ أَي: ما غَاب عَنْهُم، واللهُ ﷻ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَة، يَعْلَم الْمُشَاهَدَ وَيعلمُ الْغَائِب، أَمَّا نَحْن فلا نَعْلَمْ إِلَّا الْمُشَاهَد، وأَمّا الْغَائِبُ فلا نَعْلَمُه إِلَّا بِوَاسِطَةِ الْوَحْي المنزَّلِ من عندِ اللهِ ﷻ.

فَالْمَلَائِكَةُ من عَالِمِ الْغَيْب، خَلقَهُم اللهُ من نُور، وَخَلَق الشَّيْطَانَ من لَهَبِ النَّار، وَخَلَق آدَمَ من تُرَاب، قال ﷺ: «**خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**»(١).

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٩٩٦).

وَقَد خَلقَ اللهُ الْمَلَائِكَةَ لحِكَم عَظِيمَة، ومن ذلك أنَّه خَلقَهم لِعِبَادَتِه؛ قال تَعالَى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وخَلقَهم ﷻ أيضًا لِتَنْفِيذِ أَوَامِرِه في هذا الْكَوْن، فَكُلُّ صنفٍ من الْمَلَائِكَةِ موكَّلٌ بِشَيْءٍ من الْعَمَل.

فَمِنْهُم الموكَّلُ بِالْوَحْي وهو جِبْرِيل عليه السلام.

ومنهم الموكَّلُ بالقَطْر وَالنَّبات، وهو مِيكَائِيل.

ومنهم الْمُوَكِّلُ بِقَبْضِ الْأَرْوَاح والنفْخ في الصُّوَرِ وهو إِسْرَافِيل.

ومنهم الموكَّلُ بالأجنَّةِ في الْبُطُون، فَيَدْخُل على الْجَنِين وَيَكْتُب رِزْقِه وَأَجَلَه وَعَمَلَه وَشَقِيّ أو سَعِيد.

ومنهم الموكَّلُ بِحِفْظِ أَعْمَالِ بَنِي آدَم وهم الحَفَظَةُ يَتَعَاقَبُون على بَنِي آدَم بِاللَّيْلِ والنهار، يُسجلون أَعْمَالِهِم وَيَصْعَدُون بها إلى الله ﷻ.

وُكِل صنفٍ من الْمَلَائِكَة له وَظِيفَة وَكَّلَهَا الله إلَيْه لا يتخلَّف عَنْهَا؛ قال تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦- ٢٧].

وَقَال عَنْهُم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

فَلا أَحَد منهم يَتَخَلَّف عن عَمَلِه الذي أوْكَله الله إلَيْه، بل هُم يَمْتَثِلُون أَوَامِر الله ﷻ، فَيَجِب الْإِيمَان بِهِم، وهم كما ذَكَرنَا أَصْنَاف:

مِنْهُم الْمُوَكَّلُون بِحَمْلِ الْعَرْش، ومنهم من هُم حَوْلَ الْعَرْش، ومنهم المقرَّبون من اللهِ ﷻ، ومنهم خَازِنُ الْجِنَان ومنهم خَزَنَةُ النَّار، فهم أَنْوَاعٌ كَثِيرَة لا يَعْلَمُها إِلَّا اللهُ ﷻ.

وخِلْقةُ الْمَلَكِ الْوَاحِد عَظِيمَةٌ ليست كخِلْقةِ بَنِي آدم؛ ولذلك لا يأْتُون إلى الْبَشَرِ في خِلْقَتِهِم الْأَصْلِيَّةِ المَلَكيةِ وإنَّما يَأْتُون إلى الْبَشَرِ بِصُورَةِ الْبَشَر؛ لِئَلَّا يَنْفِرُوا منهم؛ لأنَّ الْبَشَرَ لا يُطيقون رُؤْيَةَ الْمَلَك على هَيْئَتِه الْمَلَكِيَّة؛ ولذلك يَأْتُون بِصُورَةِ آدمي.

كَمَا كان جِبْرِيلُ يَأْتِي إلى النَّبِيِّ ﷺ في صُورَةِ رَجُلٍ من الصَّحَابَةِ وهو دِحْيَةُ الْكَلْبِي فيتخاطبُ مع الرَّسُولِ بِمَا أَرْسَلَه اللهُ بِه.

وَلَمّ يَرَ الرسولُ ﷺ جبريلَ على خِلقتِه إلَّا مَرَّتَيْن: مَرَّة رَآه بين السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ له سِتُّمِائَة جُنَاح كلُّ جُنَاحٍ منها سدَّ الأُفق، وَمُرَّة ثَانِيَة رَآه لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ عند سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى[1]، قال تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣- ١٤]، لمَّا عُرِج به ﷺ إلى السَّمَاء، وأمَّا بَقِيَّةُ مَجِيءِ جِبْرِيلِ إلى الرَّسُولِ ﷺ فإنَّه كان يَأْتِيه على صُورَةِ آدميّ.

والمَلَكُ الْوَاحِدُ أَعْطَاه اللهُ ﷻ قُوَّةً كَبِيرَة، ومنهم جِبْرِيلُ ﵇، الذي قال ﷻ عَنْه: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] يَعْنِي: جِبْرِيل ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٦] قَيْل: المِرَّة: الْهَيْئَة الْحَسَنَة. وَقِيل: المِرَّة: الْقُوَّة.

فَجِبْرِيلُ ﵇ قَوِيّ، ومما يَدُلُّ على قوَّته: أن اللهَ لَمَّا أَمْرَه بِقَلْبِ قُرى قَوْمِ لُوط رَفَع سَبْعَ مَدَائِنَ مَمْلُوءَةً بِالْخَلْقِ وَالْمَبَانِي جميعًا على طَرْفِ جَنَاحِه حَتَّى سَمِعَت الْمَلَائِكَةُ في السَّمَاءِ نُبَاحَ كِلَابِهم وَصِيَاحَ دِيكتِهم ثم قَلَبها عَلَيْهِم، فَخَسف اللهُ بِهِم، وهذا ما يَدُلُّ على قوّةِ جِبْرِيلَ ﵇.

(١) انظر: البخاري رقم (٣٢٣٢)، ومسلم رقم (١٧٤).

وَلَمَّا صَاح بِقَبِيلَةِ ثَمُود صَيْحَةً وَاحِدَةً صَاعِقَةً قَطَعْت قُلُوبَهم في أَجْوَافِهِم وماتوا عن آخِرِهِم؛ قال تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١]، صِحِّيَّة وَاحِدَة من جِبْرِيلَ الطَّيْلا أَهْلَكَتْ أَمَةً عَظِيمَة، وهذا أيضًا ما يدلُّ على قُوتِه الطَّيْلا.

قَولُه تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧] الْآيَة، سَبَب نُزُول هذه الْآيَة: أنَّ الْيَهُودَ اعْتَرَضُوا على تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ من بَيْتِ الْمَقْدِسِ إلى الْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ وهم يَعْلَمُون أنَّه حقٌّ وَيَجِدُون هذا في كُتُبَهُم التي فِيهَا وَصْفُ النَّبِيِّ ﷺ؛ بِحَيْث لو أنَّ الرَّسُولَ ﷺ بَقِي على اسْتِقْبَالِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَاعْتَرَضُوا أيضًا بحجَّةِ أنَّ الرَّسُولَ الْمَوْصُوفَ عِنْدَهُم في كُتُبِهم يَسْتَقْبِلُ الْكَعْبَةَ وَلَقَالُوا: إنَّك تَسْتَقْبِلُ بَيْتَ الْمَقْدِس، فهم سيُعرِضون على كلَا الْحَالَتَيْن؛ ولهذا قال تَعَالَى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة: ١٥٠]؛ يَعْنِي: حولناكم إلى الْكَعْبَة؛ لِئَلَّا يكونَ لِلْيَهُودِ عَلَيْكُم حُجَّة؛ لأَنَّهُم يَعْلَمُون أنَّ الرَّسُولَ الذي سَيبعَثُ سيستقبلُ الْكَعْبَةَ الْمُشَرَّفَة، فلو بَقِي محمدٌ ﷺ يَسْتَقْبِلُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ لَقَالُوا: ليس هذا الرَّسُولَ الْمَوْعُود، فَلَمَّا حُوِّلت الْقِبْلَةُ إلى الْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَة، قِبْلَةُ إبْرَاهِيمَ ﷺ اعْتَرَضُوا، فاللهُ ﷻ يَقُول: ليست الطَّاعَةُ أن تَسْتَقْبِلَ الْمَشْرِقَ أو الْمَغْرِبَ وَلَكِنَّ الطَّاعَةَ أن تَسْتَقْبِلَ الْجِهَةَ التي آمرُكُم بها، فَالْمَدَارُ على الأَمْرِ لا على الْجِهَة.

فَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] يَعْنِي: أنَّه من الْإِيمَانِ بِاللَّه اسْتِقْبَالُ الْجِهَةِ التي يَأْمُرُ اللهُ ﷻ بها.

وَقَد ذكر الله ﷻ في قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧] ذكر في هذه الْآيَةِ خَمْسَةَ أَرْكَانٍ من أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السِّتَّة، وَالشَّاهِد في ذلك هو قولُه تَعالَى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ فَجعَلَ الْإِيمَانَ بِالْمَلَائِكَةِ من أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السِّتَّة، فَمَن لم يُؤْمِنْ بِالْمَلَائِكَةِ فقد افتقدَ ركنًا من أَرْكَانِ الْإِيمَانِ ولا يكونُ مسلمًا.

وقوله تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [فُصِّلَت: ٣٠]، هذا خبرٌ من الله ﷻ، فَقَوْلُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [فُصِّلَت: ٣٠] يَعْنِي: أَعْلَنُوا تَوْحِيدَ الْأُلُوهِيَّةِ ولا إله إلَّا اللَّه؛ لا مَعْبُودَ عِنْدَهُم بِحَقٍّ إلَّا الله ﷻ، فنطقوا بالحقِّ، وهي شَهَادَةُ أن لا إلَهَ إلَّا اللَّه، وليس الْمُرَادُ النُّطْقَ بِالْحُرُوف فَحَسْب، وَلَكِنِ النُّطقَ بِالْأَلْسِنَةِ وَالِاعْتِقَادِ بِالْقُلُوب وَالْعَمَلِ بِالْجَوَارِح، فَشَهَادَةُ أن لا إلَهَ إلَّا اللهُ لا بدَّ من التلفُّظِ بها وَمَعْرِفَةِ مَعْنَاهَا وَالْعَمَل بِمُقْتَضَاهَا، فَلا بدَّ من هذه الْأُمُورِ مُجْتَمِعَة، أَمَّا قَوْل: لا إلَهَ إلَّا اللَّه، دون مَعْرِفَةِ مَعْنَاهَا، أو مَعْرِفَةِ مَعْنَاهَا دونَ الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا، أو مَعْرِفَةِ مَعْنَاهَا وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا دون التَّلَفُّظِ بها كَحَالِ الْمُشْرِكِين، كلُّ هذا لا يَنْفَعُ حَتَّى يَنْطِقَ بها وَيَعْرِفَ مَعْنَاهَا وَيُعْمَل بِمُقْتَضَاهَا.

ومن الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا الْبَرَاءَةُ من الشِّرْكِ والمشركين هذا مُقْتَضَى التَّوْحِيد؛ ولهذا قال تَعالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فُصِّلَت: ٣٠] لم يَقْتَصِرْ على قَوْلِه: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [فُصِّلَت: ٣٠] بل قَوْله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فُصِّلَت: ٣٠] يَعْنِي: عَمِلُوا بِهَذِه الْكَلِمَة، فَأَفْرَدُوا اللهَ ﷻ بِالْعِبَادَة، هذه هي

الِاسْتِقَامَة، أَمَّا مُجَرَّدُ النُّطْقِ بها من غيرِ اسْتِقَامَة؛ أَي: من غيرِ عَمَلٍ بِمُقْتَضَاهَا، فَإِنَّهَا لا تَنْفَعُ صَاحِبَهَا.

وَقَوْلُه: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [فُصِّلَت: ٣٠] هذا هو مَحَلُّ الشَّاهِد، وَالْمَلَائِكَةُ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِم عند الْمَوْت، وهي مَلَائِكَةُ الْمَوْت، فَمَلَكُ الْمَوْتِ جَعَل اللهُ مَعَه مَلَائِكَةً يُسَاعِدُونَه؛ قال تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]. وقال في آيَة أُخْرَى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] يَعْنِي: الْمَلَائِكَة لأَنَّهُم رُسُل، وفي آيَةٍ أُخْرَى قَال: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النحل: ٣٢]، وَالْجَمع في ذَلِك: هو أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ مَعَه أَعْوَانٌ من الْمَلَائِكَةِ يَسْتَخْرِجُون الرُّوحَ من جَسَدِ الْإِنْسَان، ثم يَقْبِضهَا منهم مَلَك الْمَوْت، وأَمَّا الْبَاقُون فهم أَعْوَانٌ لَه.

فَالْمَلَائِكَةُ تَتَنَزَّلُ على الْإِنْسَانِ عند الِاحْتِضَارِ في الْمَوْقِفِ الْحَرِج، وحينها يطَّلع الْإِنْسَانُ على ما هو أَمَامَه، فَيَطَّلِعُ على مَنْزِلَتِه في الْآخِرَة، إمَّا في الْجَنَّةِ وإما في النَّار، فَيَحْصُلُ عند الْإِنْسَانِ خَوْفٍ شَدِيد، فتُطمئنُه الْمَلَائِكَةُ بِقَوْلِهِم: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠]، ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾ مِمَّا أَنْتُم قَادِمُون عَلَيْه، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [فُصِّلَت: ٣٠]: عَلَى ما فَاتَكُم من الدُّنْيَا، على أَوْلَادِكُم وَأَمْوَالِكُم ﴿وَأَبْشِرُوا۟﴾ [فُصِّلَت: ٣٠]: بعدما هدَّءُوهم بشَّروهم، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فُصِّلَت: ٣٠- ٣١] يَعْنِي: نَتَوَلَّى

أَمَــــرَكُـــــم: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فُصِّلَت: ٣١- ٣٢]، هذه صِفَةُ احْتِضَار الْمُؤْمِن.

وأمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَإِن الْمَلَائِكَةَ إذا نَزَلَت لقَبْضِ رُوحِه فَإِنَّهَا تبشرُه بِالنَّارِ وَالتَّهْدِيدِ وَالضَّرْب؛ قال تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وَقَــال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣] يَعْنِي: باسطو أَيْدِيهِم بِالضَّرْب ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]، بعدما اسْتَصْعَبَت أَنْفُسُهم وَامْتَنَعَت عن الْخُرُوج من الْأَجْسَاد، وذلك إذ يُبشرونهم بِالنَّارِ وَالْعَذَاب؛ هذه صِفَةُ احْتِضَارِ الْكَافِرِ وَالْمُنَافِق.

وفي هذا دَلِيلٌ على وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِالْمَلَائِكَة، وَأَن منهم صنفًا مهمتُهم قَبَضُ الْأَرْوَاح، وَبِشَارَةُ الْمُؤْمِنِين بِالْجَنَّة، وَبِشَارَةُ الْكُفَّار والمنافقين بِالنَّار عند هذه الْحَال.

وقوله تَعَالَى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ﴾ [النساء: ١٧٢]، قَوْلَه: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾ [النساء: ١٧٢] أَي: عِيسَى بن مَرْيَم عليه السلام، فلا يَسْتَكْبِر أو يَمْتَنِع من أن يكون عبدًا لِلَّه عز وجل؛ لأنَّ النَّصَارَى اعْتَقَدَت في الْمَسِيح أنَّه هو اللَّه، أو أنَّه ابن اللَّه، أو ثَالِث ثَلَاثَة، والله جل وعلا يَقُوْل: إن الْمَسِيح عليه السلام لا يَدَّعِي هذا الذي تَقُولُونَه، وهو عليه السلام يَعْتَرِف بِأَنَّه عَبْد لِلَّه عز وجل.

قَال تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزُّخرُف: ٥٩] يعني الْمَسِيح عليه السلام.

وَقَال تعالى على لِسَانِه: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠] هذا أَوَّل ما نَطَق به وهو في الْمَهْد، ولم يَقُل: إنِّي ابن اللَّه، وقال كما ذكر سُبْحَانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١]، هذا قَوْل الْمَسِيح عليه السلام أنَّه عَبْد الله وَرَسُوله، بِخِلَاف ما تَدَّعِيه النَّصَارَى من أنَّه ابن الله - تعالى الله عمَّا يَقُولُون علوًّا كبيرًا.

وهذا فيه رَدٌّ على زَعْمِهِم بِأَنَّه ابنُ اللَّه، فهو عليه السلام يَتَشَرَّفُ في أن يكونَ عبدًا للَّه، وَأَفْضَلُ الْخَلْقِ مُحَمَّدٌ ﷺ يَقُوْل: «**إِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»(١).

وَالْعُبُودِيَّةُ هي أَعْلَى مَرَاتِبِ الشَّرَفِ لِبَنِي آدم وَلِلْمَلَائِكَةِ ولجميعِ الْخَلْق، وأمَّا الْأُلُوهِيَّة فَإِنَّهَا لا تكُونُ إِلَّا لِلَّهِ سبحانه وتعالى:

لِلَّـه حَقٌّ ليس لِعَبْدِه ... وَلِعَبْدِه حَقٌّ هُمَا حقَّانِ
لا تَجْعَل الحقَّيْن حقًّا واحدًا ... من غير تَمْيِيز ولا فرقانِ

فَيَجِبُ التَّفْرِيقُ بين حَقِّ اللهِ وَحَقِّ الرَّسُولِ ﷺ، فَحَقُّ اللَّه: الْعِبَادَة، وَحَقُّ الرَّسُولِ ﷺ: الْمُتَابَعَةُ وَالطَّاعَةُ له ﷺ وَالْإِيمَانُ بِرِسَالَتِه وَمَحَبَّتِه أَكْثَر من مَحَبَّةِ النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِين، هذا هو حَقُّ الرَّسُولِ ﷺ؛ لأَنَّه ليس له في الْعِبَادَةِ حَقّ، لأَنَّهَا حَقٌّ لِلَّهِ عز وجل وَحده دون سِوَاه.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٣٢٦١).

وقولُه تعالَى: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ﴾ [النساء: ١٧٢] هذا هو مَحَلُّ الشَّاهِدِ؛ فَالْمَلَائِكَةُ لا يَسْتَكْبِرُون أن يَكُونُوا عبيدًا لِلَّه ﷻ، بل هُم مُعْتَرِفُون بِالْعُبُودِيَّةِ ولهذا فهم كما وَصَفَهم اللهُ بِقَوْلِه: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وَقَوْله: ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَۚ﴾ [النساء: ١٧٢] فيه دَلِيلٌ على أنَّ هناك صنفًا من الْمَلَائِكَة مُقَرَّبُون عند اللهِ ﷻ، فَالْمَلَائِكَةُ دَرَجَات، فَمِنْهُم الْمُقَرَّبُون عندَ اللهِ ﷻ، وَلَكِن مع كَوْنَهُم مقربين عند الله إلَّا أَنَّهُم لا يَسْتَنْكِفُون أن يَكُونُوا عبادًا لِلَّه ﷻ.

وقولُه تعَالَى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩- ٢٠]، وهذا أيضًا في وَصفِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِم الصَّلَاة وَالسَّلَام؛ يقول الله ﷻ: ﴿وَلَهُۥ﴾ أي: لِلَّه ﷻ ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ كلُّهم عَبِيدُه، الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِر، وَالْجِنُّ وَالْإِنْس، كلُّهم عبيدٌ لِلَّه، قال تَعالَى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] لَكِن الْكَافِر عَبْد لِلَّه الْعُبُودِيَّة الْعَامَّة، وأمَّا الْمُؤْمِنُ فهو عَبْدٌ لِلَّهِ الْعُبُودِيَّة الْخَاصَّة، وَإِلَّا فَكُلُّهُم عِبَادٌ لِلَّهِ ﷻ.

وقولُه تعالَى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ أي: الْمَلَائِكَة، وَقَوْله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]، أَي: لا يَسْتَنْكِفُون ولا يَسْأَمُون ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩- ٢٠]، ولهذا قال تَعالَى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩] فَالْمَلَائِكَةُ لا يدَّعون الْأُلُوهِيَّة، ولو قُدِّرَ أَنَّهُم ادَّعَوا الْأُلُوهِيَّةَ لأحرقَهُم اللهُ في النَّار؛ لأنَّ الْعُبُودِيَّةَ حَقٌّ له ﷻ دونَ سِوَاه.

وقـولُـه تَـعَـالَـى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ [فاطر: ١]. قَوله: ﴿رُسُلًا﴾ إلى خَلْقِه يُرْسِلُهُم اللهُ ﷻ بِالْمُهِمَّات التي ينفذونها في الأَرْض، فَمِنْهُم مَن يَنْزِلُ بِالْوَحْي، ومنهم مَن يَنْزِلُ بِالْعَذَاب، ومنهم مَن يَنْزِلُ بِالْبِشَارَةِ لِلْمُؤْمِنِين، كما قال تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥] فهناك رُسُلٌ من الْمَلَائِكَةِ وَرُسُلٌ من الْبَشَر، فَالْمَلَائِكَةُ رُسُلٌ يُرْسِلُهُم اللهُ ﷻ لمَّا يُرِيد من أَمْرِه.

وقولُه تَعَالَى: ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ﴾ هذا فيه إِثْبَاتُ الْأَجْنِحَةِ لِلْمَلَائِكَة؛ لأنَّ الْمَلَائِكَةَ تَطير في الْهَوَاء، وهذه الْأَجْنِحَةُ كَثِيرَةٌ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّه؛ ولهذا قال تَعَالَى: ﴿مَّثْنَىٰ﴾ يَعْنِي: منهم من له جَنَاحَان ﴿وَثُلَٰثَ﴾، أَي: ومنهم من له ثَلَاثُ أَجْنِحَة ﴿وَرُبَٰعَۚ﴾ أَي: منهم من له أَرْبَعَة أَجْنِحَة ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ [فاطر: ١] أَي: زِيَادَتِه ﷻ في خَلقِ هذا الْمَلَك من الْأَجْنِحَةِ على الْآخَرِ ما يَشَاء وَنُقْصَانِه عن الْآخَر ما أَحب، فَمِنْهُم من له سِتُّمِائَة جُنَاح كما في الْحَدِيث الصَّحِيح[1].

فَهَذَا فيه إِثْبَاتُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ رُسُل، وأنهم ليس لهم من الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ شَيْء، وإِنَّما هُم مُجَرَّدُ رُسُل، وَأَنَّ لهم أَجْنِحَةً يَطِيرُون بها في الْهَوَاء، وَأَن هذه الْأَجْنِحَةَ مُتَعَدِّدَة.

(١) أخرجه: البخاري رقم (٤٥٧٦)، ومسلم رقم (١٧٤).

وقـولُـه تَـعَـالَـى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غـافـر: ٧]، وهـذا صِـنْـفٌ آخَـرٌ مـن الْمَلَائِكَةِ أيضًا هُم حَمَلةُ الْعَرْش، الذي هو أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ يَحمِلُه مَلَائِكَةٌ وهم أَرْبَعَة، ومع عِظَم الْعَرْشِ الْكَرِيم يَذْكُرُ عِظَمَ هَؤُلَاء الْمَلَائِكَةَ الَّذين يَحْمِلُونَه، وَيَوْمَ الْقِيَامَة يُضَاعَف عَدَدُهم فَيَكُونُون ثَمَانِيَة ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٧]، يَعْنِي: من الْمَلَائِكَة الَّذِين يُقَال لَهُم: حَمَلَة الْعَرْش.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ [غافر: ٧] أَي: حَوْل الْعَرْش وهم الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُون.

ومن نُصْحِهم وَمَحَبَّتِهم لِلْمُؤْمِنين فَإِنَّهُم يَسْتَغْفِرُون لَهُم؛ ولهذا وَصْفِهِم الله تعالى بِقَوْلِه: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ [غافر: ٧] أَي: ينزِّهون اللهَ ﷻ ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧]، فهم يَسْتَغْفِرُون لِلْمُؤْمِنِين من بَنِي آدَم، لأَنَّهُم يُحِبُّون الْمُؤْمِنِين منهم، وهم أَنْصَحُ الْخَلْقِ لِبَنِي آدَم، بِخِلَافِ الشَّيَاطِين الَّذِين هُم أَكْثَرُهُم غشًّا لِبَنِي آدَم.

خُلِقَت الْمَلَائِكَة من نُور

وعن عَائِشَةَ ﵂ قَال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»[1]. [٥٤]

---

[٥٤] ما زَال الْمُصَنِّف ﵀ يَذْكُر الأَحَادِيث الْوَارِدَة في الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِم الصَّلَاة وَالسَّلَام، وفي هذا الْحَدِيث الْمَرْوِيّ عن عَائِشَةَ ﵂ فِيْه: أن اللهَ ﷻ خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ من النُّور، وَخَلق الْجَانَّ وهم إِبْلِيس وَذُرِّيَّته من مَارِجٍ من نَار، وَالْمُرَاد بِقَوْلِه ﷺ: «**مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ**» أَي: من اللَّهَب، وَخَلْق آدم أَبَا الْبَشَرِيَّة ﵇ «**مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**» يَعْنِي: مِمَّا ذكر اللهُ في آيَاتٍ كَثِيرَةٍ أَنَّه خَلقَه من تُرَاب، هذا أَصْلُ خِلْقَةِ الْمَلَائِكَةِ وَالشَّيَاطِين وَالْإِنْسَان، واللهُ على كلِّ شَيْءٍ قَدِير، لا يُعْجِزُه شَيْء.

وكان إِبْلِيسُ قد اسْتَكْبَر على آدَم وأبى أن يَسْجُدَ له وَعَصَى أَمْرَ اللَّه، وقال كما ذكر اللهُ عَنْه سُبْحَانَه: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، فبزعمه أنَّ النَّارَ أَحْسَنُ من الطِّين، وهذا قِيَاسٌ فَاسِد، فَإِنَّ الطِّينَ أَحْسَنُ من النَّار؛ لأنَّ النَّارَ مُحْرِقَةٌ مُتْلِفَةٌ ولا تُنتجُ شيئًا، أَمَّا الطِّينُ فإنَّه مباركٌ ويُنتجُ النَّبَاتَاتِ وَالْأَشْجَارَ الطَّيبة، وفيه مَنَافِعُ لِلنَّاسِ كَثِيرَة، فلو رَجَعْنَا إلى الْقِيَاسِ وَالْأَصْلِ لَوَجَدْنَا أنَّ آدَمَ أَطْيَبُ أصلًا من إِبْلِيس، مع أنَّ هذا الْقِيَاس الْفَاسِد في مُقَابِلِ الأَمْر؛ أَي: أَمْر اللهِ ﷻ الذي كان من الْوَاجِبِ امْتِثَالُه من قبلِ إِبْلِيس وَغَيرِه، فإذا أَمَر

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٩٩٦).

ذكْرُ عِبَادَةِ الْمَلَائِكَةِ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُور

وَثَبَت في بَعْضِ أَحَادِيثِ الْمِعْرَاجِ(١): أنَّه ﷺ رُفِعَ له البيتُ المعمورُ الذي هو في السَّماءِ السابعةِ. وَقِيل: في السَّادِسَةِ بِمَنْزِلَةِ الكعبةِ في الأَرْض، وهو بِحِيالِ الكعبةِ، حُرمتُه في السَّماءِ كحُرمةِ الكعبةِ في الأرضِ، وإذا هو يَدخلُه كلَّ يومٍ سَبْعُون ألفَ مَلَكٍ ثم لا يَعودون إلَيْه آخرُ ما عَلَيْهِم. [٥٥]

سُبْحَانَه بشيءٍ فلا اعْتِرَاض، وَيَجِبُ الِانْقِيَادُ لَه، واللهُ يُؤْتِي فَضْلَه من يَشَاء، والذي حَمَل إبْلِيسَ على هذا هو الحَسد، فَحَسَد آدَمَ عليه السلام، وَاسْتَكْبَر عن أَمْرِ اللَّه، فَحَصَل عَلَيْه من الْعُقُوبَةِ ما حَصَل.

وَالشَّاهِدُ من الْحَدِيثِ أنَّ الْمَلَائِكَةَ خُلِقوا من النُّور، فَيُؤَمِّنُ الْمُسْلِمُ بِمَا جَاءَه عن اللهِ عز وجل وعن رَسُولِه ﷺ، وقد سَبَق الْقَوْلُ بِأَنَّهم عِبَادٌ مُكْرَمُون وأنهم أَصْنَافٌ كَثِيرَة.

[٥٥] هَذَا الْحَدِيثُ فيه ذكرُ عِبَادَةِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِم الصَّلَاة وَالسَّلَام، وأنَّ اللهَ جل جلاله جَعَل لهم بيتًا في السَّماءِ كما جَعَل لِبَنِي آدم بيتًا في الأَرْض، وهذا الْبَيْتُ الذي في السَّمَاءِ بِحِيالِ الْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَة التي في الأَرْض؛ وذلك لِعِبَادَةِ اللهِ عز وجل، وهذا الْبَيْتُ الذي في السَّماءِ هو الْبَيْتُ الْمَعْمُور، يَزُورُه هذا الْعَدَدُ كلَّ يومٍ من الْمَلَائِكَةِ ولا يَرْجِعُون إلَيْه، بل يَأْتِي غَيْرُهِم.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٣٠٣٥)، ومسلم رقم (١٦٤).

وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ: « مَا في السَّماءِ مَوضعُ قَدَم إلَّا عَلَيْه مَلَكٌ ساجدٌ أو مَلَكٌ قائمٌ، فَذَلِك قَوْلُ اللَّه: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥- ١٦٦] »(١). **[٥٦]**

❁ **فَهَذَا يَدُلُّ على أَمْرَيْن:**

الْأَوَّل: أنَّ الْمَلَائِكَةَ يَعْبُدُون اللهَ ﷻ، وأنهم عِبَادٌ ليس لهم من الأَمْرِ شَيْء.

الثَّانِي: فيه دَلِيلٌ على كَثْرَةِ الْمَلَائِكَة؛ حيث إنَّه يَأْتِي الْبَيْتَ الْمَعْمُور كلَّ يوم سَبْعُون أَلْف مِلْك إلى الْبَيْتِ الْمَعْمُور ثم لا يَعُودُون إلَيْه إلى يومِ الْقِيَامَة، حيث لا يَعْلَمُ عَدَدَهِم الْهَائِل إلَّا اللهُ ﷻ.

[٥٦] وهذا الْحَدِيثُ أيضًا يدلُّ على أنَّ الْمَلَائِكَةَ يَعْبُدُون اللهَ ﷻ، بالرُّكُوعِ والسُّجودِ وَالْقيَّام عبادةً لِلَّهِ ﷻ، وفيه بَيَان كَثْرَتِهم في السَّماءِ على سِعَتِهَا؛ إذ ليس فِيهَا مَوْضِعُ قَدَمٍ إلَّا وفيه مَلَكٌ يَعْبُدُ اللهَ ﷻ، فهذا دَلِيلٌ على كَثْرَتِهِم وأنهم مَلَئُوا السَّماءَ على سَعَتِها، وَيَدُل على هذا قولُه ﷻ عَنْهُم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥] لأنَّ الْمَلَائِكَةَ تَصُفُّ عند ربَّها لِلْعِبَادَة؛ ولهذا قال ﷺ: « **أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا** »؛ يعني في الصَّلَاة، قَالُوا: وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ فقال ﷺ: « **يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ** »(٢)، وفي هذا دَلِيلٌ على عِبَادَةِ الْمَلَائِكَةِ لِلَّهِ ﷻ وعلى كَثْرَةِ عَدَدِهِم، حيث إنَّهُم يَمْلَئُون السَّمَاءَ على سَعَتِها.

---

(١) أخرجه: محمد بن نصر في «الصلاة» رقم (٢٥٣)، وأبو الشيخ في «العظمة» رقم (٥٠٨).
(٢) أخرجه: مسلم رقم (٤٣٠).

رَوَى الطَّبَرَانِيّ عن جَابِر بن عَبْد الله ﷺ قَال: قَال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا فِي السَّمَاوَاتِ مَوْضِعُ قَدَمٍ وَلَا شِبْرٍ وَلَا كَفٍّ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ مَلَكٌ رَاكِعٌ أَوْ مَلَكٌ سَاجِدٌ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قَالُوا جَمِيعًا: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، إِلَّا أَنَّا لَمْ نُشْرِكْ بِكَ شَيْئًا»[1]. [٥٧]

---

[٥٧] وهذا الْحَدِيثُ كَالْأَحَادِيثِ السَّابِقَة، فيه ذكرُ عِبَادَةِ الْمَلَائِكَة، وفيه ذكرُ كَثْرَتِهِم؛ حيث إِنَّه لم يَبقَ في السَّماءِ فَضَاء بل هُم ملئوه، وفيه ذكرُ مَسْأَلَةٍ عَظِيمَةٍ وهي أَنَّه على الْإِنْسَانِ أَلَا يغترَّ بِعَمَلِه مَهْمَا كثُر، فَالْمَلَائِكَةُ يسبِّحون اللَّيْلَ والنهار لا يَفْتَرُون ومع هذا يَقُولُون لِلَّهِ ﷻ: «**سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ**»؛ لأَنَّ حقَّ اللهِ عَظِيم، ولو قَارِن الْإِنْسَانُ عَمَلَه بنِعَم اللهِ عَلَيْه لما بَلَغَت شيئًا يُذكر أَمَام هذه النِّعَم، فَالْعَمَلُ قليلٌ وَإِن كثُر؛ لأَنَّ نِعَمَ الله أَكْثَرُ وَأَكْثَر، فلا أحدَ يَعْبُد الله حقَّ عِبَادَتِه؛ لِعِظَم حَقّ الله ﷻ؛ ولهذا فإنَّ نبيَّنا محمدًا ﷺ وهو أَفْضَلُ الخَلْقِ على الْإِطْلَاقِ وَأَكْثَرَهُم عِبَادَةً لِلَّهِ ﷻ، يَقُوْل: «**سُبْحَانَكَ لَا أُحصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[2]، هذا فيه اعْتِرَافٌ بأَنَّ عَمَلَ الْمَخْلُوقِ مَهْمَا بَلَغ فإِنَّه لا يُعَادِلُ حقَّ اللهِ ﷻ، وهذا فيه أيضًا أَنَّه على الْإِنْسَانِ أَلَا يَغترَّ بِعَمَلِه، أو يُعجَب بِه.

---

(١) أخرجه: الطبراني في «الكبير» رقم (١٥٧١).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (٤٨٦).

ذكرُ عِظَمِ خِلْقَةِ الْمَلَائِكَة

وَعَن جابرٍ ﵁ قَال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ تَعَالَى مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ»(١). [٥٨]

---

[٥٨] وفي قَوْلِهم: «**إِلَّا أَنَّا لَمْ نُشْرِكْ بِكَ شَيْئًا**» بَيَان أنَّ من سَلِمَ من الشِّركِ فإنَّه سَلِمَ من خَطَرٍ عَظِيم، وفيه أيضًا الْخَوْف من الشِّرك، وأنَّ الْمَلَائِكَةَ عَلَيْهِم السَّلَام شَكَرُوا اللهَ ﷻ أنَّه سلَّمَهم من الشِّرك، وهذه نِعْمَةٌ عَظِيمَة، فمَن سَلِمَ من الشِّرْكِ فإنَّه قد سَلِم من الْخَطَرِ الْعَظِيم، ومن وَقَع في الشِّركِ ولم يَتُبْ منه فإنَّه لا نَجاةَ له. هَذَا الْحَدِيثُ فيه ذكرُ عِظَمِ خِلْقةِ الْمَلَائِكَة، وأنَّ هذا المَلكَ من حَمَلةِ الْعَرْشِ ما بين شَحْمَةِ أُذنِه وعاتِقِه مَسِيرَة سَبْعُمِائَة عَامّ، فدلَّ على عِظَم خِلْقة الْمَلَائِكَة، وأنَّه لا يَعْلَم خِلْقه المَلَك إلَّا الله ﷻ، وإذا كان هذا عِظَمَ الْمَخْلُوقِ فَكَيْف بعِظَمِ الْخَالِقِ ﷻ!

وُفِيَه أنَّ من الْمَلَائِكَةِ صنفٌ يَحمِلُون الْعَرْشَ وهذا كما في قولِه تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧] وَقَوْله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٤٧٢٧)، والطبراني في «الأوسط» رقم (٤٤٢١).

فمِنْ سادتِهم جَبرائيل ﷺ، وقد وَصفَه اللهُ تعالى بالأمانةِ وحُسنِ الخُلقِ والقوَّة، فقال تَعالَى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٥- ٦]. **[٥٩]**

ومن شدَّةِ قوَّتِه أنَّه رَفَع مدائنَ قوم لوطٍ ﷺ -وكُنَّ سبعًا- بمَن فيهنَّ من الأُمم، وكانوا قريبًا من أَرْبَعمِائَة أَلْف وما مَعَهُم من الدَّوابِّ والحيواناتِ، وما لِتِلْك الْمَدَائِنِ من الْأَرَاضِي وَالْعِمَارَات؛ على طَرَف جَنَاحَيْه، حَتَّى بَلَغ بهنَّ عَنانَ السَّماءِ، حَتَّى سَمعتِ الملائكةُ نباحَ كلابِهم وصياحَ دِيكَتِهم، ثم قَلبَها فَجَعَل عالِيَها سافِلَها، فهذا هو ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] **[٦٠]**

---

[٥٩] مَن سَادَاتِ الْمَلَائِكَةِ جِبْرِيلُ ﷺ، وهو المَلكُ الموكَّلُ بِالْوَحْي، وقد مَدْحُه اللهُ ﷻ بِالْأَمانَة، فَقَال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، فهو أَمِينٌ على الْوَحْي، وَمَدَحه بالقوَّة، قوَّةِ الخِلْقةِ والبَدَن، فَقَوْلُه تَعالَى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] وَوَصْفَه بِحُسْنِ الصُّورَة فَقَال: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٦] أَي: خِلْقَة حَسَنَة ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] علَّم نبيَّنا محمدًا ﷺ وهو جِبْرِيلُ ﷺ. وسيأتي ذكرُ شَيْءٍ من قُوتِه ﷺ.

[٦٠] قَولُه تَعالَى: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]، أَي: جِبْرِيلُ ﷺ، جَاء أَنَّه لمَّا أَمرَه اللهُ بِإِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ ﷺ، وَلُوطٌ نبيٌّ من أَنْبِيَاءِ اللَّه، وهو ابنُ أَخِي إِبْرَاهِيم ﷺ، وَإِبْرَاهِيمُ هو عمُّه عَلَيْهِمَا الصَّلَاة وَالسَّلَام، وجَاء مهاجرًا مع إِبْرَاهِيم من أَرْضِ بَابِل بِالْعِرَاق إلى الشَّام، وَأَرْسلَه اللهُ إلى قَومِه، وكان قَومُه أمّةً خَبِيثَة، قومَ سَوْء، وكانوا يَأْتُون الذُّكرانَ من الْعَالَمِين، وهم أَوَّل من فعل هذه الْفَاحِشَة الشَّنِيعَة التي لم يَسْبِقْهُم إِلَيْهَا

أَحَد من الْعَالَمِين، فقد خَلَقَ اللهُ لِلرِّجَالِ النِّسَاء يكنَّ زَوْجَاتٍ لَهُم، وهنَّ طَيِّبَات ومحلٌّ لِلْحَرْث والإنجاب.

وَكَوْنُ هَؤُلَاء الْقَوْمِ الخُبثاءِ يَعْدِلون عمَّا خَلَق اللهُ لهم من أَزْوَاج، وَيكفرُون نِعْمَةَ اللَّه، وَيُهْلِكُون الحرثَ وَيضَعُونَه في أَدْبَارِ الرِّجَال، فهو دَلِيلٌ على خُبثِهم، وهذه جَرِيمَةٌ شَنِيعَة تَأْنَف منها حَتَّى الْبَهَائِم، فَأَرْسَلَ اللهُ إليهم نبيَّه لوطًا ﷺ وَأنْكرَ عَلَيْهِم فِعْلَتَهم، وقال لهم كما أَخْبَر اللهُ تَعَالَى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥- ١٦٦] يَعْنِي: متجاوزون من الْحَلَالِ إلى الْحَرَام، وهؤلاء خَرَجُوا من الْإِنْسَانِيَّةِ إلى البهائميةِ المنحطَّة، بل حتَّى الْبَهَائِم لا تَفعل هذا الْفِعْل، فلمَّا أَبوا أن يَتْرُكُوا هذه الْجَرِيمَةَ عَاقَبَهُم اللهُ بِعُقُوبَةٍ لم يُعاقَبْ بها أمَّةٌ من الْأُمَم؛ لأنَّ فِعْلَهم لم يَفْعَلْه أَحَد من قَبل، فَأَمَر اللهُ جِبْرَائِيلَ ﷺ بأنَّ يَرْفَع دِيَارِهِم -وكانت سَبْع مُدُن مكتظَّة بالسكان- وما فِيهَا من الْأَمْتِعَةِ وَالْحَيَوَانَات، فَحَمَلَهَا جِبْرِيلُ على طَرْفِ جَنَاحِه إلى أن بَلَغ بها عِنَانَ السَّمَاء، فَسَمِعَت الْمَلَائِكَةُ نُباحَ كِلَابِهُم وَصِيَاحَ ديكتِهم ثم قَلَبَهَا عَلَيْهِم، وأُتبِعوا بِحِجَارَةٍ من سجِّيلٍ عقوبةً لَهُم.

وكانت هذه الْبِلَادُ المخسوفةُ ممرًّا لِلْعَرَبِ إذا سَافَرُوا إلى الشَّام ولا يَعْتَبِرُون؛ قال تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَاۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠].

وَقَال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧- ١٣٨].

وَقَوْله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم:٦]؛ أَي: ذو خَلقٍ حَسنٍ وبهاءٍ وسناءٍ وقوَّة شَدِيدَة. قال مَعْنَاهَا ابن عبّاس رضي الله عنهما.

وَقَال غيرُه: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم:٦]؛ أَي: ذو قوَّةٍ. [٦١]

وَقَال: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦]، وتُسمَّى بُحيرَة لُوط أَبْقَاهَا اللهُ على هذه الصُّورَةِ عِبْرَة وَعِظَة.

وَلَهَذَا جَاء في الْأَحَادِيثِ عن النبيِّ ﷺ أَنَّه قَال: «**مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ**»(١).

وَأَجْمَعَ الصَّحَابَةُ على قَتْلِ من يَفْعَل فِعْلِهِم، وَلَكَنَّهُم اخْتَلَفُوا في كَيْفِيَّةِ الْقَتْل، فَمِنْهُم من يَرَى أَنَّه يُرفعُ إلى أَعْلَى مَكَانٍ في الْبَلَد، ثم يُلقى ويُتبع بِالْحِجَارَةِ كما فعلَ اللهُ بِقَوْمِ لُوط، ومنهم من يرى أَنَّه يُحرَّق في النَّار، وقد حرَّق أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، ومن الْعُلَمَاءِ من يَرَى أَنَّهُم يُقتلون بِالسَّيْف، فَالْعُلَمَاءُ لم يَخْتَلِفُوا في قتلِهم، وإِنَّما اخْتَلَفُوا في كَيْفِيَّةِ قتلِهم.

[٦١] قَوَّلَه تَعَالَى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] وَقَوْله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٦] لابد أَنَّ بَيْنَهُمَا فَرْقًا، فالمِرَّة غير الْقُوَّة، والمِرَّة: هي الْهَيْئَةُ الْحَسَنَةُ كما قال ابنُ عَبَّاس رضي الله عنهما.

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٤٤٦٢)، والترمذي رقم (١٤٥٦)، وابن ماجه رقم (٢٥٦١)، وأحمد رقم (٢٧٣٢).

وَقَال تعالى في صِفَتِه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩- ٢١]؛ أَي: له قوَّةٌ وَبأْسٌ شَدِيد، وَلِه مَكَانَةٌ ومنزلةٌ عاليةٌ رَفِيعَةٌ عند ذي الْعَرْش. ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:٢١] أَي: مُطَاع في الْمَلأ الأَعْلَى، أمينٍ ذي أمانةٍ عَظِيمَة؛ ولهذا كان هو السَّفيرُ بين اللهِ وبين رُسُلِه. [٦٢]

---

[٦٢] هَذِه أَوْصَافُ جِبْرِيلَ ﷺ، فَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩] فيه وَصْفُ جِبْرِيلَ عليه السلام بِالْكَرم، وَوَصْفُه بِالرِّسَالَة، فهو رَسُولٌ من عندِ اللهِ ﷻ، يُرْسِلُه إلى من يَشَاءُ من رُسُلِه من بَنِي آدَم بِالْوَحْي، فهو وَاسِطَةٌ بين اللهِ ﷻ وَالرُّسُلُ من الْبَشَرِ بِالْوَحْي، وهذا مدحٌ لَه؛ ولهذا قال عَنْه تَعالَى: ﴿كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩] ثم قَال: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ [التكوير: ٢٠] فَوَصَفَه تعالى بِالْقُوَّة، ثم وصفه بِمَا هو أَعْلَى فَقَال: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ [التكوير: ٢٠] بعُلوِّ الْمَكَانَة، فهو قُرَيْبٌ من اللهِ ﷻ، ثم قَال: ﴿مَكِينٍ﴾ أَي: له مَكَانَةٌ عَظِيمَة، ثم قال تَعالَى: ﴿مُّطَاعٍ﴾ أَي: تُطِيعُه الْمَلاَئِكَة، فهو رَئِيسُهُم ومقدَّمهم، ثم قال تَعالَى: ﴿ثَمَّ﴾ وهي اسْمُ إشَارَة، فَقَوْلُه تَعالَى: ﴿ثَمَّ﴾ أَي: في السَّماء، ثم قَال: ﴿أَمِينٍ﴾ فَوَصَفَه تعالى بِالأَمَانَة، هذه أَوْصَافُ جِبْرِيلَ عليه السلام.

ثُمّ قال تعالى عن نبيِّنَا مُحَمَّد ﷺ الذي يتلقَّى الْوَحْي من جِبْرِيل: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]؛ لأَنَّهُم كانوا يَصِفُونَه ﷺ بِالْجُنون، واللهُ ﷻ نَفَى عَنْه ذَلِك، ثم قَال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] أَي: رَأَى محمدٌ ﷺ جبريلَ على خِلْقتِه التي خَلَقَه اللهُ عليها بالأُفق، وذلك في بَطْحَاءِ مَكَّة لمَّا حَصَل للنَّبِيِّ ﷺ من الضِّيقِ والشدَّةِ من كفَّارِ

أَهْلِ مَكَّة، فَسَمِع ﷺ صوتًا من فَوْقِ رَأْسِه فَرَفَع طَرْفَه إلى السَّمَاء، فإذا هو جِبْرِيلُ بينَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ له سِتُّمِائَة جُنَاح [(١)]؛ قال تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التَّكوير: ٢٣- ٢٤]؛ ما هذا الرَّسُول ﷺ ﴿بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤] على الْغَيْب؛ أَي: ما هو بمُتَّهم على الْأَخْبَار التي يُخبِرُ بها عن اللهِ ﷻ، بل هو صَادِقٌ ﷺ.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥] هذا الْقُرْآنُ ليس من قَوْلِ الشَّيَاطِين، لأنَّ الشَّيَاطِينَ لا تَقرب الْوَحْي، لأَنَّه يَحرقها، وهي لا تُطيقُ ذَلِك.

قَال تَعَالَى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠] يَعْنِي: بِالْقُرْآن ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ [الشعراء: ٢١١] أَي: لا يَلْق بِهِم ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢] يَعْنِي: عن الْوَحْي فهم مبعَدون يُرجمون بالشُّهب، فلا يَسْتَطِيعُون أن يَقْرُبوا من الْوَحْي ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٥- ٢٦] ليس لَكُم طَرِيق لِتَكْذِيبِ هذا الرَّسُولِ وهذا الْقُرْآنُ بعد هذه الْأَوْصَاف الْعَظِيمَة، وهذا السَّنَدُ الْمُتَّصِلُ إلى اللهِ ﷻ، فَالسَّنَدُ إنَّما هو عن رَسُولِ اللهِ ﷺ عن جِبْرِيلَ ﷺ عن اللهِ ﷻ.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٤٥٧٦)، ومسلم رقم (١٧٤).

ذِكرُ صِفَةِ خِلْقةِ جِبْرِيلَ عليه السلام

وقد كان يَأْتِي إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ في صفاتٍ متعدِّدة، وقد رَآه على صِفَتِه التي خلقَه اللهُ عليها مَرَّتَيْن وَلَه ستُّمائةُ جنَاح[1]. [٦٣]

---

[٦٣] لَقَد رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ جبريلَ على خِلْقَتِه التي خَلَقَه اللهُ عليها مَرَّتَيْن، مَرَّة في مَكَّة حين رَفَع رَأْسَه ﷺ، وفي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ لَيْلَةَ الْـمِـعْـرَاج، قـال تَـعَـالَـى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣- ١٤]؛ أَي: لَيْلَة عُرِج به ﷺ، وأمَّا في بَقِيَّةِ الْأَحْوَالِ فقد كان يَأْتِي إلى النَّبِيِّ ﷺ في صُورَةِ الْبَشَر، وَيَرَاه الصَّحَابَةُ وَيظُنُّون أنَّه رَجُلٌ من الْبَشَر، لأَنَّهُم لا يُطِيقُون رُؤْيَةَ جِبْرِيلَ عليه السلام على خِلْقَتِه، فَيأْتِي بِصُورَةِ رَجُلٍ كما في حَدِيثِ عُمَر رضي الله عنه: «**بَيْنَمَا نَحنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ،**»، هذا جِبْرِيل عليه السلام؛ ولذلك قال في نِهَايَةِ الْحَدِيث: «**أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟**» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**»[2].

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٤٥٧٦)، ومسلم رقم (١٧٤).

(٢) أخرجه: أحمد رقم (٣٧٤٨).

وروى الإمامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللهِ قَال: «رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ، وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ، يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنَ التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ»(١). [٦٤]

صِفَةُ ثِيَابِ جِبْرِيل عليه السلام

وعن عَبْدِ اللهِ بن مَسْعُود رضي الله عنه قَال: «رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي حُلَّةٍ خَضْرَاءَ قَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»(٢). [٦٥]

---

[٦٤] مَازَال الْمُصَنِّفُ رحمه الله يَسُوقُ الْأَحَادِيثَ الدَّالَّةَ على عِظَمِ خِلْقَةِ جِبْرِيل عليه السلام، وَيُؤَيِّدُ ما جَاء في هذه الْأَحَادِيثِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ [فاطر: ١]، دَلَّت الْآيَةُ على أنَّ لِلْمَلَائِكَةِ أجنحةً، وأنها كَثِيرَةٌ، منها ما هو مَثْنَى وَثَلَاث وَرُبَاع ثم قال تَعَالَى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ [فاطر: ١].

[٦٥] وهذا دَلِيلٌ آخَر على عِظَمِ خِلْقَةِ جِبْرِيل عليه السلام، وَأَن هَيْئَته جَمِيلَةٌ وقد بَسَط أَجْنِحَتَه بِحُلَّتِه الْخَضْرَاءِ الْجَمِيلَة، وقد سَبَق بَيَانُ جَمَالِ وَبَهَاءِ وَعِظَمِ خِلْقَتِه عليه السلام فِيمَا مَضَى من الْأَحَادِيث.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٥٠)، ومسلم رقم (٨).

(٢) أخرجه: الترمذي رقم (٣٢٨٣)، وأحمد رقم (٣٧٤٠).

وعن عَائِشَةَ رضي الله عنها أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قَال: « رَأَيْتُ جِبْرِيلَ مُنْهبِطًا قد مَلأَ ما بَينَ الْخَافِقَيْنَ، عَلَيْه ثِيَابُ سُنْدُسٍ مُعَلَّقٌ بِها اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ »[1].

وَلابْنِ جَرِيرٍ[2] عَن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَال: جَبْرَائِيل: عَبْد اللَّه، وَمِيكَائِيل، عُبَيْد اللَّه، وُكُلُّ اسْمٍ فيه إِيل، فهو عَبْدُ اللَّه.

وَله[3] عَن عليٍّ بنِ الْحُسَيْن مِثْلِه، وَزَاد: وَإِسْرَافِيل: عَبْد الرَّحْمَن [٦٦].

جِبْرِيلُ أَفْضَلُ الْمَلَائِكَة

وروى الطَّبَرَانِيُّ عن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَال: قَال رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ الْمَلَائِكَةِ؟ جِبْرِيلُ »[4] [٦٧].

---

[٦٦] هذا تَفْسِير لِكَلِمَة: « **إِيل** » في أَسْمَاءِ الْمَلَائِكَةِ الْكِرَام.

[٦٧] هذا فيه أن جِبْرِيلَ - وَيُقَال: جَبْرَائِيل - هو أَفْضَلُ الْمَلَائِكَة؛ لأنَّ اللهَ اخْتَصَّه بِالْوَحْي، وَبِسَمَاعِ كَلَامِه سبحانه وتعالى، فهو عليه السلام يَسْمَع كَلَامَ اللهِ وَيُبْلِغُه لِمَن أَمره اللهُ بِتَبْلِيغِه له كما جَاء في الْحَدِيث: « **إِذَا أَرَاد اللهُ أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ تَكَلَّم بِالْوَحْي، فَأَخَذَتِ السَّمَوَاتُ منه رَجْفَة - أو قَال: رَعْدَة - شَدِيدَة خوفًا من اللهِ عز وجل، فإذا سَمِعَ ذلك أَهْلُ السَّمَوَاتِ صُعِقُوا**

(١) أخرجه: إسحاق بن راهويه رقم (١٤٢٨)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٧٦٨).

(٢) في «تفسيره» (١/ ٢٨٦ و ٤٧٦).

(٣) في «تفسيره» (١/ ٤٧٦).

(٤) أخرجه: الطبراني في «الكبير» رقم (١١٣٦١).

خَشْيَةُ الْمَلَائِكَةِ من عِصْيَانِ اللهِ تعالى

وعن أَبِي عِمْرَان الْجَوْنِيّ: أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ جِبْرِيلَ ﷺ، أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَبْكِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا يُبْكِيكَ؟» وَاللهِ مَا جَفَّتْ لِي عَيْنٌ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ تَعَالَى النَّارَ؛ مَخَافَةَ أَنْ أَعْصِيَهُ فَيَقْذِفَنِي فِيهَا (١). [٦٨].

- أو قَال: **خَرُّوا - لِلَّهِ سُجَّدًا فَيَكُونُ أولَ من يَرْفَعُ رَأْسَه جبرائيلُ** عليه السلام، **فَيُكَلِّمُه اللهُ من وَحْيه بِمَا أَرَاد»** (٢). فهذا دَلِيلٌ على فَضْلِ جِبْرِيل عليه السلام على غَيْره من الْمَلَائِكَة.

[٦٨] وهذا الْحَدِيثُ فيه - كما سَبَق - أن الْمَلَائِكَةَ مع كَثْرَةِ عِبَادَتِهِم أَنَّهُم لا يَغْتَرُّون بِأَعْمَالِهِم، وَيَخافُون أن يَعْصُوا الله ﷻ فَيَقْذِفُهُم في النَّار كما حَصَلَ لِإِبْلِيس، فإنَّه كان مع الْمَلَائِكَةِ يَعْبُد اللَّه، فَلَمَّا عَصَى اللَّه لَعَنَه اللهُ ﷻ وَأَبْعَدَه، وَجِبْرَائِيل لمَّا رَأَى النَّارَ وَشِدَّةَ عَذَابِها، وأنها دَارُ الْعِقَابِ خَشِيَ أن يَعْصِي اللهَ فَيَقَع فِيهَا.

وفي هذا دَلِيلٌ على أَنَّه لا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أن يُزَكِّي نَفْسَه، وأَنَّه يَنْبَغِي له أن يَخَافَ من النَّار، وَيَخَافَ اللهَ وَمَكْرَه ﷻ بِمَن عَصَاه.

---

(١) أخرجه: ابن خزيمة في كتاب «التوحيد» (١/٣٤٨)، والطبراني في «مسند الشاميين» رقم (٥٩١).

(٢) أخرجه: البيهقي في «الشعب» رقم (٩١٥).

الْمَلَائِكَةُ لا تَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ الله

وَلِلْبُخَارِيِّ عن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ لِجَبْرَائِيلَ «أَلَا تَزُورنَا أَكْثَر مِمَّا تَزُورنَا؟»، فَنَزَلَت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ [مريم: ٦٤][1].

ومن سَادَاتِهم مِيكَائِيلُ عليه السلام، وهو مُوَكَّلٌ بِالْقَطْرِ وَالنَّبَات [٦٩].

---

[٦٩] في هذا الْحَدِيثِ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ طَلَب من جِبْرِيلَ أن يَكْثُرَ الزِّيَارَةَ لَه، لأَنَّه ﷺ يُحِبُّ جِبْرِيل، فيؤخَذ منه الْحَثُّ على مَحَبَّةِ عِبَادِ الله الصَّالِحِين وَزِيَارَتِهِم، فَطَلَب رَسُولُ الله ﷺ من جِبْرِيل الْإِكْثَار من الزِّيَارَة لِيَكْثُر فَرَحه وَأُنسه به ﷺ، فَأَنْزَل اللهُ تَعالَى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ [مريم: ٦٤] فهذا فيه أنَّ الْمَلَائِكَةَ تَحْتَ تَدْبِيرِ اللهِ ﷻ، وأنهم لا يَنْزِلُون إلَّا بِأَمْرِه ﷻ ولا يتنزَّلون بِحَسْبِ رَغْبَتِهِم هُم، وإِنَّما يَنْزِلُون إذا أَمَرَهُم اللهُ بِالنُّزُول.

وَقَوْله: «ومن سَادَاتِهم مِيكَائِيلُ عليه السلام، وهو مُوَكَّلٌ بِالْقَطْرِ وَالنَّبَات» كان النَّبِيُّ ﷺ إذا قَام من اللَّيْلِ يَسْتَفْتِحُ فَيَقُول: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيل وَمِيكَائِيل وَإِسْرَافِيل، فَاطِر السَّمَوَات وَالْأَرْض . . .**» إلَخ[2]، وخصَّ ﷺ هَؤُلَاء الثَّلَاثَة؛ لأنَّ جَبْرَائِيل مُوَكَّلٌ بِالْوَحْي الذي فيه حَيَاةُ الْقُلُوب، وَمِيكَائِيل مُوَكَّلٌ بِالْقَطْرِ الذي فيه حَيَاةُ الأَرْضِ وَإِسْرَافِيل مُوَكَّلٌ بِالنَّفْخ في

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٣٠٤٦).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (٧٧٠).

وروى الإمامُ أَحْمَدُ ﷺ أنَّ رَسُولَ اللهِ قَال: لِجَبْرَائِيل: «مَا لِي لا أَرَى مِيكَائِيلَ ضَاحِكًا قَطُّ؟ قَال: مَا ضَحِكَ مِيكَائِيلُ مُنْذُ خُلِقَتِ النَّار»[1]. [٧٠].

الصُّورِ الذي فيه حَيَاةُ النَّاسِ يومَ الْقِيَامَة بعد الْمَوْت، هَؤُلَاء الثَّلَاثَة هُم أَفْضَلُ الْمَلَائِكَة؛ لأنَّ كلَّ وَاحِدٍ منهم مُوَكَّلٌ بِالْحَيَاة؛ حَيَاةِ الْقُلُوب، وَحَيَاةِ الأَرْض، وَحَيَاةِ الأَبْدَان عند الْبَعْثِ من الْقُبُور.

قَال تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٨]، فالذي يَنْفُخُ في الصُّورِ هو إِسْرَافِيلُ ﷺ، يَنْفُخُ فيه نَفْخَةَ الصَّعْقَةِ فَيمُوتُ كلُّ من في السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا من اسْتَثْنَى اللهُ ﷻ، ثم يَنْفُخُ فيه ثَانِيَةً فَيَحْيَا كلُّ من مَات وَيقُوم سويًّا، فهذا وَجْهُ كَوْنِ الرَّسُولِ ﷺ خَصَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَة في اسْتِفْتَاحِه.

[٧٠] وهذا كما سَبَق في الْحَدِيثِ عن جَبْرَائِيل ﷺ أَنَّه كان يَبْكِي فَسَأَلَه النَّبِيُّ ﷺ عن بُكَائِه فَقَال: «**وما لِي لا أَبْكِي، وَاللهِ مَا جَفَّتْ لِي عَيْنٌ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ تَعَالَى النَّارَ**»[2] وهذا مِيكَائِيل مِثْلُه، لا يَسْتَطِيعُ أن يَضْحَكَ مُنْذ أن خُلِقَتِ النَّارُ من شِدَّةِ خَوْفِه منها، فَالْمَلَائِكَةُ مع عِبَادَتِهِم وقُربِهِم وَمَكَانَتِهِم من اللهِ تعالى لم يَأْمَنُوا على أَنْفُسِهِم من النَّار، فهذا فيه الْحَثُّ على شِدَّةِ الْخَوْفِ من النَّار، وليس الْمُرَادُ هو مُجَرَّدُ الْخَوْفِ من النَّارِ فَقَط، وَلَكِنَّ الْخَوْفَ وَالْعَمَلَ لِلنَّجَاةِ منها، فَالْمَطْلُوبُ هو

---

(١) أخرجه: أحمد رقم (١٣٣٤٣).

(٢) أخرجه: البيهقي في «الشعب» رقم (٩١٥).

ومن سَادَاتِهِم إِسْرَافِيلُ ﷺ وهو أَحَدُ حَمَلَةِ الْعَرْش، وهو الذي يَنْفُخُ في الصُّور. [٧١]

الْخَوْفُ مقرونًا مع عَمَلٍ ما يُرْضِي اللهَ وَتَرك مَعْصِيَتِه ﷻ، فَالْخَوْفُ دون الْعَمَلِ لا يُفِيدُ شيئًا، وَالْعَمَلُ دونَ الْخَوْفِ لا يُفِيدُ شيئًا ذَلِك، وَالْمُفِيدُ الجمع بين الْأَمْرَيْن: الْعَمَلِ وَالْخَوْف؛ وَالرَّجَاء قال تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، يَعْنِي: يُؤْتُون من الْأَعْمَال الصَّالِحَة الْعَظِيمَة وهم خَائِفُون من رَدِّهَا ومن عَذَابِ اللهِ ﷻ، ولا يَغْتَرُّون بِأَعْمَالِهِم، أو يُدلون بها على اللهِ ﷻ.

[٧١] **الصُّور**: قَرْنٌ لا يَعْلَمُ عِظَمَ خِلْقَتِه إِلَّا اللهُ تَعَالَى، وفيه أَرْوَاحُ بَنِي آدَم، فإذا نَفَخَ فيه إِسْرَافِيلُ خَرَجَت منه كلُّ رُوح، وَدَخَلَت في بَدَنِ صَاحِبِهَا.

قَال تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٨]، يَنْفُخ فيه إِسْرَافِيل ﷺ، فَتَطِيرُ الْأَرْوَاح، كلُّ رُوحٍ إلى جِسْمِهَا.

تَهَيُّؤ ملَك النَّفخ في الصُّوَر

رَوَى التِّرْمِذِيُّ - وَحَسَّنه - وَالْحَاكِمُ عن أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنْه قَال: قال رَسُولُ اللَّه ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَأَصْغَى سَمْعَهُ، يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخَ». قَالُوا: فَمَا نَقُولُ يا رَسُولَ اللَّه؟ قَالَ: «قُولُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا»[1]. [٧٢]

---

[٧٢] هذا الْحَدِيثُ فيه ذكرُ خَوْفِ الرَّسُولِ ﷺ مِمَّا أَطْلَعَه اللهُ عَلَيْه من أنَّ ملَكَ النَّفْخِ في الصُّور قد تَهَيَّأَ لِذَلِك منتظرًا لِلْأَمْر، وهذا فيه دَلِيلٌ على قُرْبِ قِيَامِ السَّاعَة؛ قال تَعَالَى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣] وَقِيَامُ السَّاعَةِ هَوْلٌ عَظِيم؛ قال تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١- ٢]، فَكَيْف لا يَخَافُ الْإِنْسَانُ من هذا الْهَوْلِ ولا يَسْتَعِدُّ لَه.

---

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢٤٣١)، وأحمد رقم (٣٠٠٨)، والحاكم رقم (٨٦٧٧).

إسْرَافِيلُ من حَمَلَةِ الْعَرْش

وعن ابنِ عَبَّاسٍ ﵄ أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «إِنَّ مَلَكًا مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ يُقَالُ لَهُ إِسْرَافِيلُ، زَاوِيَةٌ مِنْ زَوَايَا الْعَرْشِ عَلَى كَاهِلِهِ، قَدْ مَرَقَتْ قَدَمَاهُ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، وَمَرَقَ رَأْسُهُ مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ الْعُلْيَا». رَوَاه أَبو الشيخ وأبو نُعَيْم في «الْحِلْيَة»[1]. [٧٣].

وروى أَبُو الشيخ عن الْأَوْزَاعِيِّ قَال: «ليس أَحَدٌ من خَلْقِ اللهِ أَحْسَنَ صوتًا من إسْرَافِيل، فإذا أَخَذ في التَّسْبِيح قطَع على أَهْلِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ صَلَاتَهِم وَتَسْبِيحَهِم»[2]. [٧٤].

---

[٧٣] وهذا دَلِيلٌ آخَر على عِظَمِ خِلقةِ الْمَلَائِكَة، فهذا مَلَكٌ من الْمَلَائِكَةِ قَدمَاه في الطَّبَقَةِ السُّفْلَى من الأَرْضِ وَرَأْسه قد اخْتَرَقَ الطَّبَقَةَ الْعُلْيَا من السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وهذا دَلِيلٌ على عِظَمِ خِلقتِهم وَهَيْئَتِهِم.

[٧٤] هذا فيه أنَّ اللهَ أَكْرَمَ إسْرَافِيلَ بِحُسْنِ الصَّوْت، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تُصْغِي لِصَوْتِه، ويذهَلون عن تَسْبِيحِهُم وَتَهْلِيلِهِم إذا سَمِعُوه.

---

(١) أخرجه: أبو الشيخ في «العظمة» رقم (٤٧٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٦٥).

(٢) أخرجه: أبو الشيخ في «العظمة» رقم (٤٠٠).

« ومن سَادَاتِهِم مَلَكُ الْمَوْتِ عليه السلام، ولم يَجِئْ مُصرَّحًا بِاسْمِه في الْقُرْآن ولا في الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَة، وقد جَاءَ في بَعْضِ الْآثَارِ تَسْمِيَتُه بعِزْرائيل، فاللهُ أَعْلَم ». قَالَه الْحَافِظ ابنُ كَثِير[1] [٧٥].

وقال: « إنَّهُم بِالنِّسْبَةِ إلى ما هيَّأهم له أَقْسَام:

فَمِنْهُم حَمَلَة الْعَرْش »[2]. [٧٦]

---

[٧٥] تَسْمِيَةُ ملَكِ الْمَوْتِ هَكَذَا جَاءَت في الْقُرْآن؛ قال تَعالَى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، وَلَكِن لم يُسَمَّ بعزرائيل، ولم يَثْبُت له اسْمٌ مُعَيَّن في القرآن ولا الْآثَار أن اسْمَه عَزْرَائِيل، والله أَعْلَم بِصِحَّةِ ذَلِك!

انْتَهى الْمُصَنِّفُ الْآن من بَيَانِ عِظَم خِلْقَةِ الْمَلَائِكَةِ وَعِبَادَتِهم وَخَوفِهم من اللهِ جل وعلا، وَبَيَانِ كَثْرَةِ عَدَدِهم، ثم شَرَع في بَيَانِ أَعْمَالِهم وَأَصْنَافِهم، فَكُلُّ صِنْفٍ منهم له عَمَل وَكَّلَه اللهُ إِلَيْه لِيَقُومَ به.

[٧٦] من هَؤُلَاء الْمَلَائِكَةِ مَن هُم مُوكَّلون بِحَمْلِ عَرْشِ الرَّحْمَنِ تبارك وتعالى، وقد سَبَق بَيَانُ ذِكْرِهِم، ومنهم الَّذِين هُم حَوْلَ الْعَرْش؛ ولهذا قال الْمُصَنِّفُ رحمه الله:

---

(١) انظر: «تفسيره» (٣/ ٦٠٤)، و«البداية والنهاية» (١/ ٤٧).

(٢) يعني: الحافظ ابن كثير. انظر: «البداية والنهاية» (١/ ٤٩).

« ومنهم الكروبيُّون الَّذِين هُم حَوْلَ الْعَرْش، وهم مع حَمَلَةِ الْعَرْشِ أَشْرَفُ الْمَلَائِكَة؛ وهم الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُون كما قال تَعَالَى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] ». [٧٧]

ومنهم سُكَّانُ السَّمَوَاتِ السَّبْع، يَعْمُرُونَهَا عِبَادَةً دَائِمَة، ليلًا ونهارًا، صباحًا ومساءً، كما قال تَعَالَى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]. [٧٨]

ومنهم الَّذِين يَتَعَاقَبُون إلى الْبَيْتِ الْمَعْمُور. [٧٩]

---

[٧٧] ومن هَؤُلَاء الْمَلَائِكَةِ الَّذِين هُم حَوْلَ الْعَرْشِ الْكَرُوبِيُّون وهم من أَفْضَلِ الْمَلَائِكَة؛ قال تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ [غافر: ٧]، وَقَال: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزُّمَر: ٧٥]، فهؤلاء أَقْرَبُ الْمَلَائِكَةِ إلى اللهِ ﷻ.

وقولُه تَعَالَى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾، دَلَّ على أنَّ الْمَلَائِكَةَ منهم من هُم مُقَرَّبُون من اللهِ ﷻ، وهم الَّذِين حَوْلَ الْعَرْش.

[٧٨] ومن هَؤُلَاء الْمَلَائِكَةِ من يَشْتَغِلُ بِالْعِبَادَةِ ليلًا نهارًا في السَّمَوَاتِ السَّبْع، كلُّ سَمَاءٍ لَهَا سُكَّانُهَا من الْمَلَائِكَةِ يَعْمُرُونَهَا بِالْعِبَادَة. قال تَعَالَى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فُصِّلَت: ٣٨].

[٧٩] كما سَبَق فَإِنَّ الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ في السَّمَاءِ يَتَعَاقَبُ عَلَيْه الْمَلَائِكَة، فَكُلُّ يوم يَأْتِيه عَدَدٌ كَبِيرٌ منهم ثم لا يَرْجِعُون إِلَيْه؛ لأنَّ اللهَ قَسَمَهُم في زِيَارَةِ الْبَيْت.

قُلْتُ: الظَّاهِرُ أنَّ الَّذِين يَتَعَاقَبُون إلى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ سُكَّانُ السَّمَوَات. [٨٠]

ومنهم مُوَكَّلُون بالجِنانِ وَإِعْدَادِ الْكَرَامَاتِ لِأَهْلِهَا وتَهْيِئَةِ الضِّيافَةِ لِسُكَّانِهَا؛ من مَلَابِس وَمَآكِلٍ ومصاغٍ وَمَسَاكِنَ وغير ذَلِك، مِمَّا لا عَيْنٌ رَأَت ولا أُذنٌ سَمِعْت ولا خَطَر على قَلبِ بَشَر. [٨١].

---

[٨٠] يَعْنِي: هل هناك فَرْقٌ بين سُكَّانِ السَّمَوَاتِ وبين الَّذِين يَأْتُون على الْبَيْتِ الْمَعْمُور؟ الْمُؤَلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُوْل: «**قُلْت: الظَّاهِر أن الَّذِين يَتَعَاقَبُون**» أَي: لَعَلَّهُم هُم «سُكَّان السَّمَوَات» إذ لا فَرْقَ بَيْنَهُم، والله أَعْلَم.

[٨١] أَي: ومن الْمَلَائِكَةِ من هُم وَظِيفَتُهُم دَاخِلُ الْجِنَان، يعدون فِيهَا الْكَرَامَات التي يَأْمُرُهُم اللهُ بها، فيغرسون فِيهَا من الْأَشْجَار، وَيَبْنُون فِيهَا من الْقُصُورِ وَغَيْرِهَا لِلْمُؤْمِنِين، هذا دَأْبُهُم، وَرَئِيسُهُم رُضْوَانُ كما جَاء في الْحَدِيث (١).

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» رقم (٣٦٩٥).

ومنهم الْمُوَكَّلُون بِالنَّار - أَعَاذَنَا اللهُ منها - وهم الزَّبَانِيَة، ومقدَّموهم تِسْعَة عَشَر، وخازنُها مَالِك، وهو مُقَدَّم على الخزنة، وهم الْمَذْكُورُون في قولِه تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩]، **وقال تعالى:** ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧]، **وقال تعالى:** ﴿عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]، **وقال تعالى:** ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً﴾ [المدثر: ٣٠- ٣١] **إلى قَوْلِه:** ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١]. **[٨٢]**

---

[٨٢] ومن هَؤُلَاء الْمَلَائِكَةِ من هُم موكَّلون بحراسةِ النَّارِ وَإِعْدَادِ الْعَذَابِ فِيهَا، وَرَئِيسُهُم مَالِك كما فيه الْآيَة التي سَاقَهَا الْمُصَنِّف، ومنهم الزَّبَانِيَةُ التِّسْعَةُ الْمَذْكُورُون في قولِه تَعَالَى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾.

وقوله تعالى على لِسَانِ الْمُعَذَّبِين يومَ الْقِيَامَة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ قالوا للخزنةِ وفي الْآيَة الْأُخْرَى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، نَادَوْا رَئِيسَ الخزنة، فهم يَطْلُبُون الْمَوْت، لِيَسْتَرِيحُوا بِزَعْمِهِم ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾؛ أَي: لا مَوْتَ لَكُم. فهم مَرَّة ينادُون الخزنة، وَمرَّة ينادُون رئيسَهم مالكًا.

وأَمَّا الْمَذْكُورُون في قولِه تَعَالَى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ فهؤلاء مقدَّمو الخزنة؛ وَمُقَدَّمُهُم جميعًا هو مَالِك، وَلَمَّا سَمِع أَبُو جَهل أن عَدَدَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِين على النَّارِ تِسْعَة عَشَر، قال لِقُرَيْش: أفيعجز كلُّ عَشْرَة مِنْكُم أن يبطشوا بِرَجُلٍ من خَزَنَة جَهَنَّم؛ فَأَنْزَل اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً﴾، أَي: لَيْسُوا من الْبَشَر، فهم مَلَائِكَة،

ومنهم الموكَّلون بِحِفْظِ بَنِي آدم كما قال اللهُ تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد:١١]. قال ابنُ عَبَّاس: «مَلَائِكَة يَحْفَظُونَه من بين يَدَيْه ومن خَلْفَه، فإذا جَاء أَمْرُ اللهِ خَلَّوا عَنْه»[1]. [٨٣]

ولا يَعْلَمُ مَدَى قُوَّتِهِم وَعَظَمَتِهُم إلَّا اللهُ تَعَالَى، ثم قال تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أَي: ابْتِلَاءً لَهُم، ولذلك فهم سخِروا من هذا الْعَدَد.

وأَمَّا أَهْلُ الْإِيمَانِ فلا يَصِيرُ عِنْدَهُم تساؤلٌ في هذا الأَمْر، لأنَّ هذا كَلَامُ اللهِ ﷻ، وَالْمَلَائِكَة لا يَعْلَمُ عِظَمَ قُوَّتِهِم إلّا اللهُ ﷻ؛ ولهذا قال تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدثر: ٣١]، فهؤلاء التِّسْعَةَ عَشَر لا يَعْلَمُ قُوَّتَهِم وبأسَهم وَشِدَّتَهُم إلَّا اللهُ ﷻ!.

[٨٣] من الْمَلَائِكَةِ من هو مُوَكَّلٌ بِحِفْظِ بَنِي آدَم من الْأَخْطَار، يَمْشُون مَعَه وَيَمْنَعُونَه من الْوُقُوعِ فِيهَا، وهذا من رَحْمَةِ اللهِ ﷻ، وإذا نَام يَحْرُسُونَه، قال تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١] أَي: بِأَمْرِ اللهِ ﷻ وَرَحْمَتِه بِعَبْدِه، فإذا جَاء أَجَلُه خَلَّى اللهُ بَيْنَه وبينَ الْأَجَل.

كَمَا قال ابنُ عَبَّاسٍ ﵄ من أَنَّه إِذَا جَاء أَمْرُ اللهِ خَلُّوا عَنْه.

وذلك لأَنَّه انْتَهَت مهمتُهم، فهم كانوا يَحْفَظُونَه حِينَمَا كان على قِيدِ الْحَيَاة، وَلَكِن إذا حَان وقْتُ دُنُوِّ أَجَلِه وَانْتِهَاءِ حَيَاتِه فإنَّه تَنْتَهِي مهمتُهم.

---

(١) أخرجه: ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٧/ ٣٥٠).

وقال مُجَاهِد: « ما من عبدٍ إلَّا وَمَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِحِفْظِه في نَوْمِه وَيَقَظَتِه من الْجِنِّ وَالْإِنْسِ والهوامِّ، فَمَا منها شَيْءٌ يَأْتِيه يُرِيدُه إلَّا قال لَه: وَرَاءَك، إلَّا شَيْء يَأْذَنُ اللهُ تعالى فيه فَيُصِيبُه ». [٨٤].

ومنهم الْمُوَكَّلُون بِحِفْظِ أَعْمَالِ الْعِبَاد، كما قال تَعَالَى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧- ١٨]. **وقال تَعَالَى:** ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠- ١١] **[٨٥].**

---

[٨٤] وهؤلاء الْمَلَائِكَةُ يَحْفَظُون الْإِنْسَانَ من الْجِنِّ وَالْهَوَامِّ وَالدَّوَابِّ وَالسِّبَاع وَالْأَخْطَار، إلَّا ما قَدْرِه اللهُ تعالى لِلْعَبْدِ مِمَّا يُصِيبُه، فإنَّه يُصِيبُه بِتَقْدِيرِ اللهِ تعالى له وَبِأَمْرِه.

[٨٥] ومن هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةِ: الحَفَظَةُ، كما قال تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢]، فهؤلاء هُم الْحَفَظَةُ، يَحْفَظُون أَعْمَالَ بَنِي آدم، وما من أَحَدٍ من النَّاسِ إلَّا وَمَلَك عن يَمِينِه وَمَلَكٌ عن شِمَالِه، ولهذا قال تَعَالَى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧- ١٨]، هَؤُلَاء هُم الْحَفَظَةُ الَّذِين يَحْفَظُون الْأَعْمَالَ وَيَكْتُبُونَهَا، وقال تَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٨٠]، قولُه تَعَالَى: ﴿وَرُسُلُنَا﴾ أي: الْحَفَظَة.

النَّهْيُ عن التَّعَرِّي وَوُجُوبُ الاِسْتِحْيَاءِ من الْمَلَائِكَة

رَوَى الْبَزَّار عن ابنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَال: قَال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ عَنِ التَّعَرِّي فَاسْتَحْيُوا مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ الَّذِينَ مَعَكُمْ، الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ الَّذِينَ لَا يُفَارِقُونَكُمْ إِلَّا عِنْدَ إِحْدَى ثَلَاثِ حَالَاتٍ: الْغَائِطُ، وَالْجَنَابَةُ، وَالْغُسْلُ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ بِالْعَرَاءِ فَلْيَسْتَتِرْ بِثَوْبِهِ، أَوْ بِخَذْمَةِ حَائِطٍ، أَوْ بِبَعِيرِهِ»(١).

قَال الْحَافِظُ ابنُ كَثِير: «ومعنى إِكْرَامِهِم: أن يَسْتَحِي منهم، فلا يُمْلِي عَلَيْهِم الْأَعْمَالَ الْقَبِيحَةَ التي يَكْتُبُونَهَا، فَإِنَّ اللهَ خَلَقَهُم كرامًا في خَلْقِهِم وَأَخْلَاقِهِم. ثم قال ما مَعْنَاه: إِنَّ مِنْ كَرَمِهِم أَنَّهُم لا يَدْخُلُون بَيْتًا فيه كَلْبٌ ولا صُورَةٌ ولا جُنُبٌ ولا تِمْثَال، ولا يَصْحَبُون رُفْقَةً مَعَهُم كَلْبٌ أو جَرَس»(٢). [٨٦]

---

[٨٦] في هذا الْحَدِيثِ النَّهْيُ عن التَّعَرِّي حَتَّى وَإِن كان الْإِنْسَانُ خاليًا بِنَفْسِه ولا أَحَدَ يُشَاهِدُه، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تُشَاهِدُه ولهذا يَنْبَغِي الاِسْتِحْيَاءُ منهم، كما يَنْبَغِي الاِسْتِتَارُ منهم بِجِدَارٍ أو بِثَوْبٍ وَنَحْوِه إن أَرَادَ الاِغْتِسَال، ولا بَأْسَ وَالْحَالَةَ هذه من أن يَتَعَرَّى لَكِن يكون ذلك من وَرَاءِ سَاتِرٍ وليس في الْفَضَاء دون سِتر.

وأَمَّا ما ذَكَرَه الْحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ ﵀ من أَنَّهُم: «**لا يَدْخُلُون بيتًا فيه كَلْبٌ ولا صُورَة..**» إلخ؛ وذلك لأَنَّهُم يَكْرَهُون هذه الْأَشْيَاء، فيبتعدون عن الْبَيْتِ الذي فيه كَلْبٌ أو صُورَة، وقد ابتُلي النَّاسُ الْآن بِاقْتِنَاءِ

---

(١) أخرجه: البزار رقم (٤٧٩٩).

(٢) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١/ ٥١).

تعاقُبُ الْمَلَائِكَةِ في الْبَشَرِ ليلًا ونهارًا

وروى مَالِكٌ وَالْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَال: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ -وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ-: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»[1].

وفي رِوَايَةٍ أن أَبَا هُرَيْرَة قَال: اقْرَءُوا إن شِئْتُم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨][2]. [٨٧]

الْكِلَاب؛ لأَنَّهُم رَأَوْا الْكُفَّارَ يقتنون الْكِلَابَ فَتَشَبَّهُوا بِهِم حَتَّى أَدْخَلُوهَا في السياراتِ مَعَهُم، وهذه الْكِلَابُ إذا كانت في الْبَيْتِ فَإِنَّهَا تَمْنَعُ دُخُولَ الْمَلَائِكَة، وكما ابتُلوا بِتَعْلِيقِ الصُّوَر في بُيُوتِهِم، وهي كَذَلِك تَمْنَعُ دُخُولَ مَلَائِكَةِ الرَّحْمَةِ عَلَيْهِم.

[٨٧] ما زَال الشيخُ رَحِمَهُ اللهُ يَسُوق الأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ في أَعْمَالِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَام، فَمن أَعْمَالِ الْمَلَائِكَةِ حِفْظُ أَعْمَالِ بَنِي آدَم؛ لأَنَّ اللهَ يُرْسِلُهُم إلى الْبَشَرِ في الأَرْضِ يَكْتُبُون ما يَصْدُرُ من بَنِي آدَم من خَيْرٍ أو شَرٍّ، من أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ أو أَعْمَالٍ سَيِّئَة، أو أَقْوَال، فهم يَرْصُدُون وَيَكْتُبُون كلَّ ما يَصْدُرُ من أَقْوَالٍ وَأَفْعَال.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٥٣٠)، ومسلم رقم (٦٣٢).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (٣٠٥١)، ومسلم رقم (٦٤٩).

قَال تَعَالَى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، وَقَال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢].

وهؤلاء يُقَال لَهُم: الْحَفَظَة، قال تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١].

فَالْإِنْسَانُ ليس مهمَلًا، وإِنَّما هو تَحْتَ مُرَاقَبَةٍ دَائِمَةٍ من اللهِ وَمَلَائِكَتِه، وَأَنَّ أَعْمَالَه وَأَقْوَالَه لا تَضِيعُ ولا تَذْهَبُ سُدًى؛ قال تَعَالَى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، فَالْإِنْسَانُ ليس بِمُهْمَلٍ وَإِن أَهْمَلَ نَفْسَه؛ ولهذا فإِنَّه يَنْبَغِي له أَنْ يَسْتَحْضِرَ هذا وَيَسْتَحْضِرَ كلَّ ما يَصْدُرُ عَنْه وَيُدْرِكَ بِأَنَّه سيُسجلُ وسيُحاسبُ عَلَيْه، فَحِينَئِذٍ سَيَكُونُ له تخوُّفٌ وتوقُّفٌ عن كَثِيرٍ من الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَال.

وهذا الصِّنْفُ من الْمَلَائِكَةِ الَّذِين جَاء ذِكْرُهِم في الْحَدِيثِ يَنْزِلُون من السَّمَاءِ إلى الأَرْضِ حيث يَسْكُنُ بَنُو آدم، وهم على قسمين: حَفَظَة في النَّهَار، وَحَفَظَة في اللَّيْل، فَحَفَظَةُ النَّهَار يَنْزِلُون في صَلَاةِ الْفَجْر وَيَبْقَوْن مع الْإِنْسَانِ إلى وقتِ صَلَاةِ الْعَصْر، ثم يَنْزِلُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَيحْضُرُون صَلَاةَ الْعَصْرِ وَيَسْتَمِرُّون إلى صَلَاةِ الْفَجْر، فهذا معنى قولِه ﷺ: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ**» حيث لا تَمْضِي فَتْرَةٌ من الْوَقْت تَخْلُو من هَؤُلَاءِ الْحَفَظَة، فَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ مع مَلَائِكَةِ النَّهَارِ في صَلَاةِ الْفَجْرِ وَيَحْضُرُونَهَا؛ ولهذا قال اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]؛ يَعْنِي: صَلاة الْفَجْر، فَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿مَشْهُودًا﴾ أي محضورًا تَحْضُرْه الْمَلَائِكَة.

وَقَد سمَّى اللهُ صَلَاةَ الْفَجْرِ قرآنًا؛ لأَنَّهَا تطُول فِيهَا الْقِرَاءَة، فَمَن هُنَا يُستَحبُّ لِلْإِمَام أن يُطيلَ الْقِرَاءَةَ في صَلَاةِ الْفَجْرِ إطَالَةً لا تَشُقُّ على الْمَأْمُومِين؛ لأَنَّهَا تَحْضُرُهَا مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَار، وكذلك في صَلَاةِ الْعَصْرِ تَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ مع مَلَائِكَةِ النَّهَار، هَؤُلَاء يَصْعَدُون وهؤلاء يَنْزِلُون وَيحْضُرُون صَلَاةَ الْعَصْر، ولهذا صَار لِصَلَاتي الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ مِيزَةٌ على غيرِهما من الصَّلَوَات.

وقولُه تَعَالَى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يَعْنِي: صَلِّ ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

الْمُرَاد هو ذكرُ فَضِيلَةِ هَذَيْن الصَّلَاتَيْن: صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْر.

وقولُه ﷺ: «**ثُمّ يُعَرِّج إِلَيْه الَّذِين بَاتُوا فِيكُم**» هذا فيه دَلِيلٌ على إِثْبَاتِ العلوِّ لِلَّهِ تَعَالَى، فَيَصْعَدُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِين انْتَهَت مهمَّتُهم إلى اللهِ تَعَالَى.

وَقَوْلُه: «**فَيَسْأَلُهُم وهو أَعْلَم**» أَي: يَسْأَلُهُم ﷻ سُؤَالَ تَقْرِيرٍ وَشَهَادَة، وَإِلا فهو ﷻ يَعْلَمُ حَالَهِم ولا يَخْفَى عَلَيْه شَيْءٌ من أَمَرِهُم «**كَيْف تَرَكْتُم عِبَادِي؟**» يَسْأَل سُبْحَانَه الَّذِين صَعِدُوا إِلَيْه: «**كَيْف تَرَكْتُم عِبَادِي**» فهذا سُؤَالُ تَقْرِيرٍ وَاسْتِشْهَادٍ لِلْمَلَائِكَةِ على أَعْمَالِ بَنِي آدَم.

وَقَوْلُه: «**فَيَقُولُون**: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ» صَلَاةَ الْعَصْر «**وأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**» صَلَاة الْفَجْر، أو الْعَكْس و«**أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**» أَي: صَلَاة الْعَصْر «**وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**» أَي: صَلَاة الْفَجْر، فهذه شَهَادَةٌ من الْمَلَائِكَةِ لِلْمُسْلِمِين عند اللهِ ﷻ وهم في حَالَةِ طاعةٍ لِتَكُونَ شَهَادَتُهم

تجوُّلُ الْمَلَائِكَةِ على حِلَقِ الذِّكرِ وَالْعَلَم

ورَوى الإمامُ أَحْمَد وَمُسْلِم حَدِيث: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِن بُيُوتِ اللهِ يَتْلُون كُتَّابَ اللهِ وَيَتَدارَسُونَه بَيْنَهُم، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[1]. [٨٨]

لهم بِأَحْسَنِ الشَّهَادَة، هَؤُلَاء هُم الْمَلَائِكَةُ الحفظَةُ وهذا عملُهم، وهذه أَوْقَاتُ نُزُولِهِم وصعودِهم.

[٨٨] وهذا الْحَدِيثُ أيضًا في بَيَانِ صنفٍ من الْمَلَائِكَة، وهم الْمَلَائِكَةُ الَّذِين يتجوَّلون يَطْلُبُون حِلَقَ الذِّكر، فمِن الْمَلَائِكَةِ من مُهمَّتُهم حُضُور دُرُوسِ الْعِلْم وحِلَقِ الذِّكر، فهذا فيه فَضْلُ طلبِ الْعِلْمِ والحثُّ عَلَيْه؛ لأنَّ الْمَلَائِكَةَ تَعْتَنِي بهذا وَتَبْحَثُ عَنْه وَتَأْتِي إِلَيْه.

فَقوله ﷺ: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ» يَعْنِي: من الْمَسَاجِد، وهذا فيه أنَّ تَعْلِيمَ الْعِلْم يَنْبَغِي أن يكونَ في الْمَسَاجِد؛ لأَنَّه تَحْضُرُه الْمَلَائِكَة، وكذا يَحْضُره طُلَّابُ الْعِلْم والعوامُّ فيستفيدون من هذه الدُّرُوس، فهو بَيْتُ السَّكينةِ وَالرَّحْمَةِ وهو مَأْوَى الْمَلَائِكَة، بِخِلَافِ ما إذا ما أُقيمَ الدَّرْسُ في غيرِ الْمَسْجِد، فإنَّه تَقِلُّ أهميتُه وَيَفْقِدُ هذه الصِّفَة، وَيُصْبِحُ مقصورًا على الْحَاضِرِين من الطُّلَّابِ فقط، فَيَنْبَغِي أَنْ يُعلَنَ الْعِلْمُ ولا يُخزَّن، ومحلُّ إعْلَانِه يكونُ في الْمَسَاجِد، ولا يكونُ في المخيمات

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٦٩٩).

أو في مَحلَّاتٍ يَجْتَمِعُ فِيهَا الطُّلَّابُ وَالْمَشَايِخُ ولا يَحْضُرُه غَيْرُهم، فمثل هذا تَقِلُّ أهميتُه وَفَائِدَتُه وَيَفْقِدُ هذه المِيزَةَ الْعَظِيمَةَ وهي حُضُورُ الْمَلَائِكَة.

وقولُه ﷺ: «**يَتْلُون كُتَّابَ الله**» أَي: الْقُرْآن الْكَرِيم، وَيدْخُلُ فيه السُّنة؛ لأنَّ السُّنةَ من كُتَّابِ اللهِ ﷻ، فَيَقْرَءُون كِتابَ اللهِ وَيَتَفَقَّهُون فيه وَيَتَدَارَسُونَه فِيْمَا بَيْنَهُم فيُعلِّمُ بَعْضُهُم بعضًا، فهذا فيه فَضْلُ حِلَقِ وتحفيظِ الْقُرْآنِ في الْمَسَاجِد، وهذه ظَاهِرَةٌ عَظِيمَةٌ عند الْمُسْلِمِين، و«**يَتَدَارَسُونَهُ**» فَإِنَّ من تَدَارُسِ الْقُرْآنِ تدارُسَ مَعَانِيه وَقِرَاءَةَ التَّفْسِير، فَيَقْرَءُون الْقُرْآنَ ويتأمَّلون مَعَانِيه ويتدبَّرونه؛ لأَنَّه ليس الْمَقْصُودُ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ أو حِفْظَه فَقَط مع أَهَمِّيَّةِ ذَلِك، لَكِن هذا لا يَكْفِي؛ إذ لابدَّ من تدارُسِ مَعَانِيه وفَهْم ما أَرَادَه اللهُ ﷻ به وَالِاهْتِدَاءِ بهَدْيه، وأمَّا مجرَّدُ الْحِفْظِ له دون تدبُّر مَعَانِيه وَفَهْمِهَا فهو عَمَلٌ نَاقِص.

وَقَوْله: «**إِلَّا نَزَلَت عَلَيْهِم السَّكِينَة**»: والسَّكينة شَيْءٌ يَجْعَلُه اللهُ في الْقُلُوب، وهي الطُّمَأْنِينَةُ وَذَهَابُ الْوَسَاوِسِ والانشغالُ الْقَلْبِيّ، وهذا خاصٌّ بِالْمَسَاجِد، فَالطُّمَأْنِينَةُ إنَّما تَكُونُ في الْمَسَاجِدِ التي هي بُيُوتُ اللهِ ﷻ.

وَقَوْلُه: «**وغَشيتهم الرَّحْمَة**» أَي: غطَّتهم رحمةٌ من اللهِ ﷻ، وهذه فَائِدَةٌ ثَانِيَة من فَوَائِدِ الِاجْتِمَاعِ في بُيُوتِ اللهِ ﷻ لِأَجْلِ طَلَبِ الْعِلْمِ الشَّرْعِيّ.

وَقَوْلُه: «**وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ**» وهذا هو محلُّ الشَّاهِد؛ حيث إنَّ الْمَلَائِكَةَ تُحِيطُ بِهَؤُلَاء الْمُجْتَمِعِين في بُيُوتِ اللهِ ﷻ، وتتحلَّقُ مَعَهُم،

فَمَا أَعْظَمَ أن تُحيطَ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَن وَتَجْلِسُ في حِلَقِ الذِّكرِ بعدما يَنْزِلُون من السَّمَاءِ ويبحثون في الأَرْض، فإذا وَجدُّوا حِلَقَ الذِّكرِ قَالُوا: هلمُّوا إلى بُغيتِكم، فَيَجِيئُون فيَحفُّون بِهِم إلى السَّمَاءِ الدُّنيا كما جَاء في الْحَدِيث [١].

وأمَّا أُولَئِك الَّذِين يَلْهُون وَيَلْعَبُون ويُغنُّون، فهؤلاء تحضُرُهم الشَّيَاطِينُ وتُشجِّعُهم على هذا الشَّيْء، وأمّا الَّذِين يُقبِلون على كُتَّابِ اللهِ تعالى وعلى سُنَّةِ رَسُولِه ﷺ بِالْحِفْظِ والدَّراسةِ والتفقُّهِ فهؤلاء تَحضُرُهم ملائكةُ الرَّحمن.

وقولُه ﷺ: «**وَذكَرَهُم اللهُ فيمَن عِنْدَه**» هذه أَعْظَمُ فَائِدَةٍ ذُكرَت في هذا الْحَدِيث؛ حيث إنَّه ﷻ يُثني عَلَيْهِم في الْمَلَأِ الْأَعْلَى عند الْمَلَائِكَة.

❁ فَهَذِه فَضَائِلُ اجْتَمَعَت في حِلَقِ الذِّكر وَهْي:

أولًا: نُزُولُ السَّكِينَة.

ثانيًا: غَشَيَانُ الرَّحْمَة.

ثالثًا: حُضُورُ الْمَلَائِكَة.

رابعًا -وهي أَعْظَمُ الْفَوَائِد-: حيث إنَّه سُبْحَانَه يَذْكُرُهُم في الْمَلَأِ الْأَعْلَى.

فَقَوْلُه: «**ذكرَهم اللهُ**» أي: أَثْنَى عَلَيْهِم ومَدَحَهم «**فِيمَن عِنْدَه**» يعني من الْمَلَائِكَةِ المقرَّبين عِنْدَه ﷻ، وكفى بهذا شرفًا وفضلًا لِمَجَالِسِ الذِّكرِ وَالْعَلَم.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٦٤٠٨)، ومسلم رقم (٢٦٨٩).

ثُمّ قال ﷺ: «**ومن بَطَّأ به عملُه لم يُسرِعْ به نَسَبُه**» فاللهُ ﷻ لا يَنْظُرُ إلى الْأَنْسَاب، وإنَّما يَنْظُرُ إلى الْعَمَل، قال تَعالَى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

فالأنسابُ إنَّما هي من شَأْنِ الدُّنيا بين النَّاس؛ قال تَعالَى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فلا مَانِعَ من تعلُّم الْأَنْسَابِ وَمَعْرِفَتِهَا، وَلَكِن دون الِافْتِخَارِ بها وَالِاقْتِصَارِ عَلَيْهَا، فهي لا تَكْفِي عند اللهِ تعالى ولا وَزْنَ لَهَا يومَ الْقِيَامَة، وإنَّما الْمَقْصُودُ منها في الدُّنيا التعارفُ وَالتَّوَاصُلُ بين الْأَقَارِبِ وَالْأَرْحَامِ وَالتَّعَاوُنِ على البرِّ والتقوى، وَلَكِن لا يَنْفَعُ عند الْبَارِئِ ﷻ إِلَّا الْعَمَل.

فَقَوْلُه: «**ومن بَطَّأ به عملُه**» يَعْنِي: تأخَّر عملُه «**لَم يُسرعْ به نَسَبُه**» فَانْظُر إلى أَبِي لَهَبٍ وهو عمُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ ومن صَمِيم بَنِي هَاشِم وَلَكِن لَمَّا لم يَكُنْ عِنْدَه عَمَلٌ صَالِحٌ لم يَنْفَعْه ذَلِك، وَأُنْزِلَ اللهُ فيه قرآنًا يُتلى في ذَمِّه إلى يومِ الْقِيَامَة فَقَال: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المَسَد: ١] أَي: خَاب وَخَسِر، وهو عمُّ الرَّسُولِ ﷺ، وَله نَسَبٌ شَرِيفٌ رَفِيْعٌ ولكنَّه لم يَنْفَعْه، ولا ضرَّ بلالًا وَسَلْمَانَ أَنَّهُم لَيْسُوا قبليِّين وَلَيْسَوا من الْعَرَبِ وأنهم أَعَاجِم، فَالْأَوَّلُ من الْحَبَشَةِ وَالْآخَرُ من بِلَادِ فَارِس، لَكِنَّ اللهَ ﷻ رَفَعَهُم بِالْعَمَلِ الصَّالِح، ولا ضرَّهم أَنَّهُم ليس لهم نَسَبٌ عَرَبِيٌّ وَشَرِيف؛ ولهذا قال ﷺ: «**مَنْ بَطَّأ به عملُه لم يُسرِعْ به نَسَبُه**» أَي: لم يقدِّمه «**نَسَبُه**».

تَوْقِيرُ الْمَلَائِكَةِ لِطَالِبِ الْعِلْم

وفي «الْمُسْنَد» و«السُّنن» حَدِيث: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصنَعُ»[(١)]، وَالْأَحَادِيثُ فِي ذِكْرِهِم ﷺ كَثِيرَةٌ جدًّا. [٨٩]

---

[٨٩] وهذا كَالْحَدِيثِ الذي قَبْلَه، فيه أنَّ الْمَلَائِكَةَ تُوقِّرُ وَتُحْتَرِمُ طالبَ العلم، ولهذا قال ﷺ: «**لَتضَعُ أَجْنِحَتَهَا**» احترامًا لِطَالِبِ الْعِلْم، وهذا يدلُّ على شَرَفِ طَلَبِ الْعِلْمِ الشَّرْعِيّ، فَيَنْبَغِي لِلنَّاسِ احْتِرَامُ طَالِبِ الْعِلْم كما تحترمُه مَلَائِكَةُ الرَّحمنِ وتتواضعُ لَه.

وَلَكِن كثيرًا من النَّاسِ -مع الْأَسَف- ينتقِصون طَلَبَةَ الْعِلْمِ و الْعُلَمَاء، ويَحُطُّون من قَدْرِهم ويصفونَهم بالتغفيلِ وَعدمِ فِقْهِ الْوَاقِع وأنَّه ليس لهم هَمٌّ إلَّا دِرَاسَة الْحَيْضِ والنِّفاس، فَيَسْخَرُون منهم ومن الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّة، وهذا دَيْدَنُ بَعْضِ النَّاسِ مع طَلَبَةِ الْعِلْم وَالْعُلَمَاءِ وهو الاحتقارُ وَالِازْدِرَاءُ من الْعُلَمَاءِ، بل يُتَجَاوَزُ إلى احْتِقَارِ أَحْكَامِ الْعِلْمِ فيسمُّونها الْحَيْضَ والنِّفاسَ ولا حَوْلَ ولا قوَّةَ إلَا بِاَللَّه.

فَمِثْلُ هذا وَنَحْوه إنَّما هو رِدَّةٌ عن دِينِ الإسلام، فَكُلُّ من يَحْتَقِرُ الْعِلْمَ الذي أَنْزَلَه اللهُ إنَّما هو مرتدٌّ عن دِينِ اللَّه.

فَالْأَمْرُ جَدُّ خَطِير، فليس الأَمْرُ مجرَّدُ كَلَام وانتهى، وإنَّما هذا الْكَلَامُ وَنَحْوُه يَرْجِعُ على قَائِلِه بِالْخَسَارَةِ ولا يَضرُّ طَلَبَةَ الْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ بل يَزِيدُهُم رِفْعَةً عند اللهِ ﷻ.

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٣٦٤١)، والترمذي رقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه رقم (٢٢٣)، وأحمد رقم(١٨٠٨٩).

وَالْقَصْدُ من هَذَا: أنَّه يَنْبَغِي احْتِرَامُ طَالِبِ الْعِلْم؛ لأنَّ الْمَلَائِكَة تحترمُه فَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لَه، وهذا فيه وَصَفُ الْمَلَائِكَةِ بأنَّ لهم أَجْنِحَة، وهذا قد ذَكَرَه اللهُ تعالى في الْقُرْآنِ الْكَرِيم فَقَال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ [فاطر: ١] لَهُم أَجْنِحَةٌ يَطِيرُون بها في الْهَوَاء، فَلَقَد أَعْطَاهُم اللهُ الْقُدْرَةَ على الطَّيَرَانِ وَالنُّزُولِ وَالصُّعُود.

وأمَّا قَوْلُ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللهُ: «**وَالْأَحَادِيثُ في ذِكْرِهِم عَلَيْهِم السَّلَامُ كَثِيرَةٌ جدًّا**» فقد أَفَاضَ رَحِمَهُ اللهُ في إيرَادِ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ في ذكرِ الْمَلَائِكَة؛ لأنَّ الْإِيمَانَ بِالْمَلَائِكَةِ هو أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السِّتَّة، فَيَجِبُ مَعْرِفَةُ هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَة، وَالْإِيمَانُ بِهِم إيمانًا مفصَّلًا، ولا يَكْفِي الْإِيمَانُ بِهِم إيمانًا مجملًا، ولذلك أَفَاضَ الشيخُ رَحِمَهُ اللهُ في إيرَادِ الْأَحَادِيثِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِصِفَةِ الْمَلَائِكَةِ وَأَعْمَالِهِم وَأَصْنَافِهِم من أَجْلِ اعْتِقَادِ ما جَاء في الْأَحَادِيثِ التي اشْتَمَلَت على كلِّ هذه التَّفَاصِيل.

وهذا بِخِلَافِ قَوْلِ الْفَلَاسِفَةِ الْقَائِلِين بأنَّ الْمَلَائِكَةَ عِبَارَةٌ عن الْهَوَاجِسِ الْكَامِنَةِ في النَّفْسِ الْبَشَرِيَّة، فَإِن كانت هذه الْهَوَاجِسُ تُعَبِّرُ عن الْخَيْرِ فهي الْمَلَائِكَة، وَإِن كانت هَوَاجِسُ شرٍّ فهي الشَّيَاطِين، فليس في فِكْرِهِم أنَّ الْمَلَائِكَةَ وَالشَّيَاطِينَ مَخْلُوقُون، لأَنَّهُم لا يُؤْمِنُون بِالْغَيْبِ وإِنَّما يُفَسِّرُون الْمَلَائِكَةَ بِقُوَى الْخَيْرِ الْكَامِنَةِ في الْإِنْسَان، وَالشَّيَاطِينَ بِقُوَى الشَّرِّ، هذا مَذْهَبُ الْفَلَاسِفَةِ وَرَأْيُهم في الْمَلَائِكَة.

وأمَّا مُشْرِكُو الْعَرَبِ فَإِنَّهم يَقُولُون بأنَّ الْمَلَائِكَةَ إنَّما هُم بَنَاتُ اللَّه! وأنَّه سُبْحَانَه تزوَّج من الْجِنِّ - تعالى الله عمّا يَقُولُون - فَوَلَدَت له الْبَنَاتُ وهم الْمَلَائِكَة؛ قال تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨].

وَقَال تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزُّخرُف: ١٩].

وَقَال: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

وَقَال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]، يَعْنِي: لهم الذُّكور.

وَقَال: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الصافات: ١٥٣- ١٥٧]، فهم يَصِفُون الْمَلَائِكَة بِأَنَّهم بَنَات.

قَال تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٧- ٥٩]، فهؤلاء يَكْرَهُون الْبَنَات، فَمِنْهُم من يُبقِيها على ذلَّةٍ وَاحْتِقَارٍ ويظلمُها، ومنهم من يَدْفِنُهَا حيَّة، وهي الْمَوْءُودَة ولهذا قال تَعَالَى: ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ﴾ يَعْنِي: يُبْقِيهَا حيَّةً مُهانةً ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ يَعْنِي: يَدْفِنُهَا وهي حيَّة ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ إلى قولِه تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم

مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل: ٦٢]، فهؤلاءِ لا يرضَون الْبَنَاتِ لِأَنْفُسِهِم ويترفَّعون عنها وَيَنْسُبُونَهَا لِلَّهِ ﷻ، وهذا تَنقُّصٌ له ﷻ.

وَالشَّاهِدُ من هذا كُلِّه هو قَوْلُ بَعْضِ مُشْرِكِي الْعَرَب في الْمَلَائِكَة. بأَنَّهم بَنَاتُ اللَّه، تعالى اللهُ عن ذلك عُلوًّا كبيرًا!

وهناك صِنْفٌ آخَرٌ من مُشْرِكِي الْعَرَبِ يَعْبُدُون الْمَلَائِكَةَ وَيَدْعُونَهُم من دونِ اللهِ ﷻ ويَغْلُون فِيهِم؛ قال تعالى في وَصَفِ هَؤُلَاءِ وَعَاقِبَةِ أَمَرِهم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠- ٤١] فعبادتهم ليس عِبَادَة لِلْمَلَائِكَة وإنَّما هي عِبَادَة لِلشَّيَاطِين؛ لأنّ الشَّيَاطِين هُم الَّذِين أَمَرُوهم بِذَلِك، أَمَرُوهُم أن يَعْبُدُوا الْمَلَائِكَة، وَالْمَلَائِكَة تَتبَرَّأ منهم، وإنَّما يَعْبُدُوا الشَّيَاطِين ولهذا قال تعالى على لِسَانِهِم: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١].

بابُ الْوَصِيَّةِ بِكِتَابِ اللهِ ﷻ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣]. **[٩٠]**

---

[٩٠] فِي هذا الحثُّ على التمسُّكِ بِكِتَابِ اللهِ ﷻ. يُقَال: أَوْصَى بِكَذَا؛ أَي: أَمر وأكَّد بِالشَّيْء، واللهُ تعالى أَوْصَى بالتمسُّكِ بِكِتَابِه، والنبيُّ ﷺ أَوْصَى كَذَلِك بالتمسُّكِ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى؛ لأَنَّه لا نَجاةَ من الضَّلالِ في الدُّنيا ومن النَّارِ في الْآخِرَةِ إلَّا بالتمسُّكِ بِكِتَابِ اللهِ ﷻ واتبَّاعِ الرَّسولِ ﷺ، فَمَن لم يتمسَّكْ بِهِمَا فإنَّه يكونُ ضالًّا في الدُّنيا على غيرِ هدًى ويكونُ في الْآخِرَةِ من الْخَاسِرِين ومن أَهْلِ النَّار، فلا نَجاةَ إلَّا بالتمسُّكِ بِكِتَابِ اللَّه؛ ولهذا قال تَعَالَى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وَقَــال: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣] هَذِه وصيَّة الله تعالى بِالْقُرْآن والسُّنة.

وَالْآيَةُ التي ذَكَرهَا الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ جاءَت في سِيَاقِ أَوَّلِ سُورَةِ الْأَعْرَاف من قولِه تَعَالَى: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١- ٣].

فَقَوْلُه: ﴿ٱتَّبِعُوا۟﴾ هذا أمرٌ من اللهِ ﷻ ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣] وَهما الْقُرْآن والسُّنة؛ لأنَّ السُّنةَ مُنزَّلةٌ من اللهِ تَعَالَى؛ ولهذا قال سُبْحَانَه بحقِّ نبيِّه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤] ثم لـمَّا أَمر باتِّباعِ المنزَّلِ نَهى عن اتِّباعِ غَيْرِه فقال سُبْحَانَه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ﴾

يَعْنِي: لا تتَّبعوا غيرَه من الْأَكَابِرِ والرُّؤساءِ والرِّجالِ الَّذِين تَزْعُمُون أَنَّهُم عُلَمَاؤُكُم وأولياؤُكم، فتطيعونهم وترفضون ما جَاء به الرَّسُولُ ﷺ؛ وهذا من اتِّخاذِ الْأَوْلِيَاء، فمَن أَطَاعَ مخلوقًا في مَعْصِيَةِ اللهِ فقد اتَّخذه وليًّا من دونِ اللَّه، فلا يُطاع الْعُلَمَاءُ ولا أحدٌ من النَّاسِ إلَّا إذا أَطَاعَ اللهَ ﷻ ووافقَ كِتابَ اللهِ وسُنةَ رَسُولِه ﷺ، أمَّا من خَالَف فإنَّه لا يُعتبر، سَوَاءٌ كانت مُخَالَفَتُه عن تعمُّدٍ وَعِنَاد أو كانت عن اجْتِهَادٍ وأخطأ فِيْه.

فَلا يَجُوزُ تَقْلِيدُ النَّاسِ تقليدًا أَعْمَى من غيرِ بَصِيرَة، وإنَّما يَجُوزُ تَقْلِيدُ من تمسَّكَ بِالْكِتَابِ والسُّنةِ وأصابَ الحقَّ، وأمَّا من خَالَفَ فإنَّه لا يُعتبرُ حَتَّى ولو كان مجتهدًا وأخطأ في اجْتِهَادِه، وهذه قَاعِدَةٌ يَنْبَغِي أن يَعْرِفَهَا طَالِبُ الْعِلْم؛ إذ أن هناك من يتعصَّبون لِمَذَاهِبِهِم وَمَشَايِخِهم ولرؤسائِهم وَقَادَتِهم دون رُجُوعٌ إلى كُتَّابِ اللهِ ﷻ.

والحقُّ في ذَلِك: هو أنْ تُوزَنَ كلُّ الْأُمُورِ بِمِيزَانِ الْكِتَابِ والسُّنة، فَمَا وَافَقَهُمَا وَجَبَ الأخذُ بِه، وما خَالَفَهُمَا وَجَبَ رفضُه وعدمُ الالتفاتِ إِلَيْه، ولا يُعتبرُ هذا إهانةً لِلْعَالِم إذا ما تُجنِّب خَطَؤُه، بل إنَّ الْعُلَمَاءَ أنفسَهم يَقُولُون: إذا وافَقَ قولُنا قولَ الرَّسُولِ ﷺ فخُذوه، وإذا خَالَفَه فَاضْرِبُوا بِقَوْلِنَا عُرْضَ الْحَائِط، كَذَا قال الإمامُ الشَّافِعِيُّ وَمَثلُه الإمامُ مَالِك وَأَحْمَد ومن قَبْلِهِم الإمامُ أَبو حَنِيفَة رَحِمَهُم اللهُ جميعًا، فكلُّهم حَذَّرونا من أَخْذِ أَقْوَالِهِم كقضيَّةٍ مسلَّمة، بل يَنْبَغِي أن تُعرضَ أقوالُهم على كِتابِ اللهِ تعالى وسُنَّةِ رَسُولِه ﷺ، فإذا وَافَقْتْ فَبِهَا ونِعْمَت وإنْ خالفتْ فإنَّنا نترحَّمُ عَلَيْهِم وَنَعْتَذِرُ لهم وَلَكِن لا نَأْخُذُ خَطَأَهُم، ولا يُعتبرُ هذا تنقُّصًا لهم حَاشَى وكلَّا!

الحثُّ على التمسُّكِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَة

عَن زَيْدِ بنِ أَرْقَم ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَطبَ فحَمِد اللهَ وأثنى عَلَيْه، ثم قَال: «أمَّا بعدُ، أَلا أَيُّها النَّاسُ، فَإِنَّما أَنَا بَشَرٌ، يُوشِكُ أَنْ يأْتيَنِي رَسُولُ ربِّي فأُجِيبَ، وأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَينِ، أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ فِيهِ الهُدَى والنُّورُ، فَخُذُوا كِتَابَ اللهِ وَتَمَسَّكُوا بِه» فحَثَّ على كتابِ اللهِ ورغَّب فِيْه، ثم قَال: «وَأَهلُ بَيْتِي» وفي لفظٍ: «كِتَابُ اللهِ هَو حَبْلُ اللهِ المَتِينُ؛ من اتَّبَعَه كَانَ عَلَى الهُدَى، وَمَنْ تَرَكَه كَانَ عَلَى الضَّلالَةِ». رَوَاه مُسْلِم[1]. [٩١]

---

[٩١] هَذَا الْحَدِيثُ الذي رَوَاه مُسْلِم فيه أنَّ النَّبِيّ ﷺ خَطب أَصْحَابه في مَوْضِع يُقال لَه: غَدِير خُمّ، وَالْغَدِير: هو مُجْتَمِع السَّيل من الْوَادِي. وخُم، قَيل: اسْم رَجُل نُسب إلَيْه الْغَدِير. وَقِيل: اسْم غَيضة ملتفَّة بِالْأَشْجَار نُسب إِلَيْهَا الْغَدِير، وهو قُرَيْب من الجُحفة. فلمّا رَجَع النبيُّ ﷺ هو وَأَصْحَابه ﷺ من حجَّة الْوَدَاع وَنَزَلُوا على غَدِير خُمّ خَطَبَهُم ﷺ هذه الْخُطْبَة، فَحَمِد الله وأثنى عَلَيْه.

فَقَوْلُه: «فَحَمِد اللهَ وأثنى عَلَيْه» فيه أنَّ الْخُطْبَةَ تُبدأُ بِحَمْدِ اللهِ تعالى وَالثَّنَاءِ عَلَيْه، سَوَاء كانت خطبةَ جُمُعَةٍ أو عِيدٍ أو اسْتِسْقَاءٍ أو تَعْلِيم، فَكُلُّ الْخُطَبِ تُستفتحُ بِحَمْدِ اللهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْه كما كان النبيُّ ﷺ يَفْعَل، وَيَدْخُل في هذا خُطْبَةُ الدُّرُوسِ وَالْمُنَاسِبَاتِ الْأُخْرَى.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٤٠٨).

وقوله ﷺ: « أمَّا بعد » هذه الْجُمْلَةُ يُؤْتَى بها لِلانْتِقَالِ من أُسْلُوبٍ إلى أُسْلُوبٍ آخَر، فهي كَلِمَةُ فَصْلٍ بين كَلامَيْن.

وَقَوْله: « إنِّي بَشَر » فهو ﷺ من بَنِي آدَم، ليس مَلَكًا من الْمَلَائِكَةِ وليس له من الرُّبوبيةِ شَيْء، ولهذا جَاء في كتابِ اللهِ قولُه تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]؛ أَي: مَخْلُوق ممَّا يُخلقُ منه بَنُو آدَم من أبٍ وأمٍّ.

وهذا بِخِلَافِ قَوْلِ أَهْلِ الضَّلالِ وَالانْحِرَافِ الَّذين يَقُولُون: إنَّ الرَّسُولَ ﷺ مَخْلُوقٌ من نُور، وَبَعْضُهم يَقُوْل: إنَّه خُلِقَ عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلَامُ قبلَ آدم عَلَيْه السَّلام!

وهذا وَنَحْوُه من الْأَقْوَالِ الْمُنْحَرِفَةِ إنَّما هو من الغُلوِّ الْمَذْمُوم؛ إذ كَيْف خُلِق ﷺ قبلَ آدَمَ ﷺ وهو من بَنِي آدَم؟! فالرَّسولُ ﷺ بَشَرٌ وَإِنْسَانٌ من بَنِي آدَم؛ فَقوله ﷺ: « فإنَّما أنَا بَشَر » فيه إبْطَالُ الغُلوِّ في حقِّه ﷺ، أو أن يُقَال: إنَّه مَخْلُوقٌ من نُورٍ أو قبل آدَم، وقد دلَّ هذا الْحَدِيثُ على أنَّه ﷺ مخلوقٌ ممّا خُلِقَ منه بَنُو آدم وَالْأَنْبِيَاءُ قَبْلَه عَلَيْهِم الصَّلَاة والسَّلام.

وفِيَه أنَّه ﷺ لا يُدعَى من دونِ اللهِ ولا يُستغاثُ بِه، لأَنَّه بَشَر، وإنَّما الذي يُدعَى ويُستغاثُ به هو اللهُ ﷻ.

وقولُه ﷺ: « يُوشِكَ أن يأتيَني رسولُ رَبِّي » أَي: مَلَك الموتِ « فأُجيبَ » وقد جَاءَه رسولُ ربِّه ومات ﷺ؛ ولهذا قال تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزُّمَر: ٣٠] وَقَال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ

الرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]؛ فالرَّسولُ ﷺ بَشَرٌ ومات كما يَمُوتُ الْبَشَر.

وفي هذا ردٌّ على الغُلاةِ الَّذِين يَقُولُون: إن الرَّسُولَ ﷺ لم يَمُتْ وإنه حَيّ! فإنَّه لو كان حيًّا لَمَا دُفِنَ في التُّرَاب، ولو كان حيًّا ﷺ لَذَهَبَ إِلَيْه أَصْحَابُه ﷺ عند اخْتِلَافِهِم لِيَفْصِلَ بَيْنَهُم! لَكِنَّ أَهْلَ الْبَاطِنِ لا يَنْظُرُون إلى ما تَقْتَضِيه العقولُ فضلًا عمَّا تَقْتَضِيه أدلَّةُ الشَّرع، فهم يَرْكَبُون رُءُوسَهم وَأَهْوَاءَهم، فالرَّسولُ ﷺ بَشَرٌ وهو مَيِّت، وقد بلَّغَ الرِّسالةَ وأدَّى الأمانةَ، وَأَكْمَل اللهُ به الدِّين، ثم بعد ذلك توفَّاه اللَّه؛ قال تَعالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

ومن شَفَقَتِه ﷺ بأُمتِه أنَّه أَوْصَاهم بعد مَوْتِه ولم يَتْرُكْهُم، وإنَّما أَوْصَاهم بِمَا يَقُودُهُم إلى الجنَّة، وهذا من نُصْحِه عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ حيًّا وميّتًا.

وقوله ﷺ: « **وأنا تاركٌ فِيكُم ثَقَلَينِ** » ثَقَلين مَثْنَى: ثَقَل، وَالْمُرَاد: الْقُرْآن الْكَرِيم والسُّنة النَّبَوِيَّة، وسمَّي الْقُرْآنَ ثقلًا وكذا السُّنةَ لأنَّه يَثقُلُ الْعَمَلُ بِهِمَا على أَهْلِ الْكَسَلِ والخُمول، وَقِيل: سُمِّيا ثَقَلين لعِظَمِهما وَكَبِيرِ شَأْنِهِمَا.

وَقَوْله: « **وأوَّلهما كتابُ اللهِ فيه الْهُدَى والنُّور** » وَتَدْخُلُ فيه السُّنَّةُ فهي من كتابِ اللهِ ﷻ وهي الْوَحْيُ الثَّانِي، فَالْوَصِيَّةُ بِكِتَابِ اللهِ وصيَّةٌ بالسُّنةِ أيضًا، لأنَّ اللهَ تعالى يَقُول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧]، فالسُّنةُ من عندِ اللهِ ﷻ، وهي وحيٌ أَوْحَاه اللهُ إلى

رَسُولِه ﷺ، وقد أَثْنَى ﷺ على كِتَابِ اللهِ ورغَّبَ في الْعَمَلِ بِه؛ لأَنَّه هو طَرِيقُ الْهِدَايَةِ وهو النُّورُ الْمُبِينُ وهو الرُّوح، وهو الحقُّ وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيم.

وقوله ﷺ: « **وأهلُ بَيْتِي** » فقد أَوْصَى عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ بِأَهْلِ بَيْتِه، وَأَهلُ بَيْتِه ﷺ: هُم قَرَابَتُه وَزَوْجَاتُه، قال تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وفي خِطَابِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ قال تَعَالَى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٢- ٣٣]، يَعْنِي: الْبَثْنَ في بيوتِكنَّ ولا تُكْثِرنَ الخروجَ، فهذا فيه أنَّ الأَفْضَلَ لِلْمَرْأَةِ أن تَبْقَى في بَيْتِهَا ولا تَخْرُجُ إلَّا لما لا بدَّ لَهَا منه؛ لأنَّ اللهَ أَمَرَ نساءَ الرَّسولِ ﷺ وهنَّ أَطْهرُ نساءِ الْعَالَمِين بِالْبَقَاءِ في الْبُيُوت؛ ودُعاةُ السُّفورِ وَالِانْحِلَالِ يَقُولُون: إن الْمَرْأَةَ مَحْجُوبَةٌ ومسجونةٌ بين الْجُدْرَان، لا يَدْرُون أنَّ هذه كَرَامَةٌ وحفظٌ لَهَا؛ ثم قال تَعَالَى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] فدلَّ على أنَّ نساءَ النبيِّ ﷺ من أَهْلِ الْبَيْت.

وكذلك قرابتهُ - وهم بَنُو عمِّه من الْمُؤْمِنِين، بَنِي الْعَبَّاس وَبني أَبِي طَالِب: عليّ وَجَعْفَر وَعَقِيل وَأَبْنَاؤُهم وَالْحَسَن والحسين ابْنِي عليّ - هَؤُلَاء هُم أَهْلُ بَيْتِ الرَّسولِ ﷺ، فكلُّ من تَحرُم عَلَيْه الصَّدقةُ هُم أَهْلُ بَيْتِ الرَّسُولِ ﷺ، أَوْصَى بِهِم عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ بِالْإِحْسَانِ إليهم ومحبَّتِهم وَمَعْرِفَةِ قَدْرِهم وعدمِ تَنقُّصِهِم، لأنَّ الْإِحْسَان إليهم وَتَوْقِيرُهُم توقيرٌ للرَّسول ﷺ، والنَّقص من قدْرهم إنَّما هو تنقُّص لِلنَّبِيّ عَلَيْه الصَّلاة والسَّلام، وَإِيذَاؤُهُم إيذاءٌ له ﷺ؛ قال ﷺ: «**يَا أَيُّها النَّاس، من آذَى العبّاسَ فقد آذَانِي، إِنَّما عَمُّ الرَّجلِ صِنْوُ أبيهِ**»[(١)]. فلا شكَّ أنَّ آلَ الْبَيْتِ الطَّيِّبين الصَّالِحِين لهم فضلٌ وَشَرَفٌ وَكَرَامَةٌ من أَجَلِ رسولِ اللهِ ﷺ.

❁ **وفي هذا ردٌّ على طائفتين:**

الأُولَى: طَائِفَةُ الرَّوافضِ الَّذِين غلَوا في حبِّ آلِ الْبَيْت حَتَّى اعْتَقَدُوا أنّ خِلَافَةَ أَبِي بَكْر وَعمرَ وعثمان ﷺ بَاطِلَة، وأنَّ عليًّا هو أوْلى بِالْخِلَافَةِ بعد النبيِّ ﷺ، ولهذا فهم يُسمُّون عليًّا بالوَصِي؛ أَي: وصيّ النَّبِيِّ ﷺ، وهذا غُلوٌّ في أَهْلِ الْبَيْتِ وَإِهْدَارٌ لِفَضْلِ أَبِي بَكْر وَعمرَ وعثمان ﷺ وَإِبْطَالٌ لخلافتِهم، وأنهم ظَلَمةٌ مغتصبون لِلْخِلَافَةِ - بِزَعْمِهِم - بل يَقُولُون: هُم كَفَرةٌ وغير ذلك من الْأَوْصَافِ التي لا تَلِيقُ بِهِم رَضِي اللهُ تعالى عَنْهُم.

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٣٧٥٨)، وأحمد رقم (١٧٥١٦)، والحاكم رقم (٥٤٣٢).

وَقَد زَاد الأَمْرُ في حبِّهم لِآلِ الْبَيْتِ بِزَعْمِهِم أَنَّهُم عبدوهم من دون اللَّه، فَلَم يَقْتَصِر الأَمْرُ على اعْتِقَادِ أنَّ الْخِلَافَةَ لهم بعد الرَّسولِ ﷺ وإنَّما زَاد الأَمْرُ إلى أن عبدُوهم من دونِ اللَّه، وبَنَوا على قُبُورِهم الْمُشَاهَدَ وسمَّوها المقدَّسات وهم يحَجُّون إِلَيْهَا الْآن، هَؤُلَاء هُم الرَّافِضَةُ الَّذِين غلَوا في حُبِّ آلِ الْبَيْت وَخَرجُوا عن الْحَقِّ إلى الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ والضَّلال.

وَالثَّانِيَة: هي طَائِفَةُ النَّواصبِ الَّذِين يُبغضون آلَ الْبَيْتِ ويتنقصُّونهم ويحَطُّون من قَدْرِهم، فهم على طَرَفي نَقِيضٍ مع الرَّوافض، فَأُولَئِك يَغلُون وهؤلاء يُفرِّطون في حَقِّ أَهْلِ الْبَيْتِ ويتنقَّصون من قَدْرِهم ويذمُّونهم.

وأمَّا أَهْلُ السُّنةِ وَالْجَمَاعَةِ فهم توسَّطوا في أَهْلِ الْبَيْت، فَعَرَفُوا قَدْرَهم وأَحبُّوهم وَأَكْرَمُوهُم واحترموهم وَحَفِظُوا فِيهِم وصيَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ خلافًا للنواصبِ لَكِنَّهُم لم يَغلُوا فِيهِم مثل غُلُوِّ الرَّوافض، ولم يُهينوهم ويُفرطوا في حقِّهم كَتَفْرِيطِ النَّواصبِ الَّذِين ناصَبوا العَداوةَ لِأَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وقد أَوْصَى بِهِم الرَّسُولُ ﷺ؛ لِهَذَا يَجِبُ الْعَمَلُ بوصيَّتِه ﷺ، فمَن أَهْدَر حقَّهم وتَنقَّصَهم فقد خَالَفَ وصيَّته ﷺ.

وَقَوْله: وفي لفظٍ: «**كتابُ اللهِ هو حَبْلُ اللهِ الْمَتِين، من اتَّبعه كان على الْهُدَى، ومن تَركَه كان على الضّلالة**»: هذا تَفْسِيرٌ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فقد فسَّر الْحَدِيث أن الْمُرَاد بـ ﴿بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ هو الْقُرْآن، وَأَن من اعْتَصَم به فإنَّه يَهتدي ويُفلح ويَسعدُ في الدُّنيا وَالْآخِرَة.

قَال تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣- ١٢٦] يَعْنِي: الْقُرْآن ﴿فَنَسِيتَهَاۖ﴾ يَعْنِي: لم تَعْمَل بها، وليس معنى النِّسْيَان أنَّه نَسِيَ حِفْظُهَا، وإنَّما نَسِيَ العملَ بها ولو كان يَقْرَؤُهَا وَيَحْفَظُهَا ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٦- ١٢٧]، فَالْإِنْسَانُ لو عَمِل بِالْقُرْآنِ وَإِنْ لم يَكُنْ يَحفظُهُ فهو من أَهْلِ الْقُرْآنِ ومن المتمسِّكين بِه، فَلَيْسَت الْمَسْأَلَةُ مَسْأَلَةَ حِفْظِه وَحَسْب، وإنَّما الْمَسْأَلَة هي مَدَى التمسُّك بِالْقُرْآن وَالْعَمَل بِه، وَلَكِن يُقَال: إنَّ حِفظَ القرآنِ إنَّما هو وَسِيلَةٌ إلى الْعَمَلِ به لِلْوُصُولِ إلى الهُدى والابتعادِ عن الضَّلالة؛ لأنَّ فيه النَّجاةَ في الدُّنيا وَالْآخِرَة كما بيَّن ذلك ﷻ.

وَله[(١)] في حَدِيثِ جابرِ الطَّويلِ أنَّ النبيَّ ﷺ قال في خُطبةِ يوم عرفةَ: « وَقَد تَركْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا إِنِ اعتَصَمْتُم بِه، كِتابَ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُم قَائلُونَ؟ ». قَالُوا: نَشهدُ أنَّك قد بلَّغت وأدَّيتَ ونَصحتَ - قال بإصبَعِه السَّبابةِ يَرفعُها ويَنكُتُها إلى النّاسِ -: « اللَّهمَّ اشهَدْ ». ثَلاث مرّاتٍ. [٩٢].

---

[٩٢] هَذَا الْحَدِيثُ جَاء في سِيَاقِ خُطْبَتِه ﷺ يوم عَرَفَة في حجَّةِ الْوَدَاع، وَأنْزلَ اللهُ تعالى عَلَيْه قَولَه: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾ [المائدة: ٣]، فَخَطَب ﷺ قبلَ صَلَاةِ الظُّهرِ في وَادِي عُرَنَةَ وكان من جُمْلَة ما أَوْصَى به كتابُ اللَّه، فقال ﷺ: « **وَقَد تَرَكْت فِيكُم ما لَن تضلُّوا إن اعْتَصَمْتُم بِه، كِتاب الله** » وهو الْقُرْآنُ والسُّنةُ التي هي من كتابِ اللَّه؛ لأَنَّهَا وحيٌ منه ﷻ، فَمَن تمسَّك بِمَا جَاء به الرَّسولُ ﷺ من الْقُرْآنِ والسُّنةِ فإنَّه لَن يَضِلَّ في الدُّنيا ولن يَشْقَى في الْآخِرَة؛ لأَنَّه مَشَى على الطَّرِيقِ الصَّحِيح، وهو الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ والحَبْلُ الْمَتِين.

وحالُنا في هذه الدُّنْيَا في لُجَّةٍ وَغَرقٍ مَلِيء بالضَّلالاتِ وَالْأَهْوَاءِ والشَّهواتِ وليس لَنَا نَجَاةٌ إلَّا من خِلَال هذا الحَبْل، فَمَن تمسَّك به وعضَّ عَلَيْه بالنَّوَاجذِ نَجا من هذه الْأَخْطَارِ والضَّلالات، ومن أَطْلَقَ هذا الحَبْلَ هَلَك وَغَرَق في هذه اللُّجَجِ وَالْبِحَار.

ثُمّ إنَّه ﷺ بعدما أَوْصَى بِكِتَابِ اللهِ في حجَّةِ الْوَدَاع التي وادَعَ فِيهَا النَّاس، تُوفِّي بَعْدَهَا عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلام، فهذه الْخُطْبَةُ التي خَطَبَهَا ﷺ

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (١٢١٨).

هي آخِرُ خُطْبَةٍ خَطَبَهَا مع خُطْبَةِ غَدير خُمّ، وقد تشابَهت الْخُطْبَتَان، ففي كلَا الْخُطْبَتَيْن أَوْصَى ﷺ بالتمسُّك بِكِتَابِ اللهِ ﷻ، والسِّرُّ في تَكْرَارِ هذه الْوَصِيَّة - واللهُ أَعْلَم - أنَّه شَعَر ﷺ بقُربِ أَجلِه، فكرَّر الإيصاءَ بالتمسُّكِ بِكِتَابِ اللهِ ﷻ، وهذا من شَفَقَتِه ﷺ بأُمَّتِه ونُصحِه لَهَا.

وقوله ﷺ: «**وأنتم تُسألون عنِّي**» هذا كما في قولِه تَعَالَى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، فاللهُ ﷻ يسألُ الأُمَمَ يوم الْقِيَامَة: هل بلَّغَتْكُم رُسُلكم؟ فأهلُ الْإِيمَانِ يَقُولُون: نَعَم بلَّغتْنا، وأمّا أهلُ الْكُفْرِ فَيَقُولُون: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩] فَهُم يَجْحَدُون.

فَقوله ﷺ: «**وأنتم تُسالون عَنِّي**» يَعْنِي: تُسْأَلُون هل بلَّغتُكم؟ ولهذا فقد أَجَابَه الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِم: «**نَشْهَد أَنَّك قد بلَّغتَ وأدَّيتَ ونصحتَ**».

وفي قَوْلِه: «**قَال بِأُصْبُعِه السَّبَّابة يَرْفَعُهَا إلى السَّمَاء**» فيه إثْبَاتُ عُلوِّ اللهِ ﷻ، فَرفعَ أصبعَه ﷺ إشارةً إلى رَبِّه، ففي هذا إثْبَاتٌ وَاضِحٌ لِعُلُوِّه ﷻ على خَلْقِهَ، لأَنَّه ﷺ أَشَار إلَيْه في العُلوِّ، فهذا من أدلَّةِ عُلوِّ اللهِ على خَلْقِه.

وفي قَولِه: «**يَنكُتُها إلى النَّاس**» يَعْنِي: يُصوِّبها إلى الْحَاضِرين؛ ثم قَال: «**اللهمَّ اشهَدْ**» ثَلَاث مَرَّات؛ يَعْنِي: أَنِّي بلَّغتُهم وأنَّهم أقرُّوا بِالْبَلَاغ، فَاسْتُشْهدَ اللهُ عَلَيْهِم، لِئَلَّا يقولَ أَحَد: إنَّ الرَّسولَ ﷺ لم يُبلِّغ.

النَّهْيُ عن تَرَكِ الْعَمَلِ بِكِتَابِ اللهِ تعالى

وَعَنّ عليٍّ ﷺ قَال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَقُوْل: «أَلا إِنَّها ستكونُ فتنةٌ» قُلْت: ما المَخرَجُ منها يا رَسُولَ اللَّه؟ قَال: «كتابُ اللَّه، فيه نَبَأُ ما كان قَبلكُم، وخبرُ ما بَعدكُم، وحُكمْ ما بَينَكُم، وهو الفَصْلُ ليس بالهَزْلِ، ما تَركَه من جبَّارٍ قَصمَه اللَّه، ومن ابتَغى الهُدى من غيرِه أضلَّهُ اللَّه، وهو حَبْلُ اللهِ المتينُ، وهو الذِّكرُ الحَكيمُ، وهو الصِّراطُ المستقيمُ، هو الذي لا تَزيغُ به الأَهواءُ، ولا تَلتَبِسُ فيه الألسنةُ، ولا تَشبعُ منه العلماءُ، ولا يَخْلَق عن كَثرةِ الرَّدِّ، ولا تَنْقَضِي عجائبُه، هو الذي لم تَنْتَهِ الجِنُّ إذ سَمعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١- ٢]، **من قال به صَدقَ، ومن عَمِلَ به أُجِرَ، ومن حَكمَ به عَدَل، ومن دَعا إِلَيْه هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيمٍ». رَواه التِّرْمِذِيّ وَقَال: غَرِيب[1]. [٩٣]**

---

[٩٣] هَذَا الْحَدِيثُ من جُمْلَةِ الْأَحَادِيثِ التي سَاقَهَا الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في الْوَصِيَّةِ بِكِتَابِ اللهِ ﷻ؛ إذ سَبَقَه أَحَادِيثُ صَحِيحَةٌ في الْوَصِيَّةِ بِكِتَابِ اللهِ ﷻ وذا من جُمْلَتِهَا، وهذا قد رَوَاه التِّرْمِذِيّ وَغَيْرَه، وَلَكِن التِّرمِذِيّ قَال: هذا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لا نَعْرِفُه إلَّا من هذا الْوَجْه، وَإِسْنَادُه مَجْهُول، وهذا الْحَدِيثُ من أَقْسَامِ الآحَادِ على اعْتِبَارِ أَنَّ الْحَدِيثَ في الْأَصْلِ يَنْقَسِمُ إلى قسمين: حَدِيثٍ مُتَوَاتِر، وَآخَر آحَاد.

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢٩٠٦)، وأحمد رقم (٧٠٤)، وأبو يعلى رقم (٣٦٧).

وَالْحَدِيثُ الْمُتَوَاتِر: ما يَرْوِيه جَمَاعَةٌ عن جَمَاعَةٍ يتعذَّرُ تَوَاطُؤُهُم على الْكَذِبِ من بِدَايَةِ السَّندِ إلى نِهَايَتِه.

وَالْحَدِيثُ الْآحَاد: هو الذي لا يَبْلُغُ حدَّ التَّوَاتُر، فلا يَرْوِيه جماعةٌ عن جَمَاعَة، وهو ثَلَاثَةُ أَقْسَام: الْمَشْهُور، وَالْعَزِيز، وَالْغَرِيب.

وَالْمَشْهُورُ: ما رَوَاه ثَلَاثَةٌ فَأَكْثَر إلَّا أنَّه لم يَبْلُغْ حدَّ التَّوَاتُر.

وَالْعَزِيز: ما رَوَاه اثْنَان.

وَالْغَرِيب: ما تفرَّد به وَاحِد.

وَحَدِيثُ الْبَابِ من هذا الْقِسْم، فقد تفرَّد به وَاحِد، وَالْحَدِيثُ ضَعِيفٌ كما أَشَار إلى ذلك التِّرْمِذِيّ؛ لأَنَّه من رِوَايَةِ الْحَارِث الْأَعْوَر عن عليٍّ بن أَبِي طَالِب ﷺ، وَالْحَارِث الْأَعْوَر متكلَّم فِيْه، ورَفْعُه إلى الرَّسُولِ ﷺ خَطَأ، والصَّوابُ أن يكونَ من كَلَامِ عليٍّ ﷺ، فَيَكُون من الْمَوْقُوف، ومعناه صَحِيحٌ تؤيِّدُه الأدلَّةُ الْأُخْرَى.

قَولُه ﷺ: «**أَلَا إِنَّهَا سَتَكُون فتنةٌ**» هذا إِخْبَارٌ منه ﷺ عن وُقُوعِ الْفِتَن، وقد بيَّن ذلك في عَدَدٍ من الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَة، ومن ذلك قولُه ﷺ: «**مَنْ يَعِشْ مِنْكُم فَسَيَرَى اختلافًا كثيرًا**»[1]، وفي «مُسْلِم» وَغَيَّره[2]: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فتنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِم، يُصبحُ الرَّجلُ مؤمنًا ويُمسي كافرًا، أويُمسي مؤمنًا ويُصبحُ كافرًا، يَبِيع دينَه بعَرَضٍ من الدُّنيا**».

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٤٦٠٧)، والترمذي رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه رقم (٤٤)، وأحمد رقم (١٧١٤٢).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (١١٨).

فَقوله ﷺ: «**أَلَا إِنَّهَا سَتَكُون فتنةٌ**» صَحِيح جَاءَت به الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَة.

والفِتنَ: جَمَع فِتْنَة: وهي الِابْتِلَاءُ وَالِامْتِحَانُ وَالِاخْتِبَارُ لِيَظْهَر الصادقُ الإيمانِ المتمسِّكُ بِدَيْنِه من الْمُنَافِق، لأَنَّه عند الْفِتَنِ يتميَّزُ وَيَظْهَرُ الصَّادِق من الْمُنَافِق، كما قال تَعالَى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢- ٣] أي: لِيَعْلَم الَّذِين صَدَقُوا في إيمَانِهِم وَالْكَاذِبين في دَعْوَى الْإِيمَان، فَإِن الْكَاذِب وَالْمُنَافِق عند الْفِتَنِ يتخلَّى الْوَاحِد منهم عن دِينِه، وأمَّا الصَّادِقُ فإنَّه يتمسَّكُ بِدَيْنِه وَيَصْبِر على ما يُصيبُه، وهذه عَلَامَةُ الصِّدق، بِخِلَافِ الْمُنَافِقِ الذي يَنْسَلِخُ من دِينِه لِأَجْلِ أنْ يَسلَمَ في دُنياه، فَيَبيع آخِرتَه بدُنياه.

وَقَوْلُه: «**مَا المَخْرج منها**» يَعْنِي: ما هو طَرِيق السَّلَامَة من هذه الْفِتَن؟

قولُه: «**كتاب الله**» أَي: الْقُرْآن، وَيَشْمَل هذا السُّنَةَ النَّبَوِيَّةَ الشَّرِيفَة؛ لأَنَّهَا مستمَدةٌ من كتابِ اللهِ ﷻ، وقد قال ﷺ: «**عَلَيْكُم بسُنَّتي وسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِين**»[1] فَكِتَابُ اللهِ يَشْمَلُ الْقُرْآنَ والسُّنة.

وَقَوْله: «**فِيْه نَبأ ما كان قِبَلِكُم**» فَإِنَّ الْقُرْآنَ يَحْتَوِي أخبارَ الْأُمَم الْمَاضِيَة، وَالنَّبأ: هو الْخَبَرُ الْمُهِمّ، وَالْمُرادُ أَنَّ الْقُرْآنَ فيه قِصَّةُ الْأَنْبِيَاءِ

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٤٦٠٧)، والترمذي رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه رقم (٤٤)، وأحمد رقم (١٧١٤٢).

والمرسلين، فهو يُخْبِرُ عمَّا جَرَى وَوَقعَ في الْمَاضِي كأنه مشاهَد من أَجَلِ أن يكونَ النَّاسُ على بَيِّنَة، وَأَن هذا الابْتِلَاءَ وَالِامْتِحَانَ النَّاتِجَ عن الْفِتَن ليس جديدًا، وإنَّما هو شَيْءٌ جَرَى على الْأُمَمِ السَّابِقَة، فَمِنْهُم من هَلَك، ومنهم من نَجَا.

وَقَوْله: « **وَخَبَر ما بَعْدَكُم** » أَي: الْقُرْآن، وَيدْخُلُ في هذا السُّنَّةُ كَذَلِك؛ إذ كلٌّ منهمَا يُخبِرُ عن الْمُسْتَقْبَل، وما يُمْكِن أن يكونَ في آخِر الزَّمَان من الْفِتَن، وما يُمْكِن أن يكونَ بعد الْمَوْت من أَحْوَالِ أَهْلِ الْقُبُور وما بعد ذلك من الْبَعْثِ وَالنُّشُور، وما يُمْكِن من الْأَهْوَالِ في الْقِيَامَة، كلُّ هذا تحدَّثَ عَنْه الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَالسَّنَةُ النَّبَوِيَّةُ الشَّرِيفَةُ حَتَّى كأنه مُشَاهَد.

وَقَوْله: « **وحُكم ما بَيْنَكُم** » أَي: أنَّه في حَالِ اخْتِلَافِكُم فَإِنَّ الْقُرْآنَ يَحْكُمُ فِيمَا فيه تَخْتَلِفُون، فَيُعْطِي صاحبَ الْحَقِّ حَقَّه، وَيُنصِفُ المظلومَ من الظَّالِم، هذا في الْخُصُومَات، وأمَّا في الْمَقَالَات فإنَّه يُبَيِّنُ الْمَقَالَةَ الصَّحِيحَة من الْمَقَالَةِ الْخَاطِئَةِ لأَنَّه إذا ما رَجَعَ إلى الْقُرْآنِ فإنَّه يَفْصِلُ بين النَّاسِ في الْخُصُومَاتِ وَالْمَقَالَاتِ وفي كلِّ شَأْنٍ من شُئُونِ حَيَاتِهِم، قال تَعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النّساء: ٥٩]، فَالْقُرْآنُ يَحْكُمُ بين النَّاس، ولهذا أَنْزَلَه اللَّه، فَلَم يُنْزِلْه سُبْحَانَه لِلتِّلَاوَةِ والتغنِّي به وَتَجْوِيدِه وَتَحسِينِ الْأَصْوَاتِ بِقِرَاءَتِه فَقَط أو للتلذُّذِ بِسَمَاعِه، فَمَا أَنْزَلَه من أَجَلِ هذا فَقَط، بل أَنْزَلَه لِيَكُونَ حكمًا بين النَّاسِ فِيمَا يُمْكِن أن يَخْتَلِفُوا فيه وليكونَ الْمَرْجِعَ إِلَيْه.

وَقَوْله: «**وَهْو الْفَصْلُ ليس بِالْهَزْل**» وهذا كما في قولِه تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١٣- ١٤]؛ وَالْهَزْل ضِدّ الْفَصْل، فهو يَفْصِلُ بين الْحَقِّ وَالْبَاطِل، **وَالْهَزْل**: هو اللَّعِب، وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مُنَزَّهٌ عن أن تَكُونَ هذه صفتُه.

وَقَوْله: «**مَن تَرَكَه من جبارٍ قَصَمَه الله**» أَي: أَعْرَض عَنْه ولم يلْتَفِت إِلَيْه، فَإِنَّ اللهَ يقصمُه، قال تَعَالَى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

وَقَال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦].

وَقَوْله: «**ومن ابْتَغَى الْهُدَى من غَيْرِه أَضَلَّه الله**» فَمَن أَرَاد الْهُدَى من غيرِ كتابِ اللهِ فَلَن يَصِلَ إلى طَرِيقِ الْهُدَى وَالصَّوَاب، فَمَن يَرْجِعْ إلى الْمَنطِقِ وَالْجدَلِ وَعِلْم الْكَلَام وَيَسْتَدِلْ بِهَذِه الْأُمُورِ على أَنَّها قواعدُ عقليةٌ يقينيةٌ، وَأَنَّ كتابَ اللهِ دَلَالَتُه ظَنِّيَّة لأَنَّه دَلِيلٌ سَمْعِي وليس عقليًّا، فَمَن كانت هذه طَرِيقَتُه، وهي طَرِيقَةُ الْمُبْتَدِعَة الذين يَسْتَدِلُّون بِالْمَنْطِقِ وَعِلْم الْجَدَلِ وَالْكَلَام، فَلَن يَصِلَ إلى الْهُدَى وَالصَّوَاب، كَيْف لا وهم يُؤَوِّلون كَلَامَ اللهِ حَتَّى يَتَّفِقَ مع منطقِهم وهذه هي طَرِيقَةُ أَهْلِ الضَّلَال.

وأَمَّا أَهْلُ الْحَقِّ فَإِنَّهُم لا يَعْدِلُون عن الْقُرْآن؛ لأَنَّه هو دَلِيلُهم، ولا يَعْبَئُون بِقَوَاعِدِ الْمَنطِقِ وَعِلْم الْكَلَام ولا يَلْتَفِتُون إِلَيْهَا؛ لأنَّ اللهَ أَغْنَاهُم عَنْهَا، فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجمَاعَةِ يَسْتَدِلُّون بِالْقُرْآنِ في أَبْوَابِ الْعَقَائِدِ

وَالْمُعَامَلَاتِ وَالْأَحْكَام وفي كلِّ شَيْءٍ، ولا يَلْتَفِتُون إلى الْجَدَلِ كَأَهلِ الضَّلَال من الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالْأَشَاعِرَةِ الَّذِين يَسْتَدِلُّون بِقَوَاعِدِ الْمَنطِق، وَيَتْرُكُون أَدِلَّةَ الْقُرْآنِ بِحُجَّةِ أنَّها ظَنِّيَّة لا تُفِيدُ الْعِلْمَ الْيَقِينِيّ، وأمَّا عِلْمُ الْجَدَلِ وَقَوَاعِدُ الْمَنطِق فهي أَدِلَّةٌ عَقْلِيَّةٌ تُفِيدُ الْيَقِينَ عِنْدَهُم!

وَقَوْله: «**وَهو حَبْلُ اللهِ الْمَتِين**» ولهذا قال تَعالَى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عِمْرَان: ١٠٣]، وَحبل اللَّه: هو الْقُرْآنُ الذي أَنْزَلَه اللهُ لِهِدَايَةِ الْخَلْق، فَمَن تَمَسَّك بهذا الْحَبْلِ نَجا، ومن تَركَه هَلَك.

وَقَوْله: «**وَهو الذِّكْرُ الْحَكِيم**» هذا كما وصفه اللهُ تَعالَى، فقد وصفَه بِالذِّكْر، وَبِالْقُرْآنِ، وبالفرقان، وغير ذلك من أَسْمَاءِ الْقُرْآنِ وَأَوْصَافِه.

وَقَوْله: «**وَهو الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيم**» وهذا كما قال تَعالَى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]؛ وَالصِّرَاط: هو الْقُرْآن؛ فَمَن سَار على هَدَاه رشد، ومن ابْتَعد عَنْه ضَلّ.

وَقَوْله: «**هُو الذي لا تَزِيغ به الْأَهْوَاء**» فَمَن كان هَوَاه تابعًا لِلْقُرْآنِ فإنَّه لا يَزِيغ؛ بِمَعْنَى: لا يَضِلُّ ولا يَشْقَى، ومن كان هَوَاه مخالفًا له فإنَّه يَزِيغُ وَيَضِيع، وَيَضِلّ، قال تَعالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤] يَعْنِي: عن الْقُرْآن ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٣٦- ٣٧] فَهَؤُلَاء الَّذِين زَاغَت بِهِم الْأَهْوَاءُ يَحْسَبُون أَنَّهُم على الصَّوَابِ مُسْتَمِرُّون على ما هُم عَلَيْه من الضَّلَال، فلا يَحْصُلُ عِنْدَهُم شَكٌّ فِيمَا هُم عَلَيْه، ولا يَظُنُّون إِلَّا أَنَّهُم على الْحَقِّ وَالصَّوَاب!

وَقَوْله: «ولا تَلْتَبِس به الْأَلْسِنَة» أَي: لا تُخْطِئ به ولا تَخْتَلِط، فهو كما قال تَعَالَى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، يَقْرَؤُه الْعَرَبِيُّ بِوُضُوح وَسُهُولَة، حَتَّى إِنَّ الْأَعْجَمِيَّ الذي لا يَعْرِفُ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّة إذا تَلَا الْقُرْآنَ فإِنَّه يَقْرَؤُه كما هُو، لا يُغَيِّرُ منه حرفًا، وهو لا يَعْرِفُ كَلِمَةً وَاحِدَة من كَلِمَاتِ اللُّغَة الْعَرَبِيَّة، وهذا من إعْجَازِ الْقُرْآن؛ ولهذا قال تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وَقَوْلُه: «ولا تشْبع منه الْعُلَمَاء» في التَّفَقُّهِ في مَعَانِيه وَتَدَبُّرِه، فلا أحدَ يُحِيطُ بِمَا في الْقُرْآنِ من الْأَسْرَارِ وَالْأَحْكَام وَالْحِكَم مَهْمَا تَأَمَّل وَتُدْبِر، فَكُلُّ عَالِمٍ يَأْخُذُ منه بِقَدْرِ ما يَسْتَطِيع، فلا أَحَدَ اسْتَطَاع أن يُحِيطَ بِكُلِّ ما في الْقُرْآنِ الْكَرِيم من الْمَعَانِي وَالْأَسْرَار التي فِيْه، لأَنَّه بَحر، وَلَكِن كلٌّ يَأْخُذُ منه بِقَدْرِ ما أَعْطَاه اللهُ من الْفَهْم، وَيَبْقَى الْكَثِيرُ وَالْكَثِيرُ في هذا الْبَحْرِ الزَّاخِر، الْمَلِيءِ بِالْمَعَانِي وَالْأَسْرَارِ المتنزلةِ من لَدُن حَكِيم عَلِيم.

وَقَوْله: «ولا يَخْلق عن كَثْرَة الرَّدّ» لأنَّ من إعْجَازِ الْقُرْآنِ الْكَرِيم وَعَجَائِبِه أَنَّه لو كرَّر قارئُه قِرَاءَتَه فإِنَّه لا يَسْأَمُ من قِرَاءَتِه، ولو سَمِعَه السَّامِعُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ لَمَا سَئِم من سَمَاعِه، بِخِلَافِ الْكَلَام الآخَرِ الذي مَصْدَرُه الْبَشَر فإِنَّه لو كُرِّر لَمَلَّ منه الْقَارِئُ وَالسَّامِعُ على السَّوَاء، بِخِلَافِ كَلَامِ الْخَالِقِ الذي كُلَّمَا كُرِّر زَادَت الرَّغْبَةُ فِيْه، وَالتَّلَذُّذ بِقِرَاءَتِه وَسَمَاعِه، فإذا سَمِعَه السَّامِعُ أو قرأه الْقَارِئُ فإِنَّه يَشْعُر وَكَأَنَّه يَقْرَؤُه أو يَسْمَعُه لِأَوَّل مَرَّة، وهذا من إعْجَازِ كتابِ اللهِ ﷻ الذي أَحْكَم نَظْمَه وَأَتْقَن بَيَانَه.

وَقَوْله: « **ولا تَنْقَضِي عَجَائِبُه** » وهذا شَبِيهٌ بِقَوْلِه: « **ولا تشْبع منه الْعُلَمَاء** » فعجائبُه كَثِيرَةٌ من جوَانِبَ عَدِيدَة، فَمِنْهَا ما يَتَعَلَّقُ بِالْقَصَص، وفي الْأَخْبَارِ الْمُسْتَقْبَلَة، ومنها ما يَتَعَلَّقُ في الْفِقْهِ الذي فِيْه، ومنها ما يَتَعَلَّقُ بتراكيبه وَأَلْفَاظِه وَأَسَالِيبِه وَبَلاغَتِه وَفَصَاحَتِه، فَكُلَّمَا استعرضَ الْقَارِئُ قِرَاءَتَه تبدَّتْ له عَجَائِبُه في جَمَالِ لُغَتِه، وفي سَرْدِ قَصصِه، وفي أَسَالِيبِ أَوَامِره وَنَوَاهِيه، وفي عَرْضِ أَخْبَارِه وغير ذلك كَثِير مِمَّا هو كَامِنٌ بين دَفَّتَيْه.

وَقَوْله: « **وَهْو الذي لم تَنْتَه الْجِنّ إذ سَمِعْته حَتَّى قَالُوا**: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١- ٢] ».

وفي هذا قال اللهُ ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩- ٣٢].

وَقَال في مَوْضِعٍ آخر: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ – ٢].

وَالْجِنُّ خَلْقٌ من خَلقِ اللهِ من عَالِمِ الْغَيْبِ مُكَلَّفُون وَمَأْمُورُون وَمَنْهِيُّون مثل الْإِنْسَان، وَالنَّبِيُّ ﷺ بُعِث إلى الجِنِّ وَالإِنس،

وقد وَفَدَ على النَّبِيِّ ﷺ وَفْدٌ من الْجِنِّ وطلبوا منه موعدًا فَأَعْطَاهُم الْمَوْعِدَ فَكَلَّمُوه ﷺ وَكَلَّمَهُم، وقد أثنتْ الْجِنُّ على هذا الْقُرْآنِ وَتَعَجَّبْت منه، وَدَعَتْ قَوْمَهَا إلى الْإِيمَانِ بِه، وهذا من عَجَائِبِ هذا الْقُرْآن.

وَقَوْله: « **مَن قال به صَدَق** » أَي: بِالْقُرْآنِ فقد صَدَق؛ لأنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ مَعْصُومٌ من الْخَطَأ، فَمَن اتَّبَعَه وقال بِمَا يَدُلُّ عَلَيْه فإنَّه يَصْدُقُ في قولِه وَاجْتِهَادِه وَحُكْمِه.

وَقَوْله: « **ومن عَمِل به أُجِر** » أَي: من امْتَثَلَ بِمَا جَاء به الْقُرْآنُ الْكَرِيم من الطَّاعَاتِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَإِن اللهَ يُثِيبُه وَيَكْتُبُ له الْأَجْرَ الْعَظِيم.

وَقَوْله: « **ومن حَكَم به عَدَل** » أَي: من جَعَلَه مرجعًا لِلْحُكْم في الْخُصُومَاتِ بين النَّاسِ وَالْمُنَازَعَاتِ فإنَّه يَعْدِل، فَيُعْطِي صَاحِبَ الْحَقِّ حَقَّه، وَيُمْنَع الظَّالِم عن ظُلْمِه، وهذا هو الْعَدْل، وهذا إنَّما يكونُ في الْقُرْآنِ الْكَرِيم، قال تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وَقَال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ صدقًا في أَخْبَارِه، وعدلًا في أَحْكَامِه ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وَقَوْله: « **ومن دَعَا إلَيْه هَدْي إلى صِرَاط مُسْتَقِيم** » فَمَن دَعَا إلى كتابِ اللهِ فإنَّه يَدْعُو إلى هُدًى، وأمَّا من دَعَا إلى غَيْرِه فإنَّه يَدْعُو إلى ضَلَال، وماذا بعد الْحَقِّ إلَّا الضلالُ!

هَذِه هي أَوْصَافُ الْقُرْآنِ الْكَرِيم، وهي أَوْصَافٌ صَحِيحَة، وَإِن كان الْحَدِيثُ لم يَثْبُتْ عن النَّبِيِّ ﷺ، لَكِنَّ مَعَانِيه صَحِيحَةٌ مؤيَّدةٌ بِالْأَدِلَّةِ الثَّابِتَةِ عَنْه ﷺ، وموافِقة لما عَلَيْه الْوَاقِعُ قديمًا وحديثًا وإلى أن يَرِثَ اللهُ الأَرْضَ ومن عَلَيْهَا.

وعن أَبِي الدَّرْدَاء رضي الله عنه مرفوعًا: «مَا أَحلَّ اللهُ في كِتَابِه فَهوَ حَلَالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْه فَهوَ عَافِيَةٌ، فَاقْبَلُوا مِنَ اللهِ عافِيَتَهُ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَكُنْ لِيَنْسَى شَيْئًا».

ثم تَلَا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]. رَوَاه الْبَزَّار وَابْن أَبِي حَاتِم وَالطَّبَرَانِيّ[١]. [٩٤]

---

[٩٤] وهذا كما في الْحَدِيثِ الصَّحِيح: «**إن الْحَلَالَ بيِّن، وَإِنَّ الْحَرَامَ بيِّنٌ وَبَيْنهمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ من النَّاس**»[٢]، وهذا الْحَدِيثُ كَذَلِك، فِيْه: أنَّ ما أَحَلَّه اللهُ فهو الْحَلَال، وما حَرَّمَه فهو الْحَرَام، وما سَكَتَ عَنْه فهو عَفْوٌ؛ لأنَّ اللهَ لم يَسْكُتْ عَنْه نسيانًا، وإنَّما سَكَت عَنْه لأَنَّه عَفَا عَنْه رَحْمَةً بِعِبَادِه.

فَالْوَاجِبُ من الْإِنْسَانِ أن يَقْبَلَ من اللهِ عَافِيَته وَيُحِلُّ الْحَلَالَ وَيُحْرِّمُ الْحَرَام، وما سَكَت عَنْه فهو معفوٌّ عَنْه، فلا يَسْأَلُ عَنْه؛ لأنَّ الْحَلَال بيِّنٌ وَالْحَرَامَ بَيِّن، وفي الرُّجُوعِ إلى كتابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِه يَتَبَيَّن منهمَا الْحَلَالُ وَالْحَرَام.

---

(١) أخرجه: البزار رقم (٤٠٨٧)، والدارقطني رقم (١٢)، والحاكم رقم (٣٤١٩).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (٥٢)، ومسلم رقم (١٥٩٩).

بَيَانُ أَنَّ الصِّرَاطَ هو الإِسلام

وعن ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَال: «ضَرَبَ اللهُ مَثلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنبَتَي الصِّرَاطِ سُوُرَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وعِنْد رَأْسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُوْل: اسْتَقِيمُوا عَلَى الصِّرَاطِ وَلا تعْوَجُّوا. وَفَوْق ذَلكَ دَاعٍ يَدْعُو؛ كَلَّمَا هَمَّ عَبْدٌ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِن تِلْك الْأَبْوَاب قَال: وَيْحَك لا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّك إِنْ فَتَحْتَه تَلِجْهُ!». ثم فَسَّرَه فَأَخْبَرَ أَنَّ الصِّرَاطَ هو الإسلام، وَأَن الْأَبْوَابَ الْمُفَتَّحَةَ مَحَارِمُ اللَّه، وَأَنَّ السُّتُورَ الْمُرْخَاة حُدُودُ اللَّه، وَأَن الدَّاعِيَ على رَأْسِ الصِّرَاطِ هو الْقُرْآن، وَأَن الدَّاعِيَ من فَوْقه هو وَاعِظُ اللهِ في قُلبِ كلِّ مُؤْمِن. رَوَاه رَزِين، وَرَوَّاه أَحْمَد وَالتِّرْمِذِيّ عن النَّوَّاس بن سَمْعَان بِنَحْوِه[1]. [٩٥]

---

[٩٥] **الصِّرَاط في اللُّغَة:** هو الطَّرِيق، وَالْمُرَاد به هُنَا: الإسلام، ولهذا قال تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فَالْإِسْلَامُ هو الطَّرِيقُ الْمَوْصِلُ إلى اللهِ تَعَالَى، فَمَن أَرَاد الْوُصُولَ إلى مَرْضَاةِ اللهِ وَجَنَّتِه لا بدَّ له من اتِّبَاعِ النَّهْجِ المُوصِلِ إِلَيْه وهو الإسلام الذي هو صِرَاطُ اللَّه.

وَلَكِن من حِكْمَةِ اللهِ تعالى أن جَعَلَ على جَنَبَتَيْ هذا الطَّرِيقِ أبوابًا يمينًا وشمالًا، وعلى هذه الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاة، وهذه الْأَبْوَابُ إِنَّما هي أَبْوَابُ الْفِتَنِ وَالشُّرُور، فَمَن فَتَحهَا وَوَلَج فِيهَا فقد خَرَج عن الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيم، وهذا كما في قولِه تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ

---

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢٨٥٩)، وأحمد رقم (١٧٦٣٤)، والحاكم رقم (٢٤٥).

خُطُورَة اتِّبَاع ما تَشَابَه من الْقُرْآن

وعن عَائِشَةَ ﵂ قالت: تَلَا رَسُولُ الله ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] **فَقَرَأَ إلى قَوله:** ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عِمْرَان: ٧] **قالت: قَال: «فَإِذَا رَأَيْتُم الَّذِي يَتَّبِعُون مَا تَشَابَه مِنْه فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوُهُم». مُتَّفق عَلَيْه**(١). **[٩٦]**

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فهناك صِرَاطٌ مُسْتَقِيم، وهناك سُبُلٌ كَثِيرَةٌ وهي الْأَبْوَابُ التي على جَنْبَتَي هذا الصِّرَاط.

فَالْوَاجِبُ هو السَّيْرُ على الصِّرَاطِ وَعدِمُ الِالْتِفَاتِ إلى هذه الْأَبْوَاب، ولا كشف السُّتُور التي عَلَيْهَا، وَالسُّتُور هُنَا هي الْحُدُود التي جَعَلَهَا الله لِرَدْعِ من يُرِيد أنْ يَدْخُلَ في هذه الْأَبْوَاب؛ ولهذا قال في تَفْسِيرِه لِهَذَا الْحَدِيث: «**وَأَن السُّتُورَ الْمُرْخَاةَ حُدُودُ اللَّه، وَأَنَّ الدَّاعِيَ على رَأْسِ الصِّرَاطِ هو الْقُرْآن، وَأَن الدَّاعِيَ من فَوْقه هو وَاعِظُ الله في قلبِ كلِّ مُؤْمِن**» وَكُلُّ ذلك وَاضِحٌ مَعْنَاه.

[٩٦] **هَذَا حَدِيثٌ عَظِيم، فِيْه:** أنَّ اللهَ ﷻ أَنْزَل الْكِتَابَ وَجَعل منه آياتٍ محكماتٍ وأُخَرَ متشابهاتٍ؛ ولهذا قال تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران: ٧] أَي: انْحِرَاف ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] على قِرَاءَة من يُعْطَف قَوْلَه: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] على قَولَه: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٤٢٧٣)، ومسلم رقم (٢٦٦٥).

وعلى قِرَاءَة أُخْرَى في الْوُقُوف على قوله ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] وَقَوْله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] يكون ابْتِدَاء كَلَام.

ومعنى الْآيَة الْكَرِيمَة وَاضِح؛ حيث إنَّ الْقُرْآنَ فيه آياتٌ مُحْكَمَاتٌ وَآيَاتٌ مُتَشَابِهَات.

والمحكمات: هي التي لا يَحْتَاجُ في تَفْسِيرِهَا إلى غَيْرِهَا، لأَنَّهَا وَاضِحَةٌ في مَعَانِيهَا.

وأمَّا الْمُتَشَابِهَات: فهي الْآيَاتُ التي يَحْتَاجُ في تَفْسِيرِهَا إلى إرْجَاعِهَا إلى غَيْرِهَا مثل الْمُطْلَق، وَالْمُجْمَل، وَالْمَنْسُوخ.؛ فهذه الْأَنْوَاعُ وَنَحْوهَا لا يُسْتَدَلُّ بها حَتَّى يراجَعَ الْقِسْم الآخَر من الْآيَات الْمُحْكَمَة، فَيُقَيَّدَ الْمُطْلَق، وَيُبَيَّنَ الْمُجْمَل، وَيُنْسَخ الْمَنْسُوخ وَيُعْمَل بِالنَّاسِخ، وهذه طَرِيقَةُ الرَّاسِخِين في الْعِلْمِ أَنَّهُم يَرُدُّون الْمُتَشَابِهَ إلى الْمُحْكَم، وَيَجْمَعُون بين الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ بَعْضُهَا مع بَعْض؛ لأنَّ كَلَامَ اللهِ يُفَسِّرُ بَعْضُه بعضًا، وكذلك كَلَامُ الرَّسُولِ ﷺ يُفَسِّرُ بَعْضُه بعضًا.

وأمَّا أَهْلُ الزَّيْغِ فعلى الْعَكْس، فَيَأْخُذُون الْمُتَشَابِهَ وَيَتْرُكُون الْمُحْكَمَ وَيَسْتَدِلُّون بِه.

فَبِالنَّظَرِ إلى قولِه تَعَالَى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، فَإِنَّهَا تَدُلُّ على أن الْقَاتِلَ كافرٌ خَارِجٌ من الْمِلَّةِ وَخَالِد في النَّار، وَلَكِن بِرَدِّهَا إلى قولِه تَعَالَى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ [الحُجرات: ٩] فَإِنَّهَا تُفَسِّرُهَا وَتَدُلُّ على أَنَّ الْقَتْلَ ليس بِكُفْرٍ

أَكْبَر، ولكنه كُفرٌ أَصْغَر؛ بِدَلِيلِ قولِه ﷺ: «**لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كفارًا يَضْرِب بَعْضُكُم رِقَابَ بَعْض**»[(١)]؛ فَقتلُ الْمُؤْمِنِ متعمدًا كفر، ولكنه كفرٌ أَصْغَرُ وليس بِكُفْرٍ مُخْرجٌ من الْمِلَّة، بِدَلِيلِ قولِه تَعالَى: إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بين أَخَوَيْكُمْ﴾ [الْحُجُرات: ١٠]، فَالْخِطَابُ في هذا إلى الْمُؤْمِنِين بأنَّ يُصلِحوا بين إِخْوَتِهِم من الْمُؤْمِنِين، فَدَلَّ على أنَّ الْقَاتِلَ لا يَكْفُر، وإِنَّما هو فَاعِلٌ لَكَبِيرَةٍ من كَبَائِر الذُّنُوب.

وفي قولِه تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، فلو أَخَذْنَا بِهَذِه الآيَة لَقُلْنَا: إن عدَّةَ الْوَفَاة سَنَة، لأنَّ هذا صَرِيح الْآيَة، وَلَكِن بإرجاعها إلى قوله تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، فَتكُون هذه الْآيَة نَاسِخَةٌ لِلْآيَة الْأُخْرَى، فَنُسِخَت الْعِدَّةُ من سَنَةٍ إلى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَعَشرَة أياما؛ فَالْمَنْسُوخُ لا يُعْمَلُ به، وإِنَّما يُعْمَلُ بِالنَّاسِخ.

وأَمَّا أَهْلُ الزَّيْغ فَيَأْخُذُون بِالْمَنْسُوخ بِحُجَّةِ أَنَّها آيَةٌ من كتابِ اللهِ وأَنَّه لا مَانِعَ من الِاسْتِدْلَالِ بِكِتَابِ اللَّه! فَأَهْلُ الزَّيْغِ يَأْخُذُون طرفًا من الْأَدِلَّةِ وَيَتْرُكُون الطَّرَفَ الْآخَر.

وَالْخَوَارِجُ وهم من أَهْلُ الزَّيْغ، قد أَخَذُوا آيَاتِ الْوَعِيدِ وكفَّروا الْمُسْلِمِين، وَتركُوا آيَاتِ الْوَعْد، ولو جَمَعُوا بَيْنَهُمَا كما فعل أَهْلُ السُّنَّةِ لَاهْتَدْوا.

وَالْمُرْجِئَةُ على الْعَكْس؛ فقد أَخَذُوا آيَاتِ الْوَعْدِ وَالرَّجَاء، وَتركُوا

(١) أخرجه: البخاري رقم (١٢١)، ومسلم رقم (٦٦).

آيَاتِ الْوَعِيد فَضَلُّوا؛ فَالْخَوَارِجُ ضَلُّوا لأَنَّهُم أَخَذُوا بِطَرَف، وهؤلاء ضَلُّوا لأَنَّهُم أَخَذُوا بِطَرَفٍ من النُّصُوص.

وأمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فَجَمَعُوا بين النُّصُوصِ وقالوا: كلٌّ من عند رَبِّنَا، ولهذا قال تَعَالَى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧] هذه هي طَرِيقَةُ الرَّاسِخِين في الْعِلْم، وأمَّا أَهْلُ الزيغ فَإِنَّهُم يَأْخُذُون طرفًا من الْأَدِلَّة، وَيَتْرُكُون الطَّرَفَ الآخَر الذي يُقَيِّدُه وَيُفَسِّرُه، أو يَنْسَخُه أو يُبَيِّن مُجْمَلَه؛ ولذلك فإنَّه لا يَجُوزُ الِاسْتِدْلَالُ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيم إلَّا لِمَن بَلَغ في الْعِلْم مَرتَبَةً تؤهلُه لِلِاسْتِدْلَال، وهم الْمُجْتَهِدُون، أمَّا الْمُبْتَدِئُ في طَلَبِ الْعِلْم فهذا لا يَجُوز له أن يستقلَّ بِالْفَهْمِ وَالرَّأْي أو أن يُصْدِرَ الأَحْكَام؛ لأَنَّه لم يَتَمَكَّنْ من طَرِيقَةِ الِاسْتِدْلَالِ وَفَهْمِ الْأَدِلَّةِ وَرَبْطِ بَعْضِهَا بِبَعْض.

فَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧] الْأُمُّ: هي التي يَرْجِعُ إِلَيْهَا الشَّيْء، فالمتشابهاتُ تُرَدُّ إلى الْأُمِّ، وهي الْمُحْكَمَاتُ حَتَّى تُفَسِّرَهَا ولا تُقْطَع عَنْهَا.

وقوله ﷺ: «فَاحْذَرُوهُم» أَي: لا تَغْتَرُّوا بِهِم؛ لأَنَّهُم أَهْلُ زَيْغ، وَيَضِلُّون عن سَبِيلِ اللَّه، وما أَكْثَرُهُم الْيَوْم بِسَبَبِ الْجَهْلِ وَعدمِ التَّمَكُّنِ من الْعِلْم، وَبَعْضِهِم قد يكونُ عالمًا ولكنه صَاحِبُ هَوَى فَيَأْخُذُ الْمُتَشَابِهَ لِأَجْلِ التَّلْبِيسِ على النَّاس.

وعن عَبْدِ اللهِ بن مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَال: خَطَّ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ خطًّا بِيَدِه ثم قَال: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ» ثم خَطَّ خطًّا عن يَمِينِه وعن شِمَالِه، وَقَال: «هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْه». وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣] **رَوَاه أَحْمَد وَالدَّارِمِيّ وَالنَّسَائِيّ[1]. [٩٧]**

---

[٩٧] حَدِيثُ ابنِ مَسْعُود هذا مثل حَدِيثِه الذي سَلَف قبل حَدِيثِ عَائِشَةَ السَّابِقِ تمامًا، وفِيه: أن النَّبِيَّ ﷺ أَرَاد أن يُفَسِّرَ هذه الْآيَة ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فَأَرَاد ﷺ أن يُفَسِّرَهَا بِضَرْبِ الْمَثْلِ الذي يُوَضِّحُهَا، وذلك أَنَّه خَطَّ خطًّا مستقيمًا على الأَرْض، ليس فيه انْحِرَاف، ثم خَطَّ خطوطًا أُخْرَى عن يَمِينِه وعن شِمَالِه، فقال عن الْخَطِّ الْمُسْتَقِيم: «**هَذَا سَبِيل الله**» يَعْنِي: صِرَاطِه الْمُسْتَقِيم، وقال عن الْخُطُوطِ التي عن يَمِينِه وَشِمَالِه: «**وهذه سبلٌ على كلِّ سَبِيلٍ منها شيطانٌ يَدْعُو إِلَيْه**»، وهي الانحرافاتُ التي تُضِلُّ النَّاس، انحرافات في كلٍّ منها مَذَاهِبُ فَاسِدَةٌ ونِحلٌ بَاطِلَة، وأقوالٌ كَاذِبَة، هذه هي السُّبُل.

وَصِرَاطُ اللهِ واحدٌ، وَالسُّبَلُ كَثِيرَة؛ لأنَّ أَهْوَاءَ النَّاسِ وَأَقْوَالَهِم كَثِيرَة، فإذا ما اتَّبَع أحدٌ أَقْوَالَهُم ضَاع وَضَلّ، ومن اتَّبَع صِرَاطَ اللهِ اهْتَدَى دون أن يَحْصُلَ عِنْدَه لَبْسٌ؛ لأَنَّه ليس عِنْدَه إِلَّا طَرِيق وَاحِد، فَمَن

---

(١) أخرجه: النسائي في (الكبرى) رقم (١١١٧٤)، والدارمي رقم (٢٠٢)، وأحمد رقم (٤١٤٢).

يَسِيرُ في طَرِيقٍ وَاحِدٍ لا بدَّ أنَّه سيستريح، ومن أَرَاد السَّيْرَ في طَرُقٍ كَثِيرَةٍ فإنَّه لا يَدْرِي في أيِّ طَرِيقٍ يكونُ الصَّوَاب، وستلتبِسُ عَلَيْه الطَّرِيقُ وبالتالي سيضيعُ بين هذه الطُّرُق، فَمن رَحْمَةِ اللهِ وَفَضْلِه على خَلْقِه أن وَحَّدَ لهم الطَّرِيق فَقَال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فَمَن انْحَرَف عن الصِّرَاطِ هَلَك في هذه السُّبُلِ وَالطُّرُقِ المليئةِ بِالْمَقَالَات، وَالْمَذَاهِبِ والمتاهات؛ وَلِأَجْلِ تلاشِي هذه الانحرافات -رحمةً بِالْخَلْق- جَعَلَ اللهُ لهم الْقُرْآنَ وَالسَّنَة، فإذا ما اشْتَبَهَت الْأُمُورُ وَالْمَذَاهِبُ عَلَيْهِم رَجَعُوا إليهما؛ ولهذا قال سُبْحَانَه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

النَّهْيُ عن الْأَخْذِ من الْكُتُبِ السَّابِقَة

وعن أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَال: كان ناسٌ من أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَكْتُبُون من التَّوْرَاة، فَذَكَرُوا ذلك لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَال: « إِنَّ أَحْمَقَ الحُمْقِ وَأَضَلَّ الضَّلَالَةِ قومٌ رَغِبُوا عَمَّا جَاءَ بِه نَبِيُّهم إِلَى نَبِيٍّ غيرِ نَبِيِّهم، وإلى أُمَّةٍ غيرِ أُمَّتِهِم ». ثم أَنْزَلَ اللهُ ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥١]. **رَوَاه الْإِسْمَاعِيلِيّ في « مُعْجَمِه » وَابْن مَرْدُوَيْه (١). [٩٨]**

---

[٩٨] فِي هذا الْحَدِيثِ النَّهْيُ عن أَخْذِ شَيْءٍ من التَّوْرَاةِ أو الْإِنْجِيلِ وَالْكُتُبِ السَّابِقَة؛ لأَنَّهَا نُسِخَت بِالْقُرْآنِ الْكَرِيم، وَالشَّيْءُ إذا نُسِخَ فإِنَّه لا يُعمَل بِه، وإِنَّما يُعْمَلُ بِالنَّاسِخ، وهذه الشَّرَائِعُ إِنَّما كانت لِمَن قَبْلِنَا وقد انْتَهَت بِشَرِيعَتِنَا.

فَشَرِيعَتُنَا هي الْحَاكِمَةُ وهي المهيمنة، وَرَسُولُنَا ﷺ هو خَاتَمُ الرُّسُلِ وَتَجِبُ طَاعَتُه على كلِّ مخلوقٍ من الْجِنِّ وَالْإِنْس، ومن الْيَهُودِ والنصارى، ومن كلِّ أَصْحَابِ الْمِلَلِ وَالنِّحَل.

فَلا يَجُوز لِأَحَدٍ أن يقولَ مثلًا: أَنَا على شَرِيعَةِ مُوسَى، أَو: على دِينِ الْمَسِيح؛ ولهذا قال ﷺ: « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه، لو أن مُوسَى كان حيًّا ما وَسِعَهُ إِلَّا أن يَتْبَعُنِي** » (٢)، فَكَيْف بِغَيْر مُوسَى!

---

(١) أخرجه: الإسماعيلي في (معجمه) رقم (٣٨٤)، والدارمي رقم (٤٧٨).

(٢) أخرجه: أحمد رقم (١٥١٥٦)، وأبو يعلى رقم (٢١٣٥).

وَاللَّهُ ﷻ يَقُولُ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ٨١] يَعْنِي: محمد ﷺ ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ [آل عمران: ٨١] أَي: عَهْدِي «لَقَد أَخَذ اللهُ تعالى الْمِيثَاقَ على الرُّسُلِ أَنَّه إذا بَعَث الرَّسُولَ مُحَمَّدًا ﷺ أن يَتَّبِعُوه، فإذا كان الرُّسُل يَجِبُ عَلَيْهِم اتِّبَاعُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ فَكَيْف بِغَيْرِهِم؟!»

فَهَذَا فيه ردٌّ على الَّذِين يَقُولُون الْآن: إنَّ الْيَهُودَ على دِين، والنصارى على دِين، وَالْمُسْلِمَيْن على دِين، وَأَن كلًّا من الْيَهُودِ والنصارى إنَّما يَقْصِدُون الْوُصُولَ إلى اللهِ ﷻ، وَأَن كلًّا من هَذَيْن الْفَرِيقَيْن تابعٌ لرسولٍ من الرُّسُل! كَيْف يَسْتَقِيمُ هذا مع أنَّه بعد بَعْثَةِ الرَّسُولِ ﷺ لا أَحَد يَتْبَعُ إلَّا محمدًا ﷺ.

قَال ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»(١)، فَبَعْد بَعْثَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّد ﷺ لا يَنْبَغِي لدينٍ أو مِلَّةٍ أن تَكُونَ إلَّا مِلَّة الإسلام، وتلك الشَّرَائِعُ السَّابِقَةُ قد انْتَهَت ولا يَجُوزُ الْعَمَلُ بها بعد بَعَثَتِه ﷺ.

وقوله تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١] فَالْكِتَابُ الذي هو الْقُرْآنُ كافٍ، فلا يَنْبَغِي الذَّهَابُ إلى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ أو إلى الزَّبور، كما لا يَجُوزُ الِالْتِفَاتُ إلى غيرِ الْقُرْآنِ من

(١) أخرجه: مسلم رقم (١٥٣).

الْكُتُبِ السَّابِقَة، لأَنَّهَا كتبٌ قد انْتَهَى الْعَمَلُ بها، فالذي أَنْزَلَهَا هو الله ﷻ وهو الذي أَنْهَى الْعَمَلَ بها وَأَحَال على الْقُرْآن، فَلَم يَبْقَ بعد بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ كتابٌ ولا دِينٌ إِلَّا الْقُرْآن والإسلام.

وقوله تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١] فَأَمَّا الذي لا يُؤْمِنُ بِحُجَّةِ أَنَّ جَمِيعَ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ صَحِيحَةٌ وأنها كُلُّهَا من عندِ اللَّه، وَأَنَّ جَمِيعَ الْأَدْيَانِ بَاقِيَةٌ ولم تُنْسَخْ فهو كافرٌ وليس بِمُؤْمِن، ولهذا قال تَعَالَى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وَهَذِه الْمَقَالَةُ التي يرددونها الْآن بِأَنَّه لا يَجُوزُ التحجُّر، وَأَن الْيَهُودَ على حَقٍّ والنصارى كَذَلِك، وأنهم أَصْحَابُ دِينٍ فلا مَانِعَ من التَّعَاوُنِ والتآخي، ومن إِقَامَةِ المؤتمراتِ والندواتِ لِهَذَا الشَّأْن؛ كلُّ هذا إِنَّما هو من أَجْلِ أن يَصْرِفُوا الْمُسْلِمين عن دِينِهِم؛ ولهذا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِين أن يَتَنَبَّهُوا لِهَذِه الْمَكِيدَة!

وعن عَبْدِ اللهِ بنِ ثَابِتٍ بنِ الْحَارِث الْأَنْصَارِيِّ ﵁ قَال: دَخَل عُمَرُ ﵁ على النَّبِيِّ ﷺ بكتابٍ فيه مواضعُ من التَّوْرَاةِ فَقَال: هذه أصبتُها مع رَجُل من أَهْلِ الْكِتَاب أعرِضُها عَلَيْك، فَتَغَيَّر وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ تغيُّرًا شديدًا لم أَر مثله قَطّ، فقال عَبْدُ اللهِ بن الْحَارِث لِعُمَر ﵁: أمَا تَرَى وَجْهِ رَسُولِ الله ﷺ؟! فقال عُمَرُ: رَضِينَا بِاَللَّهِ ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ نبيًّا، فسُرِّي عن رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَال: «لَوْ نَزَلَ مُوسَى فاتَّبعْتُمُوه وتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُم، أَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ، وَأَنْتُمْ حَظِّي مِنَ الْأُمَمِ». رَوَاه عَبْدُ الرَّازِق وَابْنُ سَعْد وَالْحَاكِم في «الكُنى»[1]. [٩٩]

---

[٩٩] هَذَا الْحَدِيثُ فيه أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺاسْتَنْكَرَ على عُمَر ﵁ لمَّا رَأَى مَعَه شيئًا من الْكُتُبِ السَّابِقَة، فَظَهَر على وَجْهِه ﷺ الِاسْتِنْكَارُ حَتَّى قِيْلَ لِعُمَر: إنَّه أَخْطأ وَأَغْضبَ رَسُولَ اللهِ ﷺ.

فَهَذَا فيه دَلِيلٌ أيضًا على أنَّه لا يَجُوزُ لَنَا الْعُدُولُ عن الْقُرْآنِ إلى الْكُتُبِ السَّابِقَة؛ لأَنَّهَا كتبٌ انْتَهَت، وَالْقُرْآنُ كافٍ وشاملٌ لِمَا فِيهَا من الْحَقِّ، فلا يَبْقَى كِتَابَان بِأَيْدِي الْمُسْلِمِين، وإنَّما هو كتابٌ وَاحِد هو كتابُ اللهِ ﷻ؛ قال تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

---

(١) أخرجه: أحمد رقم (١٥٨٦٤)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٤٨٣٦).

بَابُ حُقُوقِ النَّبِيِّ ﷺ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النِّساء: ٥٩].

وقولُه تَعَالَى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]،

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]. **[١٠٠]**

---

[١٠٠] بَعْدَمَا انْتَهَى الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ من بَيَانِ التَّوْحِيدِ الذي هو رَأْسُ الْإِيمَان، وَذِكْرِ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الْوَارِدَة في ذَلِك، وَبَيَانِ أَنَّ التَّوْحِيدَ هو حَقُّ اللهِ تَعَالَى على عِبَادِه، كما في حَدِيثِ مُعَاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي فيه قوله ﷺ لَه: «**هَل تَدْرِي ما حَقُّ اللهِ على عِبَادِه وما حَقُّ الْعِبَادِ على اللَّه؟**» قُلْت: اللهُ وَرَسُولُه أَعْلَم قَال: «**فَإِن حَقَّ اللهِ على عِبَادِه أن يَعْبُدُوه ولا يُشْرِكُوا به شيئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ على اللهِ أَلَا يُعَذِّبَ من لا يُشْرِك به شيئًا**»[1]، هذا هو حَقُّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ على الْعِبَادِ أن يَعْبُدُوه.

قَال ابنُ الْقَيِّم رَحِمَهُ اللهُ:

حَقُّ الْإِلَهِ عِبَادةٌ بِالْأَمْرِ لا	**بِهَوَى النُّفُوس فَذَاك للشيطانِ**
مَن غير إشراكٍ به شيئًا هُما	**سَبَبا النَّجَاة فحبَّذا السببانِ**
لم يَنْجُ من غَضِب الْإِلَه وَنَارِه	**إِلَّا الذي قامت به السببانِ**
وَالنَّاس بعد فمشركٌ بإلهه	**أَو ذو ابتداعٍ أوله الوصفانِ**

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٢٧٠١)، ومسلم رقم (٣٠).

هَذَا حَقُّ اللهِ ﷻ: عِبَادَته بِالْأَمْر؛ يَعْنِي: بِالشَّرْعِ لا بِهَوَى النُّفُوسِ كَالْبِدَعِ وَالْمُحْدَثَات؛ لأَنَّهَا كُلَّهَا لِلشَّيْطَان، وَإِنْ كان صَاحِبُهَا يَظُنُّ أنه يَتَقَرَّبُ بها إلى اللَّه، وَلَكِن اللهَ ﷻ لا يَرْضَى إِلَّا بِمَا شَرَع.

وَلَهَذَا قال ابنُ الْقَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

حَقّ الْإِلَه عبادةٌ بِالْأَمْر لا بِهَوَى النُّفُوس فَذَاك للشيطانِ

فَلا بدَّ من الْبَرَاءَةِ من الشِّرْك، فلا تَكْفِي عِبَادَةُ اللهِ وَحدُهَا، لأنَّ الْمُشْرِكِين يَعْبُدُون اللهَ وَلَكِنَّهُم يَعْبُدُون مَعَه غَيْرُه، فعبادتُهم لِلَّه بَاطِلَةٌ لأَنَّهُم لم يَتْرُكُوا الشِّرْك، فهم يَعْبُدُون اللهَ وَيَعْبُدُون مَعَه غَيْرُه.

وَلَهَذَا قال ابنُ الْقَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ومن غير إشراكٍ به شيئًا**». **وَقَوْله**: «**مَا**» أَي: الْإِخْلَاص وَالْمُتَابَعَة لِلرَّسُولِ ﷺ، ثم ذكرَ أنَّ النَّاسَ بعد ذلك مُنْقَسِمُون، فَمِنْهُم الْمُشْرِكُ ومنهم الْمُبْتَدِعُ غيرُ الْمُشْرِك، ومنهم من جَمَع الْوَصْفَيْن: الشِّرْك وَالْبِدْعَة؛ ولهذا قَال:

وَالنَّاس بعد فمشركٌ بإلهه أو ذو ابتداعٍ أوله الْوَصْفَان

فَلَم يَنْجُ من النَّاسِ إِلَّا من جَمَع بين الْإِخْلَاصِ وبين الْمُتَابَعَةِ لِلرَّسُول ﷺ، وأَمَّا بَقِيَّةُ النَّاسِ فَلَم يَخْرُجُوا عن بَقِيَّةِ هذه الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَة: إِمَّا مُشْرِكُون، وإما مُبْتَدِعَة، وإما جَامِعُون بين الْوَصْفَيْن: الشِّرْكِ وَالِابْتِدَاعِ في الدِّيْن، فَيَنْبَغِي التَّنَبُّه لِهَذَا، **فهذا هو حَقُّ اللهِ ﷻ وهو الْحَقُّ الْأَوَّل.**

وَالْحَقُّ الثَّانِي: هو حَقُّ الرَّسُول ﷺ، لَكِنَّه بعد حَقِّ اللهِ ﷻ، فلا يُخلَط حَقُّ الرَّسُولِ مع حَقِّ اللهِ تَعَالَى، ولهذا قال ابنُ الْقَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

لِـلَّـه حـقٌّ لا يـكـون لِـغَـيْرِه وَلِـعَـبْـدِه حـقٌّ هُمَـا حـقـانِ
لا تَجْعَلُوا الحقَّين حقًّا واحدًا مِـن غـير تَمْيِيز ولا فـرقـانِ

فَاللَّهُ ﷻ له حقٌّ على حِدَةٍ، وَالرَّسُولُ ﷺ له حقٌّ على حِدَةٍ، فلا يَنْبَغِي خَلْطُ الحقَّين وجَعْلُهما حقًّا واحدًا، فَالرَّسُولُ ﷺ ليس له من الْعِبَادَةِ شَيْء، وَعَلَيْه فَيَجِبُ مَعْرِفَةُ ما هو حَقُّ الرَّسُولِ ﷺ، من أَجْلِ عَدَمِ الْخَلْطِ بين حَقِّه ﷺ وبين حَقِّ اللهِ تعالى الذي سَبَق ذِكْرُه فِيْمَا سَلَف.

❁ **وأَمَّا الرَّسُولُ ﷺ فَلَه عِدَّةُ حُقُوقٍ ومن أَهَمِّهَا:**

أولًا: الْإِيمَانُ به ﷺ وَبِرِسَالَتِه.

ثانيًا: مَحَبَّتُه ﷺ أَكْثَر من مَحَبَّةِ النَّفْسِ وَالْمَالِ وَالْوَالِدِ وَالْوَلَدِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِين، لأَنَّه هو الذي أَنْقَذ اللهُ به النَّاسَ من الظُّلُمَاتِ إلى النُّور، وهو الذي هَدَى اللهُ به الْخَلْقَ إلى الإسلام، فَتَجِبُ مَحَبَّتُه أَكْثَر من مَحَبَّةِ الْمَرْءِ لِنَفْسِه وَوَلَدِه وَوَالِدَيْه كما سَيَأْتِي في الْحَدِيث.

ثالثًا: طَاعَتُه ﷺ، فَمَن آمَنَ به وَأَحَبَّه، فإنَّه لا بدَّ وَأَن يُطِيعَه فِيْمَا أَمر وفيما نَهَى عَنْه فَيَجْتَنِبُه؛ قال تَعَالَى: ﴿**أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ [النساء: ٥٩].

وَقَال: ﴿**وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ**﴾ [الحشر: ٧].

فَالطَّاعَةُ وَالْمُتَابَعَةُ له ﷺ من جُمْلَةِ حُقُوقِه على النَّاس، وَإِلَّا فَمَا فَائِدَةُ الْإِيمَانِ به وَمَحَبَّتِه إذا لم يُطَع ﷺ وَيُتَّبَع.

قَال تَعَالَى: ﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ**﴾ [النساء: ٦٤].

وَقَــــال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النِّسَاء: ٨٠]، فمهمةُ الرَّسُولِ ﷺ هي الْبَلَاغ، وأمَّا الْهِدَايَةُ فهي بِيَدِ الـلـهِ ﷻ؛ قـال تـعـالـى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

فَيَجِبُ مَعْرِفَةُ أن الْهِدَايَةَ إنَّما هي بِيَد الله تعالى وليست بِيَد الرَّسُول ﷺ الذي لا يَمْلِك إلَّا الْبَلَاغ؛ قال تَعالَى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾ [الشورى: ٤٨]، وأمَّا هِدَايَةُ الْقُلُوبِ فهي بِيَدِ اللهِ ﷻ، وليست بِيَدِ الرَّسُولِ ﷺ.

نَقُولُ هذا لأنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَغْلُو في حَقِّ الرَّسُولِ ﷺ وَيَجْعَله في مرتَبَةِ الْأُلُوهِيَّة، وَبَيْنَمَا الْبَعْضُ الآخَرُ يَجْفُو في حَقِّ الرَّسُولِ ﷺ فلا يُطِيعُه في كَثِيرٍ من الْأُمُورِ وإنَّما يَتَّبِعُ نَفْسَه وَهَوَاه، فَمَا وَافِقَ هَوَاه فِيْمَا جَاء به الرَّسُولُ ﷺ أَخَذَه، وما خَالَف هَوَاه راوغ لِأَجْلِ التَّخَلُّص منه، وهذه طَرِيقَةُ أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ الَّذِين يَزْعُمُون أَنَّهُم يُؤْمِنُون بِالرَّسُولِ ﷺ وَيُحِبُّونَه، وَلَكِنَّهُم لا يَتْرُكُون الْبِدَعَ وَالْمُحْدَثَاتِ التي نَهَى عنها الرَّسُولُ ﷺ متناسين أو متجاهلين أن من حَقِّه ﷺ عَلَيْهِم اجْتِنَابُ ما نَهَى عَنْه وَإِتْبَاعُ ما أَمَرَ به ومتجاهلين قوله ﷺ: «**إِيَّاكُم وَمُحْدَثَاتُ الْأُمُور، فَإِن كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(١)، فَالَّذِين يزاولون الْبِدَع قد نَقَصُوا حَقَّ الرَّسُول ﷺ وَإِنْ كانوا يَزْعُمُون أَنَّهُم يُحِبُّونَه، فَالْمَحَبَّةُ تَقْتَضِي

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٤٦٠٧)، والترمذي رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه رقم (٤٦)، وأحمد رقم (١٧١٤٤).

الاتِّبَاع؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، ولهذا قال الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تَعْصِي الْإِلَه وَأَنْت تَزْعُم حُبَّه هذا لَعَمْرِي في الْقِيَاس شنيعُ
لَو كَان حُبُّك صادقًا لَأَطَعْتَه إن الْمُحِبّ لِمَن يُحِبّ مطيعُ

فالاتِّباعُ من عَلَامَةِ محبَّةِ اللهِ وَرَسُولِه، والمحبَّةُ الصَّادِقَة لا تَكُون مجرَّدةً عن الْعَمَلِ الذي يعني اتِّباعَ ما أَمَرا به ونَهَيا عَنْه!

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النِّسَاء: ٥٩].

❁ ذَكَر اللهُ في هذه الْآيَة ثَلَاثَة حُقُوق:

١- حقَّ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.
٢- حقَّ الرَّسُول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
٣- حقَّ وُلَاة أُمُور الْمُسْلِمِين.

فَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ أَي: فِيْمَا أَمَرَكُم به وَنَهَاكُم عَنْه، وَقَوْله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ في سنَّتِه؛ وأمَّا الْقُرْآنُ فهو كَلَامُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَطَاعَةُ ما جَاء في الْقُرْآنِ طاعةٌ لِلَّه عَزَّ وَجَلَّ، والسُّنةُ هي كَلَامُ الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَطَاعَةُ ما جَاءَت به السُّنةُ الشَّرِيفَة هي طاعةٌ للرَّسولِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَوْله: ﴿وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ أَي: من الْمُسْلِمِين، و«مِنْ» التي في ﴿مِنكُمْ﴾ تَبْعِيضِيَّة، فَيَجِبُ طَاعَةُ وليِّ الأَمْرِ الْمُسْلِم؛ لأنّ مَعْنَى: ﴿مِنكُمْ﴾ أَي: من الْمُسْلِمِين، وأَمَّا إذا كَفَر أو ارتدَّ فإنَّه لا يُطاع، ولكنه ما دَام مسلمًا ولم يَخْرُج من الإسلامِ فَتَجِبُ طاعتُه وَإِنْ عَصَى وَخَالَف، ما دَامَت مُخَالَفَتُه لم تَصِل

إلى حدِّ الْكُفر الْمُخرِج من الملَّة فإنَّه تَجبُ طاعتُه، وَإِنّ جارَ وَإِنْ ظَلم وَإِن فَجَر فجورًا دون الْكُفْر؛ لِمَا في طَاعَتِه من الْمَصْلَحَةِ وَاجْتِمَاع الْكَلِمَةِ وَحَقْنِ الدِّماءِ وَالْمَصَالِحِ الْكَثِيرَة التي من بَيْنَهَا دَفْعُ الظَّلَمةِ ونُصرةُ الْمَظْلُومِين.

إِلَّا أنَّ طَاعَةَ وُلاةِ الْأُمُورِ مقيَّدة، وأمَّا طَاعَةُ اللهِ تعالى وَطَاعَةُ الرَّسُولِ ﷺ فهي طاعةٌ مُطْلَقَة؛ لأنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ إِلَّا بِمَا هو حقٌّ وكذلك الرَّسُول ﷺ، وأمّا وُلاةُ الْأُمورِ فَإِنَّهم قد يَأْمُرُون بِمَعْصِيَةٍ فهم لَيْسُوا بِمَعْصُومِين؛ ولهذا قال ﷺ: «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**»[1]، وقال ﷺ: «**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ**»[2]، فإذا أَمرَ الوُلاةُ بمعصية فلا طَاعَةَ لهم في هَذَا، وَلَكِن ليس معنى هذا أن تَنْعَزِلَ ولايتُهم، وإنَّما تَبْقَى وَلَكِن لا يُطاعوا فِيْمَا أمَرُوا من الْمَعَاصِي، وإنَّما يُطاعوا فِيْمَا لم يُخالِفْ كتابَ اللهِ وسُنَّةَ رَسُولِه ﷺ؛ فَقَوْلُه تَعالَى: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ قال المفسِّرون: الْمُرَاد بِهِم الأمراءُ. وقال آخَرُون: الْمُرَادُ بِهِم الْعُلَمَاء، وَالصَّوَابُ أنَّ قولَه تَعَالَى: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ يَشْمَلُ الْأُمَرَاءَ وَالْعُلَمَاء، فهؤلاء بسلطتِهم، وهؤلاء بِعِلْمِهِم، فَالْعُلَمَاءُ من وُلاةِ الْأُمُور؛ لأَنَّهُم يَتَكَلَّمُون عن اللهِ تعالى وعن رَسُولِه ﷺ.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]، فهو سُبْحَانَه قد قَال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يَقُل:

(١) أخرجه: البخاري رقم (٤٠٨٥)، ومسلم رقم (١٨٤٠).

(٢) أخرجه: أحمد رقم (١٠٩٥)، والطبراني في «الكبير» رقم (٣٨١)، والقضاعي رقم (٨٧٣).

صلُّوا؛ لأَنَّه ليس الْمَقْصُودُ صُورَةَ الصَّلاة وإنَّما الْمَقْصُودُ إقَامَةُ الصَّلاة؛ أَي: أن تَكُونَ الصَّلَاةُ قَائِمَة، بِمَعْنَى أنَّها صَلاَةٌ مُوَافِقَةٌ لِلشَّرْعِ تُؤَدَّى في وَقْتِهَا مع جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِين، وَبِطَهَارَةٍ وَخُشُوع كاملَيْن وَحُضُورٍ بين يَدَي اللهِ ﷻ، هذا الْمَقْصُودُ من قولِه تَعَالَى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أَي: إقَامَتِهَا على الْوَجْهِ الْمَشْرُوعِ من إكْمَالِ شُرُوطِهَا وَأَرْكَانِهَا وَوَاجِبَاتِهَا ومتمِّماتها من السُّنَنِ والمستحبَّات.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الزَّكَاةُ قَرِينَةُ الصَّلاةِ في كَثِيرٍ من الْآيَات، فالصَّلاةُ حقٌّ لِلَّه، والزَّكاةُ حقٌّ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِين؛ قال تَعَالَى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]، فهي حقٌّ لِلْمَسَاكِين وَالْفُقَرَاءِ وَالْمَصَارِفِ التي بيَّنها اللهُ ﷻ.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، وهذا الأَمْرُ الثَّالِث، جَاء بعد الأَمْرِ بِإِقَامَةِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاة؛ وَطَاعَتِه ﷺ تَكُون فِيْمَا أَمرَ به وفيما نَهَى عَنْه، فلا يَكْفِي أن يُقيمَ الْمُسْلِمُ الصَّلاةَ وَأَن يُؤْتِي الزَّكَاة، بل لا بدَّ له من طَاعَةِ الرَّسولِ ﷺ فِيْمَا أَمرَ فيُفعل، وفيما نَهَى عَنْه فيُجتَنَب، ثم قال ﷻ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لأنَّ الِالْتِزَامَ بِهَذِه الْأَوَامِرِ الثَّلَاثَةِ يسبِّبُ الرَّحمةَ من اللهِ تَعَالَى.

فَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، هَذَا فيه ذكرُ حقِّ اللهِ تَعَالَى، وَقَوْله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فيه ذِكرُ حقِّ الخَلْق من الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينَ من الْمُسْلِمِين، وَقَوْله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فيه ذكرُ حقِّ الرَّسُولِ ﷺ وهو الشَّاهِدُ في هذه الْآيَة.

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، فَالْمُرَادُ من قولِه تَعَالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ [الحشر: ٧] أَي: من الْأَوَامِرِ ومن الْأَمْوَالِ أيضًا؛ لأنَّ سَبَبَ نُزُولِ الْآيَةِ كان في الفَيْءِ، فَمَا آتَاكُم الرَّسولُ ﷺ من الْمَالِ فَخُذُوه. وَقَوْله: ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] عَن الْمَعَاصِي وَالْمُخَالَفَات.

فَسَبَبُ نُزُولِ الْآيَةِ في الْفَيْءِ وَلَكِنَّ لَفْظَهَا عامّ، وَالْعِبْرَةُ بِعُمُوم اللَّفْظِ لا بِخُصُوصِ السَّبب. هَكَذَا الْأَصْلُ عند الْعُلَمَاء؛ أَي: فَمَا آتَاكُم الرَّسولُ ﷺ من الْأَمْوَالِ ومن الْأَوَامِرِ فَاقْبَلُوه، وما نَهَاكُم عَنْه من الْمُخَالَفَاتِ فَيَجِبُ عَلَيْكُم اجْتِنَابُه.

وفي هذه الْآيَةِ إِثْبَاتُ الْعَمَلِ بالسُّنةِ النَّبَوِيَّة، وفيها ردٌّ على الْقَائِلِين بِأَنَّه لا يَنْبَغِي الْأَخْذُ إِلَّا بِالْقُرْآنِ الْكَرِيم، واللهُ ﷻ ردَّ عَلَيْهِم بِهَذِه الْآيَةِ بِقَوْلِه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧] والسُّنة مِمَّا آتَانَا الرَّسُول ﷺ.

فَهَذِه الْآيَةُ تُعْتَبَرُ أصلًا لكلِّ ما جَاءَت به السُّنة ممَّا يَرد له ذكرٌ في الْقُرْآنِ الْكَرِيم، وعلى هذا الدَّربِ وَالطَّرِيقِ الْوَاضِحِ من جَاء بعد الصَّحَابَةِ من أَئِمَّةِ الْعِلْمِ والدِّين.

الحثُّ على قتالِ الْمُشْرِكِين حَتَّى يكونَ الدّيْنُ كلُّه لِلَّه

عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَن لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ ﷻ». رَوَاه مُسْلِم[١]. [١٠١]

---

[١٠١] قَولُه ﷺ: «**أُمرتُ**» الذي أَمرَه ﷺ هو اللهُ ﷻ: «**أن أُقاتِلَ الناسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أنْ لا إلَه إلَّا الله**» هذا فيه وُجوبُ قتالُ الْمُشْرِكِين حَتَّى يكونَ الدِّينُ كلُّه لِلَّهِ ولا يَبْقَى شِرْك، قال تَعالَى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]؛ فَقِتَالُ الْمُشْرِكِين إنَّما هو لِأَجْلِ شِرْكِهِم وَإزالَتِه، لأنَّ الخَلْقَ خُلقوا لِعِبادَةِ اللهِ ﷻ، فإذا عَبَدُوا غيرَه وَجَب قتالُهم بِأَمْرِ اللهِ ﷻ، فهو سُبْحَانَه لم يَخلُقْهم لِيَعْبُدُوا غيرَه بل خَلَقَهُم لِيَعْبُدُوه، فإذا خَالَفُوا وَعَبَدُوا غيرَه فَإِنَّهُم يُقاتَلون ولا يَنْبَغِي تَركُهم يَنْشُرُون الشِّرْكَ في الأَرْضِ ويُجبِرون النَّاسَ عَلَيْه.

وفي الْحَدِيثِ ردٌّ على الْقَائِلِين: إنَّ الإسلامَ دينُ مسالَمةٍ وَسَلَام وَتَسَامَح، وليس دينَ قتالٍ إلَّا في حَقِّ من اعْتَدَى على الْمُسْلِمِين، فإنَّه يُقاتَل من بابِ الدِّفَاع!

هَذَا كَلَامٌ بَاطِل، بل يَجِبُ قتالُ الْمُشْرِكِين لِأَجْلِ شِرْكِهِم وإزالتِه وقَمْعِ الْمُشْرِكِين، حَتَّى يكونَ الدِّينُ كلُّه لِلَّه إذا كان عند الْمُسْلِمِين قوَّة

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢١).

وَاسْتِطَاعَة، فلا يَنْبَغِي لهم أن يَتْرُكُوا الْجِهَاد؛ لأَنَّه واجبٌ وفرضٌ من فُرُوضِ الإسلام، وأمّا الدِّفَاعُ فكلُّ الخَلْقِ يدافعون عن أنفُسِهم، حَتَّى الْبَهَائِم تَدَافُع عن نَفْسِهَا، فكلُّ من اعتُدي عَلَيْه يُدافِع عن نَفْسِه، فهذا لا يَحْتَاجُ إلى أمرٍ من الْخَالِق ﷻ، لأَنَّه أمرٌ فِطْرِيّ وغير خاصٍّ بِالْمُسْلِمِين ولا بِغَيْرِهِم، فلا يَحْتَاجُ إلى نُزُولِ آيةٍ أو أمرٍ إلى الرَّسولِ ﷺ وإلى الْمُؤْمِنِين، لكنَّ الْكَلَامَ هُنَا في الْحَدِيث إنَّما هو عن جِهَادِ الكفَّارِ لنَشرِ الإسلامِ وَإِزَالَةِ الشِّرك، وهذا من أَعْظَمِ فَرَائِضِ الإسلام، وقد جَعَلَه النبيُّ ﷺ ذِرْوَةَ سَنام الإسلام[1].

فَلا يَنْبَغِي الِالْتِفَاتُ إلى مَقَالَةِ من يُهوِّلون أَمْرَ الْجِهَادِ لِإِرْضَاءِ الْكُفَّارِ بِالْقَوْلِ لَهُم: إنَّما نَحْن إخْوَةٌ في الْإِنْسَانِيَّةِ ودينُنا دينُ مسالَمةٍ مع غيرِ الْمُسْلِمِين، وليس في دِينِنَا أن نُقاتلَ من هُم على غيرِ ملَّتِنا، وَنَحْو ذلك من الْمَقَالَات التي لم يَأْمُرْهُم اللهُ بها، فكلُّ هذا الْكَلَامِ وشِبهُه من بابِ تَعْطِيلِ الْجِهَادِ الذي أَمْرَ اللهُ به نبيَّه ﷺ وَالْمُسْلِمَيْن، وهو جَحْدٌ لرُكنٍ من أَرْكَانِ الإسلام؛ لأنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ عَدَّ الْجِهَاد ركنًا من أَرْكَانِ الإسلام، فَجَعَلَه الرُّكنَ السَّادِسَ من أَرْكَانِ الإسلام.

وقولُه ﷺ: « **حَتَّى يَشْهَدُوا أن لا إلَه إلَّا الله** » لم يَقُل ﷺ حَتَّى يَكُفُّوا أَذَاهُم، لَيُصْبِح الأَمْرُ مجرَّدَ دِفَاعٍ عن النَّفْس، وإنَّما قال ﷺ: « **حَتَّى يَشْهَدُوا أن لا إلَه إلَّا الله** » فَالْغَايَةُ التي يَنْتَهِي عِنْدَهَا قَتَّالُ النَّاسِ هي عند شَهَادَتُهم أنْ لا إلَه إلَّا اللَّه.

---

(١) أخرجه: أحمد رقم (٢٢٠١٦).

وقولُه ﷺ: « **وَيُؤْمِنُوا بِي** » يَعْنِي: يَشْهَدُوا أنَّ محمدًا رسولُ اللَّه، فإذا أتَوا بِالشَّهَادَتَيْن وَجَبَ الكَفُّ عَنْهُم حَتَّى يتبيَّنَ منهم ما يُناقِضُ الشَّهَادَتَيْن، فإذا تبيَّنَ فَإِنَّهُم يُعتبرون مرتدِّين، فإذا شَهِدُوا أن لا إلَه إلَّا الله وأنَّ محمدًا رَسُول الله كففْنا عَنْهُم، ووَكَلْنا سرائرَهم إلى اللهِ تَعَالَى.

وَلَهَذَا لمَّا لَحِق أُسَامَةُ بنُ زَيْدٍ مشركًا بِالسَّيْف وَأَدْرَكَه وأراد قَتْلَه شَهِد الرَّجُل بأنَّ لا إلَه إلَّا اللَّه، فَقَتَلَه أسامةُ فَلَمَّا بَلَغ ذلك رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْكَر على أُسَامَةَ إنكارًا شديدًا وقال لَه: « **أَقَتَلتَه بعد أن قَال: لا إلَه إلَّا اللَّه؟!** » فقال أسامةُ: إنَّما قالها خوفًا من السَّلاح، فقال ﷺ: « **أفلا شَقَقتَ عن قَلْبِه حَتَّى تعلمَ أقالَها أَم لا** »[1]، وفي رِوَايَة قال ﷺ لَه: « **فَكَيْف تَصنعُ بِلَا إلَه إلَّا الله إذا جاءتْ يوم القيامةِ؟** »[2].

وقوله ﷺ: « **فَإِذَا فَعلوا ذلك عَصموا منِّي دِمَاءَهُم وَأَمْوَالَهُم إلَّا بحقِّها** »، فَقَوْلُه: « **إلَّا بحقِّها** » يَعْنِي: إلَّا إذا تبيَّن منهم ما يُناقضُ الشَّهَادَتَيْن، كأن يَجْحَدُوا الزَّكاة أو يُنكروا وُجُوبَ الصَّلاة.

وَلَهَذَا لمَّا امْتَنَع طَوَائِفُ من الْعَرَبِ عن دَفَع الزَّكاةِ بعد وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ قاتلَهم أَبُو بَكْر الصدِّيقُ رضي الله عنه وَقَالِه: « **وَاللَّه لأُقاتلنَّ من فرَّق بين الصَّلاة والزَّكاة، فَإِن الزَّكاةَ حقُّ المالِ** ».

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٩٦).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (٩٧).

قال ﷺ ذلك بعدما قال له عُمَر ﷺ: كَيْف تُقَاتِلُ النَّاسَ وقد قال رَسُولُ الله ﷺ: «**أُمرتُ أن أُقاتل النَّاس حَتَّى يَقُولُوا: لا إِلَه إِلَّا اللَّه، فمَن قالها عَصَم مِنِّي مَالَه ونفسَه إِلَّا بحقِّه وحسابُه على اللَّه**» فقال ﷺ: إنَّ الزَّكاةَ حقُّ الْمَال، والله لو مَنَعُونِي عَناقًا كانوا يؤدُّونها إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ لقاتلتُهم على مَنْعِها. فقال عُمَرُ ﷺ: فَوَاَللَّه ما هو إِلَّا أنْ قد شَرْح اللهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ فَعَرَفْت أنَّه الحقُّ[1].

فَكَان في ذلك الخيرُ والمصلحةُ لِلْإِسْلَام وَالْمُسْلِمَيْن؛ لأَنَّه ﷺ لو تَركَهِم على ما هُم عَلَيْه لَحَصَلَ في الإسلامِ نقصٌ كَبِيرٌ ولتَركتْ كلُّ طائفةٍ من النَّاسِ ركنًا من أَرْكَانِ الإسلام.

فَالْحَزْمُ كان شِيمَة أَبِي بَكْر الصِّدِّيق ﷺ في هذا الأَمْرِ الْخَطِير، مستدلًّا بِهَذِه الْكَلِمَةِ النَّبويَّةِ الْعَظِيمَة «**إِلَّا بحقِّها**» أَي: حَقُّ لا إِلَه إِلَّا اللَّه، والصَّلاةُ من حَقِّ لا إِلَه إِلَّا اللَّه، وكذا الزَّكَاةُ وَالصِّيَامُ وَالْحَجُّ، فَلَيْسَت «**لا إِلَه إِلَّا الله**» مجرَّدَ لَفْظ، وَالتَّوْحِيدُ الذي هو إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ هو صَمِيم لا إِلَه إِلَّا اللَّه، فمَن كان يَقُولُهَا وهو يُشْرِكُ بِاَللَّهِ فَإِنَّهَا لا تَنْفَعُه، ولا يُعصَمُ دمُه ولا مالُه بل يُقاتَل ولو كان يَقُولُهَا؛ لأنَّ هذا من التَّنَاقُض، فَكَيْف يَقُولُهَا ويدعو غيرَ اللَّه، كأن يقول مثلًا: يا عليّ، يا حُسَيْن، يا بدويّ، فكلُّ هذا وَنَحْوه من الشَّرك؛ لأَنَّه قَال: «**لا إِلَه إِلَّا الله**» ولم يَعْمَلْ بِمُقْتَضَاهَا.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (١٣٣٥)، ومسلم رقم (٢٠).

ذِكْرُ الْخِصَالِ التي فِيهَا حَلَاوَةُ الْإِيمَان

ولهما [(١)] عن أَنَسٍ ﷺ قَال: قال رسولُ الله ﷺ: « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنقَذَه اللهُ مِنْه كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ ». [١٠٢]

فَيَجِبُ التفقُّهُ في مثلِ هذه الْأُمُورِ والتنبُّه لَهَا، فَكُلُّ هذه الْأُمُورِ وَنَحْوهَا إِنَّما هي من الشُّبهاتِ التي يُورِدُها أهلُ الضَّلال، ولا بدَّ من الرَّدِّ عليها بِكَلَامِ الرَّسولِ ﷺ.

وَالشَّاهِدُ في الْحَدِيثِ قولُه ﷺ: « **وَيُؤْمِنُوا بِي وبما جئتُ به** » فهذا هو حقُّ الرَّسولِ ﷺ، وهو الْإِيمَانُ به وبما جَاء به وَتَصْدِيقُه.

[١٠٢] فِي هذا الْحَدِيثِ ذُكِرَت ثلاثُ خِصَال من كانت فيه هذه الثَّلَاث وَجد بهنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ كما أَخْبَر ﷺ، ويُفهم من هذا أَنَّ الْإِيمَانَ له طَعْمٌ وَمَوْصُوفٌ بِالْحَلَاوَة، فقد يكونُ الْمَرْءُ مسلمًا ولكنه لا يَجِدُ طَعْمَ وحلاوةَ الْإِيمَان، ولا تُوجَدُ حَلَاوَةُ الْإِيمَانِ إِلَّا لمَن تلذَّذ بِالْعِبَادَاتِ وأحبَّها، وكَرِه الْمَعَاصِي وَأَبْغَضَهَا كما يَكرهُ أن يُقذَف في النَّار، فمَن كانت فيه هذه الصِّفَاتُ وَجَد طعمَ حَلَاوَةَ الْإِيمَان.

وَقَد بيَّنها ووضَّحها ﷺ فَقَال: « **أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا** » يَعْنِي: من النَّفسِ ومن الْوَالِدِ وَالْوَلَدِ وَالْأَقَارِبِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِين، فلا يقدِّمُ على محبَّةِ اللهِ ﷻ ومحبَّةِ رَسُولِه ﷺ شيئًا أبدًا،

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (١٦)، ومسلم رقم (٤٣).

وإذا تَعَارَض شَيْءٌ مع محبَّةِ اللهِ تعالى ومحبَّةِ الرَّسولِ ﷺ فإنَّه يَتْرُك ويتخلَّى عن هذا الشَّيْء، فَيَتْرُك الوطنَ والمالَ والولدَ والوالدَ أو أي شَيْء آخَر من أَجْلِ محبَّةِ اللهِ تعالى وَرَسُوله ﷺ؛ قال تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤] فَتَقْدِيم ما يحبُّه اللهُ وَرَسُولُه على ما تُحبُّه النَّفْسُ إنَّما هو عَلَامَةُ محبَّةِ اللهِ وَرَسُولِه، وأمَّا إن كان الْعَكْس وذلك بِتَقْدِيم ما تحبُّه النَّفْس على ما يحبُّه اللهُ وَرَسُولُه كان ذلك عَلَامَةً من عَلَامَاتِ الْفِسْق.

وفي الْحَدِيث: بَيَان أنَّه يَنْبَغِي أن تَكُونَ محبَّةُ اللهِ تعالى أولًا وَقَبْل كلِّ شَيْء وَبعْدهَا محبَّةُ الرَّسولِ ﷺ؛ لأنَّ كثيرًا من الْمُبْتَدِعَة لا يَلْهَجُون إلَّا بمحبَّةِ الرَّسولِ ﷺ ولا يَذْكُرُون محبَّةَ اللهِ تعالى ولا تَأْتِي لهم على لِسَان، مع أنَّ الْأَصْلَ في هذا هو محبَّةُ اللهِ تَعَالَى، وفي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ محبَّةُ الرَّسولِ ﷺ، ولهذا قال ﷺ: «**أن يكونَ اللهُ وَرَسُولُه أحبَّ إِلَيْه مِمَّا سِوَاهُمَا**» فقدَّم اللهَ تعالى أولًا ثم ذكر نفسَه ﷺ.

وقولُه ﷺ: «**وأنْ يُحبَّ المرءَ لا يُحبُّه إلَّا لِلَّه**» أَي: بعد أن يكونَ اللهُ تعالى وَرَسُولُه ﷺ أحبَّ إِلَيْه من كلِّ شَيْء، يَنْبَغِي للمرءِ الْمُسْلِم أن يُحبَّ ما يُحبُّه الله تعالى من الْأَشْخَاص، وَأَن يَتْرُك ما يَكرهه الله تعالى من الْأَشْخَاص، فيُحبُّ ما يحبُّه ويُبغضُ ما يُبْغِضُه اللهُ تَعَالَى؛ لأنَّ هذا من عَلَامَةِ صَدَقِ محبَّةِ اللهِ تعالى ومحبَّةِ رَسُولِه ﷺ.

ولهما [(١)] عَنْه مرفوعًا: « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ». [١٠٣]

وقولُه ﷺ: « **وأنْ يَكرهَ أن يَعُودَ في الْكُفْر . . .** » إلَخ؛ لأنَّ اللهَ يَكره الكُفرَ والشِّركَ وَالْمَعَاصِي، فلا يَجِدُ المرءُ طعمَ الْإِيمَان إلَّا بعد أن يُبغِضَ هذه الْأَشْيَاء، ولا يَكْفِي منه أن يتجنَّبها فَقَط بل لا بدَّ أن يُبْغِضَهَا بِقَلْبِه؛ لأنَّ بُغضَ هذه الْأَشْيَاء لا يكونُ إلَّا عند من وَجد حَلَاوَةَ الْإِيمَان.

وَالشَّاهِدُ في الْحَدِيثِ قولُه ﷺ: « **أنْ يكون اللهُ وَرَسُولُه أحبَّ إلَيْه مِمَّا سِوَاهُمَا** » وهذا فيه محبَّةُ الرَّسولِ ﷺ وأنها تَأْتِي بعد محبَّةِ اللهِ تعالى مُبَاشَرَة، وأنها مقدَّمةٌ على كلِّ شَيْء.

[١٠٣] وهذا فيه أنَّ الْإِيمَانَ لا يتحقَّقُ إلَّا إذا كان الرَّسولُ ﷺ أحبَّ إلى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ من ولدِه، وأحبَّ إلَيْه من والدِه ومن جَمِيعِ النَّاس، فإذا كان المرءُ كَذَلِك فإنَّه يكون قد قدَّم علامةً على صِدقِ محبَّتِه للرَّسولِ ﷺ أكثرَ من محبَّتِه لوَلدِه ووالدِه وَالنَّاسِ أَجْمَعِين، هذه هي الْعَلَامَةُ ومنها تَقْدِيمُ ما أَمرَ به الرَّسولُ ﷺ وما نَهى عَنْه على ما يُمكن أن يَأْمُرَ به الْوَالِد وَالْوَلَد، أو ما يُمْكِنُ أن يَأْمُرَ به النَّاس، فَيَتْرُك جَمِيعَ ما يُمْكِن أن يَأْمُرُوا به وَيَأْخُذ ما نَهى عَنْه الرَّسولُ ﷺ، هذه عَلَامَةُ محبَّةِ الرَّسولِ ﷺ كما يُفهمُ ذلك من الْحَدِيث.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (١٥)، ومسلم رقم (٤٤).

الرَّدُّ على من اكْتَفَى بِالْقُرْآنِ دون السُّنة

وعن الْمِقْدَام بن معد يكربَ الكِنديِّ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَال: «يُوشِكُ الرَّجُلُ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يُحَدَّثُ بَحَدِيثٍ مِن حَدِيثِي فيقولُ: بَيْنَنا وَبَينَكُمْ كِتَابُ اللهِ ﷻ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ! أَلَا وإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِثْل مَا حَرَّمَ اللهُ». رَوَاه التِّرمِذِيّ وَابْن مَاجَه[1]. [١٠٤]

---

[١٠٤] وهذا الْحَدِيثُ من مُعْجِزَاتِه ﷺ؛ حيث أَخْبَر عن شَيْءٍ سَيَحْصُلُ وَحَصل كما أَخْبَر به ﷺ، أنَّه يَأْتِي أُناسٌ مُتْرَفون على أرائكِهم لا يَجِدُّون في طَلَبِ الْعِلْم، وإذا ما ذكر لهم حديثٌ عن الرَّسولِ ﷺ أَخْبَر بِأَنَّه لا يَعْمَلُ إِلَّا بِمَا في الْقُرْآنِ الْكَرِيم، فَمَا كان فيه من حلالٍ أو حَرَامٍ أَخَذ بِه، وأمَّا أَحَادِيثُ الرَّسولِ ﷺ فهي محلُّ شكٍّ عِنْدَهُم، من حيث أسانيدِها ورُواتِها ومتونِها، فهؤلاء لا يَقْبَلُون إِلَّا ما جَاء في الْقُرْآنِ الْكَرِيم، بحُجَّةِ أنَّه مُتَوَاتِر، وأمّا السُّنةُ فَأَكْثَرُهَا آحَادٌ وليست مُتَوَاتِرَة فيَتْرُكُونَها!

فهؤلاء وَنَحْوُهُم يُسمَّون بالقرآنيِّين الَّذِين يَدَّعون الْعَمَلَ بالقرآنِ فَقَط، وهي فِرْقَةٌ مَعْرُوفَةٌ في الْهِنْدِ وفي غَيْرِهَا، وَمِثْلُهُم الْخَوَارِجُ الَّذِين يُنكرونَ السُّنَّةَ ويَدَّعون بِأَنَّهُم لا يَعْمَلُون إِلَّا بِمَا جَاء في الْقُرْآنِ الْكَرِيم؛ لأَنَّهُم جُهَّالٌ بالسُّنةِ ولهذا يُشكِّكُون في أَسَانِيدِ الْأَحَادِيثِ المتضمِّنةِ للسُّنة، فَيَطعنون في رُواتِها وحفَّاظِها.

---

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢٦٦٤)، وابن ماجه رقم (١٢)، وأحمد رقم (١٧١٩٤).

ومن هَؤُلَاء مَن لا يُنكرُ جميعَ السُّنة وإِنَّما يُنكرُ الْآحَادَ من الْأَحَادِيثِ ولا يَقْبَلُ إِلَّا الْمُتَوَاتِرَ منها، بحُجَّةِ أنَّ الْأَحَادِيثَ الْآحَادَ ظَنِّية، وَالْمُتَوَاتِر هو الذي يُفِيدُ العلمَ، وَالْآحَادُ عِنْدَهُم يُعمَلُ به في مَسَائِلِ الْفِقْه، وأمَّا في الْعَقَائِدِ فلا يَعْمَلُون بِخَبَرِ الْآحَاد؛ بحُجَّةِ إفَادَتِه لِلظَّنِّ وَالْعَقَائِدِ لا تُبنى - بِزَعْمِهِم - إلَّا على الْعِلْم، هَكَذَا يَقُولُون! وهذا ما عَلَيْه الْمُعْتَزِلَة وما يسمَّى في زَمَانِنَا بالعقلانيين؛ ولذلك فهم يُنكرون صِفَاتِ اللهِ وَأَشْيَاءَ كَثِيرَةً في الْعَقِيدَةِ بحُجَّةِ أنَّها ما جَاءَت إلَّا بِرِوَايَةِ الْآحَاد!

وَنَحْن نَقُول: إنَّ ما صحَّ عن الرَّسُولِ ﷺ سَوَاءٌ كان متواترًا أو كان آحادًا فهو يُفِيدُ الْعِلْمَ وَالْيَقِينَ وَيَجِبُ الْعَمَلُ بِه، والرَّسولُ ﷺ لم يَكُن يُرسِلُ جماعاتٍ إلى الْأَقْطَار، وإنَّما كان يُرْسِلُ أفرادًا وَيعْمَلُ وُلاتُه ﷺ وأمراؤه بِخَبَرِ الرسولِ الذي أَرْسَلَه الرسولُ مع وَاحِدٍ ﷺ فبلَّغ عَنْه ﷺ، ولم يَكُنْ يَرْفُضُ أُمَرَاؤُه هذا بحُجَّةِ أنَّه ﷺ لم يُرسلْ إليهم جَمَاعَةً لِيَشْهَدُوا أنَّ الرَّسولَ ﷺ قال ما جَاء به رُسُلُه وهم فُرادى.

والصَّحابةُ رضي الله عنهم كانوا يُصلُّون الْعَصْرَ إلى بَيْتِ الْمَقْدِس، لِبَقَائِهِم على الْأَصْلِ وَلَمَّا نُسخَتْ القِبْلةُ وحوِّلَتْ صَلَّى الرسولُ ﷺ العصرَ في مَسْجِدِه إلى الْكَعْبَة، فَخَرَج رجلٌ وَاحِدٌ من عِنْده ﷺ وأتى إلى أُنَاسٍ يصلُّون إلى بيتِ الْمَقْدِسِ صَلَاة الْعَصْر، فَقَال: إنَّ القِبلةَ قد حوِّلتْ إلى الْكَعْبَة؛ فَاسْتَدَارُوا أَمَامَهُم نَحو الْكَعْبَة[1]؛ فَلَم يَقُولُوا: هذا خبرُ آحَاد فلا نَعْمَلُ بِه.

(١) انظر: البخاري رقم (٤٠)، ومسلم رقم (٥٢٥).

ولذلك فإنَّه ما دَام الْخَبَرُ صحيحًا فلا مَجَالَ لِلتَّشْكِيك فيه وَإِنْ كان خَبَرَ أحادٍ.

ثُمّ إنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَتَضَمَّنُ مُجملات لا يُفصِّلها إلَّا السُّنة النَّبَوِيَّة، فَنَرَى أنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ قد أَمْرَ بالصَّلاةِ في كَثِيرٍ من الْآيَات، ولكنه لم يَذْكُرْ منها عَدَد ركعاتِ أي صَلَاة منها، في حين نَجِد هذا مذكورًا ومفصَّلًا في السُّنةِ النَّبَوِيَّة، فسُنَّتُه ﷺ مُبيِّنة لِمَا جَاء مجملًا في الْقُرْآنِ الْكَرِيم، قال تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فالسُّنةُ النَّبَوِيَّةُ الشَّرِيفَة مبيِّنة لِلْقُرْآن، ومُقيِّدة لُمطلَقِه وهي دَلِيلٌ عَلَيْه ومفسِّرةٌ لَه.

ومن ذَلِك: أنَّ اللهَ تعالى ذكر في كِتَابِه فَرْضِيَّةَ الزَّكَاة وَلَكِنَّنَا لا نَجِد في الْقُرْآنِ الْكَرِيم -عَلَى كَثْرَةِ الْآيَاتِ التي تَنَاوَلَتْ هذه الفريضةَ- الأموالَ التي تَجِبُ فِيهَا هذه الزَّكَاة، فَلَم يُذكرْ في الْقُرْآنِ زَكَاةُ الْإِبِلِ وَالْبَقْر وَالْغنَم أو زَكَاةُ الْخَارِجِ من الأَرْضِ ولا زَكَاةُ عُرُوضِ التِّجَارَة، فلا نَجِدُ في الْقُرْآنِ إلَّا الأَمْرَ بِإِيتَاءِ الزَّكَاة، ولا نَجِدُ فيه ذكرَ النِّصاب، لا نِصَابَ الْإِبِلِ ولا الْبَقَرِ ولا الذَّهبِ ولا الْفِضَّة، ولا غير ذلك مِمَّا نَراه مبيَّنًا ومفصَّلًا في السُّنةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَة.

فَفِي قولِه تعالى مَثَلًا: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، لم يُذكَرُ في الْآيَةِ أيَّ يدٍ تُقطَع، وَلَكِن جَاءَت السُّنَّةُ الشَّرِيفةُ فبيَّنت أنَّ الْيَدَ الْيُمْنَى هي التي تُقطعُ وبيَّنت كَذَلِك حدَّ الْيَدِ التي تُقْطَع، فبيَّنت أن الذي يُقطع من الْيَد هو من بِدَايَةِ مِفْصلِ الكَفِّ ويُترَك الذِّرَاعُ والعَضُد.

فَلَو اقْتَصَرْنَا على ما جَاء في الْقُرْآنِ لَبَقِيَت الأَحْكَامُ معطَّلة؛ لأَنَّه لا يُوجَدُ ما يُفسِّرُها ولا ما يُوضِّحُها ويُبيِّنُها كما هو مَوْجُودٌ في السُّنةِ النَّبوِيَّة، سَوَاء كانت مُتَوَاتِرَةً أو آحادًا؛ إذ الْمُتَوَاتِرُ من الأَحَادِيثِ قَلِيلٌ قياسًا لِمَجْمُوعِ السُّنةِ النَّبوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ التي أَغْلبُها من الْأَحَادِيثِ الْآحاد، فلو تَرَكْنَا الْآحَادَ لّما بَقِي شَيْءٌ يُذكر منها.

وَلَكِن هَؤُلَاء حالُهم كما جَاء في الْحَدِيثِ جَهَلةٌ خاملون لا يَطْلُبُون الْعِلْمَ من مظانِّه، ولم يتكلَّف أَحَدُهُم دِرَاسَةَ الْأَسَانِيد، وإِنَّما هو مُتَّكِئٌ على أَرِيكَتِه كما وصفه رَسُولُ اللهِ ﷺ، وهذا كلُّه نَتِيجَةُ الْبَقَاءِ على الْجَهْلِ وَعدمِ السَّعي للتعلُّم، وفي هذا خَطَرٌ عَظِيمٌ يُخشَى على الأمَّةِ منه ومن هذا الْمَقَالَاتِ الْفَاسِدَة، وَالْعلمُ لا يُؤْخَذُ من كلٍّ من ادَّعاه وإِنَّما يُؤْخَذُ من الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخين الْمَعْرُوفِين الَّذِين تلقَّوه عمَّن قَبْلِهِم، وَإِلَّا سنقعُ فِيْمَا أَخْبَر عَنْه الرَّسولُ ﷺ.

فَفِي الْحَدِيثِ الدَّعوةُ إلى وُجُوبِ الْعَمَل بالسُّنةِ والتَّصديقِ بها وأنَّ هذا من حقِّ الرَّسولِ ﷺ عَلَيْنَا، وَعدم الِاكْتِفَاءِ بِمَا جَاء في كتابِ اللهِ تعالى الذي يَدْعُو أصلًا إلى أَخذِ ما جَاء به الرَّسُولُ ﷺ، وَإِلَّا فَمَا معنى قوله تَعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]؟!

أَوَلَيْس في الْقُرْآنِ قولُه تعالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]؟!

أَوَلَيْسَ في الْقُرْآنِ قولُه تَعالَى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠] وقوله تَعالَى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]؟!

بَابُ تَحريضِه ﷺ على لُزومِ السُّنة

والتَّرغيبِ في ذلك وتَرْكِ البِدَعِ والتَّفرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ والتَّحذيرِ من ذَلِك.

وقول اللهِ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١].

وقوله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٥٩].

وقوله تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣]. **[١٠٥]**

وَالسُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ وحيٌ من اللهِ تَعَالَى، قال تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤]، ولهذا فإنَّ الْعُلَمَاءَ يُسمُّونها الوحيَ الثَّانِي، وَالْقُرْآنُ هو الْوَحْيُ الْأَوَّل.

[١٠٥] **قوله: «بَاب تَحْرِيضه ﷺ على لُزُوم السُّنة» التَّحْرِيضُ مَعْنَاه:** الحثُّ على «**لُزُوم السُّنة**» أي: التمسُّك بِطَرِيقَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فالسُّنةُ يُراد بها: الطَّرِيقَة؛ أَي: طَرِيقَة النَّبِيِّ ﷺ، ويُراد بها: ما ثَبَت عَنْه ﷺ من أَقْوالٍ وَأَفْعَالٍ وَتَقْرِيرات.

فَمَعْنَى «**لُزُوم السُّنة**» أي: التمسُّك بها؛ لأَنَّهَا هي ضَمَانُ النَّجاةِ يومَ الْقِيَامَة، فمن تَرَكَ السُّنةَ هَلَك، واللهُ ﷻ يَقُول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ أي: قُدْوَة حَسَنَة.

وَقَال ﷺ: «**عَلَيْكُم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ المَهْدِيِّين**»(١).

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٤٦٠٧)، والترمذي رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه رقم (٤٤)، وأحمد رقم (١٧١٤٢).

وَقَال أيضًا ﷺ: « **إِنِّي تَارِكٌ فِيكُم ما إِنْ تَمَسَّكْتُم به لَن تَضِلُّوا بَعْدِي، كِتَابَ اللهِ وسُنَّتي** »(٢).

وَالْمُرَاد بِكِتَابِ اللَّه: الْقُرْآنُ، وَالْمُرَادُ بالسُّنةِ: ما كان عَلَيْه ﷺ من الطَّرِيقَةِ وَالأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ والتقريرات الْوَارِدَةِ عَنْه ﷺ؛ لأنَّ السُّنة تفسِّرُ الْقُرْآنَ وتوضِّحُه وتدلُّ عَلَيْه، وهي الْوَحْيُ الثَّانِي، وهي الْحِكْمَةُ، قال تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]. فلا نجاةَ إلَّا بالتمسُّك بسُنَّة الرَّسول ﷺ.

ولا شكَّ أنَّ أَصْلَ سُنَّةِ الرَّسولِ هو التمسُّكُ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيم؛ فَقَوْلُه: « **والسُّنّة** » أَي: الْقُرْآن؛ لأنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ هو الْأَصْلُ، فلا نَجاةَ إلَّا بالتَّمسُّكِ بالسُّنةِ في كلِّ وُقِّتٍ وفي كلِّ زَمَان، فمَن حَاد عن السُّنةِ وَأَخذ بِغَيْرِهَا هَلَك، ومن أَخذ بها وَسَار عليها نَجا، سَوَاءٌ كانت السُّنةُ في الْعَقِيدَةِ أو في الْعِبَادَاتِ أو في الْمُعَامَلَاتِ أو في الْآدَابِ وَالْأَخْلَاق، فالسُّنةُ عامَّةٌ وأَوْلى ذلك في الْعَقِيدَةِ التي دَعَا إِلَيْهَا الرَّسُولُ ﷺ، فقد كان أَوَّلُ ما دَعَا إِلَيْه النَّبِيُّ ﷺ كغيره من الْأَنْبِيَاءِ هو التَّوْحِيدُ وَإِصْلَاحُ الْعَقِيدَة، ثم بعد ذلك يَأْتِي الْعَمَلُ فِيمَا دَعَوْا إِلَيْه عَلَيْهِم الصَّلاةُ وَالسَّلام.

وَقَوْله: « **وتَرْك البِدَع** » فقد نَهى ﷺ عن الْمُحدَثاتِ وَالْبِدَع؛ لأَنَّهَا مُخَالِفَةٌ للسُّنةِ النَّبوِيَّة الشَّرِيفَة.

والبِدَع: جَمع بِدْعَة: وهي كلُّ ما أُحدثَ في الدِّين مِمَّا ليس منه،

---

(١) أخرجه: الدارقطني رقم (١٤٩)، والبيهقي رقم (٢٠١٢٤).

وَيَشْمَلُ الْبِدْعَةَ في الِاعْتِقَادِ والبدعةَ في الْعِبَادَةِ وفي الْأَعْمَال.

قَال ﷺ: «**مَن عَمِلَ عَمَلًا لَيْس عَلَيْه أمرُنا فَهُو رَدٌّ**»(١).

وَقَال ﷺ: «**وإيَّاكم وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فإنَّ كلَّ مُحدَثةٍ بِدْعةٌ**»(٢).

فَالْوَاجِبُ أن تُعرضَ أقوال النَّاسِ وَالْعُلَمَاءِ وَأَفْعَالَهُم وَعِبَادَاتِهِم وَاجْتِهَادَاتِهم على سُنَّةِ الرَّسولِ ﷺ، فَمَا وافقَ السُّنةَ فإنَّه يُؤْخَذُ بِه، وما خَالَفَهَا فإنَّه يُترَكُ ولا يُعمَلُ بِه، وَإِن اسْتَحْسَنَه من اسْتَحْسَنَه وَاعْتَبَرَه زيادةَ خَيْر أو عِبَادَة، وَالْحَقِيقَةُ أنَّ ما خَالَفَ السُّنةَ إنَّما هو شَرٌّ وليس بِخَيْر؛ لأَنَّه يُبعد عن اللهِ ﷻ.

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] في هذه دليلٌ على وُجُوبِ الْتِزَامِ السُّنةِ النَّبوِيَّةِ وَالِاقْتِدَاءِ بِالنَّبِيِّ ﷺ، **والأُسوة**: هي الْقُدْوَة؛ والتأسِّي مَعْنَاه الِاقْتِدَاء، فالقدوةُ هو الرَّسُولُ ﷺ ومن عَدَاه فَإِنَّما يُقتدَى به إذا وَافقَ سُنَّته ﷺ، وأمَّا من خَالَفَهَا فهو ليس قدوةً، بل هو قُدْوَةٌ سيِّئة.

وقولُه تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

لَقَد سَاق الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الْآيَة لأَنَّه جَاء في تَرْجَمَة الْبَاب النَّهْي

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (١٧١٨).

(٢) أخرجه: أبو داود رقم (٤٦٠٧)، والترمذي رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه رقم (٤٤)، وأحمد رقم (١٧١٤٢).

عن التفرُّقِ وَالِاخْتِلَاف؛ وَالدَّلِيلُ على ذلك قوله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

والدِّينُ وَاحِدٌ وهو ما جَاء به الرَّسولُ ﷺ، وما خَالَفَه فليس بِدينٍ وَإِن زَعَم أَصْحَابُه أنَّه من الدِّين، والتفرُّقُ يُحدِثُ الشِّقاقَ وَالْبَغْضَاءَ وكثرة الْأَهْوَاء وقد يُحدِثُ القتالَ وسَفْكَ الدِّمَاء، وقد يُخِلُّ بِالْأَمْن، فَلَابُدَّ من الاتِّفاقِ على ما جَاء به الرَّسولُ ﷺ؛ قال تَعَالَى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وَقَال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]؛ فقد ذكر اللهُ تعالى عن أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُم لمَّا تفرَّقوا هَلَكُوا؛ فالتفرُّقُ لا خَيْر فِيْه!

ومن الْمَعْلُومِ أنَّ النَّاسَ يَخْتَلِفُون في الِاجْتِهَادِ وَالْآرَاءِ وَالْفِقْه، وَلَكِنَّ الْوَاجِبَ عَرضُ أَقْوَالِهِم وَاجْتِهَادَاتِهم وَآرَائِهم على كتابِ اللهِ تعالى لِيَجْتَمِعَ المتفرِّقون.

قَال اللهُ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النِّسَاء: ٥٩]. فَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى كِتَاب الله و ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ فِي حَيَاتِه ﷺ يُرَدُّ إِلَيْه، وَبعْد مَوْتِه إلى سُنَّتِه ﷺ؛ فَالْخِلَافُ يُحسَم وَالنِّزَاعُ يُنهَى وذلك بالرُّجوعِ إلى كتابِ اللهِ تعالى وسُنَّةِ رَسُولِه ﷺ.

وَقَد كان الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِم يَخْتَلِفُون في بَعْضِ الْأُمُور،

وَلَكِنَّهُم كانوا يردُّون خِلَافَهُم إلى كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسُولِه ﷺ ثم يَتَّفِقُون، وهكذا كان من بَعدِهم من أَهْلِ الإِيمَانِ وَالصِّدْق، فقد كانوا إذا اخْتَلَفُوا ردُّوا خِلَافَهُم إلى كتابِ اللهِ تعالى وسُنَّةِ رَسُولِه ﷺ، فَلَم يَكُنْ أَحَدُهُم يتعصَّبُ لِرَأْيِه؛ لأنَّ هذا لم يَكُنْ من شَأْنِهم رَحِمَهُم اللهُ تَعالَى.

وقولُه تَعالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

قَوله تَعالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾ [الشورى: ١٣] أي: شَرَع الله لَكُم ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣] وهو أَوَّلُ الرُّسلِ ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣] يا مُحمَّد ﷺ ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى: ١٣] هَؤُلَاء خَمْسَةُ رُسُلٍ وهم أُولو الْعَزْمِ الْوَارِد ذِكْرُهم في آيَةٍ أُخْرَى في قولِه تَعالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧] فَهَؤُلَاء هُم أُولُو الْعَزْمِ من الرُّسُلِ على الْقَوْلِ الْمَشْهُور.

﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ [الشورى: ١٣] وَدِينُ الرُّسلِ وَاحِد، لَكِن ذكرَ هَؤُلَاء الرُّسُل؛ لأَنَّهُم أُولُو الْعَزْم، وَإِلَّا فدِينُ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ جَمِيعِهِم وَاحِد، وهو عِبَادَةُ اللهِ وَحدَه لا شَرِيكَ لَه، وَإِن اخْتَلَفَت شَرَائِعُهم بِحَسْبِ الْمَصْلَحَةِ وَالْحِكْمَةِ التي يَعْلَمُها اللهُ تَعالَى، وَلَكِنَّ عِبَادَةَ اللهِ هي عِبَادَتُه في كلِّ وقتٍ بِمَا شَرَع، فإذا نُسِخ فَالْعَمَلُ على النَّاسِخِ ويُترك الْمَنْسُوخ، واللهُ ﷻ يُشَرعُ لِكُلِّ أمَّةٍ ما يُناسبُها ثم يَنْسَخُه بِشَرِيعَةٍ أُخْرَى تُنَاسِب الْجِيلَ الذي بَعْده... وهكذا إلى أن جَاء مُحَمَّدٌ ﷺ فَنسخَ اللهُ به الشَّرَائِعَ السَّابِقَة، وَبَقِي دِينُ الإسلامِ الذي جَاء به ﷺ، هذا في الْفُرُوع،

وعن الْعِرْبَاضِ بن سَارِيَةَ ﷺ قَال: وَعظَنا رسولُ اللهِ ﷺ موعظةً بليغةً، ذَرَفتْ منها العيونُ، ووَجِلَتْ منها القلوبُ، فقال قائلٌ: يا رسولَ اللَّه، كان هذه موعظةُ مودِّعٍ فَمَا تعهدُه إلَيْنا؟ فَقَال: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّه مِنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّواجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كَلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». رَوَاه أَبُو دَاوُد والترمذيّ وصحَّحه وابنُ مَاجَه[1].

وفي رِوَايَةٍ له[2]: «لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتَلَافًا كَثِيرًا . . .» ثم ذَكَرَه بِمَعْنَاه. [١٠٦]

وأمَّا الْأُصُولُ فلا يَقَع فِيهَا نسخٌ، فَالتَّوْحِيدُ ليس فيه نسخ، وإنَّما النَّسْخُ يكونُ في الأَحْكَامِ الْعَمَلِيَّةِ كَالْبِيَعِ والشراءِ وَالْأَنْكِحَةِ وَنَحو ذلك مِمَّا يَجْرِي فيه التَّغْيِيرُ حَسْب حِكْمَةِ اللهِ ﷻ، بِخِلَافِ أُصُولِ الدِّين وَالْعَقِيدَةِ فلا نسخ في ذَلِك.

وَالشَّاهِدُ في الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ قوله تَعَالَى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ﴾ [الشُّورَى: ١٣]. أَي: أَقِيمُوا الدِّينَ على ما جَاء من غيرِ اخْتِلَاف ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ﴾.

[١٠٦] هَذَا حَدِيثٌ عَظِيم، فيه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَعَظَ أَصْحَابَه،

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٤٦٠٧)، والترمذي رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه رقم (٤٤)، وأحمد رقم (١٧١٤٢).

(٢) أخرجه: ابن ماجه رقم (٤٣)، وأحمد رقم (١٧١٤٢)، والحاكم رقم (٣٣١).

وهذا من سُنَّتِه ﷺ أنَّه كان يَتخوَّلهم بِالْمَوْعِظَةِ أحيانًا، فَيُؤْخَذُ من هذا مَشْرُوعِيَّةُ الْمَوْعِظَة، وأنَّ الْعَالِمَ أو الْوَاعِظَ أو إمَامَ الْمَسْجِدِ يَنْبَغِي له أَلَا يَغفَلَ عن جَمَاعَتِه من الْمُسْلِمِين، بل يَعِظُهُم أحيانًا ولا يُطيلُ عَلَيْهِم وَيَتْرُكَهُم دون أن يُذَكِّرهم بِمَا فيه خيرُهم في الدُّنيا وَالْآخِرَة.

وَقَد كان ابنُ مَسْعُود ﷺ يَعِظُ أصحابَه، فَطَلَبُوا منه أن يُدَاوِمَ على الْمَوْعِظَة؛ فقال لَهُم: إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كان يتخوَّلنا بِالْمَوْعِظَة في الْأَيَّامِ كَرَاهِيَةَ السَّآمةِ عَلَيْنَا [(١)].

وفي الْحَدِيث: أنَّ الرَّسُولَ ﷺ وَعَظ أَصْحَابَه في يوم من الْأَيَّام، وجَاء في بَعْضِ الْأَحَادِيثِ أنَّ ذلك كان بعد صَلَاةِ الْفَجْر [(٢)].

وَقَوْله: «مَوْعِظَة بَلِيغَة ذَرَفَت منها الْعُيُون» وذلك أنَّه ﷺ أُعطِيَ جوامعَ الكَلِم وفَصْلَ الْخَطَّاب، وكان ﷺ يَخْتَارُ الْأَلْفَاظ المؤثِّرَة في مَوْعِظَتِه دونَ أن يُسْتَطْرَدَ بِمَا لا فَائِدَةَ فِيه.

وَقَوْله: «وَجِلَتْ منها الْقُلُوب» يَعْنِي: بَلَغ تَأْثِيرُهَا إلى الْقُلُوبِ وَالْأَفْهَام.

وَقَوْله: «فَقَال رَجُل: يا رَسُولَ اللَّه، كأنها مَوْعِظَة مودِّع» يَعْنِي: كان قد فهم هذا الرَّجُلُ أن هذه الْمَوْعِظَةَ في آخِرِ حَيَاتِه ﷺ، فَسَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِمَا فَهِم.

وَقَوْله: «فَمَا تَعْهَد إلَيْنَا» يَعْنِي: أَوْصِنا، لأَنَّه منه عَادَة العالِم أو وليِّ

(١) أخرجه: البخاري رقم (٦٠٤٨)، ومسلم رقم (٢٨٢١).
(٢) أخرجه: أحمد رقم (١٧١٤٥).

الأَمْر أو الْوَالِد أنَّه يُوصي عند نِهَايَة حَيَاتِه من خَلْفَه.

وقوله ﷺ: «**أُوصيكم بِتَقْوَى الله**» وَتَقْوَى اللَّه: هي فعلُ أَوَامِرِه وتَرْك نَوَاهِيه، وسمِّيت تَقْوَى؛ لأَنَّهَا تَقي من عَذَابِ اللَّه.

والتقوى كَلِمَةٌ عَظِيمَةٌ رتَّبَ اللهُ ﷻ عليها خَيْرَاتٍ كَثِيرَة، ومعناها: الْعَمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ على نورٍ من اللَّه، لِرَجَاءِ ثَوَابِ اللَّه، وتَرْك مَعْصِيَةِ اللهِ على نورٍ من اللَّه؛ مَخَافَة من عِقَابِ اللَّه، فَقوله ﷺ: «**أُوصيكم بِتَقْوَى الله**» أَي: فعل أَوَامِره وتَرْك نَوَاهِيه؛ رجاءً وخوفًا.

وقوله ﷺ: «**والسَّمع وَالطَّاعَة**» لوليِّ الأَمْر؛ لأَنَّه بها يَحْصُل اجْتِمَاعُ الْكَلِمَة، وَتَنْتَظِمُ بها الْمَصَالِحُ، وهي سببٌ لِلاتِّفَاق، ومَنْجاةٌ من الِاخْتِلَاف، فلا يَحْصُلُ الِاجْتِمَاعُ وَالِاتِّفَاقُ إِلَّا بوليِّ أمرٍ يَسُوسُ النَّاسَ ويُنفِّذُ فِيهِم أَوَامِرَ اللهِ ﷻ، وَيَدْفَعُ عَنْهُم الْأَذَى والعدوَّ، ويُقيمُ الحدودَ، وَيمْنَعُ الظَّالِم، ويردُّ الْحُقُوقَ إلى أَصْحَابِهَا، ولا يكونُ كلُّ هذا إِلَّا بِوُجُودِ وليِّ الأَمْر، ولا يكونُ وليُّ الأَمْرِ إِلَّا بالسَّمعِ وَالطَّاعَة؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النِّسَاء: ٥٩].

وقوله ﷺ: «**وإنْ كان عبدًا حبشيًّا**»، أَي: لا تَحْتَقِرُوا وليَّ الأَمر ولا تُهوِّنوا من شَأْنِه، أو تَسبُّوه عند النَّاسِ إن كان ممَّن نَسَبُه وضيعٌ عِنْدَكُم، فلا يُنظَر إلى نَسَبِه وإنَّما يكونُ النَّظرُ في هذا إلى الْمَنْصِب، فَالْإِنْسَانُ سَوَاءٌ كان حرًّا أو عبدًا فإنَّه إذا ما تولَّى أَمْرَ الْمُسْلِمِين فإنَّه يُنظَرُ إلى مَنْصِبِه فتَجِبُ طاعتُه، وتَحرُم مُخَالَفَتُه.

وقوله ﷺ: «**فَإِنَّه من يَعِشْ مِنْكُم**» أَي: من سَتَطُول به الْحَيَاة، وهذا

خَبَرٌ منه ﷺ «**فَسَيَرَى اختلافًا كثيرًا**» وهذا أيضًا خَبَرٌ من بابِ التَّحْذِير، بِأَنَّه سَيَكُون في ذلك الزَّمَان اخْتِلَافٌ وَاسِعٌ عمَّا عَلَيْه الْوَضْع الآن، وإذا ما حَصَل هذا الِاخْتِلَافُ فلا عَاصِمَ منه، ولا شَيْء يُمْكِن أن يُنجي منه سِوَى الْعَوْدَة إلى كتابِ اللهِ تعالى وسُنةِ نبيِّه ﷺ والتمسُّكِ بِهِمَا.

وَلَهَذَا قال ﷺ: «**فَعَلَيْكُم بسُنَّتي**» فهي سَبِيلُ النَّجاة «**وسُنَّة الْخُلَفَاء الرَّاشِدِين المهديِّين من بَعْدِي**» وهم أَبُو بَكْر وَعمرُ وعثمانُ وعليٌّ ﷺ، فهؤلاء هُم الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُون المهديُّون، وَعَمَلُهُم حُجَّةٌ وسُنَّةٌ تُتَّبع؛ ولهذا قال ﷺ: «**فَعَلَيْكُم**» وهي كلمةُ حَثٍّ، مَعْنَاهَا: الزموا سُنَّتي كقولِه تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ [المائدة: ١٠٥]؛ أَي: الْزَمُوا أنفُسَكم.

وقوله ﷺ: «**تَمسَّكوا بها**» زِيَادَة تَأْكِيد لِقَوْلِه: «**فَعَلَيْكُم**» وَزَاد تأكيدًا ﷺ وَقَال: «**عَضُّوا عليها بالنَّواجذ**» وَالنَّوَاجِذ: الْأَضْرَاس.

وهذا مِثَالٌ لِلَّذِي وَقَعَ في مُصِيبَةٍ أو مَهْلَكة، أو كَالْغَرِيقِ الْمُمْسِكِ بالحَبْلِ الذي هو سَبِيلُ نَجاتِه حَال خَوْفِه أن يُفْقَدَ هذا الحَبْل فإنَّه يَعَضُّ عَلَيْه بِأَسْنَانِه وَأَضْرَاسه؛ إذ لو أَفْلَتَ منه هذا الحَبلُ لَهَلَك، فلا نَجاةَ له بعد اللهِ إلَّا هذا الحَبْل، فهو من شدَّةِ خَوْفِه وَحِرْصِه عَلَيْه، فإنَّه يَعَضُّ عَلَيْه بأضراسِه ولم يَكتفِ بأنْ يُمسِكَه بِيَدَيْه خوفًا من أن يَنفلتَ منه؛ فقد شبَّه ﷺ الذي يَقَع في الْفِتَنِ وَحَاجَتِه للتمسُّكِ بالسُّنةِ كَحَاجَةِ الْغَرِيقِ لأن يتمسَّك بالحَبْل وَإِلَّا فإنَّه لَن يَنْجُو؛ وهذا تَشْبِيهٌ بَلِيغٌ منه ﷺ.

ثُمَّ قال ﷺ: «**وإياكم وَمُحْدَثَات الْأُمُور**» وفي هذا تَحْذِيرٌ منه ﷺ من

إِحْدَاثِ الْبِدَعِ، وَالْبِدْعَة: ما أُحدِثَ في الدِّيْن ممَّا ليس منه، وأمَّا ما أُحدِثَ في أُمُورِ الدُّنيا من الصِّنَاعَاتِ وَالْمُخْتَرَعَاتِ فلا بَأْسَ به ولا يُعَدُّ من البِدَعِ، وإنَّما الْكَلَامُ على ما أُحدثَ في الدِّينِ ممَّا ليس منه.

قولُه: « **فإنَّ كلَّ مُحدَثةٍ بِدْعَة، وكلَّ بِدْعَة ضَلَالَة** » في هذا ردٌّ على الْقَائِلِين بأنَّ هناك بدعًا حَسَنَةً ومُحدثاتٍ طَيِّبَة؛ لأَنَّه ليس هناك بِدْعَةٌ حَسَنَة، وإنَّما كلُّ البِدَعِ وَالْمُحْدَثَاتِ شرٌّ؛ لأنَّ اللهَ ﷻ أَكْمَل لَنَا الدِّيْن، ومات ولم يمت الرَّسولِ ﷺ إلَّا بعدما أَكْمَلَ اللهُ به الدِّين، قال تَعالَى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾ [المائدة: ٣] فلا حَاجَةَ إلى إِضَافَاتٍ وَاسْتِحْسَانَاتٍ يَأْتِي بها النَّاسُ في أُمُورِ الدِّين، فَيَكْفِينَا الدِّيْنُ الذي أَكْمَلَه اللهُ تَعالَى، ولا حَاجَةَ لَنَا إلى الزِّيَادَة.

وقوله في الرِّوَايَة الأُخْرَى: « **لَقَد تَرَكْتُكُم على الْبَيْضَاء** » أَي: الجادَّة الْوَاضِحَة، وهي صِرَاطُ الله ﷻ، فَمَن سَار عَلَيْه نَجا، ومن تَرَكَه هَلَك، فلا طَرِيقَ إلى الْجَنَّةِ إلَّا من خِلَال اتِّباعِ سُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ، فَمَن تَرَكَهَا كان حالُه كَحالِ الذي أَضَاع الطَّرِيقَ في مَهلكة.

وَيَدُور على أَلْسِنَةِ بَعْضِ النَّاسِ قَوْلهم: « **تَرَكْتُكُم على المحجَّة الْبَيْضَاء** » وَكَلِمَة « **محجَّة** » لم تَثْبُتْ عن النَّبِيِّ ﷺ وإنَّما الذي ثَبَت قولُه ﷺ: « **تَرَكْتُكُم على الْبَيْضَاء** » وهي المِلَّةُ والحُجَّةُ الْوَاضِحَة التي لا تقْبَلُ الشُّبهَ أصلًا؛ ولهذا جَاء بَعْدَهَا قولُه ﷺ: « **لَيْلِهَا كَنَهَارِهَا** » فَصَار حَالُ إِيرَادِ الشُّبه عليها كَحالِ كَشْفِها عنها ودَفْعِها.

هَدْيُه ﷺ خَيْرُ الْهَدْي

وَلِمُسْلِم عن جَابِرٍ رضي الله عنه قَال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «أَمَّا بَعْد؛ فَإِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُها، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[1]. [١٠٧]

---

[١٠٧] كَان ﷺ يقول في خُطَبه: «**أَمَّا بعدُ**» وهي كَلِمَةٌ يُؤْتَى بها لِلانْتِقَال من كَلَام إلى كَلَامٍ آخَر، فهي فَاصِلَةٌ بين كَلَامَيْن.

وَقِيل: هي فَصْلُ الْخَطَّابِ الذي أُوتيه دَاوُدُ عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠].

فَكَان ﷺ يَحْمَدُ اللهَ في خُطَبِه ويُثْني عَلَيْه ثم يقول «**أَمَّا بعدُ**».

وقوله ﷺ: «**فإِنَّ خيرَ الْحَدِيثِ كتابُ الله**» أي: الْقُرْآن، وَالْحَدِيثُ مَعْنَاه الْكَلام، وَالْقُرْآنُ حَدِيثٌ لأَنَّه كَلَامُ اللَّه؛ قال تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] فَالْقُرْآنُ حَدِيث؛ ولهذا قال تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزُّمَر: ٢٣] فيسمَّى حديثًا ويسمَّى قرآنًا وكلامًا، وهو خيرُ الْحَدِيث، فلا شَيْءَ يُوَازِي الْقُرْآن؛ لأَنَّه كَلَامُ اللهِ جل جلاله، وهو أَصْدَقُ الْحَدِيث.

وَقَوْله: «**وخيرُ الهَدْي**» أَي: السُّنة التي تُتَّبع «**هَدْي مُحَمَّد** ﷺ» وفي رِوَايَة: «**أحسنُ الهَدْي هَدْيُ الأَنْبِيَاء**»[2]. وَلَكِنَّ الْمَعْرُوفَ وَالْمَشْهُورَ «**خَيْر الهَدي هديُ مُحَمَّد**».

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٨٦٧).

(٢) أخرجه: القضاعي رقم (١٣٢٣)، وابن أبي شيبة رقم (٣٤٥٥٢).

مَعْصِيَة الرَّسُول ﷺ تُوجِب دُخُول النَّار

وَلِلْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: «كلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَي» قِيل: وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»[1]. [١٠٨]

وَقَوْله: «شرَّ الْأُمُور مُحْدَثَاتُهَا» لمَّا ذكر ﷺ خَيْرَ الْأُمورِ ذكر شرَّها، وهي الْمُحْدَثَاتُ التي تُحدَث في الدِّين.

وفي هذا ما يدلُّ على أنَّه لا يَكْفِي من الْمَرْءِ أن يبيِّنَ لِلنَّاسِ الحقَّ وَيُتْرَكَ بَيَانَ الْبَاطِل، كما يقول بَعْض الجُهَّال: علِّموا الناسَ التَّوْحِيدَ ولا دَاعِي لِتَعْلِيمِهِم الشرك! وَالصَّحِيحُ في ذلك هو ذكرُ النَّقِيضِ أيضًا لِأَجْلِ أن يَجْتَنِبُوه، وَالرَّسُولُ ﷺ ذكر الْأَمْرَيْن، فلمَّا ذكر الْخَيْرَ ذكر أيضًا الشرَّ لِأَجْلِ أن يَحْذَرَه النَّاس، فَلا بدَّ من بَيَانِ الْخَيْرِ وَبَيَانِ الشَّرِّ؛ ولهذا نَجِدُ في كُتُبِ الْعَقَائِدِ بيانًا لِلتَّوْحِيدِ وبيانًا لِلشِّرْك، وَنَجْدُ فِيهَا بيانَ قَوْلِ أَهْلِ السُّنةِ وَالْجَمَاعَةِ وَبَيَانِ قَوْلِ الطَّوَائِفِ الضالَّةِ من أَجلِ الْحَذَرِ منهم؛ ولهذا قال ﷺ: **«وشرَّ الْأُمُور مُحْدَثَاتُهَا»** وهي الْبِدَع.

وقوله ﷺ: **«وُكل بِدْعَة ضَلَالَة»** هذا زِيَادَةُ تَوْضِيح منه ﷺ، وفي هذا نفيٌ وردٌّ لِمَن يقول بِوُجُودِ بِدْعَة حَسَنَة، وَكَلِمَة «**كَلّ**» فِيهَا ردٌّ لِلْقَائِلِين بهذا الْقَوْل، وجَاء في بَعْضِ الرِّوَايَات: **«وُكل ضلالةٍ في النَّار»**[2].

[١٠٨] هذا الْحَدِيثُ فيه أنَّ من أَطَاع الرَّسول ﷺ دَخَل الجَنة،

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٦٨٥١).

(٢) أخرجه: النسائي رقم (١٥٧٨).

سُنَّة الرَّسُول ﷺ هي السُّنة السَّمْحَةُ

ولَهُمَا عن أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: جَاء ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا بِهَا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: أَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ! قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَأُصَلِّي اللَّيلَ أَبَدًا. وَقَالَ الآخَرُ: أَنَا أَصُومُ النَّهَارَ وَلَا أُفْطِرُ. وَقَالَ الآخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا. فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا! أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»(١). [١٠٩]

فالذي يُرِيد الْجَنَّة عليه بِطَاعَة الرَّسول ﷺ، وقد بيَّن ﷺ كَيْف أنَّ الْإِنْسَان يَأْبَى دُخُول الجنَّة، وذلك بِعِصْيَانِه وَمُخَالَفَة أَمْرِه ﷺ.

وفي هذا دَلِيلٌ على أنَّ طَاعَة الرَّسُول ﷺ هي السَّبَب لِدُخُول الْجَنَّة، وأنَّ مَعْصِيَتَه هي السَّبَب لِلْحِرْمَان من الْجَنَّة وَالدُّخُولِ في النَّار؛ لأنَّ طَاعَتَه ﷺ إنَّما هي طَاعَةٌ لِلَّه ﷻ، وهو ﷺ لا يَأْمُر إلَّا بما أَمَر الله به، فمَنْ فَعَل ما أَمَره به الرَّسُولُ ﷺ فَإِنَّمَا أَطَاع الله ﷻ، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠].

[١٠٩] في هذا الْحَدِيثِ بَيَان أنَّ سُنَّة الرَّسول ﷺ هي السُّنَّة السَّمحةُ والسَّهْلةُ التي ليس فيها تشدُّدٌ ولا غُلوٌّ ولا تطرُّفٌ، كما أنَّه ليس فيها تساهُلٌ، فهي سُنَّة مُعْتَدِلَةٌ، بعيدةٌ عن الْإِفْرَاط وَالتَّفْرِيطِ.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٥٠٦٣)، ومسلم رقم (١٤٠١) بنحوه.

قَوْلُه: « **جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ** » أي: من الصَّحابة؛ **والرَّهْط**: من ثَلَاثَةٍ إلى عَشَرة، « **إِلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ** ﷺ » وهذا من حِرْصِهِم ﷺ على الْخَيْر، وهم إنَّما أَرَادُوا الرُّجوع إلى سنَّة النَّبِيِّ ﷺ لِيَبْنُوا عليها ما هُمْ عليه من الْعِبَادَة، وهكذا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِم أن يكون، فَيَرْجِع إلى سُنَّة الرَّسول ﷺ دون أن يَبْتَدِع شيئًا من عِنْدِه، فهؤلاء ﷺ لم يَعْتَمِدُوا على اجْتِهَادِهِم، وإنَّما ذَهَبوا إلى بُيُوت النَّبِيِّ ﷺ؛ لأَنَّه هو الْقُدْوَة، فَسَأَلُوا عن عَمَلِه لِأَجْل أن يَقْتَدُوا به، فَلَمَّا ذَكَرَت لهم نِساءُ النَّبِيِّ ﷺ عِبَادَتَه ﷺ « **كأَنَّهم تقالُّوها** » أي: رَأَى كُلٌّ منهم أنَّها قَلِيلَةٌ، ثم إنَّهُم اعْتَذَرُوا لِرَسُول الله ﷺ؛ بِمَعْنَى أَنَّهُم قالوا: إنَّ رسولَ الله ﷺ مغفورٌ له ما تقدَّم من ذَنْبه وما تأخَّر. أي: إنَّه ﷺ ليس بِحَاجَةٍ إلى زِيَادَة عبادةٍ، وأيْنَ نحن منه وقد غَفَر الله له؛ لقوله تعالى: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ٢].

وَمَع أنَّه ﷺ مَغْفُورٌ له إلَّا أنَّه لم يَتْرُكِ الْعِبَادَة بل قَامَ حتَّى تَفَطَّرَت قَدَمَاه من طُوْل الْقِيَام، ولَمَّا قالت له عَائِشَة ﵂: لِمَ تَصْنَع هذا يا رَسُول الله وقد غَفَر الله لَك ما تقدَّم من ذَنْبِك وما تَأَخَّر؟ وذلك بعدما رَأَت أنَّه قد تفطَّرت قَدَمَاه ﷺ من كَثْرَة ما كان يَقُوم من اللَّيْل، قال: « **أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟!** »(١).

فالرَّسول ﷺ كانت سُنَّته الِاعْتِدَال، فكان يَصُوم وَيُفْطِر، ويُصَلِّي وَيَنَام، وكان يتزوَّج النِّسَاء، فلا يَحْرِم نفسَه من الرَّاحَة، ولا من الْمُتْعَة ﷺ، وفي الْوَقْت نَفْسِه لم يَكُن لِيَتْرُكَ الْعِبَادَة بل كان يُعطيها

(١) أخرجه: البخاري رقم (١٠٧٨)، ومسلم رقم (٢٨١٩).

حقَّها، فكان ﷺ يَجْمَع بين هذا وهذا؛ فيُعطي نفسَه حقَّها من أُمُور الدُّنيا، ويُعطي الْعِبَادَة حقَّها من أُمُور الدِّين.

وقولُه: «**كَأَنَّهم تقالُّوها**» أي: استقلُّوها وعدُّوها قَلِيلَةً، وَلَكنَّهُم اعْتَبَرُوا أنَّ هناك فَرْقًا بَيْنَهُم وبيْن الرَّسول ﷺ؛ حيث غَفَر الله له ذَنْبَه ما تقدَّم منه وما تَأَخَّر، وقالوا: نَحْنُ بِحَاجَةٍ إلى الزِّيَادَة، وأيْنَ نَحْنُ من رَسُول الله ﷺ! هكذا اجْتَهَدُوا ﷺ، وقال كُلٌّ منهم مَقَالَتَه مُبيِّنا وذاكرًا ما عليه حَالُه من الْعِبَادَة من قِيَام اللَّيْل وَصَوْمِ النَّهار وَاعْتِزَالِ النِّسَاء.

فلمَّا بَلَغ ذلك النَّبِيَّ ﷺ غَضِب ثم قال: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَ وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، وَلَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»؛ فمَن مَال إلى التَّشدُّد وَإلى حِرْمَان نَفْسِه ممَّا أَبَاح الله لَهَا من الرَّاحَة وَالشَّهْوَةِ والاستجمامِ، وَحَمَل نفسَه على الجِدِّ أبدًا، فهو مخالفٌ لسُنَّة الرَّسُول ﷺ.

ففي قوله ﷺ: «**فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»: دَلِيلٌ على تَحْرِيم التَّشدُّد والتَّنطُّعِ في الْعِبَادَة، وَتَحْرِيمِ الْغُلُوِّ وَالْإِفْرَاطِ فِيهَا.

وفيه أَنَّ على الْإِنْسَان أن يَعْتَدِل وأنْ يَأْخُذ من الدِّين بقَدْر ما يَسْتَطِيع؛ فلا أَحَدَ يَسْتَطِيع أن يَسْتَكْمِل الدِّين كلَّه؛ ولهذا قال ﷺ: «**لَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ**»[1]، فلا أَحَدَ يَسْتَطِيع أن يَصِل بِنَفْسِه إلى دَرَجَة الْكَمَال.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٣٩)، ومسلم رقم (٢٨١٦).

بَدَأَ الإسلام غريبًا وَسَيَعُود غريبًا

وعن أَبِي هُرَيْرَة ﷺ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيْبًا وَسَيَعُودُ غَرِيْبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ». رَوَاه مُسْلِمٌ[(١)]. [١١٠]

وَلِهَذَا قال ﷺ: «**إِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا سَفَرًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى**»[(٢)]؛ والمُنْبَتُّ: هو الذي قَطع مركوبَه من شدِّة السَّيْر، مأخوذٌ من البَتِّ: وهو القَطْع؛ أي: صَار مُنقطِعًا لم يَصِل إلى مَقْصُودِه وفَقَد مَرْكُوبه الذي كان سيُوصله لو رَفَقَ به، وَالرَّاحِلَة هي النَّفْس، فإذا شَدَّدْتَ عليها قَطَعَتْكَ.

فَعَلَى الْمَرْء أَنْ يَأْخُذ من الطَّاعَات كَقِيَام اللَّيْل وَالصِّيَام وَسَائِرِ الْعِبادَات دون تَشْدِيد على نَفْسِه؛ لأنَّ الِاعْتِدَال هو الطَّرِيق الصَّحِيحُ، وفي الْحَدِيث: «**أَحَبُّ الْعَمَلِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ**»[(٣)]، ففي الْعَمَل الْقَلِيلِ مع الْمُدَاوَمَة عليه خيرٌ كَثِيرٌ، بِخِلَاف الْعَمَل الْكَثِيرِ الْمُنْقَطِعِ؛ فَالْوَسَط وَالِاعْتِدَال هو الْخَيْر وهو أضمنُ لِلِاسْتِمْرَار، وأمَّا الْفَرَائِض فَلَابُد منها وهي ليس فيها تشدُّدٌ ولله الْحَمْد.

[١١٠] **قَوْلُه**: «**بَدَأَ الْإِسْلَامُ**» أي: في أَوَّل بَعْثة النَّبِيِّ ﷺ، لمَّا دَعَا النَّاس إلى تَوْحِيد الله تعالى مُمْتثِلًا قَوْلَ ربِّه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المُدَّثِّر: ١- ٢] فَاسْتَجَاب له ﷺ الأفرادُ على خوفٍ من الكُفَّار؛ ولهذا قال ﷺ: «**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيْبًا**». والغريبُ: هو الْإِنْسَان الذي

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (١٤٥).

(٢) أخرجه: البيهقي في «الشعب» رقم (٣٨٨٦).

(٣) أخرجه: مسلم رقم (٢٨١٨).

فَارَق وَطَنَه وَأَهْلَه، فَسَار في بَلَدٍ غير بَلَدِه وبيْن أُناسٍ غيرِ أَهْلِه وَأَقَارِبِه، وقد قال النَّبِيُّ ﷺ لِابْنِ عُمَرَ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيْلٍ**»[1].

والإسلام أَوَّل ما بَدَأ كان أتباعُه قَلِيلِين، وهُمْ غُربَاء في وَسْط الْمُجْتَمِع الْكَافِر في مَكَّةَ، ولمَّا سَأَل عَمْرو بْنُ عَبْسَةَ النَّبِيَّ ﷺ: مَنْ مَعَك على هَذَا الأَمْرِ. قال ﷺ: «**حُرٌّ وَعَبْدٌ**»[2]. أي: أَبُو بَكْر وَبِلَال ﵄، ثم ازْدَاد عَدَد الْمُسْلِمِين الذين دَخَلُوا في الإسلام في مَكَّةَ ومِنْ مُخْتَلَف الْقَبَائِل، ثم إنَّه بعد الْهِجْرَة وَتَشْرِيعِ الْجِهَاد زَادَت أَعْدَادُهُم، إلى أنْ فَتَح الرَّسول ﷺ مَكَّةَ فَدَخَل النَّاس في دِين الله أفْواجًا.

ثم إنَّه بعد وَفَاتِه ﷺ وَحَصَل ما حَصَل من رِدَّة كَثِيرٍ من الْقَبَائِل الْعَرَبِيَّةِ وَقَف أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﵁ الْمَوْقِف الْحَازِمَ، فَجَاهَد الْمُرْتَدِّين حتَّى أَخْضَعَهم لِحُكْم الإسلام.

وفي عَهْد عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﵁ انْتَشَرَتِ الْفُتُوحَات الْإِسْلَامِيَّة في الْمَشْرِق وَالْمَغْرِب، حتَّى وَصَل الإسلام إلى كَثِيرٍ من أصْقاع الأَرْض وانتشر انتشارًا هائلًا، وَبَلَغ الإسلام ما بَلَغ اللَّيلُ والنَّهارُ؛ قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩] فَظَهَر دِين الله ﷻ على سَائِر الْأَدْيَان، وكثُر أتباعُه.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٦٠٥٣).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (٨٣٢).

وبعد ذلك جَاءَت خِلَافَة بَنِي أُمَيَّةَ وانتشر الإسلام واتَّسعتِ الْفُتُوحَات وامتدَّت حتَّى خِلَافَة بَنِي العَبَّاسِ، وتلا ذلك فِتْنَة التَّتَار وَحَصَل فيها على الْمُسْلِمِين ما حَصَل.

ثم ما زَال الإسلام يَضعُف ويَقلُّ أهلُه إلى أن يَعُود في آخَر الزَّمان غريبًا كما بَدَأَ، فيكون عليه القِلَّة من النَّاس.

وَالْمُرَاد بِالْإِسْلَام: الإسلام الْحَقِيقِيُّ لا الإسلام المُدَّعَى الذي عليه كثيرٌ من النَّاس، ولكنَّ الْعِبْرَة بِالْإِسْلَام الْحَقِيقِيِّ، وهو الذي لا يكون عليه سِوَى قِلَّةً من النَّاس الذين يَكُونُون كالغُرَباء؛ ولهذا جَاء أنَّ الْمُسْلِمِين بِالنِّسْبَة لِلْأُمَم الْأُخْرَى غُرَبَاءُ، وَأَهْلُ السُّنَّة وَالْجَمَاعَةِ بِالنِّسْبَة للفِرَق الْمُخَالِفَةِ التي تدَّعي الإسلام غُرَباءُ كَذَلِك، وسيئول الأَمْر إلى ما أَخْبَر عنه ﷺ فَيَعُود الإسلام غريبًا وما عليه إلَّا القِلَّة من النَّاس الذين يتمسَّكون به تمسُّكًا صحيحًا.

فَهُنَاك من يدَّعي الإسلام ولكنَّه ليس على حَقِيقَة ما ادَّعاه، وإنَّما هي مجرَّد دَعْوَى لا وَزْنَ لَهَا، وهُنَاك من يدَّعي الإسلام ويتشدَّدُ فيه حتَّى يَخْرُج منه لَيُصْبِح كَالْخَوَارِج والغُلاة، لأنَّ الإسلام الْحَقِيقِيَّ ليس فيه غُلُوٌّ ولا تشدُّدٌ وهو الإسلامُ الصَّحِيحُ، وهذا يَقِلُّ أَصْحَابُه في آخَر الزَّمان حتَّى يكون غريبًا.

ولا بُدَّ من و قُوع ما أَخْبَر به ﷺ؛ لأَنَّه لا يَنْطِق عن الْهَوَى، وهذا خَبَرٌ منه ﷺ مَعْنَاه الحَثُّ على التَّمسُّك بِالْإِسْلَام عند حُصُول الغُرْبَةِ، لِئَلَّا ينجرف الْإِنْسَان مع التَّيَّارات الْمُخْتَلِفَةِ والمُنْحَرِفَةِ بل يَثْبُت على

الإسلام مَهْمَا نَالَه وأصابَه من المَضايقات والأذى حتَّى ممَّن يَنْتَسِبُون إلى الإسلام وَغَيْرِهم من الكُفَّار، حتَّى يَغْدُو غريبًا بين النَّاس، وقد جَاء في الْحَدِيث أنَّه يَأْتِي زَمَانٌ « **الْمُتَمَسِّكُ بِدِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ، أَوْ عَلَى خَبَطِ الشَّوكَةِ** »[1]. فَمَا أَحْوَجَ الْمُسْلِم في ذلك الْوَقْتِ إلى الصَّبْر، وإلَّا فإنَّه سينحرف.

وَقَد سُئِل ﷺ عن الْغُرَبَاء؟ فقال: « **الَّذِين يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ** »[2]، وفي رِوَايَة: « **الَّذِين يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ** »[3]. فهؤلاء هم الغُرباء، يَصْلِحون في أَنْفُسِهِم، ويُصْلِحون ما أَفْسَدَه النَّاس، ومَن يَصْبِر على هذا إلَّا أهْلُ الإيمانِ وَالثَّبات!

وكما أنَّ الإسلام في غُرْبَتِه الأُوْلَى نَال أهْلُه من الْأَذَى والمضايقات ما نَالَهُم؛ فسينال الْمُسْلِمين في آخِر الزَّمان المُتمسِّكين بِالْإِسْلَام أشدُّ مما نَال الأوَّلين؛ لأنَّ الأوَّلين فِيهِم رَسُول الله ﷺ، ولكن في آخَر الزَّمان نَجِد أنَّ المُتمسِّك بِالْإِسْلَام ليس له أعْوانٌ ولا أَنْصَار، بل هو وَاقِعٌ بين أَعْدَاءٍ كَثِيرَيْن، وقد يكون بَعْض هَؤُلَاء الْأَعْدَاء من أَهْلِه، أو حتَّى من أَوْلَادِه وَإِخْوَانِه وَجِيرَانِه، فَيَحْتَاج الْمُسْلِم المُتمسِّك بِدِيْنِه إلى صَبرٍ وَثَبَاتٍ؛ ولهذا فإنَّه ﷺ قال: « **فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ** »؛ وذلك لِمَوقفهم الثَّابِتِ.

(١) أخرجه: أحمد رقم (٩٠٧٣).

(٢) أخرجه: أحمد رقم (١٦٦٩٠).

(٣) أخرجه: الترمذي رقم (٢٦٣٠)، والطبراني في « الكبير » رقم (١١).

ومعنى قوْلِه ﷺ: « **طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ** » أي: إنَّ لِهَؤُلَاء الْغُرَبَاء الْفَرَحَ وَالْخَيْرَ وقُرَّةَ الْعَيْن، أَوْ نِعْمَ مَا لَهُمْ، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٖ ﴾ [الرعد: ٢٩].

وَقِيل: « **طُوبَى** »: شَجَرَةٌ في الْجَنَّة يَسِير الرَّاكِب في ظِلِّهَا مِائَة عام، تَخْرُج منها حُلَل أَهْل الجنَّة. وَقِيل: الجنَّة تُسمَّى طُوبى فتَكُون هذه لِلْغُرَبَاء في آخِر الزَّمان، فلهم الْجَنَّة عِوَضًا عمَّا فَاتَهُم في الدُّنيا من الرَّاحَة والتَّلذُّذِ بِالْعَيْش، فيُعوِّضهم الله نعيمًا لا يَنْفَد.

فَهَذَا حَدِيثٌ عَظِيمٌ يدلُّ على هذه الْأُمُورِ الْعَظِيمَةِ، وفيه الحَثُّ على التَّمسُّك بِالْإِسْلَام مَهْمَا وَصَل المسلمَ من الْأَذَى والمَضايقات، فمن أَرَاد الْأَجْر لِيَكُون من أَهْل طُوبَى؛ فَلْيَصْبِر على ما هو عليه من الدِّين الصَّحِيحِ ومن الحقِّ.

عَلَامَة الْإِيمَان حُبُّ ما جَاء به الرَّسُول ﷺ

وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ ». رَوَاه الْبَغَوِيُّ في « شَرْح السُّنة » وصحَّحه النَّوَوِيُّ[(١)]. [١١١]

---

[١١١] **قَوْلُهُ ﷺ: « هَوَاهُ »** يعني: رَغْبَتُه ومَيْلُه ومَحبَّتُه لما جَاء به الرَّسول ﷺ وَإِنْ خَالَف هَوَاه وما تُرِيدُه نفسُه، فإذا بَلَغ هذه الْمَنْزِلَةَ فَصَار يُحبُّ ما يُحبُّه الرَّسُول ﷺ، اعتُبِرَ هذا عَلَامَةً من عَلَامَات الْإِيمَان.

وهذا الْحَدِيث رَوَاه الْبَغَوِيُّ في « شَرْح السُّنة » وهو كِتَابٌ جَلِيلٌ مَطْبُوعٌ في أَرْبَعَة عَشَر مُجلَّدًا، وهو مَرْجِعٌ من مَرَاجِع الإسلام، وَالْبَغَوِيُّ: هو الإِمَامُ مُحْيِي السُّنة مَسْعُودُ البَغَوِيُّ، له التَّفْسِيرُ الْمَشْهُورُ الْمُسَمَّى « مَعَالِم التَّنْزِيل » وله « شَرْح السُّنَّة ».

وقَوْلُهُ: « صحَّحه النَّوَوِيُّ » أي: في « الْأَرْبَعِين النَّوَوِيَّةِ » فقال: حَدِيث صَحِيحٌ رَوَيْناه في كِتَاب « الحُجَّة » بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ. وَكِتَاب « الحُجَّة » اسْمُه « الحُجَّة على تَارِك المَحَجَّة »، وهو كِتَابٌ طُبع أخيرًا مُحقَّقًا لِلْفَقِيه نَصْر الْمَقْدِسِيِّ.

فَالْإِمَامُ النوَوِيُّ حَكَم بِصِحَّة إِسْنَاد هذا الْحَدِيثِ، بَيْنَما الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ في « شَرْح الْأَرْبَعِين » ضَعَّف هذا الْحَدِيثَ، ولكن الْحَدِيث له شَوَاهِد مِن الْقُرْآن الْكَرِيم. والله ﷻ يقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ

---

(١) أخرجه: البغوي رقم (١٠٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» رقم (١٥).

وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، فَالآيَة وَاضِحَةٌ في أَنَّ الْمُسْلِم لا يَكْرَه حُكم الله تعالى وَحُكْم رَسُولِه ﷺ ولو كان يُخَالِف رَغْبَتَه.

وَاللَّه ﷻ يقول: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

وَقال سُبْحَانَه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٩]، وقال سُبْحَانَه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦].

فالآيات تَشْهَد لِلْحَدِيث أنَّه يَجِب على الْمُسْلِم أن يكون هَوَاه تابعًا لما جَاء به الرَّسُول ﷺ، فَإِن كان هَوَاه مُخالفًا لما جَاء به الرَّسُول ﷺ فهو كافرٌ؛ لأنَّ من نَوَاقِض الإسلام بُغْضَ الرَّسُول ﷺ أو بُغْضَ ما جَاء به، وأمَّا إن كان لا يَبْغُض ما جَاء به الرَّسُول ﷺ ولكنَّه يَتَكَاسَل ويتثاقلُ عن الْعَمَل بما جَاء به الرَّسول ﷺ فهو نَاقِص الْإِيمَان ولا يكون مُرْتدًّا، فيكون قوله ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ**» يعني: لا يُؤْمِن الْإِيمَانَ الْكَامِلَ، أي: نفيٌ لِكَمَال الْإِيمَان، وأمَّا إن كان يَبْغُض ما جَاء به الرَّسُول ﷺ فهو نفيٌ لِلْإِيمَان وَأَصْلِ الْإِيمَان.

صِفَات الْفِرْقَة النَّاجِيَة من النَّار

وَعَنْهُ أيضًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي كَمَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيْلَ، حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّى إِنْ كَانَ فِيْهِمْ مَنْ أَتَى أُمَّهِ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيْلَ افْتَرَقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِيْنَ مِلَّةً وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِيْنَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً » قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: « مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي » رَوَاه التِّرمِذِيُّ[1]. [١١٢]

---

[١١٢] هذا الْحَدِيثُ فيه فَوَائِدُ عَظِيمَةٌ، فيه أنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَر عن وُقُوع التَّشبُّه بِالْيَهُودِ والنَّصَارَى، وقد نُهِينا عن التَّشبُّه بهم، فقال ﷺ: **« مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ »**[2].

وَقال شَيْخُ الإسلام ابْنُ تَيْمِيَّة رَحِمَهُ اللهُ: **« وهذا الْحَدِيثُ أقلُّ أَحْوَالِه أنَّه يَقْتَضِي تَحْرِيم التَّشبُّه بهم، وَإِنْ كان ظَاهِرُه يَقْتَضِي كُفر الْمُتشبِّه بهم »**[3].

وَذَلِك أنَّ من تشبَّه بهم في الظَّاهِر فهذا دَلِيلٌ على أنَّه يُحبُّهم في الْبَاطِن؛ إذ لو كان يَبْغُضهم في الْبَاطِن لما تشبَّه بهم.

فَلا يَجُوز التَّشبُّه بِالْكُفَّار أو بعباداتهم وَدِينِهِم ولا في عَادَاتِهِم وتقاليدِهم؛ لأنَّ الْمُسْلِمين أعزُّ الْأُمَم، فَيَنْبَغِي عَلَيْهِم الِاعْتِزَاز بِدِيْنِهِم

---

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢٦٤١)، والطبراني في «الكبير» رقم (٧٦٥٩).

(٢) أخرجه: أبو داود رقم (٤٠٣١)، وأحمد رقم (٥١١٤).

(٣) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٨٣).

فلا يُقلِّدون أحدًا إلَّا أَهْل الْخَيْر والدِّينِ وَالصَّلَاحِ من الْمُسْلِمِين، ولا يُقلِّدون أَهْل الضَّلالِ وَالْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ، بل يترفَّعون عن ذلك ويستقلُّون بشخصيَّتهم، وَإِنْ كان بَعْض من يتشبَّهون بالكفَّار يُرِيد الرُّقِيَّ وَالْكَمَالَ فَيَرَى أَنَّهُم مُتقدِّمون في الْجَانِب الحضاريِّ والتَّشبُّه بهم - في زَعْمِه - رُقيٌّ، وهو في حَقِيقَتِه ضَلَالٌ.

فَقَد قال عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: «**نَحْنُ أُمَّةٌ أَعَزَّنَا اللهُ بِالْإِسْلَامِ، فَمَهْمَا ابْتَغَيْنَا الْعِزَّةَ بِغَيْرِهِ أَذَلَّنَا اللهُ**»(١).

وَقَد أَخْبَر الرَّسول ﷺ أنَّ التَّشبُّه سَيَكُون «**حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ**»؛ يعني: لا يُترَك شَيْءٌ من أَفْعَالِهِم إلَّا وَيَفْعَلُه الْمُتشبِّه بهم، حتَّى يُصبح مِثْلَهُم كما يُشْبه النَّعلُ النَّعلَ الآخر، سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ، فيُقلِّدهم ويتشبَّه بهم في كلِّ شَيْءٍ.

وما يَجْرِي في وَقْتِنَا الْحَاضِرِ يَشْهَد لذلك، فقد أَصْبَح تَقْلِيد الكُفَّار والتَّشبُّه بهم مُنتشرًا حتَّى في الْأُمُور التَّافِهَةِ والحقيرةِ، فيتَّخذونها على أنَّها من الرُّقيِّ وَالتَّقَدُّمِ، وهم يَعْلَمُون أنَّها تَافِهَةٌ وَحَقِيرَةٌ، لا لِشَيْءٍ إلَّا لأنَّ الكُفَّار يَفْعَلُونَهَا، فهذا مِصْدَاق قوله ﷺ: «**حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ**»؛ وفي حَدِيث: «**حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ**»(٢).

بَل هناك ما هو أشدُّ من ذلك، وهو قوله ﷺ: «**إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهِ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ**».

(١) أخرجه: ابن أبي شيبه رقم (٣٣٨٤٧)، والحاكم رقم (٢٠٧).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (٦٨٨٩)، ومسلم رقم (٢٦٦٩).

والتَّشبُّه بِالْكَافِر في وَقْتِنَا الْحَاضِرِ على مِصْرَاعَيْهِ، وَرُبَّمَا يَبْلُغ إلى الحدِّ الذي ذَكَرَه الرَّسول ﷺ؛ فإذا كان الزِّنا مُحرَّمًا وهو من أشدِّ الْكَبَائِر؛ وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]. فَكَيْف إذا كان هذا في ذَات مَحْرَم، فهو أشدُّ، وَكَيْف إذا كان بِالْأُمِّ، فهو أشدُّ وَأَشْنَعُ، ولكن سَيَبْلُغ التَّشبُّه وَالتَّقْلِيدُ لِلْكُفَّار لِدَرَجة أنَّه إنْ كان فِيهِم من يَزْنِي بأُمِّه عَلَانِيَةً، فَسَيَكُون في هذه الأمَّة من يَزْنِي بأُمِّه؛ وهذا تَحْذِير منه ﷺ بِأَلَّا تنساقَ وَرَاء التَّشبُّه بالكُفَّار.

وقَوْلُهُ ﷺ: «**وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِيْنَ مِلَّةً**» فَالْيَهُودُ والنَّصَارَى كَذَلِك افْتَرَقُوا في دِينِهِم، فَالنَّصَارَى افْتَرَقَت إلى إحْدَى وَسَبْعِيْن فِرْقَةً، وَالْيَهُود افْتَرَقُوا على ثِنْتَيْن وَسَبْعِيْن فِرْقَةً، وَسَتَفْتَرِق هذه الْأُمَّةُ على ثَلَاث وَسَبْعِيْن فِرْقَةً.

وكلُّ هذا من باب التَّشبُّه بِالْيَهُودِ والنَّصَارَى، لَمَّا افْتَرَقُوا في دِينِهِم تشبَّه بهم من هذه الأمَّةِ من تفرَّقوا في دِينِهِم، مع أنَّ الْوَاجِب هو أن يكون الدِّين واحدًا، لا اخْتِلَاف فيه ولا تفرُّق؛ قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وَقَال سُبْحَانَه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عِمْرَان: ١٠٥].

وَقَال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الْأَنْفَال: ٤٦] فَالْوَاجِب على الْمُسْلِمِين هو اجْتِمَاع كَلِمَتُهُم على الْحقِّ، وعلى كِتَاب الله وسُنَّة رَسُولِه ﷺ وعلى عَدَم التَّفرُّق وَالِاخْتِلَافِ، ولكن سَيَقَع ما قضى الله

وقدَّر وَأَخْبَر عنه الرَّسُول ﷺ من أنَّ هذه الأُمة سَتَفْتَرِق، وقد افْتَرَقَت على ثَلَاث وَسَبْعِيْن فِرْقَةً وَأَكْثَر.

وقوله ﷺ: «**كُلُّهَا فِي النَّارِ**» هذا وعيدٌ منه ﷺ لهذه الْفِرَق في أنَّه سَيَكُون منهم من هو في النَّار لِكُفْرِه إذا بَلَغ التَّفرُّق درجةَ الْكُفْر، ومنهم من يكون في النَّار لِضَلَالِه، وقد يَدْخُل النَّار من لا يُخلَّد فِيهَا، بل يُعذَّب فيها ثم يُخْرَج منها، فهم كلُّهم متوعَّدون بِالنَّار، إمَّا لِكُفْرِهم وإمَّا لِضَلَالِهِم.

قَوْلُهُ ﷺ: «**إِلَّا وَاحِدَةً**» أي: كلُّهم متوعَّدون بِدُخُول النَّار إلَّا فِرْقَةً وَاحِدَةً «قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**» فلا يَنْجُو من النَّار إلَّا هذه الْفِرْقَة، ولذلك تُسمَّى الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ، وهم أَهْل السُّنَّة وَالْجَمَاعَةِ؛ فتُسمَّى بالنَّاجِيَة؛ لأَنَّهَا نَجَتْ من النَّار بتمسُّكها بما كان عليه الرَّسُول ﷺ وأصحابُه، ولم يَفْتَرِقُوا وَيَخْتَلِفُوا.

قال ﷺ: «**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيْرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينِ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورَ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[1]، فلا يَنْجُو من النَّار إلَّا من كان على ما كان عليه الرَّسُول ﷺ وَأَصْحَابُه، وأمَّا من خَالَف وَذَهَب مع الْفِرَق فإنَّه مُعرَّضٌ لِلْوَعِيد بِالنَّار.

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٤٦٠٧)، والترمذي رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه رقم (٤٤)، وأحمد رقم (١٧١٤٢).

أَجْر من دَعَا إلى هدًى

ولمُسْلِم عن أَبِي هُرَيْرَة ﷺ مرفوعًا: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِ ثْمِ مِثْلُ آثامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»[1]. [١١٣]

ففي الْحَدِيث النَّهْيُ عن التَّفرُّق وَالِاخْتِلَافِ، ولكنَّ الِاخْتِلَاف من طَبِيعَة الْبَشَر، ولكنَّ الله ﷻ جَعَل لهم مخرجًا من هذا الِاخْتِلَاف وهو الرُّجوع إلى كِتَاب الله تعالى وسُنَّة رَسُولِه ﷺ، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، فَالْمَخْرَج من الْخِلَاف أو الِاخْتِلَاف هو الرُّجوع إلى كِتَاب الله وَسُنَّة رَسُولِه ﷺ، وقال ﷻ: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].

فَالْمَرْجِع الذي يُعرف به الحقُّ من الْبَاطِل مما اخْتَلَف فيه النَّاس هو كِتَاب الله تعالى وسُنَّة رَسُولِه ﷺ؛ لأنَّ كُلَّ فِرْقَةٍ ستدَّعي أنَّها على الحقِّ وغيرَها على خَطَأٍ أو ضَلَالٍ، ولكنَّ الْفَصْل هو الرُّجُوع إلى ما كان عليه الرَّسول ﷺ وَأَصْحَابُه، وإلى كِتَاب الله وسُنَّة رَسُولِه ﷺ.

[١١٣] في هذا الْحَدِيث أنَّ الدَّعوةَ إنْ كانت إلى حقٍّ فهي مَشْرُوعَةٌ وَمَطْلُوبَةٌ؛ قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال سُبْحَانَه: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٦٧٤).

بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فالدَّعوة إلى الْحَقِّ مَطْلُوبَةٌ ومأمورٌ بها، وفيها فَضْلٌ عَظِيمٌ.

وقوله ﷺ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى**» أي: من كِتَاب الله تعالى وَسُنَّة رَسُولِه ﷺ «**كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ**» أي: يَنَالُه أجرٌ عَظِيمٌ؛ لأنَّ كلَّ من تَبِعَه واقتدى به وَعَمِل بِالْهُدَى، فإنَّ الدَّاعي الْأَوَّلَ له مِثْل أُجُور من تَبِعَه إلى يوم الْقِيَامَة، فَالرَّسُول ﷺ له مِثْل أُجُور أُمَّتِه، وكذلك أئمَّة الإسلام الذين دَعُوا إلى الله تعالى وأَلَّفوا الْكُتُب وَاهْتَدَى النَّاس بِدَعْوَتِهِم على اخْتِلَاف الْعُصُور لهم من الْأَجْر مِثْل أُجُور من تَبِعَهُم إلى يوم الْقِيَامَة، وفي هذا فضلٌ عَظِيمٌ، وخيرٌ كَثِيرٌ.

وقوله ﷺ: «**وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ**» الضَّلَالَة ضِدّ الْهُدَى، أي: دَعَا إلى بَاطِلٍ وَبِدَعٍ وَمُحْدَثَاتٍ وَخُرَافَاتٍ وإلى شِرْكِيَّاتٍ «**كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**»؛ لقوله تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ ﴾ [النحل: ٢٥]؛ فدُعاة الضَّلَال عَلَيْهِم من الْآثَام مِثْل آثَام من اقْتَدَى بهم وَعَمِل بِالضَّلَال تَبعًا لهم، فيتحمَّلُون ذلك وَيَجْرِي عَلَيْهِم الْإِثْم حتَّى وهم أَمْوَاتٌ. وأَمَّا دُعاة الحقِّ فَيَجْرِي عَلَيْهِم الْأَجْر وهم أَمْوَاتٌ كما قال ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ، إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[1].

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (١٦٣١).

ولَهُ عن أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: إِنِّي أُبْدِعَ بِي فَاحْمِلْنِي، فَقَالَ: «مَا عِنْدِي»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا أَدُلُّهُ عَلَى مَنْ يَحْمِلُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»[1]. [١١٤]

فَيَجْرِي أجرُ الْعِلْم على صَاحِبِه إلى يوم الْقِيَامَة، حتى وهو مَيِّتٌ، وفي هذا خَيْرٌ كَثِيرٌ.

ففي الْحَدِيث فَضْلُ الدَّعوة إلى الله ﷻ، وهي الدَّعوة إلى الحقَّ، وفيه النَّهْيُ وَالتَّحْذِيرُ من الدَّعْوَة إلى الضَّلَال، وفيه أنَّ الدُّعاة يَنْقَسِمُون إلى قسمين: دُعاة هُدًى، ودُعاة ضَلَالٍ، وهذا وَاقِعٌ في حَيَاة النَّاس الْيَوْم، ودُعاة الضَّلَال في وَقْتِنَا الْحَاضِرِ أَكْثَرُ من دُعاة الْهُدَى، فلا يُغتَرُّ بهم.

[١١٤] وهذا الْحَدِيثُ كَسَابِقِه في بَيَان عِظَم أجْرِ فعل الْخَيْر والدَّلالةِ عليه وَالدَّعْوَةِ إلَيْه، وأنَّ أجْرَه يكون مِثْل أجْرِ فَاعِلِه.

وقَوْلُه: «**أُبدِعَ بِي**» أي: انْقَطَعَت رَاحِلَتِي، أو هلكتْ دابَّتي وهي مركوبي. فَطَلَب من النَّبِيِّ ﷺ أن يَحمِلَه بأنْ يُعطيَهُ دابَّةً يَرْكَبُهَا ويُحْمل عَلَيْهَا، والنَّبِيُّ ﷺ اعْتَذَر إلَيْه بِقَوْلِه: «**مَا عِنْدِي**» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا أَدُلُّهُ عَلَى مَنْ يَحْمِلُهُ.

وقوله ﷺ: «**مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ**» وَالدَّلَالَة على الْخَيْر تَشْمَل الخيرَ المعنويَّ، وَتَشْمَل كَذَلِك الدَّعوةَ إلى الله ﷻ، وَتَعْلِيمَ الْعِلْمِ النَّافِعِ، يَدْخُل في ذلك من دلَّ أحدًا على آخر يُعينه، كمَن دلَّ مُحتاجًا على واحدٍ من الْمُحْسِنِين ليُعينه، فَلَه من الْأَجْر مثل أَجْر المُحسِن الذي حقَّق طَلَب هذا الْمُحْتَاج.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (١٨٩٣).

أَجْر من أَحْيَا سُنَّةً من سُننه ﷺ

وعن عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ﷺ مرفوعًا: «مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي قَدْ أُمِيتَتْ بَعْدِي، فَإِنَّ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلَ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنقُصَ مِنْ أُجُورِ النَّاسِ شَيْئًا، وَمَنِ ابْتَدعَ بِدْعَةَ ضَلَالَةٍ لَا تُرْضِي اللهَ وَرَسُولَهُ كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ إِثْم مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنَ النَّاسِ لَا يَنقُصُ مِنْ آثَامِ النَّاسِ شَيْئًا». رَوَاه التِّرمِذِيُّ وحسَّنه وَابْنُ مَاجَه، وهذا لَفْظُه[1]. [١١٥]

ففي الْحَدِيث الحَثُّ على التَّعَاوُن على البِرِّ والتَّقوى، وفيه أنَّ من دلَّ على الْخَيْر كان له من الْأَجْر مثل أَجْر فَاعِلِه، وهذا تَرْغِيبٌ لِلدَّلَالَة على الْخَيْر المعنويِّ والحسِّيِّ.

[١١٥] قوله ﷺ: «**مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي قَدْ أُمِيتَتْ**» الْمُرَاد: من عَمِلَ بسُنَّةٍ من سُنن الرَّسول ﷺ بعد أنْ تُركتْ من النَّاس أو جَهِلُوهَا ثم نَشَرها أحدُ النَّاس كان «**لَهُ مَنَ الْأَجْرِ مِثْلُ مَنْ عَمِلَ بِهَا**»؛ ففي هذا الحَثُّ على إحْيَاء السُّنَن التي قد نَسِيَهَا النَّاسُ أو جَهِلُوهَا.

وقوله ﷺ: «**وَمَنِ ابْتَدَعَ بِدْعَةَ ضَلَالةٍ لَا تُرْضِي اللهَ وَرَسُولَهُ كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ إِثْم مَنْ عَمِلَ بِهَا**» هذا فيه أنَّ من أَحْيَا أو ابْتَدَع بِدْعَةً، فَعَلَيْه من الْإِثم مِثْلِ آثَام مَنْ عَمِل هذه الْبِدْعَةَ، وفي هذا أيضًا ردٌّ على من يُروِّجون لِلْبِدَع من إحْيَاء الموالد وَزِيَارَةِ آثَار الصَّالِحين والتبرُّكِ بها، فهؤلاء عَلَيْهِم من الْإِثم مِثْل آثَام مَن تَبِعَهُم.

---

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢٦٧٧)، وابن ماجه رقم (٢١٠)، والطبراني في «الكبير» رقم (١٠).

أَسْبَاب الْفِتَن

وعن ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ يَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَهْرَمُ فِيهَا الْكَثِيرُ، وَتُتَّخَذُ سُنَّةً يَجْرِي النَّاسُ عَلَيْهَا، فَإِذَا غُيِّرَ مِنْهَا شَيْءٌ قِيْل: تُرِكَتْ سُنَّةٌ قِيلَ: مَتَى ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ قَالَ: إِذَا كَثُر قُرَّاؤُكُمْ وَقَلَّ فُقَهَاؤُكُمْ، وَكَثُرتْ أَمْوَالُكُمْ وَقَلَّ أُمَنَاؤُكُمْ، وَالْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ، وتُفُقِّهَ لِغَيْرَ الدِّينِ». رَوَاه الدَّارِمِي[1]. [١١٦]

---

[١١٦] هذا أثرٌ عَظِيمٌ من كَلَام عَبْد الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ، قَوْلُه: «**كَيْفَ أَنْتُمْ**» أي: كَيْف يكون حَالُكُم؟ أو كَيْف تَكُونُون؟

وقولُه: «**إِذَا لَبِسَتْكُم**» أي: خالَطَتْكُم «**فِتْنَةٌ يَرْبُو عليها الصَّغِيرُ**» يعني: يَنْشَأ عليها الْأَطْفَال، «**ويَهْرَم عليها الْكَبِيرُ**» أي: يَكبُرُ ولم تُغيَّر حتَّى تستقرَّ ويَظُنَّها الجُهَّال سُنَّةً.

وقَوْلُه: «**فَإِذَا غُيِّرَ مِنْهَا شَيْءٌ قِيْلَ: تُرِكتْ سُنَّةٌ**» أي: تُتَّخذ السُّنةُ بِدْعَةً، وَالْبِدْعَة تُتَّخذ سُنَّةً، وَسَيكُون هذا في آخِر الزَّمان، فإذا ما دَعَا أَحَد النَّاسِ إلى سُنَّة الرَّسول ﷺ قالوا: هذا مُبْتَدِعٌ، أو خَارِجِيٌّ، أو وهَّابيٌّ، فيُلقِّبونه بِأَلْقَابٍ شَنِيعَةٍ؛ لأَنَّه خَالَف ما عليه النَّاسُ؛ علمًا بأنَّ الْمَطْلُوب هو الرُّجوع إلى كِتَاب الله تعالى وَسُنَّةِ رَسُولِه ﷺ لا ما عليه النَّاس؛ فدلَّ على أنَّ ما عليه النَّاس لا يُتَّخَذ حُجَّةً ما دَام مُخالفًا لما جَاء في سُنَّة الرَّسول ﷺ وَإِنْ تَطاوَل زَمنُها أو تَوَارَثَهَا النَّاس، فلا عِبْرَة بها، فَيَنْبَغِي التَّفطُّن لِهَذَا الأَمْرِ؛ لأَنَّهَا إذا اسْتَقَرَّت في عُقُول النَّاس ظَنُّوهَا سُنَّةً لِدَرَجة أَنَّهُم يُدافعون عنها

---

(١) أخرجه: الدارمي رقم (١٨٦)، والحاكم رقم (٨٥٧٠).

ويقولون: غُيِّرَت السُّنَّة لِجَهْلِهِم بذلك، فدلَّ هذا على أنَّه يَجب الْمُبَادَرَة لِإِنْكَار الْبِدَع وَالْمُحْدَثَاتِ، ولا يَجُوز السُّكوت عَنْهَا؛ لأَنَّه إذا سُكَت عنها تَوَارَثَهَا الناسُ واحتجُّوا بها.

وقَوْلُه: «**قَالُوا: وَمَتَى ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ؟**» هذه كُنْيَتُه ﷺ، وَاسْمُه عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودِ بْنِ غَافِلٍ الهُذَلِيِّ، من السَّابِقِين الأَوَّلين إلى الإسلام.

وقَوْلُه: «**إِذَا كَثُرَ قُرَّاؤُكُمْ وَقَلَّ فُقَهَاؤُكُمْ**» **الْفِقْه**: هو الفَهْم في دِين الله ﷻ، قال ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّيْنِ**»[1].

وَقال تعالى: ﴿**فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ**﴾ [التوبة: ١٢٢]، فَلَم يَقُل ﷻ: لِيَحْفَظُوا أو لِيَقْرَءُوا وإنَّما قال: ﴿**لِّيَتَفَقَّهُواْ**﴾، فَالْمَدَار هُنَا على الْفِقْه وَالْفَهْم عن الله وَرَسُولِه، وأَمَّا الذي يَحفظ النُّصُوص، وَيَقْرَؤُهَا ويُكْثِرُ الْمُطَالَعَة في الْكُتُب دون أن يَفْهَمَهَا، فهو من القُرَّاء وليس من الْفُقَهَاء، ومثل هذا يَكْثُر في آخِر الزَّمان؛ حيث يَكْثُر القُرَّاء الذين يَحْفَظُون النُّصُوص ويطَّلعِون على الْكُتُب وليس عِنْدَهُم فِقْهٌ وفهمٌ لما تدلُّ عليه، وهذا كما قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»[2].

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٧١)، ومسلم رقم (١٠٣٧).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (١٠٠)، ومسلم رقم (٢٦٧٣).

فدلَّ على أن فُقْدان الْفُقَهَاء في الْمُجْتَمَع خَطَرٌ عَظِيمٌ، وأنَّ وُجُود القُرَّاء لا يَكْفِي ولا يَنْفَع ولا يُسمن ولا يُغْنِي من جُوعٍ، بل يَضُرُّ لأَنَّهُم يُفْتُون بِغَيْر عِلْم؛ ولهذا قال الله تعالى في بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨] والأمانِيُّ: هي الْقِرَاءَة فَيقْرَءُون كثيرًا وَلَكِنَّهُم لا يَفهمون، فَيَنْبَغِي التَّفقُّه في كِتَاب الله تعالى وسُنَّةِ رَسُولِه ﷺ، وذلك بالتَّلقِّي عن أَهْل الْعِلْم وَالْفِقْه في دِين الله.

وَلَهَذَا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢]، يعني: سَافَرُوا إلى الرَّسُول ﷺ وإلى الْعُلَمَاء ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ لا أن يَبْقُوا في بِلَادِهِم أو بِوَادِيهِم يَقْرَءُون الْقُرْآن؛ لأنَّ هذا لا يَكْفِي، لأنَّ الْعِلْم هو الْفِقْه، وليس الحِفْظ فَقَط، ولكنَّ الْحِفْظ وَسِيلَةٌ إلى الْفِقْه.

والنَّبِيُّ ﷺ يقول: «**رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيْهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**»[١].

وَيَقُول ﷺ: «**رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**»[٢]، فقد يَسْمَع الْمَرْء وَيَحْفَظ دون وَعِيٍّ، ولكن رُبَّما يُبلِّغ هذا إلى إنسانٍ فقيهٍ يَعْرِف مَعْنَاه.

فليس الْمَدَار على ما عليه الْكَثِير من الشَّبَاب الْيَوْم، حيث عَكَفُوا على قِرَاءَة الْكُتُب ثم تصدَّروا لِلشَّرْح بعدما قَرَءُوا، أو تعلَّم بَعْضهُم على

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٣٦٦٠)، والترمذي رقم (٢٦٥٦)، وابن ماجه رقم (٢٣٠)، وأحمد رقم (٢١٥٩٠).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (١٦٥٤)، ومسلم رقم (١٦٧٩).

يَد الْبَعْض الآخَر وَتَرَكُوا الْعُلَمَاء، ففي هذا خَطَرٌ شَدِيدٌ، وهو الذي حذَّر منه ابْنُ مَسْعُودٍ ﵁، بل حذَّر منه الرَّسول ﷺ، فَقَوْل ابْنُ مَسْعُودٍ ﵁: «إِذَا كَثُرَ قُرَّاؤُكُمْ». دلَّ على أن كَثْرَة الْقِرَاءَة والقُرَّاء دون فقهٍ لا يُفِيد شيئًا.

وقَوْلُه: «**وَقَلَّ فُقَهَاؤُكُمْ**» هذه هي الآفَة، وهي قِلَّة وُجُود الْفُقَهَاء أو انْعدامُهم.

وقَوْلُه: «**وَكَثُرَتْ أَمْوَالُكُمْ وَقَلَّ أُمَنَاؤُكُمْ**» حيث يَفْشُو الْمَال في آخِر الزَّمَان وتُنزع الْأَمَانَةُ من قُلُوب النَّاس، فَيَكْثُر الْخِدَاع وَالْغِشُّ وَالْكَذِبُ في مُعَامَلَاتِهِم.

وقَوْلُه: «**وَالْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَة؛ وَتُفُقِّهَ لِغَيْرِ الدِّينِ**» هذا كما في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [هود: ١٥]؛ يعني: يَطْلُب الدُّنْيَا بِعَمَل الْآخِرَة، ويتعلَّم الْعِلْم الشَّرْعِيَّ لِأَجْل الْوَظِيفَة وَحَمْل الشَّهَادَة لا رَغْبةً في الْعِلْم، ويكون النَّظَر دائمًا لِلْمُسْتَقْبَل الدُّنْيَوِيِّ لا الأُخْرَوِيِّ. وهذا وَاضِحٌ من عَمَل بَعْض النَّاس الْيَوْم حيث يَطْلُبُون الدُّنيا في أُمُور الْآخِرَة إِلَّا من رَحِم الله، فَالْوَاجِب على الْمُسْلِم أن يُخلِص عَمَلَه لِلَّه ﷻ، وهذه الْأَحْوَالُ هي التي تكثُر فيها الْبِدَع وَالْمُنْكَرَاتُ، لأنَّ كلَّ وَاحِدٍ مُنهمِكٌ في دُنياه!

ذكر ما يُمكِن أن يَهْدِم الإسلام

وَعَنْ زِيَادَ بْنِ حُدَيْرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ لِي عُمَرُ ﷺ: «هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدِمُ الْإِسْلَامَ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: يَهْدِمُهُ زَلَّةُ الْعَالِمِ، وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ، وَحُكْمُ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ». رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ أيضًا[1]. [١١٧]

---

[١١٧] هذا الأَثَر عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب ﷺ، أَمِيرِ الْمُؤْمِنِين، وقد بيَّن ما يُمْكِن أن يَهْدِم الدِّين، وَيُسِيء إلى الإسلام وَأَهْلِه.

فَقَوْلُه: «زَلَّةُ العَالِمِ» لأنَّ العالِمَ إذا أَخْطَأ وَأَفْتَى بِفَتْوًى خَاطِئَةً، اتَّخذها النَّاسُ على أنَّها فتوًى من عَالِم، وهذا مما يُوجب على الْعَالِم الْحَذَر من الْإِقْدَام على الْفَتْوَى إلَّا إذا تثبَّت من دَلِيلِهَا من كِتَاب الله تعالى وسُنَّةِ رَسُولِه ﷺ، فلا يتسرَّع في الْفَتْوَى فيُفتي وَيَأْخُذَهَا النَّاس على أنَّها صَوَابٌ لأَنَّهَا من عالِم، بِخِلَاف فَتْوَى العوامِّ الذين لا عِبْرَة بما يَصْدُر منهم؛ لأنَّ النَّاس يَعْرِفُون أنَّه لا يَصْلُح لِلْفَتْوَى، ولكنَّ الْمُشْكِلَة أن يَصْدُر الْخَطَأ من الْفَتْوَى من العالمِ الْمَعْرُوف بِالْعِلْم! وهذا مما يُؤكِّد ويُوجب على الْعُلَمَاء أنْ يتأكَّدوا ويتحرَّوْا ويُثبِّتوا في الْفَتْوَى؛ لِئَلَّا يخْطئُوا فَتَصِيرَ فَتْوَاهُم حُجَّةً لِلنَّاس والعوامّ فَيَأْخُذُون بها وهي خَطأٌ.

وَقَوْلُه: «وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ» الْمُنَافِق: هو الذي يُظهر الإسلام ويُبطن الكُفر، وَيَحْفَظ الْقُرْآن وَيَقْرَأ الْكُتُب، ويتعلَّم حتَّى يكون عَلِيم اللِّسَان لا عَلِيم الْقَلْب، فَتَرَاه يُجادل بِالْكِتَاب والسُّنَّة لأَنَّه يَحْفَظ النُّصوص ويُغرِّر بِالنَّاس، كما يَفْعَل بَعْض الْكُتَّاب في وَقْتِنَا الْحَاضِرِ الذين يَلْتَمِسُون بَعْض

---

(١) أخرجه: الدارمي رقم (٢١٤).

الدَّعْوَة إلى الاِقْتِدَاء بالسَّلف الصَّالِحِ

وعن حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ: «كُلُّ عِبَادَةٍ لَا يَتعَبَّدُهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَا تَعَبَّدُوهَا، فَإِنَّ الأَوَّلَ لَمْ يَدَعْ لِلآخِرِ مَقَالًا، فَاتَّقُوا اللهَ يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ وَخُذُوا طَرِيقَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ». رَوَاه أَبُو دَاوُد(١). [١١٨]

الْآيَات الْقُرْآنِيَّةِ أو الْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ لِلدَّلَالَة على مَقَالَاتِهِم الضَّالَّةِ، وفي هذا خَطَرٌ عَظِيمٌ؛ لأَنَّه إذا ما بَرَز الْمُنَافِقُون في الْكِتَابَة وَالتَّأْلِيفِ وَالْخُطَبِ وَالْمَحَاضَرَاتِ والنَّدَواتِ فستكون الأمَّةُ على خَطَرٍ؛ لأنّ النَّاس لا يَعْلَمُون نِفَاقَهُم، ولا يَعْلَمُون أَنَّهُم لا يَفْهَمُون الْكِتَاب والسُّنَّةَ، فَإِنَّهُم إذا ما سَمِعُوا الْآيَة أو الْحَدِيثَ رُبَّمَا يقتنعون بما يَصْدُر عن هَؤُلَاء.

وقَوْلُه: «**وحُكمُ الأئمَّةِ المُضِلِّين**» وَالْمُرَاد بهم السَّلَاطِين المُضِلُّون الْجَبَابِرَةُ الذين لا يُرِيدُون الحقَّ، فهم يَهْدِمُون الإسلام؛ لأنَّ النَّاس يَتْبَعُونَهُم؛ إمَّا خوفًا من سَطْوَتِهِم، وإمَّا رغبةً فِيمَا عِنْدَهُم من حُطام الدُّنيا؛ فأخْطر ما يكون على الْمُسْلِمِين هَؤُلَاء الْأَصْنَافُ الثَّلَاثَةُ، وقد قال ﷺ: «**إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّيْنَ**»(٢).

[١١٨] هذا مرَّ نَحْوُه في حَدِيث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ والذي فيه قوله ﷺ: «**كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**» قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟

---

(١) أخرجه: ابن المبارك في «الزهد والرقائق» رقم (٤٧)، والمروزي في «السنة» رقم (٨٦).

(٢) أخرجه: أبو داود رقم (٤٢٥٢)، والترمذي رقم (٢٢٢٩)، وابن ماجه رقم (٣٩٥٢)، وأحمد رقم (٢٢٢٩٣).

قَالَ: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»[١]، وَهُنَا يقول حُذَيْفَةُ ﷺ: «**كُلُّ عِبَادَةٍ لَا يَتَعَبَّدَهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَا تَعَبَّدُوهَا**».

فَالصَّحَابَة هم الْقُدْوَة بعد الرَّسول ﷺ؛ لأَنَّهُم تَلَامِيذ الرَّسُول عليه الصَّلَاة وَالسَّلَام، وَأَخَذُوا، وتلقَّوا العلمَ عنه، وقد قال ﷺ: «**خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[٢]، فهم أَفْضَل الأُمَّة وهم الْقُدْوَة بعد الرَّسُول ﷺ؛ لأَنَّهُم أُمناء على دِين الله، فَيُؤْخَذُ عنهم الْعِلْمُ والدِّينُ.

وقَوْله: «**فَإِنَّ الْأَوَّلَ لَمْ يَدَعْ لِلآخِرِ مَقَالًا**» أَوَّل الأمَّة: هم الصَّحَابَة والتَّابعون وَالْقُرُونُ المُفَضَّلةُ لم يَدَعوا لمَن جَاء بَعْدَهُم مقالًا، فقد بيَّنوا الدِّين وبيَّنوا الحقَّ وقعَّدوا الْقَوَاعِد، فهذا فيه التَّرْغِيب بالتمسُّك بما كان عليه السَّلفُ الصَّالِحُ، وفيه التَّحْذِير ممَّن جَاء بعد الْقُرُون المُفَضَّلةِ إلَّا من كان سائرًا على ما كان عليه السَّلفُ الصَّالِحُ من الأئمَّة الهُدَاةِ.

وقَوْله: «**فَاتَّقُوا اللهَ يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ وَخُذُوا طَرِيقَ مَنْ كَانَ قَبلَكُمْ**» أي: اتَّبعُوا سَبِيل الْعُلَمَاء، الذين يَقْرَءُون كِتَاب الله ويتَّبعون سُنَّة رَسُول الله ﷺ. ولا تُحدِثوا شيئًا من عِنْدِكُم، أو تَأْخُذُوا عمَّن جَاء بعد هَؤُلَاء.

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢٦٤١)، والطبراني في «الكبير» رقم (٧٦٥٩).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (٢٥٠٨)، ومسلم رقم (٢٥٣٥).

وعن ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: « مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ، فَإِنَّ الْحَيَّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانُوا أَفْضَلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَبَرَّهَا قُلُوبًا، وَأَعْمَقَها عِلْمًا، وَأَقَلَّها تَكَلُّفًا، اخْتَارَهُمُ اللهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَلِإِقَامَةِ دِينِهِ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوهُمْ عَلَى أَثرِهِمْ، وَتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَسِيَرِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ ». رَوَاه رَزِينٌ[1]. [١١٩]

---

[١١٩] وهذا الْأَثَرُ عن ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، الذي كانت كَلِمَاتُه كُلُّهَا حِكْمَةً وَنُورًا، التي رَسْم فيها الطَّرِيقَ الصَّحِيحَ التي من خِلَالِهَا يَصِل الْمُسْلِم إلى السُّنَّة الصَّحِيحَةِ، دون انْحِرَافٍ أو اعْوِجَاجٍ عن الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيم.

فَقَوْلُه: « **مَنْ كان مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ** » لأنَّ الْمَيِّت قد انْتَهَى ولا يُخشى عليه مِن الْفِتْنَة، وأمَّا الحيُّ فإنَّه عُرضةٌ لِلْفِتَن، فمن أَرَاد الِاقْتِدَاء فليقتدِ بالأئمَّة السَّابِقِين، وأمَّا بِالنِّسْبَة لمَن جَاء بَعْدَهُم، فإنَّه يُؤْخَذ منهم ما وافَقَ الحقَّ ويُترك ما خَالَفَه.

وقَوْلُه: « **أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانُوا أَفْضَلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ** » وهذا مِثْل قَوْل حُذَيْفَةَ الذي سَبَق في الْأَثَرِ السَّابِقِ الْقَائِلِ فيه: « **كُلُّ عِبَادَةٍ لَا يَتَعَبَّدَهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَا تَعَبَّدُوهَا** »، لِما في الصَّحَابَة - رِضْوَان الله عَلَيْهِم - من الصِّفَات التي لا تُوجَد في غَيْرِهِم من هذه الْأُمَّة؛ « **لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَبَرَّهَا قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا** » فَقُلُوبُهُم ﷺ من أَتْقَى قُلُوب هذه الْأُمَّةِ، وعِلْمُهم رَاسِخٌ وليس مُتذبْذبًا،

---

(١) أخرجه عن ابن مسعود: البغوي في «شرح السنة» (١/ ٢١٤).

تَحْرِيم الْمُجَادَلَة في كِتَاب الله

وعن عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عن أَبِيهِ، عن جَدِّهِ قَالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ قَوْمًا يَتدَارَءُونَ فِي الْقُرْآنِ، فَقَالَ: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا، ضَرَبُوا كِتَابَ الله بَعْضَهُ بِبعْضٍ، وَإِنَّمَا نَزَلَ كِتَابُ اللهِ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَلَا تُكَذِّبُوا بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، فَمَا عَلِمْتُم مِنْهُ فَقُولُوا، وَمَا جَهِلْتُمْ فَكِلُوهُ إِلَى عَالِمِهِ». رَوَاه أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَه[1]. [١٢٠]

وإنَّما هو ثابتٌ على الْكِتَاب والسُّنَّةِ، ولا يتكلَّفون الْكَلَام وَكَثْرَتَه، وإنَّما يَقْتَصِر كَلَامُهم على الْإِفَادَة.

وَلَهَذَا يقول ابْنُ رَجَبٍ: «كَان الْمُتَقدِّمون أَكْثَرَ علمًا وأقلَّ كلامًا، والمتأخِّرون أَكْثَر كلامًا وأقلَّ علمًا».

وقَوْلُه: «اخْتَارَهُمُ اللهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ وَلِإِقَامَةِ دِينِهِ» لأَنَّه سُبْحَانَه ما اخْتَارَهُم إِلَّا لِعِلْمِه بِأَنَّهُم يَصْلُحُون لِخِلَافَة النَّبِيِّ ﷺ لأُمَّته.

وقَوْلُه: «فَاعْرِفُوا لهم فَضْلَهُم» فلا تتنقَّصوهم أو تتكلَّموا فِيهِم كما يَفْعَل الْمُبْتَدِعَة وَأَهْلُ الضَّلَال من الرَّافِضَة وَالْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهم، بِخِلَاف أَهْل السُّنَّة الذين يقدِّرون الصَّحَابَة ويحترمونهم ويُجِلُّونهم ويترضَّوْن عنهم وَيَقْتَدُون بهم ويثقون بهم تَمَامَ الثِّقَة.

[١٢٠] إنَّ الْقُرْآن كَلَام الله ﷻ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَت: ٤٢]، وقد فُصِّلت آيَاتُه، ويُصدِّق بعضه بعضًا ويُفسِّر بعضُه بعضًا.

---

(١) أخرجه: أحمد رقم (٦٧٤١)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٢٢٥٨).

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فَكَلَام الله ﷻ مَعْصُومٌ من الِاخْتِلَاف ومِن أنْ يُناقض بعضُه بعضًا، بل يُصدِّق بعضُه بعضًا ويُفسِّر بعضُه بعضًا، وقد قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧].

فَهُنَاكَ آيَاتٌ وَاضِحَةٌ في نَفْسِهَا وهي المُحكَمة، وهناك آيَاتٌ يُحْتَاج في تَفْسِيرِهَا لآيَاتٍ أُخْرَى، لأَنَّه لا يتَّضح الْمَطْلُوب منها في نَفْسِهَا بل لا بُدَّ من ضمِّها إلى الْآيَات المُحكَمة لتُفسِّرها.

فَطَرِيقَة الرَّاسِخِين في الْعِلْم: أَنَّهُم يُفسِّرون كَلَام الله بَعْضَه بِبَعْضٍ، فالمُطلَق منه تُقيِّده آياتٌ أُخْرَى، والمُجمَل تُوضِّحه آياتٌ أُخْرَى، وهناك آيَاتٌ مَنْسُوخَةٌ تَنْسَخُهَا آيَاتٌ أُخْرَى، وهذا يَحْتَاج إلى مَعْرِفَةٍ بِكِتَاب الله ﷻ، فلا يَجُوز لِلْإِنْسَان أن يَدْخُل في تَفْسِير كِتَاب الله دون أن يكون عِنْدَه أُصُولٌ يَعْرِف بها كَيْف يُفسِّر كَلَام الله؛ ولذلك وَضَع الْعُلَمَاء قَوَاعِدَ لِلتَّفْسِير تُسمَّى أصولَ التَّفْسِير، ولا بُدَّ لِطَالِب الْعِلْم أن يَعْرِف هذه الْقَوَاعِدَ وهذه الْأُصُولَ.

وأمَّا الذين في قُلُوبهم زَيْغٌ، هدَفُهم التَّلْبِيسُ على النَّاس، وَتَشْكِيكُهُم في دِينِهِم، فَإِنَّهُم يَأْخُذُون الْمُتَشَابِه وَيَسْتَدِلُّون به دون أن يرُدُّوه إلى المُحكَم، وسيأتي في الْحَدِيث: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِيْنَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ**»(١).

(١) أخرجه: البخاري رقم (٤٢٧٣)، ومسلم رقم (٢٦٦٥).

وهناك صِنْفٌ آخَرُ ليس عِنْدَهُم زَيْغٌ وإنَّما عِنْدَهُم جَهلٌ فلا يُتقنون تَفْسِير الْقُرْآن على الْوَجْهِ الْمَطْلُوب، فَيأْخُذُون الآيَاتِ الْمُتَشَابِهَاتِ دون أن يرُدُّوها إلى المُحكَمة وَيَسْتَدِلُّون بها لا عن زيغٍ ولكن عن جَهِلٍ، وهذا حَرَامٌ ولا يَجُوز.

وَالْأَوَّل كُفْرٌ، لأنَّ الذي يَقْصِد التَّلْبِيس فهو كافرٌ، وأمَّا الذي حَمَلَه الجهلُ على هذا الْمَدْخَل فهذا يُعْتَبَر ضالًا، وَالنَّبِيُّ ﷺ يقول: «**مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْم فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»(١).

وَقال: «**مَنْ قَالَ فِي كِتَاب الله ﷻ بِرَأْيِهِ فقد أَخْطَأ ولو أَصَاب**»(٢)، فَكِتَاب الله ﷻ يُجَلُّ ويُعظَّم فلا يَنْبَغِي أن يَدْخُل في تَفْسِيره وَالِاسْتِدْلَالِ به إلَّا أَهْلُ الْعِلْم والرُّسوخِ، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] والأمُّ هي التي يَرجع إِلَيْهَا الشَّيْء ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ [آل عمران: ٧].

❁ **وَالنَّاس في ذلك قد انْقَسَمُوا إلى قسمين:**

الْأَوَّل: وهم أَهْل الزَّيغ الذين أَخَذُوا الْمُتَشَابِه وَتَرَكُوا المُحكَم بِقَصْد التَّضْلِيل.

الثَّانِي: وهم أَهْل الرُّسُوخ في الْعِلْم وهم الذين يردُّون الْمُتَشَابِه إلى الْمُحْكَم. ويقولون: كُلٌّ من عند ربِّنا، المُحكَم وَالْمُتَشَابِه، فلا يَأْخُذُون طرَفًا وَيَتْرُكُون الطَّرَف الثَّانِي، لأنَّ كَلَام الله يُفسِّر بعضُه بعضًا.

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢٩٥٠)، وأحمد رقم (٢٠٦٩).
(٢) أخرجه: أبو داود رقم (٣٦٥٢)، والترمذي رقم (٢٩٥٢)، والنسائي في «الكبرى» رقم (٨٠٨٦).

والنَّبِيُّ ﷺ في هذا الْحَدِيثِ خَرَج على الصَّحَابَة وهم يَبْحَثُون في بَعْض الآيَات المُشكِلَةِ، فوجَّههم ﷺ وقال: «**فَلَا تُكَذِّبُوا بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، فَمَا عَلِمْتُمْ مِنْهُ فَقُولُوا، وَمَا جَهِلْتُمْ فَكِلُوهُ إِلَى عَالِمِهِ**»؛ لأنَّ الذي لا يُحسن ولا يُتقن فهْمَ كَلَام الله لا يَدْخل في تَفْسِيرِه، ويتقوَّل على الله بِأَنَّه أَرَاد كَذَا وكَذَا، ففي هذا خَطَرٌ عَظِيمٌ عليه وعلى غَيْرِه، فإذا كان لا يَعْلَم فليتوقَّف ويَرُدَّ عِلْمَه إلى عالمِه ﷻ.

وَالْحَاصِل: أنَّ كَلَام الله ﷻ لا يَجُوز الْخَوْضُ فيه إلَّا بعلمٍ وبصيرةٍ وإلمام بِقَوَاعِدَ وَضَوَابِطَ تَفْسِيرِه.

وقَوْلُه: «**يَتَدَارَءُون في الْقُرْآن**» أي: يَتَدَافَعُون فيُبدي كُلُّ وَاحِدٍ رَأْيَه وَيُخَطِّئ الآخر فَيَخْتَلِفُون في تَفْسِيرِه.

وقَوْلُه: «**إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قِبَلَكُمْ**» أي: من الْيَهُودِ والنَّصَارَى، فحرَّفوا التَّوراة وَالْإِنْجِيلَ وغيَّروا فِيهِمَا فَهَلَكُوا.

وقَوْلُه: «**ضَرَبُوا كِتَابَ الله بعضَه ببعضٍ**» يعني: جَعَلُوا بعضَه يُعارض بعضًا، في حين أنَّه لا يَتَعَارَض أبدًا، ولكنَّ هذا يَحْتَاج إلى علمٍ وَبَصِيرَةٍ؛ لئلَّا يَقَع هذا التَّعَارُضُ المزعومُ.

وقَوْلُه: «**وَإِنَّمَا نَزَلَ كِتَابُ الله يُصدِّقُ بَعضَه بَعضًا ...**» إلَخ ومن ذلك قَوْلُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠].

وقَوْلُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، فَالآيَتَان مُخْتَلِفَتَان في الظَّاهِر، فَوَاحِدَةٌ تُوجِب

العِدَّة سَنَةً، والأُخْرَى تُوجِب العِدَّة أَرْبَعَة أَشْهُرٍ وَعَشَرَةَ أَيَّام، وفي هذا يقول الْعُلَمَاء: إنَّ آيَة الحَوْل مَنْسُوخَةٌ بِآيَة الأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَعَشَرَةِ أَيَّام؛ فالعِدَّة لِلْوَفَاة أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشَرَةُ أَيَّام، وأَمَّا الْمَتَاع لِلْحَوْل فهذا كان في أَوَّل الأَمْر ثم نُسِخ، وَالْقُرْآن يَدْخُلُه النَّسْخ.

قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، فلا تَعَارُض بين الآيَتَيْن لأنَّ الْعَمَل على الآيَة الأُولَى، وأَمَّا الثَّانِيَة فهي مَنْسُوخَةٌ.

وفي مثل قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، فهذه فيها الأَمْر بِالْوَصِيَّة لِلْوَالِدَيْن، وهي مَنْسُوخَةٌ بِآيَة الْمَوَارِيث: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ [النساء: ١١].

وَقال النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ**»[١]؛ فلا يُجمع لِلْوَالِدَيْن بين الْمِيرَاث وَالْوَصِيَّة.

وَمِثْل هذا الِاسْتِنْبَاط وَالْفَهْم يَحْتَاج إلى عِلْم وَبَصِيرَةٍ، وَأُصُول التَّفْسِير تُبَيِّن هذه الْقَوَاعِدَ وتُوضِّحها، وكذلك سُنَّةُ الرَّسُول ﷺ تُفسِّر الْقُرْآن وتُوضِّحه.

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٢٨٧٠)، وابن ماجه رقم (٢٧١٣)، وأحمد رقم (٢٢٢٩٤).

وَمِثَال ذلك قَوْلُه تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، فَلَم تَذْكُرِ الْآيَة من أَيْن تُقطع الْيَدُ، ولكنَّ الرَّسُول ﷺ بيَّن أنَّها تُقطع من مَفصِل الكفِّ من الذِّراع، فقد بيَّنَتْهُ السُّنَّةُ الْعَمَلِيَّةُ مِن الرَّسول ﷺ، ثُمَّ لَمْ تَذْكُرِ الْآيَةُ أيَّتَهما تُقْطَع الْيُمْنَى أَم الْيُسْرَى، وقد جَاء في قِرَاءَة ﴿فاقطعوا أيمانهما﴾[1]، فهذه الْقِرَاءَةُ تُفسِّر الْمُطْلَق، وهذا يَحْتَاج إلى سَعَة عِلْم وَبَصِيرَةٍ. وكذا قَوْلُه تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] فَلَم يُذْكَر في الْآيَة عَدَد الرَّكَعَات وَهَيْئَاتِهَا، ولا عَدَدَ الصَّلوات، فلا نَجِد بَيَان هذا وَتَوْضِيحَه إلَّا في السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ.

وَقَد بُيِّن في آيَاتٍ أُخْرَى أَوْقَاتُ الصَّلَوَات ومن ذلك قَوْلُه تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

وقَوْلُه تعالى: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الرُّوم: ١٧ - ١٨]، فيُفسِّر الْقُرْآن بَعْضُه بعضًا، والسُّنَّةُ كَذَلِك تُفسِّره.

ومن ذلك: لا نَجِد مَقَادِير الزَّكَاة الْمُسْتَحَقَّةِ من الْأَغْنِيَاء لِلْفُقَرَاء، وما هي الْأَمْوَال التي تَجِب فِيهَا، ومتى تَجِبُ، وَكَم النِّصاب، فهذا وَغَيْرُه بَيَّنَتْهُ السُّنَّة النَّبَوِيَّةُ الشَّرِيفَةُ، فلا بُدَّ من التَّعقُّل في هذه الْأُمورِ وَتَرْكِهَا لِأَصْحَاب الرُّسوخ في الْعِلْم الذين يُفسِّرون كَلَام الله بَعْضَه بِبَعْضٍ أو بسُنَّةِ رَسُولِه ﷺ الْقَوْلِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ.

---

(١) وبها قرأ ابن مسعود ﷺ. انظر: «جامع البيان» لابن جرير الطبري (٤/ ٥٦٩).

باب التَّحريض على طَلَب الْعِلْم وَكَيْفِيَّة الطَّلب

فيه حَدِيث «الصَّحِيحَيْن» في فِتْنَة الْقَبْر: أنَّ المُنعَّم يقول: «جَاءَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى فآمَنَّا وَأَجبْنا وَاتَّبعْنَا» وَأَنَّ المُعذَّبَ يقول: «سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فقُلْتُهُ»(١). [١٢١]

[١٢١] هذا الْحَدِيثُ فيه ذَمُّ التَّقْلِيد الأَعْمَى، وذلك أنَّ المُعذَّب هو المُقلِّد الذي يقول: «سمعتُ الناسَ يَقُولُون شيئًا فقلتُه» لأنَّه لا يُؤْمِن به ولم يتعلَّم كتابَ الله وسُنَّةَ رَسُولِه ﷺ ولا حَاوَل أن يتعلَّم أمورَ دِينِه؛ لأنَّه لا يَهْتَمُّ به وإنَّما أَخَذ الدِّينَ بِالتَّقْلِيد فَقَط، وهذا مما يَنْبَغِي أَلَّا يَكُون، لأنَّ الْوَاجِب على الْمُسْلِم أن يتعلَّم أُمُور دِينِه، وَالْعَقِيدَة لا يَجُوز فيها التَّقْلِيد مطلقًا، فلا بُدَّ لِلْإِنْسَان من أن يتعلَّم عَقِيدَتَه، إمَّا مُجملةً، وإمَّا مُفصَّلةً حَسَب الِاسْتِطَاعَة ولا يُقلِّد أحدًا فِيهَا.

وهذا هو الذي يقول فيه المُعذَّب: سَمِعْت النَّاس يَقُولُون شيئًا فقلتُه؛ بَعْدَهَا يُجيب بـ: لا أَدْرِي إذا ما سُئِل عن رَبِّه وَدِينِه وَنَبِيِّه؛ فَالتَّقْلِيد في الْعَقِيدَة لا يَجُوز، ولا بُدَّ من تعلُّمها، وَأَقَلَّ الأَحْوَال في ذلك أن يتعلَّم الْمُخْتَصَرَات في الْعَقِيدَة الْمُشْتَمِلَةِ على أَنْوَاع التَّوْحِيد وَأَنْوَاع الشِّرْك وما يتعلَّق بِهِمَا حتَّى يَعْبُد الله على بَصِيرَةٍ، ويتعلَّمَ معنى شَهَادَة أَنْ لا إِلَه إِلَّا اللهُ وأنَّ محمدًا رَسُولُ الله، وَيَعْرِفَ من هو الرَّسولُ ﷺ، فَيَعْرِف اسْمَهُ وَنَسَبَهُ وموطنَه ومتى بُعث ﷺ، وَيَعْرِفَ سِيرَتِهِ، وأَيْنَ بُعث، وأَيْنَ هَاجَرَ، فلا بُدَّ من معرفة ذلك، وَيَنْبَغِيَ كَذَلِكَ معرفة الدِّين، وَأَرْكَانُ الإِسْلَام الْخَمْسَةِ، وَمَعْرِفَةُ ما هو الإِسْلَام وَتَعْرِيفُهُ وَحَقِيقَتُهُ وَمَعْرِفَةُ الأَرْكَانِ السِّتَّةِ للإيمان.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٨٦)، ومسلم رقم (٩٠٥).

فَضِيلَة التَّفقُّه في الدِّين

وفيهما عن مُعَاوِيَةَ ﷺ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّيْنِ»[1]. [١٢٢]

---

[١٢٢] في هذا الْحَدِيثِ الْوَارِدِ في «الصَّحِيحَيْن» من حَدِيث مُعَاوِيَةَ ﷺ الحَثُّ على التَّفقُّه في الدِّين، وأنَّه على الْإِنْسَان أَلَّا يَجْهَل أُمُور دِينِه، بل لا بُدَّ له مِنْ أنْ يتفقَّه في أُمُور دِينِه، وَالْفِقْه مَعْنَاه الْفَهْم، وَالْمُرَاد به هُنَا فهم أُمُور دِينِه على وجهٍ يتمكَّن فيه من الْإِتْيَان به على الْوَجْه الْمَطْلُوبِ وَالْمَشْرُوعِ، لا عن جَهْلٍ وَتَقْلِيدٍ، وإنَّما عن عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ.

فَالْفِقْه في الدِّين مَعْنَاه: الفَهْم في الدِّين وَمَعْرِفَتُه، وذلك بتعلُّمه، فمَن اعْتَنَى بِدِيْنِه وتعلَّمِه كان ذلك دليلًا على أنَّ الله أَرَاد به خيرًا، ومن لم يتعلَّم ولم يتفقَّه أُمُور دِينِه كان ذلك دليلًا على أنَّ الله أَرَاد به شرًّا فَمَنْطُوق الْحَدِيث أنَّ من عَلَامَة الْخَيْر هو تفقُّه الْإِنْسَان في دِينِه، ومن عَلَامَة الشرِّ أن يَجْهَل الْإِنْسَان أُمُور دِينه.

❁ **وَالْفِقْه على قسمين:**

الْأَوَّل: فَرْض عَيْنٍ على كلِّ مُسْلِمٍ.

والثاني: فَرْض كِفَايَةٍ.

فالذي هو فرضٌ على الْأَعْيَان هو تعلُّم أَرْكَان الإسلام الْخَمْسَةِ: التَّوْحِيدِ وَالصَّلَاةِ وَالصِّيَام وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ، فيتفقَّه الْمُسْلِم في هذه الْأَرْكَانِ وَيَعْرِف مَعْنَاهَا لِأَجْل أَن يُؤدِّيَها على بَصِيرَةٍ، وهذا لا يُعذَر أحدٌ

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٧١)، ومسلم رقم (١٠٣٧).

وفيهما عن أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ مَا بَعثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْم كمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا؛ فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهِ النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوا وزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»(١). [١٢٣]

بِجَهْلِه، فَإِنْ جَهِلَه أحدٌ فهو على خَطَرٍ عَظِيمٍ، فتعلُّم الْإِنْسَان ما لا يَسْتَقِيم دِينُه إِلَّا به فهو فَرْضُ عينٍ.

وأمّا ما زَاد على ذلك من فِقْه الْمُعَامَلَات وَالْمَوَارِيثِ وَالْأَنْكِحَةِ وَالطَّلَاقِ وَالْقَضَاءِ فهو فَرْض كِفَايَةٍ، إذا قَامَ به من يَكْفِي من الأُمَّة سَقَط الْإِثم عن الْبَاقِين، وإذا تَرَكُوه كلُّهم أَثِموا جميعًا؛ لأَنَّه لا بُدَّ وَأَن يُوجَد هذا الْعِلْمَ حتَّى يَقُوم الْعُلَمَاء في الْحُكْم به بين النَّاس في مُعَامَلَاتِهِم ومواريثِهم وَأَنْكِحَتِهِم وفي الْقَضَاء فِيْمَا بَيْنَهُم.

[١٢٣] هذا الْحَدِيثُ مُتَضَمِّنٌ لِلْأَمْثِلَة النَّبَوِيَّةِ؛ والله ﷻ يَضرب الأمثالَ للنَّاس، وكذلك النَّبِيُّ ﷺ يَضْرِب الْأَمْثَالَ لِتَوْضِيح الأَحْكَام وترسيخِها في الْأَذْهَان، وهذا مَثَلٌ عَظِيمٌ من الْأَمْثَالِ النَّبوِيَّةِ.

فَقَد شبَّه النَّبِيُّ ﷺ العلمَ الذي جَاء به من الْكِتَاب والسُّنَّةِ بِالْغَيْث الْكَثِيرِ الذي أَصَاب الأَرْض فَأَحْيَاهَا، وكذلك الْعِلْم فإنَّه تَحْيَا به

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٧٩)، ومسلم رقم (٢٢٨٢).

الْقُلُوبُ، ثم قسَّم ﷺ النَّاسَ مع الْعِلْم إلى ثَلَاثَة أَقْسَامٍ كَأَقْسَام الأَرْض تمامًا.

❁ **فَالْأَرْض إذا نَزَل عليها الْمَطَر تَنْقَسِم إلى ثَلَاثَة أَقْسَام:**

الْقِسْم الْأَوَّلِ: الذي يَحْفَظ الْمَاء في الخَوَابي وَالْأَتْربَة فيُنبت الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ؛ فَيَجْتَمِع فيه حِفْظ الْمَاء وَالْإِنْبَاتُ، فَيَنْتَفِع النَّاس بالسَّقْي والرَّيِّ، وَيَنْتَفِعُون بِالْعُشْب وَالْكَلَإِ، وهذا مَثَلُه كَمَثَل الْفُقَهَاء المُحدِّثين الذين حَفِظُوا النُّصوص وتفقَّهوا فيها وبيَّنوا فِقْهَهَا لِلنَّاس فشرحوها ووضَّحوها، كالأرض التي جَمِعَت الْمَاءَ وَأَنْبَتَت الْكَلَأَ، فحِفظُ الْعُلَمَاء لِلنُّصُوص وَالْأَحَادِيثِ مَثَلُه كمَثَل جَمْع الْمَاء في الغُدْران وفي بَاطِن الأَرْض، وتفقُّهُهم مَثَلُه كَمَثَل إِنْبَات الْكَلَإِ، فهؤلاء يُقال لهم فُقَهَاء الْحَدِيث كالإمام أَحْمَدَ وَالشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ وَالْبُخَارِيِّ وَنَحْوِهِم ممّن جَمَع بين الْحِفْظ وَالْفَهْم الذي هو الْفِقْه، وهؤلاء أَفْضَل طَبَقَات الْعُلَمَاء.

وَالْقِسْم الثَّانِي: هي الأَرْض الصُّلْبةِ التي لا تُنبِت ولا تُنتِج وَلِكِنَّهَا مشتملةٌ على مخابئ الْمَاء التي يَنْتَفِع بها النَّاس فَيَشْرَبُون منها، وَمَثَلُ ذلك كمَثَل حُفَّاظ الْحَدِيث وَالنُّصُوصِ الذين اعْتَنَوْا بِأَسَانِيدِهَا وميَّزوا الصَّحِيح منها عن غَيْرِه، فاعتَنَوا بِحِفْظ السُّنَّة دون أن يكون لَدَيْهِم فِقْهٌ بِهَذِه النُّصُوص، فَكَمَا تَنْفَع الأَرْض الجدباءُ التي تحتفظ بِالْمَاء الذي يَنْتَفِع به النَّاس فَكَذَلِكَ يَنْفَع هَؤُلَاء الحُفَّاظ النَّاسَ بما حَفِظُوه لهم من النُّصُوص التي نَفَع الله بها بِسَبَب حِفْظِهِم لسُنَّة نَبِيِّه ﷺ، وتدوينِهم لَهَا، فهؤلاء فِيهِم خَيْرٌ كَثِيرٌ لا يَصِل إلى دَرَجَة الصِّنْف الْأَوَّلِ الذين جَمَعُوا بين الْحِفْظ وَالْفِقْه.

ولهُمَا عن عَائِشَةَ ﵂ مرفوعًا: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ»[1]. [١٢٤]

وَالْقِسْم الثَّالِثِ: الأَرْض الْجَدْبَاء التي لا تُمسِك مَاءً ولا تُنبت كَلأً، وهذه مَثَلُها كَمَثَل الذين لا يَحْفَظُون ولا يتفقَّهون، وهذا الْقِسْمُ هو شرُّ الْأَقْسَام، الذي لا يُستفاد منه بِشَيْءٍ كالأرض السَّبخةِ التي لا تَنْتَفِع بِالْمَاء ولا تُمسِكُه لِيَنْتَفِع به النَّاسُ، وكذا هذا النَّوْع الثَّالِثُ من النَّاس الذين ليس لهم قُلُوبٌ حَافِظَةٌ ولا أَفْهَامٌ واعيةٌ، فإذا سَمِعُوا الْعِلْم لا يَنْتَفِعُون به ولا يَحْفَظُونَه فلا هم نَفَعُوا أَنْفُسَهُم ولا غَيْرَهُم.

وفي هذا الْحَدِيث أنواعٌ من الْعِلْم منها ضربُ الْأَمْثَال، وَفَضْلُ الْعِلْم وَالتَّعْلِيم، وشدَّةُ الحثِّ عليه وذمُّ الْإِعْرَاض عنه.

[١٢٤] هذا الْحَدِيثُ سَبَق ذِكْرُه في مَسْأَلَة الْمُتَشَابِه من الْقُرْآن، وَذَكَرْنَا أنَّ الْمُتَشَابِه هو الذي لا يتَّضح مَعْنَاه بِنَفْسِه، وإنَّما بِإِرْجَاعِه إلى غَيْرِه من النُّصُوص، وهذا لا يُستَدَلُّ به مُنفردًا بل يُرجَع فيه إلى المُحكم فيُرَدُّ إِلَيْه لِيُفسِّره، فالرَّاسخون في الْعِلْم يَجْمَعُون بين النُّصُوص فيردُّون الْمُتَشَابِه إلى المُحكَم، وأمَّا أَهْل الزَّيغ فَيَأْخُذُون الْمُتَشَابِه وَيَتْرُكُون المُحكَم.

وَلِهَذَا قال ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَه مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ**»، وَالْمُرَاد من ذلك قَوْلُه تعالى: ﴿**فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ**﴾ [آل عمران: ٧]؛ يعني: تَفْسِيرُه بِمُفْرَدِه، وهو لا يُفسَّر إلَّا بردِّه إلى المُحكَم، ولا يُفسَّر بِالرَّأْي، هذا إذا أُريد بِالتَّأْوِيل: التَّفْسِير، وأمَّا إذا أُريد بِالتَّأْوِيل ما تئول إِلَيْه هذه الْأَخْبَارُ

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٤٢٧٣)، ومسلم رقم (٢٦٦٥).

في الْمُسْتَقْبَل فهذا لا يَعْلَمُه إلَّا اللهُ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]؛ وَالْمُرَاد بِتَأْوِيلِه هُنَا: مآلُهُ.

وَيُوسُف عليه السلام لمَّا رَفَع أَبَوَيْه على الْعَرْش وخرُّوا له سُجَّدًا ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ﴾ [يوسف: ١٠٠] وَتَأْوِيلُهَا: مَآلُهَا ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].

❁ فَالتَّأْوِيل على قِسمَين:

الْأَوَّل: تأويلٌ يُراد به التَّفْسِيرُ، وهذا يَعْرِفُه الْعُلَمَاء الرَّاسِخُون في الْعِلْم.

الثَّانِي: تأويلٌ يُرَاد به ما يَئُول إِلَيْه المُغيَّب من الْأَخْبَار كَأَخْبَار الْآخِرَة وَالْجَنَّةِ والنارِ، فهذه لا تُعلَمُ حَقِيقَتُه إلَّا إذا وَقَعْت مُستقبلًا، وهذا لا يَعْلَمُه إلَّا اللهُ جل جلاله.

مَن هُمْ حَوارِيُّو الْأَنْبِيَاءِ

وعن ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّتِهِ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيْمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ». رَوَاه مُسْلِمٌ(١). [١٢٥]

---

[١٢٥] في هذا الْحَدِيثِ بَيَان أنَّ الْأَنْبِيَاء عَلَيْهِم السَّلامُ يكون لهم أَصْحَابٌ وحواريُّون، أي: أَنْصَارٌ يَنْصُرُونَهُم ويأخذون عنهم الْعِلْم، ويتلقَّوْن عنهم الشَّرِيعَة وَيَعْمَلُون بها، وهؤلاء الذين أَخَذُوا عن رَسُول الله ﷺ هُمْ خَيْر الْقُرُون، كما قال ﷺ: «**خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»(٢)، وذلك لأَنَّهُم تَلقَّوا عنه ﷺ الكِتابَ والسُّنَّةَ وَالشَّرِيعَةَ فبلَّغوها بأمانةٍ وعمِلوا بها، فهؤلاء الذين يَكُونُون مع الْأَنْبِيَاء من الحَوارِيِّين وَالْأَنْصَارِ وهم أَفْضَل الْأُمَم.

وقوله ﷺ: «**تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ**» وهم المُتأخِّرون الذين يُخَالِف قولُهم فِعلَهم، فلا يَعْمَلُون بما عَلِمُوه من الحقِّ، وإنَّما يَعْمَلُون أَشْيَاءَ لم يُؤْمَرُوا بها، ويتعبَّدون

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٥٠).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (٢٥٠٨)، ومسلم رقم (٢٥٣٥).

بِأَشْيَاءَ ابْتَدَعُوهَا من عند أَنْفُسِهِم وبمُحدثاتٍ أَحْدَثُوهَا، فَيَتْرُكُون السُّنَن وَيَعْمَلُون بِالْبِدَع وَالْمُحْدَثَاتِ.

وهذا شَيْءٌ وَاقِعٌ؛ فَنَجِد كثيرًا من هَؤُلَاء الْآن لا يَلْتَفِتُون إلى السُّنَن وإنَّما يَحْرِصُون على الْعَمَل بِالْبِدَع، فلا يُبالون بالسُّنَن وَالْأَوَامِرِ الْإِلَهِيَّةِ وإنَّما يَعْبُدُون الله على حَسَب ما تَسْتَحْسِنُه أَهْوَاؤُهُم وما يَأْمُرُهُم به أَكَابِرُهُم وَقَادَتُهُم، فهم يَفْعَلُون ما لا يُؤْمَرُون، وفي هذا بَيَان الفَرْق بين السَّلَف والخَلَفِ، وهو أنَّ السَّلَف يتقيَّدون بِأَوَامِر الله وسُنَّةِ رَسُولِه ﷺ في أَقْوَالِهِم وَأَفْعَالِهِم وَأَخْلَاقِهِم فيتمثَّلون الْكِتَاب والسُّنَّةَ ويتجنَّبون الْبِدَع والمُحدثاتِ، وأمَّا الخَلَف فعلى الْعَكْس من ذلك، فهم يَتْرُكُون السُّنَن وَيَعْمَلُون بِالْبِدَع والمُحدَثاتِ.

وقوله ﷺ: «**فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ**»، وهذا كقوله ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ**»[1].

فَعَلَى أَصْحَاب السُّلْطَة مُجَاهَدَةُ هَؤُلَاء الْمُبْتَدِعَةِ وَأَصْحَابِ الضَّلَال بِالْيَد ومَنْعُهم من هذه الْأُمُورِ، ومَن لم يَكُن عِنْدَه سُلْطَةٌ ولَدَيه عِلْمٌ فإنَّه يُجَاهِدَهُم بِاللِّسَان، وذلك بالرَّدِّ وَالتَّعْقِيب عَلَيْهِم وَبَيَانِ الْبَاطِل الذين يَعْمَلُون به، ومَن لم يَكُن عِنْدَه عِلْمٌ ولا سُلْطَةٌ فإنَّه يَكْرَهُهُم بِقَلْبِه وَيَتْرُكُ مَا هُمْ عليه.

(١) أخرجه: مسلم رقم (٤٩).

النَّهْي عن الأَخْذ من الْيَهُودِ والنَّصارى

وعن جَابِرٍ ﷺ أَنَّ عُمَرَ ﷺ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا نَسْمَعُ أَحَادِيثَ مِنْ يَهُودَ تُعْجِبُنَا، أَفَتَرَى أَنْ نَكْتُبَ بَعْضَهَا؟ فَقَالَ ﷺ: «أَمُتَهَوِّكُونَ أَنْتُمْ كَمَا تَهَوَّكَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، وَلَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي». رَوَاه أَحْمَدُ(١). [١٢٦]

[١٢٦] لَقَد قال ما قَالُه ﷺ في هذا الْحَدِيثِ؛ لأَنَّ شَرِيعَتَه شَرِيعَة كَامِلَة، وقد قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣] فهي شَرِيعَةٌ كَامِلَةٌ وَشَامِلَةٌ لمُتطلَّبات النَّاس إلى أن تَقُوم السَّاعةُ، وهي أيضًا شَرِيعَةٌ نَاسِخَةٌ لما قَبْلهَا من الشَّرَائِع، فَيَجِب الْعَمَلُ بِالنَّاسِخ وتَرْكُ الْمَنْسُوخ، فلا يَجُوز لَنَا أن نَأْتِي بِشَيْءٍ من التَّوْرَاة أو من الْإِنْجِيل وننشره بين النَّاس؛ لأَنَّ في شَرِيعَتِنَا ما يَكْفِي الجِنَّ وَالْإِنْسَ، وَيَكْفِي لِجَمِيع الْأَزْمَان إلى أن تَقُوم السَّاعَة.

فَيَنْبَغِي الِاقْتِصَار على سُنَّة رَسُول الله ﷺ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَنْكَر على عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ لَمَّا رَأَى مَعَه أوراقًا من التَّوْرَاة، وقال له: إِنَّا نَسْمَع أَحَادِيث من يَهُود فتُعجبنا، أَفَتَرَى أَنْ نَكْتُب بَعْضَهَا؟ فقال ﷺ: «**لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي**»؛ وذلك لأَنَّ شَرِيعَة مُوسَى نُسخت، وأُمِر الْجَمِيعُ باتِّبَاع الرَّسُول ﷺ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ

(١) أخرجه: أحمد رقم (١٥١٥٦).

أَقْسَام أُمُور الدِّين

وعن أَبِي ثَعْلَبَةَ الخُشَنِيِّ ﷺ مرفوعًا: «إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا». حَدِيثٌ حَسَنٌ رَوَاه الدَّارَقُطْنِيُّ وَغَيْرُه[1]. [١٢٧]

ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأَعْرَاف: ١٥٧].

وَقال ﷺ: «**لَا يَسْمَعُ بِي يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَا يُؤْمِنُ بِمَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»[2]؛ فالذي يَبْقَى على النَّصْرَانِيَّة بعد بَعثة الرَّسُول ﷺ، أو يَبْقَى على الْيَهُودِيَّة إنَّما هو من أَهْل النَّار؛ لأَنَّه تَرَك ما أَمَرَه الله به من اتِّباع هذا الرَّسول ﷺ.

[١٢٧] **ذَكَر الرَّسُول ﷺ في هذا الْحَدِيثِ أنَّ أُمُور الدِّين على أَرْبَعَة أَقْسَام:**

الْأَوَّل: الْوَاجِبَات وَالْفَرَائِض، وهذه لا يَجُوز أن يُضَيَّع شَيْءٌ منها، بل يَجِب الْإِتْيَان بها.

والثاني: المُحرَّمات التي حرَّمها الله، وهذه يَجِب تجنُّبها والابتعادُ عنها وَعَدَمُ فعل شَيْءٍ منها.

---

(١) أخرجه: الدارقطني رقم (٤٢)، والحاكم رقم (٧١١٤).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (١٥٣).

الثَّالِث: الحُدود، هي الْمُبَاحَات التي أَبَاحَهَا الله وأحلَّها لِلنَّاس، فلا يَنْبَغِي تعدِّي الْحَلَال إلى الْحَرَام؛ قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩] وَحُدُود الله تُطلَق ويُراد بها الْمُبَاحَاتُ فَيُقال: فلا تَعْتَدُوهَا، وتُطلَق ويُراد بها المحرَّماتُ فَيُقال: فلا تَقْرَبُوهَا؛ يعني: ابتعدوا عنها وعن الْوَسَائِل الْمُوَصِّلَة إِلَيْهَا، وأمَّا الْمُبَاحَات فلا تتعدَّوها إلى الْحَرَام.

الرَّابع: الْمَسْكُوت عنه الذي لم يُفرَض ولم يُحرَّم، ولا يُوجَد دَلِيلٌ على إِبَاحَتِه، وَسَكَتَ الله عنه فنَسكتُ عنه، وهذا معفوٌّ عنه فلا نَبْحَث فيه من حيث هو حَلَالٌ أَم حَرَامٌ، فلا دَلِيل على تَحْرِيمِه ولا على إبَاحَتِه، ولا على أنَّه وَاجِبٌ، فيَسَعُنا السُّكُوت عنه؛ لأَنَّه لو كان لَنَا به حَاجَةٌ لبيَّنه الله لَنَا.

وفي هذا الْحَدِيثِ أنَّه يَجِب فِعْلُ الْوَاجِبَات وتَرْكُ الْمُحرَّمات وَالِاقْتِصَارُ على الْمُبَاحَات، وَالسُّكُوتُ عن الْمَسْكُوت عنه، ومثل هذا كان في وَقْت النَّبِيِّ ﷺ؛ ولهذا جَاء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [الْمَائِدَة: ١٠١]، فهل هذا يعني تَرْكَ الْبَحْث عن الْمَسْكُوت عنه في عَهْد الرَّسُول ﷺ أَم هو عامٌ إلى أن تَقُوم السَّاعَة؟ الظَّاهِر - والله أَعْلَم - أنَّه عامٌ إلى أن تَقُوم الساعةُ، فالمَسْكوت عنه الذي لا دَلِيل على إيجَابه ولا على تَحْرِيمِه ولا على إبَاحَتِه فَإِنَّنَا نَسْكُت عنه كما سَكَت الله عنه، والله ﷻ لم يَسْكُت عنه نِسْيانًا؛ لأنَّ الله لا يَنْسَى، إنَّما سَكَت عنه رحمةً بِالْعِبَاد؛ ولهذا قال عنه ﷺ: «**رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ**».

النَّهْي عن الِاخْتِلَاف والتَّفرُّق

وفي « الصَّحِيحَيْن » عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ »(١). [١٢٨]

❁ **ومن هُنَا قال الْعُلَمَاء: سُؤَال أَهْل العلم على قِسْمَين:**

الْأَوَّل: السُّؤَال الذي الْقَصْد منه التَّعنُّت وَالْمُبَاهَاةُ وَإِظْهَارُ الْعِلْم مُبَاهَاةً، وهذا لا يَجُوز، وهذا مثل أَسْئِلَة بَنِي إِسْرَائِيل لِأَنْبِيَائِهِم، كما قال ﷺ: « **إِنَّمَا أَهْلَك مَنْ كَانَ قَبْلَكُم كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ** »(٢)، فَالسُّؤَال الذي يُقصَد به التَّعنُّتُ أو التَّنطُّعُ أَمْرٌ مَرْفُوضٌ ولا يَجُوز.

الثَّانِي: السُّؤَال الذي يُقصد منه مَعْرِفَةُ الْحُكْم الشَّرْعِيِّ فهو مأمورٌ به، قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

[١٢٨] قوله ﷺ: « **مَا نَهَيْتُكمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ** » هذا **كقوله** ﷺ: « **إِنَّ اللهَ حَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا** »(٣)، فَالْحَرَام يُجتنَب كُلُّه، وأَمَّا الْمَأْمُور به فَيُؤْتَى منه بالْمُستطاع؛ ولهذا قال ﷺ: « **وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ** » بِخِلَاف الْحَرَام فإِنَّه يُجتنَب كُلُّه؛ وذلك لأَنَّ اجْتِنَابَه سهلٌ،

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٦٨٥٨)، ومسلم رقم (١٣٢٧).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (٦٨٥٨)، ومسلم رقم (١٣٢٧).

(٣) أخرجه: الدارقطني رقم (٤٢)، والحاكم رقم (٧١١٤).

ولكن قد يكون في الْمَأْمُورَات شَيْءٌ لا يُستطاع، فقد لا يَسْتَطِيع الْمَرِيض أن يتوضَّأ فإنَّه يتيمَّم، ولا يَسْتَطِيع أن يُصَلِّي قائمًا فيصلِّي جالسًا، فَإِن لم يَسْتَطِع فإنَّه يصلِّي على جَنْبٍ، فقد تَأْتِي أحيانًا أحوالٌ لا يَسْتَطِيع الْإِنْسَان فيها أن يُطبِّق الأَمْر تمامًا فإنَّه يَفْعَل ما يَسْتَطِيع منه، وهذا من تَيْسِير الله ﷻ، فَالْأَمْر يُؤْتَى منه ما يُسْتَطَاع؛ قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وأمَّا النَّهْي فإنَّه سَهْلٌ تجنُّبه؛ ولهذا قال ﷺ: «**وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ**» أي: كُلَّه.

وأمَّا قوله ﷺ: «**فَإِنَّمَا هَلَك مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ**»

هذا كَحَدِيث أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ ﷺ السَّابِقِ في قوله ﷺ: «**وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا**».

ويُوضِّح ذلك: أنَّ الرَّسُولَ ﷺ قال: «**أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا**» فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَام يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَو قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ**» ثُمَّ قَالَ: «**ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِم وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ**»(١).

وَمِثْل ذلك ما ذَكَرَه الله عن بَنِي إِسْرَائِيل حِينَمَا أَمَرَهُم الله على لِسَان نَبِيِّه مُوسَى ﷺ بأَنْ يَذْبَحُوا بَقَرَةً، فلو أَنَّهُم أَخَذُوا أيَّ بقرةٍ وَذَبَحُوهَا

(١) أخرجه: مسلم رقم (١٣٣٧).

لَحصَل الْمَطْلُوب، وَلَكِنَّهُم قالوا: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٦٨- ٧١] شدَّدوا على أَنْفُسِهِم فشدَّد الله عَلَيْهِم، وهذا من سُوء أَدَبِهِم مع الله ﷻ، ولو أَنَّهُم أَخَذُوا أيَّ بقرةٍ وَذَبَحُوهَا لَحَصَل الْمَطْلُوب! وهذا من تعَنُّتات بَنِي إِسْرَائِيل، وقد نُهينا أن نَفْعَل مثل فِعْلهم مع نَبِيِّنا ﷺ، بل أُمرنا أن نتأدَّبَ مَعَه، وَنَفْعَلَ ما أَمَرَنا به، أو نَفْعَل ما نَسْتَطِيع، وما نَهَانَا عنه اجْتَنَبْنَاه، وما سَكَت عنه نَسْكُت عنه، هذا هو الْأَدَبُ مع النُّبُوَّة.

فَضِيلَة طَلَب الْحَدِيث وَالنَّصِيحَة لِلْمُسْلِمِين

وعن ابْنِ مَسْعُودٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَضَّرَ اللهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقالَتِي فَحَفِظَهَا وَوَعَاهَا وَأَدَّاهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيْهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيْحَةُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيْطُ مِنْ وَرَائِهِمْ». رَوَاه الشَّافِعِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ في «الْمَدْخَل»، وَرَواه أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجه وَالدَّارِمِيُّ عن زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ﵁[1].

وَرَوَّاه أَحْمَدُ وأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عن زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ﵁[2]. [١٢٩]

---

[١٢٩] **هذا الْحَدِيثُ يَشْتَمِل على مَسْأَلَتَيْن:**

الأُوْلَى: طَلَب الْحَدِيث.

الثَّانِيَة: النَّصِيحَة لِلَّه وَالْمُسْلِمِيْن.

أَمَّا الأُوْلَى: ففي قوله ﷺ: «نَضَّرَ اللهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَفِظَهَا وَوَعَاهَا وَأَدَّاهَا» ففي هذا الحَثُّ على الْعِنَايَة بسُنَّة الرَّسُول ﷺ، فَقوله ﷺ: «**مَقالتي**» أي: حَدِيثُه ﷺ؛ لأنّ أَحَادِيث الرَّسُول ﷺ هي الْوَحْي الثَّانِي بعد الْقُرْآن الْكَرِيم، فهي من عند الله ﷻ، والرَّسول ﷺ إنَّما هو مُبلِّغٌ، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣- ٤].

---

(١) أخرجه: ابن ماجه رقم (٢٣٠)، والشافعي رقم (١٢٠٨)، والحاكم رقم (٢٩٧).

(٢) أخرجه: أبو داود رقم (٣٦٦٠)، والترمذي رقم (٢٦٥٦)، والدارمي رقم (٢٢٨).

وَلَهَذَا يقول الْعُلَمَاء: السُّنة هي الْوَحْي الثَّانِي، فهي في الدَّرجة الثَّانِيَةِ بعد الْقُرْآن في الِاحْتِجَاج وَالْعَمَلِ، ولا بُدَّ من الْعِنَايَة بها من خِلَال حِفْظ الْأَحَادِيث كما جَاءَت عن الرَّسول ﷺ بِأَلْفَاظِهَا من غير تَغْيِير، وَالْوَعْي الْوَارِدُ في قوله ﷺ: « **ووَعاها** » مَعْنَاه: الْفِقْه فِيهَا؛ فلا يَكْفِي الْحِفْظ وَحْدَه وإنَّما الْحِفْظ مع الْفِقْه وَمَعْرِفَةِ مَعَانِيهَا، وهذا فيه الحَثُّ على الْفِقْه مع الْحِفْظ، لِيَنْتَفِع الْمُسْلِمُون بسُنَّته ﷺ.

ولا يَكْفِي أن يَحفَظ الْمُسْلِم الْأَحَادِيثَ ويفْقَه مَعْنَاهَا بل لا بُدَّ وَأَن يُبلِّغها إلى غَيْرِه، فَيَنْبَغِي على طَالِب الْعِلْم إذا عَلِم شيئًا أَلَّا يَكْتُمَه بل يُبلِّغه إلى غَيْرِه؛ لأنَّ هذا الْعِلْمَ نافع للأُمة إلى أن تَقُوم السَّاعَة.

وقوله ﷺ: « **فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ** » لأنَّ حَامِل الْفِقْه إذا بلَّغه إلى غَيْرِه فَرُبَّمَا يكون هذا المُبلَّغُ أَعْرَفَ لِمَعْنَاه وأفْقَهَ.

وفي هذا بَيَانٌ أنَّه لا يَنْبَغِي لِلْمَرْء أن يُزَكِّي نفسَه، قال تعالى: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦]، فقد يَحْفَظ المرءُ الْحَدِيث ولا يتَّضح له مَعْنَاه فيُبلِّغه إلى من هو أَفْقَه منه فَيُسْتَنْبَط منه ما لا يَفْهَمُه الْحَامِلِ له، فإذا بلَّغه بَرِئَت ذِمَّتُه وَأَوْصَل العِلْمَ إلى غَيْرِه، فَيَحْصُل بذلك الْخَيْرُ الْكَثِيرُ.

فيتَّضح من الْمَسْأَلَة الأُوْلَى الحَثُّ على حِفْظ الْأَحَادِيث النَّبوِيَّةِ والتَّفَقُّهِ في مَعَانِيهَا وَإِبْلَاغِهَا لِلْغَيْر من الْمُسْلِمِين، فيه أيضًا النَّهْي عن كِتْمَان الْعِلْم، وَالنَّهْيُ عن تَزْكِيَة النَّفْس وأَلَّا يَرَى الْمَرْء نفسَه بِأَنَّه صَار فقيهًا وأَنَّه أَفْقَه من غَيْرِه، بل هناك من هو أفقَهُ منه؛ وهذه سُنَّة الله في خَلْقِه حيث إنَّ النَّاس يَتَفَاضَلُون فِيْمَا يُعطيهم الله ﷻ، فإذا خَفِيَ على أَحَدِهِم شيءٌ فهناك من الْمُسْلِمِين من لا يَخفَى عليه هذا الشَّيْءُ إذا بَلَغَه الْحَدِيث

أو الْخَبَر، فلا يَنْبَغِي لِلْمَرْء أن يَقْتَصِر على فَهْمِه، أو أنْ يظُنَّ أنَّ هذا الْحَدِيث لا يُفهم مَعْنَاه؛ لأنَّ هناك من يَفْهَم مَعْنَاه.

الْمَسْأَلَة الثَّانِيَةُ: تَتَمَثَّل في قوله ﷺ: « **ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيهِنَّ قَلْبُ مُسْلِم: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ** » فَقوله ﷺ: « **ثَلَاث** » أي: ثَلَاث خِصَالٍ « **لا يُغِلُّ** » من الغِلِّ: وهو الْحِقْد « **عليهنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ** » بِمَعْنَى أنَّ هذه الثَّلَاثَ خِصَالٌ تُطهِّر قَلْبَ الْمُسْلِم من الغِلَّ الذي هو الْحِقْد والبُغض لِلْمُسْلِمِين.

الْخَصْلَة الْأُولى: « **إِخْلَاص الْعَمَل لِلَّه** » وهي مما يُطهِّر القلبَ من الْحِقْد، وَيَجْمَع الْقُلُوب، فإنَّ الْقُلُوب إنَّما اجْتَمَعَت على التَّوحِيد، فالله ﷻ أَلَّف بين قُلُوب الْمُسْلِمِين بِكَلِمَة لا إِلَه إلَّا الله، فلمَّا صَار الْمَعْبُود واحدًا، تألَّفت قُلُوبهم، ولمَّا كانوا يَعْبُدُون آلهةً مُتفرِّقة تعادَوا فِيمَا بينَهُم؛ فَالتَّوْحِيد الذي هو إِخْلَاص الْعِبَادَة لِلَّه يُوحِّد الْقُلُوب وَيَجْمَعُهَا على مَعْبُودٍ وَاحِدٍ وعلى عِبَادَةٍ وَاحِدَةٍ؛ فَيَجِب أن يكون الْعَمَل خالصًا لِلَّه خاليًا من الشِّرك، فلا يُعبَد اللهُ ويُعبَد مَعَه غَيْرُه، فيُذبَح ويُنذَر لِغَيْر الله، ولا تَجُوز الِاسْتِغَاثَة بالأَموات وَالْأَوْلِيَاء والصَّالحين؛ لأنَّ هذا لا يكون فيه إِخْلَاص لِلَّه ﷻ، والله ﷻ لا يَقْبَل من الْأَعْمَال إلَّا ما كان خالصًا لِوَجْهه وصوابًا على سُنَّة رَسُولِه ﷺ، وأمَّا ما كان فيه شِرْكٌ فإنَّ الله لا يَقْبَلُه ولا يَقْبَل من الْمُشْرِك عِبَادَةً ولا عَمَلًا، فَيَحْبَط عَمَل الْمُشْرِك ولا تَبْقَى له عِبَادَةٌ ولا أجرٌ عند الله ﷻ.

وَالْخَصْلَة الثَّانِيَة: مُتمثِّلة في قوله ﷺ: «**النَّصِيحَة لِلْمُسْلِمِين**» وَتَعْنِي: عَدَم الْغِشِّ، وَالنَّاصِح ضِدّ الغاشّ، فَالْمُسْلِم لا يَغُشُّ الْمُسْلِمِين في جَمِيع تصرُّفاته مَعَهُم، وإنَّما تَكُون تصرُّفاته مَعَهُم على النَّصِيحَة وَعَدَم الغِشِّ في جَمِيع الأُمُور، فلا يخدعهم ولا يغُشُّهم في الْبَيْع وَالْمُعَامَلَات ولا في الْمَشُورَة إذا استشاروه، ولا يَرْضَى لهم الْخَطَأ وإنَّما يُرِيد لهم الصَّوَاب؛ لأَنَّه قال ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[(١)]، فيكون مع الْمُسْلِمِين ناصحًا لهم في كلِّ الأُمُور، ولا يُكِنُّ لهم الْغَدْر وَالْخِيَانَة وَالْغِشَّ وَالْخَدِيعَة، فَكَمَا أَنَّه لا يَرْضَى لِنَفْسِه بذلك فإنَّه يَجِب أَلَّا يَرْضَاه لِإِخْوَانِه الْمُسْلِمِين.

وَالْخَصْلَة الثَّالِثَةُ: مُتمثِّلة في قوله ﷺ: «**وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِم**» وهذه خَصْلَةٌ عَظِيمَةٌ؛ ولذلك فإنَّه يَجِب لُزُوم جَمَاعَة الْمُسْلِمِين وَعَدَمُ مُخَالَفَتِهِم والشُّذوذِ عنهم ولو بِرَأْيٍ أو قَوْلٍ أو فِعْلٍ، وكذلك لا يَجُوز الْخُرُوج على إِمَام الْمُسْلِمِين؛ لأنَّ فيه خروجًا على جَمَاعَة الْمُسْلِمِين، ولأنه لا تَكُون جَمَاعَةٍ إِلَّا بِإِمَام، ولا إِمَامٌ إِلَّا بِسَمْعٍ وَطَاعَةٍ، وَعَلَيْه يَجِب عَدَم الذَّهَاب مع الأَحْزَاب وَالْجَمَاعَاتِ وَالْمَذَاهِبِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَاتِّبَاعِ الأَقْوَال الشَّاذَّةِ، بل يَجِب الْبَقَاء مع الْمُسْلِمِين وعلى ما هُمْ عليه في الْقَوْل وَالْعَمَلِ؛ لاسِيَّما عند الْفِتَن وَالِاخْتِلَافِ.

فإنَّ النبيَّ ﷺ لما أَخْبَر عن الْفِتَن التي تَحْدُث قال له حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ ﷺ: فَمَا تأمُرني إنْ أدركني ذلك؟ قال: «**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ**

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (١٣)، ومسلم رقم (٤٥).

وَإِمَامَهُمْ»، قال: فَإِن لم يَكُن لهم جماعةٌ ولا إمَام؟ قال: «**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا وَلَو أنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**»[1].

فَعَلَى الْمُسْلِم أنْ يتجنَّبَ الِاخْتِلَاف والشِّقاقَ وَمُخَالَفَةَ الْمُسْلِمِين، وَيَلْزَم الْجَمَاعَة؛ لأنَّ هذا أَنجى وأَسلمُ له وأبعَدُ له عن الْفِتَن، وهذا نحتاجه في هذه الأَيَّام وما بَعْدَهَا، لِكَثْرَة الْأَهْوَاء وَالْآرَاءِ والدَّعواتِ المُضلِّلةِ، ولتسلُّط الْأَعْدَاء وَإِثَارَةِ الشُّبُهات وَالْأَحْقَادِ، فعلى الْمَرْء أن يَلْزَم جَمَاعَة الْمُسْلِمِين وألَّا يَفْتَرِق وَيُخَالِفَ جَماعَتَهُم.

وقوله ﷺ: «**فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**» الْمُرَاد بالدَّعوة هُنَا: الدَّعْوَة إلى الإسلام، وأنَّه إذا اجْتَمَع الْمُسْلِمُون فَإِنَّ دَعْوَتَهُم إلى الإسلام «**تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**» بِمَعْنَى أنَّها تَصِل إلى من سِوَاهُم من الخَلْق، وأنَّهم إذا اخْتَلَفُوا فَإِنَّهُم سيشتغلون بِأَنْفُسِهِم وستنقطع الدَّعوة التي أُمِروا بها، لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] فَنَحْن قد كُلِّفنا بِدَعْوَة الْبَشَرِيَّة، هي مسئوليَّةٌ حمَّلَنا الله إيَّاها؛ لأنَّ الله اخْتَار الرَّسُول ﷺ من الْعَرَب، وَأَنْزَل الْقُرْآن بِلُغَتِهِم، وَأَمَرَهُم أن يَدْعوا النَّاسَ، فقال ﷻ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٤-١٠٥]. والبيِّنات جَاءَت من عند الله تَعالَى، فَيَجب التَّمسُّك بها وَالِاجْتِمَاعُ عَلَيْهَا، لِتَكُون هي مَصْدَر قَوْلنا وَفِعْلِنا.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٣٤١١)، ومسلم رقم (١٨٤٧).

أَصْل عُلُوم الدِّين ثَلَاث

وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «العِلْمُ ثَلَاثٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ، أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ، أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ، وَمَا كَانَ سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ». رَوَاه الدَّارِمِيُّ وأَبُو دَاوُدَ(١). [١٣٠]

وأمَّا الذين اخْتَلَفُوا من بعد ما جَاءَتْهُم الْبَيِّنَات فقد توعَّدهم الله بأنَّ لهم عذابًا عظيمًا، كما قال سُبْحَانَه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥] يعني: أَهْل الْكِتَاب، وَسَبَب تفرُّقهم وَتَرْكِهِم لِلْبَيِّنَات أَنَّهُم اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم، فَالْوَاجِب هو اتِّبَاع الْهُدَى وَعَدَمُ اتِّباع الْهَوَى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦].

وَلَهَذَا يَنْبَغِي التَّمسُّك بِالْهُدَى وهو الْكِتَاب والسُّنَّةُ، فَفِيهِمَا البيِّنات التي أَنْزَلَهَا الله عَلَيْنَا، فلا عُذر لَنَا وَالْكِتَاب والسُّنةُ بين أَيْدِينَا، فلا يَنْبَغِي أن نَخْتَلِف وَنَتَّبِعَ أهواءنا وأقوالَ النَّاس وَالْقَادَةَ وَالْأَئِمَّةَ من أَهْل الضَّلَال، وَنَتْرُكَ حَبْل الله الْمَتِينَ الذي أُمِرْنا بالتَّمسُّك به؛ لقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

[١٣٠] قوله ﷺ: «**العِلْمُ ثَلَاثٌ**» أي: أَصْل عُلُوم الدِّين وَمَسَائِلُ الشَّرْع التي تُهِمُّ الْمُسْلِم في دِينِه ودُنياه.

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٢٨٨٥)، وابن ماجه رقم (٥٤)، والحاكم رقم (٧٩٤٩).

وقَوْلُه: «آيةٌ مُحْكَمَةٌ» أي: من الْقُرْآن الْكَرِيم؛ والمُحكَم هو غير الْمَنْسُوخ وغير المُتشابه، فَالآيَة الْمُحْكَمَة هي غير الْمَنْسُوخة ولا الْمُتَشَابِهَة، وهي الدَّلِيل الصَّرِيحُ التي يَجِب الأخْذُ بها، وأمَّا الِاسْتِدْلَال بِالْمُتَشَابِه فهي طَرِيقَة أَهْل الزَّيغ، ومن الْمَعْلُوم أنَّ الْأَخْذ بِالْمَنْسُوخ لا يَجُوز؛ لأنَّه لا يُعمَل به وإنَّما يُعمَل بِالنَّاسِخ، ومن عَمَل بِالْمَنْسُوخ اعتُبِرَ ضالًّا، والله ﷻ يَنْسَخ ما يَشَاء لِحِكْمَةٍ، فَيَنْبَغِي الْأَخْذ بِالنَّاسِخ وَتَرْكُ الْمَنْسُوخ، وَالْعَمَل بِالْمَنْسُوخ ضَلَالٌ، وهو عَمَلٌ بِغَيْر دَلِيلٍ.

وقَوْلُه: «سُنَّةٌ قَائِمَةٌ» أي: من سُنَن الرَّسُول ﷺ، والسُّنَّة تُطْلَق ويُراد بها الطَّرِيقَةُ التي كان عليها الرَّسُول ﷺ، وَتُطْلَق على ما ثَبَت عن الرَّسُول ﷺ من قولٍ أو فعْلٍ أو تَقْرِيرٍ، وهي الْأَحَادِيث الصَّحِيحَةُ الثَّابِتَةُ عنه ﷺ، فَيَجِب الْعَمَل بها بعد كِتَاب الله ﷻ، وقَوْله: «قَائِمَةٌ» يعني: ثَابِتَةٌ، إسنادًا أو حكمًا بِأَلَّا تَكُون مَنْسُوخَةً، وهي الدَّائِمَة الْمُسْتَمِرَّةُ الْمُتَّصِل بها الْعَمَل.

وقَوْلُه: «فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ» أي: في الْمَوَارِيث؛ لأنَّ الله ﷻ قَسَّم الْمَوَارِيث في كِتَابه الْكَرِيمِ وفي سُنَّةِ نَبِيِّه ﷺ وَأَعْطَى كُلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فلا يَجُوز التَّلَاعُب بِالْمَوَارِيث وَحِرْمَانُ الْوَارِث وَإِعْطَاءُ غَيْرِه؛ لأنَّ الله تعالى لَمَّا ذَكَر الْمَوَارِيث قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٣] فَسَمَّاهَا حُدودًا ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ

تَحْرِيم تَفْسِير الْقُرْآن بِالرَّأْي

وعن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». رَوَاه التِّرْمِذِيُّ[1].

وفي رِوَايَة: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». رَوَاه التِّرْمِذِيُّ[2]. [١٣١]

عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء: ١٣- ١٤] فالمواريثُ من حُدُود الله ﷻ فلا يَجُوز تعدِّيها ولا التَّلَاعُبُ بها، وإنَّما يُعمَل بها فيُعطى كُلُّ ذي حقٍّ حقَّه من غير زِيَادةٍ ولا نُقْصَانٍ، ولا تَقْدِيمٍ ولا تَأْخِيرٍ.

وفي هذا الحَثُّ على تعلُّم أَحْكَام الْمَوَارِيث، وقد حَثَّ ﷺ على تعلُّمه، وَأَخْبَر أنَّه أوَّل عِلْمٍ يُرفَع من الْأُمَّة حتَّى يَتَنَازَع الِاثْنَان في فَرِيضَةٍ فلا يَجِدَان من يَحْكُم بَيْنَهُمَا.

فتعلُّم الْمَوَارِيث يُؤَدِّي إلى وُصُول الْحُقُوق إلى أَصْحَابِهَا، وهو علمٌ عَظِيمٌ ولكنَّه يُنسى كما في الْحَدِيث: «**تَعَلَّمُوا الْفَرَائِضَ وَعَلِّمُوهَا، فَإِنَّهُ نِصْفُ الْعِلْمِ، وَهُوَ يُنْسَى، وَهُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ يُنْزَعُ مِنْ أُمَّتِي**»[3]، فهو علمٌ فيه صُعوبةٌ ولا بُدَّ من المِران وَالصَّبْرِ عليه، لِئَلَّا تَضِيع الْحُقُوق وَالْمَوَارِيثُ.

وقَوْلُه: «وَمَا سِوَى ذلك فَهُوَ فَضْلٌ» أي: وما سِوَى هذه الْعُلُومِ الثَّلَاثِ فهو زِيَادَةٌ وهي زِيَادَة خَيْرٍ، وَعُلُومٌ مُكمِّلَةٌ لهذه الثَّلَاثِ.

[١٣١] في هَذَيْن الْحَدِيثَيْن الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ على من فسَّر الْقُرْآن بِرَأْيِه

---

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢٩٥١)، والنسائي في «الكبرى» رقم (٨٠٨٥).

(٢) أخرجه: الترمذي رقم (٢٩٥٠)، وأحمد رقم (٢٠٦٩).

(٣) أخرجه: ابن ماجه رقم (٢٧١٩)، والدارقطني رقم (١)، والحاكم رقم (٧٩٤٨).

دون رُجُوعٍ إلى مَصَادِر التَّفْسِير الصَّحِيحَةِ؛ ولهذا شدَّد ﷺ على من يُفسِّر الْقُرْآن بِغَيْر عِلْم، وَذَكَر أنَّه اسْتَوْجَب دُخُول النَّار فقال: «**فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»، وَجَاء في رِوَايَةٍ أنَّه قال: «**مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ**»[1]، وَالْحَدِيث سَاقَه ابْنُ كَثِيرٍ في أوَّل «تَفْسِيرِه» وجوَّد إسْنَادَه[2].

ففي الْحَدِيثَيْن الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ على من يُفسِّر الْقُرْآن بِغَيْر عِلْم أو بِرَأْيِه؛ لأنَّ الْقُرْآن يُفسَّر بِأَرْبَعَة أَشْيَاءَ ذَكَرهَا ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أَوَّل «تَفْسِيرِه»:

الْأَوَّل: تَفْسِير الْقُرْآن بِالْقُرْآن؛ لأنّ كَلَام الله يُفسِّر بعضُه بعضًا.

الثَّانِي: تَفْسِير الْقُرْآن بالسُّنَّة النَّبَوِيَّةِ؛ لأنّ الرَّسُول ﷺ مُبيِّنٌ لِلْقُرْآن، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

الثَّالِث: تَفْسِير الصَّحَابَة رِضْوَان الله عَلَيْهِم؛ لأَنَّهُم تلقَّوا عن الرَّسُول ﷺ تَفْسِيرَ الْقُرْآن.

الرَّابِع: تَفْسِير التَّابِعِين، لأَنَّهُم أَخَذُوا التَّفْسِير عن صَحَابَة رَسُول الله ﷺ.

وهناك طَرِيقَةٌ خَامِسَةٌ لِتَفْسِير الْقُرْآن الْكَرِيم، وذلك بِاللُّغَة الْعَرَبِيَّة التي نَزَل بها.

فَأَوَّل ما يُبدأ به تَفْسِيرُ الْقُرْآن هو تَفْسِير بَعْضِه بِبَعْضٍ، فَإِن لم يُوجَد فمن السُّنَّة، وَإِن لم يُوجَد في السُّنَّة فإنَّه يُفسَّر بِتَفْسِير الصَّحَابَة، فَإِن لم

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٣٦٥٢)، والترمذي رقم (٢٩٥٢)، وأبو يعلى رقم (١٥٢٠).

(٢) انظر: «تفسيره» (١/٦).

خُطُورَة الإِفْتَاء بِغَيْر عِلْمٍ

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ، وَمَنْ أَشَارَ عَلَى أَخِيْهِ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ أَنَّ الرُّشْدَ فِي غَيْرِه فَقَدْ خَانَهُ». رَوَاه أَبُو دَاوُدَ[1]. [١٣٢]

يُوجَد فبتفسير التَّابِعِين، فَإِن لم يُوجَد فإنَّه يُرجَع في ذلك إلى اللُّغَة الْعَرَبِيَّةِ التي نَزَل بها، فهذه هي مَصَادِر التَّفْسِير، وليس هناك مَصْدَرٌ آخَرُ غيرُ هذه الْمَصَادِر، وأمَّا تَفْسِير الْقُرْآن بِالرَّأْي ففيه الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ.

ومن هُنَا نَأْخُذ بأنَّ الذين يُفسِّرون الْقُرْآن الْآن بِآرَائِهِم وبالفَرْضِيَّات الْحَدِيثَةِ وبالنَّظَرِيَّات أو ما يُسمَّى بِالْإِعْجَاز الْعِلْمِيِّ إِنَّما هُمْ دَاخِلُون فيمَن قال في الْقُرْآن بِرَأْيِه، فلا يَنْبَغِي أن تُجعَل هذه الْأُمُورُ تفسيرًا لِكَلَام الله تَعَالَى؛ لأَنَّهَا عَمَلٌ بَشَرِيٌّ يُخْطِئ وَيُصِيب، وهذه النَّظَرِيَّات تتغيَّر فقد تَأْتِي نَظَرِيَّاتٌ أُخْرَى تُغيِّرها فلا تُجعل تفسيرًا لِكَلَام الله ﷻ الذي لا يَأْتِيه الْبَاطِل من بين يَدَيْه ولا من خَلْفِه.

[١٣٢] **قوله ﷺ: «مَنْ أُفتِيَ بِغَيْر عِلْم»** هو الْجَاهِل الذي يَسْأَل من يُؤمِّل فيه الْعِلْم؛ لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، فَالْمُسْتَفْتِي عَمِل بما أُمِر به إذا تحرَّى أعلمَ من يَجد وَأَتْقَاهُم، وأمَّا إذا لم يَكُن قد تحرَّى وإنَّما بَحَث عمَّن يُرخِّص له وَيَبْحَث له عن الْمَخَارِج فهذا ممَّن لم يَسْأَل أَهْل الذِّكْر، وإنَّما سَأَل أَصْحَاب الْهَوَى وَالْجَهْلِ، فَصَار بذلك من أَصْحَاب الْهَوَى وَالْجَهْلِ بِخِلَاف الذي تحرَّى

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٣٦٥٧)، والحاكم رقم (٣٥٠).

أَهْل الْعِلْم وَأَفْضَلَ من يَجِدُهُم يَسْأَلُهُم، وَتَكُون الْمَسْئُولِيَّة حينئذٍ على الْمُفْتِي إذا أَفْتَاه بِغَيْر عِلْم أو بهوًى.

وَلَهَذَا قال ﷺ: «**كَانَ إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ**» فَالْمُسْتَفْتِي لم يُقصِّر بعد أن بَحَث في النَّاس واخْتار من يَرَى أنَّه الْأَحْسَن، فهو بَذَل وُسْعَه في تحرِّي الْمُفْتِي الذي يُبيِّن له الحقَّ، فَيَجب على الْمُفْتِي حينئذٍ أن يُفتيه بِعِلْم، وإذا لم يَكُن عِنْدَه عِلْمٌ في الْمَسْأَلَة فإنَّه يَجِب عليه أن يتوقَّف وَيَقُول: الله أَعْلَم، أو: اذْهَب إلى غَيْرِي، بِخِلَاف ما لو تسرَّع وَأُفْتَى بغَيْر عِلْم فإنَّه يكون الْإِثْم حينئذٍ عليه.

وَلَهَذَا لم يَكُن الرَّسُول ﷺ يُجيب في الْمَسَائِل التي يُسأل عنها ولم يَكُن نَزَل عليه الْوَحْي بعدُ، وإنَّما كان يَنْتَظِر حتى يَنْزِل عليه الْوَحْي وَالْعِلْم من الله ﷻ، فَكَيْف بِغَيْرِه؟!

«وَقَد جَاء إلى الإمام مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ إِمَامِ دَار الْهِجْرَة رَجُلٌ من بَعِيدٍ، وسأل عن أَرْبَعِين مَسْأَلَة، فَأَفْتَاه في أَرْبَع مَسَائِلَ، وقال في ستٍّ وثلاثين: لا أَدْرِي! فقال الرَّجل: جِئْتُك من بَعِيدٍ أَسْأَلُك وَتَقُول: لا أَدْرِي؟! فقال له: ارْكَب رَاحِلَتَك وَاذْهَب إلى الْبَلَد الذي جِئْت منه وَقُلْ: سَأَلْتُ مالكًا فقال: لا أَدْرِي!».

وَلَهَذَا قال سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِذَا تَرَكَ الْعَالِم لا أَدْرِي أُصيبت مَقاتلُه»[1].

---

(١) انظر: «الحلية» لأبي نعيم (٧/ ٢٧٥).

فَعَلَى الْمَرْءِ أن يتوقَّف عن الْمَسْأَلَة التي لا يَعْلَمُهَا ولو كان من أَكْثَر أَهْل بَلَدِه علمًا، أو يُحيلَ السائلَ إلى من هو أَعْلَم منه، فإنَّه لو فعل ذلك دلَّ هذا على فَضْله لا على نَقْصِه، وقد كان الْعُلَمَاء إلى وَقْتٍ قُرَيْبٍ إذا لم يَكُن عِنْدَهُم جَوَابٌ قالوا: لا نَدْرِي، ولا يَعْتَبِرُون هذا نقصًا وإنَّما يَعْتَبِرُونَه من خَوْف الله ﷻ.

وفي هذا الْحَدِيثِ بَيَان شدَّة خُطُورَة الْفَتْوَى، وأنَّه يَجِب على الْمُفْتِي أن يتثبَّت ولا يُفْتِي إلَّا بما ظَهَر له من الْحُكْم الشَّرْعِيِّ، فَإِن كان عِنْدَه علمٌ قال به، وإلا اعْتَذَر عن الإِجَابَة خَوْفَ الْوُقُوع في الإِثم، وهذا ما كان يَفْعَلُه سَلفُنا الصَّالِح، بِخِلَاف ما نُشَاهِدُه في وَقْتِنَا الْحَاضِرِ الذي كَثُر فيه الْجَهْل، وكَثُر المُفتون والمفتونون الذين يُفْتنُون النَّاس، وكَثُر المُتعالِمون لقلَّة الْوَرَع وَالْخَوْفِ من الله ﷻ، فعلى من سُئِل وليس عِنْدَه مَعْرِفَةٌ بِالْجَوَاب أن يقول: لا أَدْرِي؛ فهذا هو المَخرج له أَمَام الله ﷻ.

وقَوْلُه: «وَمَنْ أَشَارَ عَلَى أَخِيهِ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ أنَّ الرُّشْدَ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ خَانَهُ»، الْمَشُورَة نَوْعٌ من الِاسْتِفْتَاء إلَّا أن الْمَشُورَة في الِاسْتِفْتَاء تَكُون في مَسَائِل الشَّرْع، وأمَّا الْمَشُورَة الْمَذْكُورَةُ هُنَا فَتَكُون في أُمُور التَّجْرِبَة وَالْأُمُورِ غير الشَّرْعِيَّة، فَالْوَاجِب على من استُشير أن يدلَّ من اسْتَشَارَه على ما يَرَاه خيرًا له، فَإِن دلَّه على غير ما يَرَاه خيرًا فقد خَانَه؛ لأنَّ الْمُسْتَشِير كان قد ائْتَمَنَه على أن يدُلَّه على ما يَرَاه، فإذا دلَّه على غير ما يَرَاه كانت هذه خِيَانَةً من الْمُسْتَشَار، فَالْوَاجِب على الْمُسْتَشَار أن يُبدي الْمَشُورَةَ الصَّحِيحَةَ.

وعن مُعَاوِيَةَ ﷺ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ الأُغْلُوطَاتِ. رَوَاه أَبُو دَاوُدَ أيضًا (١). [١٣٣]

---

[١٣٣] **قَوْلُه:** «**الأُغْلُوطَات**» جَمع أُغْلُوطَة: وهي الْمَسَائِل التي يُقصَد بها غَلَط الْعُلَمَاء أو الْمَسْئُولِين ليَزِلُّوا فَيَحْصُل بذلك شرٌّ وَفِتْنَةٌ؛ وهذا لا يَجُوز، وقد نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عن كَثْرَة السُّؤَال وقال: «**إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مَنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ**» (٢).

فَلا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَان أن يَسْأَل إلَّا بِقَدْر ما يَحْتَاج، وَأَن يَتْرُك الْأَسْئِلَة التي لا يكون بحاجةٍ إِلَيْهَا، ومن باب أَوْلى الْأَسْئِلَة التي لا يَقْصِد بها الِاسْتِفَادَة وإنَّما يَقْصِد بها تَغْلِيط الْعَالِم، أو تَغْلِيط المُعلِّم، وهذا أمرٌ لا يَجُوز.

ولا شكَّ أن الْعَالِم مَهْمَا بَلَغ من الْعِلْم فَرُبَّمَا يَغْلَط؛ لأَنَّه لا يَعْلَم كلَّ شَيْء، وقد يُفاجأ بِسُؤَالٍ وليس عِنْدَه له جَوَابٌ، فَإِن أَجَاب بِخَطَأٍ أَشْكَل، وَإِن قال: لا أَدْرِي، قد لا يَحْتَمِل بَعْض النَّاس قولَه: لا أَدْرِي، فَالْوَاجِب على السَّائِلِين أن يتأدَّبوا في السُّؤَال، فَيَسْأَلُوا بِقَدْر ما يَحْتَاجُون، وَأَن يَقْصِدُوا بِسُؤَالِهِم التَّعلُّم، لا إِظْهَارَ فَهْمِهِم أو تَغْلِيطَ الْمَسْئُول؛ فإنَّ هذا قد نَهَى عنه الرَّسُول ﷺ.

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٣٦٥٦)، والطبراني في «الكبير» رقم (٩١٣).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (٦٨٥٨)، ومسلم رقم (١٣٣٧).

فَضِيلَة طَلَب الْعِلْم

وعن كَثِيرِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِي الدَّرْدَاءِ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، إِنِّي جِئْتُكَ مِنْ مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ لِحَدِيثٍ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، مَا جِئْتُكَ لِحَاجَةٍ قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ». رَوَاه أَحْمَدُ وَالدَّارِمِيُّ وأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجه[1]. [١٣٤]

---

[١٣٤] هذا حَدِيثٌ مَشْهُورٌ قد شَرَحَه العلَّامة الإِمَامُ ابْنُ رَجَبٍ الحَنْبَليُّ في رِسَالَةٍ مُستقلَّةٍ اسْمُهَا «شَرْح حَدِيث أَبِي الدَّرْدَاءِ»، وأَبُو الدَّرْدَاءِ من أجِلَّةِ صَحَابَة رَسُول الله ﷺ وَعُلَمَائِهم، وقد ذَهَب رضي الله عنه إلى الشَّام لِنَشْر الْعِلْم وَتَعْلِيم النَّاس.

قَوْلُه: «إِنَّي جِئْتُك من مَدِينَة الرَّسُول ﷺ لِحَدِيثٍ بَلَغَنِي عَنْك أَنَّك تُحدِّثه عن رَسُول الله ﷺ» فيه فَضْل الرِّحلة في طَلَب الْعِلْم وَلِقَاءِ

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٣٦٤١)، والترمذي رقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه رقم (٢٢٣)، وأحمد رقم (٢١٧١٥).

الْعُلَمَاء مَهْمَا كانوا بَعِيدِين، وأنَّ السَّفَر وتحمُّلَ المشاقِّ لِأَجْل طَلَب الْعِلْم ليس بِكَثِيرٍ على هذا الْمَطْلَبِ الْعَظِيم، وهذا الرَّجُل الذي سَأَل أَبَا الدَّرْدَاءِ ﷺ كان قد سَافَر من الْمَدِينَة إلى الشَّام، ومن الصَّحَابَة من سَافَر من الْمَدِينَة إلى مِصْرَ لِطَلَب حَدِيثٍ وَاحِدٍ، فقد كانوا ﷺ يَرْحَلُون لِطَلَب الْعِلْم، ففي هذا فضلُ الرِّحلة لِطَلَب الْعِلْم.

قوله ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ» أي: إنَّ مَشْيَ طَالِب الْعِلْم وسفرَه يُؤَدِّي به إلى الْحَقِّ؛ لأَنَّه يَطْلُب الْعِلْم.

وَسُلُوك الطَّرِيق يَشْمَل الطَّرِيقَ الحِسِّيَّ لِلسَّفَر، وَيَشْمَل أيضًا الطَّرِيقَ الْمَعْنَوِيَّ لِحِفْظ الأدلَّة والتَّفقُّه فيها وَالْجُلُوسِ بين يَدَي الْعُلَمَاء، فَكُلُّ هذا من باب سُلُوك الطَّرِيق لِطَلَب الْعِلْم وَإِن كان في الْبَلَد الْوَاحِدِ، فَالطَّرِيق يَشْمَل الطَّرِيقَ الحِسِّيَّ وهو السَّفَر، وَيَشْمَل الطَّرِيقَ الْمَعْنَوِيَّ الذي هو طَلَب التَّحْصِيل وَالتَّعَبُ في فهم الْعِلْم وتلقِّيه وَالسَّهَرُ عليه وغيرُ ذلك من المشاقِّ، ومن عَمِل ذلك فَإِن الله ﷻ يُسَهِّل طَرِيقه إلى الْجَنَّة، لأنَّ الْوُصُول إلى الجنَّة إنَّما يَحْصُل بِالْعِلْم النَّافِع وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وفي الْحَدِيث دليلٌ على أنَّ الْعِلْم يُؤْخَذ بالتَلقِّي، لا من الكُتُب، ولا من نَقْل فُلَانٍ أو فُلَانٍ، فَبِمَا أنَّ الأَصْل مَوْجُودٌ فإنَّه يَنْبَغِي الذَّهَابُ إِلَيْه لتلقِّي الْعِلْم عنه.

وقَوْلُه: «وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ» أي: إنَّ الْمَلَائِكَة لَتتواضع لِطَالِب الْعِلْم توقيرًا لِعِلْمِه، وتُجِلُّه وتُقدِّره، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]، وقَوْلِه تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]؛ أي: تواضَعْ لهم وقدِّرْهم.

وَلَهَذَا يَنْبَغِي تَقْدِير طَالِب الْعِلْم وَأَهْلُ الْعِلْم الشَّرْعِيِّ، وَعَدَم ازدرائهم، أو اتِّهَامِهِم بِالْغَفْلَة لأَنَّهُم تَرَكُوا ما يَحْتَاجُونَه من أُمُور الصِّنَاعَات والحِرَفِ والمهاراتِ؛ فهؤلاء يُعظِّمون أَمْر الدُّنيا على أَمْر الآخرة.

وهناك فَرِيقٌ آخَرُ من المُتصوِّفة الذين يُزهِّدون النَّاس في طَلَب الْعِلْم ويقولون: الْمَطْلُوب هو الْعَمَل وَالْعِبَادَةُ والذِّكْرُ، وهؤلاء أشدُّ خطرًا من الصِّنف الأوَّلِ، ويتحصَّل من هذا فَرِيقَان: فَرِيقُ المُنحلِّين والزَّنادقةِ، وَفَرِيقُ أَصْحَاب الضّلال من المتصوِّفة.

وقَوْلُه: « وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوفِ الْمَاءِ » يَسْتَغْفِرُون له؛ لأَنَّه إذا نَشَرَ العِلْمَ أَصْلَح الله به الأرضَ ودرَّت الخيراتُ وَالْبَرَكَاتُ وَالْأَمْطَارُ فتَشْبَع الْبَهَائِم وَالْحِيتَانُ في الْبَحْر وَالْمَخْلُوقَاتُ جميعًا من الطَّيْر وَغَيْرِهَا، فكُلُّ هذا يَحْصُل بِبَرَكَة نَشْرِ الْعِلْم والدِّين في الأَرْض، فيَأْتِي لهذه الْحَيَوَانَات رِزْقُهَا فَتَسْتَغْفِر لِهَؤُلَاء الذين كانوا سببًا في حُصُول الْخَيْر لَهَا.

وقَوْلُه: « وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ » هذا فيه فَضْلُ الِاشْتِغَال بِالْعِلْم على الِاشْتِغَال بِالْعِبَادَة، وفي هذا أيضًا ردٌّ على المتصوِّفة الْقَائِلِين: إن الِاشْتِغَال بِالْعِبَادَة أَفْضَل من الِاشْتِغَال في تَحْصِيل الْعِلْم.

وَلَكِن يتَّضح فَضْل الْعِلْم على الْعِبَادَة من حيث إنَّ نَفْع الْعِلْم يتعدَّى إلى كافَّةِ الخَلْق، فَالْعِلْم مثل الْقَمَر لَيْلَة الْبَدْر الذي يُضيءُ الْكَوْن فيُساعد

الْمُسَافِرِين وَيَطْرُد الظُّلمةَ عن النَّاس، وأمَّا الْكَوْكَب فإنَّه يُضيء لِنَفْسِه فَعَمَلُه قَاصِرٌ على نَفْسِه، وكذلك الْعَابِد الذي نَفْعُ عِبَادَتِه قاصرٌ عليه، بِخِلَاف العالمِ الذي نَفْعُه يكون له ولغيرِه ولهذا شُبِّه بِالْقَمَر، وهذا وَجْه الْمُشَابَهَة في تَمْثِيل الرَّسُول ﷺ لِلْعَالِم بِالْقَمَر لَيْلَة الْبَدْر التي هي لَيْلَة التَّمَام على الْكَوْكَب الذي إنَّما ضوءُه حَولَه فَقَط ولا يتعدَّاه.

وقَوْلُه: « **وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ** » هذا شرفٌ لهم؛ لأنَّ الْعُلَمَاء وَرِثُوا الرَّسُول ﷺ، وَالرَّسُول ﷺ لم يُورِّث الدُّنيا ولا الْأَمْوَالَ، لأنَّ هذا عَرَضٌ فانٍ وَزَائِلٌ، وإنَّما ورَّث الْأَنْبِيَاءُ « **العِلْمَ** » الذي يَبْقَى وَيَدُوم، ويدُلُّ على الجنَّة وعلى السَّعَادَة، وهذا هو الْمِيرَاث الصَّحِيحُ، فَالْعَالِم وَإِن كان فقيرًا فهو عِنْدَه خيرٌ كَثِيرٌ أَفْضَلُ من التَّاجِر الذي يَمْلِك المِلِيارَات وليس عِنْدَه عِلْمٌ، ولا مُقَارَنَة بَيْنَهُمَا، لأنَّ التَّاجِر الذي عِنْدَه الْأَمْوَال سيتركها أو رُبَّمَا تَتْلَف ثم إنَّه سيُحاسب عليها يوم الْقِيَامَة، وأمَّا الْعَالِم وَإِن لم يَكُن عِنْدَه شَيْءٌ من مَتَاع الدُّنيا الزَّائِلِ إلَّا أنَّه عِنْدَه خَيْر الدُّنيا وَالْآخِرَة وهو الْعِلْم الذي نَفَعَه وَنَفَع غَيْرَه.

وَالرَّسُول ﷺ لم يَكُن يدَّخر شيئًا من الدُّنيا لِنَفْسِه، وإنَّما كان يَعِيش عِيشَةَ الْفُقَرَاء، وربَّما يربِط الْحَجَر على بَطْنِه من الْجُوع وإذا جَاء شَيْءٌ من الْأَمْوَال أَنْفَقَه في سَبِيل الله، وقد مَات ﷺ وَدِرْعُه مَرْهُونَةٌ عند يهوديٍّ بِثَلَاثِين صاعًا من شَعِير أَخَذَهَا رزقًا لعيالِه[1].

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٢٧٥٩).

ولو شَاء لمَلَك الدُّنيا بِأَسْرِهَا، ولكِنَّه ﷺ إنَّما أَرَاد الآخِرَة وما عند الله ﷻ.

وقَوْلُه: « **وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا** » قَوْلُه: « **دينارًا** » يعني: من الذَّهَب، و« **درهمًا** » من الفِضَّة، فَلَم يُورِّثوا فِضَّةً ولا ذَهَبًا.

وقَوْلُه: « **وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ** » يعني: من أَخَذ من مِيرَاث النُّبُوَّة فَإِنَّمَا أَخَذ الْكَثِير الذي لا يَعْلَم كَثْرَتُه إلَّا اللهُ ﷻ.

وَرُوِيَ: « **أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه مَرَّ عَلَى النَّاسِ وَهُمْ يَتَبَايَعُونَ فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: مَا أَعْجَزَكُم! قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: ذَلِكَ مِيرَاثُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُقَسَّمُ وَأَنْتُمْ هَاهُنَا لَا تَذْهَبُونَ فَتَأْخُذُونَ نَصِيبَكُمْ مِنْهُ! قَالُوا: وَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجُوا سِرَاعًا إِلَى الْمَسْجِدِ، وَوَقَفَ أَبُو هُرَيْرَةَ لَهُمْ حَتَّى رَجَعُوا، فَقَالَ لَهُمْ: مَا لَكُمْ؟ قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، قَدْ أَتَيْنَا الْمَسْجِدَ فَدَخَلْنَا فَلَمْ نَرَ فِيهِ شَيْئًا يُقَسَّمُ! فَقَالَ لَهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَمَّا رَأَيْتُمْ فِي الْمَسْجِدِ أَحَدًا؟ قَالُوا: بَلَى رَأَيْنَا قَوْمًا يُصَلُّونَ، وَقَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَقَوْمًا يَتَذَاكَرُونَ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، فَقَالَ لَهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: وَيْحَكُمْ فَذَاكَ مِيرَاثُ مُحَمَّدٍ ﷺ** »[١].

(١) أخرجه: الطبراني في « الأوسط » رقم (١٤٢٩).

الْحِكْمَة ضَالَّة الْمُؤْمِن

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ مرفوعًا: « الكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ؛ فَحَيثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا ». رَوَاه التِّرْمِذِيُّ وقال: غريبٌ، وابْنُ مَاجَه[١]. [١٣٥]

---

[١٣٥] **قوله ﷺ**: « **الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ** » أي: ذَات الْحِكْمَة الْمُشْتَمِلَة عَلَيْهَا، وهي الْفِقْه في الدِّين، فَيَنْبَغِي أَخْذُ الْعِلْم أَيْنَمَا وُجد، ولو كان من يُؤْخَذ عنه قَلِيل الشَّأْن وَالْمَكَانَةِ عند النَّاس.

وقَوْلُه: « **ضالَّةُ الْمُؤْمِن** » الضَّالَّة: هي الْمَال الضَّائِع، وَالْمُرَاد مَطلوبُه « **فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا** » أي: بِقَبُولِهَا؛ يعني: أن الْمُؤْمِن يَطْلُب الْحِكْمَة فإذا وَجَدَهَا « **فَهُو أحقُّ بها** » أي: بِالْعَمَل بها واتِّبَاعِها، وَقِيل: الْمَعْنَى أن الْحِكْمَة رُبَّمَا صَدَرَت ممَّن ليس بأهلٍ لَهَا ثم وَقَعْت إلى أَهْلِهَا فهو أَحَقُّ بها من قَائِلِهَا من غير الْتِفاتٍ إلى قِلَّة شَأْن من وَجَدَهَا عِنْدَه.

وَالرَّسُول ﷺ قَبِل من الْيَهُود عِنْدَمَا قال له أَحَدُهم: نِعْمَ الأُمَّةُ أُمَّتُك لَوْلَا أَنَّهُم يَعْدِلون! قال: « **كَيْفَ يَعْدِلُونَ** »؟ قال: يَقُولُون: ما شَاء الله وَشِئْت. قال: « **إِنَّهُ لَيَقُولُ قَوْلًا، قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْت** ». وقال أيضًا: نِعْمَ الأُمَّةُ أُمَّتُكَ لَوْلَا أَنَّهُمْ يُشْرِكُونَ، قَالَ: « **مَا يَقُولُونَ؟** » قال: يَقُولُون: بِحَقِّ فُلَانٍ وَحَيَاةِ فلانٍ، قال النَّبِيُّ ﷺ: « **مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلَا يَحْلِفْ إِلَّا بِاللَّهِ** »[٢]، فقد أَخَذ ﷺ الحقَّ وَإِنْ كان الذي جَاء به يَهُودِيٌّ!

---

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢٦٨٧)، وابن ماجه رقم (٤١٦٩).

(٢) أخرجه: الطبراني في « الكبير » رقم (١٠٤٦٨).

صِفَة الْفَقِيه النَّاجِحِ

وعن عَلِيٍّ رضي الله عنه قال: «إِنَّ الْفَقِيهَ حَقَّ الفَقِيه مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ فِي مَعَاصِي اللهِ، وَلَمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَلَمْ يَدَعِ الْقُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، إِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا عِلْمَ فِيهَا، وَلَا عِلْمٍ لَا فَهْمَ فِيهِ، وَلَا قِرَاءَةٍ لَا تَدَبُّرَ فِيهَا». رَوَاه الدَّارِمِيُّ[1]. [١٣٦]

فَاللَّائِق بحالِ المؤمنِ أن يكون مطلوبُه الحقَّ أَيْنَمَا وَحَيْثُمَا وَجَدَه، وَأَن يكون نَظَرُه إلى الْقَوْل لا إلى الْقَائِل.

[١٣٦] **قَوْلُه: «إِنَّ الْفَقِيه مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ»** إنَّ الْفَقِيه كُلَّ الْفَقِيه من لم يُدْخِلِ الْيَأْسَ إلى نُفُوس النَّاس من رَحْمَة الله، وهو أيضًا من «**لَم يُرَخِّصْ لَهُم في مَعَاصِي اللهِ**» بِحَيْث لا يُسَهِّل لِلنَّاس الْمُنْكَرَاتِ وَيَفْتَح لهم باب الرَّجَاء على الرَّغْم من كَثْرَة مَعَاصِيهِم وَاسْتِغْرَاقِهِم فِيهَا، فَالْفَقِيه هو الذي يَسْلُك الطَّرِيق الْوَسَط في فَتَاوِيه بِحَيْث لا يُدْخِل الْيَأْس من رَحْمَة الله إلى قُلُوب النَّاس وَنُفُوسِهِم ولا يَسْهُل لِلنَّاس ارْتِكَاب الْمَعَاصِي وَيَفْتَح لهم باب الرَّجَاء، ويُمَثِّل الطَّرَف الأَوَّلَ الْخَوَارِجُ الذين كَفَّرُوا الْمُسْلِمِين وَقَتَلُوهُم وَاسْتَحَلُّوا دِمَاءَهُم، وَيُمَثِّل الطَّرَفَ الثَّانِي الْمُرْجِئَةُ الذين يَقُولُون: الْإِيمَان في الْقَلْب وَافْعَل ما شِئْت من الْمَعَاصِي وَالسَّيِّئَاتِ.

ففي هذا الْحَدِيث الرَّدُّ على الْمُتَسَاهِلِين وَالرَّدُّ كَذَلِك على المُتشدِّدين، وَأَنَّ الْمَطْلُوب الْوَسَط وَالِاعْتِدَالُ.

---

(١) أخرجه: الدارمي رقم (٢٩٧).

وعن الْحَسَنِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ جَاءَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ لِيُحْيِيَ به الْإِسْلَامَ، فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّينَ دَرَجَةٌ وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ». رَوَاه الدَّارِمِيُّ [(١)]. [١٣٧]

وقَوْلُه: «وَلَمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ» كالمُرْجِئة الذين يَقُولُون: يَكْفِي الْإِيمَان بِالْقَلْب ولو فَعَل الْعَبْد ما فَعَل وقال ما قال من الْكُفْر وَالشِّرْكِ، فَمَا دَام الْقَلْب مُؤمنًا فَالْعَبْد من أَهْل الْجَنَّة!

وقَوْلُه: «وَلَمْ يَدَعِ الْقُرْآن رَغْبَةً عَنْهُ إلى غَيْرِه» هذا هو الْفَقِيه الذي يَعْتَمِد في أَقْوَالِه على الْقُرْآن الْكَرِيم، ولا يَعْتَمِد على الْآرَاء وَأَقْوَالِ النَّاس وعلى قَوَاعِد الْمَنْطِق وَعِلْمِ الْكَلَام، وإِنَّما يَعْتَمِد على كَلَام الله ﷻ.

وقَوْلُه: «إِنَّهُ لَا خَيْرَ في عِبَادَةٍ لَا عِلْمَ فِيهَا»؛ لأنَّ الْعِبَادَة من غير عِلْم ضَلَالٌ، وكذلك لا خَيْر في عِلْمٍ لا عِبَادَةَ مَعَه، وهي طَرِيقَة الْمَغْضُوب عَلَيْهِم.

وقَوْلُه: «وَلَا عِلْمَ لَا فَهْمَ فِيهِ، ولَا قِرَاءَةَ لَا تَدَبُّرَ فِيهَا»؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]، فَيَنْبَغِي تَفَهُّم مَعَانِي الْقُرْآن وَطَلَبُ تَفْسِيرِه، فلا تَنْفَع الْقِرَاءَة الْمُجَرَّدَةُ عن الْفَهْم وَالتَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ؛ لأنَّ الْقَصْد الْعَمَلُ بِالْقُرْآن، وهذا لا يكون إِلَّا بِفَهْم مَعَانِيه.

[١٣٧] في هذا الْأَثَر فَضْلُ طَلَب الْعِلْم، وَأَنَّ الْإِنْسَان إذا مَات وهو يَطْلُب الْعِلْم فإنَّه يَلْحَق بِالنَّبِيِّين، إلَّا أَنَّه لا يكون في دَرَجَتِهِم، لأنَّ النَّبِيِّين لا يَلْحَقُهُم أَحَدٌ في دَرَجَتِهِم وإنَّما يكون في الدَّرَجَة التي تَلِيهِم.

---

(١) أخرجه: الدارمي رقم (٣٤٥)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» رقم (٢١٩).

باب قَبْض الْعِلْم

عن أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا أَوَانٌ يُخْتَلَسُ فِيهِ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ». رَوَاه التِّرْمِذِيُّ[1]. [١٣٨]

وفي هذا فَضْلُ طَلَب الْعِلْم، وَالِاسْتِمْرَارُ عليه إلى الْمَوْت، وَعَدَمُ الِاكْتِفَاء بما تَمَّ تَحْصِيلِه وإنَّما الْمَرْغُوب فيه هو الِاسْتِمْرَار فيه حتَّى يَأْتِيه الْمَوْت؛ لأنَّ الْعِلْم ليس له نِهَايَةٌ ولا حَدٌّ، قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، ومن قال: أَنَا عَالِمٌ، فهو جَاهِلٌ، وَطَلَب الْعِلْم يَنْبَغِي أَلَّا يَنْقَطِع لأَنَّه عِبَادَةٌ.

[١٣٨] لا شَكَّ أنَّ قِيَام الدِّين وَالْحَيَاةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ إنَّما هو بِالْعِلْم النَّافِع، فَالْعِلْم النَّافِعُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ قَرِينَان، فإذا ذَهَب أَحَدُهُمَا لم يَنْفَع الآخَرُ، فإذا ذَهَب الْعِلْم لم يَنْفَع الْعَمَل؛ لأَنَّه يكون على جَهْلٍ وعلى غير هدًى وَأَصْبَح من الْبِدَع وَالْمُحْدَثَاتِ وَالضَّلَالِ، وإذا ذَهَب الْعَمَل وَبَقِيَ الْعِلْم، فإِنَّه يُصْبِح لا فَائِدَة من هذا الْعِلْم؛ لأنَّ ثَمَرَةَ الْعِلْم الْعَمَلُ.

وَاللَّه ﷻ يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، فالهدى: هو الْعِلْم النَّافِعُ، وَدِيْن الْحَقِّ: هو الْعَمَل الصَّالِحُ؛ فَالرَّسُول ﷺ جَاء بِالْأَمْرَيْن مقترنَين، لا يُغْنِي أَحَدُهُمَا عن الآخَر.

وَالنَّبِيُّ ﷺ أَخْبَر في هذا الْحَدِيثِ عن الْمُسْتَقْبَل، وهذا مما أَطْلَعَه الله عليه لِيُخْبِر به النَّاس، وإلَّا فَإِن الْغَيْب لا يَعْلَمُه إلَّا الله ﷻ،

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢٦٥٣)، والدارمي رقم (٢٨٨)، والحاكم رقم (٣٣٨).

النَّهْي عن تِلَاوَة الْقُرْآن دون تدارُسه وَالْعَمَلِ به

وعن زِيَادِ بْنِ لَبِيدٍ ﷺ قَالَ: ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا فَقَالَ: « ذَلِكَ عِنْدَ ذَهَابِ أَوَانِ الْعِلْمِ » قُلْت: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَنُقْرِئُهُ أَبْنَاءَنَا وَيُقْرِئُه أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: « ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ! إِنْ كُنْتُ لَأَرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ رَجُلٍ فِي الْمَدِينَةِ! أَوَلَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ لا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهِمَا؟! ». رَوَاه أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَه [1]. [١٣٩]

ولكنَّ الله يُطْلِعَ رُسُلَه على أَشْيَاءَ من الْغَيْب لِأَجْل تَنْبيه النَّاس وَلِلدَّلَالَة على صِدْق رِسَالَتِهِم، فهذا عَلَمٌ من أَعْلَام نُبُوَّته ﷺ؛ حيث أَخْبَر بأنَّ الْعِلْم سَيُقْبَض في آخِر الزَّمَان، وليس معنى هذا أن يَرْفَع الْعِلْم نَفْسَه بل إن كِتَاب الله تعالى يَبْقَى وَالسُّنَّة كَذَلِك تَبْقَى، وَالْكُتُب تَبْقَى أيضًا بين أَيْدِي النَّاس، ولكن يَقْبِض الْعِلْم بِمَوْت الْعُلَمَاء، لأنَّ الْعِلْم لا بُدَّ له من حَمَلَةٍ يُبَيِّنُونَه ويُوضِّحونه لِلنَّاس، فإذا قُبِض الْعُلَمَاءُ الذين يُبَيِّنُون لِلنَّاس وَيُعَلِّمُونَهُم وَيُفَقِّهُونَهُم، فَحِينَئِذ يُقبض الْعِلْمُ بِقَبْض أَهْلِه.

فَهَذَا خَبَرٌ مَعْنَاه التَّحْذِير من أن يَتَسَاهَل النَّاس في طَلَب الْعِلْم، وإنَّما يَنْبَغِي لهم الْحِرْص عليه لِأَجْل أن يَبْقَى بِبَقَاء الْعُلَمَاء وَيَسْتَمِرَّ، وأَمَّا إذا أَعْرَضُوا عنه وَتَسَاهَلُوا فيه فإنَّه حينئذٍ يُقْبَض.

[١٣٩] هذا الْحَدِيثُ يُبَيِّن أيضًا كَيْف يُقْبَض الْعِلْم، وأَنَّه يُقْبَض أولًا بِقَبْض الْعُلَمَاء، وثانيًا بتَرْك الْعَمَل، فإذا تَرَك النَّاس الْعَمل قُبِض الْعِلْمُ؛

---

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢٦٥٣)، وابن ماجه رقم (٤٠٤٨)، والحاكم رقم (٣٣٨).

لأنّ الْعِلْم إنَّما يَكْبُر وَيَزِيد وَيُبَارَكُ فيه من الْعَمَل به، وليس بِمُجَرَّد حِفْظِه دون الْعَمَل به؛ ولأنه إذا ذَهَب أَحَدُهُمَا ذَهَب الآخَر، وهذا ما وَضَّحه النَّبِيُّ ﷺ لِزِيَادٍ رضي الله عنه في هذا الْحَدِيثِ، فَإِنَّ زيادًا قال لِلنَّبِيِّ ﷺ: «**كَيْف يَذْهَبُ الْعِلْمُ وَنَحْن نَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَنُقْرِئُهُ أَبْنَاءَنَا وَيُقْرِئُهُ أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُم إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ**» فقد ظَنَّ رضي الله عنه أنَّ قِرَاءَة الْقُرْآن وتدارُسَه وَحِفْظَه يُبْقِي الْعِلْم، ولم يَكُن يَعْلَم أن الْعِلْم لا يَبْقَى إذا لم يَكُن يُرَافِقُه الْعَمَل، فَتَذْهَب بَرَكَتُه وَنُورُه وَزِيَادَتُه بِتَرْك الْعَمَل به.

ثم ضَرَب ﷺ مَثَلًا بِبَنِي إِسْرَائِيل الذين عِنْدَهُم عِلْمٌ من التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل، فيتعلَّمون ويُعلِّمون منهمَا وَلَكنَّهُم لا يَعْمَلُون بِهِمَا، فَرَحَل عنهم الْعِلْم؛ لأنَّ الْعِلْم لا يَقْتَصِر بَقَاؤُه على وَجُودِه في الذَّاكِرَة، وإنَّما بَقَاؤُه يكون من خِلَال الْعَمَل به، ولذلك هو نَزَل، وهو وَسِيلَةٌ وَالْعَمَل به غَايَةٌ، وهو الْمَطْلُوب فإذا ذَهَبْت الْغَايَة لم تَنْفَع الْوَسِيلَة.

وقوله ﷺ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّك يا زِيَادُ!**» الأَصْل في الثُّكْل أنَّه فُقْدان الْحَبِيب، وَأَكْثَر ما يُسْتَعْمَل في فُقْدان الْمَرْأَة زَوْجَهَا أو ابْنَهَا، فَالْأَصْل في معنى «**ثَكِلَتْك أُمُّك**»: فَقَدَتْكَ، وَلِكِنَّهَا تُقَال ولا يُرَاد مَعْنَاهَا الْحَقِيقِيُّ، وذلك عند التَّنْبِيه إلى أَمْرٍ كان يَنْبَغِي أن يُنتبَه له ويُعرفَ؛ ولهذا لم يَكُن الرَّسُول ﷺ يُرِيد مَعْنَاهَا الْأَصْلِيَّ، وإنَّما هو لَفْظٌ صَار يَجْرِي على اللِّسَان من غير قَصْدٍ لِمَعْنَاه.

❁ **وَيَتَبَيَّن من هذا الْحَدِيثِ أنَّ الْعِلْم يُفْقَد بِأَحد أَمْرَيْن أو بِهِمَا معًا:**

الْأَوَّل: فَقْد الْعُلَمَاء الذين يُبَيِّنُونَه ويُوضِّحونه وَيُفَسِّرُونَه لِلنَّاس، وَيُبْقَى

الْحَثُّ على طَلَب الْعِلْم قبل قَبْضِه

وعن ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِالْعِلْم قَبْلَ أَنْ يُقبَضَ، وَقَبْضُهُ ذهاب أهله، عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِي مَتَى يَفتَقِرُ إِلَيْهِ أَوْ يُفْتَقَر إِلَى مَا عِنْدَهُ، وَسَتَجِدُونَ أَقْوَامًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اَللهِ وَقَدْ نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ وَإِيَّاكُمْ وَالْبِدَعَ وَالتَّنَطُّعَ وَالتَّعَمُّقَ، وَعَلَيْكُمْ بِالْعَتِيقِ». رَوَاه الدَّارِمِيُّ بِنَحْوِه[1]. [١٤٠]

الْجُهَّالُ الذين لا يَعْرِفُون مَعَانِي الْعِلْم، فَيَتَكَلَّمُون بِجَهْل لا فَائِدَة منه، وهم أَشْبَه بِالْقُرَّاء كما جَاء في قَوْل ابْنِ مَسْعُودٍ: «**إِذَا كثُر قُرَّاؤُكم، وَقَلَّ فُقَهَاؤُكم**»[2].

الثَّانِي: فَقْد الْعَمَل به، فلا يَبْقَى لِلْعِلْم فَائِدَةٌ حِينَئِذٍ، وإِنَّما يكون لِمُجَرَّد الِاسْتِعْرَاض وَالتَّبَاهِي به وَلِأَجل الرِّيَاء وَالسُّمْعَةِ.

[١٤٠] **قَوْلُه**: «**عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ قَبْل أَنْ يُقْبَضَ**» أي: تعلَّموا من الْعُلَمَاء إذا ما وُجِدُوا بَيْنَكُم، فَاحْمِلُوا الْعِلْم عنهم؛ لأنَّ الْعِلْم إنَّما يُؤْخَذ من الْعُلَمَاء ومن أَهْلِه الْحَامِلِين له، ولا يُؤْخَذ من الْكُتُب أو من الْجُهَّال والْمُتعالمين.

وَغَيْرِ ذلك من الْأُمُور التي تُزَهِّد في عِلْم السَّلَف الذين يتهمونهم بِأَنَّهُم لم يَكُونُوا يَسْتَعْمِلُون الْعَقْل بِخِلَاف الْخَلَف الذين أخضعوا عُلُومَهُم لِلْعَقْل وَالْفِكْر، وغيرِ ذلك من الشُّبُهَات التي أثاروها، وقد رَدَّ عَلَيْهِم ابْنُ رَجَبٍ في رِسَالَتِه هذه فَأَجَاد وأَفَاد، وبيَّن فَضْلَ عِلْم السَّلَف على الْخَلَف، وفنَّد مزاعم من يقول: إنَّ عِلْم السَّلَف أَسْلَمُ وَعِلْمَ الْخَلَف

---

(١) أخرجه: الدارمي رقم (١٤٣)، والطبراني في «الكبير» رقم (٨٨٤٥).

(٢) أخرجه: الشاشي رقم (٦١٣)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٦٩٥١).

أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ، وقد كَذَبُوا في هذه، لأنَّ السَّلَامَة لا تَكُون إِلَّا مع الْعِلْم وَالْحِكْمَةِ.

وَقَد حَثَّ ﷺ على الِاقْتِدَاء بالأَقْدَمِين فقال: «**وَعَلَيكُمْ بِالْعَتِيقِ**» يعني: بِالْقَدِيم؛ لأَنَّه كُلَّمَا ارْتَفَع الزَّمَان، وَقَرُب من زَمَان رَسُول الله ﷺ ومن أَصْحَابِه ومن التَّابِعِين؛ فإنَّه يكون أَقْرَب إلى الصِّحَّة وَالثُّبُوتِ وَعَدَم وُجُود الدَّخِيل فيه، فَعِلْم السَّلَف لا شَكَّ أَنَّه هو الْعِلْمُ الصَّافِي، وأمَّا عِلْم الْخَلَف فقد دَخَلَه ما دَخَلَه، فَمِنْه ما هو صَحِيحٌ ومنه ما هو غيرُ ذلك؛ لأَنَّه بعد الْقُرُون الثَّلَاثَة الْمُفَضَّلَةِ دَخَلَت الْأَهْوَاء عند بَعْض الْمُسْلِمِين وَانْتَشَرَت الْفِرَق بِخِلَاف وَقْت الْقُرُون الْمُفَضَّلَةِ التي كان الْعِلْم فيها صافيًا لا دَخِيل فيه؛ لأَنَّهم كانوا حُرَّاسًا وَأُمَنَاءَ عليه.

فَكُلَّمَا تَقادَم الْقَوْل كان أَقْرَب إلى الصَّوَاب، هذا معنى كَلَام ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، فَحَثَّ أَوَّلًا على طَلَب الْعِلْم من أَهْلِه، وثانيًا على أَخْذ الْعِلْم الْقَدِيم؛ لأَنَّه أَقْرَب إلى الصَّوَاب وإلى عَهْد الرَّسُول ﷺ، وللإمام الْحَافِظِ ابْنِ رَجَبٍ رحمه الله رِسَالَةٌ جَيِّدَةٌ في بَيَان فَضْل عِلْم السَّلَف على عِلْم الْخَلَف؛ لأَنَّه وَجَدَ من أَهْل الضَّلَال من يُفَضِّل عِلْم الْخَلَف على عِلْم السَّلَف مُدَّعين أنَّ عِلْم الْخَلَف أَكْثَرُ فَهْمًا، وَأَنَّ السَّلَف مُجَرَّد عِبَادٍ، لأنَّ الْجِهَاد كان يَشْغَلُهُم عن الْعِلْم.

وقَوْلُه: «**وَإِيَّاكُمْ والْبِدَع وَالتَّنَطُّع وَالتَّعَمُّق**» وفي هذا نَهْيٌ عن اتِّبَاع الْأُمُور الْمُحْدَثَةِ وعن كَثْرَة التَّشقيقات وَالْجَدَلِيَّاتِ والافْتراضاتِ وَكَثْرَةِ الْكَلَام؛ لأنَّ الْعِلْم ليس بِكَثْرَة الْكَلَام وإنَّما الْعِلْم بالتَّأصيل، ولذلك كان عِلْم السَّلَف أَقَلَّ كلامًا وَأَكْثَرَ فَائِدَة، وَأَقَلَّ لفظًا وَأَكْثَر مَعْنًى.

وفي «الصَّحِيحَيْن» عن ابْنِ عُمَرَ مرفوعًا: «إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»(١). [١٤١]

ومِمَّا ذَكَرَه الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ أَنَّ السَّلَف كانوا أَقَلَّ كلامًا وَلَكَنَّهُم كانوا أَغْزَرَ عِلْمًا وَفَائِدَةً، وَالْخَلْف على الْعَكْس فَكَانُوا أَكْثَر كلامًا وَأَقَلَّ فَائِدَةً.

ومما يُفْهَم أيضًا من كَلَام ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ: دَعْوَتُه إلى تَحْصِيل الْعِلْم من أُصُولِه؛ لأَنَّه سَيَحْتَاج إِلَيْه، وسيحتاج النَّاس إلى الْعُلَمَاء، فيكون عند من حَصَّلَه أَهْلِيَّةٌ لِحَلِّ ما يَعْرِض من الْمُشْكِلَات، فمن لم يَكُن عِنْدَه أَهْلِيَّةٌ وَجَاءَتْه مُشْكِلَةٌ أو مُعضِلةٌ تَحَيَّر وَإِنِ ادَّعَى الْعِلْم وَالْمَعْرِفَةَ، بِخِلَاف أَهْل الْعِلْم الصَّحِيحِ الذين يتصدَّون للمُلِمَّات الصَّعْبَةِ، فَالْعِلْم ليس بِالدَّعْوَى، وإِنَّما هو حَقِيقَةٌ، وَلِسَان حَال ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّه يقول: عَلَيْكُم بِالِاسْتِعْدَاد من خِلَال التَّسلُّح بِالْعِلْم لأَنَّه إذا ما حَصَلَت مُشْكِلَةٌ يكون حَلُّهَا سَهْلًا، إِمَّا مُشْكِلَةٌ عَامَّةٌ وإِمَّا مُشْكِلَةٌ فَرْدِيَّةٌ.

[١٤١] بيَّن النَّبِيُّ ﷺ في هذا الْحَدِيثِ بِأَيِّ شَيْءٍ يُمْكِن أن يُقبَضَ الْعِلْمُ، ولا يعني قَبْضُ الْعِلْم رَفْعَه كُلَّه بِحَيْث لا يَبْقَى في الأَرْض الْعِلْم، وإِنَّما يَبْقَى موجودًا في الْكُتُب وَصُدُورِ الْحُفَّاظ، وإِنَّما الْمُرَاد بِقَبْض الْعِلْم هُنَا: قَبْض أَهْلِه وهم الْعُلَمَاء، فَيَتَّخِذ النَّاس رُءوسًا جُهَّالًا يَحْكُمُون بجهالاتهم فيَضِلُّون ويُضِلُّون، فإذا ذَهَب الْعُلَمَاء بعد قَبْض

(١) أخرجه: البخاري رقم (١٠٠)، ومسلم رقم (٢٦٧٣).

وعن عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُوْشِكُ أَنْ يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ، وَلَا يَبْقَى مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ، مَسَاجِدُهُمْ عَامِرَةٌ وَهِيَ خَرَابٌ مِنَ الْهُدَى، عُلَمَاؤُهَا شَرٌّ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، مِنْ عِنْدِهِمْ تَخْرُجُ الْفِتْنَةُ وَفِيْهِمْ تَعُودُ». رَوَاه الْبَيْهَقِيُّ في «شُعَب الْإِيمَان»(١). [١٤٢]

أَرْوَاحِهِم حَلَّ مَحَلَّهُم المُتعالمون الْجُهَّالُ، فَتُعْرَض عَلَيْهِم الْمُشْكِلَاتُ وَالْمَسَائِلُ فَيُفْتُون بِغَيْر عِلْم، وهذا ما سَبَق في كَلَام ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ في حثّه لِلِاسْتِعْدَاد بِالتَّسَلُّح بِالْعِلْم.

وقوله ﷺ: «فَضَلُّوا» لأَنَّهُم أَفْتَوْا بِغَيْر عِلْمٍ **«وَأَضَلُّوا»** غيرَهم، فَتَحْصُل منهم جريمتان في أَنْفُسِهِم وفي غَيْرِهِم.

فَلا تَجُوز الْفَتْوَى بِغَيْر عِلْم، ولا التَّخرُّص أو الِاعْتِمَادِ على الظَّنِّ، والله ﷻ أَنْزَل الْكِتَاب وَالسُّنَّةَ وسيأتي زَمَانٌ يُفْقَد فيه الذين يُفْتُون على ضَوْئِهِمَا، ولا يَبْقَى إِلَّا الْقُرَّاء وَالرُّءُوسُ الْجُهَّالُ في الْقَضَاء وَالْمَنَاصِبِ التي يعتلونها والتي يُظَنَّ بِسَبَبِهَا أَنَّهُم من أَهْل الْعِلْم، إِلَّا أَنَّهُم يُفْتُون بِغَير عِلْم.

وَلِهَذَا يُرْوَى عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ: «تَفَقَّهُوا قَبْلَ أن تَسُودُوا»(٢)، يعني: تَعَلَّمُوا قبل أن تَتَوَلَّوْا الْمَنَاصِب وَالْمَرَاتِبَ.

[١٤٢] **قوله ﷺ: «يُوْشِكُ أَنْ يَأْتِيَ عَلَى النَّاس زَمَانٌ»** يُوْشِك: من أَفْعَال الشُّرُوع، يعني: يقرُب أن يَأْتِي على النَّاس وَقْتٌ **«لا يَبْقَى مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ»** وهذا وَاقِعٌ في زَمَانِنَا؛ لأَنَّ الذين يَنْتَسِبُون لِلْإِسْلَام

---

(١) أخرجه: البيهقي في «الشعب» رقم (١٩٠٨).

(٢) أخرجه: الدارمي رقم (٢٥٠)، والبيهقي في «الشعب» رقم (١٦٦٩).

كَثِيرٌ، ولكنَّ الإسلامَ الصَّحِيحَ غَرِيبٌ كما قال ﷺ: «**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ**»[1].

فَالَّذِين يَدَّعُون الإسلامَ كَثِيرٌ، وَلَكَنَّهُم ليس عِنْدَهُم من الإسلام مَعْرِفَةٌ ولا بَصِيرَةٌ إِلَّا مُجَرَّدُ الِانْتِسَاب، فَكَثِيرٌ منهم يَعْبُدُون غير الله ﷻ، فَيَدْعُون الْأَوْلِيَاء والصَّالحين وَيَبْنُون الْمُشَاهَد على الْقُبُور، حتَّى جعَلُوهَا أوثانًا تُعبَد من دون الله، ومنهم من يَعْبُد الله بِالْبِدَع وَالْمُحْدَثَاتِ، وَيُتْرَك السُّنَن، فَتَرَاهُم يُقيمون الموالد والاحتفالاتِ وَيُسَمُّونَهَا بِالْمُنَاسَبَات الدِّينِيَّةِ.

ومن هَؤُلَاء من يَأْكُل الرِّبَا وَيَتَعَامَلُون بِالْقُمَار وَالْمَيْسِرِ ولا يُبَالُون بِالْحَلَال وَالْحَرَامِ، وإنَّما يجارون الْكُفَّار ولا يُحَرِّمُون ما حَرَّم الله وَرَسُولُه وهم يَدَّعُون الإسلام فيتعاملون بِغَيْر مُعَامَلَة الإسلام، ومنهم من هو ليس على الإسلام أصلًا بل هو مُشْرِكٌ وَخَارِجٌ عن الدِّيْن بِشِرْكِه، ومنهم من هو مُسْلِمٌ ولكنَّه ضَعِيف الْإِيمَان، وَعَمَلُه غير صَحِيحٍ يَقُوم على الْبِدَع وَالْمُحْدَثَاتِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يقول: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[2].

والأَدْهى من ذلك -بَعْد الشِّرْك- الذين لا يُصَلُّون ويقولون: إن الدِّيْن ليس بِالصَّلَاة، وَالْحَقِيقَة أنَّ تَرْك الصَّلَاة كُفْرٌ مُخْرِجٌ من الْمِلَّة.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (١٤٥).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (٢٦٩٧)، ومسلم رقم (١٧١٨).

ثم إِنَّنَا لو دقَّقْنا النَّظَر في كَثِيرٍ من النَّاس في عَالَمِنَا الْإِسْلَامِيِّ إِلَّا من رَحِم رَبِّي لوجدناهم من هذه الْأَصْنَافِ، فَلَم يَبْق إِذَنْ من الإسلام إِلَّا اسْمُه.

وقَوْلُه: « **وَمنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ** » على الرَّغْم من وُجود الْقُرْآن في الْمَصَاحِف، ولم يُغَيَّر منه شَيْءٌ، فهو بَاقٍ كما أُنْزِل على مُحَمَّدٍ ﷺ، فَرَسْمُه مَوْجُودٌ، ولكنَّ مَعْرِفَتَه وَالْعَمَلَ به مَفْقُودٌ.

وَلِيس الْمُرَاد من وُجود الْقُرْآن حِفْظَه أو تِلَاوَتَه أو تَجْوِيدَه، وإِنَّما الْمُرَاد تَدَبُّرُه وَالْعَمَلُ بما فيه، فإذا ذَهَب التَّدَبُّر وَالْعَمَلُ به لم يَبْق إِلَّا وُجُودُ الْمَصَاحِف، وهذا لا يُجْدِي شيئًا، كَوُجُود السِّلَاح مع الْإِنْسَان الذي لا يُحْسِن اسْتِعْمَالَه، فإذا غَدَا عليه عدُوٌّ لا يَسْتَخْدِمُه، وهذا لا يُفِيد شيئًا، وهذا يُشْبِه وُجُود الْقُرْآن عند من لا يَعْمَلُون بما فيه ولا يَفْقَهُون معانيَهُ.

وقَوْلُه: « **مَسَاجِدُهُم عَامِرَةٌ وهي خَرَابٌ من الْهُدَى** » وهذه صِفَةٌ أُخْرَى من صِفَات هَؤُلَاء النَّاس، فهم يَبْنُون الْمَسَاجِد ويُزَخْرِفونها، وَلِكنَّهَا خَالِيَةٌ من ذكر الله ولا يُدرَس فيها الْعِلْمُ، بل ليس فيها صَلَاةٌ؛ لأنَّ بَعْض الْمَسَاجِد مُغْلَقَةٌ ولا يُصَلَّى فِيهَا، فَالْمَسَاجِد خَرِبَت من الْهُدَى، وَلِكنَّهَا عَامِرَةٌ بِالْبُنْيَان، والله ﷻ يَقُول. ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨] هذه هي عِمَارَة الْمَسَاجِد.

وَقال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦- ٣٧].

هَكَذَا تَكُون الْمَسَاجِد عَامِرَةً، وَإِنْ كان عِمَارُهَا الماديُّ من أيِّ شَيْءٍ؛ لأَنَّهَا إن كانت عَامِرَةً بِالْهُدَى وَالنُّورِ وَذِكْرِ الله فهي مَعْمُورَةٌ، فقد كان مَسْجِد الرَّسُول ﷺ قائمًا على جُذُوع النَّخْل وعلى الْجَرِيد، وكان الْمَطَر إذا نَزَل يَنْزِل إلى دَاخِل الْمَسْجِد، فَيَسْجُد الرَّسُول ﷺ وَأَصْحَابُه على الطِّين، ولم يَكُن لِلْمَسْجِد أبوابٌ ولا مصابيحُ، وكانت الْكِلَاب تَدْخُل فيه، وكان- مع ذلك كُلِّه- منارةَ الدُّنْيَا، وهو الذي شَعَّ منه النُّور في الْعَالَم، وهو الذي خَرَج منه الْمُجَاهِدُون والأبطالُ، وَخَرَج منه الْعُلَمَاء وَالْأَحْبَار، فَالْعِبْرَة ليست في نَوْع الْبُنْيَان وضخامتِه، وإِنَّما الْعِبْرَة بما يَحْصُل في هذه الْمَسَاجِد من الْعِبَادَة وَالتَّعْلِيم.

وقَوْلُه: «**عُلَمَاؤُهُم شرٌّ مَنْ تَحْت أَدِيمِ السَّمَاء**» لأَنَّهُم لا يَقُولُون كَلِمَة الْحَقِّ، ويُتابعون هَوَى النَّاس، فيفتونهم بما يَصْلُح لهم ولا يُغْضِبُون الْمَسْئُولِين، ويتلمَّسون لهم الرُّخَص، بِحُجَّة التَّوْسِعَة لهم وللنَّاس، فلا يُفْتُونَهُم بِالْحَقِّ وَالْعِلْمِ الصَّحِيحِ، فهم شَرُّ مَنْ تَحْت أَدِيم السَّمَاء، وَإِنْ كانوا عُلَمَاء.

وَقَد شبَّه الله مِثْل هَؤُلَاء بِالْحَمِير وَالْكِلَاب، قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾ [الجمعة: ٥]، وَقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥- ١٧٦]، هَؤُلَاء هم شَرُّ مَنْ تَحْت أَدِيمِ السَّمَاء.

باب التَّشْدِيد في طَلَب الْعِلْم لِلْمِرَاء وَالْجِدَال

عن كَعَبِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءُ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ». رَوَاه التِّرْمِذِيُّ[(١)]. [١٤٣]

وقَوْلُه: «**مِن عِنْدِهِمْ تَخْرُج الْفِتْنَةُ وَفِيْهِم تَعُود**» لأَنَّهُم يَفْتِنُون النَّاس بِأَعْمَالِهِم وَأَقْوَالِهِم فيصْرِفونهم عن دِينِهِم، يُفْتُونهم بأنَّ الدُّعَاء لِغَيْر الله هو من الدِّيْن وهو الذي عليه الْمُسْلِمُون، وينسَون قَوْل الرَّسُول ﷺ: «**لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ والنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»[(٢)].

وقوله ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم كَانُوا يَتَّخِذُون قُبُورَ أَنْبِيَائِهِم وَصَالِحِيهِم مَسَاجِدَ، أَلَا فلا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**»[(٣)].

وَعُلَمَاء الضَّلَال أَشَدُّ خَطَرًا على الْمُسْلِمِين؛ لأنَّ النَّاس يَقْتَدُون بهم، وقد سَمِعْنَا من يقول: لو كان دُعَاء الْحَسَن والحُسَينِ وَالْبَدْوِيِّ شِرْكًا لما سَكَت الْعُلَمَاء على ذلك. فَصَار الْعَوَام وَكَثِيرٌ من النَّاس في ذِمَّة هَؤُلَاء الْعُلَمَاء الضَّالِّين.

[١٤٣] قَوْلُه: «بَاب التَّشْدِيد في طَلَب الْعِلْم لِلْمِرَاء وَالْجِدَالِ» التَّشْدِيد: يعني: التَّحْذِير من طَلَب الْعِلْم لا لِأَجْل الْعَمَل وإنَّما لِأَجْل «الْمِرَاء» وهو الشَّكُّ، فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ من الْمُتحاجِّين يَشُكُّ فِيْمَا يَقُولُه الْآخَر ويُشكِّكُه، لما في ذلك من حُبِّ الظُّهُور «وَالْجِدَال» أي: الدُّخُول

---

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢٦٥٤)، وابن ماجه رقم (٢٥٣)، والدارمي رقم (٣٧٣).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (١٢٦٥)، ومسلم رقم (٥٢٩).

(٣) أخرجه: مسلم رقم (٥٣٢).

الْجَدَل سَبَب الضَّلَال

وعن أَبِي أُمَامَةَ ﷺ مرفوعًا: « مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوْتُوا الْجَدَلَ » ثم تَلَا قَوْلَه تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزُّخرُف:٥٨]. **رَوَاه أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَه**[(١)]. **[١٤٤]**

في الْمُنَاظَرَات والْمُنَاكَفَاتِ لِإِظْهَار الْعِلْم أَمَامَ النَّاس.

فَمَن سَاءَت نِيَّتُه في طَلَب الْعِلْم صَار من أَهْل النَّار، ومن ذلك الذين يتعلَّمون الْعِلْم من أَجَل أن يُجَارُوا الْعُلَمَاء.

فَقَوْلُه: « **مَن طَلَبَ الْعِلْمَ** » أي: ليس لِوَجْه الله، وإنَّما « **لِيُجَارِي به الْعُلَمَاء** » أي: يَجْرِي مَعَهُم في الْمُنَاظَرَة وَالْجِدَال لِيُظْهِر عِلْمَه في النَّاس رِياءً وَسُمْعَةً.

« **أَوْ لِيُمَارِي بِهِ السُّفَهَاء** » أي: لَيُجَادِل به الْجُهَّال.

أو لِأَجْل أن « **يَصْرِف به وُجُوهَ النَّاس إِلَيْه** » لِيُعَظِّموه ويُقَدِّروه ويُجِلُّوه لِيَقُولُوا: هو عَالِمٌ. فإذا كان هذا هو قَصْد طَالِب الْعِلْم فإنَّه من أَهْل النَّار؛ ولهذا قال ﷺ: « **أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ** »، لأنَّ الْعِلْم لم يَنْزِل لذلك، وإنَّما نَزَل لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالْإِخْلَاصِ لِوَجْه الله وَالتَّوَاضُعِ وَنَفْعِ النَّاس.

[١٤٤] في هذا الْحَدِيثِ بَيَان أَنَّ النَّاس إذا تَرَكُوا الْعَمَل بِالْعِلْم، ولم يَعْمَلُوا بِالسُّنَّة فَإِنَّهُم يُبتَلَون بالضِّدِّ، وهو الْجَدَل الذي هو بَدَل الْعِلْم النَّافِعِ، فمن تَرَكَ سَبِيل الْهُدَى وَرَكِب سُنَن الضَّلَالَة، ولم تَمْش أَحْوَالُه

---

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٣٢٥٣)، وابن ماجه رقم (٤٨)، وأحمد رقم (٢٢١٦٤).

إِلَّا بِالْجَدَل، أي: بِالْخُصُومَة بِالْبَاطِل، لِيُرَوِّج لِلْمَذَاهِب الْكَاسِدَةِ وَالْعَقَائِدِ الْفَاسِدَةِ لا الْمُنَاظَرَة لِإِظْهَار الْحَقِّ وَاسْتِعْلَامِ ما ليس معلومًا عِنْدَه، أو تَعْلِيم غَيْرِه ما عِنْدَه، ابْتَلَاه الله بِالْجَدَل، ومن تَرَك السُّنَّة ابْتُلِي بِالْبِدْعَة وَالْمُحْدَثَاتِ عُقُوبَةً له.

فَالْوَاجِب على الْمُسْلِمِين عُمومًا وَطَلَبَةِ الْعِلْم خُصوصًا الْعَمَلُ بِالْعِلْم وَالْإِخْلَاصُ لِلَّه ﷻ، وَالْحَذَرُ من الْبِدَع وَالْمُحْدَثَاتِ، وإِلَّا فَإِنَّ الله سيُعاقِبهم فيُبَدِّلهم الجَدَلَ بَدَلَ الْعِلْمِ، وَالْجَدَل لا فَائِدَة فيه، فليس من سِمَاتِه إِلَّا الْمُغَالَطَات والمُهَاتَراتُ وَمَحَبَّةُ الْغَلَبَة وَالظُّهُورِ على الْخَصْم، فهذه عُقُوبَةٌ، وإذا تَرَكُوا السُّنَّة ابتُلُوا بِإِحْيَاء الْبِدَع وَالْمُحْدَثَاتِ كما هو وَاقِعٌ ومشاهَدٌ.

وَلَمَّا نَزَل قَوْلُه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨- ٩٩] قال الْمُشْرِكُون: أكلُّ مَنْ عُبِد دون الله في جَهَنَّم مع مَنْ عَبَدَه؟ فَنَحْن نَعْبُد الْمَلَائِكَة وَالْيَهُودُ تَعْبُد عُزَيرًا والنَّصَارَى تَعْبُد الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ! فَأَنْزَل الله قَوْلَه تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ [الزُّخرُف: ٥٨][(١)].

هُم يَعْرِفُون أَنَّ قَوْلهم هذا بَاطِلٌ، وإِنَّما قَصْدُهُم الْجِدَال، ودَفْعُ الْحَقّ فَقَط، فهم يَعْرِفُون أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولُ الله، وأَنَّه يَنْهَى عن عِبَادَتِه ولا يَرْضَى بِالشِّرْك، قال تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

---

(١) انظر: «تفسيرابن جرير الطبري» (٩/ ٩٠).

أبْغَض الرِّجَال إلى الله

وعن عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ». مُتَّفَق عليه[1]. [١٤٥]

وَقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٥٨] أي: أَصْحَاب خُصُومَةٍ يُرِيدُون التَّغَلُّب بالْبَاطِل، فهذا دَلِيلٌ على أنَّ من تَرَكَ الحقَّ فإنَّه يُبْتَلَى بِالْجَدَل، فهؤلاء لَمَّا تَرَكُوا ما جَاء به الرَّسُول ﷺ من إخْلَاص التَّوْحِيد ابْتَلَاهُم الله بِالْجَدَل، ولكنَّ الله تعالى قال بَعْدَهَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، ومِنْ أَوْلَى هَؤُلَاء عِيسَى ابْنُ مَرْيَم عليه السلام، فقد سَبَقَت له الْحُسْنَى لأَنَّه رَسُول الله، فالله جل جلاله رَدَّ عَلَيْهِم بهذا الرَّدِّ.

[١٤٥] في هذا الْحَدِيثِ النَّهْيُ عن الْجَدَل وَالْخُصُومَاتِ، وأنَّه يَنْبَغِي على الْمُسْلِم إِرَادَةُ الْحَقِّ، لا التَّغلُّب بِحُجَّتِه وَإِنْ كانت بَاطِلَةً كما هو حَال أَهْل الضَّلَال.

قوله ﷺ: «**الأَلَدُّ**» أي: شَدِيد الْخُصُومَة بِالْبَاطِل.

وقَوْله: «**الخَصِم**» أي: الْحَاذِق بِالْخُصُومَة؛ وَالْمَذْمُوم هنا الْخُصُومَة بِالْبَاطِل في رَفْع حَقٍّ أو إِثْبَات بَاطِلٍ.

وَاللَّه جل جلاله يَبْغُض الألدَّ الخصمَ؛ لأَنَّه ليس قَصْده الْحَقَّ وإنَّما حبَّ ظُهُور الْحُجَّة بِالْخُصُومَة ولو بِالْبَاطِل؛ ولأَنَّ كَثْرَة الْمُخَاصَمَة تُفْضِي غالبًا إلى ما يُذَمُّ صَاحِبُه؛ لأنَّ أَكْثَر الْمُخَاصَمَة تَكُون في بَاطِلٍ من أَحَد الطَّرَفَيْن؛ ولهذا جَاء النَّهْي عَنْهَا.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٢٣٢٥)، ومسلم رقم (٢٦٦٨).

النَّهْي عن طَلَب الْعِلْم لِلْمِرَاء وَنَحْوه

وعن أَبِي وَائِلٍ عن عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِأَرْبَعٍ دَخَلَ النَّارَ -أَوْ نَحْوَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ-: لِيُباهيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَوْ لِيَأْخُذَ بِهِ مِنَ الْأُمَرَاءِ». رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ[1]. [١٤٦]

---

[١٤٦] **قَوْلُه: «لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أو لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ»** سَبَق الْكَلَام عليها في حَدِيث كَعَبِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ في أَوَّل الْبَاب.

وَقَوْلُه: «أَو لِيَأْخُذَ بِهِ مِنَ الْأُمَرَاءِ» أَي: يَطْلُب الْعِلْمَ الشرعيَّ لِيُحَصِّل به من فُتَات الدُّنْيَا، أو لِأَجْل أن يُقَدِّرَه الْأُمَرَاء ويُعْطُوه الْمَال، فإذا كان هذا قَصْدُه فهو في النَّار؛ لأنَّ الْعِلْم عِبَادَةٌ، وَالْعِبَادَة إِنَّما يَنْبَغِي أن يُطلَب بها ثَوَابُ الْآخِرَة، لا طَمَع الدُّنْيَا.

---

(١) أخرجه: الدارمي رقم (٣٦٧).

صِفَة الْعُلَمَاء الْمُتَّقِين

وعن ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ لِقَوْمٍ سَمِعَهُمْ يَتَمَارَوْن في الدِّيْنِ: «أَمَّا عَلِمْتُمْ أَنَّ لِلَّه عِبَادًا أَسْكَتَتْهُمْ خَشْيَةُ اللهِ مِنْ غَيْرِ صَمَمٍ وَلَا بَكَمٍ، وَإِنَّهُمْ لَهُمُ الْعُلَمَاءُ والفُصَحَاءُ وَالطُّلَقَاءُ وَالنُّبَلَاءُ؛ الْعُلَمَاءُ بِأَيَّامِ اللَّهِ، غَيْرَ أَنَّهُمْ إِذَا تَذَكَّرُوا عَظَمَةَ اللهِ طَاشَتْ عُقُولُهُمْ وَانْكَسَرَتْ قُلُوبُهُمْ، وَانْقَطَعَتْ أَلْسِنَتُهُمْ، حَتَّى إِذَا اسْتَفَاقُوا مِنْ ذَلِكَ تَسَارَعُوا إِلَى اللهِ بِالْأَعْمَالِ الزَّاكِيَةِ، يَعُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ مَعَ الْمُفَرِطِيْنَ، وَإِنَّهُمْ لَأَكْيَاسٌ أَقْوِيَاءُ، وَمَعَ الضَّالِّينَ وَالْخَطَّائِيْنَ، وَإِنَّهُمْ لَأَبْرَارٌ بُرَآءُ، أَلَا إِنَّهُمْ لَا يَسْتَكْثِرُونَ لَهُ الْكَثِيرَ، وَلَا يَرْضَونَ لَهُ بِالْقَلِيلِ، وَلَا يُدِلُّونَ عَلَيْهِ بِأَعْمَالِهِمْ؛ حَيْثُمَا لَقِيتَهُمْ مُهْتَمُّونَ مُشْفِقُونَ، وَجِلُونَ خَائِفُونَ». رَوَاه أَبُو نُعَيْمٍ[1]. [١٤٧].

---

[١٤٧] هذا كَلَامٌ عَظِيمٌ من ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ يَصِف فيه الْعُلَمَاء الذين هُمْ من خَشْيَة رَبِّهِم مُشْفِقُون.

قَوْلُه: «أَسْكَتَتْهُمْ خَشْيَةُ اللهِ مِنْ غَيْرِ صَمَمٍ وَلَا بَكَمٍ»؛ لأنَّ الْعِلْم قسْمَان:

الْأَوَّل: عِلْمٌ على اللِّسَان فَقَط، وهذا يكون مع الْمُنَافِق ومع من يُرِيد الدُّنْيَا أو من يُرِيد الْجِدَال وَالْخُصُومَة، وهذا عِلْم لا يَنْفَع بل يَضُرُّ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُوْل: **«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيْمِ اللِّسَانِ»**[2].

---

(١) أخرجه: أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٢٥).

(٢) أخرجه: أحمد رقم (١٤٣).

والثَّاني: عِلْمُ الْقَلْب، وهو الْعِلْمُ النَّافِعُ، وهو الذي تُرَافِقُه الْخَشْيَة من الله ﷻ، الذي قال اللهُ تعالى فِيْه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

فإذا أُعْطِي الْإِنْسَان عِلْمَ اللِّسَان وَعِلْمَ الْقَلْب وَالْخَشْيَةَ كان عالِمًا، وأَمَّا إذا أُعْطِي عِلْمَ اللِّسَان ولم يُعْط عِلْمَ الْخَشْيَة كان خاسرًا، ولن يَنْفَعه عِلْمُه، وإنَّما يكون حُجَّةً عليه يوم الْقِيَامَة.

وَقَوْلُه: «**يَعُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ مَعَ الْمُفْرِطِيْنَ**» أي: لا يستكثرون أَعْمَالَهُم ولو كانت كَثِيرَةً، وإنَّما يستقلُّونها؛ لأنَّ حَقَّ الله أَعْظَمُ، ولا مُقَارَنَة بين أَعْمَال الْعِبَاد وبين حَقِّ الله تعالى عَلَيْهِم، فَنِعَمُه تعالى كَثِيرَةٌ ولن يُؤَدِّيَ حَقَّهَا الْعِبَادُ مَهْمَا كانت أَعْمَالُهُم كَبِيرَةً، وهو في جَانِب حَقِّ الله قَلِيلٌ؛ ولذلك فَإِنَّ من صِفَة هَؤُلَاء الْعُلَمَاء الْأَتْقِيَاءِ أَنَّهُم لا يَفْتَخِرُون بِأَعْمَالِهِم على النَّاس ولا بِعِلْمِهِم، بل يَعْتَبِرُون أَنْفُسَهُم من أَقَلِّ النَّاس عَمَلًا، وَأَدْنَاهُم مَنْزِلَةً، فلا يَتَرَفَّعُون عَلَيْهِم، وإنَّما يتواضعون لِلَّه ﷻ. وقد قال تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧- ٦١]، قالت عَائِشَةُ -رضي الله تعالى عنها- لَمَّا سَمِعْت هذه الْآيَات: يَا رَسُولَ اللهِ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أَهُو الرَّجُل يَزْنِي وَيَسْرِق وَيَشْرَب الْخَمْر؟ قَال: «**لَا يَا بْنَةَ أَبِي بَكْرٍ -أَو: يَا بْنَةَ الصِّدِّيقِ- وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَيَخَافُ أَلَّا يُقْبَلُ مِنْهُ**»(١).

---

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٣١٧٥)، وابن ماجه رقم (٤١٩٨)، وأحمد رقم (٢٥٧٠٥).

قال الْحَسَنُ -وَسَمِع قومًا يَتَجَادَلُون-: «هَؤُلَاء قَوْمٌ مَلُّوا الْعِبَادَة، وَخَفَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ، وَقلَّ وَرَعُهُمْ فَتَكَلَّمُوا»(١). [١٤٨]

[١٤٨] **قَوْلُه:** «**مَلُّوا الْعِبَادَة**» ولذلك اشْتَغَلُوا بِالْجَدَل والمُنَاقَشَاتِ فَلَمَّا تَرَكُوا الْعِبَادَة انْصَرَفُوا إلى الْجَدَل.

قَوْلُه: «**خَفَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ**» أَي: يَسْتَمِرُّون في حَلَقَات الْجِدَال ولا يَمَلُّون منه، حتَّى أَصْبَح أهونَ عَلَيْهِم من أيِّ شَيْءٍ آخَرَ، بِخِلَاف الْعِبَادَة التي يَمَلُّون منها.

وَقَوْلُه: «**وَقَلَّ وَرَعُهُم فَتَكَلَّمُوا**» بِسَبَب اشْتِغَالِهِم بِالْجَدَل وَالْكَلَام فلم يَبْق عِنْدَهُم وَرَعٌ، ولو كان عِنْدَهُم وَرَعٌ لَعَلِمُوا أنَّ الله سيُسجِّل عَلَيْهِم كَلَامَهم، قال تَعَالَى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، فلو تَذَكَّرُوا هذا لَقلَّلوا من الْكَلَام إلَّا في طَاعَتِه ﷻ.

وَيَدْخُل في هذا الأَمْرِ الذين يُصْدِرون الأَحْكَام الشَّرْعِيَّة ويُفتون النَّاس دون عِلْمٍ أو تثبُّتٍ لِقِلَّة وَرَعِهِم؛ إذ لو كان عِنْدَهُم وَرَعٌ لَمَا تَسَاهَلُوا في الْفَتْوَى وَالتَّحْلِيلِ والتَّحْرِيمِ، الذي هو من أَشَدِّ ما تَرَتَّب على قِلَّة الْوَرَع.

(١) أخرجه: أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٥٧).

التَّجوُّز في الْقَوْل وَتَرْكُ التَّكَلُّف وَالتَّنَطُّع

وعن أَبِي أُمَامَةَ ﷺ مرفوعًا: «الْحَيَاءُ وَالْعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاقِ». رَوَاه التِّرْمِذِيُّ(١)**. [١٤٩]**

---

[١٤٩] **قَوْلُه: «التَّجوُّز في الْقَوْل»** يَعْنِي: الِاخْتِصَار، وَالْمُرَاد: الْكَلَام بِقَدْر الْحَاجَة وَعَدَم الزِّيَادَة في الْكَلَام بِشَيْءٍ لا يَحْتَاج إِلَيْه؛ لأنَّ هذا يُثْقِل السَّامِع وَيَتَسَبَّب له بِالْمِلَل وَرُبَّمَا يُنسي الْمُسْتَمِعين معنى الْكَلَام الذي يَقْصِدُه الْمُتَكَلِّم، فَالْإِطَالَة في الْكَلَام تُسَبِّب في إِضَاعَة الْمَعْنَى، بِخِلَاف قِلَّة الْكَلَام وَالِاخْتِصَارِ التي يَتَّضِح فيها الْمَعْنَى.

وَلَهَذَا كان كَلَام النَّبِيِّ ﷺ مُختصرًا ووَجِيزًا وَمَعْدُودَ الْكَلِمَات، ولم يَكُن ﷺ يَتَكَلَّم لِأَكْثَر من الْحَاجَة؛ ولهذا كانت خُطَبُه وَأَحَادِيثُه ﷺ تُحْفَظ؛ لأَنَّهَا من جَوَامِع الْكَلِم كما قال ﷺ: **«أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ»**(٢).

وَقَوْلُه: «وَتَرْك التَّكَلُّف وَالتَّنَطُّع» التَّكَلُّف: هو إِظْهَار الْبَلَاغَة وَالْفَصَاحَة، وَالتَّنَطُّع: هو التَّعَمُّق وَالْغُلُوُّ في الْكَلَام وَالتَّوَسُّعُ فِيه.

وهذا حاصلٌ عند بَعْض الْمُتَحَدِّثِين وَالْخُطَبَاء في وَقْتِنَا الْحَاضِر، مع أَنَّ الْأَصْل في الْمُتَكَلِّمِين وَالْخُطَبَاءِ أن يُؤَدُّوا الْكَلَام بِأُسْلُوبٍ وَاضِحٍ وَعِبَارَاتٍ وَاضِحَةٍ، والابتعادُ عن الْعِبَارَات الْغَرِيبَةِ وَالْأَسَالِيبِ الْمُعَقَّدَةِ، لِإِرَادَة إِظْهَار الشَّخْصِيَّة وَالْفَصَاحَة، فَيَنْبَغِي اخْتِيَار الْأَلْفَاظ الْوَاضِحَةِ التي

---

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢٠٢٧)، وأحمد رقم (٢٢٣١).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (٥٢٣).

لا لَبْس فِيهَا، وَعَدَم التَّعَمُّق بِالْأَلْفَاظ الْغَامِضَةِ والغريبة بِحَيْث يصعُب على السَّامِع فَهْمُهَا، وهكذا كان النَّبِيُّ ﷺ.

قوله ﷺ: «**الْحَيَاءُ وَالْعِيُّ**» الْحَيَاء: خُلُقٌ يَمْنَع الإِنْسَان ممَّا يَسْتَحْي من قَوْلِه أو ظُهُورِه وممَّا لا يَلِيق، هذا هو الْحَيَاء الْمَحْمُودُ، وهو من الإِيمَان كما قال ﷺ: «**الإِيْمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيْمَانِ**»(١)، وَالْمَطْلُوب هو الْحَيَاء الذي يَكُفُّ صَاحِبُه عمَّا لا يَلِيق، وهو الذي يكون من الْإِيمَان. وأمَّا الْحَيَاء الذي يَمْنَع صَاحِبُه من التَّعَلُّم وَالسُّؤَالِ عمَّا يَحْتَاج إِلَيْه، ومن التَّعْلِيم والدَّعوى إلى الله ومن الأَمْر بِالْمَعْرُوف وَالنَّهْي عن الْمُنْكَر فهو حَيَاءٌ مَذْمُومٌ، وهو خَجَلٌ لا حَيَاءٌ، وهو غير مَطْلُوبٍ، والله ﷻ يَقُوْل: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فَالْحَيَاء الذي يَمْنَع من الْحَقِّ هو حَيَاءٌ مَذْمُومٌ وليس هو الْمَمْدُوح.

وَقَوْلُه: «**الْعِيُّ**» يَعْنِي: قِلَّة الْكَلَام، لا الْعَجْز عن الْكَلَام، فيكون هذا شاهدًا لِلْبَاب، فَيَنْبَغِي الِاقْتِصَار على ما يُحتاج إِلَيْه من الْكَلَام وَعَدَم الزِّيَادَة فيه شيئًا لا يَحْتَاج إِلَيْه، وهذا من الْإِيمَان أيضًا، وَإِنَّ صَاحِبَه يكون مُتَّصِفًا بِالْإِيمَان، فَإِن كان يُرِيد الْمَدْح وَالثَّنَاءَ فهو من النِّفَاق، لكن إذا كان يُرِيد بَيَان الْحَقِّ لا الْمَدْحَ وَالثَّنَاءَ فهو من الْإِيمَان؛ فقِلَّة الْكَلَام وَالِاقْتِصَارُ على ما يُحْتَاج إِلَيْه إِنَّما هو من الْإِيمَان، بِخِلَاف كَثْرَة الْكَلَام التي هي من النِّفَاق، لأنَّ الْغَالِب على صَاحِبِه حبُّ الظُّهُور وَالْمَدْحِ.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٣٥).

بَيَان فَضِيلَة حُسْن الْخُلُق

وعن أَبِي ثَعْلَبَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَسَاوِئُكُم أَخْلَاقًا؛ الثَّرْثَارُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ». رَوَاه الْبَيْهَقِيُّ في «شُعَب الْإِيمَان»(١).

وَلِلتِّرْمِذِيِّ نَحْوُه عن جَابِرٍ ﷺ(٢). [١٥٠]

وَقَوْلُه: «وَالْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ» الْبَذَاء: هو مُقَابِل الْحَيَاء، وهو من الْبَذَاءَة التي هي الْإِسَاءَة وَالْفُحْش، وهو من خِصَال الْمُنَافِقِين، قال تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

و«**الْبَيَان**»: هو كَثْرَة الْكَلَام والتَّعمُّق في النُّطْق والتَّفاصح، وَإِظْهَارُ التَّقَدُّم فيه على النَّاس وَكَأَنَّه نَوْعٌ من العُجب والكِبْرِ، ولكن سَيَأْتِي أَنَّ من الْبَيَان ما هو مَمْدُوحٌ، وهو الْبَيَان الذي يُظْهِر الحقَّ وَيُوضِّحُه لِلنَّاس، بِخِلَاف الْبَيَان الذي يَحْمِل صَاحِبَه على حُبِّ الْمِرَاء الذي هو من النِّفَاق.

فَقَوْلُه: «الْبَذَاء» يُقَابِل قَوْلَه: **«الْحَيَاء»**، **وَقَوْلُه: «الْبَيَان»** يُقَابِل **«الْعِيَّ»**؛ فَالْمُرَاد بِالْبَيَان هُنَا: كَثْرَة الْكَلَام دون فَائِدَةٍ.

[١٥٠] في أَوَّل الْحَدِيث الحَثُّ على حُسْن الْخُلُق.

وقوله ﷺ: «أَحَاسِنُكُم» جَمَع حَسَن؛ أَي: حَسَن الْخُلُق هو الذي يُحِبُّه الرَّسُول ﷺ، ويكون مَنْزِلُه يوم الْقِيَامَة قريبًا من مَنْزِل الرَّسُول ﷺ.

---

(١) أخرجه: أحمد رقم (١٧٧٤٣)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٤٩٦٩).

(٢) أخرجه: الترمذي رقم (٢٠١٨).

وَحُسْن الْخُلُق مِيزَةٌ عَظِيمَةٌ امْتَنَّ الله بها على من يَشَاء من عِبَادِه؛ ولهذا مَدَح اللهُ تعالى نَبيَّه ﷺ فقَال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القَلَم: ٤].

وَقال تَعالَى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٥٩]، وقد كان ﷺ حَسَنَ الْخُلُق وأكملَ النَّاس خُلُقًا، وهو يُحِبُّ مَحَاسِن الْأَخْلَاق.

ففي هذا الْحَثُّ على حُسْن الْخُلُق وَبيَان فَضِيلَة صَاحِبه، وهو صِفَة أَنْبِيَاء الله تعالى وَأَوْلِيَائِه، وهو نِعْمَةٌ من الله يُعْطِيهَا لِمَن يَشَاء؛ ولهذا يَنْبَغِي لِلْعَبْد أن يُحَسِّن أَخْلَاقَه وَيُرَبِّيَ نَفْسَه على ذلك وَيُعَوِّدَهَا على حُسْن الْخُلُق، وَإِنْ كان أَصْل حُسْن الْخُلُق من الله تَعَالَى، وعلى الْعَبْد أنْ يَتَسَبَّب في هذا فيتواضع وَيَبْذُل الْمَعْرُوف وَأَن يُخَالِط النَّاس بِالْجَمِيل والبِشْرِ.

وَقَوْلُه: « **وَأَبْغَضَكُم إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَسَاوِئُكُمْ أَخْلَاقًا** » أَي: إن أَصْحَاب الْأَخْلَاق السَّيِّئَة هم أَبْغَضُهُم إِلَيْه ﷺ في الدُّنْيَا وَأَبْعَدُهُم عنه يوم الْقِيَامَة، وهم « **الثَّرْثَارُون** » وهم الذين يُكْثِرُون الْكَلَام تكَلُّفًا وخروجًا عن الْحَقِّ، « **الْمُتَشَدِّقُون** » وهم الْمُتوسِّعون في الْكَلَام من غير احْتِرَازٍ وَاحْتِيَاطٍ.

ومما يُرْوَى عن عَلَيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قَوْلُه:

وزِنِ الْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ وَلَاتَكُنْ ... ثَرْثَارَةً فِي كُلِّ نَادٍ تَخْطُبُ
وَاحْفَظْ لِسَانَكَ وَاحْتَرِزْ مِنْ لَفْظِهِ ... فَالْمَرْءُ يُسْلِمُ بِاللِّسَان ويَعْطَبُ

وَالْمُتَشَدِّق في الْأَصْل: هو الذي يَمْلَأ شِدْقَهُ وَفَمَه تعاظمًا وإعجابًا بِنَفْسِه.

ذَمُّ المدَّاحين غيرَهم بما ليس فِيهِم

وعن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ كَمَا تَأْكُلُ الْبَقَرُ بِأَلْسِنَتِهَا». رَوَاه أَحْمَدُ وأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ[1]. [١٥١]

وكذلك «**الْمُتَفَيْهِقُونَ**» هم الذين يَتَوَسَّعُون في الْكَلَام ويفتحون به أَفْوَاهَهُم تكبُّرًا، وهي صِفَاتٌ ذَمِيمَةٌ.

وَالشَّاهِد في الْحَدِيث آخِرُه في قَوْلِه ﷺ: «**الثَّرْثَارُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ**».

[١٥١] في هذا الْحَدِيث ذَمٌّ لِلَّذِين يَمْدَحُون النَّاس بما ليس فِيهِم من أَجْل الْحُصُول على عَطَائِهِم، فَيَأْكُل بِلِسَانِه، فَيَسْتَعْمِل لِسَانَه لِأَجْل الْأَكْل، فهو يَمْدَح النَّاس وَيُكْثِر الثَّنَاء عَلَيْهِم لِأَجْل هذا لاسِيَّما الْأُمَرَاء وَالْمُلُوك، فهذه صِفَةٌ ذَمِيمَةٌ، لأَنَّ طَلَب الرِّزْق لا يكون بِهَذِه الطَّرِيقَة، وإِنَّما يكون بِالطَّرِيقَةِ الْمَشْرُوعَةِ وليس بِالنِّفَاق وَالتَّمَلُّقِ وَكَثْرَةِ الْمَدَائِح.

وقوله ﷺ: «**كَمَا تَأْكُل الْبَقَرُ بِأَلْسِنَتِهَا**» هذا تَمْثِيلٌ يُقصَد منه الذَّمُّ، وَوَجْه الشَّبَه بَيْنَهُمَا: أَنَّ هَؤُلَاء الْقَوْمَ يَتَّخِذُون أَلْسِنَتَهم ذَرِيعَةً إلى مَأْكَلِهِم كما تَأْخُذ الْبَقَر بِأَلْسِنَتِهَا، وَوَجْه الشَّبَه بَيْنَهُمَا أَنَّهُم لا يَهْتَدُون من الْمَأْكَل كما أَنَّ الْبَقَرَة لا تَتَمَكَّن من الِاحْتِشَاش إِلَّا بِلِسَانِهَا، وَالْآخَر أَنَّهُم لا يُمَيِّزُون بين الْحَقِّ وَالْبَاطِل وَالْحَلَالِ وَالْحَرَام كما لا تُمَيِّز الْبَقَرَة في رَعْيِها بين رَطْبٍ وَيَابِسٍ وَحُلْوٍ وَمُرٍّ، بل تَلُفُّ الْكُلَّ.

---

(١) أخرجه: أحمد رقم (١٥٩٧)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٤٩٧٧).

وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ مرفوعًا: «إِنَّ اللهَ يَبْغَضُ الْبَلِيْغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ بِلِسَانِهَا». رَوَاه التِّرْمِذِيُّ وأَبُو دَاوُدَ[1]. [١٥٢]

وفي هذا تَمْثِيل ذمٍّ لِمَن جَعَل لِسَانَه سببًا لِأَكْلِه وتكسُّبِه كما تَفْعَل الْبَقَرَة باحتشاشها الْأَكْل بِلِسَانِهَا، وَخُصَّ الْبَقَرَةُ بِالذِّكْر لأنَّ جَمِيع الْبَهَائِم تَأْخُذ النَّبَاتِ بِأَسْنَانِهَا وهي تَجْمَع بِلِسَانِهَا.

[١٥٢] وهذا الْحَدِيثُ مِثْل الذي قَبْلَه في ذَمِّ الْمُتَكَلِّف في الْكَلَام، دون تَمْيِيز بين الْحَقِّ وَالْبَاطِل وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ.

وقوله ﷺ: «**يَبْغُضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرِّجَال**» الْبَلِيغ: هو الذي يُنمِّق الْكَلَام، والمُبالِغ في فَصَاحَتِه وَبَلَاغَتِه بِالْمَدْح وَالثَّنَاءِ طَمَعًا في الْحُصُول على الْمَكَاسِب والتَّأَكُّل بِذَلِك، فهذا مَبْغُوضٌ وَمَذْمُومٌ، بِخِلَاف الْبَلَاغَة الخَلْقيَّة التي هي غيرُ مَذْمُومَةٍ.

وكما في الْحَدِيث السَّابِقِ؛ فقد شَبَّهَ ﷺ هذا الصِّنْفَ من النَّاس الذين يَتَشَدَّقون وَيَتَكَلَّفُون بِالْكَلَام وَالْفَصَاحَة بِالْحَيَوَانِ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْإِنْسَان كَرَّمَه اللهُ ولكنَّ هذا الصِّنْفَ من النَّاس لم يُكْرِم نَفْسَه فَصَار مِثْلَ الْبَقَرَة الْبَهِيمَةِ التي «**تَتَخَلَّلُ**» أَي: تَلُف الْكَلَأ بِلِسَانِهَا لفًّا، وَوَجْه الشَّبَه في ذلك إِدَارَة لِسَانِه حَوْل أَسْنَانِه وَفَمِه حَالَ التَّكَلُّم كما تَفْعَل الْبَقَرَة بِلِسَانِهَا حَالَ الْأَكْل!

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٥٠٠٥)، والترمذي رقم (٢٨٥٣)، وأحمد رقم (٦٧٥٨).

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الْكَلَامِ لِيَسْبِيَ بِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ أَوِ النَّاسِ، لَمْ يَقْبَلِ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا». رَوَاه أَبُو دَاوُدَ(١)**. [١٥٣]**

---

[١٥٣] **قوله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الْكَلَام»** يَعْنِي: تَحْسِين الْكَلَام وَتَنْمِيقِه، وما يَتَكَلَّفُه الْإِنْسَان من الزِّيَادَة فيه وَرَاء الْحَاجَة؛ ولهذا سُمِّي الْفَضْل أو الزَّائِد من النَّقْدَيْن صَرْفًا.

وَقَوْلُه: «لِيَسْبِيَ قُلُوبَ الرِّجَالِ أَوِ النَّاسِ» أَي: ليستميلهم، وفي هذا وَعِيدٌ شَدِيدٌ؛ حيث إنَّ الله يوم الْقِيَامَة لا يقْبَل منه «**صَرْفًا**» وَالصَّرْف هو الْفَرِيضَة أو التَّوْبَةُ، «**وَلَا عَدْلًا**» أَي: ولا نَافِلَةً؛ حيث لا يَقْبَل الله منه نَافِلَةً ولا فَرِيضَةً، وهذا وَعِيدٌ شَدِيدٌ بحقٍّ من يَتَعَلَّم الْبَلَاغَة وَالْخَطَابَةَ وَالشِّعْرَ من أَجْل أنْ يتأكَّل بِلِسَانِه.

وأمَّا من تَعَلَّم الْبَلَاغَة من أَجْل أن يُحْسِن الْخِطَاب فِيمَا يَنْفَع وَيُفِيد، وَاسْتِمَالَةِ قُلُوب النَّاس إلى الْخَيْر، فهذا أَمْرٌ طَيِّبٌ؛ لأنَّ حُسْنَ الْكَلَام يَسْتَمِيل النَّاس، فَإِن كانت الِاسْتِمَالَة لِأَجْل الدِّيْن فهو أَمْرٌ مَرْغُوبٌ فِيْه، بِخِلَاف استمالتهم لِأَجْل الدُّنْيَا الذي جَاء فيه الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ.

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٥٠٠٦)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٤٩٧٤).

صِفَة كَلَام الرَّسُول ﷺ

وعن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «كَانَ كَلَامُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَصْلًا يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ»[١].

وَقَالَتْ: «كَانَ يُحَدِّثُنَا حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لَأَحْصَاهُ»[٢].

وَقَالَتْ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الْحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ»[٣]. رَوَى أَبُو دَاوُدَ بَعْضَه. [١٥٤]

---

[١٥٤] **قَوْلُهَا: «فَصْلًا يَفْهَمُه كُلُّ مَنْ يَسْمَعُهُ»** أَي: كان كَلَامُه ﷺ بَيِّنًا وَاضِحًا، لِكَوْنِه مأمورًا بِالْبَلَاغِ الْمُبِينِ، وهذا كما قال تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق: ١٣]، أَي: بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فهو وَاضِحٌ ليس فيه غُمُوضٌ ولا الْتِبَاسٌ، هكذا كان كَلَام الرَّسُول ﷺ، فَلَم يَكُن يَتَكَلَّف الْأَلْفَاظَ الْغَرِيبَةَ، وإِنَّما يَخْتَار الْأَلْفَاظ التي يَفْهَمُهَا السَّامِعُون من الْعَوَامِّ وَالْمُتَعَلِّمِين، وهذا هو الْمَقْصُود إِفْهَام السَّامِعِين، بِاخْتِيَار الْأَلْفَاظ الْوَاضِحَةِ الْبَيِّنَةِ في خُطْبَة الْجُمُعَة وَالْمُحَاضَرَات وَمُحَادَثَةِ النَّاس، مع الِابْتِعَاد عن الْأَلْفَاظ التي لا يَفْهَمُهَا إِلَّا الْقَلِيل من النَّاس.

ففي هذا الْحَدِيث الْحَثُّ على اخْتِيَار الْأَلْفَاظ وَالْأَسَالِيبِ التي يَفْهَمُهَا الْمُخَاطَبُون.

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٤٨٣٩)، والترمذي رقم (٣٦٣٩). وأحمد رقم (٢٥٠٧٧).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (٣٣٧٤)، ومسلم رقم (٢٤٩٣).

(٣) أخرجه: البخاري رقم (٣٣٧٥)، ومسلم رقم (٢٤٩٣).

وَلَهَذَا قال عَلِيٌّ رضي الله عنه: «**حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!**»(١).

فَيَنْبَغِي للمُتحدِّث وَالْخَطِيبِ أن يَخْتَار الْأَلْفَاظ الْوَاضِحَةَ وَالْبَيِّنَةَ التي لا لَبْسَ فِيهَا؛ لِيَأْخُذ عنه الْمُسْتَمِع وَيَحْفَظ، وَأَن يَخْتَارَ من الْأَدِلَّة الْمُحْكَمَةِ الْوَاضِحَةِ، وَعَدَمُ الإِتْيَان بِالْأَدِلَّة الْمُتَشَابِهَة بِحَيْث تَلْتَبِس وتَشْتَبِهُ على النَّاس، وَأَن يُرَاعِي مُسْتَوَى الْحَاضِرِين إنْ كانوا عَوَامَّ فيخاطبهم بما يَفْهَمُون، وَإِنْ كانوا مُتَعَلِّمِين فيُخاطِبُهم خِطَابَ الْعُلَمَاء، وَإِنْ كانوا مُخْتَلِطِيْن من الْعُلَمَاء وَالْعَوَامِّ فيَأْتِي بِالْأَلْفَاظ وَالْأَسَالِيب التي تَصْلُح لِلْجَمِيع.

وَقَوْلُهَا: «كَان يُحَدِّثُنَا حَدِيثًا لَو عَدَّهُ الْعَادُّ لَأَحْصَاهُ» أَي: لو أَرَاد الْمُسْتَمِع عدَّ كَلِمَاتِه أو حُرُوفِه لَأَمْكَنَه ذلك بِسُهُولَةٍ، فقد كان ﷺ يُقَلِّل الْكَلَام مع جَزَالته، وهذا بِخِلَاف ما هو عليه بَعْض الْخُطَبَاء في وَقْتِنَا الْحَاضِر الذين يُبَالِغُون في إِطَالَة خُطَبهم، والتي غالبًا لا يَسْتَفِيد منها الْحَاضِرُون، بل على الْعَكْس يتذمَّرون منها ويصفونها بالمُمِلَّة.

وَقَوْلُهَا: «لَمْ يَكُنْ يَسْرُد الْحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ» أَي: لم يَكُن ﷺ يُتَابِع الْحَدِيث استعجالًا، وإنَّما كان يَتَكَلَّم بِكَلَامٍ مُتَتَابِعٍ مَفْهُومٍ وَاضِحٍ على سَبِيل التَّأَنِّي، لِئَلَّا يَلْتَبِس على الْمُسْتَمِع.

وَقَد كان من صِفَات خِطَابِه ﷺ التَّرَسُّلُ في الْكَلَام، فلا يُسْرِع بِحَيْث يفوت على السَّامِع، مع اخْتِيَار الْأَلْفَاظ الْفَصْلِ الْوَاضِحَةِ التي لا تَحْتَاج

(١) أخرجه: البخاري رقم (١٢٧).

التَّرْغِيب في قِلَّة الْكَلَام

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْعَبْدَ يُعْطَى زُهْدًا في الدُّنْيَا وَقِلَّةَ مَنطِقٍ، فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقَّى الْحِكْمَةَ». رَوَاه الْبَيْهَقِيُّ في «شُعَب الْإِيمَان»[(١)]. [١٥٥]

لِأَنْ يُسأَلَ عن مَعْنَاهَا، مع التَّمَهُّل في إِلْقَاء الْخِطَاب لِوُصُول الْفَائِدَة إلى الْمُسْتَمِعِين.

ولذلك فَإِنَّ الْخُطَب الْمَرْوِيَّةَ عن الرَّسُول ﷺ، إذا قرأها الْقَارِئ لَوَجَدَهَا لا تَتَجَاوَز النِّصْفَ صَفْحَة أو أَقَلَّ، وَلِكِنَّهَا لو شُرِحَتْ لَبَلَغت الْمُجَلَّدَاتِ؛ لأَنَّهَا من جَوَامِع الْكَلِم، فليس الشَّأْن في كَثْرَة الْكَلَام وإِنَّما في الْإِفَادَة التي تَتَأَتَّى من هذه الْخُطَب، ولو كانت قَلِيلَةً.

وَقَد عوَّد الْخُطَبَاءُ في وَقْتِنَا الْحَاضِرِ النَّاسَ على التَّطْوِيل في الْخَطَابَة، وهذا على خِلَاف ما نَرَاه من خُطَب الْقُدَمَاء - وَهْي مُدَوَّنَةٌ - التي لو رَجَعْنَا إِلَيْهَا لَوَجَدْنَا أَنَّ الطَّوِيلَة منها لا تَبْلُغ النِّصْفَ صَفْحَةً، وَمِثَال ذلك خُطَب الْمُؤَلِّف الشيخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْد الْوَهَّاب رَحِمَهُ اللهُ.

[١٥٥] وفي هذا الْحَدِيث التَّرْغِيب في قِلَّة الْكَلَام، فالذي لا يَتَعَلَّق قَلْبَه في الدُّنْيَا بِجَمْع الْمَال، وإِنَّما بِالْعَمَل الصَّالِح، فإِنَّه لا يَأْخُذ من الدُّنْيَا إِلَّا بِقَدْر ما يُعِينه على الْعَيْش؛ لأَنَّه ليس الزُّهْد في تَرْك الدُّنْيَا وإِنَّما في تَرْك ما لا يُحتاج إِلَيْه، فمن اجْتَمَعَت فيه الصِّفَتَان: الزُّهْد في

---

(١) أخرجه: ابن ماجه رقم (٤١٠١)، وأبو يعلى رقم (٦٨٠٣)، والبيهقي في «الشعب» رقم (١٠٥٢٩).

وعن بُرَيْدَةَ ﵁ قَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُوْل: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ جَهْلًا، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكَمًا، وَإِنَّ مِنَ الْقَوْلِ عِيَالًا»(1). **[١٥٦]**

الدُّنْيَا مع قِلَّة الْكَلَام فَارْغَبُوا فيه وفي مُجَالَسَتِه؛ لأَنَّه «يُلَقَّى الْحِكْمَةَ» مِنْ قِبَل الله ﷻ.

فَقوله ﷺ: «**يُعْطَى زُهْدًا**» أَي: من الله ﷻ «**فِي الدُّنْيَا**» أَي: استصغارًا لِشَأْنِهَا وَأَهْلِهَا.

وَقَوْلُه: «**وَقِلَّةَ مَنْطِقٍ**» أَي: قَلِيلٌ من الْكَلَام في غير طَاعَة إِلَّا بِقَدْر الْحَاجَة.

وَقَوْلُه: «**فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ فإِنَّه يُلَقَّى الْحِكْمَةَ**» أَي: فَارْغَبُوا فيه والْزِمُوهُ، لأَنَّه لم يُحْرَم الْإِصَابَةَ في الْقَوْل، ولا رُؤْيَةَ الْأَشْيَاء في غير مَوْضِعِهَا، وإِنَّما يَضَع الْأَشْيَاء كما هِي، فإِنَّه يَنْظُر بِنُور اللَّه، ومن كان هذا وصْفُه أَصَاب في مَنْطِقِه؛ وَالْحِكْمَة هِي: الْفِقْه في أُمُور الدِّيْن والدُّنْيا، قال تَعالَى: ﴿**يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ [الْبَقَرَة: ٢٦٩]، وَتُطْلَق الْحِكْمَةُ وَيُرَاد بها وَضعُ الشَّيْء في مَوْضِعِه، وَتُطْلَق وَيُرَاد بها: الْفِقْه في الدِّيْن، قال تَعالَى: ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ**﴾ [الجمعة: ٢]، قِيْل: الْحِكْمَة هي السُّنَّة. وَقِيل: الْحِكْمَة هي الْفِقْه في الدِّيْن. ولا تعارُضَ بيْن الْمَعْنَيَيْن؛ لأنَّ السُّنَّة هي الْفِقْه في الدِّيْن.

[١٥٦] **قوله** ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا**» «**الْبَيَان**»: هو الْبَلَاغَة وَالْفَصَاحَة في الْقَوْل، وَالسِّحْر في الْأَصْل: الصَّرْف، وَسُمِّيَ السِّحْر سِحرًا لأَنَّه يَصْرِف قُلُوب الْحَاضِرِين وَيَجْذِب الْأَسْمَاع وَيُغَيِّر الْأَشْيَاء،

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٥٠١٢)، والقضاعي رقم (٩٦١).

فالبليغ يَسْتَطِيع أن يُصَوِّر الْحَقَّ باطلًا وَالْبَاطِل حقًّا بِبَلَاغَتِه، وكذلك السِّحر يُغَيِّر الْحَقَائِق، وَالْبَلَاغَة نَوْع من السِّحر من خِلَال تَغْيِير الْحَقَائِق بِتَمْوِيه اللَّفْظ عن تدبُّر الْمَعْنَى؛ ولذلك سُمِّي سِحرًا، وهو سِحر كَلَامي يَسْحَر النَّاس ويستميلهم، ولهذا يقول الشَّاعِر:

فِيْ زُخْرُفِ القَوْلِ تَزْيِينٌ لِبَاطِلِهِ ... وَالحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيْهِ سُوْءُ تَعْبِيْرِ
تَقُوْلُ هَذَاْ مُجَاْجُ النَحْلِ تَمْدَحُهُ ... وَإِنْ تَعِبْ قُلْتَ ذَاْ قَيْءُ الزَنَاْبِيْرِ
مَدْحَاً وَذَمَّاً وَمَاْ جَاْوَزْتَ وَصْفَهُمَاْ ... سِحْرُ البَيَاْنِ يُرِيْ الظَلْمَاءَ كَالنُوْرِ

فالبليغ يَسْتَطِيع أن يغيِّر الْأَشْيَاء عن حَقَائِقِهَا بِبَلَاغَتِه، هذا معنى «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا**». وقد قال بَعْض الْعُلَمَاء: إن هذا من باب الذَّمّ للبلاغة. ويكون الْمَقْصُود من هذا مَنَع النَّاس من الْإِعْجَاب وَالِاغْتِرَار بِأَصْحَاب الْبَلَاغَة.

ففي هذا الْحَدِيث الحثُّ على أن يكون الِاهْتِمَام وَالْإِعْجَاب وَالِاسْتِقْبَاح إلى جَانِب الْمَعْنَى.

وَالْبَعْض الآخر يَقُوْل: هذا من الْمَدْح للبلاغة.

وَالصَّوَاب: أن الْبَلَاغَة لا تُمدَح ولا تَذُمّ لِذَاتِهَا، وإنَّما تُمدح أو تُذَم لما تُسْتَعْمَل فِيْه، فَإِن استُعمِلت لِبَيَان الْحَقّ فهذا مَحْمُود، وَإِن استُعمِلت لِنُصْرَة الْبَاطِل فهذا مَذْمُوم.

ولذلك كان من الْخُطَبَاء وَالشُّعَرَاء من اتَّخَذَهُم الرَّسُول ﷺ، فقد اتَّخَذ من الْخُطَبَاء من يَخْطُب عند الْوُفُود، وَاتَّخَذ من الشُّعَرَاء كَحَسَّان بن ثَابِت وَكَعْب بن مَالِك وَكَعْب بن زُهَيْر وَعَبد الله بن رَوَاحَة، فقد اتَّخَذ من شِعْرِهِم نُصْرَة لِلدَّعْوَة.

وَقَوْله: « وَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ جَهْلًا » لِكَوْنِه مذمومًا، وَالْجَهْل به خَيْر منه؛ وَالْمُرَاد من الْعُلُوم ما لا يَحْتَاج إِلَيْه فَيَشْتَغِل به عن تَعَلُّم ما يَحْتَاجُه في دِينِه، ويكون فِيمَا إذا دَخَل الْعَالِم فِيمَا لم يَبْلُغْه عِلْمُه فإنَّه يَنْقَلِب إلى جَهل، فعلى الْعَالِم أن يَتَوَقَّف عند عِلْمِه ولا يَتَكَلَّف ما لا يَعْلَمُه، فَإِن تَكَلَّف ما لا يَعْلَمُه صَار جهلًا.

وَقَوْله: « وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكَمًا » الشِّعْر مَعْرُوف أَنَّه من أَنْوَاع الْكَلَام، على اعْتِبَار أن الْكَلَام يَنْقَسِم إلى قسمين: نَثْرٌ، وَشِعْرٌ؛ وَالشِّعْر إن اسْتُعْمِل في نُصْرَة الْحَقِّ فهو مَحْمُود: كَالدَّعْوَة إلى الله، وَالرَّد على الْبَاطِل، كَشِعْر حَسَّان بن ثَابِت ﷺ، وأما الذي يَستعمل شِعْرَه في الْبَاطِل والمُجون وَالْغَزْل وَالْعِشْق، أولِمَدْح الْخَمْر وَالْمَعَاصِي فهو مَذْمُوم، فَالشِّعْر منه ما هو مَمْدُوح وفيه حِكْمَة؛ ولذلك نَجد بَعْض الشُّعَرَاء يَنْطِق بِالْحِكْمَة في شِعْره: كَالْمُتَنَبِّي، وَكَعْب بن زُهير، وزُهَير بن أَبِي سُلْمَى.

فَالشِّعْر كغيره من الْكَلَام مَحْمُود وَمَذْمُوم، وَالشِّعْر هو دِيوَان الْعَرَب، تُؤْخَذ اللُّغَة منه، وخصوصًا شِعْر الْجَاهِلِيَّة وَصَدْر الإسلام، فَتُؤْخَذ الشَّوَاهِد منه على أنَّه حُجَّة في اللُّغَة الْعَرَبِيَّة، وَتُؤْخَذ منه الْحِكَم وَالْأَمْثَال وَالْمَوَاعِظ، فلا يُزْهَد فيه كُلِّه ولا يُحْمَد كُلُّه.

وَقَوْله: « وَإِنَّ مِنَ الْقَوْلِ عِيَالًا »: العايل: هو الذي يَمْشِي على غير طَرِيق، كالضالِّ وَالضَّائِع، وهو خِطَاب من لا يُصْغِي لَك، وعَرْضُكَ حديثَكَ على من لا يُرِيدُه وليس من شَأْنِه، فَيَنْبَغِي عَدَم خِطَاب من لا يُصْغِي إِلَيْك؛ لأَنَّه من الْعِيَال، أَي: مِن الضَّيَاع.

وعن عَمْرو بن الْعَاص ﷺ أَنَّه قال يومًا - وقام رَجُل فَأَكْثَر الْقَوْل -، فقال عَمْرو: لو قَصْدَ فِي قَولِه لَكَان خيرًا لَه، سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُوْل: «لَقَدْ رَأَيْتُ -أَو: أُمِرْتُ - أَنْ أَتَجَوَّزَ في الْقَوْلِ، فَإِن الْجَوَاز هَوَ خَيْر». رَوَاهُمَا أَبُو دَاوُد (١).

آخِره وَالْحَمْد لِلَّه رَبّ الْعَالَمِين حمدًا كثيرًا. [١٥٧]

---

[١٥٧] في هذا الْحَدِيث أَنَّه تَكَلَّم رَجُل عند عَمْرو بن الْعَاص ﷺ، وكان أميرًا على مِصْر في زَمَن عُمَر بن الْخَطَّاب ﷺ، فَأَكْثَر الرَّجُل الذي تَكَلَّم الْقَوْل، فانتقده عَمْرو ﷺ، فَقَال: لو قَصَد في قَوْلَه - وَذَكَر الْحَدِيث عن رَسُول الله ﷺ -.

قَوله ﷺ: «**لَقَد رَأَيْت -أَو: أُمِرْت- أن أتجوَّز في الْقَوْل**»: أَي: عَلِمْت -أَو أُمِرْت- شَكٌّ من الرَّاوِي، «**أَن أَتَجوَّزَ في الْقَوْل**» أَي: أَخْتَصِر فيه وأخفف عن السَّامِع، وهذا من صِفَة كَلَام الرَّسُول ﷺ كما سَبَق بَيَان ذلك.

وَقَوْله: «**فَإِنَّ التجوُّز فيه خَيْر**» وهو الِاقْتِصَار على قَدَر الْكِفَايَة؛ لأَنَّه يَحْصُل فيه الْمَقْصُود دون تَكَلُّف وَدون إتْعَاب لِلسَّامِع.

وقوله ﷺ: «**فِيْه خَيْر**»: دَلِيل على أن عَدَم التجوُّز فيه شَرٌّ، وَأَن أَمْره يَؤول إلى أُمُور مَذْمُومَة، وفيه خَلط لِلْمَعْنَى الْمُرَاد، فهذا الِاخْتِصَار من أَعْظَم آدَاب الْكَلَام، فعلى الْمَرْء أَلَا يَتَكَلَّم إِلَّا بِقَدْر الْحَاجَة، ولا يَتَكَلَّم إِلَّا إذا كان لِلْكَلَام مُنَاسَبَة، وألا يكون «**مَن الْقَوْل عيالًا**» كما في الْحَدِيث السَّابِق، فَيَضِيع الْكَلَام ولا يُسْتَفَاد منه.

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٥٠٠٨)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٤٩٧٥).

وَأَكْثَر من يُطالَب بذلك الذين يَتَحَدَّثُون على الْمَنَابِر وفي الندوات وفي الدُّرُوس، فَيَنْبَغِي اقْتِصَارهِم في الْكَلَام بِقَدْر ما يُفِيد السَّامِعِين ويتناسب مع مستواهم.

انْتَهَى شَرْحُنَا على كتاب «أُصُول الْإِيمَان»، وَالْحَمْد لِلَّه الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصَّالِحَات.



فهرس الموضوعات

